أُمبَرْتو إيكو Umberto Eco

@ketab_n
Follow Me
21.2.2016

اسم الوردة

Il nome della rosa

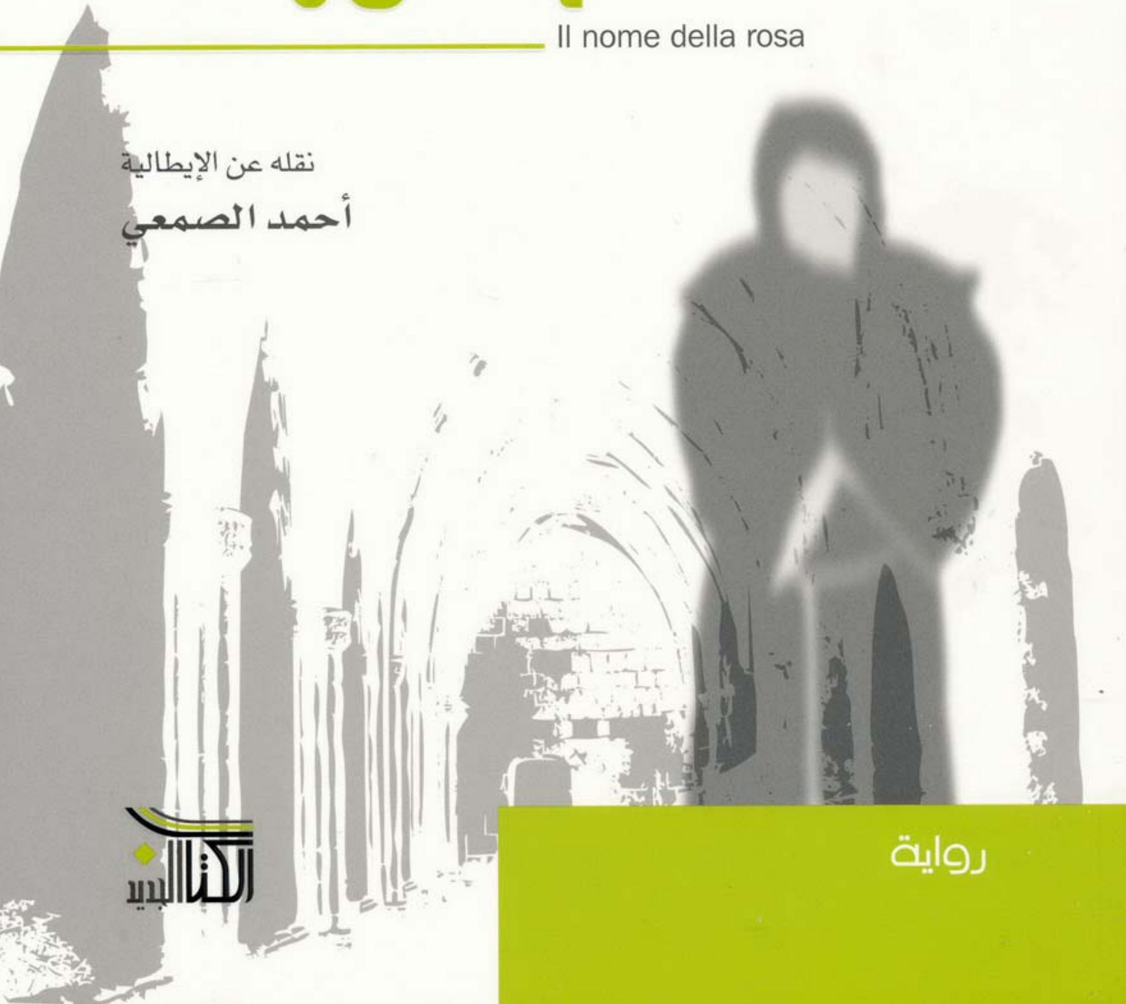

نقله عن الإيطالية

أحمد الصمعي

الكتاب الجديد

رواية

أُمبَرْتو إيكو

اسم الوردة

ترجمة وتقديم
أحمد الصّمعي

دار الكتاب الجديد المتحدة

Twitter: @ketab_n

اسم الوردة

اسم الوردة

Twitter: @ketab_n

Original Title:
IL NOME DELLA ROSA
by **Umberto Eco**
Copyright © **Gruppo Editoriale Fabbri - Bompiani, Milano, 1980**

جميع الحقوق محفوظة للناشر بالتعاقد مع دار بومبياني - ميلانو

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الإيطالية 1980

© دار الكتاب الجديد المتحدة 2013

الطبعة الأولى
كانون الثاني/يناير 2013

اسم الوردة
ترجمة وتقديم أحمد الصمعي
موضوع الكتاب رواية
الحجم 16 × 23 سم
تصميم الغلاف دار الكتاب الجديد المتحدة
التجليد برش مع ردّه

ISBN 978-9959-29-480-7
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)
رقم الإيداع المحلي 2008/799

دار الكتاب الجديد المتحدة
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 89 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة للدار، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

توزيع حصري في العالم ما عدا ليبيا دار المدار الإسلامي
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس
هاتف 04 03 75 1 961 +/بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb

توزيع داخل ليبيا شركة دار أويا لاستيراد الكتب والمراجع العلمية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ ليبيا
هاتف وفاكس 013 07 34 21 218 + **نقّال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني oeabooks@yahoo.com

Twitter: @ketab_n

مقدّمة

اسم الوردة (1980) هي الأولى من ستّ روايات ألّفها إيكو خلال العشرينيّة الأخيرة من القرن الماضي وهي **بندول فوكو** (1988)، **جزيرة اليوم السابق**[1] (1994)، **باودولينو**[2] (2000)، والرواية المصوّرة **الشعلة الخفيّة للملكة لوانا** (2004)، وأخيراً **مقبرة براغ** (2010). وهي على اختلاف مضامينها متشابهة في ضخامة حجمها وتشعّب مسالكها وموسوعيّة معارفها. جميعها «عوالم» متكاملة شيّدها المؤلّف، بدقّة المهندس الخبير، في أدقّ تفاصيلها، وأثّثها بما يجعل منها أكواناً متناسقة العناصر، متعدّدة الألوان. وقد شاء إيكو في غالب الأحيان أن يعود إلى أحقاب زمنيّة بعيدة، فجعل أحداث **اسم الوردة** تدور في أواخر القرون الوسطى، في الفترة التي بدأت تظهر فيها علامات التحوّل المؤذنة بعصر النهضة، ووضع أحداث **جزيرة اليوم السّابق** في القرن السّابع عشر، زمن سباق القوى الأوروبيّة للسيطرة على الأراضي الجديدة من خلال تحكّمها في تقنيات الإبحار وفي طُرق التوجّه عبر المحيطات وتحديد مواقع اليابسة. أما **باودولينو** فيعود بنا إلى زمن فريدريك برباروس والحروب الصليبيّة وبيزنطة. وحتّى **بندول فوكو** و **الشعلة الخفيّة للملكة لوانا**، مع كونهما يعتمدان على شخصيّات ووقائع معاصرة، فإنّ الماضي يعود في الأولى من خلال تاريخ فرسان الهيكل والجمعيّات السريّة التي تخطّط لبسط نفوذها على العالم، وفي الثانية من خلال إعادة تركيب الحاضر واسترجاع الذاكرة بالرّجوع إلى قراءات الماضي. والتاريخ (أو الماضي) يعود بقوّة في رواية إيكو الأخيرة **مقبرة براغ** (2010) التي تدور وقائعها بين منتصف القرن التاسع عشر (زمن الوحدة الإيطالية) وبداية العشرين، في أوساط الجَوْسَسة

---

(1) U. Eco, *L'isola del giorno prima*, Bompiani, Milano, 1994، [**جزيرة اليوم السّابق**، ترجمة أحمد الصّمعي، دار أويا للنشر، طرابلس ـ ليبيا، 2000، ص533].

(2) U.Eco, *Baudolino*, Bompiani, Milano, 2000 [**باودولينو**، ترجمة نجلا حمّود وبسّام حجّار، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، 2003، ص607].

Twitter: @ketab_n

السياسية والجمعيات السرية، وفي مدن أوروبية مثل تورينو وبلارمو وباريس، حيث تُدبّر المؤامرات، وتُدلّس الوثائق والنصوص، وتُرتكب الجرائم، في متاهة من الأحداث والشخصيات كلها تاريخية وحقيقية، ما عدا بطل الرواية فهو مُخْتَلَق ولكنه يُذكرنا بكثيرين أمثاله عاشوا سابقاً، أو ربما لا يزالوا بيننا.

هذا الرّجوع إلى أحداث الماضي، سواء كان قريباً أم بعيداً، يمثّل حيلة سرديّة استنبطها إيكو للحديث عن مسائل عديدة متصلة بالحاضر دون الظهور بمظهر المدرّس المضجر أو الواعظ الثقيل. من خلال تسلّيه بالكتابة يسلّينا[3] وفي الآن نفسه يجعلنا نفكّر ونتساءل إن كان يريد حقيقة أن يحدّثنا عن القرون الوسطى أم أنّ الرواية، عند فكّ رموزها، تطرح في الواقع قضايا الحاضر، وإن كانت في الظاهر تتحدّث عن أدسو دا مالك أو عن روبارتو أو عن باودولينو، فهي في نهاية الأمر تتحدّث عنّا: «de te fabula narratur».

ومن ناحية أخرى، يندرج هذا الرجوع إلى التاريخ الماضي، لزيارته من جديد ولتوظيفه في الكتابة الأدبيّة، في إطار حركة ما بعد الحداثة وكردّ فعل إزاء موجة الواقعيّة أو "بحر الموضوعيّة"[4]، الذي غمر الكتابة الأدبيّة بعد الحرب العالميّة الثانية وأثناء الخمسينيات. كان لا بدّ من التحرّر من قيود الواقعيّة بعد أن أدّت مهمّتها في إدانة الفاشية والنازية والحرب وغيرها من القضايا السياسية والاجتماعيّة، وتجديد النظر في وظيفة الأدب والمثقّف وفي طُرق الكتابة الروائيّة. وقد كانت رواية تومازي دي لامبيدوزا، **الفهد**[5]، إيذاناً بالتحوّل نحو أغراض جديدة تجعل من التاريخ رسالة محمّلة بالتلميحات المشفّرة. وإن كان لكلّ جيل ما بعد حداثته، فإن جيل إيكو صنع ما بعد الحداثة من خلال السرديّة الواصفة والتحاور النصّي

(3) انظر U.Eco, Postille a «*Il nome della rosa*», 1983 [**تأمّلات في اسم الوردة**] حيث يقول: "أردتُ للقارئ أن يمتّع نفسه على الأقلّ بقدر ما كنتُ أمتّع نفسي"، في طبعة بومبياني، 1983، ص525. سيأتي ذكر المرجع بعبارة "تأمّلات..." متبوعاً بالصفحة.

(4) العبارة لإيطلو كلفينو وهي عنوان أحد أعماله النقديّة بخصوص تيّار الواقعيّة: Italo, Calvino, *Il mare dell'oggettività*، 1960.

(5) Giuseppe Tomasi di Lampedusa, *Il Gattopardo*, Feltrinelli, Milano, 1958 [**الفهد**، ترجمة عيسى الناعوري، دار عويدات للنشر، بيروت، 1973، ص360.

Twitter: @ketab_n

والسخرية التّناصية وتعدّد مستويات القراءة[6]، إضافة إلى استزارة الماضي وخلق عوالم موازية أو مُختلفة مع شحنة قويّة من السخرية: «يتمثّل ردّ ما بعد الحداثة على الحداثة في الاعتراف بأنّ الماضي، ما دام لا يُمكن تدميره واقعيًا، لأنّ تدميره يُفضي إلى الصّمت، يجب أن يُستزَار من جديد، ولكن بشيء من السخرية، ودون براءة»[7]. والحقبة التاريخيّة التي يعود إليها إيكو في روايتيْن من رواياته الستّ، **اسم الوردة** و **باودولينو**، هي القرون الوسطى، وإن كان ذلك بطريقتيْن مُختلفتيْن.

هذا الشّغف بالقرون الوسطى واضح من خلال اعترافات المؤلّف في عدّة مناسبات ويتماشى مع تكوين إيكو الفلسفي والثقافي. يقول في **الملحق لاسم الوردة**: «كنتُ قروسطيّاً في حالة سبات»، ويضيف: «بقيت القرون الوسطى هوايتي وإغراءً دائماً بالنسبة إليّ: كنتُ أرى تلك الحقبة أينما وجّهت نظري»[8]. ولكنّه في هذه العودة إلى القرون الوسطى كان يحتاج إلى قناع يختفي وراءه حتّى يُمكنه أن يتحدّث كما يتحدّث إخباريّ من تلك الحقبة فجعل أدسو دا مالك لسانَه الناطق في **اسم الوردة**، وجعل من باودولينو مثال المختلق للأوهام والأساطير (وليس الرّاوي في نهاية الأمر إلاّ مختلقاً للأوهام). كان إيكو يعرف جيّداً القرون الوسطى، من خلال دراساته السابقة في جماليّات القرون الوسطى وفي شروح **سفر الرؤيا**، ولعلّه كان يريد مواصلة الحديث عن هذه الحقبة من خلال الخطاب السّردي، لأنّه يُمكّنه بواسطة استعمال «قناع» الراوي، سواء كان أدسو أو باودولينو، من زيارة تلك المواقع المأهولة بالعجائب والمخلوقات الغريبة والوحوش الفظيعة التي كانت تملأ مخيّلة ذلك العصر والتي لا تجد لها من موضع إلاّ في رواية أو في كتاب مصوّر[9].

(6) إيكو، **السخرية التناصية ومستويات القراءة**، في إيكو، **حول الأدب**، بومبياني، ميلانو، 2003، ص227.

(7) إيكو، **تأمّلات...**، ص529.

(8) نفسه، ص512.

(9) نجد بالفعل كثيراً من المخلوقات الغريبة والوحوش الفظيعة في الكتاب المصوّر **تاريخ القبح** الذي أشرف إيكو على تأليفه. انظر: *Storia della bruttezza*, a cura di U.Eco, Bompiani, Milano, 2007.

Twitter: @ketab_n

ولكنّنا سنرى بخصوص **اسم الوردة**، أنّ هذه العودة إلى الماضي ليست من قبيل الحنين وليست زيارة بريئة.

قبل هذا نتساءل عن علاقة إيكو بالكتابة الروائيّة، ولا يسعنا إلاّ أن نعود إلى أقواله المنتشرة هنا وهناك في حوارات مع الصحافة أو في الملحق لاسم الوردة **تأمّلات**. . أو في محاضرات مُختلفة، مع شيء من الحذر مع كاتب مثل إيكو يستعمل غالباً السخرية خصوصاً في الحديث عن نفسه. يقول في إحدى مداخلاته «إنّني، باعتباري مؤلّف أعمال سرديّة، أمثّل حالة غير عاديّة. بدأتُ كتابة قصص وروايات بين سنّ الثامنة وسنّ الخامسة عشرة، ثمّ تركتُ ذلك، ولم أعد إلى الكتابة إلاّ عندما ناهزت الخمسين»[10]. وبالفعل، عند صدور رواية **اسم الوردة** سنة 1980 كان إيكو في الثامنة والأربعين من عمره، وهي سنّ متأخّرة نسبيًا لمن يبدأ مساراً فنيًا في كتابة الرواية، ولكن ما يجعل وضعية إيكو فريدة هو حضوره على الساحة الفكريّة العالميّة كفيلسوف لغة وسيميائي ورجل إعلام ومفكّر في شتّى مظاهر الحداثة وما بعد الحداثة؛ ألّف كتباً في قراءة العمل الفنّي جعلته مرجعاً لا محيد عنه في كلّ ما يتعلّق بالعمل الفنّي بصفة عامّة والأدبي بصفة خاصّة وطرق وكيفيّات تلقّيه من طرف الجمهور. ونكتفي هنا بالإشارة إلى أبرز أعماله النظرية التي سبقت **اسم الوردة**، مثل **العمل المفتوح** (1962)، **دراسة في السيميائية العامّة** (1975)، **القارئ في الحكاية** (1979)[11]. وقد بيّن في هذه المؤلّفات نظريّاته في العمل الفني باعتباره «مفتوحاً» لقراءات متعدّدة وبالاعتماد على مفاتيح تأويليّة مُختلفة، وفي العلامة باعتبارها الأداة التي تمكّننا من فهم العالم المحيط بنا ومن التعبير عنه بصور متعدّدة، وفي علاقة القارئ بالنصّ السرديّ باعتباره رحلة تتطلّب منه مجهوداً تأويليًا ومعرفة موسوعيّة وذوقاً فنيًا حتّى تحصل له «المتعة» التي يعدُ بها كلّ عمل فنّي مستهلكَه.

---

(10) إيكو، **كيف أكتبُ**، في إيكو، **حول الأدب**، بومبياني، ميلانو، 2003، ص324.

(11) في ترجمة أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، 1996، ص228.

Twitter: @ketab_n

لماذا هذه العودة إلى الكتابة السرديّة في سنّ متأخّرة وبعد مسيرة طويلة كرّسها لدراسات في فلسفة اللغة وفي السيميائية جعلته أحد أشهر الأسماء على السّاحة العالميّة؟ للإجابة عن هذا السؤال تسلّى إيكو بشتّى الأجوبة، جميعها منطقيّة ومقبولة وكلّها غير كافية، أو بالأحرى تعبّر في مجموعها عن عجز المؤلّف (المصطنع؟) في تبرير ما دفعه إلى هذه المغامرة. إحدى الأجوبة موجودة في **تأمّلات**. . : «كتبتُ رواية [يعني **اسم الوردة**] لأنّ الرّغبة كانت تحدوني لكتابتها. وأعتقد أن هذا سبب كافٍ للانطلاق في رواية قصّة. والإنسان بطبيعته حيوان قصّاص»[12]. وهو تبرير لا يشبع رغبتنا في التعرّف على سرّ هذا التحوّل المفاجئ إلى الرواية، ولا ينيرنا عن العلاقة التي قد تكون موجودة بين المنظّر للعلامة والرّاوي. هناك جواب آخر محمّل أكثر بالمعاني، يتنافى مع براءة وبساطة الجواب الأوّل. قال إيكو في موضع آخر : «ما لا يُمكن تنظيره ينبغي سرده»[13]. وها أنّ العلاقة تتّضح بين إيكو السيميائي وبين رواياته: ليست هناك قطيعة أو تحوّل بل تواصل للخطاب نفسه ولكن بطريقة أخرى. وما يؤكّد هذا قول إيكو في كتابه **حول الأدب** (2003)[14] إنّه كان يكتبُ دراساته كما لو كان يقصّها، وعندما اقتحم ميدان الرواية لم يجد نفسه متنازَعاً بين مواصلة البحث والرغبة في الكتابة. كانت الرواية تواصلاً للتأمّل الفكري كما أن التأمّل الفكري وجد مخبره في الرواية. وهذا ما يجعل **اسم الوردة** وما جاء بعدها من روايات حالات استثنائيّة في الرواية الإيطالية المعاصرة.

سُئل إيكو يوماً من أين جاءته فكرة كتاب **اسم الوردة** وقصّة الجرائم في الدير فأجاب بروح الفكاهة المعهودة فيه: «نشأت رواية اسم الوردة من فكرة استحوذت عليّ وأنا في الثانية والعشرين من عمري، عندما ابتعدت نهائياً عن الكنيسة، حيث كنتُ أناضل في الحركة الكاثوليكيّة : كان بودّي أن أقتل راهباً»[15]. والظنّ أنّه

(12) إيكو، **تأمّلات**. . .، ص510.

(13) **متاهات أمبرتو إيكو**، حوار أجراه ماريو فوسكو مع إيكو، ص80.

(14) انظر: U.Eco, *Sulla letteratura*, Bompiani, 2003، [**حول الأدب**]، ص359.

(15) **تأمّلات**. . .، ص510-511.

Twitter: @ketab_n

أشبع رغبته تماماً بما أنّ الرُّهبان المقتولين في الدّير سبعة، على عدد الأيام التي قضاها بطلا الرواية. ولا ينبغي أن نأخذ هذا الاعتراف بالمعنى الحرفي، فهو يعني على الأكثر موقفاً إيديولوجيًا إزاء الكنيسة (وإزاء كلّ لاهوتيّة) عبّر عنه إيكو من خلال رواية هي في الظاهر قصّة جرائم تقع في دير بنيدكتيّ مجهول الاسم. قلتُ في الظاهر لأنّ الجرائم تمثّل الأحداث الخارجية الملموسة والبنية التي تتألّف من حولها جميع الأسرار والدسائس والملابسات الخفيّة في شكل متاهة يصعب الخروج منها بسلامة، حتّى إنّ العنوان الأوّل الذي فكّر فيه المؤلّف كان «دير الجرائم»[16]. ولكن، بما أن العنوان «مفتاح للتأويل»، ويمثّل أحد العوامل الفاعلة في توجيه عمليّة القراءة والتحليل، فقد خاف إيكو أن يطغى موضوع الجرائم على الأغراض الأخرى الحاضرة في الكتاب وأن يُصبح الجانب البوليسي (على أهميّته) مسيطراً على الجوانب الأخرى المتعدّدة (التاريخيّة، الفلسفيّة، السيميائيّة...) فاختار عنواناً آخر، «مفتوحاً» ومتعدّد المعاني بقدر ما كان العنوان الأوّل أحاديّ المعنى.

فكان العنوان **اسم الوردة**. وظنّه الكثيرون، بل ونطقوه غلطاً «باسم الوردة»، كمن يقول «باسم الربّ» أو «باسم الله»، أي نوعاً من الصّلاة. ولِمَ لا ونحن في دير يسكنه رُهبان لا يكفّون أبداً عن ذكر اسم الربّ؟ ولكنّ الأمر ليس على هذا النّحو، وصار العنوان الغامض محلّ تأويل لا نهاية له، وموضوع تساؤل تصعب الإجابة عنه. ماذا يمكن أن يعني عنوان مثل هذا، لا يشير إلى حدث معيّن أو إلى شخصيّة معيّنة (كان قد فكّر إيكو أيضاً في عنوان مثل «أدسو دا مالك»[17]؟ ما علاقة الوردة بالموضوع؟ وحتّى إن عرفنا عند وصولنا إلى خاتمة الكتاب أنّ العنوان مستمدّ من الجملة اللاتينيّة الأخيرة التي يختتم بها أدسو رواية قصّته «nomina nuda tenemus»[18]؛ بمعنى أنّ الأشياء الفانية تزول ولا يبقى لنا منها إلاّ الأسماء، فهذا لا يفسّر لنا علاقة العنوان بالرواية، إلاّ إذا أراد المؤلّف «أن يشوّش

(16) **تأمّلات...**، ص508.

(17) نفسه.

(18) U. Eco, *Il nome della rosa*, Bompiani,1980، ص503.

Twitter: @ketab_n

العنوان أفكار القارئ لا أن ينظّمها»[19]. عدل إذاً إيكو عن عناوين أخرى جليّة المعنى حتّى لا يوجّه تأويل القارئ نحو ناحية بعينها، واختار عنواناً غامضاً سيجعل القارئ طوال مطالعته للكتاب يبحث عن تفسير أو عن علاقة بين العنوان ومضمون الرواية. ولن يجد تفسيراً واحداً أو لعلّه سيجد أكثر من تفسير، لأنّ «الوردة» في التقاليد اللاتينيّة والغربيّة بصفة عامّة «صورة رمزيّة محمّلة بالمعاني إلى درجة أنها أصبحت لا تملك معنًى محدّداً» على حدّ قول المؤلّف في **تأمّلات**... (1983)[20]: «الوردة هي الوردة هي الوردة هي الوردة»، «وردة عاشت ما تعيشه الورود»، «يا وردة في خيالي»...، والأمثلة كثيرة. ومضى الكثيرون في تأويلات لا حصر لها لربط الوردة بشخصيّة أو بمفهوم؛ فهناك من رأى فيها الفتاة التي عشقها أدسو ليلة، وهناك من رأى فيها الحقيقة التي يبحث عنها أدسو ولا يجدها، بل يجد عدّة حقائق لا تصمد أمام التاريخ وتفنى في زمن قصير كما تفنى الورود في غضون يوم. لقد أراد إيكو أن تبدأ عمليّة فكّ الرّموز منذ البداية، انطلاقاً من العنوان، وأن يبدأ القارئ رحلته عبر النصّ وهو يقتفي كلّ أثر ويفسّر كلّ علامة للتوصّل إلى المعنى أو المعاني الكامنة في العنوان. فهل أفضل إذاً من هذا العنوان لكتاب يريده المؤلّف أن يكون «مفتوحاً» لشتّى التأويلات، ومتاهة من المعاني تتمرّس عليها طاقة القارئ الموسوعيّة.

لم يَخفَ عن أحد، ممّن يعرفون إيكو السيميائي، أنّ **اسم الوردة** يواصلُ تحت قناع السرديّة خطاباً نظريًا في فلسفة اللغة والعلامة والتأويل، كان قد بدأه المؤلّف منذ ظهور كتابه **العمل المفتوح** سنة 1962، فتهافتوا على النصّ بالتحليل والتأويل جاعلين من الرواية «مخبراً» أو «لعبة سيميائيّة» يتجوّلون في متاهاتها بمتعة خاصّة لا يعرفها القارئ العادي، الذي يكتشف الرواية، دون معرفة سابقة بمؤلّفها. وقد ذهب هؤلاء القرّاء المتفطّنون لإستراتيجيات إيكو في تحاليلهم وفي تأويلاتهم إلى أبعد الحدود، ممّا حدا بالمؤلّف أن يتدخّل للتعليق عن بعض التأويلات وأحياناً للتعبير عن عدم تمشّيه معها. ومع أنّ عمليّة التأويل لا يُمكن أن تتمّ إلاّ بين النصّ وقارئه، دون

(19) **تأمّلات**...، ص508.
(20) نفسه.

Twitter: @ketab_n

تدخّل المؤلّف، فقد رأى إيكو أن يُعطي رأيه وأن يوضّح بعض الجوانب من عمليّة الكتابة في ملحق أضافه إلى الرواية ضمن طبعة سنة 1983[21]. وقد أحسّ إيكو بأن تدخّله يُمكن أن يشوّش العلاقة بين القارئ والنصّ، فاعترف أنّ من واجب المؤلّف «أن يموت بمجرّد الانتهاء من كتابة عمله حتّى لا يُعكّر مسار النصّ»[22]. ولا يجب أن نغترّ بكلام إيكو، ونظنّه اعتذاراً من قِبله لتدخّله بين القارئ والنصّ، بل ينبغي أن نأخذه باعتباره مقدّمة نظريّة تؤسّس لمنهجيّة جديدة في تناول النصّ تعتمد على المتلقّي وإمكانيّاته الموسوعيّة من جهة، وعلى النصّ ومستويات قراءاته المتعدّدة من جهة أخرى؛ فالتأويل هو حوار جدليّ بين القارئ والنصّ وحركة «بندوليّة» بين وجهة نظر القارئ ومقاصد النصّ، أو ما يسمّيه إيكو في **حدود التأويل** بـ intentio lectoris و intentio operis. وما يجعلنا نشكّ في «براءة» إيكو المصطنعة، وهو الذي يريد إيهامنا أنّ كتابته لرواية كانت من قبيل الرّغبة فحسب، أو من قبيل المتعة والإمتاع فحسب، وأنّه يفضّل كمؤلّف أن يكون «مات» تاركاً عمله لهوى المؤوّلين، هو مواصلته تحت قناع السّردية لدروس يلقيها غوليالمو دا باسكرفيل على مسامع المبتدئ أدسو (وهي في الحقيقة موجّهة إلينا). وليست الصفحات الأولى من الرواية إلاّ درساً في السيميائيّة يبيّن فيه إيكو على لسان بطله نظريات وقواعد في تأويل العلامة سنجدها أيضاً في كتابه **السيميائيّة وفلسفة اللغة**[23]. كما نجد غوليالمو يقول للرّاهب المبتدئ أدسو: «الكتب ليست مجعولة كي نؤمن بما تقوله ولكن لكي نتحرّى فيها. لا يجب أن نتساءل أمام كتاب ماذا يقول ولكن ماذا يريد أن يقول، وهي فكرة كانت واضحة جدًا عند مفسّري الكتب المقدّسة القدامى». ألا ينبغي أن نفهم بعد هذا أنّ **اسم الوردة** وما جاء بعدها من أعمال روائيّة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، لا أقول بمعطيات بيوغرافية لأنّها من حكم الطبيعي في

---

(21) انظر: *U. Eco, Postille...*، مذكور. ظهر هذا النصّ في البداية في مجلّة *Alfabeta*، عدد 49، حزيران/يونيو 1983.

(22) **تأمّلات...**، ص509.

(23) U. Eco, *Semiotica e filosofia del linguaggio*, Einaudi Ed., 1984 [أ. إيكو، **السيميائية وفلسفة اللغة**، ترجمة أحمد الصمعي، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، 2005، ص510].

Twitter: @ketab_n

الأعمال الأدبيّة، بل بشخصيّة إيكو كناقد وفيلسوف وسيميائي ورجل إعلام، وأن هذه الأعمال الروائيّة هي بمثابة «الآليات» التي جهّزها إيكو السيميائي لتنشيط عمليّة التأويل ولاختبار قدرة القارئ على الغوص في متاهات النصّ.

وقد أدّت الجهود التأويليّة بخصوص **اسم الوردة** أو بخصوص روايات أخرى مثل **بندول فوكو** إلى نتائج ذات مغزى، منها ما كان إيكو ينتظره لأنّه خطّط له، ومنها ما كان غير منتظَر ولكنّه مقبول ومحبّذ، لأنّه دليل على أنّ النصّ يُنتج معانيه بصفة لانهائية ومستقلّة. يقول إيكو في **تأمّلات في اسم الوردة**: «وما يعزّي المؤلّف أكثر هو أن يكتشف قراءات لم يفكّر فيها ولكنّ قرّاءه اقترحوها»[24]؛ فالدعوة صريحة للقارئ كي يتفاعل مع النصّ، أي أنّه على القارئ أن يحمّل الكلمة بجزء من معانيها حسب إمكاناته المعرفيّة، أو كما يقول بيرس: «يجب أن تترك العلامة لمؤوّلها مهمّة تجهيزها بجزء من معناها». وهذا يعني أنّ النصّ الأدبي والعمل الفني بصفة عامّة ينتج مستويات متعدّدة للقراءة والتأويل، وأنّ إيكو جعل من روايته «آلة لتوليد المعنى» بصفة غير متناهية، وكأنّه أراد أن يذكّرنا على لسان راهبه الفرانشسكاني بالمستويات القرائيّة التي صنّفها الشاعر الفلورنسي دانتي أليغييري بخصوص رائعته **الكوميديا الإلٰهية**، حيث إنّ مستويات معانيها أربعة: المعنى الحرفي، المعنى المجازي، المعنى الأخلاقي والمعنى الباطني. ولكن إيكو يُرجع نظريّة التأويل إلى ما قبل دانتي، أي إلى القديس بولس الذي كان يقول: «إنّنا نرى العالم من خلال صور ورموز»، ممّا يجعل قراءتنا لهذا العالم وللأعمال الفنيّة التي تعبّر عنه قراءة «مفتوحة» لتأويلات تتجدّد وتتنوّع بتجدّد الأزمنة وبتنوّع القرّاء. وهذا يفسّر كيف أن **الكوميديا الإلٰهية** منذ كتابتها إلى يومنا هذا وهي محلّ شرح وتأويل يُنيران يوماً بعد يوم معاني كانت خافية.

لم يكن الرّجوع إلى القرون الوسطى من قبيل الحنين إلى أزمنة ماضية أو من قبيل الرغبة «البريئة» في استزارة هذا الماضي؛ كان بالنسبة إلى إيكو عمليّة إعادة تركيب مُحكمة ودقيقة، معتمداً في ذلك على معرفته الكاملة بتلك الفترة، ولكن

---

(24) أ. إيكو، **تأمّلات**. . .، ص508.

Twitter: @ketab_n

ليس المراد منها كتابة رواية تاريخية بالمعنى الضيّق بل لتوظيف تلك الحقبة التاريخيّة، بما تزخر به من مستجدّات ومن متناقضات، لصنع كتاب متعدّد المستويات تجد فيه جلّ الكتب المعروفة آنذاك موضعها ويكون صدى لثقافة ذلك العصر. ليس بالغريب إذاً أن يكون قلب الدّير النّابض هو المكتبة، وأن تكون المكتبة في شكل متاهة، وأن يكون التّنافس على الكتب على أشدّه، إلى حدّ الموت أو القتل من أجلها. ولكن لكي يبدو هذا العالم القروسطي مقنعاً يجب أن يشيّده المؤلّف بكلّ دقّة معرفيّة. يذكر إيكو في **تأمّلات**. . أنّه كرّس السنة الأولى من العمل لتشييد العالم الذي ستجري فيه وقائع الرواية. ويجب أن يوجد هذا العالم الممكن حسب بُنى يتمّ تحديدها منذ البداية ويتقيّد بها المؤلّف، بحيث يصير الراوي نفسه أسير ما يطرحه من مقدّمات، ويصبح هذا العالم المشيّد هو الراوي الحقيقي الذي يقول للمؤلّف كيف يجب أن تتوالى القصّة. وقد اشتغل إيكو بدقّة حتّى بخصوص أبسط التفاصيل ممّا جعل السينمائيّ الشهير ماركو فِرّيري يقول لإيكو إن حواراته سينماتوغرافيّة لأنّها تدوم وقتاً متناسباً مع تحرّكات شخصيّاته داخل الدّير.

وقد حتّم العيش داخل دير آهل بالرّهبان الدارسين والناسخين ـ في فترة تاريخيّة احتدّ فيها النزاع بين البابا وكنيسته المتمسّكة بالسّلطة الزمنيّة والمتفرّغة لحياة الثراء والبذخ وبين الفرانشسكانيّين المطالبين بفقر الكنيسة وبالعودة إلى مثال المسيح الذي لم يكسب في حياته شيئاً ـ أن يكثر الجدال بين المنتمين إلى كلا الطرفيْن، وأن يقدّم كلّ منهما أطروحاته ونظريّاته، بحيث تضمّنت الرواية في أوّلها فقرات تلقينيّة طويلة يشرح فيها غوليالمو أو أبّوني أو أوبِرتينو لأدسو ما كان يجهل. وفي الواقع يختفي إيكو وراء قناع شخصيّاته ليبلّغنا ما يريد تبليغه عن التاريخ أو الفلسفة أو الدين إلخ. وهكذا صارت رواية **اسم الوردة** كوناً متكاملاً تدور فيه حياة الإنسانيّة: «اكتشفتُ أنّ الرواية، مبدئيًّا، لا علاقة لها بالكلمات؛ فكتابة رواية هي قضيّة كونيّة، مثل القصّة التي يرويها **سفر التكوين**»[25]. كان لا بدّ أن تتخلّل الأحداث فقرات طويلة من المجادلات ومن التأمّلات ومن الدّروس بدت للكثيرين

(25) أ. إيكو، **تأمّلات**. . .، ص513.

Twitter: @ketab_n

مضجرة ومعقّدة. ولكن إيكو وضع هذه الفقرات الطويلة، خصوصاً في الصفحات المائة الأولى، لغرض آخر يتعلّق بتعامل القارئ مع النصّ. ومع أنّ النّاشر وكذلك البعض من أصدقائه اقترحوا عليه أن يخفّف من طولها ومن كثافة مضامينها، فقد رفض إيكو ذلك رفضاً قاطعاً قائلاً: «لو أراد أحد أن يدخل إلى الدّير، وأن يعيش فيه سبعة أيّام، فعليه أن يقبل نسق الدير... تلك الصفحات المائة الأولى هي مثل تدريب، وإذا لم يقبلها القارئ فالأمر أمره وسيبقى في أسفل الجبل». ويضيف مكملاً نظريّته في النصّ وقارئه أنّ «الدخول إلى الرواية أشبه بتسلّق الجبال: عليك أن تلتزم بنَفَس وأن تضبطه على وقع الخُطى، وإلاّ فالأوْلى أن تتوقّف عن الصّعود»[26]. لذا فإنّ كتابة هذه الصفحات المائة الأولى إنّما ترمي إلى «تشكيل» قارئ مناسب لما سيأتي بعدها من صفحات. كلّ رواية لها نفَسُها، ونسقُها، سواء تسارع أو تباطأ، ولها دروبها ومسالكها، سواء تيسّرت أو صعُبت، وإذا تعذّر على القارئ أن يجاري هذا النّسق فإنّه لن يصل إلى نهاية الرحلة، وسيتوقّف في أوّلها. وقد عاد إيكو مرّات عديدة إلى فكرة الرواية باعتبارها رحلة يُمكن أن تكون شاقّة، وأن تتطلّب من القارئ تدريباً واستعداداً، تماماً مثل مُتسلّق الجبال الذي يتدرّب ويستعدّ بحسب طبيعة الجبل وصعوبة مناله. ونجد هذه الآراء في كتابه **ستّ رحلات في غاب السّردية**[27]، حيث يقول: «الغاب هو استعارة للنصّ السّردي؛ ولا أعني الحكايات فحسب، بل كلّ نصّ سرديّ»؛ ويواصل: «الغاب هو حسب استعارة لبورخس... حديقة ذات دروب تتفرّع. وحتّى إذا لم تكن في الغاب دروب مخطّطة، فبإمكان كلّ واحد منّا أن يرسم مساره الخاصّ، وأن يختار السّير يميناً أو شمالاً عند شجرة ما، ويقوم بالاختيار عند كلّ شجرة تعترضه. في النصّ السرديّ يستوجب على القارئ في كلّ لحظة أن يقوم باختيار ما»[28].

(26) نفسه، ص520.

(27) U. Eco, *Sei passeggiate nei boschi narrativi*, Bompiani, Milano, 1994، والكتاب في الأصل يحتوي على المحاضرات التي ألقاها إيكو في إطار Harvard University Norton Lectures 1992-1993.

(28) نفسه، ص7.

Twitter: @ketab_n

ولا يخفى علينا أنّ الغاب في الخيال الجماعي مكان مليء بالمخاطر، متشعّب المسالك، وإحدى خصوصيّاته هي أنّ المرء يجازف بضياع طريقه فيه. فالرواية في نظر إيكو، والنصّ الأدبي بصفة عامّة، هي أشبه بالأدغال أو بالمتاهات: تستطيع أن تدخلها ولكن لا تعرف إن كنتَ ستخرج منها سالماً. وقد صنع إيكو روايته بالفعل في شكل متاهة: متاهة كونيّة، ومتاهة نصيّة أو تناصيّة، ومتاهة ماديّة متمثّلة في مبنى المكتبة. أمّا المتاهة الكونيّة فقد صنعها من خلال العالم الذي شيّده وأثّثه وأرسل فيه شخصيّاته كما أرسل الربّ نعاجه بين الذئاب، وأمّا المتاهة النصيّة أو التناصيّة فهي مصنوعة من نصوص تعيد نصوصاً أخرى أو تتحدّث عن نصوص أخرى في «وشوشة لامتناهية»، وأمّا متاهة المكتبة فقد صنعها بخبرة المشيّد الماهر صورةً من الكون الذي صنعه المشيّد الأوّل، توجد فيها الوجهات الأربع والقارّات المعروفة، وعقّدها بالرّموز الغامضة التي يستوجب فكّ شفراتها، كما نفكّ رموز الكون للتعرّف على طريقنا فيه. ولعلّ أفضل جنس أدبيّ لصنع متاهة هو الرواية البوليسيّة لأنّها تمثّل «ضرباً من ضروب التخمين الخالص»[29]، لذا تبدأ رواية **اسم الوردة** مثل قصّة بوليسيّة تتضمّن كلّ عناصر التشويق المعروفة في هذا النوع من القصص، ولكنّها تتفرّع من السؤال الأساسي «مَن المجرم؟» إلى عدّة أسئلة أخرى، وإلى عدّة قصص أخرى «تحوم جميعها حول بنية التخمين في حدّ ذاته»[30]. والمتاهة، دائماً حسب إيكو، هي أحد النماذج التخمينيّة المجرّدة.

يصف إيكو ثلاثة أنواع من المتاهات: المتاهة الإغريقية، والمتاهة الأنموذجية، والمتاهة الجذموريّة. أمّا الأولى، فلا تسمح لأحد بأن يتيه فيها، تدخل إليها وتبلغ نقطة المركز، ومن هناك تصل إلى باب الخروج، ولكي تصبح اللعبة مشوّقة يوجد فيها الوحش (المينوتور). النوع الثاني، هو متاهة في شكل شجرة، فيها عدّة مسالك مسدودة، وفيها مخرج واحد. لإيجاد طريقك فيها يلزمك خيط «أريانا». هذا النوع من المتاهة هو مثال من عمليّة المحاولة والخطأ. النوع الثالث،

(29) أ. إيكو، **تأمّلات...**، ص524.

(30) نفسه.

Twitter: @ketab_n

والذي يهمّ أكثر إيكو، هو أنموذج الشبكة. متاهة في شكل جذمور، ليس له مركز أو محيط أو منفذ، يصل كلّ مسلك بمسالك أخرى، ويتفرّع إلى ما لا نهاية له. فضاء التخمين، حسب إيكو، يشبه هذا النوع من المتاهة. ويقول إيكو بخصوص **اسم الوردة** إنّ متاهة المكتبة تنتمي إلى النّوع الثاني، بينما العالم الذي يعيش فيه غوليالمو ينتمي إلى النمط الثالث، أي أنّه عالم «قابل للبناء، ولكنّه غير مبني بصفة نهائيّة»[31]. يقول أليناردو في **اسم الوردة** «المكتبة متاهة كبرى، وهي علامة على متاهة العالم. تدخل إليها ولا تعرف هل ستخرج منها. لا ينبغي أن تتخطّى أعمدة هرقل..»[32]. ولكنّ المتاهة الحقيقيّة التي يرمي إليها إيكو، والتي نجدها مستحوذة عليه في نظريّاته حول القاموس والموسوعة، هي متاهة المعاني والعلامات والتأويل؛ فإن كان القاموس في شكل شجرة لها جذعها وفروعها فإنّ الموسوعة هي في شكل متاهة، تصبّ معارفُها في بعضها البعض وتتشابك مسالكها إلى ما لا نهاية له. هي نصّ مصنوع من كلّ النّصوص التي أنتجتها الإنسانيّة، وهي بطبيعة الحال «غير مبنية بصفة نهائيّة».

قيل إنّ **اسم الوردة** رواية مصنوعة من عدّة روايات سابقة، ونصّ متكوّن من عدّة نصوص. هذا صحيح، ويمكن قوله حتّى بخصوص أعمال أدبيّة أخرى نتعرّف من خلالها على نصوص قرأناها أو رأينا فيها تعدّدية لمستويات القراءة. إلاّ أن خاصيّة **اسم الوردة** تكمن في الإستراتيجيّة التي اتّبعها المؤلّف لتنشيط استعدادات تأويلية مُختلفة، لأنّ النصّ الأدبي على حدّ قول المؤلّف هو مثل آلة كسولة تنتظر أن تنشّطها القراءة لتنتج معانيها. وتعتمد هذه الإستراتيجيّة من ناحية على توظيف العلامة باعتبارها أساس عمليّة التخمين والتأويل، ومن ناحية أخرى على التناصّ باعتباره أداة معرفيّة يستعملها القارئ حسب قدراته الموسوعيّة لتقفّي أثر المؤلّف. وتبدأ لعبة تقفّي الأثر منذ البداية، أي منذ قصّة المخطوط القديم. وهي كما نعلم حيلة سرديّة يُبرّر بها الكاتب إقدامه على الرواية وفي الآن نفسه يتملّص بواسطتها من مسؤوليّة القول وطريقته، فالراوي ليس هو بل راهب مبتدئ من القرن الرابع

(31) نفسه، ص525.

(32) أ. إيكو، **اسم الوردة**، ص180.

Twitter: @ketab_n

عشر، لذا بإمكانه أن يبدأ قصّته قائلاً: «كان ذلك صبيحة يوم جميل في أواخر نوفمبر. . .» دون أن يبدو سخيفاً. والمخطوط القديم، مثله مثل الرسالة المودعة في قارورة أو الورقة المكتوبة بشفرة يصعب فكّ رموزها، عناصر معروفة في جُلّ الروايات البوليسيّة أو في قصص المغامرات الخياليّة، ولكنّها عندما تصدر عن كاتب مثل إيكو تخصّص في كلّ ما يتعلّق بالعلامات والرموز والشفرات، تكتسب أهميّة خاصّة تجعل الدارسين ينطلقون مثل كلاب الصّيد وراء ما هو صحيح وما هو مختلق في المعلومات الببليوغرافية الدقيقة التي يروي بها إيكو عثوره على المخطوط. كما أنّ توظيف حيلة المخطوط يُمكّن إيكو من صنع مستويات كتابيّة متعدّدة تجعلنا نتساءل: من المتكلّم؟ فواضع النصّ هو السيميائي إيكو الذي يزعم أنّه عثر على نصّ مكتوب بالفرنسيّة القوطية لرجل دين يُدعى الأب فالّيه ليس إلاّ ترجمة لنصّ باللاتينيّة كتبه راهب ألماني مسنّ في دير «مالك» يروي بعيني راهب مبتدئ (وإذن حديث السنّ جدًّا) أحداثاً رهيبة وقعت في دير مجهول الاسم بإيطاليا الشمالية في بداية القرن الرابع عشر! وهكذا يُترجم إيكو (تقريبيًّا) الأب فالّيه الذي يُترجِم بدوره (تقريبيًّا) نصّ أدسو الشّيخ الذي يستحضر بدوره أحداثاً عاشها وهو شابّ مراهق. ولكنّنا نعرف جيّداً أنّ إيكو لم يُترجم شيئاً، وأنّنا أمام دُمى روسيّة تنغلق الواحدة على الأخرى بصفة لانهائية. ونحن نعرف أنّها نفس الدّمية ومع ذلك لا نكفّ عن تفكيكها وإعادة تركيبها.

كما أنّ ابتسامة إيكو المتواطئة تطلّ علينا من خلال إشارات واضحة إلى نصوص سابقة وإلى أنماط روائيّة متداولة، مثل الرواية البوليسيّة، وحتّى إلى شخصيّات أصبحت كلاسيكيّة في هذا النوع من الأدب تكاد تقول للقارئ «أعرف أنّك تعرف أنّني أعرف أنك تعرف ذلك». فمن لا يرى في غوليالمو دا باسكرفيل إشارة إلى كونان دويل وبطله شارلوك هولمز، وأنّ إحدى رواياته هي بالفعل «كلب باسكرفيل»؟ ثمّ على من يخفى تطابق مساعد شارلوك هولمز «واتسون» مع تلميذ غوليالمو (ومساعده في التحقيق) «أدسو»؟ ففي العودة إلى أنماط قديمة من الكتابة وإلى نماذج كلاسيكيّة مثل الرواية البوليسيّة أو التاريخيّة، يمكن اكتشاف سلوك تميّزت به كتابة «ما بعد الحداثة» حيث يصبح النصّ معيداً لنصوص أخرى معروفة ولكنّها تُقرأ داخل شبكة جديدة من العلاقات، وحيث يُستعمل التاريخ لا لقراءة

Twitter: @ketab_n

تاريخية بل لقراءة تأويلية تربط الماضي بالحاضر، ممّا أدّى ببعض القرّاء إلى أن يروا في **اسم الوردة** كتاباً يتحدّث عن الزّمن الحاضر وعن أحداث السّاعة؛ فهناك من رأى في الصّراع بين البابا والإمبراطور صورة من الصّراع القائم حالياً بين مؤيّدي العلمانيّة واللايكيّة ومؤيّدي الاتّجاهات الدينيّة، أي تحييناً حديثاً للنزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنيّة، وفي الطوائف الهرطيقيّة الثائرة على النظام الكنسي والمدني بصفة عامّة صورة من التنظيمات المتطرّفة يمينيّة كانت أو يساريّة تستعمل الحديد والنّار لفرض حقيقة تؤمن بها وتعتقدها مطلقة، وفي متاهة المذاهب الدينية والفلسفية والسياسيّة المتناحرة مثال من فكرة ما بعد الحداثة من أنّه لا توجد حقيقة واحدة أو فكرة واحدة قويّة بل توجد عدّة حقائق وعدّة عوالم مُمكنة وعدّة أفكار «ضعيفة» تمثّل في مجموعها كوناً متعدّد الألوان. بهذا يفتح الكتاب مجالات للتأويل تتّسع بحسب الكفاءة الموسوعيّة ووجهات النظر والاهتمامات الشخصيّة، من التأويل السوسيولوجي التاريخي، إلى النظرة السيميائية مروراً بالأدب المقارن والتحليل الأسلوبي وغير ذلك من المنهجيّات في قراءة النصّ. والجدير بالملاحظة أنّه بخصوص نصّ واحد أو بخصوص جانب معيّن من النصّ يعطي كلّ من المؤلّف والقارئ قراءات مُختلفة تؤكّد لنا أن عمليّة التأويل تستدعي استعمال النصّ المعنيّ بالتأويل وكلّ النصوص التي سبقته والتي تمثّل الكون المعرفي للفرد؛ فالقارئ العربي مثلاً سيرى في الطوائف الخارجة عن سلطة الكنيسة والمتّهمة بالهرطقة صورة من الواقع العربي الإسلامي الحالي، الذي تقضّ مضجعه الحركات الدينيّة المتطرّفة، تلك التي تستعمل الحديد والنّار لفرض «التوبة» وترفض إعمال العقل والاجتهاد في المسائل الدينيّة وترجع رجوعاً أعمى (مثل الأعمى يورج) إلى حقيقة قديمة تعتبرها مطلقة وصالحة لكلّ زمان ومكان؛ كما أنّ نصّ إيكو سيوحي له بنصّ عربيّ آخر يُمثّل جزءاً من ثقافته ومن كفاءته الموسوعيّة، هو كتاب **ألف ليلة وليلة**، حيث ستعود إلى ذاكرته (مثلما عادت إلى ذاكرتي) حكاية الحكيم الذي يُهدي كتاباً مسمّماً إلى الملك الذي كان يريد إعدامه، فيموت وينجو هو من الموت. الكتاب المسموم إذن حيلة قديمة ولكنّ إيكو وظّفها في إطار جديد جعلها تعيش بحياة أخرى. لدى القارئ العربي نشأ إذن رباط بين **اسم الوردة** و**ألف ليلة وليلة** قد لا يخطر على بال قارئ أوروبيّ أو يابانيّ أو صينيّ يجهل هذه القصص.

Twitter: @ketab_n

ويبدو أنّ إيكو نفسه يجهل (أو يتجاهل) هذا الارتباط لأنّه لم يذكره ولو مرّة. وهذا غريب بالنسبة إلى شخصيّة موسوعيّة مثله قرأ دون شكّ في ما مضى من الزّمن حكايات **ألف ليلة وليلة**، إذ هي متداولة منذ قرون في أوروبا ودخلت في التكوين الثقافي العامّ. بل يأتي إيكو بقصّة أخرى مستمدّة من تجربته الشخصيّة يشرح بها كيف جاءته فكرة الكتاب المسموم: يقول إنّ حيلة الكتاب ذي الحواشي الملتصقة بفعل مادّة لزجة ومقزّزة (تُصبح في الرواية مادّة سامّة) قد تكون طفت على صفحة الذاكرة بصفة لاشعوريّة لأنّه امتلك في ما مضى كتاباً قديماً لاحظ أنّ حواشيه كانت متآكلة ولزجة ثمّ نسيه «ولكن كما لو أن آلة فوتوغرافية داخليّة صوّرت تلك الصفحات، وبقيت صورة تلك الورقات اللزجة والمقزّزة عشرات السنين مدفونة في أعمق دواخل الذاكرة، وكأنّها في قبر، إلى أن خرجت من جديد (لست أدري لأيّ سبب) وظننتُ أنّني ابتدعتها»(33). وبإمكاننا أن نصدّق القصّة التي جاء بها إيكو، ولكنّ النصّ، بقطع النظر عن مؤلّفه، هو الذي يحدّثنا عن نصّ آخر، وهو الذي يعيد بطريقة أخرى ما سبق أن قرأناه، خارج إرادة المؤلّف أو مقاصده.

فالنصّ كما نرى يتعدّى قصد صاحبه، أي إنّه عند كلّ قراءة جديدة يُضيف إلى «العالم الممكن» الذي تَصوَّره المؤلّف جزءاً من عوالم أخرى، تنتمي إلى موسوعة وإلى تجربة القارئ، فتصير كلّ قراءة جديدة (وكلّ ترجمة بطبيعة الحال) ولادة لعالم مُمكن جديد في تغيّر متواصل لانهائي. وجميع هذه العوالم تنشأ من الحوار الجدلي الذي ينشأ بين عالم النصّ وعالم القارئ. يقول إيكو في كتابه **حدود التأويل**: «عندما يكتبُ المؤلّف نصّا لمجموعة من القرّاء فهو يعرف أنّه سيُؤوّل لا حسب قصده بل حسب إستراتيجيّة معقّدة من التفاعلات تشمل القارئ وتشمل معرفته باللغة كتراث اجتماعي. ولا نريد بعبارة «تراث اجتماعي» اللغة باعتبارها جملة من القواعد النحويّة، بل الموسوعة المعرفيّة التي تكوّنت من خلال استعمال تلك اللغة، وتاريخ التأويلات السابقة لنصوص عدّة، بما فيها النصّ الذي هو بصدد قراءته»(34).

(33) انظر: U.Eco, *I limiti dell'interpretazione*, Bompiani, 1990، [**حدود التأويل**]، ص125.

(34) نفسه، ص110.

Twitter: @ketab_n

هذا التفاعل مع النصّ هو الذي يجعل القارئ ينشّط في كلّ مرّة آليات دون أخرى، بحسب كفاءته الموسوعيّة، وبحسب البُغية التي ينشدها. ولا يوجد شكّ في أنّ القارئ العربي سيقتفي آثاراً غير الآثار التي يقتفيها القارئ الألماني أو الياباني أو الإيطالي، وسيبحث في هذا الكون الذي شيّده إيكو عن إشارات تحرّك فيه أوتاراً خصوصيّة لا تتحرّك لدى قرّاء من ثقافات ومن لغات أخرى؛ فهو سيرى في **اسم الوردة** كتاباً يُشيد بتقدّم العرب في العلوم، ويذكر مكتباتهم ومدنهم وتآليفهم واختراعاتهم وتقدّمهم في شتّى العلوم مثل الطبّ والنّبات والفلك، وغيرها. ونذكر على سبيل المثال ما قاله غوليالمو لرئيس الدّير في اليوم الأوّل: «أعلم أنّ ديركم هو النُّور الوحيد الذي تقدر المسيحيّة أن تضاهي به مكتبات بغداد الستّ وثلاثين، والعشرة آلاف مخطوط التي يمتلكها الوزير ابن العلقمي، وأنّ كتبكم المقدّسة تعادل الألفين وأربعمائة مصحف قرآني التي تتباهى بها القاهرة، وأنّ حقيقة خزاناتكم هي البيّنة السّاطعة ضدّ أسطورة الكافرين الصّلفة الذين يقولون.. إنّ مكتبة طرابلس تعدّ ستّة ملايين من الكتب ويسكنها ثمانون ألف شارح ومائتا ناسخ»[35]. ولا غرابة أن نجد مثل هذه الإشارات بكثرة في الرواية، لأنّ العالم العربي الإسلامي جزء من الكون القروسطي الذي شيّده المؤلّف، بل هو الجزء الذي يمتاز من ناحية بتفوّقه الحضاري ومن ناحية أخرى باختلافه ديناً ومِلّة، حتّى أنّ مثقفي القرون الوسطى مع اعتبارهم إيّاه طرفاً معادياً، يكنّون له الحقد والبغض، لا يسعهم من جهة أخرى إلاّ الاعتراف بمزاياه في العلوم وبمناقب البعض من شخصيّاته المعروفة. وأفضل مثال على هذا أنّ دانتي أليغييري وضع ابن سينا وابن رشد وحتّى صلاح الدين الأيوبي خارج الجحيم، اعترافاً بمناقب الأوّليْن في العلوم والفلسفة وبروح الفروسيّة عند الثالث، لأنّ الفلسفة والفروسيّة كانتا في ذلك الزّمن أهمّ ما يُمكن أن يتحلّى به الرّجال من الخصال. وهكذا نجد غوليالمو يقف معجباً أمام كتب العرب ويذكر أسماءهم بإجلال وتقدير: "**الجبر** للخوارزمي؛ **شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام** لأبي بكر

(35) أ. إيكو، **اسم الوردة**، ص59.

Twitter: @ketab_n

أحمد بن علي بن وحشية النبطي؛ **في تناهي جرم العالم** لأبي يوسف يعقوب الكندي؛ وكتاب **المناظر** لابن الهيثم، **وتقويم الصحة** للمختار ابن الحسن بن بطلان. . .، والقائمة طويلة. ولا يرجع وجود العرب والحضارة الإسلاميّة في الكتاب إلى الصدفة أو إلى ميل خاصّ من طرف المؤلّف، بل هو ضرورة أملتها قواعد تشييد الكون الذي أراده إيكو لروايته. فلا يُمكن أن نتصوّر القرون الوسطى بدون المقابلة بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي، وبدون التعرّض، خصوصاً في بيئة ديريّة تُعنى بالكتب وبالعلوم، إلى الحضارة العربيّة والإسلاميّة وإلى تطوّر الفلسفة والعلوم والترجمة لدى العرب، وهي التي كانت من أهمّ المنابع التي استقت منها أوروبا والتي هيّأت لنهضتها في القرون الموالية؛ فالرواية، كما يقول إيكو، ليست عمليّة لغويّة، بل هي عمليّة كوسموغرافيّة، يصنع فيها الكاتب عالماً مُمكناً انطلاقاً من عالمه الواقعي ومن جميع العوالم التي صنعتها كتب سابقة؛ فالكتب تتحدّث دائماً عن كتب أخرى في حوار مستمرّ لامتناهٍ. والكتابة هي قبل كلّ شيء تفكير في قارئ وصناعة لقارئ نموذجي تتوافق موسوعته مع موسوعة النصّ.

ولكن ماذا يحدث عندما يتّسع الفارق بين موسوعة المؤلّف والعالم المُمكن الذي شيّده في روايته من ناحية وعالم القارئ من ناحية أخرى؟ أي ماذا سيكون مصير عنوان **اسم الوردة** في عالم لا توجد فيه لغة الورود؟ وماذا سيكون تأثير حضارة القرون الوسطى على قارئ لا تدخل في ثقافته قرون وسطى؟ لا يوجد شكّ في أنّ نصّاً عربيًا لـ **اسم الوردة** سيصنع نوعاً آخر من القرّاء يجدون في غوليالمو دا باسكرفيل نوعاً من «قصّاص الأثر»، عوضاً عن شارلوك هولمز، وسيجدون في الأحاجي والألغاز التي تتخلّل الرواية ترديداً للبعض من قصص العرب، كما أنّ الوردة ستكون حسب المواقف التأويليّة صورة رمزية من الفتاة التي أحبّها أدسو دون أن يعرف اسمها، أو هي رمز للحقيقة لأنّنا لا نملك من الحقيقة إلاّ الاسم: «Le texte est là et il produit ses effets de sens»، أي أنّ النصّ ينتج بصفة مستمرّة معانيه بقطع النظر عن إرادة مؤلّفه. إلاّ أنّ اتّساع الفارق بين عالم الرواية وعالم القارئ سيُحدث حتماً تحوّلاً وانزلاقاً للمعنى لأنّ اللغات تجزّئ

Twitter: @ketab_n

التجربة الإنسانية في الكون بصفة مُختلفة، فلا يُمكن أن تتطابق بصفة كليّة. أي أنّ اللغات «تعني بأصوات متماثلة أشياء مُختلفة»، وتشير لغة باسم واحد إلى شيء قد تشير إليه لغة أخرى بعدّة أسماء، وكلّما ابتعدت لغة عن أخرى اتّسع الفارق في التعبير عن الكون. وقد لا نحسّ إلاّ بفارق طفيف عند المرور من الإيطالية إلى الفرنسيّة، بينما تُصبح المسافة شاسعة عند المرور من الإيطالية إلى العربيّة.

وإذا كانت الترجمة، حسب عنوان لكتاب جديد ألّفه إيكو، هي «قول الشيء نفسه أو يكاد»[36] فالهامّ بالنسبة إلينا هو طبيعة هذا الـ «يكاد» واتّساع مساحته. أي أنّ المترجم، إضافة إلى عمليّة القراءة والتأويل، يقوم بعمليّة «تفاوض» مع النصّ حتّى يحتفظ بجُلّ مكوّناته شكلاً ومحتوى. وبما أنّه لا بدّ من التخلّي عن شيء للحفاظ على ما هو أهمّ؛ فها إنّ المترجم يختار حلولاً دون أخرى، ويضحّي بعبارة أو بصورة إذا مكّنه ذلك من البقاء مخلصاً لروح النصّ. سألني مرّة سائل لماذا لم أترجم الرواية بلغة عربيّة قديمة على منوال «المقامات» بما أن الأحداث تدور في حقبة زمنيّة بعيدة. وهو سؤال يطرح فعلاً مشكل اللغة التي سيختارها المترجم لترجمة الكتاب، مثلما يختار الكاتب اللغة التي يعتبرها ملائمة لموضوعه. ولكن الاقتراح لا يبدو موفقاً لأنّ إيكو كتب روايته في لغة إيطالية معاصرة ولو أنّها تتحدّث عن القرون الوسطى، إلاّ أنّه اختار أسلوباً في الوصف والتعبير يتماشى مع عادات الكتابة في ذلك الزّمن، مع الإسهاب في الوصف والتعداد ومع ميل خاصّ لاستعمال الصور البلاغية من استعارة ومجاز وجناس وغيرها، ممّا يصعب عادةً ترجمته من لغة إلى أخرى؛ فالمؤلّف يحاول من خلال الكلمات أن يُحدث تأثيراً في القارئ فيُكثر من تعداد الوحوش المنحوتة على بوّابة الكنيسة بأسماء غريبة حتّى يعبّر عن دهشة أدسو وروعه، ويعدّد أسماء الطوائف والجماعات المنشقّة عن الكنيسة حتّى يبلّغ صورة معبّرة عن اضطرابات تلك الأزمنة، ويفعل الشيء نفسه بأسماء الأحجار الكريمة، أو الأعشاب، إلى غير ذلك.. فالهامّ بالنسبة إلى المؤلّف أن يُحدث التعداد في حدّ ذاته تأثيراً على القارئ، حتّى وإن كان من غير المُمكن إيجاد مقابل دقيق لكلّ عنصر من عناصره. أي أنّ المترجم بدوره يستحضر جميع

(36) أ. إيكو، *Dire quasi la stessa cosa*، بومبياني، ميلانو، 2003، ص395.

Twitter: @ketab_n

أسماء الوحوش والأحجار الكريمة والأعشاب والطوائف التي يعرفها ويختلق بعضها للحفاظ لا على الكلمات في حدّ ذاتها، بل على التأثير الذي أراد الكاتب إحداثه. وكما أنّ لغة سلفاتوري لغة ركّبها إيكو من لغات مُختلفة صعبة الفهم على من هو غير متعوّد على معاشرته، فقد كان من الضروري أن نحافظ على طابعها الخاصّ، بخلط الإيطالية (العربيّة) بالبروفانسية واللاتينيّة والإسبانية إلخ..

وقد لاحظ أحدهم أنّ النصّ الإنكليزي والنصّ العربيّ (وربّما نصوص أخرى لم يطّلع عليها) لم يحافظا على التلاعب بالألفاظ أو الجناس عندما سُمّي سفيرينو العشّاب «amico dei semplici» حيث إنّ عبارة semplici و simples بالفرنسيّة (من اللاتينيّة simplex) يُمكن أن تعني في الآن نفسه الأعشاب الطبيّة والبُسَطاء. لذا يُصبح سفيرينو في الآن نفسه صديق البُسَطاء (أي صديق الفرانشسكانيّن الذين تقوم حياتهم على الفقر والبساطة) وصديق الأعشاب الطبيّة بحكم وظيفته. وقد اقترح المُلاحظ المذكور عبارة «صديق البسائط»، إلاّ أنّها لا تحافظ على روح الدّعابة لأنّها غريبة عن الاستعمال، ولأنّ الدعابة تكمن في استعمال الكلمة نفسها، بينما البُسَطاء والبسائط كلمتان مُختلفتان نطقاً ومعنى. وعلى كلّ حال، لو قلنا عن سفيرينو إنّه «صديق البسائط» فسوف نترجم صورة «بسيطة» بصورة غريبة ومعقّدة. أي أنّنا في عمليّة «التفاوض» مع النصّ خيّرنا المحافظة على الوضوح والتضحية بصورة بلاغيّة لا يُمثّل حذفها خسارة كبيرة في اقتصاد النصّ. والترجمة الأدبيّة بطبيعتها اجتهاد ومحاولة ابتداع وإعادة كتابة لا تخلو من مخاطر ونقاط ضعف، على أن يبقى الكتاب في مجمله وفيًّا للأصل ومُمتعاً بالنسبة إلى القارئ. ونرجو أن نكون توفّقنا إلى ذلك.

أحمد الصمعي

نيسان/ابريل 2011

Twitter: @ketab_n

مخطوط، بطبيعة الحال

في السادس عشر من آب/أغسطس 1968 سُلّم إليّ كتاب من تأليف رئيس دير يدعى الأب فاليّه (Vallet) يحمل عنوان **مخطوط دون أدسون دي مالك** (Don Adson de Melk)، مترجم إلى الفرنسية حسب طبعة ج. مابيّون (Mabillon) (مطبعة دير «لاسورس»، باريس 1842). وكان الكتاب مرفوقاً ببيانات تاريخية هزيلة في حقيقة الأمر، ويؤكد مؤلفه بأنه نسخ بوفاء مخطوطاً يعود إلى القرن الرابع عشر، كان قد عثر عليه في دير مالك (Melk) العلاّمة العظيم الذي عاش في القرن السابع عشر والذي يعود إليه فضل كبير في تأريخ النظام الكلوني. وابتهجت لتلك اللقية العلمية (وكانت لقيتي أنا الثالثة إذن في الزمن) بينما كنت بمدينة براغ في انتظار صديقة عزيزة عليّ. بعد ذلك بستّة أيام اجتاحت القوات السوفياتية تراب تلك المدينة المنكوبة. وتمكّنت من الوصول إلى الحدود النمساوية، إلى لينتز، بعد رحلة لم تخلُ من الأخطار، ومن هناك تحولت إلى فيينّا حيث التقيت بالصديقة المنتظرة، وصعدنا معاً في مجرى الدانوب.

وكنت أقرأ مفتوناً، وفي جوّ ذهني على غاية من التهيّج، قصّة **أدسو دا مالك** (Adso da Melk) الرهيبة، وشغلتني إلى درجة أنني وضعت لها ترجمة فورية في بعض الكراسات الكبيرة التي اشتريتها من ورّاقة «جوزف جيبير»، والتي تحلو الكتابة عليها خاصّة عندما تكون ريشة القلم ليّنة. وهكذا وصلنا قريباً من مالك، حيث لا يزال ينتصب عند انعطافة لمجرى النهر، ذلك الدير الرائع الذي وقع ترميمه عدّة مرّات خلال القرون الماضية. وكما يمكن للقارىء أن يتصوَّر، لم أعثر في مكتبة الدير على أي أثر لمخطوط أدسو.

قبل الوصول إلى سالزبورغ، أثناء ليلة مريعة في نزل صغير على ضفاف نهر

Twitter: @ketab_n

الموندسي انقطعت علاقتي مع رفيقة السفر واختفت حاملة معها كتاب الأب فالّيه ولم تفعل ذلك خبثاً وإنما انتهت علاقتنا بصفة مباغتة ومشوّشة. وهكذا لم تتبقّ لي إلاّ مجموعة من الكراريس بخط يدي وفراغ كبير في قلبي.

قرّرت بعد بضعة أشهر من ذلك وأنا في باريس، أن أصل إلى نهاية أبحاثي.

ومن الإشارات القليلة التي استخلصتها من الكتاب الفرنسي بقيت لي إحالة إلى المصدر نادرة في تفاصيلها ودقّتها.

Vetera analecta, sive collectio veterum aliquot operum & opusculorum omnis generis, carminum, epistolarum, diplomaton, epitaphiorum, &, cum itinere germanico, adnotationibus aliquot disquisitionibus R.P.D. Joannis Mabillon, Presbiteri ac Monachi Ord. Sancti Benedicti e Congregatione S Mauri. - Nova Editio cui accessere Mabilonii vita & aliquot opuscula, scilicet Dissertatio de Pane Eucharistico, Azymo et Fermentato, ad Eminentiss. Cardinalem Bona. Subjungitur opusculum Eldefonsi Hispaniensis Episcopi de eodem argumento Et Eusebii Romani ad Theophilum Gallum epistola, De cultu sanctorum ignotorum, Parisiis, apud Levesque, ad Pontem S. Michaelis, MDCCXXI, cum privilegio Regis.

ووجدت في الحال مجموعة «نصوص قديمة» في مكتبة «سانت جينوفياف» ولكن مع اندهاشي العظيم كانت الطبعة التي عثرت عليها تختلف في جزئيتين عن المرجع المذكور: قبل كلّ شيء في اسم الناشر الذي كان:

«Montalant, ad Ripam P.P. Augustinianorum (prope Pontem S. Michaelis)»

ثم في التاريخ، فهو بعد سنتين من الأولى. ولا فائدة من القول أن تلك «النصوص..» كانت لا تحتوي على أي مخطوط لـ «أدسو» أو أدسون دا مالك بل بالعكس، كانت كلّها، كما يمكن لأيّ شخص أن يتأكد من ذلك، عبارة عن مجموعة من النصوص قصيرة أو متوسّطة الطول، بينما القصّة التي نقلها فالّيه كانت تمتدّ على بضع مئات من الصفحات. واستشرت آنذاك بعض المتخصّصين المعروفين في تاريخ القرون الوسطى وآدابها كالصديق الحميم الذي لن أنساه «إيتيان جيلسون»، ولكن كان من الواضح أن «النصوص القديمة» الوحيدة هي تلك التي رأيتها في «سانت جينوفياف» وأقنعتني زيارة إلى دير لاسورس الواقع بالقرب

Twitter: @ketab_n

من باسّي ومحادثة مع الصديق «دون آرن لاهنشتيد (Don Arne Lahnestedt) أنه لم ينشر أي رئيس دير باسم فالّيه كتاباً بمطبعة الدير (التي في الواقع لم توجد قط). إن إهمال البحّاثة الفرنسيين للإدلاء بمراجع ببيليوغرافية صحيحة شيء معروف، ولكن أمر هذا الكتاب كان يتجاوز كلّ تشاؤم معقول. بدأت أعتقد أن الكتاب الذي حصلت عليه كان زائفاً. ولم يعد بإمكاني استرجاع كتاب فالّيه (أو أنني لم أجرؤ على طلبه ممن أخذه مني). ولم تبقَ لي إلاّ مذكراتي، التي أصبحت أشك في صحّتها.

هناك لحظات سحرية، فيها إرهاق بدني كبير ونشاط حركي مكثّف، تبرز أثناءها رؤى لأشخاص وقع التعرف عليهم في الماضي، «عندما أستعرض في ذهني هذه التفاصيل أتساءل إن كنت عشتها حقيقة أو تراءت لي في الحلم» وكما عرفت فيما بعد من كتيّب جميل لرئيس دير «بوكوا» يمكن أن تكون للمرء رؤى لكتب لم تكتب من قبل.

لو لم يطرأ جديد لبقيت إلى الآن أتساءل من أين أتت قصة «أدسو دا مالك»، إلاّ أنه في «بوينس أيرس» سنة 1970 بينما كنت أتطفل بين رفوف مكتبيّ صغير يتاجر في الكتب القديمة في «كوريانتس»، غير بعيد عن «باتيو دل تانغو» المشهور في ذلك الشارع الكبير إذ وقعت يداي على نسخة كاستيليانية لكتيّب ألّفه «ميلو تميسفار» يحمل العنوان التالي «عن استعمال المرايا في لعبة الشطرنج» والذي أُتيح لي أن أذكره (حسب استشهاد ثانٍ) في دراستي «الرؤيويون والمندمجون» أثناء تحليل لأعماله «بائعو الرؤيا». كانت ترجمة للنسخة المفتقدة الأصلية باللغة الجيورجية (تيبليسي 1934) وكم كانت دهشتي عندما عثرت فيها على استشهادات كثيرة من مخطوط «أدسو»، إلاّ أن المصدر لم يكن لا كتاب فالّيه ولا مابيّون، بل كتاب الأب أتناسيوس كيرشر (Athanasius Kircher) (ولكن أيّ كتاب؟). وأكّد لي بحّاثة ـ لا أرى داعياً لذكر اسمه ـ (مستشهداً بمراجع كان يحفظها عن ظهر قلب) أن ذلك اليسوعي العظيم لم يتحدّث قط عن «أدسو دا مالك». ولكن صفحات تميسفار كانت تحت أنظاري والفقرات التي كان يشير إليها تتطابق تماماً مع تلك الموجودة في المخطوط الذي ترجمه فالّيه (وخاصة وصف المتاهة الذي

Twitter: @ketab_n

كان لا يترك أيّ مجال للشكّ)، ورغم ما كتبه عن ذلك فيما بعد بنيامينو بلاتشيدو (Beniamino Placido)[1] فالأب فالّيه عاش فعلاً، وكذلك بكلّ تأكيد أدسو دا مالك.

واستنتجت من ذلك أن مذكرات أدسو كانت تبدو فعلاً في نفس طبيعة الأحداث التي ترويها: تحفّ بها أسرار كثيرة خفية وغامضة، ابتداء من مؤلفها، إلى موقع الدير الذي سكت عنه أدسو بتحفظ عنيد، بحيث يمكن التخمين أنها جهة غير محدّدة تقع بين «بومبوزا» و«كونك» مع افتراض معقول بأن المكان يوجد على طول خط قمم جبال «الأبينّين»، بين «البيمونتي» و«ليغوريا» وفرنسا (كمن يقول بين «ليرتشي» و«توربيا»). أما عن الفترة التي تدور فيها الأحداث فنجد أنفسنا في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر من سنة 1327، ولكن الفترة التي حُرّر فيها المخطوط غير محدّدة. وإذا ما اعتبرنا أنه كان، بحسب قوله، راهباً مبتدئاً سنة 1327 وأنه كان مشرفاً على الموت عندما كتب مذكراته، يمكننا التكهّن بأن المخطوط حُرّر في السنوات العشر أو العشرين الأخيرة من القرن الرابع عشر.

كلما أطلت التفكير في ذلك بدت لي واهية الأسباب التي دفعتني إلى أن أسلّم للمطبعة نسختي الإيطالية والمأخوذة عن نسخة فرنسية قوطية محدثة وغامضة لطبعة لاتينية من القرن السابع عشر تنقل عملاً لاتينياً ألّفه راهب ألماني في أواخر القرن الرابع عشر.

قبل كل شيء، أي أسلوب ينبغي أن أعتمد؟ ربما ملت إلى اعتماد أسلوب الكتّاب الإيطاليّين في تلك الفترة، ولكنني أبعدت عني تماماً تلك الفكرة إذ ليس هناك ما يبرّرها: ليس فقط لأن أدسو كان يكتب باللاتينية، ولكن لأنه من الواضح أن ثقافته (أو ثقافة الدير التي كان تأثيرها واضحاً عليه) كانت مطبوعة بطابع أقدم بكثير. كانت عبارة عن جملة من المعارف مرّت عليها قرون عديدة ومن العادات الأسلوبية التي تنتمي إلى التقاليد اللاتينية في أواخر القرون الوسطى. كان أدسو

(1) صحيفة *La Repubblica*، 22 أيلول/سبتمبر 1977.

Twitter: @ketab_n

يفكر ويكتب مثل راهب تكوّن من خلال نصوص آبائية مدرسية، لم تؤثر فيه ثورة اللغة العامية، وبقي متعلقاً بالصفحات المحفوظة في المكتبة التي يتحدّث عنها. والقصة التي يرويها (بقطع النظر عن الإشارات إلى أحداث القرن الرابع عشر، والتي يسجّلها أدسو أيضاً وسط ألف حيرة ودائماً بحسب ما وصلت إلى سمعه) كان يمكن أن تكتب، من حيث اللغة ومن حيث الاستشهادات العلمية، في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر.

ومن جهة أخرى، من الأكيد أن «فالّيه»، عند ترجمته نصّ أدسو اللاتيني إلى لغته الفرنسية القوطية المحدثة، تصرّف في النص بطرق مُختلفة لم تقتصر دائماً على النواحي الأسلوبية. مثلاً يتكلّم الأشخاص أحياناً عن فضائل الأعشاب باستناد واضح إلى كتاب الأسرار الذي ينسب إلى ألبرتو مانيو، والذي كانت له تنقيحات لا يحصى عددها عبر القرون. وأكيد أن أدسو كان يعرف ذلك الكتاب، ولكن الحقيقة هو أنه يذكر منه استشهادات تذكّر حرفياً إما بوصفات باراشِلسو (Paracelso) أو بتحريفات واضحة لطبعة من كتاب ألبرتو (Alberto) تنتمي دون شك إلى عهد تيودور (Tudor)[2]. ومن جهة أخرى تحققت فيما بعد من أنه في الفترة التي كان فالّيه يستنسخ فيها (؟) مخطوط أدسو، كانت متداولة في باريس طبعة من القرن الثامن عشر لـ«ألبير الكبير» و«ألبير الصغير»[3] وقد حُرِّفت تماماً.

ومع ذلك، كيف التأكد من أن النصّ الذي كان يستند إليه أدسو أو الرُّهبان الآخرون الذين كان يعلّق على أقوالهم لا يحتوي أيضاً، في ثنايا التعاليق والحواشي والذيول المُختلفة، على شروح ربما كان لها تأثير على الثقافة اللاحقة؟

وأخيراً، أما كان من الأنسب أن أحتفظ بالفقرات اللاتينية التي لم يرَ الأب فالّيه نفسه داعياً لترجمتها، ربما للحفاظ على جوّ تلك الفترة؟ لم تكن هناك

(2) Liber aggregationis seu liber secretorum Alberti Magni, Londinium, juxta pontem qui vulgariter dicitur Flete brigge MccccLxxxv.

(3) Les admirables secrets d'Albert le Grand, A Lyon, chez les Héritiers Beringos, Fratres, à l'Enseigne d'Agrippa, MDCCLXXV ; secrets merveilleux de la Magie Naturelle et Cabalistique du Petit Albert, Lyon, ibidem, MDCCXXIX.

Twitter: @ketab_n

مبرّرات لذلك، إلاّ شعور ربما لا يمكن فهم طبيعته بالوفاء للمصدر. . . وحذفت ما كان زائداً ولكنّي تركت بعض الأشياء. وأخشى أن أكون فعلت مثل أولئك الروائيين الرديئين الذين، عندما يقحمون في مشهد ما شخصاً فرنسياً يجعلونه يقول «parbleu!» و «La femme, ah la femme!».

وفي الختام، فإن الشكوك تملأ نفسي. لا أعرف حقيقة لماذا أقدمت فقرّرت تقديم مخطوط «أدسو دا مالك» على أنه أصلي. لنقل بأنه تصرُّف إنسان به عشق. أو لعلها كانت طريقة للتحرّر من أفكار كثيرة وقديمة كانت تستحوذ عليّ.

أنقل دون الانشغال بمشاكل العصر. في السنوات التي اكتشفت فيها نصّ الأب فالّيه كان الاعتقاد شائعاً أنه ينبغي أن تقتصر الكتابة على الاهتمام بمشاغل الساعة وبتغيير العالم. على بعد عشر سنوات أو أكثر، قد يتعزّى الأديب (بعد أن استعاد رفعته وكرامته) لأن بوسعه الآن أن يكتب حباً في الكتابة لا غير. وهكذا أشعر وأتعزّى عندما أجدها بعيدة في الزمن بعداً سحيقاً (الآن وقد أبعدت يقظة الفكر كل المسوخ التي ولّدها سباته) وعندما أجدها لا ترتبط في روعتها بوقتنا الحاضر، غريبة في لازمنيتها عن آمالنا وعن ثوابتنا اليقينية.

ذلك لأنها قصة كتب، لا قصة مشاغل يومية، ويمكن أن تحثنا قراءتها على أن نتلو، مع المحاكي العظيم من «كامبيس»: «بحثت عن السّكينة في كلّ الأشياء، ولم أجدها إلاّ في ركن صحبة كتاب».

5 كانون الثاني/ يناير 1980

Twitter: @ketab_n

ملحوظة

ينقسم مخطوط أدسو إلى سبعة أيام وكل يوم إلى فترات توافق ساعات الفروض الدينية. أما العناوين الفرعية فمن المحتمل أن الأب «فالّيه» هو الذي أضافها، وبما أنها مفيدة لتوجيه القارىء وبما أن هذا الاستعمال كان متداولاً في الكثير من الأعمال الأدبية لتلك الفترة فإني لم أر داعياً لإلغائها.

حيرتني، شيئاً ما، إشارات أدسو إلى الساعات الكنسية، ليس فقط لأنها تختلف بحسب الأماكن والفصول ولكن لأنه من الأرجح أن التعليمات التي حدّدها القديس بنيدكت في قاعدته لم تكن في القرن الرابع عشر متّبعة بدقّة.

ومع ذلك، لتوجيه القارىء، ومستعيناً من ناحية بما استنتجته من النصّ ومقارناً من ناحية أخرى، ما جاء في القاعدة الأصلية بما جاء في كتاب إدوارد شنايدر الذي يصف فيه الحياة الديرية **الساعات البنيدكتية** (باريس، غراسيه، 1925)، أظن أنه بإمكاننا أن نثق بالتقديرات التالية:

أول الصبح: ويشير إليه أدسو أحياناً مستعملاً الاسم القديم **Vigiliae** بين الثانية والنصف والثالثة ليلاً.

صلاة الحمد: في التقاليد الأكثر قدماً كانت تسمّى **Matutini** بين الخامسة والسادسة صباحاً، بحيث يتم الفرض عند الفجر.

أولى: حوالى السابعة والنصف، قبل الشروق بقليل.

ثالثة: حوالى الساعة التاسعة.

سادسة: منتصف النهار (في دير لا يعمل فيه الرُّهبان في الحقول، وفي الشتاء، هي أيضاً ساعة الغداء).

تاسعة: بين الثانية والثالثة بعد الزوال.

صلاة السّتار: حوالى الساعة الرابعة والنصف، عند الغروب (تنص القاعدة على أن يتعشّى الرُّهبان قبل هبوط الليل).

صلاة النوم: حوالى الساعة السادسة (يذهب الرُّهبان إلى النوم في حدود الساعة السابعة).

يعتمد هذا الحساب على أنه في إيطاليا الشمالية، وفي أواخر تشرين الثاني/نوفمبر، تبزغ الشمس في الساعة السابعة والنصف تقريباً وتغرب حوالى الرابعة وأربعين دقيقة بعد الزوال.

Twitter: @ketab_n

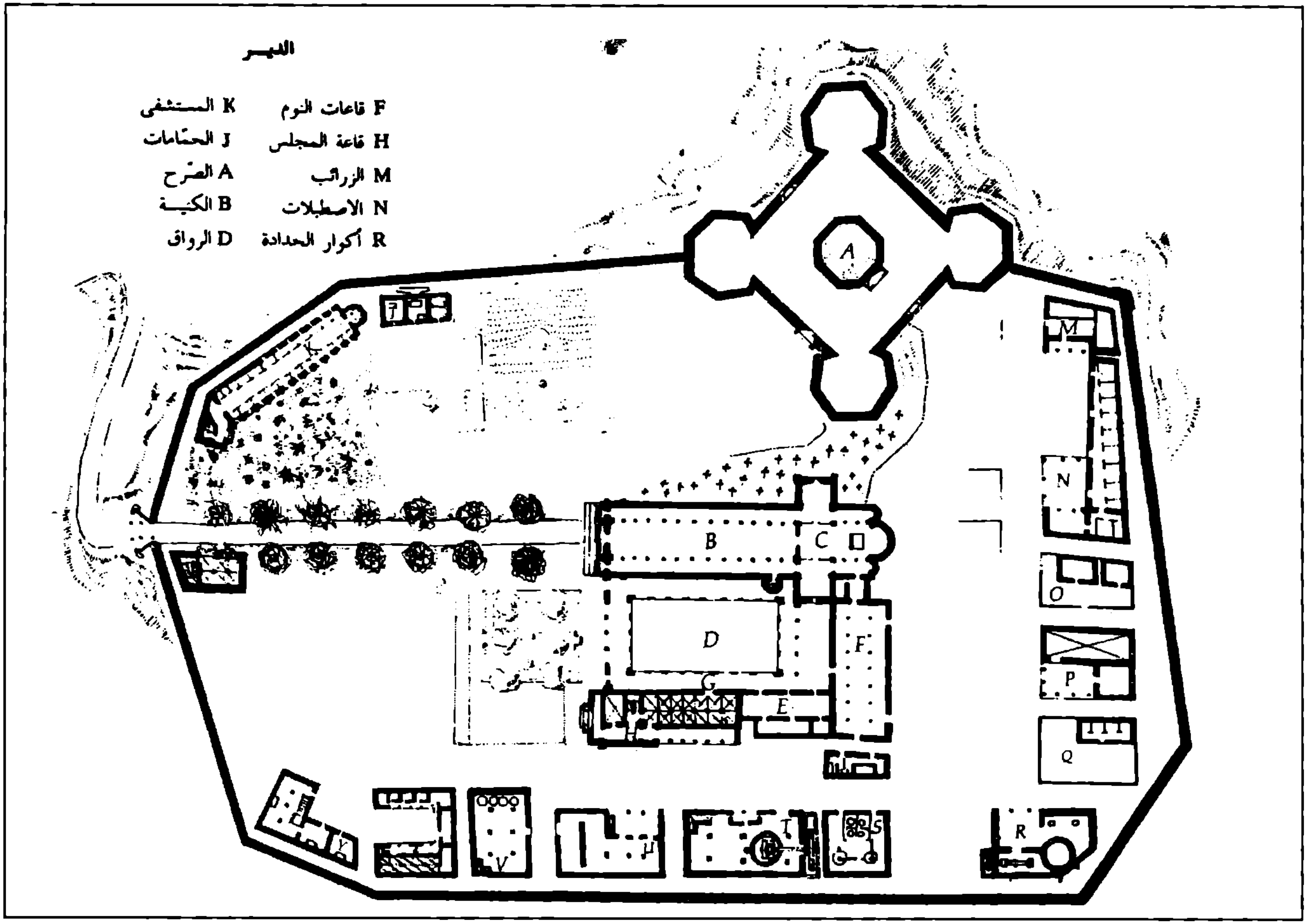

Twitter: @ketab_n

تمهيد

في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند اللّه وكان الكلمة اللّه. كان هذا هو البدء لدى الربّ وواجب الراهب المخلص هو أن يردّد كل يوم في ترتيل خاشع الحدث الوحيد والثابت الذي لا جدال في حقيقته الراسخة. ولكننا الآن نرى العالم من خلال صور ورموز، والحقيقة قبل أن تتجلّى لنا كاملة تنكشف من خلال لمحات (غامضة جداً للأسف) في خطايا العالم، وعلينا أن نهجّي دلالاتها الوفية، حتى عندما تبدو غامضة أو من فعل إرادة متفرّغة تماماً لفعل الشرّ.

الآن وقد أشرفت حياتي الآثمة على نهايتها وصرت شيخاً هرماً مثل هذا العالم ـ أنتظر أن أغيب في فضاء الألوهية اللامتناهي والصامت لأتحوّل إلى نور يستمدّ نوره من نور الملائكة ـ يشدّني جسمي المثقل والمريض إلى هذه الحجرة من دير مالك العزيز، ها أنا أتهيّأ لأن أترك على هذا الرقّ بيّنة على الأحداث المدهشة والرهيبة التي عشتها وأنا شابّ، معيداً بالحرف والكلمة ما شاهدت وما سمعت، دون المجازفة بأيّ حكم أو استنتاج، كمن يترك للقادمين (إن لم يسبقهم المسيح الدجّال) علامات لعلامات كي تتمرّس عليها عبادة فكّ الرموز.

ليجعلني الربّ بفضله شاهداً شفّافاً على أحداث وقعت في دير من الأفضل والأرحم أن لا أذكر حتى اسمه، في أواخر سنة 1327 للميلاد التي نزل فيها الإمبراطور لودوفيكو إلى إيطاليا لردّ الاعتبار للإمبراطورية الرومانية المقدّسة، بحسب رسوم العليّ، ولتكذيب الغاصب والدنيء الهرطيق الذي لوّث في «أفينيون» بالفضيحة اسم الحواري المقدّس (أعني روح جياكومو دي كاهور الآثمة، الذي كرّمه الزنادقة تحت اسم جيوفاني الثاني والعشرين).

Twitter: @ketab_n

ولفهم الأحداث التي وجدت نفسي أشارك فيها فهماً جيّداً، قد يكون من الأفضل أن أذكّر بما كان يحدث في تلك الفترة من بداية القرن، كما فهمتها آنذاك وأنا أعيشها، وكما أتذكّرها الآن وقد أضيفت إليها حكايات سمعتها من بعد، إن استطاعت ذاكرتي أن تصل بين خيوط تلك الأحداث المتعدّدة والغامضة جدّاً.

منذ السنوات الأولى لذلك القرن حوّل البابا كليمنتس الخامس مقرّ الرسولية إلى أفينيون تاركاً روما فريسةً لأطماع الأسياد المحلّيين: وتحوّلت مدينة المسيحية المقدّسة تدريجياً إلى سيرك أو إلى ماخور، تمزّقها الصراعات بين كبار أعيانها، يسمّونها جمهورية وما كانت بجمهورية، تجوبها جماعات مسلّحة وترزح تحت وطأة العنف والنهب. وتملّص الكهنة من السلطة المدنية فأصبحوا يقودون جماعات من المتمرّدين وينهبون شاهرين السيوف، بينما كان آخرون يُخلّون بواجباتهم الدينية ويمارسون المساومات الدنيئة.

كيف الحيلولة دون أن تصبح روما، من جديد وبحقّ، غاية من كان يريد أن يضع على رأسه تاج الإمبراطورية المقدسة ويعيد المكانة إلى تلك السلطة الزمنيّة التي كانت سابقاً للقياصرة؟

وهكذا إذن نصّب خمسة أمراء ألمان سنة 1314 في فرانكفورت لودوفيكو البافاري على عرش الإمبراطورية. إلاّ أنه في اليوم نفسه وعلى الضفة المقابلة من نهر المان، عيّن الكونت البلاطي دي ران ومطران كولونيا للمنصب نفسه فريدريك النمساوي. قيصران إذن لكرسيّ واحد وبابا واحد لكرسيّين، وأصبحت تلك الوضعية حقيقة مصدر بلبلة عظيمة...

ثمّ بعد سنتين انتخب في أفينيون البابا الجديد، جياكومو دي كاهور، في الثانية والسبعين من عمره واتّخذ بالذات اسم جيوفاني الثاني والعشرين، وعسى أن تمنع الإرادة الإلٰهية أن يتّخذ أي حبر أبداً اسماً أصبح بغيضاً إلى تلك الدرجة لدى المسيحيين الطيبين. كان فرنسياً ومخلصاً لملك فرنسا (وأهل تلك البلاد المُنحرفة يميلون دائماً إلى مراعاة مصالحهم، غير قادرين على النظر إلى العالم على أنه وطنهم الرمزي)، وساند فيليب الجميل ضدّ الهيكليين الذين اتّهمهم الملك (ظلماً على ما أظنّ)، بجرائم مخزية جدّاً قصد الاستحواذ على أملاكهم، بالتواطؤ مع

Twitter: @ketab_n

ذلك الكاهن المارق. وفي الأثناء حشر روبيرتو دي نابولي نفسه في تلك المؤامرة مقنعاً البابا، حتى تتسنّى له السيطرة على شبه الجزيرة، بأن لا يعترف بأيّ كان من الإمبراطورين الألمانيين، وهكذا بقي هو القائد العام للدولة الكنيسيّة.

وتغلّب لودوفيكو البافاري سنة 1322 على خصمه فريدريك، وبما أن خشية جيوفاني من إمبراطور واحد كانت أكبر من خشيته عندما كانا اثنين، حرم الإمبراطور المنتصر، وهذا الأخير أدان بدوره البابا على أنه هرطيق. يجدر القول أنه في تلك السنة بالذات التأم في بيروجيا مجمع الإخوان الفرانشسكانيّين وأعلن رئيسهم العام، ميكيلي دا تشيزينا أن «فقر المسيح» هو عقيدتهم وذلك بعد أن قبل لوائح «الروحانيين» - (وستُتَاح لي فرص أخرى للتحدّث عنها)، معلناً أن المسيح إذا ما كان قد امتلك شيئاً من حواريّيه فقد امتلك فقط «للاستعمال الفعلي». وكان قراراً فاضلاً، يهمّه الحفاظ على طهارة الرُّهبانية ونقاوتها، ولكنه لم يَرُقْ بالمرة للبابا، الذي ربما رأى فيه بادرة تهدّد ما كان يطمح إليه، كرئيس للكنيسة، من منازعة الإمبراطورية حقّ انتخاب الأساقفة مطالباً كمقابل للسدّة الرسولية حق تتويج الإمبراطور. ولهذه الدوافع، ولأسباب أخرى أدان جيوفاني مواقف الفرانشسكانيّين سنة 1323 بإصدار المرسوم البابوي «Cum inter nonnullos».

وأتصوّر أنه عند ذلك الحدّ رأى لودوفيكو في الفرانشسكانيّين، الذين أصبحوا خصوم البابا، حلفاء له ذوي وزن. فهم بتأكيدهم على فقر المسيح كانوا بطريقة أخرى يعزّزون أفكار اللاهوتيين الإمبراطوريين، أي أفكار مارسيليو دا بادوفا وجيوفاني دي جياندونو. وأخيراً، بعد أشهر قليلة من الأحداث التي أرويها، نزل لودوفيكو إلى إيطاليا بعد أن توصّل إلى إتفاق مع المهزوم فريدريك، وتُوّج في ميلانو، ثم دخل في نزاع مع آل فيسكونتي، الذين كانوا قد تقبّلوه بارتياح، وحاصر مدينة بيزا وسمى كاستروتشيو، دوق لوكا وبيستويا نائباً إمبراطورياً (وأظنّ أنه أساء الفعل لأنني لم أعرف رجلاً أشدّ قسوة منه ما عدا ربما

Twitter: @ketab_n

أوغوتشيوني ديلاّ فاجيولا)، وأخذ يتهيّأ للنزول إلى روما وقد دعاه إليها شيارّا كولونا سيّد ذلك المكان.

كانت هذه هي الوضعية عندما انتزعني أبي من هدوء دير «مالك» حيث كنت راهباً بنيدكتياً مبتدئاً، وكان هو من البارونات المقربين إلى لودوفيكو ويحارب إلى جانبه، فرأى أنه من الأصوب أن يحملني معه كي أتعرّف على روائع البلاد الإيطالية وأحضر تتويج الإمبراطور في روما. ولكن حصار بيزا استحوذ على كل اهتمامه وانتهزت أنا تلك الفرصة لأتجول عبر مدن توسكانا، يدفعني إلى ذلك الفراغ والشوق إلى المعرفة، ولكن أبويّ اعتبرا أن تلك الحياة الحرّة والخالية من القيود كانت غير لائقة بمراهق كرّس نفسه لحياة التعبد وعملا بنصيحة مارسيليو، الذي أصبح يحبّني، قرّرا أن يجعلاني برفقة عالم فرانشسكاني، الأخ غوليالمو دا باسكرفيل، الذي كان يستعد للقيام بمهمّة من المفروض أن تقوده إلى عدة مدن مشهورة وإلى أديرة عتيقة جداً. وهكذا أصبحت كاتبه وتلميذه في الوقت نفسه، وما ندمت على ذلك، لأنني حضرت أحداثاً يجدر أن تبلّغ إلى ذاكرة من سيأتون بعدي، وهو ما أفعله حالياً.

لم أكن أعرف آنذاك عمّا كان يبحث غوليالمو والحقيقة أني لا أعرف ذلك حتى الآن، وأخمّن أنه كان هو الآخر لا يعرف ذلك، وإنما كانت تُحرّكه فقط الرغبة في معرفة الحقيقة، والشكّ ـ الذي كان دائماً يبديه ـ بأن الحقيقة ليست تلك التي تظهر له في الآونة الحاضرة. وربما ألهته في تلك السنوات واجبات القرن المصيرية عن دراساته المحبذة. وبقيت أجهل المهمة التي عهد بها إلى غوليالمو طوال السفرة أو بالأحرى لم يحدثني هو عنها. إلاّ أنه بالاستماع إلى بعض محادثاته مع رؤساء الأديرة التي توقفنا فيها خلال سفرتنا تكوّنت لي فكرة عن طبيعة المهمة التي كان يقوم بها. ولكنني لم أفهم ذلك تماماً إلاّ عندما وصلنا إلى نهاية مطافنا كما سيأتي ذكره. كنّا نتّجه نحو الشمال، ولكن رحلتنا لم تكن تتبع خطاً مستقيماً بل توقّفنا في عدّة أديرة. وحدث أيضاً أن حوّلنا وجهتنا نحو الغرب بينما كانت غايتنا النهائية نحو الشرق، متّبعين الخط الجبلي الذي يؤدي من بيزا إلى مسالك سان جياكومو متوقفين في مكان تردعني الأحداث الرهيبة التي وقعت

Twitter: @ketab_n

فيه عن التعريف به أكثر. وكان أسياد المنطقة حلفاء الإمبراطور كما كان رؤساء أديرة نظامنا فيها متفقين معهم ضد البابا الهرطيق والضالّ. ودامت رحلتنا أسبوعين تخللتهما أحداث مُختلفة، وأمكنني في تلك الفترة أن أتعرّف على أستاذي الجديد (معرفة غير تامة، كما أنا مقتنع دائماً بذلك).

ولن أطيل في الصفحات اللاحقة في وصف الأشخاص، إلاّ إذا بدت في ملامح وجه أو في إشارة علامات للغة صامتة ـ ولكن بليغة ـ لأنه كما يقول بويتسيو (Boezio)، ليس هناك شيء أقرب إلى الزوال من المظهر الخارجي الذي يذبل ويتغير كأزهار الحقول عند وصول الخريف، وما معنى أن نقول اليوم إن رئيس الدير كان ذا لَحْظ صارم ووجنتين شاحبتين، بينما هو الآن مع من كانوا حوله غبار، ومن الغبار اتخذت أجسادهم لون الموت الرمادي (إلا الروح، إن شاء الربّ، فهي تضيء بنور لن ينطفىء أبداً)؟ ولكني أريد أن أتحدّث عن غوليالمو، ودون العودة إلى ذلك، لأن ما راعني في شخصه هو ملامحه الغريبة، ومن طبيعة الشبّان فعلاً أن يتعلقوا بمن هم أكبر سنّاً وأوفى حكمة لا فقط لسحر كلامهم وفطنة فكرهم بل أيضاً لهيئة الجسم الخارجية، التي تصبح عزيزة عليهم كما يحدث بالنسبة إلى صورة الأب، الذي نترصّد حركاته وعلامات غضبه، ونراقب ابتسامته ـ دون أن يلوّث ظل الشبق تلك الصورة (ربما الوحيدة من حيث طهارتها) من الحب الجسدي.

كان رجال العهود الغابرة وسيمي الطلعة طويلي القامة (الآن أصبحوا أطفالاً وأقزاماً)، وليس هذا إلاّ دليلاً من جملة أدلة أخرى كثيرة، يشهد بتعاسة عالم يسير نحو الهرم. لم يعد الشباب يريد أن يتعلم شيئاً وأصبح العلم في انحطاط، والعالم بأسره يسير رأساً على عقب، عميانٌ يقودون عمياناً آخرين إلى الهاوية، الطيور ترمي بنفسها قبل أن تطير، والحمير تعزف القيثارة، والثيران ترقص، ومريم لم تعد تحب حياة التأمل ومارتا لم تعد تحب الحياة النشيطة وليَا عاقر وراحيل لها نظرة شهوانية وكاتون يتردد على الماخور ولوكراس يتحوّل إلى أنثى. كل شيء حاد عن طريقه. والحمد للّه أن تعلّمت في ذلك الوقت من أستاذي حبّ المعرفة ومفهوم الطريق القويم، الذي يبقى واضحاً حتى عندما يكون المسلك ملتوياً.

Twitter: @ketab_n

كانت إذن هيئة الأخ غوليالمو الجسدية تجلب انتباه الناظر الأكثر شروداً. كانت قامته تتجاوز قامة رجل عادي وكان من الهُزال بحيث يبدو أكثر طولاً. كانت عيناه حادتين وثاقبتين، وكان أنفه المشيق والأقنى شيئاً ما يضفي على وجهه هيئة شخص متيقظ، إلا في لحظات فتور سأتحدث عنها فيما بعد. وذقنه أيضاً كانت تدلّ على إرادة قوية، حتى وإن كان ذلك الوجه المستطيل والمنمّش ـ كما رأيت ذلك غالباً عند من ولد بين إيبارنيا (Hibernia) ونورثومبريا (Northumbria) ـ ربما يوحي أحياناً بعدم الثقة في النفس وبالحيرة. وتفطّنت بمرور الوقت إلى أن ما كان يبدو عدم الثقة كان على العكس فضولاً لا غير، ولكنني كنت أعرف القليل عن تلك الفضيلة التي كنت أظنها، على العكس، هوى النفس الشهوانية، مؤمناً أن الفكر العقلاني لا ينبغي أن يتغذى منها، متشبعاً فقط بما هو حقيقي، وما هو حقيقي معروف منذ البداية (بحسب ما كنت أعتقد).

وكنت آنذاك صبيّاً، فكان أول ما أدهشني فيه خصيلات من الشعر المصفرّ تخرج من أذنيه، وحاجباه الكثيفان الأشقران. ربما كان في ربيعه الخمسين وإذن كان شيخاً مسنّاً، ولكنه كان يحرّك جسمه الذي كان لا يكلّ أبداً بخفّة غالباً ما كانت تعوزني. كان يبدو أن نشاطه لا ينضب عندما تأخذه حمية العمل. ولكن من حين لآخر، وكأنما لفكره الحيّ شيء من طبيعة السرطان، كان يسقط في فترات خمول ورأيته يبقى ساعات وساعات فوق فراشه في حجرته، متلفظاً بصعوبة بشبه كلمات، دون أن تتحرك في وجهه عضلة. في تلك اللحظات كان يبدو في عينيه تعبير فراغ وغياب، وربما ذهب بي الظن إلى أنه كان تحت تأثير بعض المواد النباتية التي بإمكانها أن تحدث رؤى، لو لم يكن يدفعني إلى رفض هذه الفكرة الاعتدال الواضح الذي كان ينظم حياته. لا أخفي مع ذلك أنه أثناء السفر توقف أحياناً على حافة مرج عند طرف غابة وقطف بعض النّباتات (وأظنها كانت دائماً النبتة نفسها): ثم أخذ في مضغها بشغف. وكان يحتفظ بشيء منها معه، ويأكلها في اللحظات الأكثر توتراً (وغالباً ما عشناها في الدير!). وعندما سألته عنها مرّة قال وهو يبتسم إن المسيحي الصالح يمكن أحياناً أن يتعلم أشياء من الكفار. وعندما طلبت منه أن يذيقني منها، أجاب أن الأعشاب هي كالكلام منه ما هو

Twitter: @ketab_n

paidikoi وما هو ephebikoi، وما هو gynaikeioi(*)، إلى آخره والأعشاب النافعة لشيخ فرانشسكاني ليست نافعة لشاب بنيدكتي.

ولم يُتَح لنا في الفترة التي قضيناها معاً أن نعيش حياة منظمة: حتى في الدير حدث أن قضينا الليل يقظين ونمنا في النهار من شدة التعب، كما لم نشارك بصفة منتظمة في أداء الفروض المقدّسة. ومع ذلك قلّ أن رأيته أثناء السفر يسهر إلى ما بعد صلاة النوم وكان متعوّداً على الزهد والبساطة. كان يقضي أحياناً، كما حدث في الدير، كامل يومه يتجوّل في المبقلة فاحصاً النباتات كما لو كانت أحجاراً كريمة ورأيته يتجول في قبو الكنز متأملاً في علبة جواهر مرصّعة بالأحجار الكريمة والزمرّد كما لو كانت أجمة من الداتورة. ومرّات أخرى كان يقضي يوماً كاملاً في قاعة المكتبة الكبيرة يتصفّح بعض المخطوطات كما لو كان لا يبحث فيها إلاّ عن متعته الشخصية (بينما كانت تتعدّد من حولنا جثث الرُّهبان الذين قتلوا بصفة فظيعة) ووجدته يوماً يتجوّل في الحديقة، دون هدف واضح وكأنّه لن يُسأل يوماً أمام الرب عن أفعاله. لقد علّموني في النظام الرُّهباني الذي أنتمي إليه طريقة مُختلفة تماماً لتوزيع وقتي، وقلت له ذلك فأجاب إن جمال الكون لا يتأتّى فقط من الوحدة في التنوّع ولكن أيضاً من التنوّع في الوحدة. وبدا لي جواباً أملاه مبدأ تجريبي لا يستند إلى المعرفة، ولكنني عرفت فيما بعد أن أهل بلاده غالباً ما كانوا يعرفون الأشياء بطرق يبدو أن دور العقل النيّر فيها ضعيف جداً.

أثناء الفترة التي قضيناها في الدير رأيت دائماً يديه يغطيهما غبار الكتب، وذهب المنمنمات التي كانت لا تزال طرية ومواد مصفرّة كان قد لمسها في مستشفى سيفيرينو. كان يبدو أنه لا يقدر على التفكير إلاّ بيديه، وكان ذلك يبدو لي في الأول شيئاً جديراً أكثر بميكانيكي (وعلموني أن الميكانيكي هو moechus، ويرتكب خيانة إزاء الحياة الفكرية التي كان ينبغي أن يجمعه بها وصال طاهر). ولكن حتى عندما يلمس أشياء رقيقة جداً، كبعض المخطوطات ذات النمنمة الطريّة، أو صفحات أكلها الزمن وأصبحت هشّة كخبز بلا خميرة، كان يبدو أنه

(*) أي: ما هو صالح للطفل، وما هو صالح للمراهق، وما هو صالح للمرأة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

يملك رقة عجيبة، الرقة نفسها التي كان يلمس بها آلاته. سأذكر فعلاً أن ذلك الرجل الغريب كان يحمل معه في جرابه آلات لم أرَها قط من قبل، وكان يعرّفها على أنها آلاته العجيبة. وكان يقول لي إن الآلات من إنتاج الفنّ، والفنّ يقلّد الطبيعة كالقرد ولا تحاكي الآلات شكل الطبيعة فقط بل تحاكي عملها نفسه. وشرح لي أعاجيب الساعة والأسطرلاب والمغناطيس. ولكنني في البداية خشيت أن تكون من أعمال السحر، وتظاهرت، في بعض الليالي الصافية بالنوم بينما أخذ هو يراقب النجوم (وقد وضع بين يديه مثلثاً غريباً). كان الفرانشسكانيّون الذين عرفتهم في إيطاليا وفي بلادي بسطاء وأميين في الغالب، وعبّرت له عن دهشتي أمام اتساع معرفته، ولكنه قال لي مبتسماً إن فرانشسكانيّي جزره من طينة مُختلفة: «يعلّمنا أستاذي الجليل روجر بيكون (Ruggiero Bacone) أن الرسم الإلٰهي سيمرّ يوماً عبر علم الآلات، وهو سحر طبيعي ومقدس. وسيتمكّن الإنسان يوماً بقوة الطبيعة من صنع آلات ملاحة تجعل السفن تبحر بقيادة رجل واحد، وبسرعة تفوق بكثير قوة الأشرعة والمقاذف، وستكون هناك عربات تسير بدون أن تجرّها دوابّ من أي نوع كانت وبسرعة عظيمة كما ستصنع آلات تطير يجلس فيها الإنسان ويشغّل آلية تحرّك أجنحة اصطناعية فتطير في الهواء مثل الطيور وآلات صغيرة ترفع أثقالاً لا حدّ لها ومراكب تسير على قاع البحر».

وعندما سألته أين توجد تلك الآلات أجاب أنها صنعت قديماً وبعضها صنع حتى في وقتنا هذا، وقال: «إلاّ الآلة التي تطير لم أرَها ولا عرفت من رآها، ولكنني أعرف عالماً فكّر فيها. ويمكن صنع جسور تمرّ على أنهار، دون أعمدة أو سند من أي نوع كان وآلات أخرى عجيبة. ولكن لا ينبغي أن تغتمّ إن لم تكن موجودة، لأن ذلك لا يعني أنها لن توجد يوماً. وأقول لك إن الرب يريدها أن تكون، ومن المؤكد أنها موجودة من قبل في فكره، حتى وإن نفى صديقي دي أوكّام (Di Occam) وجود الأفكار على هذا الشكل، لا لأنه لا يمكننا الحكم على الطبيعة الإلٰهية، ولكن لأننا فعلاً لا نقدر أن نضع لها أيّ حدّ». وما كانت هذه القضية الوحيدة المتناقضة التي سمعته يذكرها: ولكن إلى الآن وقد أصبحتُ أكبر سنّاً وأكثر حكمة لم أفهم تماماً كيف أمكنه أن يثق إلى تلك الدرجة بصديقه دي

Twitter: @ketab_n

أوكّام وأن يؤمن في الوقت نفسه بكل ما يقوله بيكون، كما كانت عادته. صحيح أنها كانت أزمنة غامضة وكان على الرجل الحكيم أن يفكّر في أشياء متناقضة.

هو ذاك، لقد قلت عن الأخ غوليالمو ربما أشياء غريبة، كمن يجمّع منذ البداية الانطباعات المتفكّكة التي أوحى إليّ بها آنذاك. من كان؟ ماذا كان يفعل؟ قد يمكنك يا قارئي العزيز أن تستنتج ذلك أحسن، من الأعمال التي قام بها خلال الأيام التي قضيناها في الدير. وما وعدتك أنا برسم متكامل وإنما بسلسلة من الأحداث (هذا صحيح) المدهشة والرهيبة.

وهكذا تعرّفت يوماً بعد يوم على أستاذي وتبادلت معه أثناء ساعات السفر الطويلة أحاديث مُختلفة ـ سأذكرها عند اللزوم وأولاً بأولٍ ـ إلى أن وصلنا إلى سفح الجبل الذي ينتصب على قمّته الدير وحان الوقت الآن، وكما فعلنا آنذاك، أن تقترب منه روايتي: وعسى أن لا ترتعش يدي وأنا أتهيأ لسرد ما حدث لنا بعد ذلك.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

اليـوم الأول

اليوم الأول: أولـى

وفيه يصل أدسو وغوليالمو إلى أسفل الدير ويبرهن غوليالمو على ذكاء حاد

كان ذلك صبيحة يوم جميل في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر، وقد سقط قليل من الثلج أثناء الليل، إلاّ أنه لم يكن يغشى الأرض إلاّ رداء خفيف لا يتعدى الثلاثة أصابع. وفيما كان الظلام لا يزال حالكاً استمعنا، بُعَيْد صلاة الحمد، إلى القداس في قرية عند السفح، ثم واصلنا الرحيل نحو الجبال عند بزوغ الشمس.

وبينما كنّا نتسلّق المسلك الوعر الملتف بالجبل، إذ رأيت الدير. ولم تذهلني الأسوار المحيطة به من كل جانب، والتي كانت شبيهة بأخرى رأيتها في كل بلدان العالم المسيحي، وإنما أذهلتني ضخامة حجم ما عرفت فيما بعد أنه الصّرح. كانت بناية مثمّنة الزوايا تظهر من بعيد وكأنها رباعية الأضلاع (صورة تامة الكمال تعبّر عن ثبات ومناعة مدينة اللّه) تنتصب جوانبها الجنوبية على الرحبة التي أقيم فوقها الدير، بينما كانت الشمالية منها تبدو وكأنها نشأت من الجبل نفسه وتتعرّق منه عمودياً. أعني أنه، في بعض النقاط، تظهر الصخور من الأسفل، وكأنها تتعالى نحو السماء لتصبح على ارتفاع ما برجاً وقلعةً، لا فرق بينهما في اللون وفي المادّة (من صنع عمالقة لهم ألفة كبيرة بالأرض وبالسماء). ثلاثة صفوف من النوافذ تدلّ على النسق الثلاثي الذي تمتاز به تعليته، ممّا يجعل ما هو مربّع على الأرض من الناحية المادية مثلّثاً في السماء من الناحية الروحية. وكلما ازداد الاقتراب منه تبيّن أن الشكل المربّع يولّد في كل زاوية من زواياه، برجاً مسبّع الزوايا خمس منها تمتد نحو الخارج ـ أربعة أضلاع إذن من المثمّن الأكبر

Twitter: @ketab_n

تولّد أربعة مسبّعات أصغر، تظهر من الخارج في شكل مخمّسات. ومن لا يرى روعة انسجام كلّ هذه الأرقام المقدسة التي يكشف كل منها معنىً روحياً على غاية من الدقّة! ثمانية هو رقم كمال كلّ مربّع، وأربعة هو عدد الأناجيل، وخمسة عدد جهات العالم وسبعة عدد هِبات الروح القدس. أمّا عن الحجم والشكل فقد كان الصرح مشابهاً لما رأيت فيما بعد بجنوب شبه الجزيرة الإيطالية مثل كستال أورسيني وكستال دل مونطي، ولكن من حيث موقعه المنيع كان مهيباً أكثر منهما، وقادراً على بعث الرهبة في نفس المسافر الذي يقترب منه شيئاً فشيئاً. ومن حسن الحظ أن تلك الصبيحة الشتائية كانت على غاية من الصفاء، فلم تظهر لي البناية كما يمكن أن تبدو في الأيام العاصفة.

ولا أقول مع ذلك إنها كانت تثير مشاعر الانبساط. فقد أفزعتني وأدخلت في نفسي رهبة غامضة. واللّه يعلم أنها لم تكن خيالات نفسي الغريرة بل كنت أفسرها بحق تفسيراً صحيحاً على أنها نذائر لا ريب فيها نُقشت على الحِجارة، منذ اليوم الذي أخذت المَردَة في صنعها، وقبل أن تتجرّأ إرادة الرُّهبان المغرورة على تكريسها لحفظ الكلمة الإلٰهية.

وبينما كانت بغلتانا تتقدمان بصعوبة في المنعرج الأخير للجبل، حيث يتفرّع الدرب إلى ثلاثة مسالك، اثنان منها جانبيان، توقف أستاذي بعض الوقت، ينظر حواليه وإلى حافتي الطريق وعلى امتداده وفي أعلاه، حيث كانت توجد مجموعة من أشجار الصنوبر دائمة الخضرة تكوّن على طول مسافة قصيرة سقفاً طبيعياً غطّاه الثلج ببياضه وقال: «دير غني يحب صاحبه أن يظهر في المناسبات العمومية بمظهر حسن».

وكنت معتاداً على أن أسمع منه أغرب الأقوال فلم أسأله، ثم بعد مسافة قصيرة، سمعنا جلبة وظهرت عند أحد المُنعطفات زمرة مضطربة من الرُّهبان والخدم. وتقدم أحدهم نحونا عندما رآنا وقال بأدب جمّ: «مرحباً يا سيدي، ولا تستغرب أن أعرف تخميناً من تكون، فقد أعلمونا بزيارتك. أنا رميجيو دا فراجيني (Remigio da Varagine)، قيّم الدير. أنت على ما أظنّ الأخ غوليالمو دا باسكرفيل. يجب إذن إعلام رئيس الدير». والتفت إلى أحد الأتباع آمراً إياه: «اصعد أنت وبلّغ أن زائرنا على وشك عبور حزام الدير!».

Twitter: @ketab_n

وأجاب أستاذي بمودّة: «شكراً لك يا سيدي القيّم. فقد توقفت عن الملاحقة لتحيّتي وهذا ما يجعلني أقدّر لطفك أكثر. ولكن لا تخف فقد مرّ الجواد من هنا واتّجه نحو الدرب على اليمين. لن يستطيع الذهاب بعيداً، إذ إنه سيُجبر على التوقف عندما يصل إلى مصبّ الزبل. فهو أذكى من أن يلقي بنفسه في المنحدر...».

فسأله القيّم: «متى رأيتماه؟»

ـ لم نره بالمرّة، أليس كذلك يا أدسو؟ ـ والتفت إليّ متفكّهاً ـ ولكن إن كنتم تبحثون عن برونيلّو (Brunello) فلا يمكن أن يكون إلاّ في المكان الذي أشرت إليه.

فتردّد القيّم وهو ينظر تارة إلى غوليالمو وتارة إلى الدرب، ثم سأله: «برونيلّو؟ كيف عرفت ذلك؟»

فأجاب غوليالمو: «يا للسؤال. من الواضح أنكم تبحثون عن برونيلّو، أفضل جواد لدى رئيس الدير وأحسن خيول إصطبلكم ركضاً. أسود الشعر، تبلغ قامته خمسة أقدام، فاخر الذيل، مستدير الحافر وصغيره إنما منتظم الركض. صغير الرأس، نحيف الأذنين ولكن واسع العينين. لقد قلت لكم إنه اتّجه نحو اليمين، على كل حال أسرعوا!»

لبث القيّم بُرهة متردداً ثم أشار إلى أتباعه ونزلوا متّبعين الدرب على اليمين، بينما تابعت بغلتانا الصعود. وكنت على وشك أن أسأله، لفرط فضولي، ولكنه أشار إليّ بالانتظار: وفعلاً بعد لحظات قليلة سمعنا صيحات غبطة وعند مُنعطف الدرب ظهر الرُّهبان والخدم من جديد يقودون الجواد من لجامه، ومرّوا بجانبنا وهم ينظرون إلينا ببعض الاندهاش ثم تقدّموا إلى الدير. أظن أن غوليالمو أمهل مطيّته حتى يترك لهم الوقت لرواية ما حدث. وقد أتيح لي فعلاً أن أدرك أن أستاذي، الذي هو عموماً رجل ذو سجايا سامية، كان يترك الغرور يتملكه عندما يعطي بُرهاناً على حدة ذكائه. وبما أنه سبق لي أن أعجبت بتبصّره وبلباقته، فقد فهمت أنه كان يريد الوصول إلى مقصده، تسبقه شهرة متينة بأنه رجل واسع العلم.

في النهاية لم أقدر على التماسك أكثر وسألته: «والآن قل لي، كيف فعلت لتعلم بذلك؟»

Twitter: @ketab_n

فقال: «يا عزيزي أدسو. إنني منذ أن بدأنا الرحلة وأنا أعلّمك أن تقرأ العلامات التي يكلّمنا بها العالَم وكأنه كتاب كبير. لقد كان ألانو ديلّي إيزولي (Alano delle Isole) يقول:

كل كائنات الدنيا،

هي لنا كتاب ورسم،

يتجلّى في مرآة.

وكان يعني الذخيرة التي لا تنفد من الرموز التي يكلّمنا بها الربّ، من خلال كائناته، عن الحياة الأزلية. ولكن الكون أكثر بلاغة مما كان يظنّ ألانو فهو لا يتكلم فقط على أمور الخاتمة (في هذه الحالة يكون دائماً غامضاً) بل حتى عمّا هو قريب، وهو عندئذٍ على غاية من الوضوح. أكاد أخجل من تكرار ما ينبغي أن تكون على علم به. عند مفترق الطرق، ارتسمت بكل وضوح على الثلج الذي لا يزال طريّاً آثار حوافر جواد، متّجهة نحو الدرب الذي كان على يسارنا. وكانت المسافة بين الحافر والآخر طيبة ومتساوية مما يدلّنا على أن الحافر كان صغيراً ومستديراً وأن الركض كان منتظماً جداً. واستنتجت من ذلك طبيعة الجواد وأنه لم يكن يعدو بارتباك كما تفعل الدابة المهتاجة. وحيث تكوّن أشجار الصنوبر سقفاً طبيعياً كسرت بعض الأغصان حديثاً على ارتفاع خمسة أقدام بالضبط. وفي إحدى أجمات التوت، حيث دار الحيوان ليأخذ المسلك على يمينه، وهو يحرّك ذيله الجميل باعتزاز، بقيت بين الأشواك شعرات طويلة شديدة السواد. . . وأخيراً لا تقل لي إنك لا تعرف أن ذلك المسلك يؤدي إلى مصب المزابل، لأننا عند صعودنا المُنعطف السفلي رأينا سيلان الأوساخ ينزل عمودياً تحت البرج الجنوبي، ملوّثاً بياض الثلج. ونظراً لوضع مفترق الطرق فلا يمكن أن يؤدي ذلك المسلك إلا نحو ذلك الاتجاه».

فقلت: «صحيح. ولكن الرأس الصغير، والأذنين النحيفتين، والعينين السوداوين. . .»

Twitter: @ketab_n

ـ لا أعرف إن كان كما وصفته ولكنّي متأكّد من أن الرُّهبان يعتقدون ذلك بثبات. يقول إزيدورو دي سيفيليا (Isidoro di Siviglia) إنّ جمال الجواد «يتطلب أن يكون له رأس صغير وعظميّ كما لو كان الجلد ملتصقاً بالعظم، وأذنان نحيفتان ومدبّبتان وعينان كبيرتان ومنخران واسعان ورقبة مستقيمة وعرف وذيل فاخران وحافر مستدير ثابت». فلو لم يكن الجواد الذي استنتجت أنه مرّ من هنا أحسن جواد في الإصطبل فلا يمكنك أن تفسّر لماذا لم يخرج السُّوّاس وحدهم لملاحقته وإنما تكلّف عناء ذلك القيّم نفسه. والراهب الذي يعتبر جواداً ما ممتازاً، زيادة على شكله الطبيعي، لا يمكن أن يراه إلاّ كما وصفه له أهل المعرفة، خاصة ـ ونظر إليّ بابتسامة خبيثة ـ خاصّة إذا كان ذلك الراهب بنيدكتيّاً علاّمة...

فقلت: «حسناً. ولكن لماذا سميته برونيلّو؟»

فصاح أستاذي: «ليمنحك روح القدس فهماً أكثر مما يحويه دماغك يا ولدي! وكيف تريد أن تسميه إذا كان بوريدانو (Buridano) العظيم، الذي يوشك أن يصبح رئيس جامعة في باريس، عندما تحدث عن جواد جميل، لم يجد إسماً أرشق من برونيلّو؟»

هكذا كان أستاذي. لم يكن يعرف قراءة كتاب الطبيعة الكبير فحسب بل والكيفية التي كان الرُّهبان يقرأون بها الكتب المقدسة ويفكرون من خلالها. وهي خصال ستعود عليه في الأيام اللاحقة، كما سنرى فيما بعد، بكثير من النفع. ومن جهة أخرى بدا لي تفسيره جليّاً إلى حدّ أن الخزي الذي أحسستُ به لعدم التوصل إليه بمفردي ترك الآن المجال للاعتزاز لمساهمتي فيه، وكدت أهنىء نفسي بذكائي. تلك قوّة الحقيقة، فهي كالخير تشيع من تلقاء نفسها. وليتمجّد اسم سيدنا المسيح المقدس لما ألهمت به.

ولكن استمرّي أيتها القصة فهذا الراهب الشيخ يطيل التوقف عند التفاصيل الهامشية، وقل بالأحرى إنّنا وصلنا إلى بوابة الدير الكبيرة، يقف على عتبتها رئيس الدير ومعه راهبان مبتدئان يحملان طشتاً ذهبياً صغيراً مليئاً بالماء. وعندما نزلنا عن دابتينا غسل يدي غوليالمو ثم ضمّه إلى صدره وقبّله على فمه مقدّماً إليه تحيته المقدّسة بينما كان القيّم يعتني به، وقال غوليالمو: «شكراً لك يا أبّوني. إنّ الفرحة

Twitter: @ketab_n

تغمرني وأنا أضع قدمي على أرض ديركم الجليل، الذي ذاع صيته إلى ما وراء هذه الجبال. إني أتيته زائراً باسم سيدنا المسيح وبهذه الصفة أكرمتموني. ولكنني أتيته أيضاً باسم مولانا على هذه الأرض، كما ستقول إليكم الرسالة التي أسلّمها إليكم، وباسمه أيضاً أشكركم على حسن ضيافتكم».

وتسلّم رئيس الدير الرسالة التي كانت تحمل الختم الإمبراطوري قائلاً إن مجيء غوليالمو كانت قد سبقته على كل حال رسائل من إخوانه (مما جعلني أستنتج بشيء من الزهو، أنه من الصعب مفاجأة رئيس دير بنيدكتي)، ثم رجا القيّم أن يقودنا إلى مسكنيْنا، بينما تسلّم السوّاس منا دابتيْنا. ووعد رئيس الدير أن يزورنا بعد حين عندما نكون قد أصبنا قليلاً من الطعام. ودخلنا الساحة الكبيرة التي تمتدّ فوقها بناءات الدير، على طول الرحبة التي كسرت قمة الجبل فجعلت منها منخفضاً ليّناً أو مرعى.

ستتاح لي الفرصة أكثر من مرّة للحديث عن تنظيم الدير، وبأكثر دقة. وراء البوابة الكبيرة (وهي الفتحة الوحيدة في أسوار الحزام) ينفتح شارع متّسع تحفّ به الأشجار يقود إلى كنيسة الدير. وعلى يسار الشارع تمتدّ مساحة واسعة من المباقل، من بينها كما علمت فيما بعد الحديقة النباتية، تحيط بالحمامات وبمبنى المستشفى ومخزن الأعشاب، اللذين يحاذيان انعطافة الأسوار. في آخر الشارع، على شمال الكنيسة، يرتفع الصّرح، تفصله عن الكنيسة رحبة تغطيها القبور. وتطلّ بوابة الكنيسة الشمالية على البرج الجنوبي للصرح الذي يترك نظر الزائر يقع مباشرة على البرج الغربي، ثم يلتئم على اليسار بالأسوار ويتردّى بأبراجه في الهاوية التي يرتفع منها البرج الشمالي وقد بدا للعيان جانبياً. وعلى يمين الكنيسة تمتد بعض البناءات من خلفها وحول الرواق: هي دون شك قاعة النوم وإقامة رئيس الدير ودار الضيافة التي كنا متّجهين إليها والتي وصلناها بعد أن اجتزنا حديقة جميلة. وعلى الجانب الأيمن، وراء فسحة كبيرة، كانت توجد مجموعة من الأحياء الفلاحية تشمل الإصطبلات والمطاحن والمعاصر والمخازن والأقبية وتلك التي بدا لي أنها إقامة الرُّهبان المبتدئين، وكانت كل هذه البناءات تحاذي الأسوار الجنوبية إلى شرقي الكنيسة وخلفها. وقد سمحت استواءة سطح المرتفع، الذي كان قليل

Twitter: @ketab_n

التموّج، لمشيّدي هذا المكان المقدس الأقدمين باحترام ما تمليه قواعد التوجيه، أحسن مما يمكن أن يطمح إليه أونوريو (Onorio) أو أغسطودونينسِه (Augustoduniense) أو غوليالمو دوراندو (Durando). فمن موقع الشمس في تلك الساعة من النهار، لاحظت أن البوابة تُطلّ بأكملها على الغرب، بحيث يكون اتجاه الخورس والمذبح نحو الشرق، مما يجعل الشمس عند بزوغها في الصباح الباكر توقظ مباشرة الرُّهبان في المرقد والحيوانات في الإصطبلات. لم يسبق لي أن رأيت ديراً أجمل وأفضل توجّهاً، حتى بعد أن عرفت سان غالّو، وكلوني وفونطيني وأخرى غيرها، ربما كانت أكبر من هذا الدير ولكنّها أقلّ تناسباً. ويختلف هذا الدير عن غيره بضخامة حجم الصّرح. ومع أني لا أملك خبرة الباني المحنّك، فسرعان ما لاحظت أنه أقدم من البناءات الأخرى المحيطة به، ربما كان قد شُيّد لأغراض أخرى، ثم تكوّنت حوله في عقود لاحقة المجموعة الديرية، ولكن بصفة تجعل اتجاه المبنى الكبير يتلاءم مع اتجاه الكنيسة، والعكس. لأن الهندسة المعمارية، من بين كل الفنون، هي تلك التي تحاول بكل جرأة أن تنقل في نسقها نسق الكون والتي كان الأقدمون يسمّونها «كوسموس» أي مزخرف، لأنها بمثابة حيوانٍ عظيم يتجلّى فيه تكامل وتناسب كل أعضائه، وليُحمد الخالق الذي، كما يقول أغوسطينو (Agostino)، حدّد كل شيء عدداً ووزناً وقياساً.

Twitter: @ketab_n

اليوم الأول: ثالثة

وفيه يجري غوليالمو محادثة مفيدة
مع رئيس الدير

كان القيّم بديناً، مبتذل المظهر وإن كان بشوشاً، أشيب الشعر وإن كان لا يزال قوياً، قصير القامة وإن كان سريع الخُطى. وقادنا إلى حجرتنا في دار الضيافة. أو بالأحرى اصطحبنا إلى الحجرة المعدّة لأستاذي، ووعدني بحجرة ثانية في اليوم التالي، إذ إنني ضيفهم، ولو كنت مبتدئاً، ولذا ينبغي معاملتي بكل تبجيل. وكان عليّ أن أنام تلك الليلة في تجويف واسع وطويل جُعل في جدار الحجرة، فُرشت أرضه بالتبن الطريّ، وأضاف القيّم أنه يُستعمل أحياناً لنوم خدم بعض الأسياد الذين يرغبون في وجود من يحرسهم أثناء النوم.

ثم حمل إلينا الرُّهبان خمراً وجبناً وزيتوناً وزبيباً لذيذاً، وتركونا لنقتات، فأكلنا وشربنا بكثير من المتعة. ولم يكن أستاذي يتبع عادات البنيدكتيّين الصارمة ولا يحب أن يأكل في صمت. فكان يتحدث دائماً عن أشياء طيبة وصائبة جداً كما لو كان هناك راهب يقرأ علينا حياة القدّيسين.

لم أقدر، ذلك اليوم، على التماسك عن سؤاله ثانية بخصوص قصة الجواد، فقلت: «ولكنك، عندما قرأت العلامات على الثلج وعلى الأغصان، لم تكن تعرف برونيلّو. تلك العلامات كانت تحدّثنا، بطريقة من الطرق، عن كل الخيول، أو على الأقلّ عن الخيول المنتمية لذلك الجنس. ألا ينبغي أن نقول إذن إن كتاب الطبيعة يحدّثنا فقط عن جوهر الأشياء، كما يعلّمنا الكثير من كبار علماء اللاهوت».

فأجاب أستاذي: «ليس الأمر كذلك تماماً، يا عزيزي أدسو. أكيد أن مثل تلك الآثار تقدّم لي، إن أردت، «صورة ذهنية» عن الجواد، وستعبّر لي عن ذلك

Twitter: @ketab_n

أينما عثرت عليها. ولكن الأثر في ذلك المكان وفي تلك الساعة من النهار كان يقول لي إن واحداً على الأقل من مجموع الخيول المفترضة قد مرّ من هناك بحيث وجدت نفسي في منتصف الطريق، بين استيعاب مفهوم الجواد والتعرّف على جواد معيّن. وعلى كل حال، فإن ما أعرفه عن الجواد في العموم قد دلّني عليه الأثر، الذي كان دقيقاً ويمكنني أن أقول إنني كنت في تلك الآونة حبيساً بين دقة الأثر وجهلي، الذي كان يتّخذ شكل فكرة مطلقة على غاية من الضبابية. فإن أنت رأيت شيئاً من بعيد، دون أن تعرف ما هو، فستكتفي بتعريفه كجِرْم ممتدّ. وعندما يقترب منك ستعرف آنذاك أنه حيوان، حتى وإن كنت تجهل إن كان جواداً أو حماراً. وعندما يقترب أكثر سيمكنك القول إنه جواد وإن كنت لا تعرف بعد إن كان برونيلّو (أي ذلك الجواد لا غيره، كيفما أردت تسميته). وستكون تلك هي المعرفة الكاملة، أو إدراك خصوصيّة الشيء عن طريق الحدس. وهكذا كنت أنا منذ ساعة. كنت مستعدّاً لتقبّل كل أجناس الخيول، لا لاتساع إدراكي ولكن لضعف حدسي. ولم أشفِ غليلي من المعرفة إلاّ عندما رأيت ذلك الجواد بالذات يقوده الرُّهبان من لجامه. عندها فقط تحقّقت من أن تخميني الأول قادني قريباً من الحقيقة. وهكذا كانت الأفكار التي خطرت لي في البداية لتصور جواد لم أرَه من قبل، كانت علامات بحتة، كما كانت الآثار فوق الثلج علامات لمفهوم جواد: فنحن نستعمل العلامات، وعلامات العلامات فقط عندما تنقصنا الأشياء».

لقد سبق لي أن سمعته يتحدّث بكثير من التحفظ عن الأفكار المطلقة وباحترام كبير عن الأشياء الخصوصية: وبدَا لي، حتى فيما بعد، أن هذا الميل كان يأتيه من كونه بريطانياً ومن كونه فرانشسكانيّاً. ولكن لم تكن لديّ ذلك اليوم القوة الكافية لمجابهة نقاش لاهوتي: فانكمشت على نفسي في الفضاء المخصّص لي، والتففت في غطاء ثم غرقت في نوم عميق.

كان يمكن لمن يدخل أن يظنني صُرّة. وذلك ما حدث بالتأكيد لرئيس الدير عندما جاء حوالى «ثالثة» لزيارة غوليالمو. وتمكّنت إذن من سماع محادثتهما الأولى، دون أن ينتبها إليّ، ودون خبث لأن ظهوري فجأة للزائر سيكون فيه من قلّة الأدب أكثر مما سيكون في اختفائي، كما فعلت بكل تواضع.

Twitter: @ketab_n

دخل إذن أبّوني واعتذر للإزعاج، مجدداً ترحابه. ثم قال إنه يودّ التحدث إلى غوليالمو، على انفراد، وفي شيء على غاية من الأهمية.

واستهلّ حديثه بتهنئته على المهارة التي أبداها بخصوص الجواد وسأله كيف أمكنه أن يعطي أخباراً دقيقة جداً حول دابّة لم يرَها من قبل. فشرح له غوليالمو بإيجاز وتجرّد، السبيل الذي سلكه وسُرّ رئيس الدير بفطنته وقال إنه لم يكن ينتظر أقل من ذلك من رجل سبقته الشهرة بأنه ثاقب الفكر. وأضاف قائلاً إنه تلقى رسالة من رئيس دير فارنا يحدّثه فيها عن المهمّة التي عهد بها الإمبراطور إلى غوليالمو (والتي ستُناقش في الأيام المقبلة) ولكنه يقول فيها أيضاً إن أستاذي كان فيما مضى محقّقاً في إنكلترا وفي إيطاليا في بعض القضايا، التي تميّز فيها بفطنة فائقة اقترنت بمشاعر إنسانية كبيرة.

وأضاف رئيس الدير قائلاً: «لقد سُرِرت عندما بلغني أنك حكمت في عدّة قضايا ببراءة المتّهم. إني أؤمن، خاصة في هذه الأيام المحزنة بتدخّل الشيطان المستمرّ في شؤون الإنسان ـ ثم نظر حواليه بحذر كما لو كان العدوّ يطوف بين تلك الجدران ـ ولكني أعتقد أيضاً أن الشيطان يعمل في كثير من الأحيان لأغراض ثانية. وأعرف أنه بوسعه أن يدفع ضحاياه لفعل الشرّ بطريقة تجعل الذنب يقع على بريء، ملتذاً برؤيته يحترق بدلاً من الجاني. وغالباً ما ينتزع المحققون الاعتراف من المتّهم بكل الوسائل، حتى يبرهنوا على مهارتهم، لاعتقادهم أن المحقّق المقتدر هو الذي يتحصّل في نهاية التحقيق على كبش الفداء...»

فقال غوليالمو: «يحدث أيضاً أن يكون المحقّق محرّكاً من طرف الشيطان». فأيّده رئيس الدير بكثير من الحذر: «هذا ممكن، لأن تدابير العليّ خفية علينا، ولكنّي لن أرتاب في رجال لهم مثل تلك الكفاءة والفضل، بل بالعكس، أنا اليوم بحاجة إليك، بصفتك واحداً منهم. لقد حدث في هذا الدير شيء يستوجب تيقظ ونصيحة رجل ثاقب الفكر حصيف. ثاقب الفكر ليكشف وحصيف كي يغطّي (إذا اقتضى الأمر). فغالباً ما يقتضي الأمر أن يُثبت جرائم رجال كان ينبغي أن يمتازوا بطهارتهم، ولكن يجب أن يقع ذلك بطريقة يُنتزع بها أصل الشرّ دون تعريض

Twitter: @ketab_n

المذنب لازدراء العامّة. عندما يخطىء الراعي ينبغي إبعاده عن بقية الرُّعاة، ولكن الويل إذا ما أخذت النعاج ترتاب في الرُّعاة».

فقال غوليالمو: «فهمت»، ـ وقد أمكن لي أن ألاحظ أنه عندما يجيب بتلك الطريقة السريعة والمؤدّبة، فهو يخفي عادة، بكل صدق، اختلاف رأيه أو حيرته.

فتابع رئيس الدير قائلاً: «لذا أرى أنه عندما يحدث أمر يتعلّق بزلّة أحد الرُّعاة فلا يمكن أن يعهد به إلاّ لرجال مثلك، لا يفرقون بين الخير والشرّ فحسب، بل وأيضاً بين ما هو ملائم وما هو غير ملائم. وما يسرّني أنني أعتقد أنّك لم تصرّح بالإدانة إلاّ عندما...»

ـ «... إلاّ عندما اقترف المتّهمون أعمالاً إجرامية، من تسميم، وإفساد لأطفال أبرياء وأعمال شنيعة أخرى لا يجرؤ لساني على التلفظ بها...»

فواصل رئيس الدير دون مبالاة بمقاطعة كلامه: «... إنك لم تصرّح بالإدانة إلاّ عندما بدا حضور الشيطان واضحاً للجميع بحيث لا يمكن التصرّف بطريقة مُختلفة وإلاّ أصبح الصفح أشنع من الجريمة نفسها».

فأوضح غوليالمو قائلاً: «عندما يتأكّد لي جُرْم متّهم فذلك يعني أنه اقترف الجُرم حقّاً بحيث يمكنني أن أسلّمهِ إلى السلطة المدنيّة وأنا مرتاح الضمير».

فتردّد رئيس الدير لحظة ثم سأله: «لماذا تلحّ على الأعمال الإجرامية دون التعرّض لأسبابها الشيطانية؟»

ـ «لأن الكلام عن العلّة والمعلول صعب، ولا يقدر على الفصل فيه إلاّ اللّه. وإذ يصعب علينا كثيراً ربط علاقة بين معلول واضح كشجرة محترقة والصاعقة التي أحرقتها، فما بالك لو راجعنا سلاسل أحياناً طويلة جداً من العلل والمعلولات، فهذا يبدو لي من الجنون بقدر محاولة بناء برج يصل إلى السماء».

فأوعز رئيس الدير: «إن العلاّمة الأكويني لم يخشَ أن يثبت وجود اللّه بقوة الفكر وحدها، راجعاً من علّة إلى علّة حتى العلّة الأولى التي لا علّة لها».

فقال غوليالمو بتواضع: «من أنا حتى أعارض العالِم الأكويني؟ خاصة وأن

Twitter: @ketab_n

بيّنات عديدة أخرى تدعّم إثباته لوجود اللّه، مما يزيد منهجه قوّة. إن الإلٰه يحدّثنا من أعماق نفوسنا، كما أدرك ذلك أغوسطينو، وأنت يا أبّوني ستسبّح بحمد الإلٰه وبجلاء وجوده حتى ولو أن تُومَا لم...» وتوقف، ثم أضاف: «يبدو لي...»

فسارع رئيس الدير بطمأنته: «آه، بدون شكّ». وهكذا وضع أستاذي حداً بطريقة رائعة، لمناقشة مدرسية كان من الواضح أنها لم تكن تروقه كثيراً. وبعد ذلك عاد ليقول: «لنعد إلى المحاكمات. لنفترض أن شخصاً قُتل مسموماً. يمكنني من خلال التجربة أن أتصوّر، أمام بعض العلامات غير القابلة للجدال، أن شخصاً آخر قام بعملية التسميم. يمكن لفكري، في نطاق هذا التسلسل البسيط من العلل، أن يعمل وهو واثق شيئاً ما من قدراته. ولكن كيف يمكنني أن أعقّد السلسلة متصوّراً، أن من سبّب الفعلة الشريرة هو تدخّل آخر، غير إنساني هذه المرّة بل شيطاني؟ لا أقول إن ذلك مستحيل، فالشيطان أيضاً يكشف مروره بعلامات واضحة، كجوادك برونيلّو. ولكن لماذا البحث عن تلك البراهين؟ ألا يكفيني أن أعرف أن المذنب هو ذلك الرجل وأن أسلّمه إلى السلطة المدنية؟ على كلّ حال سيكون عقابه الموت، وليغفر اللّه له».

ـ «ولكن تبيّن لي أنه في محاكمة جرت في كلكيني منذ ثلاث سنوات، اتُّهِم فيها ثلاثة أشخاص بجرائم فظيعة، لم تنفِ تدخّل الشيطان، وذلك بعد أن اتّضح من هم الجُناة».

ـ «ولكنني لم أُؤَكد ذلك قط بكلمات صريحة. لم أنفِه أيضاً، هذا صحيح. من أنا حتى أحكم على دسائس الشيطان، خاصة»، ـ وأضاف كمن يريد أن يؤكد على هذا السبب ـ «خاصة في حالات كان يرغب كلّ من أُمروا بالتحقيق ـ الأسقف، والقُضاة المدنيون والشعب كلّه، وربما المتّهمون أنفسهم ـ في أن يحسّوا حقيقة بوجود الشيطان؟ هو ذاك، لعلّ البُرهان الحقيقي الوحيد على وجود الشيطان هو القوة التي يتوق بها الجميع في تلك الآونة إلى معرفة أنه بصدد العمل...»

فقال رئيس الدير بنبرة تنم عن القلق: «تريد أن تقول إنه في كثير من المحاكمات لا يؤثر الشيطان فقط في المذنب بل ربما ـ وخاصة ـ في القُضاة؟»

Twitter: @ketab_n

فسأله غوليالمو: «أيمكنني أن أجزم بمثل هذا؟»

وشعرت بأن السؤال طرح بحيث لا يستطيع رئيس الدير الجزم بأنه يمكنه ذلك، وهكذا اغتنم غوليالمو صمته ليغيّر مجرى الحديث وتابع كلامه قائلاً: «في الحقيقة هذه الأشياء مضى عليها وقت طويل. لقد تخلّيت عن تلك المهنة النبيلة، ولئن امتهنتها فلأنّ تلك كانت إرادة الإله...»

فأقرّ رئيس الدير قائلاً: «دون شكّ».

ثم تابع غوليالمو: «والآن أهتم بمسائل أخرى دقيقة. وأودّ أن أهتمّ بتلك التي تشغل بالك لو حدّثتني عنها».

بدا لي أن رئيس الدير ارتاح لإنهاء تلك المناقشة وللعودة إلى مشكلته.

وأخذ إذن، بكثير من الحذر في اختيار الكلمات وبلفّ طويل في الكلام، في رواية حدث غريب وقع منذ بضعة أيام وخلّف اضطراباً كبيراً بين الرُّهبان. وقال إنه يحدّث غوليالمو في ذلك لأنه يعرفه خبيراً بالنفس الإنسانية وبدسائس الشيطان وأنه يأمل أن يخصّص البعض من وقته الثمين لإزالة القناع عن لغز غامض ومؤلم جدّاً. حدث إذن أن أحد المعّازين عثر في قاع المنحدر الذي يعلوه البرج الشرقي للصّرح على جثّة أدالمو دا أوترانتو (Adelmo da Otranto)، وهو راهب لا يزال في مقتبل العمر مع أن صيته ذاع في فنّ النمنمة، وكان بصدد زخرفة مخطوطات المكتبة بصور رائعة. وبما أن الرُّهبان الآخرين رأوه في الخورس عند صلاة النوم ولكنه لم يظهر عند صلاة أوّل الصبح، فمن الظّن أن يكون قد سقط في المنحدر عند أحلك ساعات الليل ظلاماً. وكانت قد هبّت في تلك الليلة عاصفة ثلجية قويّة، سقطت أثناءها ندفات من الثلج قاطعة كالشفرات، حتى أنها كانت تبدو بَرَداً، تدفعها دَبور عنيفة. وعُثر على جثته في أسفل الهوّة وقد مزّقتها الصُخور التي اصطدمت بها وبلّلها الثلج الذي ذاب في البداية ثم يبس فأصبح صفائح من الجليد. جسد فانٍ مسكين وضعيف، ليغفر له الربّ. ومن جرّاء الاصطدامات التي تعرّض لها الجسم أثناء سقوطه، لم يكن من السهل تحديد

Twitter: @ketab_n

النقطة التي سقط منها بالضبط: لا شكّ من إحدى النوافذ التي تفتح على ثلاثة صفوف من الطوابق في جوانب البرج الأربعة المطلّة على الهاوية.

فسأل غوليالمو: «وأين دفنتم الجثة المسكينة؟»

وأجاب رئيس الدير: «في المقبرة، بطبيعة الحال. ربما لاحظت موقعها بين جانب الكنيسة الشمالي والصرح والمبقلة».

فقال غوليالمو: «فهمت.. فهمت أنّ مشكلتك هي الآتية. لو كان ذلك المسكين، لا سمح اللّه، قد انتحر (إذ لا يمكن أن نتصور أنه سقط صُدفة) لوجدت في اليوم الموالي إحدى تلك النوافذ مفتوحة، إلاّ أنك وجدتها كلّها مغلقة، ولا أثر للماء في أسفل أية نافذة منها».

كان رئيس الدير كما ذكرت، رجلاً ذا تحكّم كبير في نفسه، ولكن بدت عليه هذه المرّة حركة دلّت على فرط المفاجأة، ونزعت عنه المظهر الذي يليق بالشخص الوقور والشهم، كما يريده أرسطو وسأل: «من قال لك ذلك؟» فأجاب غوليالمو: «أنت الذي قلت لي. لو أنك وجدت النافذة مفتوحة لذهب فكرك في الحال إلى كونه رمى نفسه منها. وهي، كما أمكنني أن أتصوّرها من الخارج، نوافذ كبيرة ذات زجاج سميك، من تلك التي لا تفتح في العادة، وفي مبانٍ من هذا الحجم لا تكون على ارتفاع قامة رجل. ولو فرضنا إذن أن نافذة قد فتحت، وبما أنه لا يمكن أن يكون ذلك الشقي قد أطلّ منها ففقد توازنه، لم يبقَ إلاّ أن نتصور أنه انتحر. وفي هذه الحال ما كنت سمحت بدفنه في المقبرة المقدّسة، ولكنك دفنته بحسب الطقوس المسيحية، فالنوافذ كانت إذن مغلقة. لأنه إذا كانت مغلقة، وبما أنه لم تعترضني حتى في قضايا السّحر حالة ميّت سادر في غيّه مكّنته القدرة الإلٰهية أو الشيطانية من الصعود ثانية من المنحدر لفسخ آثار جُرمه، يصبح جليّاً أن المنتحر قد دفعته بالأحرى يد، إنسانية كانت أو شيطانية. وأنت تتساءل من يكون، لا أقول من دفعه في الهاوية، بل من رفعه بالرّغم منه حتى حافة النافذة، وتحسّ بالانزعاج لأن قوّة شريرة، طبيعية كانت أو فوق طبيعية، تطوف الآن عبر أرجاء الدير».

Twitter: @ketab_n

فقال رئيس الدير: «الأمر كما تقول...» ـ ولم يكن واضحاً إن كان يؤيد أقوال غوليالمو أو كان يقنع نفسه بالحجج التي أثبتها أستاذي ببراعة كبيرة ـ «ولكن كيف عرفت أنه لم يكن هناك ماء في أسفل أية نافذة؟»

ـ «لقد قلت لي إن دَبُوراً كانت تهبّ بعنف ولا يمكنها إذن أن تدفع الماء نحو نوافذ تفتح على الشرق».

فقال رئيس الدير: «إن مناقبك تفوق ما قيل لي. صحيح لم يكن هناك ماء، والآن أعرف لماذا. لأن الأمر وقع كما ذكرت. أنت تفهم إذن سرّ قلقي. إنها لكارثة لو تشوّه أحد رُهباني بخطيئة الانتحار المنكرة، ولكن الآن لديَّ ما يوجب الظن أن أحد الرُّهبان ارتكب إثماً لا يقلّ فظاعة عن الأوّل... ويا ليته كان الإثم الوحيد!»

ـ «قبل كلّ شيء، لماذا قلت أحد الرُّهبان؟ يعيش في الدير أشخاص آخرون كثيرون من سُوّاس ومعّازين وخدم...»

فأقرّ رئيس الدير متباهياً: «أكيد، هذا الدير صغير ولكنه ثري. مائة وخمسون خادماً مقابل ستين راهباً. ولكن حدث كلّ شيء في الصّرح. وهناك، ربما أنت تعرف ذلك: يوجد المطبخ وقاعة الأكل في الطابق الأول، وتوجد في الطابقين العلويين قاعة الكتابة والمكتبة. بعد وجبة العشاء يُغلق الصرح مع أمر صارم بمنع الدخول على أيّ كان»، ـ ثم تكهّن بسؤال غوليالمو وأضاف فوراً ولكن على مضض ـ «بما في ذلك الرُّهبان بطبيعة الحال، ولكن...»

ـ «ولكن؟»

ـ «ولكنني أنفي قطعاً، أفهمت؟ قطعاً، أن يكون قد تجرّأ خادم ودخل الصرح أثناء الليل». ـ وومض في عينيه بريق تحدّ، ولكنه كان خاطفاً كومضة برق أو شهاب سيّار ـ «قل إنهم يخافون، فهمت... في بعض الأحيان ينبغي دعم الأوامر التي تُعطى للخدم ببعض التهديدات، كإنذار من يعصى الأوامر بوقوع شيء رهيب، مأتاه قوة فوق طبيعية، أما الراهب...»

Twitter: @ketab_n

ـ «فهمت».

ـ «هناك شيء آخر. يمكن أن يجد راهب أسباباً أخرى تجعله يخاطر بالدخول إلى مكان ممنوع، أعني أسباباً... كيف يمكن أن أقول؟ معقولة ولو أنها تخالف النظام....»

وفطن غوليالمو إلى حرج رئيس الدير فألقى سؤالاً ربما أراد به تغيير مجرى الحديث، ولكنه ولّد مثل الأوّل حرجاً كبيراً: «عندما تحدّثت عن إمكانية القتل قلت: يا ليته كان الإثم الوحيد. ماذا كنت تريد أن تقول؟»

ـ «أنا قلت ذلك؟ إذن، لا يقتل الإنسان دون سبب، وإن كان ضالاً. وإني أرتعد عند التفكير في ضلال الأسباب التي يمكن أن تكون أدّت براهب إلى قتل أخيه. هو ذا».

ـ «لا غير؟»

ـ «لا يمكنني أن أقول لك غير هذا».

ـ «تريد أن تقول إنك لا تقدر أن تقول شيئاً آخر؟».

ـ «أرجوك أيها الأخ غوليالمو يا أخي غوليالمو»، وأكّد رئيس الدير على كلّ من لفظتي «أخ» و«أخي» ـ فاحمرّ وجه غوليالمو بشدّة وعلّق قائلاً: «ليجعلك الربّ دائماً من كهنته» ـ وردّ رئيس الدير: «شكراً».

آه، يا إلٰهي، ما السرّ الرهيب الذي مرّ في تلك اللحظة بخاطر رئيسيَّ القليلَي الحذر، يدفع أحدَهما القلقُ والآخرَ الفضولُ. لأنني أنا الراهب المبتدىء الذي يسير على درب الكهنوت المقدس، حتى أنا الصبي الحقير فهمت أن رئيس الدير كان على علم بشيء ما ولكنه عَلِمَه في كنف سريّة الاعتراف. قد يكون عَلِم من فم أحدهم بعض التفاصيل الآثمة التي رُبّما كانت لها علاقة بنهاية أدالمو المأساوية. ولعلّه لهذا السبب كان يرجو الأخ غوليالمو اكتشاف سرّ ارتاب به ولا يمكنه إفشاؤه لأحد، آملاً أن يسلّط أستاذي الضوء بقوّة العقل على ما ينبغي عليه هو أن يطويه في الظلام بحكم الطاعة لقوة الرحمة العُليا.

Twitter: @ketab_n

فقال غوليالمو عندئذ: «حسناً، أيمكنني إلقاء أسئلة على الرُّهبان؟»

ـ بإمكانك ذلك.

ـ وأن أتجوّل بحرية في الدير؟

ـ أسمح لك بذلك.

ـ أتعهد إليّ بهذه المهمة أمام جميع الرُّهبان؟

ـ هذه الليلة بالذات.

ـ ولكنني سأبدأ اليوم، قبل أن يعلم الرُّهبان بما كلّفتني به. ومن ناحية أخرى، (و ليس هذا هو السبب الأخير لمروري من هنا) بودّي أن أزور مكتبتكم التي ذاع صيتها في كلّ أديرة العالم المسيحي.

فنهض رئيس الدير دفعة واحدة ووجهه في غاية التوتّر: «قلت إنه يمكنك أن تتجول في جميع أرجاء الدير إلاّ في الطابق الأخير من الصّرح، في المكتبة».

ـ لماذا؟

ـ كان ينبغي أن أشرح لك هذا من قبل، وكنت أظن أنك على علم به. أنت تعرف أن مكتبتنا ليست كالمكتبات الأخرى...

ـ أعرف أنها تملك من الكتب أكثر من أية مكتبة مسيحية أخرى. أعرف أن خزانات بوبيو أو بومبوزا، كلوني أو فلوري تبدو بالمقارنة مع خزاناتكم حجرة طفل صغير يتعلّم مبادىء الحساب. أعرف أن الستة آلاف مخطوط التي كان يتباهى بها نوفاليزا (Novalesa) منذ مائة سنة أو أكثر هي شيء قليل بالمقارنة مع ما يوجد لديكم، وربّما يكون الكثير منها الآن هنا. أعلم أن ديركم هو النُّور الوحيد التي تقدر المسيحية أن تضاهي به مكتبات بغداد الستّ وثلاثين، والعشرة آلاف مخطوط التي يمتلكها الوزير ابن العلقمي، وأن كتبكم المقدّسة تعادل الألفين وأربعمائة مصحف قرآني التي تتباهى بها القاهرة، وأن حقيقة خزاناتكم هي البيّنة الساطعة ضد أسطورة الكافرين الصلفة الذين يقولون (وهم المتعوّدون على البُهْتان) إن مكتبة طرابلس تعدّ ستّة ملايين من الكتب ويسكنها ثمانون ألف شارح ومائتا ناسخ.

Twitter: @ketab_n

ـ هذا صحيح، ونحن نحمد السّماء على ذلك.

ـ أعرف أن رُهباناً كثيرين من بين الذين يعيشون بينكم، يأتون من أديرة أخرى منتشرة في كلّ أرجاء الدنيا: منهم من يأتي لوقت قصير، ما يكفي لنسخ مخطوطات غير موجودة في أماكن أخرى ليحملها بعد ذلك إلى مركزه، ويحمل إليكم على سبيل التبادل بعض المخطوطات النادرة تنسخونها وتضيفونها إلى كنوزكم. ومنهم من يقضي وقتاً طويلاً جدّاً، أحياناً حتى الموت، لأنه لا يجد الكتب التي تثري أبحاثه إلاّ في هذا المكان. لذا يوجد بينكم ألمان، وداسيون، وإسبان وفرنسيون ويونانيون. أعرف أن الإمبراطور فريدريك طلب منكم منذ عدّة سنوات أن تؤلفوا له كتاباً حول تنبؤات ميرلينو (Merlino) وأن تترجموه بعد ذلك إلى العربية، لإرساله هدية إلى سلطان مصر. وأعرف أخيراً أن ديراً مجيداً كدير موورباخ، لا يملك في هذه الأيام التعيسة كتاباً واحداً، وأن في سان غالّو بقي القليل من الرُّهبان ممّن يعرفون الكتابة، وأنه الآن تظهر في المدن الجمعيات والفئات المهنية من المدنيين التي تعمل لفائدة الجامعات ولم يبقَ إلاّ ديركم يجدّد يوماً بعد يومٍ، ماذا أقول؟ يحمل دائماً إلى أعلى قمّة أمجاد نظامكم...

فتلا رئيس الدير وهو مستغرق في أفكاره: «إن ديراً بدون كتب هو كمدينة بدون صناعة أو قلعة بدون جند أو مطبخ بدون أوانٍ أو مائدة بدون طعام أو حديقة بدون نبات أو مرج بدون زهور أو شجرة بدون ورق. ونظامنا الذي نما مستجيباً لوصيتَي العمل والصلاة، كان نوراً لكل العالم المعروف، وذخيرة للمعرفة، وإنقاذاً لعقيدة قديمة كانت مهدّدة بالزوال في حرائق وحروب وزلازل، ومصهراً لكتابة جديدة وتنمية للقديمة... إيه، أنت تعلم جيدّاً أننا نعيش اليوم أزمِنةً حالكة، وإنه ليحمرّ وجهي وأنا أقول لك إنه منذ سنوات غير بعيدة اضطر مجمع فيينّا أن يؤكد أنه ينبغي على كل راهب أن يدخل في نظام... كم من بين أديرتنا، من التي كانت منذ مائتي سنة مركزاً مشعّاً بالعظمة والقداسة، وأصبحت الآن ملاذاً للخاملين. إن نظامنا لا يزال قويّاً ولكن عفن المدينة يطوّق عن قرب أسوارنا المقدّسة. إن شعب الربّ يميل الآن إلى التجارة وحروب الطوائف، هناك، في المراكز السكانية الكبرى، حيث لا تجد روح القداسة مثوى، وتستعمل العاميّة الآن

Twitter: @ketab_n

لا للكلام فقط (ويكون ذلك طبيعياً لغير الكنيسيّين) بل وأيضاً للكتابة. ولن يدخلنّ أبداً كتاب من تلك الكتب أسوارنا ـ وإلاّ ستصبح حتماً منبع هرطقة! أصبح العالم يشرف على الهلاك من جرّاء خطايا الإنسان، فقد تغلغل فيه الهلاك نفسه الذي ينادي إلى الهلاك. وغداً، كما كان يقول أُونوريو، ستصبح أجسام العباد أصغر من أجسامنا، كما أن أجسامنا كانت أصغر من أجسام الأوائل. العالم يَهْرَم، وإن كانت هناك مهمّة قد عهد بها الربّ إلى نظامنا فهي التصدّي لهذا السقوط في الهاوية، والاحتفاظ بالحكمة التي عهد بها إلينا آباؤنا، وترديدها والدفاع عنها. إن الحكمة الإلٰهية جعلت السلطة الكونية، التي كانت في بداية الدنيا في المشرق، تنتقل شيئاً فشيئاً نحو الغرب لتنذرنا باقتراب أجل العالم، لأن مجرى الأحداث قد وصل إلى حدود الكون. ولكن ما لم يسقط نهائياً أَجَلُ الألف عام، ما لم ينتصر، ولو لوقت وجيز، الوحش الدنس الذي هو المسيح الدجّال، يتحتّم علينا نحن الدفاع عن كنوز العالم المسيحي، وعن كلمة اللّه نفسها، كما أملاها على الأنبياء والرسل، وكما ردّدها علينا الآباء دون تغيير أيّة كلمة، وكما حاولت المدارس أن تفسّرها ولو أن في هذه المدارس نفسها يختبىء ثعبان الغرور، والحسد والجنون. في هذا الأفول بقينا نحن مشعلاً ونوراً في الأفق. وما دامت هذه الأسوار صامدة، سنكون نحن حرّاس الكلمة الإلٰهية».

فقال غوليالمو بنبرة خشوع: «وليكن كذلك، ولكن ما دخل هذا وتحجير الدخول إلى المكتبة؟»

فأجاب رئيس الدير: «أنظر يا أخ غوليالمو، لكي يتحقق ذلك العمل العظيم والمقدّس الذي يثري تلك الأسوار» ـ وأشار إلى الصّرح الذي كان يتراءى من خلال نوافذ القاعة، متعالياً، يفوق الكنيسة نفسها ارتفاعاً ـ «عمل رجال أتقياء لمدّة قرون، متّبعين قواعد صارمة جدّاً. لقد أُنشئت المكتبة بحسب رسم بقي غامضاً للجميع عبر القرون ولا ينبغي لأيّ راهب أن يعرفه. حافظ المكتبة وحده تلقّى السرّ من الحافظ الذي سبقه، وينقله بدوره إلى مساعده وهو على قيد الحياة، حتى لا يُباغته الموت فتُحرم المجموعة من تلك المعرفة. وشفتا كليهما مختومة بذلك السرّ. وحافظ المكتبة وحده يمكنه بالإضافة إلى معرفة السرّ، أن يتجوّل في متاهة

Twitter: @ketab_n

الكتب، هو وحده يعلم أين يجد الكتب وأين يعيدها، هو وحده المسؤول عن صيانتها. الرُّهبان الآخرون يعملون بقاعة الكتابة ويمكنهم الاطلاع على قائمة الكتب الموجودة في المكتبة. ولكن قائمة عناوين لا تفيد في الغالب إلاّ قليلاً وحافظ المكتبة وحده يعرف، من موضع الكتاب ومن صعوبة الوصول إليه، نوعية الأسرار، والحقائق، أو الأكاذيب، التي يحويها. وهو وحده يقرّر كيف ومتى، وهل يسلّمه إلى الراهب الذي طلبه. وفي بعض الأحيان يفعل ذلك بعد استشارتي. لأنّ كل الحقائق ليست لكلّ الآذان، ولا يمكن لنفس ورعة أن تدرك كل الأكاذيب على حقيقتها، والرُّهبان أخيراً، يجدون أنفسهم في قاعة الكتابة ليفرغوا همّتهم في عمل معيّن، لأجله ينبغي عليهم قراءة تلك الكتب لا غيرها، لا لاتّباع كل فضول جنوني يستحوذ عليهم، سواء لقصر إدراكهم، أو لغرورهم، أو تلبية لإغواء شيطاني».

ـ إذن، توجد أيضاً في المكتبة كتب تحتوي على أكاذيب. . .

ـ المسوخ موجودة لأنها جزء من الرسم الإلٰهي وفي ملامح الوحوش القبيحة تتجلّى عظمة الخالق. كذلك توجد أيضاً بإرادة إلٰهية كتب السحرة، وقبّالة اليهود، وأساطير الشعراء الوثنيين، وأكاذيب الكفّار. وكان يقين أولئك الذين أسّسوا وساندوا هذا الدير راسخاً ومقدّساً. إن في كتب الأكاذيب أيضاً يمكن أن يتراءى لعيني القارىء الفطن نور ضئيل من الحكمة الإلٰهية. ولذا تحفظها المكتبة في خزانتها. ولكن للسبب نفسه، هل فهمت، لا ينبغي أن يدخلها أيّ كان ـ وأضاف رئيس الدير كمن يعتذر لضعف الحجة الأخيرة ـ وعلاوة على ذلك فالكتاب أداة هشّة، تعاني من بلاء الدهر، وتخاف القواضم، وتقلّبات الجوّ، وأيدي عديمي الخبرة بها. لو أمكن للمرء طيلة مئات السنين، أن يتلمّس بحرية مخطوطاتنا لاندثر أكثرها. فحافظ المكتبة لا يحفظها فقط من الإنسان ولكن من الطبيعة أيضاً، ويكرّس حياته لهذه الحرب ضدّ قوى النسيان، والنسيان عدو الحقيقة.

ـ هكذا إذن، لا يمكن لأحد، عدا شخصين، أن يدخل إلى الطابق الأخير من الصرح. . .

Twitter: @ketab_n

فابتسم رئيس الدير قائلاً: «لا يمكن لأحد، ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك، وحتى إن أراد أحدهم ذلك فلن يقدر عليه. فالمكتبة تدافع عن نفسها بنفسها، لا يُسبر غورها كالحقيقة الكامنة في أعماقها، وهي خادعة كالأكاذيب التي تحويها. هي متاهة روحية ولكنها متاهة أرضية أيضاً. قد تقدر على الدخول إليها وقد لا تقدر على الخروج منها. ومع كلّ هذا، أودّ أن تمتثل أنت أيضاً لقواعد الدير».

ـ ولكنك لم تستبعد أن يكون أدالمو قد سقط من إحدى نوافذ المكتبة. وكيف يمكنني أن أحقق في مصرعه دون أن أرى المكان الذي ربّما تكون بدأت فيه قصّة موته؟

فأجاب رئيس الدير بنبرة استرضاء: «أخي غوليالمو، إن رجلاً وصف جوادي برونيلّو دون أن يراه، وموت أدالمو دون أن يعرف عنه شيئاً تقريباً، لن يصعب عليه التفكير في أماكن لا يمكنه الدخول إليها».

فانحنى غوليالمو قائلاً: «إنك حكيم بقدر ما أنت صارم. كما تريد».

فأجاب رئيس الدير: «إن كنتُ حقيقة حكيماً فلأنني أعرف كيف أكون صارماً».

ثم سأله غوليالمو: «شيء أخير. أوبارتينو (Ubertino)؟»

ـ إنه هنا، في انتظارك، ستجده في الكنيسة.

ـ متى؟

فابتسم رئيس الدير: «دائماً. تعرف أنه، رغم سعة علمه، ليس ممّن يولون اعتباراً للمكتبة. فهو يرى فيها إغراء القرن... إنه يقضي جلّ وقته في الكنيسة يتأمّل ويصلّي...»

فسأله غوليالمو بتردّد: «هل هرم؟»

ـ منذ متى لم تره؟

ـ منذ سنوات طويلة.

Twitter: @ketab_n

ـ إنه متعب، كثير التجرّد عن مآرب هذه الدنيا. له من العمر ستّ وثمانون سنة. ولكني أظنّه لا يزال يملك روح الشباب.

ـ سأذهب إليه فوراً، أشكرك.

ثم سأله رئيس الدير إن كان يريد أن ينضمّ إلى المجموعة لتناول العشاء، بعد «سادسة». فقال غوليالمو إنه أكل منذ قليل، وبوفرة، وإنه يفضل أن يرى أوبارتينو في الحال. فودّعه رئيس الدير.

وعند خروجه من الحجرة ارتفع من الساحة صراخ ممزّق، كصراخ شخص أصيب بجرح قاتل، تبعته صيحات أخرى فظيعة كالأولى. فسأل غوليالمو بحيرة: «ما هذا؟» فأجاب رئيس الدير مبتسماً: «لا شيء. في هذا الفصل تذبح الخنازير. وليس هذا النوع من الدم هو الذي يجب عليك أن تهتمّ به».

ثمّ خرج، وقد خيّب الظن فيما عُرف به من أنه رجل فطن، لأنه في الصباح الموالي... ولكن اكبح لجام تلهّفك، أيها اللسان الثرثار. إذ في اليوم الذي يعنينا وقبل الليل، حدثت أشياء أخرى كثيرة يجدر بي أن أقصّها.

Twitter: @ketab_n

اليوم الأول: سادسة

وفيه يقف أدسو معجباً أمام بوّابة الكنيسة ويلتقي غوليالمو بأوبارتينو دا كزالي

لم تكن الكنيسة عظيمة مثل كنائس أخرى رأيتها من بعد في ستراسبورغ وشارتر وبامبارغ وباريس. كانت أشبه بتلك التي شاهدتها في إيطاليا، لا ترتفع شاهقة نحو السّماء بل تنتصب ثابتة على الأرض، وغالباً ما يفوق عرضها ارتفاعها. غير أن المستوى الأول كان ينتهي، شبيهاً في ذلك بقلعة، بصف من الشرفات المربّعة، وفوق ذلك المستوى ترتفع بناية ثانية تبدو برجاً أكثر من كونها كنيسة ثانية متينة، ويعلوها سقف مُدَبَّب قد ثقبته نوافذ خالية من الزخارف. كانت كنيسة ديرية وطيدة كما كان أسلافنا يبنون في بروفانسا ولونغدوق، وبعيداً عن الجسارة والمبالغة في الزركشة اللتين يتميّز بهما الأسلوب الحديث، ولم تتزيّن إلاّ منذ زمن قريب على ما أظنّ، فوق الخورس بمسلّة مصوّبة بجسارة نحو قبة السماء.

وكان عمودان مستقيمان وعاريان يحيطان بالمدخل الذي يبدو لأول وهلة وكأنه عقد واحد كبير: ولكن من العمودين كانت تنطلق فتحتان تعلوهما أقواس أخرى متعدّدة وتقودان النظر، فكأنه يغرق في لجة، إلى البوابة الحقيقية، التي كانت تتراءى في العتمة، تعلوها لوحة جبهة كبيرة، وتسندها من كل ناحية عضادتان وفي الوسط ركيزة منحوتة تفصل المدخل إلى فتحتين، يسدّهما بابان من السّنديان مقوّيان بالحديد. في تلك الساعة من النهار كانت أشعة الشمس الشاحبة تسقط شبه عمودية على السقف ويصل النُّور جانبياً إلى الواجهة دون أن ينير لوحة الجبهة: وهكذا، ما إن تجاوزنا العمودين، حتى وجدنا نفسينا فجأة تحت قبّة الأقواس شبه الغابية المتفرعة من صف الأعمدة الصغرى التي يعزّزها تعادل

Twitter: @ketab_n

العضادتين. وأخيراً، وعندما تعوّدت الأعين على الظلمة بهر نظري فجأة حديث صامت للحجارة المنحوتة، مفتوح مباشرة لنظر ولخيال أيّ كان (لأن الرسم هو أدب العامّة) وأغرقني في رؤيا لا يزال يصعب على لساني وصفها.

رأيت عرشاً وُضع في السماء عليه جالس. وكان وجه الجالس صارماً وبارداً وعيناه المحدقتان ترميان بلحظهما بشريةً دنيويةً وصلت إلى نهاية مطافها، وكان شعره ولحيته المهيبة يسقطان على وجهه وعلى صدره كأنهما مياه نهر، تتفرع جوانبها متساوية ومتوازنة على الجانبين. وكان التاج الذي يحمله على رأسه مرصعاً بالمينا والأحجار الكريمة، والقميص الإمبراطوري الأرجواني يسقط من حوله في دورات رحيبة على ركبتيه، موشحاً بالتطريز والتخاريم بخيوط من الذهب والفضّة. وكانت اليد اليسرى، ثابتة على الركبتين، تمسك كتاباً مختوماً، بينما كانت اليمنى مرتفعة في إشارة لا أدري إن كانت مبارِكة أو متوعِّدة. وكانت تضيء الوجه هالة صليبية مزهرة ذات جمال مريع، ورأيت حول العرش وفوق رأس الجالس قوس قزح من الزمرد يتألق. وأمام العرش، تحت ساقي الجالس، يسيل بحر من الزجاج، وحول الجالس، وحول العرش وفوق العرش رأيت أربعة حيوانات مريعة بالنسبة إليّ أنا الذي كنت أنظر إليها ذاهلاً ولكنها كانت وديعة ومسالمة جداً بالنسبة إلى الجالس وكانت تسبّح بحمده دون انقطاع.

ينبغي أن أقول إنها في الحقيقة لم تكن كلّها مُفْزِعة، لأن الرجل الذي كان على شمالي (وعلى يمين الجالس) بدا لي وسيماً ولطيفاً وكان يمد كتاباً. ولكن في الجانب المقابل بدا لي نَسْر رهيب فاغراً منقاره، وكان ريشه المزئبر في شكل درع، وكانت براثنه قوية وجناحاه العظيمان مفتوحين. وعند قدمي الجالس، تحت الصورتين الأوليين، صورتان أخريان لثور وأسد، وكل من الوحشين يشدّ بين حوافره ومخالبه كتاباً، وكان الجسم موجّهاً نحو خارج العرش بينما الرأس موجّه نحو العرش، كأنما الكتفان والرقبة ملتوية في اندفاع شرس، والجوانب خافقة، وكأن أعضاءهما أعضاء حيوان يُحتضر، فاغر الشدقين وينتهي ذيلاهما الملتفان والمعقوفان كالحية بألسنة من لهب. وكان الوحشان مجنّحين ومتوّجين كليهما بهالة، ورغم مظهرهما الرهيب لم يكونا من مخلوقات الجحيم بل من مخلوقات

Twitter: @ketab_n

السماء، وإن ظهرا مروِّعين فلأنهما يزأران خشوعاً للقادم الذي سيحاسب الأحياء والأموات.

وحول العرش، بجانب الحيوانات الأربعة وتحت قدمي الجالس، كان يتربّع أربعة وعشرون شيخاً على أربعة وعشرين كرسيّاً، كأنما يظهرون من خلال شفافية مياه بحر البلّور، وكانوا يملؤون تقريباً مجال الرؤية كلّه، تتبع تركيبتهم هيكل لوحة الجبهة المثلث، مرتفعين من قاعدة تتكون من سبعة وسبعة، ثم ثلاثة وثلاثة، فاثنين واثنين، مرتدين أقمصة بيضاء وحاملين تيجاناً من الذهب منهم من كان يمسك بزهرة بنفسج ومنهم من كان يحمل كأس عطر، وكان واحد منهم فقط يعزف، بينما كان الآخرون منخطفين في وجد، ملتفتين إلى الجالس يمجّدون خصاله، وأعضاؤهم هي الأخرى ملتوية كأعضاء الحيوانات حتى يتسنى للجميع مشاهدة الجالس ولكن ليس بصفة حيوانية بل بحركات رقصة وَجْدية ـ كما يمكن أن نتصوّر رقصة داود حول تابوت العهد ـ بحيث أينما وُجدوا تذهب مُقْلة أعينهم، ضد القانون الذي يحكم قامة الأجسام، نحو النقطة الساطعة نفسها. آه، يا لتناسق ذلك الاستسلام وذلك الاندفاع، يا لتلك الأوضاع المصطنعة والرشيقة مع ذلك، في تلك اللغة الروحية التي تنطق بها أعضاء تحررت بأعجوبة من ثقل المادة الجسدية، يا لهذه المجموعة الموسومة بالقداسة في صورة كهنية جديدة، كأن ريحاً عاتية عصفت على تلك المجموعة المقدّسة، فهي نفث حياة وحرارة انشراح وتهليل مسبّح تحوّل بأعجوبة من صوت إلى صورة.

أجساد وأعضاء سكنتها الروح وأنارها الوحي فوجوهها مضطربة من الاندهاش ونظراتها ثملة من الحماس ووجناتها ملتهبة من الهيام وحدقاتها متّسعة من الطوبى، وقد صعق أحدَهم ارتياعٌ لذيذ، وخرقت الآخر لذّة مريعة، منهم من تبدّل مظهره من الإعجاب ومنهم من تجدّد شبابه من الغبطة، وإذا بهم ينشدون بسيماء وجوههم وبرفارف أرديتهم وبتعبير أعضائهم وتوتّرها، أنشودة جديدة تفتّحت لها شفاههم بابتسامة حمد أزلية. وعند أقدام الشيوخ، وفي كل قوس فوقهم، وفوق العرش وفوق مجموعة الأربعة، طرائد متطابقة مرتبة بشكل يصعب على العين التفرقة بين الواحدة والأخرى لحكمة الفنّ الذي جعلها كلّها متناسبة

Twitter: @ketab_n

بعضها لبعض، متساوية في اختلافها ومُختلفة في وحدتها، فريدة في تنوّعها ومتنوّعة في تطابق مجموعتها، في انسجام رائع لأجزائها مع عذوبة أخّاذة في الألوان، آية في توافق أصوات مُختلفة وتناغمها، مجموعة رتبت حسب أوتار قيثارة، قربى في اتفاق وتآمر مستمرّين لقوة عميقة وداخلية قادرة على تحقيق المعنى الموحّد في نفس تعاقب المعاني الملتبسة، زخرفة ومواجهة لكائنات طوراً منقوصة وطوراً غير منقوصة، من عمل متيّم تحكمه قاعدة سماوية ودنيوية في الوقت نفسه (وثاق وصلة ثابتة للسلم، والحبّ، والفضيلة، والقانون، والسلطة، والنظام، والمصدر، والحياة، والنُّور، والإشعاع، والجنس والصورة)، اعتدال متعدّد ومشعّ لإشعاع الصورة فوق الأجزاء المتناسبة للمادة، هي ذي كل الأزهار تتشابك والأوراق والدوالي، والعوسج وأعذاق كل النباتات التي تتزين بها حدائق الأرض والسماء، من بنفسج وقصاص وسعتر وزنبق وحنّاء ونرجس وقلقاس وقنتوس وغار ومرّ ونباتات فوّاحة.

وبينما كادت تنفجر روحي في ترتيل جذل، وقد سحرها ذلك الائتلاف بين محاسن دنيوية وعلامات سماوية عظيمة، إذ وقعت عيني، وهي تتتبّع نسق الشموس المزهرة المتناسبة الموجودة عند أقدام الشيوخ، على أشكال تكوّن في التفافها شيئاً واحداً مع الركيزة الأساسية التي تسند لوحة الجبهة. ماذا كانت وما هي الرسالة الرمزية التي تبلغها تلك الأزواج الثلاثة من الليوث المتشابكة في شكل صليب موضوع بالعرض، حابية كالأقواس، مركزة قوائمها الخلفية على الأرض ومستندة بالأمامية على ظهر الرفيق، ولبدتها منفوشة بدوائر ثعبانية الشكل، وأشداقها مفتوحة في زمجرة متوعدة، تشدها إلى جسم الدعامة نفسه طينة، أو عُشٌ من العَطفات؟ وهدّأت خاطري، بوجودهما هناك إلى جانبي الدعامة وكأنهما تريدان كبح طبيعة الليوث الشيطانية وجعلها إشارة رمزية إلى الأشياء العُليا، صورتان بشريتان، طويلتان بشكل غير طبيعي، بقدر طول العمود نفسه، وتواجههما بتوازن صورتان أخريان على العضادتين المزخرفتين بتشخيص على جانبيهما الخارجيين حيث كانت لكل من البابين من السنديان قوائمه: كانت إذن أربع صور لشيوخ، تعرفت من خلال توابعهم على أنهم بطرس وبولس وإرميا وأشعيا، أجسامهم ملتوية وكأنهم في حركة رقص، وأيديهم الطويلة النحيفة مرفوعة

Twitter: @ketab_n

وأصابعهم ممتدّة كالأجنحة، وكالأجنحة كانت اللّحى والشعر تحرّكها ريح نبويّة، وكانت طيّات الثياب طويلة جداً وتحركها سيقان طويلة جداً هي الأخرى فكانت تخلق أمواجاً ودورات، مواجهة للّيوث ولكن في مادة اللّيوث نفسها. وبينما كان نظري المفتون ينصرف عن تلك المجموعة الغامضة من أعضاء مقدّسة وعضلات جهنّمية، إذ رأيت حذو البوّابة، وتحت الأقواس العميقة مشاهد أخرى مُفْزعة لا مُبرّر لوجودها في ذلك المكان المقدّس إلاّ لقوّتها الرمزية والمجازية أو للدرس المعنوي الذي تلقّنه، وكانت منحوتة أحياناً على أكتاف الأعمدة في الفرجة الموجودة بين الأعمدة النحيفة التي تسندها وتزخرفها وأحياناً فوق النباتات الكثيفة التي تزخرف تيجان الأعمدة ثم تتفرّع من هناك نحو القبّة الغابية ذات الأقواس المتعدّدة.

رأيت أنثى فاجرة عارية ومجرّدة من اللحم تنخرها ضفادع دَنِسة، وتمتصّها ثعابين، وهي تُجامِع وحشاً مُنتفخ البطن له قوائم عنقاء يغطّيها شعر أشعث وكان شدقه الفاحش يعلن هلاكه. ورأيت بخيلاً، جامداً جمود الموت على فراشه المزخرف بأعمدة فاخرة، وقد بات فريسة، لا حول لها، لجمع من الأبالسة، كان أحدها يقتلع من فمه، مع حشرجة الموت، روحه في شكل رضيع (لن يحيا، واحسرتاه، أبداً للحياة الأزلية). ورأيت متكبّراً قد استقرّ فوق كتفيه شيطان غرس مخالبه في عينيه، بينما كان أكولان يمزّق أحدهما الآخر وقد التصق جسداهما التصاقاً كريهاً. وكانت مخلوقات أخرى، برأس تيس وشعر أسد وفم فهد، حبيسةً في غابة من اللّهب تكاد أنفاسها اللافحة تصل إليّ، وحولهم، مختلطة بهم، وفوقهم وعند أقدامهم، وجوه أخرى وأعضاء أخرى، هنا رجل وامرأة قد أمسك أحدهما بشعر الآخر، وهناك أفعَوان تمتصّان عيني أحد الهالكين، ورجل، بضحكة هازئة، يفتح بيديه المعقوفتين فم هدرة، وكل حيوانات الجحيم قد تجمّعت لتحرس وتتوّج العرش الذي يواجهها، منشدة عظمته من خلال هزيمتها: مخلوقات برجلَيْ ماعز، ومخلوقات ذات جنسين ووحوش بأيدٍ ذات ست أصابع وجنيات بحر، وقنطورات وغرغونات، وخطّافات وحضونات وتنانين ثعبانية وسنتورات وأوشاق وفهود، وخيامر ووحوش بوجه كلب تنفث النار من مناخيرها ودانتيريونات، ومخلوقات بعدة أذناب ومسوخ كثيفة الشعر وسمندلات وحيّات

Twitter: @ketab_n

قرناء وثعابين برمائية وحيّات ملساء وذوات رأسين مسنّنة الظهر، وضباع وقنادس وأوزاغ وتماسيح وحيوانات مائية ذات قرون منشارية، وضفادع وعنقاوات وقردة وقردوحيات ومسوخ مهق ووحوش مانتاكورة، ونسور ومخلوقات تشبه الإنسان وسراعيب وتنانين وبوم ومليكات، ومتفرّعات، ويافرات وأشباح التين وعقارب وعظائيات وحوتيات وأشياق وعظاءات خضراء وأخطبوطات وسلاحف.

فكأنّ سكان الجحيم قد اجتمعوا ليُكوّنوا رواقاً وغاباً مظلماً وغوراً قاحلاً يسكنه القنوط، أمام مشهد الجالس على لوحة الجبهة، أمام وجهه المليء بالأمل والوعيد، أولئك هم مهزومو الأرماجدّون أمام الذي سيأتي ليفرّق نهائياً بين الأحياء والأموات. وكاد أن يغمى عليّ من تلك الرؤيا، وقد داخلني الشكّ إن كنت أجد نفسي في مكان أليف أم في وادي الدينونة الأخيرة، ذُهِلْتُ، وبكثير من العناء تمالكت نفسي عن البكاء، وبدا لي أنّني سمعت (أم سمعت حقاً؟) ذلك الصوت وشاهدت تلك الرؤى التي صاحبت طفولتي وأنا مبتدىء، وقراءاتي الأولى للكتب المقدّسة وليالي التأمل في دير «مالك» وإذ خارت قواي الضعيفة جداً والمُنْهَكة سمعت صوتاً قوياً كأنه صوت نفير يقول «اكتب ما ترى في كتاب» (وهذا ما أفعله الآن)، ورأيت سبعة قناديل من الذهب وبين القناديل واحد يشبه ابن الإنسان، تطوّق صدره عصابة من الذهب، وكان رأسه وشعره ناصعين كالصوف الأبيض، وعيناه كأنهما شعلتان من نار، وقدماه كأنهما نحاس حام في أتون، وصوته كهدير مياه وفيرة، وكان يمسك في يمينه سبع نجوم ومن فمه كان يخرج سيف ذو حدّين. ورأيت باباً فُتح في السماء وذلك الذي كان جالساً بدا لي يَشْباً ويَصْباً وقوس قزح كان يحفّ بالعرش ومن العرش كانت تخرج بروق ورعود. وأخذ الجالس في يده منجلاً مشحوذاً وصاح «اضرب بمنجلك واحصد فقد حانت ساعة الحصاد وأينع زرع الأرض»، وضرب ذلك الجالس بمنجله وحصد الأرض.

فهمت عندئذٍ أن الرؤيا لم تكن تتكلّم عن شيء إلاّ عمّا كان يقع في الدير، والذي عرفناه من شفتي رئيس الدير المتحفظتين ـ وكم من مرّة عدت في الأيام الموالية لأقف متأمّلاً أمام البوّابة، واثقاً من أنّني سأعيش الحادثة نفسها التي تقصّها. وفهمت أنّنا صعدنا إلى ذلك المكان لنشهد مذبحة إلٰهية عظيمة.

Twitter: @ketab_n

ارتجفت وكأن مطر الشتاء قد بلّلني. وسمعت صوتاً آخر ولكنه هذه المرّة كان يأتي من خلفي وكان صوتاً مُختلفاً، لأنه صدر من الأرض وليس من وسط رؤياي المشعّة، بل بالعكس، قد حطّم الرؤيا لأن غوليالمو (عند ذلك فقط تفطّنت إلى وجوده)، الذي كان هو أيضاً إلى ذلك الحين غارقاً في التأمل، استدار كما استدرت أنا.

كان المخلوق الذي يقف وراءنا يبدو راهباً، ولو أن عباءته الوسخة والممزّقة جعلته يشبه المتشرّد، ولم تكن خلقته مُختلفة عن خلائق تلك الوحوش التي شاهدتها لتوّي في اتّجاه الأعمدة. ولم يقع لي قط في حياتي، كما وقع للكثير من زملائي، أن يزورني الشيطان، ولكنني أظنّ أنه لو حدث ذلك وظهر لي يوماً، وبما أن الحكمة الإلٰهية جعلته غير قادر على إخفاء طبيعته تماماً حتى عندما يحاول التشبّه بالإنسان، فلن يظهر بخلقة مغايرة لتلك التي بدا لنا بها في تلك اللحظة محدّثنا. كان رأسه محلوقاً، ولكن لا لِكفّارة بل تحت تأثير قديم لبعض الإكزيمات القائحة، وكان جبينه واطئاً. فلو كان هناك شعر فوق رأسه لاختلط بالحاجبين (اللذين كانا كثيفين ومهملين)، وكانت عيناه مستديرتين، وحدقتاهما صغيرتين شديدتي الحركة، ولست أدري إن كانت النظرة بريئة أم خبيثة، وقد تكون هذا وذاك، على التوالي وفي لحظات مُختلفة. ولا يمكن أن نتحدّث عن أنفه إلاّ بسبب عظم متجذّر من وسط عينيه ولكنه ما إن يخرج قليلاً عن وجهه حتى يعود حالاً فيغوص فيه، متحوّلاً لا لشيء إلاّ لمغارتين مظلمتين هما منخراه الواسعان المليئان بشعر كثيف. أمّا فمه الذي كان يجمعه بالمنخرين أثر جرح، فكان واسعاً وقبيحاً، يمتدّ أكثر إلى اليمين منه إلى اليسار، وبين شفته العُليا، التي لا وجود لها، والسفلى التي كانت بارزة وغليظة، تظهر بنسق غير منتظم أسنان سوداء ومدبّبة كأنها أسنان كلب.

تبسّم الرجل (أو هكذا خيّل لي) ورفع إصبعه كمن ينذر قائلاً:
«Penitenziagite! انظر عندما يأتي التنين ليأخذ روحك! La mortz est super nos! أدعُ أن يأتي البابا القديس ليخلّصنا من إثم كل الخطايا! ها، ها، هل أعجبتك هذه النبوءة de Domini Nostri Iesu Christi! حتى الفرح ألم والانشراح ألم.. Cave el

Twitter: @ketab_n

diabolo! فهو دائماً يترصّدني في مكانٍ ما ليعضّ قدمي. ولكن سلفاتوري ليس غبياً! Bonum monasterium، هنا نشبع بالأكل ونعبد dominum nostrum والباقي لا يساوي فلساً. Et amen. أليس كذلك؟»

ينبغي عليّ أثناء سرد هذه القصة أن أعود للحديث وبكثرة عن هذا المخلوق وأنقل أحاديثه. أعترف أن ذلك يصعب عليّ لأنّني لا أستطيع القول الآن كما لم أفهم وقتئذٍ قط، أيّة لغة كان يتكلّم. لم تكن اللاتينية، التي يتكلّم بها رجال العلم في الدير، ولا لهجة تلك البقاع، ولا أيّة لغة أخرى كنت قد سمعتها من قبل. أظنّ أنّني أعطيت فكرة شاحبة عن طريقته في الكلام ناقلاً أعلاه (حسبما أتذكّر) الكلمات الأولى التي سمعتها منه. عندما اطّلعت فيما بعد على حياته المغامرة والأماكن المُختلفة التي عاش فيها دون أن يجد جذوراً في أيّ منها، فهمت أن سلفاتوري يتكلّم كلّ اللغات، ولا يعرف واحدة منها. أو بالأحرى اخترع لنفسه لغة تستعمل أجزاء من اللغات التي احتكّ بها ـ وفكّرت مرة أن لغته ليست لغة بني آدم التي تكلمتها البشرية عندما كانت سعيدة، تجمعها لغة واحدة منذ أوّل الدنيا إلى قلعة بابل، ولا حتى لغة من تلك التي ظهرت بعد حادثة انشقاقها المشؤوم: كانت بحق لغة بابل في اليوم الأوّل بعد العقاب الإلٰهي، لغة بلبلة العهود الأولى. بل لا يمكنني حتى أن أسمّيها لغةً، تلك التي كان يتكلّمها سلفاتوري، لأنّ في كلّ اللغات البشرية قواعد وكل مفردة تعني «بحسب هوانا» شيئاً، تبعاً لقانون لا يتغيّر، لأن الإنسان لا يمكنه أن يسمّي الكلب أحياناً كلباً وأحياناً قطاً، كما لا يمكنه أن ينطق بأصوات لم تُعطِها المجموعة معنى محدّداً، كما يمكن أن يحصل لمن ينطق بكلمة «بليتيري blitiri».

ومع ذلك، كنت أفهم، قليلاً أو كثيراً، ما كان يعنيه سلفاتوري، مثلما كان يفهمه الآخرون. وفي ذلك دليل على أنه لا يتكلّم لغة بعينها بل كل اللغات، ولا يستعمل واحدة منها بطريقة صحيحة، مستمدّاً كلماته تارة من هذه وأخرى من تلك.

وتفطّنت أيضاً فيما بعد إلى أنه كان يقدر أن يسمي شيئاً تارة باللاتينية وأخرى بالبروفانسية، كما فهمت أنه في الحقيقة كان لا يكوّن جملاً، بل كان يستعمل

Twitter: @ketab_n

قطعاً من جمل أخرى، سمعها يوماً بحسب الظروف والأشياء التي يودّ التعبير عنها، أعني أنه لا يستطيع أن يتكلّم على طعام إلاّ مستعملاً كلمات الأشخاص الذين تناول عندهم ذلك الطعام، أو أن يعبّر عن فرحته إلاّ بالتعابير التي سمعها عند أناس مغتبطين، يوم أن شعر هو بالغبطة نفسها. كأنّ كلامه مثل وجهه، يتألّف من قطع وجوه أخرى، أو كما رأيت أحياناً مذاخر رُفَات نفيسة (إن كان بالإمكان مقارنة الهامّ بالتافه، أو الإلٰهي بالشيطاني) تنشأ من بقايا مقدّسة. في تلك اللحظة التي التقيت به فيها لأوّل مرّة، بدا لي سلفاتوري، من ناحية الوجه، ومن ناحية طريقته في الكلام، مخلوقاً شبيهاً بتلك المخلوقات المهجّنة الكثيفة الشعر ذات الحوافر التي رأيتها منذ حين تحت البوابة. فيما بعد تفطّنت إلى أن الرجل ربما كان طيّب القلب وذا مزاج مرح. وبعد ذلك أيضاً... ولكن لنتقدّم بنظام. ذلك لأنه ما إن أتمّ كلامه حتى سأله أستاذي بكثير من الفضول.

ـ لماذا قلت «Penitenziagite»؟

فأجاب سلفاتوري وهو ينحني شيئاً ما: «سيّدي وأخي الكريم، Jesus venturus est ويجب على الناس أن يتوبوا. أليس كذلك؟» ـ فحدّق فيه غوليالمو ثم سأله: «هل أتيت من دير رهبانية فرانشسكانية؟»

ـ لا أفهم.

ـ أسألك، هل عشت بين إخوان القديس فرانشسكو، وهل عرفت أولئك الذين يدّعون أنهم الرسل...

فشحب وجه سلفاتوري، أو بالأحرى أصبح وجهه الأسمر والحيواني رمادياً، وانحنى هامساً من بين شفتيه «vade retro» ورسم بخشوع علامة الصليب ثم هرب ملتفتاً من حين لآخر إلى الوراء.

فسألتُ غوليالمو: «ماذا طلبت منه؟»

فبقي قليلاً مشغول البال ثم قال: «لا يهمّ، سأقول لك ذلك فيما بعد. لندخل الآن. أريد أن أرى أوبارتينو».

Twitter: @ketab_n

كانت قد مضت منذ قليل الساعة السادسة. وكانت الشمس الشاحبة تصل من الغرب وتنفذ أشعتها من النوافذ القليلة والنحيفة إلى داخل الكنيسة. وكان خط رقيق من النُّور لا يزال يصل إلى المذبح الأكبر، وبدا لي ستاره يسطع بنور ذهبي بينما كان الجناحان الجانبيان غارقيْن في العتمة.

قرب المصلّى الأخير قبل المذبح، في الجناح الشمالي، كان يرتفع عمود نحيف ينتصب فوقه صنم عذراء من الحجارة، نقش بأسلوب حديث. كانت ابتسامتها تفوق الوصف، وبطنها بارزاً، وكان الطفل بين أحضانها يرتدي لباساً لطيفاً مع صدرية رهيفة. وعند قدمي العذراء كان رجل يصلّي، يكاد يكون راكعاً يرتدي لباس الإخوانية الكلونية.

اقتربنا. وعندما سمع الرجل وقع خطانا رفع رأسه. كان شيخاً، أملط الوجه، رأسه خالٍ من الشعر، وعيناه الكبيرتان زرقاوان، وفمه دقيق أحمر وقشرته بيضاء. وكانت الجلدة ملتصقة بجمجمته العظمية كما لو كانت مومياء احتفظ بها في الحليب. وكانت يداه بيضاوين وأصابعهما طويلة ونحيفة. كان يبدو طفلة أذبلها موت مبكّر. وألقى علينا في بادىء الأمر نظرة تائهة، كأننا أزعجناه في رؤيته اللّدنية ثم أشرق وجهه فرحاً وصاح: «غوليالمو! أخي العزيز!» ثم نهض بصعوبة واتّجه نحو أستاذي فضمّه إليه وقبّله على فمه معيداً «غوليالمو!» واغْرَوْرَقَتْ عيناه بالدموع «كم مضى من الزمن! ولكنني لا زلت أتذكّرك! كم مضى من الزمن، وكم من الأحداث مضت، وكم من امتحان فرض علينا الإله!» وبكى وبادله غوليالمو التحيّة وقد بدا عليه التأثّر. كنّا نقف أمام أوبارتينو دا كزالي.

وكنت قد سمعت عنه الكثير، حتى قبل مجيئي إلى إيطاليا، وسمعت عنه أكثر عند مخالطتي للفرانشسكانيين الموجودين في البلاط الإمبراطوري. بل ذكر لي أحد الأشخاص أن أعظم شاعر في ذلك الوقت، دانتي أليغييري دافيرانتسي، الذي كان قد مات منذ سنوات قليلة، ألّف قصيداً (ولم أتمكّن من قراءته لأنه كان مكتوباً باللهجة الفلورانسية) تداخلت فيه الأرض والسماء، والكثير من أبياته ليس إلاّ تأويلاً لفقرات كتبها أوبارتينو في كتابه: «**شجرة الحياة المقدّسة**»، وليس هذا هو الفضل الوحيد الذي يمكن أن يتباهى به ذلك الرجل الشهير. ولكن حتى أُمَكِّن

Twitter: @ketab_n

قارئي من أن يدرك أهميّة هذا اللقاء، ينبغي أن أحاول قص أحداث تلك السنوات، كما فهمتها، سواء من خلال كلمات أستاذي المتفرقة، أثناء إقامتي بإيطاليا الوسطى، أو من خلال استماعي إلى المحادثات المتعدّدة التي أجراها غوليالمو مع رؤساء الأديرة والرُّهبان طيلة سفرتنا.

سأحاول أن أتحدّث عنها كما فهمتها ولو أنني لست واثقاً من أنني سأحسن الكلام في هذا الشأن. غالباً ما قال لي أستاذي في «مالك» إنه يصعب كثيراً على أصيلي الشمال أن يكوّنوا فكرة واضحة عن الأحداث الدينية والسياسية في إيطاليا.

إن شبه الجزيرة التي كانت فيها قوة الإكليروس واضحة أكثر من أي بلد آخر، وأكثر من أيّ بلد آخر تبدو فيها قوة الإكليروس وثراؤه، ظهرت فيها منذ ما لا يقلّ عن قرنين حركات يقودها رجال اختاروا حياة الفقر، يُحاجُون الكهنة المُنحرفين، رافضين منهم حتى تقبّل أسرار القربان المقدّس، ومتجمّعين في طوائف مستقلّة مبغَضة في الآن نفسه من قبل الأسياد والإمبراطورية والحكّام المدنيّين.

أخيراً جاء القديس فرانشسكو، ونشر الدعوة لحب الفقر. وكانت لا تتنافى مع تعاليم الكنيسة، ويعود الفضل إليه أن استجابت الكنيسة إلى نداء الصرامة في السلوك التي تميّزت بها الحركات القديمة مطهّرة إياها من عناصر الفوضى التي عشّشت فيها. كان ينبغي أن تتبع ذلك فترة هدوء وقداسة، ولكن لمّا نمت الطائفة الفرانشسكانية وجلبت إليها أفضل الرجال عظم شأنها وتعلّقت بأمور الدنيا، فأراد العديد من الفرانشسكانيّين إرجاعها إلى نقاوتها الأولى. وهذا الأمر صعب بالنسبة إلى طائفة كانت تعدّ، في ذلك الزمان، أيام وجودي بالدير، ما يزيد عن ثلاثين ألف عضو منتشرين في كل أرجاء العالم. ولكن هذا ما وقع، والكثير من هؤلاء الفرانشسكانيّين عارضوا القاعدة التي اتّخذتها الجمعية، قائلين إنها أصبحت على منوال تلك الأنظمة الكنائسية التي كانت تريد إصلاحها. وإنّ ذلك حصل من قبل في حياة فرانشسكو، وهي خيانة لأقواله ولمقاصده. واكتشف الكثير منهم عندئذٍ كتاب راهب شيسترشنسي، كتبه في أوائل القرن الثاني عشر من تاريخنا، اسمه جُواكّينو نُسبت إليه قدرة التنبؤ. وفعلاً تنبّأ ببروز عهد جديد يمكن فيه لروح

Twitter: @ketab_n

المسيح، التي أفسدتها منذ زمن أعمال رسله الزائفين، أن تعود لتتحقّق على الأرض. وقد حدّد الآجال لذلك بحيث كان واضحاً للجميع أنه كان يقصد دون أن يدري رهبانية الفرانشسكانيّين. وهذا شيء سُرّ له العديد من الفرانشسكانيّين ويظهر أنهم بالغوا في ذلك، إلى درجة أن أساتذة السوربون في باريس في منتصف القرن أدانوا أفكار ذلك الراهب جُواكّينو، ولكن يظهر أنهم فعلوا ذلك لازدياد نفوذ الفرانشسكانيّين (والدومينيكيين)، وانتشار معرفتهم في جامعة فرنسا، وكان يُراد القضاء عليهم على أنهم ملحدون. ولكن ذلك لم يقع لحسن حظّ الكنيسة، إذ مكّن من نشر أعمال توما الأكويني وبونَفانتورا دا بانيوريجيو، اللذين لا يمكن أبداً اعتبارهما ملحدين. وهذا يعني أن الأفكار كانت مشوّشة حتى في باريس، أو أن أحدهم كان يريد تشويشها لأغراض شخصية.

وما رأيته فيما بعد في الدير (كما سيأتي ذكره) جعلني أظن أنه غالباً ما يخلق المحقّقون الهراطقةَ. وليس فقط عندما يتخيلونهم حيث لا يوجدون، ولكن لأنّ شدة قمعهم لجدري الهرطقة تجعل الكثيرين يصبحون هراطقة كرهاً لهم. إنها حقيقة حلقة من صنع الشيطان، عافانا اللّه.

ولكني كنت أتكلم على الهرطقة الجواكّينيّة (إن صحّ حقيقة أن نسمّيها كذلك) وشوهد في توسكانا فرانشسكانيّ يدعى جيراردو دا بورغو سان دونّينو، كان ينادي بتنبؤات جُواكّينو، محدثاً أثراً بالغاً في نفوس الفرانشسكانيّين. وهكذا ظهرت من بينهم جماعة من مؤيدي القاعدة القديمة، ضدّ محاولة إعادة تنظيم الرُّهبانية من طرف بونَفانتورا العظيم، الذي أصبح من بعد رئيساً لها.

في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الماضي، عندما أنقذ مجمع ليون الرُّهبانية الفرانشسكانية ممن كان يريد إزالتها، مانحاً إياها ملكية العقارات التي تستعملها، كما هو القانون بالنسبة إلى الأنظمة الرُّهبانية الأكثر قدماً، ثار بعض الرُّهبان في جهة «ماركي»، لأنهم يعتبرون ذلك خيانة لروح القاعدة، إذ لا يمكن لراهب فرانشسكاني أن يملك شيئاً سواء كان شخصاً، أو ديراً أو رهبانيةً. فوقع الزجّ بهم في السجن مدى الحياة. لا يبدو لي أنهم كانوا ينادون بأشياء منافية للإنجيل، ولكن عندما يقع التعرّض لملكية الأشياء الدنيوية يصبح من الصعب أن يفكر

Twitter: @ketab_n

الإنسان طبقاً للعدل. وقد قيل لي إنه بعد سنوات وجد رئيس الرُّهبانية الجديد، رايموندو غاوفريدي، أولئك المساجين في مدينة أنكونا، فأطلق سراحهم قائلاً: «كم أكون سعيداً لو أرادني اللّه أن أتشوّه وأن تتشوّه كلّ الرُّهبانية بتهمة مثل تهمتكم» وهذا ما يكذّب أقوال الهراطقة، إذ ما زال في الكنيسة رجال ذوو فضائل عظيمة.

من بين أولئك المساجين الذين أطلق سراحهم أنجيلو كلارينو، الذي التقى من بعد براهب من بروفانسا، بييترو دي جيوفانّي أوليفي، الذي كان يشيع تنبؤات جُواكّينو ثم أوبارتينو دا كزالي، ومن هناك نشأت حركة الروحانيين. في تلك السنوات تبوأ العرش البابوي الناسك الطهور، بييترو دا مورّوني، الذي اتّخذ اسم سيلاستين الخامس، وقوبل بارتياح من طرف الروحانيين. فقد تنبأ أحدهم قائلاً: «سيظهر قدّيس وسيعمل بما جاء به المسيح من تعاليم، وسيكون ملائكي السيرة، ارتعدوا أيها الأحبار المفسدون». ربّما كان سيلاستين على غاية من الملائكية، أو أن الأحبار من حوله كانوا على غاية من الفساد، أو أنه لم يستطع أن يتحمّل توتّر حرب طالت كثيراً ضد الإمبراطور وملوك أوروبا الآخرين، فكانت النتيجة أن تخلّى سيلاستين عن منصبه وانزوى في صومعته. ولكن في الفترة القصيرة التي حكم فيها، أي أقلّ من سنة تحقّقت كل مطامح الروحانيين: فقد ذهبوا إلى سيلاستين الذي أَسَّس معهم الجمعية المسمّاة Fratres et pauperes hermitae domini Celestini. ومن ناحية أخرى، بينما كان على البابا أن يلعب دور الوسيط بين كبار الكرادلة في روما، كان البعض منهم مثل كولونّا وأورسيني يؤيدون سراً اتجاهات الفقر الجديدة: وهذا الاختيار هو حقيقة غريب بالنسبة إلى رجال ذوي حول عظيم يعيشون في الترف والثراء المغدق، ولم أفهم قط إن كانوا يستعملون الروحانيين لأهدافهم السياسية أو أنهم بحال من الأحوال يبرّرون حياتهم الشهوانية بمساندتهم للاتجاهات الروحانية، أو الشيئين معاً نظراً لقلّة فهمي لشؤون البلاد الإيطالية. ولكني لكي أعطي مثالاً، أقول إن أوبارتينو قُبل مرشداً عند الكاردينال أورسيني وذلك عندما أصبحت كلمته مسموعة لدى الروحانيين وأصبح معرّضاً للتهمة بالإلحاد، فكان الكاردينال نفسه درعاً واقياً له في أفينيون.

Twitter: @ketab_n

غير أنه كما يقع في مثل هذه الحالات، بينما كان أنجيلو وأوبارتينو يبشران بحسب المذهب، كانت مجموعات كبيرة من البُسَطاء تتقبّل ذلك التبشير وتنشره عبر البلاد، دون أدنى مراقبة. وهكذا امتلأت إيطاليا بهؤلاء البُسَطاء أو الإخوان المتمسّكين بحياة الفقر والذين بدوا للكثير خطرين، وأصبح من الصعب التفرقة بين الأئمّة الروحانيين، الذين بقوا على اتصال بالسلطات الكنيسية، وأتباعهم الأكثر جهلاً، والذين كانوا يعيشون ببساطة خارج النظام الرُهباني، يتسوّلون ويعيشون يوماً بيوم من عمل أيديهم، دون الاحتفاظ بأية ملكية. وهؤلاء هم الذين يُطلِق عليهم الآنَ عامة الناس لقب الإخوان البُسَطاء، وهم لا يختلفون عن الإخوان المتسوّلين في فرنسا، المنتمين إلى بيترو دي جيوفاني أوليفي.

وبعد سيلاستين تبوّأ بونيفاسيوس الثامن العرش البابوي وسرعان ما أظهر قلّة تسامحه مع الروحانيين والإخوان البُسَطاء بصفة عامة: وفعلاً في السنوات الأخيرة للقرن الذي أوشك على الانتهاء أصدر مرسوم «Firma cautela» يدين به في الآن نفسه المتسكّعين، والمتسوّلين والمتجوّلين والمتطرّفين في الرُّهبانية الفرانشسكانية والروحانيين أنفسهم أي أولئك الذين تركوا النظام الرُّهباني للتنسّك.

وقد حاول الروحانيون الحصول على موافقة بابوات آخرين، مثل كليمنتس الخامس، حتى يمكّنهم من الخروج عن الرُّهبانية بطريقة غير عنيفة. وأظنّ أنّهم توصّلوا إلى ذلك، ولكن مجيء جيوفاني الثاني والعشرين نزع منهم كل أمل. ما إن انتُخِبَ سنة 1316 حتى أرسل إلى ملك صقلية يطلب منه أن يطرد من أراضيه أولئك الإخوان، إذ التجأ الكثير منهم إلى الجنوب وكُبّل أنجيلو كلارينو بالأغلال، هو وروحانيّو بروفانسا.

لا أظن أنها كانت مهمّة يسيرة، إذ لاقت مقاومة الكثيرين في هيئة الكنيسة. الخُلاصة هي أن أوبارتينو وكلارينو تمكّنا من الحصول على إذن بترك الرُّهبانية وقُبِل أحدهما عند البنيدكتيّين والآخر عند السيلاستانيين. أما بالنسبة إلى الذين تمادوا في عيشتهم الحرّة فقد كان جيوفاني قاسياً عليهم وأرسل وراءهم المُحققين وأحرق الكثير منهم.

Twitter: @ketab_n

ولكنّه أدرك أنه لن يقدر على اقتلاع نبتة البُسَطاء التي كانت تنخر أُسس السلطة الكنيسيّة إلاّ بإدانة الأفكار التي كانت ترتكز عليها عقيدتهم. وبما أنهم كانوا يؤكدون أن المسيح وحواريّيه لم يملكوا شيئاً لا كأفراد ولا كمجموعة، أدان البابا هذه الفكرة على أنها هرطيقية. وهذا غريب جداً، إذ لا يفهم المرء ما هي الدواعي التي جعلت البابا يرى في فقر المسيح فكرة مُنحرفة: ولكن، ها قد انعقد في السنة السابقة، في مدينة بيروجيا المجمع العام للفرانشسكانيين الذي أكّد هذه النظرية، وبإدانته لهم يكون البابا قد أدانها هي الأخرى. وكما سبق أن قلت كان يحمل المجمع في طياته أذى كبيراً للبابا إذ لا يخدم مصالحه في نزاعه ضدّ الإمبراطور، هذا هو الواقع. وهكذا، منذ ذلك الحين صار يموت حرقاً العديد من الإخوان البُسَطاء، الذين كانوا لا يعرفون شيئاً لا عن الإمبراطور ولا عن بيروجيا.

كنت أفكر في كل هذا وأنا أنظر إلى شخصية أسطورية مثل أوبارتينو. وقدّمني أستاذي إليه فمسح الشيخ على خدي بيد ساخنة، تكاد تشتعل. وعند لمسة تلك اليد فهمت الكثير من الأشياء التي كنت قد سمعتها عن هذا الرجل الطاهر وأخرى قرأتها في صفحات «شجرة الحياة»، وتبينت لي النار الروحية التي كانت تلتهمه منذ الشباب عندما تخلّى عن النظريات اللاهوتية وهو يُزاول الدراسة في باريس وتخيّل أنه أصبح المجدليّة التائبة، كما فهمت طبيعة علاقاته المكثّفة مع القديسة أنجيلا دا فولينيو (Angela da Foligno) التي أطلعته على كنوز الحياة الروحية وعلّمته تقديس الصليب، وفهمت أخيراً لماذا أرسله رؤساؤه إلى فارنا وقضوا عليه بالعُزلة فيها، لانشغالهم بحماسه المُفْرط في الوعظ والتبشير.

بقيت أتفحص ذلك الوجه ذا الملامح اللطيفة، الشبيهة بملامح القديسة التي كان له معها تبادل أخوي لأحاسيس روحانية. وأدركت بالحدس أن ملامحه كانت في وقت من الأوقات أكثر صرامة. فعندما ألغى مجمع فيينا سنة 1311 بمقتضى المرسوم البابويّ «Exivi de paradiso» الرؤساء الفرانشسكانيّين المناهضين للروحانيين، مع إجبارهم على العيش في سِلم داخل الرُّهبانية، رفض هذا البطل المناضل تلك التسوية الرشيدة وكافح من أجل تكوين رهبانية مستقلّة تستوحي تعاليمها من قاعدة على غاية من الصرامة. وقد خسر هذا المناضل الكبير معركته

Twitter: @ketab_n

لأنه في تلك السنوات كان جيوفاني الثاني والعشرين ينادي بحرب صليبية ضد أتباع بييترو دي جيوفاني أوليفي (و كان هو من بينهم) ويحاكم إخوان ناربونا وبيزيي. ولكن أوبارتينو لم يتردّد في الدفاع أمام البابا عن ذكرى صديقه، والبابا، الذي غلبته قداسته، لم يجرؤ على إدانته هو أيضاً (و لو أنّه أدان بعد ذلك الآخرين). بل بالعكس، في تلك المناسبة عرض عليه وسيلة للنجاة، ونصحه في البداية، ثم أمره أن ينضمّ إلى الرُّهبانية الكلونية. وقد قبل أوبارتينو، الذي يبدو أنه كان ماهراً (بينما في الظاهر كان يبدو أعزلاً وضعيفاً) في كسب الحُماة والحُلفاء في البلاط البابوي، قَبِل بحق أن يدخل في دير جمبلاخ ولكنّني أظنّ أنه لم يذهب إلى هناك قط، بل بقي في أفينيون، تحت راية الكاردينال أورسيني، للدفاع عن قضية الفرانشسكانيّين.

في المدة الأخيرة فقط (و الأخبار التي سمعتها كانت غير مضبوطة) أفل نجمه في البلاط، مما أجبره على الابتعاد عن أفينيون بينما كان البابا يطارد هذا الرجل الجموح بتُهمة الهرطقة ولأنه يجوب الدنيا يعظ ويجادل. وقيل إنه لم يُعثر له بعد ذلك على أثر. في العشية عرفت، من المحادثة التي دارت بين غوليالمو ورئيس الدير، أنه كان يختبىء في هذا الدير. والآن، ها أنا أراه أمامي، وكان يقول لغوليالمو:

- غوليالمو، لقد أوشكوا أن يمسكوا بي ليقتلوني، أتعرف ذلك؟ لقد أُجبرت على الفرار ليلاً.

- من كان يريد قتلك؟ هل هو جيوفاني؟

- كلاّ. جيوفاني لم يكن يُحِبُّني قط، ولكنه احترمني دائماً. في الحقيقة هو الذي عرض عليّ طريقة كي أنجو من المحاكمة، منذ عشر سنوات، وأجبرني على الانتماء إلى البنيدكتيّين، وبهذا أسكت أعدائي. لقد تهامسوا طويلاً وسخروا لأن بطل الفقر دخل في رهبانية على درجة كبيرة من الثراء، ويعيش في بلاط الكاردينال أورسيني... غوليالمو، أنت تعرف مدى تعلّقي بمآرب هذه الدنيا! ولكنها كانت الطريقة الوحيدة لكي أبقى في أفينيون وأدافع عن إخواني. إن البابا

Twitter: @ketab_n

يخاف أورسيني، ولن يمسّ شعرة منّي، لقد بعثني منذ ما لا يزيد عن ثلاث سنوات رسولاً له إلى ملك أراغونا.

ـ إذن من كان يريد بك شراً؟

ـ الجميع. الهيئة الإكليريكية. لقد حاولوا قتلي مرتين. أرادوا إسكاتي. أنت تعلم ماذا حدث منذ خمس سنوات. كانت قد وقعت منذ سنتين محاكمة متسوّلي ناربونا، وتوجّه بيرنغاريو تالّوني، الذي كان هو نفسه أحد القُضاة، بنداء إلى البابا. لقد كانت فترة صعبة، فقد أصدر جيوفاني إِدانتيْن ضدّ الروحانيين، وميكيلي دا تشيزينا نفسه رضخ ـ وبالمناسبة، متى سيصل إلى هنا؟

ـ سيكون هنا في ظرف ثلاثة أيام.

ـ ميكيلي... منذ مدّة لم أرَه. الآن تدارك الأمر، وفهم ماذا كنّا نريد، لقد أعلن مجمع بيروجيا أنّنا على صواب. ولكن في ذلك الوقت في سنة 1318 رضخ للبابا وسلّمه خمسة روحانيين من بروفانسا رفضوا الاستسلام. أحرقهم يا غوليالمو... أوه، لقد كان شيئاً فظيعاً! ثم أخفى رأسه بين يديه.

فسأله غوليالمو: ولكن ماذا حدث بالضبط بعد نداء تالّوني؟

ـ لقد أراد جيوفاني فتح النقاش من جديد، أفهمت؟ كان عليه أن يفعل ذلك، لأن الشكّ بدأ يساور البعض ممّن هم في الإدارة البابوية، حتى الفرانشسكانيّين منهم، فريسيّون، مراؤون، رجال مستعدّون لبيع ذمّتهم مقابل راتب، ولكن الشكّ ساورهم. وفي ذلك الحين بالذات طلب مني جيوفاني أن أحرّر له مذكّرة حول الفقر. لقد كانت رائعة يا غوليالمو، ليغفر لي الربّ غروري هذا...

ـ لقد قرأتها، أراني إيّاها ميكيلي.

ـ كانَ هناك المتردّدون، حتى من بين إخواننا، مندوب أكيتانيا، كاردينال سان فيتالي، أسقف قيافا...

ـ إنه غبي.

Twitter: @ketab_n

ـ فليرقد بسلام، لقد مرّت سنتان على انتقاله إلى رحمة الله.

ـ لم يكن الله رحيماً بما فيه الكفاية. كان ذلك نبأ باطلاً وصلنا من القسطنطينية. إنه لا يزال بيننا، وقد قيل لي إنه عضو في القصادة البابوية. ليكن الله معنا!.

فقال أوبارتينو: ولكنه موافق على ما جاء في مجمع بيروجيا.

ـ فعلاً. إنه ينتمي إلى ذلك النوع من الأشخاص الذين هم دائماً من أكبر أنصار خصومهم.

فقال أوبارتينو: «في الحقيقة، حتى في ذلك الوقت لم يكن ذا نفع كبير لقضيتنا، وانتهى كل شيء دون نتيجة، ولكن على الأقل لم تُعتبر الفكرة هرطيقية، وكان ذلك شيئاً هاماً. لذا لم يغفر لي ذلك الآخرون قط، وحاولوا إلحاق الضرر بي بكل الوسائل، وقالوا إنني كنت في ساشنهاوسن منذ ثلاث سنوات، عندما أعلن لودوفيكو أن جيوفاني هرطيق. ومع ذلك كان الكل يعلم أنني في شهر يوليو كنت في أفينيون عند أورسيني... بدا لهم أن البعض ممّا قاله الإمبراطور كان يعكس أفكاري، يا للجنون».

فقال غوليالمو: «كلاّ، لا جنون في هذا. لقد أعطيته أنا تلك الأفكار، مستمدّاً إياها من بيانك الذي حرّرته في أفينيون، ومن بعض صفحات أوليفي».

فهتف أوبارتينو، بين مُنْدهش ومُغْتبط: «أنت؟ إذن أنت تؤيدني» ـ فبدا غوليالمو مرتبكاً وأجاب بتملّص: «كانت أفكاراً طيّبة بالنسبة إلى الإمبراطور في تلك الفترة».

فنظر إليه أوبارتينو بريبة: «آه، ولكنك لا تؤمن بها فعلاً، أليس كذلك؟»

فقال غوليالمو: «ولكن قصّ، قصّ عليّ ثانية كيف نجوت من أولئك الكلاب».

ـ آه صحيح، إنهم كلاب يا غوليالمو، كلاب مسعورة. لقد وجدت نفسي أقاوم ضد بوناغراسيا نفسه، أتعرف ذلك؟

Twitter: @ketab_n

ـ ولكن بوناغراسيا دا بيرغامو حليفنا!

ـ الآن، بعد أن تحادثت معه طويلاً. عند ذلك فقط اقتنع واحتجّ على مرسوم «Ad conditorem canonum». وسجنه البابا لمدة سنة.

ـ لقد سمعت أنه يوجد الآن قرب صديق لي في الإدارة البابوية، غوليالمو دا أوكّام.

ـ لا أعرفه كثيراً، إنه لا يعجبني، فهو رجل دون حماس، كلّه عقل، دون قلب.

ـ ولكنه عقل رائع.

ـ قد يكون، وسوف يقوده إلى الجحيم.

ـ إذن سوف ألاقيه هناك، وسوف نتجادل في المنطق.

فقال أوبارتينو متبسِّماً بمحبة غامرة: «اسكت يا غوليالمو، أنت أفضل من فلاسفتك. لو أردت فقط...»

ـ ماذا؟

ـ «متى تقابلنا آخر مرّة في أومبريا؟ أتتذكَّر؟ كنت قد برئت منذ قليل من آلامي بفضل شفاعة تلك المرأة الرائعة.. كيارا دا مونتيفالكو..» همس بذلك وقد تهلّل وجهه. «كيارا... عندما تتسامى الطبيعة الأنثوية، التي هي بطبيعتها ضالّة، نحو القداسة، عندئذ تجعل من نفسها أسمى معنى للنُبل. أنت تعرف كيف كانت حياتي مُستوحاة من العِفّة الطاهرة يا غوليالمو» (و أمسكه من ذراعه بتشنّج) «أنت تعلم كم كان.. قاسياً ـ نعم إنها العبارة الصحيحة ـ كم كان تعطّشي للتوبة قاسياً، تلك التوبة التي حاولت أن أقتل بها ما يختلج في داخلي من شهوة جنسية، كي أصبح حبّاً شفّافاً للمسيح... ومع ذلك فإن ثلاث نساء في حياتي كنّ بالنسبة إليّ ثلاثة رسل إلٰهية، أنجيلا دا فولينيو، مارغاريتا داتشيتّا دي كاستيلّو (التي تنبّأت بخاتمة كتابي بينما لم أكتب منه إلاّ الثلث) وأخيراً كيارا دا مونتيفالكو. لقد كافأتني السماء، لأنّني كنت أنا، أنا لا غيري، الذي حقّق في معجزاتها ونادى بقداستها لدى الناس، قبل أن تتحرّك أمنا الكنيسة المقدّسة. وكنتَ أنت هناك يا غوليالمو، وكان بإمكانك أن تُعينني في تلك المهمّة المقدّسة إلاّ أنك أبيت...»

Twitter: @ketab_n

فقال غوليالمو ببطء: «ولكن المهمّة المقدّسة التي كنت تدعوني إليها كانت أن أسلم إلى المحرقة بانتيفانغا، جياكومو وجيوفانوتشيو».

ـ كانوا يهينون ذكراها بانحرافهم. وكنت أنت محققاً!

ـ وفي تلك الفترة بالذات طلبتُ أن أعفى من مهامي. لم ترق لي تلك القصّة. ولم تعجبني أيضاً، وأقولها بصراحة، الكيفية التي حملتَ بها بانتيفانغا على أن يعترف بخطاياه، فقد تظاهرتَ بالرغبة في الانتماء إلى طائفته، إن كان يمكن تسميتها هكذا، واختلست منه أسراره ثم عملت على إيقافه.

ـ ولكن هكذا تكون معاملة أعداء المسيح! كانوا هراطقة، كانوا الرسل الزائفين، تنبعث منهم رائحة كبريت الأخ دولتشينو!

ـ كانوا أصدقاء كيارا.

ـ لا يا غوليالمو، لا تخدش ولو بكلمة ارتياب ذكرى كيارا!

ـ ولكنهم كانوا ضمن جماعتها...

ـ كانوا فرانشسكانيين، وكانوا يُسَمُّون أنفسهم روحانيين، ولكنهم كانوا من إخوان المجموعة! ألا تعرف أنه اتّضح من خلال التحقيق أنّ بانتيفانغا دا غوبيو كان يعلن نفسه رسولاً، وبعد ذلك صحبة جيوفانوتشيو دا بيفانا كانا يغريان الراهبات ويقولان لهن إن الجحيم غير موجود، وإنه يمكن إرضاء الشهوات الجنسية دون إغضاب الربّ، وإنه يمكن قبول جسد المسيح (اغفر لي يا رب!) بعد مضاجعة راهبة، وأن سيّدنا كان يفضّل المجدلية على العذراء أنييزي، وأن ما تسمّيه العامة شيطاناً هو الربّ نفسه، لأن الشيطان هو المعرفة والرب هو فعلاً المعرفة، وكان عندما سمعت الطوباوية كيارا تلك الأحاديث تَمَثَّلَ لها الرب في الرؤيا وقال لها إن هؤلاء هم الأشرار الذين تبعوا روح الفسق!

فقال غوليالمو: «كانوا فرانشسكانيين التهب فكرهم بالرؤى نفسها التي عاشتها كيارا، وغالباً ما تكون الخطوة قصيرة جدّاً بين الرؤيا الوجدية والجنون المؤدي إلى الخطيئة».

Twitter: @ketab_n

فشدّه أوبارتينو من يده واغْرَوْرَقَتْ عيناه من جديد بالدموع: «لا تقل هذا يا غوليالمو، كيف يمكنك أن تخلط بين لحظة الحب الوجدي الذي يفوح بعطر البخور واختلال الأحاسيس التي لها رائحة الكبريت؟ بانتيفانغا يحرص على لمس أعضاء الجسد العارية، مؤكداً أنها الطريقة الوحيدة للتحرّر من سلطان الحواس: «رجل عارٍ مضطجع مع عارية».

فأضاف غوليالمو: «دون جماع يصل بين الاثنين...».

- أكاذيب! يبحثون عن اللذّة، وعندما يحسّون بالشهوة الجسدية، لا يعتبرون خطيئة أن يضاجع رجل امرأة لإرضاء تلك الشهوة، وأن يلمس ويقبّل أحدهما الآخر في كل مكان من جسده، وأن يلصق بطنه العاري ببطنها العاري!

أعترف بأن الكيفية التي كان أوبارتينو ينقد بها رذائل الآخرين لم تكن تحثّني على التفكير في العفّة والفضيلة، ولعلّ أستاذي لاحظ ارتباكي، لأنه قاطع ذلك الرجل الفاضل قائلاً: «إنك فكر ملتهب، يا أوبارتينو، سواء في حبّك للإله أو في بغضك للمنكر. ما كنت أريد أن أقوله هو أنّ الفارق ضئيل بين الساروفيين وصبوة إبليس، لأنها تنشأ دائماً من قوة مُفْرطة للإرادة».

فأجاب أوبارتينو ملهماً: «آه كلاّ، الفارق موجود، وأنا أعرفه. أنت تريد أن تقول إن بين إرادة الخير وإرادة الشرّ خطوة صغيرة، لأننا في كلتا الحالتين بصدد توجيه الإرادة نفسها، هذا صحيح. ولكن الفارق في الموضوع، والموضوع واضح وضوح الشمس، من هنا الإله ومن هناك الشيطان».

- «ما يُخيفني هو أنني لم أعد أعْرف كيف أميّز يا أوبارتينو. ألم تكن صديقتك أنجيلا دافولينيو هي التي حكت عن ذلك اليوم الذي، بينما كانت فيه منخطفة الروح، قضت بعض الوقت في ضريح المسيح؟ ألم تقل إنها قبّلت في الأول صدره ورأته يضطجع مغلق العينين، ثم قبّلت فمه وأحسّت عذوبة فائقة الوصف تخرج من تينك الشفتين، وبعد مهلة قصيرة وضعت خدّها فوق خدّ المسيح وقرّب المسيح يده إلى وجنتها ثم ضمّها إليه فبلغت، على حدّ تعبيرها، أوج السعادة...».

Twitter: @ketab_n

فتساءل أوبارتينو: «وما علاقة هذا بهيَجان الحواس؟ لقد كانت تجربة صوفية، والجسد كان جسد إلٰهنا».

فقال غوليالمو: «الظاهر أنني تعودت على أُكسفورد، حيث تكتسي التجربة الروحانية طابعاً آخر...»

فعلّق أوبارتينو مبتسماً: «كلّها في الرأس».

- أو في العينين: أن نحسّ بالإلٰه نوراً، في أشعة الشمس، في الصور التي تعكسها المرايا، في انتشار الألوان فوق أجزاء المادة المنتظمة، في انتشار نور النهار على الأوراق المبلّلة... أليس هذا الحب أقرب إلى حب فرانشسكو عندما كان يشدو بجمال الله في كائناته، في الزهور والأعشاب، في الماء والهواء؟ لا أظن أنّ من هذا النوع من الحب يمكن أن يأتي أيّ إغراء. بينما لا يروقني الحب الذي ينقل في حواره مع المتعالي تلك الرعشة التي يُحِسُّ بها المرء في الوصال الجسدي...

- إنك تجدّف يا غوليالمو! ليس الشيء نفسه. هناك وثبة عظيمة، نحو الأسفل، بين وجد القلب المتيّم بحب يسوع المصلوب والحب المُنحرف الذي كان يتعاطاه رُسُل مونتيفالكو الكذابون...

- لم يكونوا رسلاً كذابين، بل إخوان روح الفسق، لقد قلته أنت بنفسك.

- وما الفارق؟ أنت لم تعرف كل شيء عن تلك المحاكمة، أنا نفسي لم أجرؤ على الإضافة إلى البيّنات بعض الاعترافات، حتى لا أُعَكِّر بشوائب الشيطان، ولو لحظة واحدة، ذلك الجو المملوء قداسة الذي خلقته كيارا في ذلك المكان. ولكنني علمت أشياء، يا غوليالمو، ويا لها من أشياء! كانوا يجتمعون ليلاً في قبو، ويأخذون رضيعاً ثم يترامونه إلى أن يموت من الضربات... أو من شيء آخر... ومن يتلقّاه حيّاً لآخر مرة ويموت بين يديه، يصبح زعيم الطائفة... ثم يقطعون جسد الرضيع ويخلطونه بالدقيق ليصنعوا منه قرباناً ملعوناً!

فقال غوليالمو بثبات: «أوبارتينو، لقد قيلت هذه الأشياء منذ قرون، وقد قالها الأساقفة الأرمينيون بخصوص طائفة الباوليتشاني، وبخصوص البوغوميليين».

Twitter: @ketab_n

ـ لا يهم، الشيطان بليد الذهن، يتبع نسقاً في مكائده وإغوائه، ويعيد الطقوس نفسها بعد آلاف السنين، وهو لا يتغيّر أبداً، وفعلاً لذلك يمكن التعرّف عليه كعدوّ! أؤكد لك، كانوا يشعلون الشموع في القبور ويحملون هناك الصبايا، ثم يطفئون الشموع ويرتمون عليهن، حتى ولو كانت تصلهم بهن قرابة الدم. . . وإذا ما ولد من ذلك الجماع طفل، يعيدون تلك الشعائر الجهنمية، جالسين كلّهم حول وعاء مليء بالخمر، يسمّونه البرميل الصغير، ثم يسكرون ويقطعون الطفل إرباً ويصبون دمه في كأس، ويلقون في النار أطفالاً أحياء، ثم يخلطون رماد الطفل ودمه ويشربونه!

ـ ولكن هذا كتبه ميكيلي بسيلّو في كتابه حول أعمال الشياطين منذ ثلاثمائة سنة! من قصّ عليك هذه الأشياء؟

ـ هم، بنتيفانغا والآخرون، وتحت وطأة التعذيب!

ـ هناك شيء واحد يهيج الحيوان أكثر من اللّذة وهو الألم. تحت وطأة التعذيب يعيش المرء وكأنه تحت تأثير حشائش تثير الرؤى. كل ما قصّه عليك الآخرون، وكل ما قرأته، يعود إلى ذهنك، وكأنك مُنخطف، لا نحو السماء، بل نحو الجحيم. تحت وطأة التعذيب لا تقول فقط ما يريد المحقق، ولكن ما تتصوّر أنه من الممكن أن يُرضيه، لأن هناك ارتباطاً، فعلاً شيطانياً، بينك وبينه. . . هذه أشياء أعرفها، يا أوبارتينو، فقد كنت أنا أيضاً من بين أولئك الرجال الذين كانوا يظنون أنهم قادرون على خلق الحقيقة باستعمال الحديد الحامي. إذن، اعْلَم أن حرارة الحقيقة متأتية من جذوة أخرى. تحت وطأة التعذيب يمكن أن يكون بنتيفانغا قال أكاذيب مُنافية للعقل، لأنه لم يعد هو الذي يتكلّم، بل صبوته، والشياطين التي تسكن روحه.

ـ صبوته؟

ـ نعم، توجدُ صبوة للألم، كما توجد صبوة للعبادة، وحتى صبوة للخشوع. إذ يكفي القليل للملائكة المتمردة حتى تتحول صبوة العبادة فيها والخشوع إلى صبوة كبرياء وثورة، فما قولك بمخلوق إنساني؟ هو ذا، الآن عرفت ذلك، كانت

Twitter: @ketab_n

تلك هي الأفكار التي باغتتني أثناء تحقيقاتي. ولهذا السبب تخلّيت عن ذلك النشاط، لم تَكْفِني الشجاعة لأُحَقِّق في ضعف إرادة أولئك الأشقياء، لأنني اكتشفت أنه ضعف القديسين نفسه.

استمع أوبارتينو إلى كلمات غوليالمو الأخيرة وكأنه لا يفهم ما كان يقول. من سُحنته، التي كانت تنم دائماً عن رأفة ودية، فهمت أنه يعتبر غوليالمو فريسة لشعور كبير بالذنب ويغفر له ذلك لأنه يحبه كثيراً، فقاطعه وقال له بنبرة شديدة المرارة «لا يهم، إن أحسست بذلك، فقد فعلت حسناً عندما توقفت. ينبغي مقاومة الرّغبات ولكن نقصتني مع ذلك مُساندتك وإلاّ لاستطعنا كسر زُمرة السوء تلك. ولكن العكس هو ما وقع، لقد اتُّهِمتُ بأنني كنت متسامحاً كثيراً معهم، وظنّوا بي الهرطقة. أنت أيضاً كنت كثير اللّين في مقاومتك للشرّ. الشرّ يا غوليالمو: لن ينتهي أبداً هذا القصاص، هذه العتمة، هذا الوحل الذي يمنعنا من إدراك المنبع؟» ثم اقترب أكثر من غوليالمو، كما لو كان يخشى أن يسمعه أحد «حتى هنا، حتى بين هذه الجدران التي كرّست للصلاة، أتعرف ذلك؟».

ـ أعرف ذلك، لقد حدّثني رئيس الدير، بل ترجّاني أن أُعِينه على إزاحة السّتار عن هذه الواقعة.

ـ إذن تجسّس، نقّب، انظر بعين الفهد نحو ناحيتين، الفِسْق والغُرور.

ـ الفِسْق؟

ـ نعم، الفِسْق، كان هناك شيء ما... أُنثوي، وبالتالي شيطاني، في ذلك الشاب الذي مات. كانت له عينا صبية تبحث عن علاقة مع الشيطان. ولكنّني كلمتك أيضاً عن الغرور، غرور العقل، في هذا الدير المعدّ لغرور الكلمة، لوهم العلم...

ـ إن كنت تعرف شيئاً فساعدني.

ـ لا أعرف شيئاً. ليس هناك شيء أَعلمه. وإنما الأشياء يحسّها المرء بقلبه. اترُك قلبك يتكلّم، اسأل الوجوه، ولا تستمع إلى الألسنة... ولكن ما علينا، لماذا نتكلّم على هذه الأمور المُؤسفة فنبعث الخوف في نفس صديقنا الشاب؟

Twitter: @ketab_n

ونظر إليّ بعينين في زُرْقة السماء، لامساً خدي بأطراف أصابعه الطويلة البيضاء، وكدت أتراجع تلقائياً، ولكنني تمالكت نفسي وحسناً فعلت، وإلاّ لجرحت شعوره، إذ كانت نيّته صافية. ثم التفت من جديد نحو غوليالمو قائلاً: «بل حدّثني عن نفسك، ماذا فعلت بعد ذلك؟ لقد مضت. . .»

ـ ثماني عشرة سنة. لقد رجعت إلى بلدي، ودرست في أُكسفورد. درست الطبيعة.

ـ الطبيعة طيّبة لأنها ابنة الربّ.

فقال غوليالمو مبتسماً: «ولا يمكن أن يكون الربّ إلاّ طيّباً، إذ خلق الطبيعة. لقد درست، والتقيت بأصدقاء جدّ حكماء. ثم تعرّفت على مارسيليو، وجذبتني أفكاره حول الإمبراطورية وحول الشعب، وحول قانون جديد للحكم فوق الأرض، وهكذا انتهى بي الأمر أن أصبحت من بين إخواننا الذين يقومون بنصح الإمبراطور. ولكنك تعرف هذه الأشياء، فقد كاتبتك. إنّني سُررت كثيراً عندما قيل لي في بوبيو إنّك هنا. لقد ظننا أنك هلكت. أما الآن بما أنك معنا فسيكون عونك لنا كبيراً بعد بضعة أيام، عندما يصل أيضاً ميكيلي. سيكون الجدال عنيفاً».

ـ لن أقول أكثر مما قلته منذ خمس سنوات في أفينيون. من سيكون مع ميكيلي؟

ـ البعض ممن كانوا في مجمع بيروجيا، أرنالدو داكيتانيا، أوغو دا نوكاستل. . .

فسأل أوبارتينو: «من؟»

ـ أوغو دا نوفو كاسترو، لا تؤاخذني، فإنني أستعمل لغتي حتى عندما أتكلّم لاتينية جيّدة. ثم غوليالمو آلنفيك. . ومن جهة الفرانشسكانيّين الأفينيونيين نستطيع أن نتّكل على جيرولامو، غبيّ قِيافا، ويمكن أن يأتي ببرينغاريو تالّوني وبوناغراسيا دا بيرغامو.

فقال أوبارتينو: «أملنا هو اللّه، لن يريد هذان الأخيران إغضاب البابا كثيراً. ومن سيكون لمساندة موقف الإدارة البابوية، أعني أصعبهم مِراساً؟»

Twitter: @ketab_n

- بحسب الرسائل التي وصلتني أتصوّر أنه سيكون من بينهم لورانسو دي كوالكوني. . .

- رجل ماكر.

- وجان دانّو. . .

- إنه لبق في علم اللاّهوت، خذوا حذركم منه.

- سنحذر منه. وأخيراً جان دوبون.

- سيكون له شأن مع بيرينغاريو تالّوني.

فقال أستاذي وهو في غاية من الجذل: «نعم، أظن أننا سنضحك حقاً» فنظر إليه أوبارتينو بابتسامة تدلّ على الحيرة «إني لا أفهم قط متى تتكلّمون، أنتم الإنكليز بجدّ، إني لا أرى ما يضحك في قضية بهذه الخطورة. إن بقاء الرُّهبانية في خطر، هذه الرُّهبانية التي تنتمي أنت إليها، والتي لا تزال في صميم فؤادي، رهبانيتي أنا أيضاً. ولكني سأستحلف ميكيلي أن لا يذهب إلى أفينيون. جيوفاني يريده، ويبحث عنه ويدعوه بكثير من الإلحاح. احترزوا من ذلك الشيخ الفرنسي. آه يا إلهي، بين يدي من سقطت كنيستك» ثم أدار وجهه نحو المذبح «لقد تحوّلت إلى بغيّ، متراخية في الترف، تتمرغ في الفجور كالحية الحائل! من طهارة إصطبل بيت لحم النقية، الذي كان من خشبٍ كما كان من خشبِ صليب الحياة، إلى فجور الذهب والحجارة. انظر، حتى هنا، لقد رأيتَ البوّابة، ليس بمقدورنا الهروب من غرور الصُّوَر! إن أيام المسيح الدجّال أصبحت أخيراً قريبة وأنا خائف يا غوليالمو!». ثم نظر حواليه، وحدق بعينيه الجاحظتين في أروقة الكنيسة المعتمة، وكأن الدجّال سيظهر من لحظة إلى أخرى، وكنت في الحقيقة أتوقّع رؤيته «رسله هم الآن هنا، قد بعثهم كما بعث المسيح حواريّيه عبر الدنيا! وها هم يدوسون مدينة اللّه، ويغوون بالخديعة، وبالمداهنة وبالعنف. عندئذٍ سيرسل اللّه عبديه، إيليّا وأخنوخ، اللذين احتفظ بهما على قيد الحياة في الفردوس الأرضي ليخزي يوماً المسيح الدجّال وسينشران الدعوة مرتديين أثواباً من خَيْش، ويدعوان إلى التوبة بالفعل وبالقول. . .».

Twitter: @ketab_n

فقال غوليالمو، مشيراً إلى إسكيم الفرانشسكانيّين الذي كان يرتديه «لقد جاءا يا أوبارتينو».

ـ ولكنهما لم ينتصرا بعد، إنها الفترة التي سيأمر فيها المسيح الدجّال، وهو يقدح غيظاً، بقتل أخنوخ وإيليّا والتمثيل بجسديهما كي يراهما الجميع فيخافوا مغبة اتباع مَثَلِهما، كما كانوا يريدون قتلي...

في تلك اللحظة وقد انتابني الرعب، ظننت أن أوبارتينو كان فريسة لنوع من الهوس القدسي، وخشيت على سلامة إدراكه. الآن وبعد مضي فترة من الزمن، ومع ما علمت فيما بعد، أي أنه بعد سنوات قليلة من ذلك اغْتِيل بطريقة غامضة، في مدينة ألمانية، ولم يُعرف قط قاتله، أصبحت أشدّ ذُعراً، إذ من الواضح أن أوبارتينو كان في ذلك المساء يتنبّأ.

ـ أتعرف أن الشدياق جيواكينو قد قال الحقيقة. لقد وصلنا إلى العهد السادس من تاريخ البشرية، الذي سيظهر فيه دجّالان، الدجّال الرمزي والدجّال الحقيقي، هذا ما يقع الآن في العهد السادس، بعد أن ظهر فرانشسكو ليشخّص في بدنه جروح يسوع المصلوب الخمسة. كان بونيفاسيوس هو الدجّال الرمزي، وتخلّي سيلاستين عن العرش البابوي لم يكن شرعياً، كان بونيفاسيوس هو الوحش الذي يخرج من البحر، تمثّل رُؤوسه السبعة الطعن في الخطايا المميتة وقرونه العشرة الطعن في الوصايا، والكرادلة الذين كانوا يحيطون به هم الجراد وجسمه هو أبَوليون! ولكن الرقم الذي يمثّل الوحش يمكن قراءة اسمه بالأحرف اليونانية هو اسم بنيدكت Benedicti!» ثم حدق فيّ ليعرف إن كنت فهمت ورفع اصبعه لينذرني «كان بنيدكت الحادي عشر هو الدجّال الحقيقي، الوحش الذي يَصعدُ من غور الأرض! وقد رضي الرب أن يحكم مثل ذلك الوحش الفاجر والجائر كنيسته كي تسطع فضائل خليفته مجداً!

فعارضته بصوت يكاد لا يسمع وأنا أشجّع نفسي «ولكن يا أبتي القدّيس، جيوفاني هو خليفته!»

فوضع أوبارتينو يده على جبينه كمن يريد أن يمحو حلماً مزعجاً. كان يتنفّس

Twitter: @ketab_n

بصعوبة وقد تعب: «صحيح. إن الحسابات كانت مغلوطة ولا زلنا ننتظر البابا الملائكي... وفي الانتظار ها قد ظهر فرانشسكو ودومينيكو». ثم رفع عينيه إلى السماء وقال كمن يتلو صلاة (و لكنني كنت واثقاً أنه كان يذكر صفحة من كتابه العظيم حول شجرة الحياة) «الأوّل طهّره حجر ملائكي وسكنته نار سماويّة حتى إنه تحوّل إلى نار، والثاني مُبشّر فصيح أضاء بكلماته ظلمات الخطر المسيطرة على العالم... نعم، إن كانت هذه هي البشارة فإن البابا الملائكي آتٍ».

فقال غوليالمو: «ليكن كذلك، يا أوبارتينو، في الأثناء أنا هنا لأحول دون طرد الإمبراطور البشري. حتى الأخ دولتشينو كان يتحدّث عن البابا الملائكي الذي تتحدّث عنه...».

فصاح أوبارتينو «لا تنطق أبداً باسم ذلك الثعبان!» ولأوّل مرّة رأيته يتحوّل من مُتألم إلى ثائر «إنه لوّث كلمة جيواكينو دي كلابريا وجعل منها وازع موت وقذارة، رسول الدجّال إن كانت للدجّال رُسل. ولكنك أنت يا غوليالمو تتكلّم هكذا لأنك في الحقيقة لا تعتقد في مجيء المسيح الدجّال وأساتذتك في أُكسفورد قد علّموك عبادة العقل، وأخمدوا ما في قلبك من قُدرة على التنبؤ!».

فأجاب غوليالمو بكثير من الجدّية: «إنّك على خطأ يا أوبارتينو، أنت تعلم أنني، من بين كلّ أساتذتي أُجِلُّ روجر بيكون...».

فقال أوبارتينو مازحاً بمرارة «الذي كان يهذي بآلات تطير»،

- والذي تحدّث بوضوح وشفافية عن المسيح الدجّال وتفطّن إلى علاماته من خلال الفساد الذي يسود العالم ومن ضعف المعرفة. ولكنه علّمنا أن الطريقة الوحيدة للتأهب إلى مجيئه هي دراسة أسرار الطبيعة، واستعمال العلم لتحسين الجنس البشري. يمكن التأهب لمقاومة الدجّال بدراسة مزايا الأعشاب الطبيّة، وطبيعة الأحجار وحتى بتصميم الآلات الطائرة التي تسخر منها.

- إن دجّال صاحبك بيكون ما هو إلاّ تعلّة لممارسة غرور العقل.

- وإنها لتعلّة مقدّسة.

Twitter: @ketab_n

ـ لا شيء مما هو نابع عن الغرور مقدّس. غوليالمو، أنت تعلم أنني أحبك، وأثق بك كثيراً. عاقب عقلك، تعلّم أن تبكي على جروح الإله، اقذف بكتبك بعيداً.

فقال غوليالمو: «سأحتفظ فقط بكتابك»، وابتسم، فابتسم أيضاً أوبارتينو وهو يتوعّده بإصبعه «يا لك من إنكليزي عبيط، كفاك ضحكاً من إخوانك، بل أنصحك، اخشَ من لا تستطيع أن تحبّهم. وحاذر على نفسك من الدير. هذا المكان لا يعجبني».

فقال غوليالمو وهو يستأذن للانصراف: «وفعلاً أريد معرفته أكثر، هيا بنا يا أدسو».

فقال أوبارتينو وهو يهزّ رأسه «أنا أقول لك إن هذا المكان غير صالح، وأنت تقول إنك تريد معرفته أكثر، آه!»

فأضاف غوليالمو وقد وصل إلى منتصف الجناح «بالمناسبة، من يكون ذلك الراهب الذي يشبه الحيوان ويتكلّم لغة بابل؟»

فأدار أوبارتينو وجهه وكان قد ركع: «سلفاتوري؟ أظن أنها كانت هديتي إلى هذا الدير... هو والقيّم. عندما تخليت عن الزي الفرانشسكاني عدت بعض الوقت إلى ديري القديم في كازالي، وهناك وجدت إخواناً آخرين في ضِيق، لأن الرُّهبانية كانت تتهمهم بأنهم روحانيون من طائفتي... على حدّ تعبيرهم. ففعلت ما في وسعي لمساعدتهم وسُمِح لهم بأن يتّبعوا مثالي. وسلفاتوري وريميجيو وجدتهما هنا عندما وصلت إلى هذا المكان في السنة الفارطة. سلفاتوري... صحيح، يبدو حيواناً، ولكنه خدوم».

فتردد غوليالمو لحظة ثم قال: «لقد سمعته يقول «Penitenziagite». فصمت أوبارتينو، ثم حرّك يده كمن يبعد خاطراً مزعجاً «لا، لا أظنّ، أنت تعرف كيف هم إخواننا غير المُنتمين للكنيسة، أهل ريف، يمكن أن يكونوا سمعوا مرّة بعض الواعظين المتجوّلين، دون أن يفهموا أقوالهم. هناك شيء آخر يمكنني أن أؤاخذ عليه سلفاتوري، إنه حيوان نَهِم وفاجر، ولكن لا شيء، لا شيء ضدّ العقيدة

Twitter: @ketab_n

القويمة، كلاّ، إن بلاء الدير في غيره، ابحث عنه لدى من يعرف كثيراً، لا عند من لا يعرف شيئاً. لا تبنِ قصراً من الظنون على كلمة».

فأجاب غوليالمو: «لن أفعل ذلك أبداً، لقد تركت التحقيق لهذا السبب بالذات، ولكنني أحب الإصغاء إلى الكلمات، ثم التفكير فيها».

ـ أنت تفكر كثيراً ـ ثم قال متوجّهاً إليّ: «أيها الصبيّ، لا تتّبع كثيراً أفعال أستاذك المضرّة. الشيء الوحيد الذي يجب علينا التفكير فيه، وفهمت ذلك في آخر حياتي، هو الموت: «الموت هو راحة المسافر ونهاية كلّ تعب». دعاني أصلّي».

Twitter: @ketab_n

اليوم الأول: حوالى تاسعة

وفيه يجري غوليالمو حواراً علمياً مع سيفيرينو العشّاب.

اجتزنا من جديد الجناح الأوسط وخرجنا من الباب الكبير الذي دخلنا منه، وكانت كلمات أوبارتينو لا تزال كلّها ترنّ في أذنيّ.

ثم تجرأت وقلت لغوليالمو «إنه رجل... غريب».

ـ إنّه كان، أو لا يزال، لعدة اعتبارات، رجلاً عظيماً، وفعلاً هو غريب. الرجال التافهون فقط يبدون عاديين. كان يمكن لأوبارتينو أن يصبح واحداً من أولئك الهراطقة الذين ساهم في إحراقهم، أو كاردينالاً في كنيسة روما المقدّسة. لقد وصل قريباً جداً من كلا الضلالين. عندما أتحدّث مع أوبارتينو يبدو لي أن الجحيم هو الفردوس منظوراً إليه من الناحية الأخرى.

لم أفهم ماذا كان يريد أن يقول، فسألته: «من أيّ ناحية؟» فقال غوليالمو معترفاً «صحيح، يتعيّن أن نعرف هل توجد أجزاء أم يوجد كلّ. ولكن لا تصغِ إليّ، وكفاك تحديقاً في تلك البوّابة»، وضربني ضربة خفيفة على رقبتي بينما كنت ألتفت إلى الوراء وقد جذبتني النقوش التي رأيتها في المدخل «لقد أفزعتك اليوم بما فيه الكفاية. هي وغيرها».

عندما أدرت وجهي نحو الخارج، رأيت أمامي راهباً آخر، قد يكون له نفس سنّ غوليالمو. وابتسم لنا وحيّانا بأدب قائلاً إن اسمه سيفيرينو دا سانتيميرّانو، وهو الأب العشّاب المكلّف بقاعات الاستحمام، والمستشفى، والمباقل، وأنه يضع نفسه تحت تصرّفنا إذا ما أردنا التعرّف أكثر على ما يوجد بداخل الدير.

Twitter: @ketab_n

فشكره غوليالمو قائلاً إنه قد لاحظ، أثناء دخوله، المبقلة الخلاّبة التي بدت له محتوية لا على أعشاب صالحة للأكل فقط بل وكذلك على أعشاب طبيّة، كما يتبيّن ذلك من خلال الثلوج.

ـ «أثناء الصيف أو الربيع، ومع تنوّع نباتاتها، كلّ منها مُزدانة بأزهارها تسبّح هذه المبقلة بحمد الخالق كأحسن ما يكون الحمد». قال سيفيرينو ذلك على وجه الاعتذار ثم أضاف: «ولكن حتى في هذا الفصل ترى عين العشّاب من خلال الأغصان اليابسة النباتات التي ستنشأ ويمكنه أن يؤكد لك أن هذه المبقلة أثرى من أيّ كتاب أعشاب، وبتنوّع أكثر في الألوان، مهما كان جمال منمنماته. ثم إنه حتى في الشتاء تنبت الأعشاب النافعة، وأخرى أحتفظ بها مجموعة ومهيأة في الأوعية التي عندي في المخبر. فجذور الحمّيضة مثلاً تداوي الزكام، وبمغليّ جذور الخطمي الهندي تُهيأ لفائف لعلاج أمراض الجلد، والقرطب يدمل الأكزيمة، وإذا ما سحقنا وطحنا الجذمور فإننا نتحصّل على دواء يشفي من الإسهال ومن بعض أمراض النساء، والبهار مهضم ناجع وحشيشة السعال نافعة ضد السعال، ولدينا جنطيانا جيدة للهضم، وعرق السوس، وعرعر يصلح نقيعاً نافعاً، وقشرة البلسان مغلاة لمداواة الكبد، ونقيع جذور الصابونية في الماء البارد يصلح لعلاج النزلة، والناردين التي تعرف دون شك فضائلها».

ـ لديكم أعشاب مُختلفة وتنتمي إلى مناخات مُختلفة فما هو السرّ؟

ـ يعود الفضل من جهة إلى رحمة الإلٰه، الذي جعل موقعنا مرتفعاً بين سلسلة جبال تُطِلّ من جنوبها على البحر وتتقبل منه رياحه الحارّة، ومن شمالها على أعلى جبل فيصلها منه عبيره الغابي، كما يعود الفضل من جهة أخرى، إلى ممارسة هذا الفن، الذي تلقنته دون أن أكون جديراً بذلك، بفضل عزم أساتذتي. وهناك نباتات تعيش في مناخ مُناوىء إذا اعتنيتَ بالتربة المحيطة بها، بتغذيتها وبنموّها.

فسألته: «ولكن هل لديكم نباتات صالحة فقط للأكل؟»

ـ أيها المهر الجائع، لا توجد نباتات صالحة للأكل دون أن تكون صالحة

Twitter: @ketab_n

للعلاج، يكفي أن تكون الكمية معقولة، والإفراط وحده يجعلها سبباً في الأمراض. خذ القرع، فهو ذو طبيعة باردة ورطبة تريحك من العطش، ولكن إذا ما أكلته مهترئاً فهو يثير الإسهال وعليك إذن أن تقبض أحشاءك بخليط من الرُبّ والخردل. والبصل؟ ساخناً ونديّاً، بكمية قليلة يزيد من قوة المرء عند الجماع ـ بطبيعة الحال لمن ليس ملزماً بالنذر الذي التزمنا به نحن ـ وإن أُخذ بكميات كبيرة يحدث ثقلاً في الرأس وينبغي مجابهته بالحليب والخلّ. ثم أضاف بشيء من الخبث: وهذا سببٌ كافٍ كي يأكل منه الراهب الشاب دائماً بتقتير. ولكن عليك بالثوم. عندما يكون ساخناً وجافاً فهو ترياق للسموم. ولكن دون إفراط، فهو يخرج سوائل كثيرة من المخ. أمّا اللوبياء فهي تكثر البول وتسمّن وهما أمران طيّبان، ولكنها تتسبّب في أحلام مزعجة وإن كانت أقل إزعاجاً بكثير من تلك التي تحدثها بعض الحشائش، لأن من بينها ما يحدث أيضاً رؤى غير جميلة.

فسألته: «وما هي؟».

ـ «آه، آه، إن مبتدئنا يريد أن يعرف أكثر مما يلزم. هذه أشياء لا ينبغي أن يعرفها إلاّ العشّاب وإلاّ لاستطاع أيّ طائش أن يتجوّل موزعاً الرؤى، بعبارة أخرى أن يكذب بواسطة الحشائش». فقال عندئذ غوليالمو: «ولكن يكفي قليل من الأنجرة أو الرويبرا أو الأوليريبوس للوقاية من الرؤى. أرجو أن تكون لديكم هذه الحشائش الطيّبة».

فنظر سيفيرينو إلى أستاذي نظرة مختلسة وقال: «هل أنت تهتم بالأعشاب؟»

فقال غوليالمو بتواضع: «قليلاً جداً، لقد حصل مرة بين يدي كتاب أبي القاسم البلداشي... **تقويم الصحّة**،

ـ أبو الحسن المختار بن بطلان(*).

ـ أو القاسم المختار كما تريد. أتساءل إن كانت توجد منه نسخة هنا.

(*) هو ابن بطلان (المختار بن الحسن) [ت بعد سنة 1063م] طبيب وفيلسوف من أهل بغداد. من كتبه «دعوة الأطباء» و«تقويم الصحة» [المترجم].

Twitter: @ketab_n

ـ ومن أجملها، مع رسوم كثيرة ممتازة.

ـ الحمد للّه، وكتاب بلاتياريوس **في فضل الأعشاب**».

ـ هو أيضاً موجود، وكذلك كتاب **النباتات وفي التنبّت** لأرسطو ترجمة ألفريدو دي ساريشال.

فلاحظ غوليالمو: «يقال إنه لم يؤلفه في الحقيقة أرسطو، كما اكتُشف أيضاً أن كتاب **العلل** ليس لأرسطو».

فقال سيفيرينو «هو على كل حال كتاب عظيم». ووافقه أستاذي على ذلك بحماس كبير دون أن يسأل إن كان العشّاب يعني **التنبّت** أم كتاب **العلل**، وهما كتابان لا أعرفهما ولكنني استنتجت من ذلك الحوار أنهما هامّان جداً.

وختم سيفيرينو قائلاً «سأكون سعيداً لو أمكنني أن أجري معك حواراً صريحاً حول الأعشاب».

فقال غوليالمو «إنني أشدّ شوقاً منك إلى ذلك ولكن ألسنا نخالف قاعدة الصمت المعمول بها على ما يبدو في رهبانيتكم». فقال سيفيرينو: «القاعدة؟ لقد تكيَّفت عبر القرون مع مُختلف المجموعات. كانت القاعدة تسمح بقراءة الكتابات المقدّسة لا بالدرس: ومع ذلك أنت تعلم كم طوّرت رهبانيتنا البحث في الأمور الإلٰهية وفي الأمور البشرية. ثم، القاعدة تقول باستعمال قاعة نوم جماعية، ومع ذلك فمن الصالح، كما هو الشأن عندنا، أن يتمكن الرُّهبان حتى أثناء الليل من التأمل، ولذا كل منهم له حجرته. والقاعدة صارمة جداً فيما يخص الصمت ولا يجب، حتى عندنا، أن يتحادث الرُّهبان فيما بينهم، سواء كانوا ممّن يعملون بأيديهم أو ممّن يقرأون ويكتبون. ولٰكن الدير هو قبل كلّ شيء مجموعة من الدارسين وغالباً ما يكون نافعاً أن يتبادل الرُّهبان كنوز المعرفة التي تتجمع لديهم. إن كل مناقشة تخصّ دراستنا تعتبر شرعية ومُجدية. على شرط أن لا تقع في قاعة الأكل أو أثناء ساعات الفروض المقدّسة».

فسأله غوليالمو فجأة «هل أتيح لك أن تتحادث كثيراً مع أدالمو دا أوترانتو؟».

Twitter: @ketab_n

ولم يبدُ على سيفيرينو أنه فوجىء وقال: «أرى أن رئيس الدير قد أخبرك. كلاّ، لم أكن أتحادث معه كثيراً. كان يمضي وقته في النمنمة، لقد سمعته أحياناً يتناقش مع رُهبان آخرين، فينانتسيو دا سالفيماك (Venanzio da Salvemec)، أو يورج دا بورجُوس (Jorge da Burgos) حول طبيعة العمل الذي كان يقوم به. ثم إني لا أمضي نهاري في قاعة الكتابة بل في مخبري»، وأشار إلى مبنى المستشفى.

فقال غوليالمو: «فهمت، أنت إذن لا تعلم إن حدثت لأدالمو بعض الرؤى».

ـ رؤى؟

ـ كالتي تحدثها أعشابك مثلاً،

فتصلّب وجه سيفيرينو وقال: «لقد قلت لك إنني أصون بكثير من الحذر الأعشاب الخطرة».

فسارع غوليالمو مدقّقاً «لا أقول ذلك، كنت أعني الرؤى بصفة عامة».

فألحّ سيفيرينو قائلاً «لا أفهم».

ـ خطر ببالي أن راهباً يتجول في الليل داخل الصّرح، حيث يمكن أن تقع، كما أكّد لي رئيس الدير، أشياء... مريعة لمن يدخل في الساعات المحجرة. حسناً، كنت أقول إن فكرة خطرت ببالي وهي أنه يمكن أن تكون قد حدثت له رؤى شيطانية أودت به في الهاوية.

ـ لقد قلت لك، إنني لا أتردّد على قاعة الكتابة، إلاّ عندما أحتاج إلى كتاب ولكنني في العادة أحتفظ بكتبي الأعشابية في المستشفى. لقد قلت لك إن أدالمو كان مُؤالفاً كثيراً ليورج، ولفينانتسيو و... طبعاً، لبيرينغاريو (Berengario)».

شعرت أنا أيضاً بتردّد خفيف في صوت سيفيرينو، ولم يخفَ ذلك على أستاذي: «بيرينغاريو؟ ولماذا طبعاً؟»

ـ بيرينغاريو دا أرُندال، مساعد حافظ المكتبة. كان لهما السن نفسها، كانا مبتدئيْن معاً، من الطبيعي أن يتحادثا في المواضيع نفسها. هذا ما كنت أريد أن أقول». فعلّق غوليالمو قائلاً «هذا إذن ما كنت تريد أن تقوله»، وأدهشني أنه لم

Twitter: @ketab_n

يرد أن يلحّ على تلك النقطة، وفعلاً غيّر في الحال مجرى الحديث: «ولكن لعلّ الوقت قد حانَ لكي نزور الصّرح، هل تريد أن تكون مرشدنا؟» فقال سيفيرينو بارتياح واضح «بكلّ سرور» ثم حاذى بنا المبقلة ومررنا أمام واجهة الصّرح الغربية فقال: «من ناحية المبقلة يوجد باب كبير يؤدي إلى المطبخ الذي لا يحتلّ إلاّ النصف الغربي من الطابق الأوّل، وفي النصف الثاني توجد قاعة الأكل. ومن الباب الجنوبي، الذي يوصل إليه مروراً وراء خورس الكنيسة، يوجد مدخلان آخران يؤديان إلى المطبخ وإلى قاعة الأكل. ولكن لندخل أيضاً من هنا لأنه يمكننا عبر المطبخ أن نصل إلى قاعة الأكل».

عندما دخلت إلى المطبخ الفسيح لاحظت أن الصّرح يشتمل في داخله وعلى كامل ارتفاعه على ساحة مثمنة الزوايا، وكما فهمت بعد ذلك، هي عبارة عن بئر كبيرة، دون منافذ حيث تفتح على مستوى كل طابق نوافذ عريضة، كتلك التي تفتح على الخارج. وكان المطبخ سقيفة ضخمة مليئة بالدخان وقد أخذ بعض الخدم يسارعون بتهيئة الطعام للعشاء. إثنان منهم كانا يعدّان عجينة من الخضر، والشعير، والشوفان والجاودار، مقطعين قطعاً صغيرة لفتاً وجرجيراً وفجلاً وجزراً، قربهما كان أحد الطبّاخين يدهن بعض الأسماك التي كان قد أتمّ طبخها في خليط من الماء والخمر، بمرق مكوّن من قويصة وبقدونس وسعتر وثوم وفلفل وملح.

في القسم المطابق للبرج الغربي ينفتح فرن ضخم للخبز، يشعّ بلهيب مُشرَّب بحمرة. وفي البرج الجنوبي، مدفأة عظيمة تغلي فوقها قدور عملاقة وتدور فيها السّفافيد. من الباب الذي يفتح على البيدر خلف الكنيسة دخل في تلك الآونة رُعاة الخنازير يحملون لحوم الخنازير التي ذُبحت وخرجنا من ذلك الباب فوجدنا أنفسنا على البيدر في طرف المرتفع الشرقي تحت الأسوار، حيث كانت بناءات أخرى. وفسّر لي سيفيرينو أن الأولى تكون مجموعة الزرائب، ثم تأتي اصطبلات الخيول، تليها مرابط الثيران، ثم قِنان الدجاج والحظيرة المغطاة للنعاج. أمام الزرائب كان رُعاة الخنازير يحركون في جَرّة كبيرة دم الخنازير التي ذُبحت منذ قليل حتى لا تجمد، لأنه إذا ما حرك جيّداً وفي الحال فلا يفسد في الأيام الموالية نظراً لقساوة الطقس، ويصنعون منه بعد ذلك الفصيد.

Twitter: @ketab_n

دخلنا إلى الصرح وألقينا نظرة خاطفة على قاعة الأكل، التي اجتزناها لنتحوّل نحو البرج الشرقي. وبين البرجين تمتدّ قاعة الأكل وتوجد في الشمالي منهما مدفأة وفي الآخر سلّم حلزوني الشكل يؤدي إلى قاعة الكتابة، أي إلى الطابق الثاني. ومن هنالك يصعد الرُّهبان كل يوم إلى العمل، أو يستعملون سلّمين آخرين أقلّ يسراً من الأوّل ولكنهما دافئان إذ يصعدان في شكل دوّامة خلف المدفأة وفرن المطبخ.

سأل غوليالمو إن كنا سنجد أحداً في قاعة الكتابة حتى وإن كان ذلك اليوم يوم أحد، فابتسم سيفيرينو وقال إن العمل بالنسبة إلى الراهب البنيدكتي، هو صلاة. في يوم الأحد تدوم الفروض الدينية أكثر، ولكن الرُّهبان الذين يعملون بالكتب يقضون مع ذلك بعض الساعات هناك، ويمضونها عادة في تبادل ملاحظات علمية مثمرة، ونصائح، وفي التأملات حول الكتب المقدسة.

Twitter: @ketab_n

اليوم الأول: بعد تاسعة

وفيه يزور أدسو وغوليالمو قاعة الكتابة ويتعرّفان على عدة دارسين وناسخين ومفهرسين، وكذلك على شيخ ضرير ينتظر قدوم المسيح الدجّال.

بينما كنا صاعدين رأيت أستاذي يتأمل في النوافذ التي تُضيء المدرج، ومن المرجح أنني بدأت أكتسب شيئاً من خبرته لأنني لاحظت على الفور أن موضعها لا يسمح لأحد أن يصلها بسهولة، كما أن النوافذ التي تفتح على قاعة الأكل (الوحيدة في الطابق الأول التي تطلّ على المنحدر) كانت لا تبدو سهلة المنال إذ لم يكن تحتها أي نوع من الأثاث.

بعد أن وصلنا إلى أعلى المدرج دخلنا، عبر البرج الشمالي، إلى قاعة الكتابة وهناك لم أتمالك نفسي من إطلاق صيحة إعجاب. لم يكن الطابق الثاني مقسّماً إلى نصفين مثل السفلي وكان يتجلّى إذن إلى نظري بكل عظمته الفسيحة وكانت العقود مُنحنية وغير عالية كثيراً (أقل مما يكون في أية كنيسة ولكن مع ذلك أكثر من أية قاعة كنائسية أخرى رأيتها في حياتي)، تسندها أعمدة قوية، وكان يغمر فضاء القاعة نور رائع إذ تنفتح ثلاث نوافذ عظيمة على كلّ الجوانب الكبيرة بينما تنقب خمس نوافذ أصغر منها كلّ جانب من الجوانب الخمسة لكلّ برج، وأخيراً ثماني نوافذ تسمح للنور بالتدفق من البئر المثمّنة الداخلية.

وكانت وفرة النوافذ تجعل القاعة الكبرى بهيجة بالنُّور الذي كان يغمرها دون انقطاع، حتى وإن كنّا في عشية شتائية. ولم يكن الزجاج ملوّناً كما في سائر الكنائس إذ كانت شبكة الرصاص تشدّ أطراً مربّعة عديمة اللون، كي ينفذ النُّور إلى الداخل صافياً إلى أقصى حدّ ممكن، دون أن يكيّفه الفن البشري، لينفع للغرض المقصود، ألا وهو إضاءة عمل القراءة والكتابة. رأيت مرّات أخرى وفي أماكن

Twitter: @ketab_n

أخرى الكثير من قاعات الكتابة، ولكن لم يسطع في إحداها بذلك الإشعاع، في انسكاب النُّور المادي الذي يملأ الفضاء، ذلك الأساس الروحي نفسه الذي يتجسّد فيه النُّور: «الضياء» منبع كل جمال وكل علم، صفة غير منفصلة للتناسب الذي تتجلى فيه القاعدة إذ تتشارك ثلاثة أشياء في خلق الجمال: أوّلها التمام والكمال. ولذا نعتبر الأشياء التي بها نقص سمجة. ثم التناسب اللازم أو بكلمة أخرى الانسجام، وأخيراً الجلاء والنُّور، وفعلاً نقول عن أشياء ذات ألوان صافية إنها جميلة. وبما أن مرأى الجمال يحمل في طياته السلم، ورغبتنا تجد الهدوء في الشعور بالسلم، وفي الخير أو في الجمال، فقد أحسست بانفراج كبير يغمرني وقلت في نفسي كم يروق العمل في هذا المكان.

وبدت لي قاعة الكتابة، في تلك الساعة من العشية، كأنها مصنع للمعرفة تعمّه البهجة. ورأيت فيما بعد بسان غالّو قاعة كتابة أخرى لها الحجم نفسه، مُنفصلة عن المكتبة (في أماكن أخرى يعمل الرُّهبان في الموضع نفسه الذي تحفظ فيه الكتب)، ولكنها لا تعادلها من حيث حسن الترتيب. كان العلماء الأثريّون والكتبيون، والمفهرسون والدارسون جالسين كل إلى طاولته. وكانت كل طاولة تحت نافذة. وبما أن عدد النوافذ كان أربعين (و هو رقم كامل حقّاً، ناتج عن ضرب المربع في عشرة، كما لو عظمت الوصايا العشر في الفضائل الأساسية الأربع) كان يمكن إذن لأربعين راهباً أن يعملوا بنَفَس واحد، حتى ولو كانوا في تلك الآونة قُرابة الثلاثين، وشرح لنا سيفيرينو أن الرُّهبان الذين يعملون في قاعة الكتابة كانوا معفيّين من فروض «ثالثة» و«سادسة» و«تاسعة» حتى لا يتوقفوا عن عملهم في ساعات النهار، ولا يُنهون نشاطهم إلاّ وقت الغروب، عند صلاة السّتار.

وكانت الأماكن الأكثر نوراً مُخصّصة للعلماء الأثريّين، وللمزخرفين الأكثر خبرة، وللمفهرسين وللناسخين. وكانت كل طاولة تحتوي على جميع ما يلزم للنمنمة والنسخ: محابر، وريشات نحيفة كان الرُّهبان بصدد سنّها بموسى نحيفة وحجر إسفنجي لجعل الرق أملس ومساطر لرسم السطور التي ستمتدّ فوقها الكتابة. وحذو كل كاتب، أو في أعلى السطح المُنحدر لكل طاولة، يوجد مقرأ،

Twitter: @ketab_n

يوضع عليه المخطوط المعدّ للنسخ، تغطي صفحته أقنعة تحيط بالسطر الذي هو بصدد النقل في تلك الآونة. وكان لدى البعض حبر من الذهب ومن الألوان الأخرى. بينما كان الآخرون يقرأون الكتب فقط، وينقلون الملاحظات على كرّاساتهم أو ألواحهم.

ولكن لم يتسنَ لي أن أطّلع على أعمالهم، إذ تقدم نحونا حافظ المكتبة وكنّا على علم بأنه يُدعى مَلاخي دا هيلديشايم. وكان وجهه يريد أن يُعبِّر عن الترحاب، ولكنني لم أستطع أن أتمالك من الارتعاد أمام مثل تلك القسمات الغريبة. كان طويل القامة ولو أنها كانت على غاية من الهزال، فقد كانت أعضاؤه غليظة وقبيحة وكان ينتقل بِخُطىً واسعة، ملتفاً في قباء الرُهبانية الأسود. كان هناك شيء مُفْزع في هيئته. وكان الأَسكيم المُسْدَل على وجهه، إبّان دخوله من الخارج، يلقي ظلاً على شحوب ذلك الوجه ويضفي نوعاً من الألم، لا أدري كنهه، على تينك العينين الواسعتين الحزينتين. كانت سيماؤه تحمل آثار عواطف كثيرة أخضعتها الإرادة ولكن يبدو أنها حدّدت تلك الملامح التي لم تعد الآن تنشطها. كان الحزن والصرامة يسيطران على تقاسيم وجهه وكانت عيناه نافذتين إلى حدّ أن نظرة واحدة منهما كانت تقدر على النفاذ إلى قلب المتحدث إليه، وقراءة أفكاره الخفية، حتى إنه من الصعب على المرء أن يتحمّل تفرّسها ويودّ لو يتفادى ملاقاتها ثانية.

وقدّمنا حافظ المكتبة إلى عدّة رُهبان كانوا يعملون في تلك الآونة، وبخصوص كل واحد منهم حدثنا مَلاخي أيضاً عن العمل الذي هو بصدد القيام به، وأعجبني من جميعهم التعلق الشديد بالمعرفة وبدراسة الكلمة الإلهية. وهكذا تعرّفت على فينانتسيو دا سالفيماك، المترجم من الإغريقية ومن العربية، ونصير أرسطو المخلص الذي هو دون ريب أكثر الناس حكمة. وبانشيو دا أوبسالا، وهو راهب شاب إسكندِنافي يهتم بعلم البلاغة، وبيرينغاريو دا أروندال، مساعد حافظ المكتبة، وأيْمارو دا أليسّاندريا، الذي كان ينسخ بعض الأعمال التي استعارتها المكتبة لبضعة أشهر فقط، ثم مجموعة من المنمنمين من مُختلف البلدان، باتريتسيو دا كلونماكنوا، رابانو دا توليدو، مانيوس دا أيونا، ووالدو دا هيريفورد.

Twitter: @ketab_n

ويمكنني أن أتمادى في العدّ ولا شيء أروع من التعداد، فهو أداة وصف حية وخلاّبة. ولكن ينبغي أن أصل إلى موضوع نقاشاتنا، التي برزت من خلالها دلالات مفيدة لفهم ذلك القلق الذي كان يسري بين الرُّهبان، وذلك الشيء الذي كنت لا أدري كنهه والذي بقي ضمنياً في أحاديثهم ومخيّماً عليها.

بدأ أستاذي حديثه مع مَلاخي مُثنياً على جمال قاعة الكتابة وما يدور فيها من نشاط ومستفسراً عن تقدّم الأعمال التي كانت تُنجز بداخلها قائلاً، بكثير من الفِطنة، إنه في كلّ الأماكن التي عرفها سمع الكثير عن تلك المكتبة ويرغب في الاطلاع على الكثير من كتبها. وشرح له مَلاخي ما كان قد قاله من قبل رئيس الدير، من أن الراهب يطلب من حافظ المكتبة الكتاب الذي يريد فحصه فيذهب هذا الأخير لأخذه، من المكتبة العُليا، إذا كان الطلب صائباً وتقيّاً. فسأله غوليالمو كيف يمكنه أن يطّلع على عناوين الكتب المحفوظة في الخزانات العُليا فأراه مَلاَخي مخطوطاً ضخماً، تشدّه إلى الطاولة سلسلة صغيرة من الذهب، مليئاً بالفهارس الكثيفة.

فأدخل غوليالمو يده في ثوبه الذي كانت فيه فتحة على مستوى الصدر تكوّن جيباً، وأخرج شيئاً كنت قد رأيته من قبل بين يديه، وفوق وجهه أثناء السفر. كانت شدادة صُنِعت بحيث يمكن أن تستقرّ فوق أنف الإنسان (و أحسن من ذلك فوق أنفه هو، البارز والأقنى) كالفارس على صهوة جواده أو كطير فوق عود، وعند جانبي الشدادة بحيث تقابل العينين تمتدّ دائرتان من المعدن في شكل بيضة تكبسان على لوزتين من الزجاج، غليظتين كأنهما قاع كأس. كان غوليالمو يفضّل أن يقرأ بتلك الأداة فوق عينيه، ويقول إنه يرى أحسن مما سمحت له به الطبيعة، أو مما يسمح له به سنّه المتقدّم، خاصة عندما ينقص ضوء النهار. ولا تصلح له كي يرى من بعيد، إذ كان على عكس ذلك حاد النظر، ولكن ليرى من قريب. بذلك كان يمكن أن يقرأ مخطوطات مكتوبة بحروف دقيقة جداً، يصعب حتى عليّ في بعض الأحيان أن أقرأها. وشرح لي أن الإنسان عندما يتجاوز نصف العمر، حتى ولو كان نظره جيّداً قبل ذلك، فإن العين تتصلّب ويعسر عليها تكييف الحدقة، بحيث يصبح الكثير من العلماء عاجزين عن القراءة والكتابة بعد ربيعهم

Twitter: @ketab_n

الخمسين وهي مصيبة عظمى بالنسبة إلى رجال كان بمقدورهم أن يعطوا أفضل ما يخلقه ذكاؤهم لعدة أعوام أخرى. ولذا ينبغي أن نحمد الإلٰه أن اكتشف أحد هذه الأداة وصنعها. وكان يقول إن هدف العلم هو أيضاً العمل من أجل تمديد عمر الإنسان.

ونظر الرُّهبان الآخرون إلى غوليالمو بكثير من الفضول دون التجرؤ على سؤاله، وتفطّنت أنا إلى أنّ ذلك المكان، المكرّس بغيرة واعتزاز للقراءة والكتابة، لم تدخله إلى ذلك الحين تلك الأداة الرائعة وشعرت بالفخر لمرافقتي رجلاً لديه ما يُبهر رجالاً آخرين ذاع صِيت حِكمتهم في كلّ أرجاء الدنيا.

وبتلك الأداة فوق عينيه، انحنى غوليالمو على القوائم المكتوبة في المخطوط، ونظرت أنا أيضاً فاكتشفنا عناوين لكتب لم نسمع بها قط، وأخرى مشهورة جداً، على ملك المكتبة. وقرأ أُستاذي: «**حول مخمّس سليمان، أدب الكلام والفهم في اللغة العبرية، في الأدوات المعدنية** لروجيرو داهيرفورد، كتاب «**الجبر**» للخوارزمي، نقله إلى اللاتينية روبيرتو أنغليكو، **الحروب البونيقية** لسيليو إيتاليكو، **مآثر الفرنجيين، في تمجيد الصليب المقدس** لرابانو ماورو وفلافيو كلاوديو جيوردانو وحول تاريخ العالم والإنسان مُدوناً حسب الرسائل والكتب من ألفها إلى يائها».

ـ إنها كتب رائعة. ولكن بحسب أي ترتيب سجلتموها ـ وذكر نصاً لا أعرفه ولكنه دون شك مألوف بالنسبة إلى مَلاخي: «يملك الكتبي سجلاً رتبت فيه جميع الكتب بحسب المادة وبحسب أسماء مؤلفيها ويحتفظ بها منظمة كل كتاب على حدة بواسطة علامات مكتوبة» فأراه مَلاخي الحواشي التي تحاذي كل عنوان، فـقـرأت: «iii, IV gradus, V ... in prima graecorum, ii, V gradus, VII in tertia anglorum» إلى آخره.. وفهمت أن الرقم الأول يشير إلى موضع الكتاب في الرف أو الدرج، الذي يحمل الرقم الثاني، بينما الرقم الثالث يشير إلى الخزانة، وفهمت أيضاً أن العبارات الأخرى تعني قاعة أو رواقاً في المكتبة، وتجرأت على طلب معلومات أكثر حول التمييزات الاخيرة. فنظر إليّ مَلاخي بصرامة قائلاً: «قد لا

Twitter: @ketab_n

تعلم أو أنك نسيت أن دخول المكتبة مسموح لحافظ المكتبة فقط. ولذا من الصائب والكافي أن يعرف الحافظ وحده فكّ لغز تلك العبارات».

فسأل غوليالمو: «ولكن ما هو الترتيب الذي اعتُمد في وضع هذه القائمة من الكتب. ليس ذلك بحسب المادة، على ما يبدو». ولم يشر إلى التصنيف بحسب أسماء المؤلفين الذي يتبع نفس تداول الأحرف الأبجدية، إذ كانت طريقة لم أرها مستعملة إلا في السنوات الأخيرة، وفي ذلك الوقت لم تكن مستعملة إلاّ نادراً.

فقال مَلاخي: «إن المكتبة تغرق جذورها في أعماق الزمن، والكتب مُدوّنة بحسب تاريخ الاقتناء، والهِبات، وبحسب دخولها هذه الجدران».

فلاحظ غوليالمو: «ومن الصّعب العثور عليها».

ـ «يكفي أن يعرفها الحافظ عن ظهر قلب ويعلم عن كل كتاب التاريخ الذي وصل فيه. أما بالنسبة إلى الرُّهبان الآخرين فعليهم أن يثقوا بذاكرته»، وكان يبدو أنه يتكلم على شخص آخر غير شخصه هو، وفهمت أنه يتحدث عن الوظيفة التي يقوم بها هو الآن بكلّ تواضع، ولكن قام بها من قبله مئة آخرون، اندثروا بعد أن تناقلوا المعرفة أحدهم عن الآخر.

فقال غوليالمو: «فهمت. إذن لو أردت أنا البحث عن شيء، دون معرفة ما هو، حول **مخمّس سليمان** مثلاً، يمكنك أن تعرف إن كان الكتاب ـ الذي قرأت عنوانه منذ لحظة ـ موجوداً وأن تتعرف على موضعه في الطابق الأعلى».

فقال مَلاخي: «إن كنتَ حقيقة تريد أن تعرف شيئاً حول **مخمّس سليمان**، فإن كتاباً مثل هذا، لو كان لي أن أسلمه إليك أُفضّل أن أستشير في شأنه رئيس الدير».

فقال عند ذلك غوليالمو: «لقد علمت أنكم فقدتم منذ قريب واحداً من أفضل مُنَمْنِميكم وقد حدثني رئيس الدير كثيراً عن براعته الفنية، هل يمكنني أن أرى المخطوطات التي كان يُنَمْنِمُها؟»

فقال مَلاخي وهو ينظر إلى غوليالمو بارتياب: «أدالمو دا أوترانتو. لقد كان

Twitter: @ketab_n

يعمل، نظراً لحداثة سنه، على الحواشي. لقد كانت له مُخَيِّلَة مُتَوَقِّدَة جداً ومن أشياء مألوفة كان بمقدوره أن يكوّن أشياء مجهولة ومُدهشة، كأن يجمع جسم إنسان بعنق حصان. ولكن هي ذي كتبه هناك، لم يلمس أحد بعد طاولته».

فاقتربنا من المكان الذي كان يعمل فيه أدالمو، حيث كانت لا تزال موجودة بعض صفحات من كتاب تراتيل ثرية بالمُنَمْنَمات. كانت صفحات من ورق القضيم ـ وهو ملك الرقوق ـ وكانت الورقة الأخيرة مشدودة إلى الطاولة، وقد تمَّ حكّها قليلاً بالكدان وتليينها بالجبس ثم جعلها ملساء بواسطة المصقل ومن الثقوب الصغيرة جداً التي نُقشت على جوانبها سُطّرت كل الخطوط التي ستقود يد الفنان. وقد امتلأ نصفها الأول بالكتابة وأخذ الراهب في رسم الصور على الحواشي. أما الورقات الأخرى فكان قد فرغ منها، وعندما نظرنا إليها، لم نقدر لا أنا ولا غوليالمو على التمالك من إطلاق صيحة إعجاب. كان كتاب تراتيل رُسم على حاشيته عالَمٌ مقلوبٌ بالمقارنة مع العالم الذي عودنا عليه حسّنا. فكأنما يدور، في بداية حديث هو مبدئياً حديثُ الحقيقة وفي اتصال عميق به من خلال تلميحات رائعة وغامضة، حديثٌ كاذبٌ حول عالم قُلب رأسه إلى أسفل، حيث تفرّ الكلاب أمام الأرانب وتصيد الأيائل السباع: رؤوس صغيرة لها شكل قائمة طير وحيوانات لها أيدي إنسان على مؤخرتها ورؤوس كثيفة الشعر تخرج منها أرجل وتنانين جلدها مخطط كحمار الوحش، وحيوانات بأربع قوائم لها عنقٌ ثعباني يلتف بألف عُقدة مستحيلة الفك، وقردة ذات قرون ووعول وجنيّات بحر لها شكل طيور وفوق ظهرها أجنحة جلدية ورجال دون أيد تخرج من ظهورهم أجساد إنسانية في شكل حدبة، ثم مخلوقات بفم مسنّن على البطن وبشر برأس خيل وخيول بسيقان بشرية وحيتان بأجنحة طيور وطيور بذنب حيتان ووحوش بجسم واحد ورأسين أو برأس واحد وجسمين وأبقار لها ذيل ديك وأجنحة فراشة ونساء برأس محرشف كظهر السمك وكمائر ذات رأسين تتقاطع مع يعسوبيات لها خيشوم وزغة وسناتير، وتنانين وفيلة ووحوش لها ثلاثة صفوف من الأسنان ووجه بشري، وبشر ذوو أرجل عظيمة قد تمدّدوا فوق أغصان الشجر، ووحوش نصفها الأمامي في شكل عقاب والخلفي في شكل أسد يتولد من ذيلها نبّال على أُهْبَة القتال، ومخلوقات

Twitter: @ketab_n

شيطانية ذات عُنُق لا نهاية له، ومشاهد من حيوانات لها هيئة بشرية وأقزام لها هيئة حيوانية تتتابع أحياناً في الصفحة نفسها، مع مناظر من الحياة الريفية مرسومة بحيوية مُذهلة، حتى إن الصور كانت تبدو لك حية: كانت تمثل حياة الحقول تمثيلاً كاملاً: من حرّاثين، وجامعي غلال، وحصادين، وناسجات وزرّاعين بجانب ثعالب ونموس مسلحة بأقواس تتسلق أبراج مدينة تدافع عنها قردة. هنا حرف أولي مقوّس في شكل L وفي الناحية السفلى يولّد تنيناً، وهناك حرف V كبير تبدأ به كلمة «Verba» تنبت في أصله، كأنها عطفة كروم طبيعية، حيّة ملتفة ألف لفّة، تولّد بدورها حيات أخرى كما لو كانت أغصان كروم وعناقيد.

وإلى جانب كتاب التراتيل كان هناك كتاب فروض قد تمّت زخرفته منذ وقت قريب. كان على غاية من الروعة، صغير الحجم للغاية حتى إنه يمكن تناوله في راحة اليد. وكانت الكتابة صغيرة جداً، والنمنمات على الحاشية تكاد لا تبين للعين لأول وهلة وتتطلب أن تحدق فيها العين عن قرب لتتجلّى في كامل رونقها (وتتساءل بأية أداة عجيبة رسمها المنمنم للحصول على أشكال بتلك الحيوية في فضاء بذلك الضيق). فقد كانت كامل حواشي الكتاب ممتلئة بصور صغيرة جداً تنشأ من دورات الحروف التي رسمت بروعة، وكأنها امتداد طبيعي لها: جنيّات بحر ووعول هاربة، وخيامر وأنصاف بشرية دون أذرع تخرج كأنها دود من جسد الفقرات نفسها. وفي كل مكان آخر كانت هناك ثلاث صور جميلة تبدو وكأنها تواصُلٌ للكلمات الثلاث «Sanctus, Sanctus, Sanctus» المكرّرة على ثلاثة سطور مُختلفة، تمثل كائنات تحمل ثلاثة رؤوس بشرية وقد التوى أحدها نحو الأسفل والآخر نحو الأعلى ليلتقيا في قبلة قد تبدو لك غير لائقة لولا اقتناعك بأن هناك معنى روحياً عميقاً، ولو أنه غير بيِّن، يبرّر دون شك تلك الصورة في ذلك الموضع.

وكنت أتتبع تلك الصفحات يتنازعني الإعجاب الصامت والضحك لأن الصور تحمل بالضرورة على المرح، حتى لو كانت تشرح صفحات مقدسة، وكان الأخ غوليالمو يفحصها مبتسماً ثم علّق عليها قائلا: «Babewyn هكذا تسمّى في جزرنا».

Twitter: @ketab_n

فقال مَلاخي: «Babouins (قُردُوح) كما يسمونها في بلاد الغال. وفعلاً تعلّم أدالمو فنّه في بلادكم، ولو أنه درس بعد ذلك في فرنسا. قرادح، أو قرود إفريقيا. صور عالم معكوس، حيث تقف الديار فوق شوكة إبرة وتقوم الأرض فوق السماء».

فتذكرت بعض الأبيات التي سمعتها في لهجة البلد الذي ترعرعت فيه ولم أتمالك عن ذكرها:

Aller Wunder si geswigen,
das herde himel hât uberstigen,
daz sult ir vür ein Wunder wigen

فتابع مَلاخي، من النص نفسه:

Erd ob un himel unter
das sult ir hân besunder
Vür aller Wunder ein Wunder*.

ثم قال: «أحسنت يا أدسو. فعلاً، تحدثنا هذه الصور عن تلك الجهات التي يوصل إليها فوق صهوة إوزّة زرقاء، حيث توجد صقور تصيد السمك في الأودية وحيث الدِّببة تطارد البُزاة في السماء، والجمبري يطير مع الحمام وثلاثة عمالقة وقعوا في فخ ونقرهم ديك».

وأشرق وجهه بابتسامة شاحبة، وعندئذٍ انفجر الرُّهبان الآخرون في ضحك تلقائي، وكانوا قد تابعوا إلى ذلك الحين حوارنا مع مَلاخي بشيء من التهيب، وكأنما كانوا ينتظرون موافقة حافظ المكتبة الذي سرعان ما استعاد صرامته بينما

(*) صمتت المعجزات وكفّت عن الظهور،
وفاقت الأرض السّماء،
الآن أخذت الأرض مكان السّماء.
الأرض فوق السّماء
هذا ما يمكن اعتباره فعلاً
معجزة المعجزات.

Twitter: @ketab_n

تمادى الآخرون في الضحك، وهم يثنون على براعة أدالمو المسكين ويطلع بعضهم بعضاً على الصور الأكثر غرابة. وبينما كانوا غارقين في الضحك إذ دوّى من ورائنا صوت مَهِيب وصارم يقول «لم أتفوه قطّ بكلمة تافهة أو بقول يبعث على الضحك».

فالتفتنا. كان المتكلم راهباً قد تقوّس ظهره تحت وطأة السنين، أبيض كالثلج، ولا أعني شعره فحسب، بل وجهه أيضاً وكذلك حدقتا العينين ولاحظت أنه كان أعمى. كان صوته لايزال جهورياً وأعضاؤه قوية حتى ولو انكمش الجسد تحت ثقل السنين. وكان يحدّق فينا وكأنه يبصرنا ورأيته دائماً، بعد ذلك، يتحرك ويتكلم كمن لا يزال ينعم بالبصر، أما نبرة الصوت فقد كانت لمن يملك فقط موهبة التنبؤ.

وقال مَلاخي لغوليالمو مشيراً إلى القادم الجديد: «إن الرجل المبجل سنّاً ومعرفةً، الذي تراه، هو يورج دا بورجُوس، أكبر المقيمين في الدير سنّاً، إذا ما استثنينا أليناردو دا غروتافيرّاتا، والذي يودعه الكثير من الرُّهبان ثقل خطاياهم في سريّة الاعتراف». ثم قال ملتفتاً إلى الشيخ «هذا الذي يقف أمامك هو الأخ غوليالمو دا باسكرفيل، ضيفنا».

فقال الشيخ بنبرة حادّة: «أرجو أن لا تكون أغضبتك كلماتي». ثم تابع «لقد سمعت من يضحك من أشياء تبعث على الضحك وأردت تذكيرهم بإحدى قواعد رهبانيتنا. وكما يقول داود المرتّل، إذا ما وجب على الراهب أن يمسك عن الأحاديث الطيبة لأنه نذر الصمت، فيجب عليه أكثر من ذلك أن يعرض عن الأحاديث السيئة. وكما توجد أحاديث سيئة، توجد أيضاً صور سيئة. وهي تلك التي تكذب حول شكل الخلق وتظهر العالم على عكس ما ينبغي أن يكون عليه، وعلى عكس ما كان في القرون السحيقة وما سيكون دائماً حتى انتهاء الزمن. ولكنك تأتي من رهبانية أخرى، قيل لي إن فيها تسامحاً حتى بخصوص المرح الذي هو في غير محله». وكان يلمح إلى ما كان يقال بين البنيدكتيين عن غرابة القديس فرانشسكو الأسّيزي في سلوكه وربّما أيضاً عن الشذوذ الذي رُمي به الإخوان البُسَطاء والروحانيون من كل صنف، والذين يمثلون في النظام

Twitter: @ketab_n

الفرانشسكاني البراعم الأكثر حداثة والأكثر إثارة للحيرة. ولكن الأخ غوليالمو تظاهر بعدم فهم التلميح وأجاب «إن الصور على الحواشي تُوحي غالباً بالابتسام، ولكن الغرض منها هو التهذيب، كالخطب الوعظية، لكي تلمس مخيلة الأتقياء من العامة تستعمل الأمثلة، وليس نادراً أن تكون مازحة، كذلك حديث الصور يقرّ بهذه السخافات. لكل فضيلة ولكل خطيئة نجد مثالاً من كتب الحيوانات والحيوانات تصبح صورة لعالم الإنسان».

فقال الشيخ متهكماً، ولكن دون أن يبتسم «آه، صحيح. كل صورة تصلح للاقتناع بالفضيلة، ولكي تصبح روعة الخلق الإلٰهي، مقلوبة رأساً على عقب، ومادّة تبعث على الضحك. وهكذا تتجلى الكلمة الإلٰهية من خلال الحمار الذي يعزف على المزهر، والغبي الذي يحرث بقطعة نقد، والثيران التي تشد نفسها وحدها إلى المحراث، والأودية التي تسير عكس تيارها، والبحر الذي يحترق، والذئب الذي يصبح ناسكاً! صيدوا الأرنب بالثور، وتعلموا النحو عن البوم، فلتعضّ الكلاب البراغيث، ولينظر العميان إلى البكم وليستَجْدِ البكم قطعة خبز، ولتلد النملة عجلاً، ولتطر الفراخ المشوية، ولتنبت الفطائر فوق السطوح، ولتعطِ الببغاوات دروساً في الخطابة ولتلقح الدجاجات الديكة، وليُوضع المحراث أمام الثيران، ولينم الكلب في الفراش وليمشِ الجميع منقلبين رأسهم إلى أسفل! ماذا تعني كل هذه السخافات؟ عالماً معكوساً ومعاكساً للعالم الذي وضعه الإلٰه بتعلّة إنها تريد تلقين التعاليم الإلٰهية!».

فقال غوليالمو بتواضع: «ولكن القديس بولس يعلّمنا أن اسم الإلٰه لا يمكن ذكره إلا من خلال الأشياء الأكثر تشويهاً. ويذكرنا أوغو دا سان فيتوري أنه كلما كان التشابه مُختلفاً عن الأصل، بانت لنا الحقيقة من تحت غشاء الصور القبيحة وغير اللائقة، وابتعدت المخيلة عن الشهوة الجسدية واضطرّت إلى كشف الأسرار التي تختفي وراء فظاعة الصور...».

ـ أعرف الموضوع! وأعترف بخجل أنها كانت الحجة الرئيسية التي اعتمدها نظامنا، أثناء نزاع رؤساء الأديرة الكلونيين ضد السيستارسيّين ولكن القديس بيرناردو كان على حق: إن الإنسان الذي يمثل وحوشَ وغرائب الطبيعة ليبيّن من

Twitter: @ketab_n

خلالها خلق الإله «بالصّورة وبالرمز» يستطيب شيئاً فشيئاً تلك الطبيعة نفسها التي تنتمي إليها الوحوش التي يخلقها ويتلذذ بها، وفيها، ولا يرى من بعد إلا من خلالها. يكفي أن تنظروا، أنتم الذين لا زلتم تبصرون، إلى تيجان أعمدة رواقكم»، وأشار بيده إلى خارج النوافذ، نحو الكنيسة، «ماذا تعني، تحت أنظار الرُّهبان المستغرقين في تأملاتهم، تلك الوحوش السخيفة، وتلك الأشكال الجميلة التي قبّحت، وتلك القباحات التي جمّلت؟ وتلك القردة القذرة؟ وتلك الأسود، وتلك السنتورات وتلك المخلوقات النصف بشرية، ذات الفم فوق البطن، أو ذات الرِّجل الواحدة، أو الآذان على شكل أشرعة؟ وتلك النمور الرقطاء وأولئك المحاربون في نزال، وأولئك الصيادون الذين ينفخون في الأبواق، وتلك الأجسام المتعددة برأس واحد والرؤوس المتعددة في جسم واحد ؟ وذوات الأربع بذيل ثعبان والأسماك برأس ذوات الأربع، هنا حيوان يبدو حصاناً من الأمام ومن الخلف تيساً، وهناك حصان له قرنان... إلى آخره. لقد صار أمتع للراهب أن يقرأ ما نُقش على الرخام من أن يقرأ ما كُتب في المخطوطات، وأن يكبر ما يصنع الإنسان عوضاً عن التأمل في أحكام الإله. خزياً لمتعة أنظاركم ولابتساماتكم!

وتوقف الشيخ الكبير وهو يلهث، وتعجّبت لذاكرته الحية التي احتفظت بالرغم من السنين الطويلة التي ربما عاشها ضريراً، بالصور التي ذكر لنا فظاعتها، حتى ذهب بي الظن إلى أنها قد فتنته كثيراً عندما رآها، بما أنه قادر إلى الآن على وصفها بذلك الحماس. ولكن غالباً ما حدث أن وجدتُ التمثيل للخطايا الأكثر إغراء في صفحات أولئك الرجال الأفاضل المتنزهين عن الفساد والذين يدينون فتنته وتأثيراته، وهذا دليل على أن أولئك الرجال يحدوهم حماس قوي لجلاء الحقيقة إلى حد أنهم لا يترددون، حبّاً في الإله، عن تقليد الشرّ بكل المغريات التي يتحلى بها، حتى يلقنوا إخوانهم كل الطرق التي يستعملها الشيطان لفتنتهم وفعلاً قد أثارت فيّ كلمات يورج رغبة قوية في رؤية نمور وقردة الرواق التي لم أرها بعد. ولكن يورج قطع مجرى أفكاري لأنه واصل كلامه بنبرة أقل انفعالاً، قائلاً:

«لم يحتج سيدنا إلى كل تلك السخافات كي يدلّنا على الطريق القويم. لا شيء في تشابيهه يدعو إلى الضحك أو إلى الخوف، أما أدالمو الذي تبكونه

Twitter: @ketab_n

الآن ميتاً، فقد كان يستمتع بالوحوش التي كان ينمنمها إلى حد أنه نسي المغازي النهائية التي كانت تمثلها مادياً. وقد سار في جميع، أقول جميع ـ وهنا بدا صوته مَهيباً ومتوعداً ـ دروب الشناعة. وقد عرف اللّه كيف يُعاقبه».

وخيّم صمت عميق على الحاضرين فتجرّأ فينانتسيو دا سالفيماك على قطعه وقال:

ـ «يورج الجليل، إن طهارتك تَجعلك غير مُنصف. قبل موت أدالمو بيومين كنت أنت حاضراً في مناقشة علمية في هذا المكان بالذات، وكان أدالمو حريصاً أن يكون فنه، وإن أوقفه على تمثيل أشياء غريبة وخيالية، هادفاً إلى تمجيد اللّه، وأداة لمعرفة الأمور الإلٰهية، وقد ذكر منذ حين الأخ غوليالمو القديس بولس بخصوص المعرفة من خلال التشويه، وقد ذكر أدالمو في ذلك اليوم منارة علمية أخرى هي العَلاّمة الأكويني، عندما قال إنه ينبغي أن تمثّل الأمور الإلٰهية في أشكال الأجسام الحقيرة أكثر منها في أشكال الأجسام النبيلة. أولاً لأنه من السهل أكثر أن يتحرر فكر الإنسان من الخطأ، وفعلاً فمن الواضح أن بعض الخاصيات لا يمكن نسبتها إلى الأشياء الإلٰهية، وهذا يمكن أن يحمل إلى الشك لو أشيرَ إليها من خلال أشكال أشياء جسمية نبيلة. ثانياً لأن هذه الطريقة في التمثيل تتلاءم أكثر مع معرفتنا للإلٰه فوق هذه الأرض: فهو يتجلّى لنا فعلاً في ما هو مغيّب أكثر مما يتجلّى في ما هو موجود، ولذا فإن تشابه تلك الأشياء التي تبعدنا أكثر عن الله، تعيدنا إلى رأي أكثر صواباً عنه، لأننا نعلم هكذا أنه فوق ما نقوله ونفكر فيه. ثالثاً لأن ما يتعلق بالإلٰه يكون هكذا محجوباً بصورة أحسن عمن لا يكون به جديراً. باختصار، كنا نحاول ذلك اليوم أن نفهم كيف يمكن اكتشاف الحقيقة من خلال العبارات الغريبة، والنّافذة والغامضة، وكنت قد ذكّرته أنا أنني وجدت في كتاب أرسطو العظيم كلمات واضحة في ذلك الشأن...».

فقاطعه يورج بجفاء «لا أذكر، إنني مُسِنّ جداً. لا أذكر. قد أكون أفرطت في الصرامة. إن الوقت الآن متأخر، يجب أن أذهب».

فألح فينانتسيو «من الغريب أنك لاتذكر ذلك، فقد كانت مناقشة قيّمة ورائعة، تدخّل فيها أيضا بانشيو وبيرينغاريو. كنا نريد أن نعرف إن كانت

Twitter: @ketab_n

الاستعارات، والجناس، والألغاز، التي يظهر أن الشعراء خلقوها للتسلية، لا تحملنا على التفكير في الأشياء بطريقة جديدة ومدهشة، وكنت أقول إن هذه أيضاً خَصْلَة ينبغي أن يتحلى بها الحكيم... وكان مَلاخي هو الآخر حاضراً...».

فقاطعه أحد الرُّهبان ممن كانوا يتابعون النقاش «إن كان الجليل يورج لا يتذكر فاحترم سنّه وإعياء فكره... الذي لا يزال مع ذلك متوقداً».. وكانت الجملة قد نطقت بانفعال، على الأقل في أولها، لأن من تكلّم، عندما تفطّن إلى أن دعوته لاحترام الشيخ هي في الواقع إبراز لضعفه، خفّف من حدّة مداخلته متمّماً إياها في شبه همسة اعتذار. كان المتكلّم بيرينغاريو دا أروندال مساعد حافظ المكتبة، وكان شاباً شاحب الوجه. وعندما تمعّنت فيه تذكرت ما قاله أوبارتينو عن أدالمو : كانت عيناه تشبهان عيني امرأة فاسقة. ومن الخجل الذي أحدثته أنظار الجميع المحدقة فيه كانت أصابع يديه متشابكة كمن يريد أن يحبس توتّراً داخلياً.

وكان رد فعل فينانتسيو غريباً، فقد نظر إلى بيرينغاريو نظرة جعلته يخفض عينيه، ثم قال: «حسناً أيها الأخ، إن كانت الذاكرة هِبَةً من اللّه فإن القدرة على النسيان يمكن أن تكون صالحة وينبغي احترامها. ولكنني أحترمها من طرف الأخ الشيخ الذي كنت أخاطبه، أما من طرفك أنت فكنت أنتظر ذكرى أكثر حيوية بخصوص الأشياء التي حدثت هنا، عندما كان معنا صديق عزيز عليك جداً...».

لا يمكنني أن أجزم بأن فينانتسيو أكّد على كلمة «عزيز جداً» ولكن من الثابت أنني أحسست باضطراب سرى بين الحاضرين، ونظر كل منهم إلى ناحية مُختلفة دون أن يوجّه أحد نظرة نحو بيرينغاريو، الذي احمرّ وجهه بشدّة. وتدخل في الحال مَلاخي، بحزم قائلاً: «هيّا معي يا أخ غوليالمو، سأُريك كتباً أخرى هامة».

انفضّ الجمع. ولحظت بيرينغاريو وهو يلقي إلى فينانتسيو نظرة ملؤها الحقد، وأجابه فينانتسيو بمثلها، في تحدٍّ صامت. أما أنا، فعند رؤية الشيخ يورج يهمّ بالانصراف، دفعتني عاطفة إجلال واحترام فانحنيت لتقبيل يده، ولم يرفض الشيخ ذلك، ثم وضع يده فوق رأسي وسألني من أكون، وعندما ذكرت له اسمي تهلّل وجهه وقال:

«إنك تحمل اسماً عظيماً وجميلاً جداً. أتعرف من كان أدسو دا مونتييه - إنْ

Twitter: @ketab_n

ـ دِزْ؟» ـ وأعترف أنا بأنني كنت أجهله ـ وأضاف يورج «لقد كان مؤلف كتاب عظيم ومريع، **كتاب المسيح الدجّال**، رأى فيه أحداثاً ستقع ولكن لم يصغِ إليه أحد بما فيه الكفاية».

فقال غوليالمو: «لقد ألّف الكتاب قبل ألف عام، وتلك الأحداث لم تقع».

فقال الأعمى: «لمن ليست له عينان يرى بهما. إن مسالك المسيح الدجّال طويلة ومُلتوية. إنه يصل عندما لا نتوقعه، وليس لأن حسابات الحواري مغلوطة، بل لأننا لم نتعرف على فنّه»، ثم صاح بصوت مرتفع جداً، ملتفتاً نحو القاعة، فدوّت قباب قاعة الكتابة: «إنه آتٍ لا تضيعوا الأيام الأخيرة في الضحك على الوحوش المفهّدة والأذناب الملتوية! لا تهدروا الأيام السبعة الأخيرة!»

Twitter: @ketab_n

اليوم الأول: صلاة السّتار

وفيه يزور أدسو وغوليالمو باقي الدير، ويتوصّل غوليالمو إلى بعض الاستنتاجات حول موت أدالمو ثم يدور حديث مع راهب يصنع الزُّجاج الصالح للقراءة حول الأشباح التي تظهر لمن يريد أن يفرط في القراءة

في ذلك الحين دقّت الأجراس لصلاة السّتار وتأهب الرُّهبان لترك طاولاتهم، وأفهمنا مَلاخي أنه علينا نحن أيضاً أن نذهب، أما هو فسيبقى مع مساعده بيرينغاريو، لإعادة ترتيب القاعة ولتهيئة المكتبة للّيل (هكذا قال) فسأله غوليالمو إن كان سيغلق بعد ذلك جميع الأبواب.

ـ ليست هناك أبواب تمنع الدخول إلى قاعة الكتابة من المطبخ ومن قاعة الأكل، ولا من قاعة الكتابة إلى المكتبة: تحجير رئيس الدير أقوى، ويستعمل الرُّهبان المطبخ وقاعة الأكل إلى حدود صلاة النوم. عند ذلك وحتى لا يدخل إلى الصّرح حيوان أو غريب من الذين لا يخصهم التحجير، أغلق بنفسي الأبواب السفلى الكبرى التي تؤدي إلى المطابخ وإلى قاعة الأكل ومنذ ذلك الحين يصبح المبنى معزولاً.

نزلنا وبينما كان الرُّهبان يتّجهون نحو الخورس قرّر أستاذي عدم حضور الفرض الديني قائلاً إن اللّه سيغفر لَنا دون شك ذلك (وكان على اللّه أن يغفر لنا خطايا كثيرة في الأيام اللاحقة) وعرض عليَّ أن نتمشى قليلاً عبر السهل، حتى نتعود على المكان.

خرجنا من المطابخ واجتزنا المقبرة: كانت هناك شواهد قبرية أكثر حداثة، وأخرى تحمل آثار الزمن، تقصّ حياة رُهبان عاشوا في القرون الغابرة. وكانت القبور لا تحمل أسماء ويرتفع فوقها صليب من الحجر.

Twitter: @ketab_n

وكان الطقس قد بدأ يتعكّر إذ قامت ريح باردة وأخذت السماء في التجهّم، وكان غروب الشمس يتراءى من وراء البساتين وقد بدأت العتمة تُخيّم على المشرق حيث اتّجهنا، محاذين خورس الكنيسة وملتحقيْن بالناحية الخلفية للمرتفع. هناك كانت توجد الزرائب، تكاد تستند إلى الأسوار المحيطة بالدير حيث تلتئم ببرج الصّرح الشرقي، وكان الرُّعاة يُغطّون الجرة التي ملئت بدم الخنازير. ولاحظنا أن السور الحزامي الموجود خلف الزرائب كان أقصر من باقي الاسوار حتى إنه يمكن للمرء أن يشرف منه على المنحدر. وراء هوّة الأسوار، كانت الأرض تنحدر بصفة تحدث الدّوار وكانت مغطاة بأوساخ لم يقدر الثلج على مواراتها تماماً. وتفطّنت إلى أننا كنّا أمام موضع صبّ التبن، الذي استعمل كمفارش للدواب، ثم ألقي به من هناك حتى وصل إلى المُنعطف ومنه يتفرع الدرب الذي أخذه الجواد الهارب برونيلّو. قلت مفارش، إذ كانت عبارة عن تساقط مادّة نتنة، تتصاعد رائحتها إلى الحاجز الذي كنت أشرف منه، ومن الواضح أن الفلاحين كانوا يستمدّون من الأسفل تلك المادّة لاستعمالها في الحقول. ولكن إلى جانب بِراز الدواب والبشر تختلط نفايات أخرى صلبة هي مجموع المواد الميتة التي يخرجها الدير من جسمه، ليبقى صافياً ونقياً في علاقته مع قمّة الجبل والسماء.

في الإضْطبلات المجاورة كان الخُوذيون يقودون الدواب إلى المعلف، وقطعنا المسلك الذي تمتد على جانبيه من ناحية السّور، الإضْطبلات المُختلفة، وعلى اليسار، مستندة إلى الخورس، قاعة نوم الرُّهبان ثم المباول. وهناك حيث يدور السّور الشرقي نحو الجنوب، في زاوية الحزام، يوجد مبنى أكوار الحدادة. وكان الحدّادون الأخيرون يرتّبون أدواتهم ويطفئون المنافخ، للالتحاق بالفرض الديني. واتجه غوليالمو بفضول نحو قسم من أكوار الحدادة، يكاد يكون منفرداً عن بقية المعامل، حيث كان أحد الرُّهبان منكبّاً على ترتيب أدواته. وكانت توجد فوق طاولته مجموعة رائعة من قطع الزُّجاج مُختلفة الألوان، وصغيرة الحجم بينما كانت قطع أخرى كبيرة مسندة إلى الحائط، وكان أمامه صندوق لحفظ بقايا القديسين لم ينتهِ بعد من صنعه، ولا يوجد منه إلا الهيكل من الفضة، ولكن من الواضح أنه كان يرصّعه بالزُّجاج وبأحجار أخرى، يصغّرها بأدواته ويجعلها في حجم الفصّ.

Twitter: @ketab_n

هكذا تعرّفنا على نيكولا دا موريموندو، فنّي الزُّجاج في الدير، وشرح لنا أنه في القسم الخلفي من أكوار الحدادة يُنفخ أيضاً في الزُّجاج، بينما في الأمامية، حيث يعمل الحدادون، تثبّت قطع الزُّجاج إلى شبكة الرصاص لصنع النوافذ الزُّجاجية، ولكنه أضاف قائلاً إن الأعمال الزُّجاجية العظيمة التي تُزيّن الكنيسة والصّرح قد أُنجزت منذ قرنين على الأقل، ويقتصر عمله الآن على أشغال متواضعة أو على ترميم ما يفسده الزمن. ثم أضاف:

ـ «وبجهد كبير، لأنه من الصعب العثور على ألوان العهود الغابرة، خاصة منها الأزرق الذي يمكن التأمل في روعته إلى الآن، من صنف نقي حتى إنه عندما تكون الشمس في أوجها ينصبّ في جناح الكنيسة نور فردوسي. أمّا زُجاج الجهة الغربية من الجناح، الذي أُعِيْدَ صنعه منذ زمن غير طويل، فليس في الجودة نفسها، ويبين ذلك في أيام الصيف»، ثم أضاف «لا فائدة، نحن لا نملك حكمة القدامى، لقد ولّى زمن الجبابرة!»

فقال غوليالمو موافقاً: «إننا أقزام، ولكننا أقزام نقف فوق أكتاف أولئك الجبابرة، ورغم صغرنا نستطيع أن نرى في بعض الأحيان أبعد منهم في الأفق».

فهتف نيكولا قائلاً: «قل لي ماذا نجيد من الأعمال ولم يجيدوها هم من قبل! لو نزلت إلى قبو الكنيسة حيث تحفظ كنوز الدير، لوجدت مذاخر لها من الروعة ما يجعل من هذا السّقط البائس الذي أنا بصدد صنعه»، وأشار إلى عمله فوق الطاولة «سيبدو لك هذا قرداً يحاول تقليدها!».

ـ «ما حُكِمَ قطُّ على الزَّجّاجين أن يصنعوا النوافذ فقط أو على الصائغين أن يصنعوا صناديق بقايا القديسين فحسب، وقد عرف الفنّانون القدامى صنع أشياء من هذا القبيل فائقة الروعة لتبقى خالدة عبر القرون، وإلاّ لامتلأت الأرض بتلك الصناديق»، وأضاف غوليالمو هازئاً: «في عصر قلّ وندر أن يوجد فيه قدّيسون تحفظ بقاياهم، ولا أن يُقتصر على لحْم النوافذ أبد الدهر، ولكنني رأيت في بلدان مُختلفة أعمالاً جديدة مصنوعة من الزُّجاج تذكرنا بعالم الغد عندما يصبح الزُّجاج لا فقط في خدمة الفروض الدينية بل وأيضاً مُعيناً للإنسان في ضعفه. أريد أن

Twitter: @ketab_n

أريك عملاً من أيامنا المعاصرة، والتي يشرفني أنني أملك منها نموذجاً عظيم النفع». ثم أدخل يده تحت ثوبه وأخرج عدستيه اللتين أذهلتا مخاطبنا.

وأخذ نيكولا الشَّدّادة التي مدّها إليه غوليالمو باهتمام بالغ، وهتف: «عينان من الزُّجاج بمسّاكة!» لقد حدثني عنها أحد الإخوان يدعى جيوردانو عرفته في بيزا! وقد قال لي إنه لم تمضِ بعد عشرون سنة على اكتشافها. ولكنني تحادثت معه منذ ما يزيد على العشرين عاماً.

فقال غوليالمو: «أظن أنها اخترعت قبل ذلك بكثير، ولكنها صعبة الصنع وتتطلب زَجّاجين ذوي خبرة كبيرة، وتستنفد وقتاً وعملاً، وقد بيع زوج من هذه النظارات الزُّجاجية الصالحة للقراءة في بولونيا بستة فلوس وكان ذلك منذ عشر سنوات. وأهداني زوجاً منها أستاذ كبير هو سالفينو ديلي أرماتي، منذ ما يزيد على عشر سنوات، وحافظت عليها حفاظاً بالغاً طوال هذا الوقت، وكأنها ـ كما هي الآن حقاً ـ جزء لا يتجزأ من جسمي».

فقال نيكولا بحماس: «أرجو أن تدعني يوماً أفحصها وسأكون سعيداً لو تمكّنت من صنع واحدة مثلها».

فأبدى غوليالمو موافقته: «بالتأكيد، ولكن انتبه إلى أن سَمْك الزُّجاج يتغيّر بحسب العين التي ستستعمله، وينبغي صُنع الكثير من هذه العدسات لتجربتها على المصاب، إلى أن يُتوصّل إلى السَّمْك الصحيح».

فأضاف نيكولا قائلاً: «يا لها من أُعْجُوبة، ومع ذلك قد يعتبرها البعض سِحْراً أو أعمالاً شيطانية...».

ـ «يمكنك أن تقول عنها إنها من أعمال السِّحْر، ولكن السِّحْر نوعان: هناك سِحْر هو من عمل الشيطان ويهدف إلى هلاك الإنسان مستعملاً حيلاً لا يجوز لنا الحديث عنها. وهناك سِحْر هو آية إلٰهية، عندما يتجلّى علم الإله من خلال علم الإنسان، ويغيّر الطبيعة، ومن بين أهدافه مدّ عمر الإنسان. وهذا سِحْر مقدس، ينبغي على العلماء أن يكرسوا أنفسهم له أكثر فأكثر، ليس فقط لاكتشاف أشياء جديدة ولكن لمعرفة الكثير من أسرار الطبيعة التي أظهرتها حكمة الإله إلى اليهود،

Twitter: @ketab_n

واليونانيين، والى شعوب أخرى قديمة وحتى في وقتنا هذا إلى الكفّار (ولا أذكر لك الأشياء الرائعة في علم البصريات وعلم النظر التي توجد في كتب الكفّار!). وينبغي على العلم المسيحي أن يستحوذ على هذه المعارف، وأن يستردها من الوثنيين ومن الكافرين بالكيفية نفسها التي امتلكوها بها جوراً».

ـ «ولكن هذا العلم لماذا لا يبلّغه أصحابه إلى أمة اللّه بأسرها؟»

ـ «لأنّ أمّة اللّه ليست متأهّبة لتقبّل كل تلك الأسرار، وقد حدث مراراً أن اعتُبر المتمكنون من هذه المعرفة سَحَرة يربطهم ميثاق بالشيطان، ودفعوا حياتهم ثمناً لرغبتهم في تشريك الآخرين في معارفهم. أنا نفسي، خلال القضايا التي اتُّهم فيها بعضهم بالتعامل مع الشيطان، أخذتُ حذري من استعمال هاتين العدستين ملتجئاً إلى كتّاب تطوعوا عن طيب خاطر لقراءة ما أحتاج إليه من نصوص، وإلا اعتُبرت أنا نفسي صديقاً للمحقِّقِ مَعهم، خاصة وأنها فترة كان فيها حضور الشيطان مكثّفاً، حتى إنه كانت تصلنا منه، إن جاز القول، رائحة الكبريت. وأخيراً، كما نبهنا إلى ذلك روجر بيكون العظيم، لا ينبغي أن تصل دائماً أسرار العلم إلى أيدي الجميع، إذ قد يستعملها البعض لأغراض سيئة. وينبغي في الغالب أن يقدّم العالِم كتباً على أنها سِحْرية وليست من السِّحْر في شيء، بل هي من أفضل كتب العلم لحمايتها من أنظار الفضوليين».

فسأله نيكولا: «أنت تخشى إذن أن يُسيء الجُهلاء استعمال تلك الأسرار؟»

ـ «في ما يخص الجُهلاء، أخشى فقط أن يُرَوِّعهم ذلك، ظانّين أنها من أعمال الشيطان، التي كثيراً ما حدّثهم عنها الواعظون. انظر، لقد حدث لي أن تعرَّفتُ على أطبّاء ماهرين جداً قطّروا أدوية بإمكانها أن تشفي في الحال من المرض، ولكنهم كانوا يسلّمون المرهم أو النقيع إلى البُسَطاء ويصحبونها بكلمات مقدسة ومرتلين جملاً تبدو كأنها صلوات. ليس لأن هذه الصلوات لها القدرة على الشفاء، وإنما ليظن البُسَطاء أن الشفاء يأتي بمفعول الصلاة فيشربون النقيع ويدهنون بالمرهم، وهكذا يشفون، دون أن يولوا اعتباراً كبيراً لقوته الحقيقية. وأيضاً لكي ترتاح النفس أكثر وتثق بمفعول الدواء لما تثيره تلك العبارات التقية من إيمان. ولكن تتحتم في الغالب حماية كنوز العلم لا من البُسَطاء بل من علماء

Twitter: @ketab_n

آخرين. تُصنع اليوم آلات مُدهشة، سأحدثك عنها يوماً، يمكن بواسطتها تغيير مجرى الطبيعة، ولكن، يا ويلنا لو وقعت بين أيدي أشخاص يستعملونها لبسط هيمنتهم على الأرض ولإشباع شهواتهم. لقد قيل لي إن حكيماً من الكتاي صنع خليطاً من مسحوق، لو مسّته النار لأحدث دوياً هائلاً ولهيباً كبيراً، محطماً ما حوله على بعد عدة أذرع. وهذا اختراع رائع، لو استُعمل لتغيير مجرى الوديان ولتحطيم الصّخر في الأراضي التي يُراد إعدادها للفلاحة، ولكن ماذا سيحدث لو استعملها أحدهم لإيقاع الضرر بأعدائه؟»

فقال نيكولا بوَرَع: «قد لا يكون شراً لو استُعملت ضد أعداء اللّه»، فأيده غوليالمو قائلاً: «قد لا يكون، ولكن من هو اليوم عدوّ أمّة اللّه؟ الإمبراطور لودوفيكو أو البابا جيوفاني؟»

فقال نيكولا بفزع كبير: «آه يا إلٰهي، لا أريد أن أحسم وحدي في مسألة مُؤلمة كهذه!»

فقال غوليالمو: «انظر، في بعض الأحيان من الخير أن تبقى بعض الأسرار مُغَطّاة تحت حجاب لغة غامضة. لا تنتقل أسرار الطبيعة فوق جلود الماعز أو الغنم، وقد قال أرسطو في كتاب **الأسرار** إن إفشاء الكثير من أسرار الطبيعة والفن فيه تحطيم لختم مقدس يمكن أن تنجرَّ عنه عدة مآسي. وهذا لا يعني أنه لا ينبغي أن تُكشف الأسرار، ولكن على العلماء أن يقرروا متى وكيف».

فقال نيكولا: «ولذا فمن الصالح في مكان كهذا أن لا تكون بعض الكتب في متناول الجميع».

ـ «هذه قصة أخرى. يمكن أن يكون الإفراط في الهذر إثماً وكذلك الإفراط في التكتّم. إنني لم أعنِ أنه ينبغي إخفاء مصادر العلم، على العكس، يبدو لي هذا خطأً كبيراً. كنت أعني، بخصوص أسرار قد ينشأ منها الخير كما قد ينشأ الشّر، أن العالم له الحق ومن واجبه أن يستعمل لغة غامضة، لا يفهمها إلا أمثاله. فإن سُبل العلم وَعِرَة ومن الشاق التمييز بين خيرها وشرّها. وفي الغالب لا يكون علماء الأزمنة الحديثة إلا أقزاماً فوق أكتاف أقزام».

Twitter: @ketab_n

ويظهر أن هذه المحادثة الودّية مع أستاذي مهدت الطريق لنيكولا كي يُفضي إليه بدخيلة نفسه، إذ أومأ إلى غوليالمو (بما معناه: أنا وأنت متفقان لأننا نتكلم على الأشياء نفسها) ولمّح قائلاً:

ـ «ولكن هنالك»، وأشار إلى الصّرح «تحمي أعمال السِّحْر أسرار العلم حماية جيّدة...»

فقال غوليالمو متظاهراً بعدم الاكتراث: «صحيح؟ أبواب موصودة، حظر صارم، تهديدات، أتصوّر».

ـ «كلا، بل أكثر من ذلك...»

ـ «ماذا مثلاً؟»

ـ «في الواقع... لا أدري بالضبط، إنني أهتم بالزُّجاج، لا بالكتب، ولكن في الدير تسري حكايات... غريبة...»

ـ «من أي نوع؟»

ـ «غريبة. مثلاً، حول راهب أراد أثناء الليل أن يجازف ويدخل إلى المكتبة، للبحث عن شيء لم يُرِدْ مَلاخي أن يعطيه إياه، فرأى ثعابين، وبشراً بدون رأس، وبشراً برأسين. كاد أن يخرج مجنوناً من المتاهة...»

ـ «لماذا تقول إنه سِحْر. ألاَ يُمكن أن تكون رؤى شيطانية؟»

ـ «لأنني حتى لو كنت مجرد زَجّاج فأنا لست ساذجاً لهذه الدرجة. فالشيطان (عافانا اللّه) لا يغوي راهباً عن طريق ثعابين وبشر برأسين، بل عن طريق رؤى شبقية، كما فعل مع آباء الصحراء. ثم، لو كان مِن فعل الشرّ أن يطّلع المرء على بعض الكتب، لماذا يجنّب الشيطانُ راهباً ارتكاب الشر؟»

فوافقه أستاذي قائلاً: «يبدو لي إنه قياس إضماري مقنع».

ـ «وأخيراً، عندما كنت أُصلح زُجاج نوافذ المستشفى، تسلّيت بتصفح البعض من كتب سيفيرينو. كان هناك كتاب أسرار كتبه على ما أظن ألبرتو مانيو، وجذبتني بعض المنمنمات الفريدة، وقرأت صفحات حول الطريقة التي يمكن بها

Twitter: @ketab_n

دهن فتيلة مصباح زيتي بمادة يحدث تبخيرها رؤى. لعلّك لاحظت، أو بالأحرى لم تلاحظ بعد لأنك لم تقضِ ليلة في الدير، إنه خلال الساعات المظلمة يكون الطابق الأعلى من الصرح مُضاء. ومن النوافذ، في بعض النقاط، يتراءى نور ضعيف. وقد تساءل الكثيرون عن طبيعته، وقيل إنها نيران جنّية، أو أرواح حافظي المكتبة الذين ماتوا، تعود لزيارة موطنها القديم ويؤمن الكثيرون هنا بذلك. أنا أظن أنها مصابيح أُعدت لتحدث الرؤى. أتعلم أنك لو أخذت شحمة أذن كلب ودهنت بها فتيلة، من يتنفس دخان ذلك المصباح يُخَيَّل إليه أن رأسه تحول إلى رأس كلب، وإن كان بجانبه أحد لرآه برأس كلب. وهناك دهن آخر يجعل الذين يطوفون حول المصباح يحسّون أنفسهم ضخاماً كالفيلة. ويعيني خفاش وسمكتين لا أذكر اسمهما، ومرارة ذئب، يمكنك صنع فتيلة تُظهر لك عند احتراقها، الحيوانات التي أُخذ منها الشحم. وبذنب وزغة تبدو لك كل الأشياء التي حولك وكأنها من فضة، وبشحم ثعبان أسود وقطعة من كفن تبدو القاعة مليئة بالحيّات. أنا أعرف ذلك. وأعرف أن في المكتبة شخصاً كثير الدهاء...».

ـ «ألا يمكن أن تكون أرواح حافظي المكتبة هي التي تقوم بهذه الأعمال السِّحْرية؟».

فبقي نيكولا حائراً وقلقاً: «هذه فكرة لم تخطر على بالي، قد يكون، ليحمنا اللّه. إنني تأخرت، لقد بدأت صلاة السّتار. إلى اللقاء».

ثم تركنا واتجه نحو الكنيسة بينما تابعنا تجوالنا مُحاذين الجانب الجنوبي: على اليمين كانت توجد دار الضيافة وقاعة المجلس، مع الحديقة، وعلى اليسار المُعاصر، والطواحين، ومخازن الحنطة، وأقبية المؤونة، ودار الرُّهبان المبتدئين وكان الجميع يسارعون نحو الكنيسة. فسألت غوليالمو:

ـ «ما رأيك فيما قاله نيكولا؟».

ـ «لا أدري، تحدث أشياء في المكتبة، ولا أظن أنها من فعل أرواح المكتبيين الموتى...».

ـ «لماذا؟».

Twitter: @ketab_n

ـ «لأني أَتَخَيَّل أنهم كانوا من التقوى بحيث تجدهم الآن في مملكة السماء يتأملون وجه ربهم، إن كان هذا الجواب يقنعك. أما المصابيح إن كانت موجودة فسنراها، وأما عن الدهون التي تَحَدَّث عنها صاحبنا الزَّجّاج فهناك وسائل أخرى أسهل لإحداث الرؤى، سيفيرينو يعرفها جيداً، كما لاحظت. من المؤكد أنه لا يُراد في هذا الدير أن يدخل أحد المكتبة أثناء الليل وأن الكثير حاول أو يحاول ذلك».

ـ «والجريمة التي تهمنا لها دخل في هذه الحكاية؟».

ـ «جريمة؟ كلما أمعنت التفكير فيها زاد اقتناعي بأن أدالمو انتحر».

ـ «ولماذا؟».

ـ «أتتذكر هذا الصباح عندما لاحظت موضع مصبّ التبن الوسخ؟ عندما كنا بصدد تسلق المُنعطف الذي يعلوه البرج الشرقي لاحظت في تلك النقطة آثاراً تركها انهيار الأرض: بالأحرى جزء من الأرض، تقريباً حيث يوجد التبن الوسخ، انهار متدحرجاً حتى أسفل البرج. ولذا عندما نظرنا هذا المساء من أعلى بدا لنا التبن الوسخ غير مُغَطّى إلا قليلاً بالثلج، أو بالأحرى مغطى بآخر ما سقط منه بالأمس، وليس بثلج الأيام السابقة. وأما عن جثة أدالمو، فقد قال لنا رئيس الدير إنها تمزقت فوق الصخور، وفي أسفل البرج الشرقي حيث تطلّ البناية على الهاوية، ينبت الصنوبر. أما الصخور فهي توجد حيث ينتهي السّور وتشكل نوعاً من السلم، وبعدها يبدأ التبن الوسخ».

ـ «وإذن؟».

ـ «إذن فكّر. ألا يكون أكثر... كيف يمكنني أن أقول؟... ألا يكون من الأيسر بالنسبة إلى فكرينا التفكير في أن أدالمو، لأسباب لا تزال تستوجب التحقيق، ألقى بنفسه تلقائياً من فوق الحاجز متدحرجاً فوق الصخور ثَمّ سقط ميتاً أو مجروحاً وسط الأوساخ. وبعد ذلك تسبّب انهيار جزء من الأرض، من جراء عاصفة تلك الليلة، في انزلاق التبن الوسخ وجثة المسكين إلى أسفل البرج الشرقي؟».

Twitter: @ketab_n

- «لماذا قلت إنه حلّ أيسر بالنسبة إلى فكريْنا؟».

- «ياعزيزي أدسو، لا لزوم للإكثار من الحلول والأسباب إن لم تكن هناك حاجة ملحّة إلى ذلك. لو سقط أدالمو من البرج الشرقي لوجب أن يدخل إلى المكتبة، وأن يكون قد ضربه أحد قبل ذلك حتى لا يحاول المقاومة، ثمّ أن يجد المعتدي وسيلة للصعود حاملاً المغمى عليه فوق كتفيه إلى مستوى النافذة، وأن يفتح النافذة ويرمي بالمسكين في الهاوية. أما بحسب افتراضي يكفينا وجود أدالمو وإرادته وانهيار ذلك الجزء من الأرض. يتضح كل شيء باستعمال عدد أقل من الأسباب».

- «ولكن لماذا قتل نفسه؟».

- «ولماذا قتلوه؟ في كلتا الحالتين ينبغي العثور على الأسباب. ومما لا شك فيه أن الأسباب موجودة. يخيّم في الصّرح جوّ من التكتّم والتمنّع، جميعهم يخفون شيئاً ما. إلى حد الآن تحصّلنا على بعض التلميحات، في الحقيقة غامضة جداً، حول علاقة غريبة كانت تربط أدالمو ببيرينغاريو وهذا يعني أننا سنراقب مساعد حافظ المكتبة».

وهكذا بينما كنا نتحدث انتهت صلاة السّتار، وعاد الخدم إلى أعمالهم قبل الانصراف للعشاء وأخذ الرُهبان طريقهم نحو قاعة الأكل. وكانت السماء قد اسودّت وأخذ الثلج في السقوط، ثلج خفيف يتساقط ندائف رقيقة، أظن أنه استمرّ ردحاً من الليل، لأنه في الصباح الموالي كانت الهضبة بأكملها مغشاة برداء ناصع، كما سيأتي ذكره من بعد.

كنت جائعاً فرحبت بفكرة الذهاب إلى المائدة.

Twitter: @ketab_n

اليوم الأول: صَلاة النّوم

وفيه ينعم أدسو وغوليالمو بحسن ضيافة رئيس الدير وبمحادثة يورج الحانقة

كانت تُضيء قاعة الأكل مشاعل كبيرة، وكان الرُّهبان جالسين حول صف من الموائد، تعلوها، متعامدة، مائدة رئيس الدير فوق مصطبة فسيحة. وفي الجهة المقابلة منبر اعتلاه الراهب الذي سيقوم بالقراءات أثناء العشاء. وكان رئيس الدير ينتظرنا قرب حنفية صغيرة وبيده كتّان أبيض لينشف أيدينا بعد الغسل، متبعاً في ذلك وصايا القديس باكوميو القديمة.

ثم دعا رئيس الدير غوليالمو إلى الجلوس إلى طاولته وأنا معه قائلاً إنني ضيف حديث العهد ويمكنني لهذا المساء التمتع بالامتياز نفسه، حتى ولو كنت بنيدكتيًا مبتدئاً. وأضاف بنبرة أبوية، إنه بإمكاني في الأيام اللاحقة الجلوس إلى مائدة الرُّهبان، وإذا ما كلفني سيدي بمهمة ما، فباستطاعتي أن أذهب إلى المطبخ إمّا قبل ساعة الأكل أو بعدها وسيعنى بي الطباخون.

وكان الرُّهبان الآن واقفين أمام الموائد دون حراك وطراطيرهم مُدَلاّة فوق وجوههم وأيديهم تحت أساكيمهم. وأسرع رئيس الدير إلى طاولته ثم تلا صلاة التبرّك قبل تناول الطعام، ومن المنبر أنشد المرتّل «ليُطعم الفقراء» ثم منح رئيس الدير بركته وجلس الجميع.

وكانت قاعدة مؤسس رهبانيتنا تنصّ على التزهُّد في الأكل ولكنّها تترك لرئيس الدير حرية القرار في ضبط حاجة الرُّهبان من الطعام.

إلا أنه في الوقت الراهن، ازداد الانهماك في لَذّات الأكل بأديرتنا. ولا

Twitter: @ketab_n

أتكلم على تلك التي تحولت للأسف إلى أوكار شرهين بل وحتى الأديرة التي تحيا حياة التكفير والطهارة تمدّ الرُهبان، المنصرفين دائماً إلى أعمال فكرية مُضنية بطعام غير خفيف بل دسم. ومن ناحية أخرى، تتمتع مائدة رئيس الدير دائماً ببعض الامتيازات، لأنها غالباً ما تستضيف ضيوفاً ذوي اعتبار والأديرة فخورة بما تنتجه أراضيها وإصْطبلاتها، وبمهارة طباخيها.

وتم عشاء الرُهبان في صمت، كما هي العادة، مستعملين في اتصالاتهم اللغة المعهودة عندنا، لغة الأصابع. وكانت الأطعمة المعدّة للجميع تمرّ أولاً بمائدة رئيس الدير، ثم يأتي دور المبتدئين والرُهبان الأحدث سناً.

وكان يجلس معنا إلى مائدة رئيس الدير مَلاخي، والقيّم والرُهبان الأكبر سناً، يورج دا بورجُوس، الشيخ الضرير الذي تعرفت عليه في قاعة الكتابة، والهرم أليناردو دا غروتافيرّاتا: يَنيف على المائة وهو أعرج وذو هيئة واهنة، وبدا لي غائب الذهن. وقد قال لنا رئيس الدير إنه يقيم في الدير منذ أن كان راهباً مبتدئاً، وعاش دائماً هنا ويذكر على الأقل ثمانين سنة من الأحداث التي عاشها الدير، قال ذلك في البداية همساً، لأنه فيما بعد تقيّد بتقاليد الرُهبانية واستمعنا إلى القراءات في صمت. ولكن، كما ذكرت، على مائدة رئيس الدير تُؤخذ بعض الحريات واتفق أن أثنينا على الأطعمة التي قُدمت لنا، بينما كان رئيس الدير يمدح خصال زيته أو خمره. بل حدث مرة بينما كان يسقينا أن ذكّرنا بتلك الفقرات من القاعدة التي يُلاحظ فيها المؤسس القديس أن الخمرة لا تليق بدون شك بالرُّهبان، ولكن بما أنه لا يمكن إقناع رُهبان وقتنا الحاضر بالعدول عنها فليشربوا على الأقل دون الارتواء، لأن الخمرة تقود إلى المروق حتى الحكماء منهم كما يذكرنا بذلك سِفر الجامعة. وكان بنيدكت يقول «في وقتنا الحاضر» ويعني وقته هو، الذي بَعُدَ الآن كثيراً. فما بالك في الوقت الذي كنّا نتناول فيه العشاء في الدير، بعد كل الانحطاط الذي وصلت إليه العادات (ولا أتحدث عن وقتي الآن، الذي أكتب فيه، إلا أن هنا في «مالك» يغضّ الطرف أكثر عن الجعة!): بإيجاز شربنا ولم نسرف والتذذنا.

أكلنا لحماً مشوياً في السفافيد، لحم خنازير ذُبحت لوقتها، ولاحظت بالنسبة

Twitter: @ketab_n

إلى أطعمة أخرى أنهم لا يستعملون شحوماً حيوانية ولا زيت السلجم، ولكن زيت الزيتون الجيّد، يُجلب من أراضٍ يملكها الدير في سفح الجبل ناحية البحر. وأذاقنا رئيس الدير (وكان خاصاً بمائدته) ذلك الفرخ الذي رأيتهم يُعدُّونه في المطبخ. ولاحظت، وهذا شيء نادر جداً، أنه يستعمل شوكة من المعدن، تذكّر في شكلها بعدستي أستاذي: كان مضيفنا، وهو نبيل النشأة، يأبى أن يلوّث يديه بالطعام بل وعرض علينا تلك الأداة على الأقل لتناول قطع اللحم من الطبق الكبير ووضِعها في صحافنا، فرفضتُ، ولكنني رأيت أن غوليالمو قَبِل بطيبة خاطر واستعمل برشاقة تلك الأداة المألوفة لدى الأسياد وكأنه يريد أن يظهر لرئيس الدير أن الفرانشسكانيّين ليسوا من أصل وضيع ولا عديمي التربية.

وألهتني طيبة تلك الأطعمة (بعد أيام من السفر تغذينا خلالها حسبما استطعنا)، عن القراءات التي تواصلت تلاوتها بخشوع، وردّتني إليها همهمة تأييد قوية من طرف يورج، وتفطّنت إلى أن القارىء وصل إلى النقطة التي يقرأ فيها دائماً باباً من القاعدة وفهمت السبب الذي جعل يورج يبدي مثل ذلك الارتياح، بعد أن كنت استمعتُ إليه في العشية، وفعلاً كان القارىء يقول: «لقد قررت، سأحترس في طريقي أن لا أزِلَّ بلساني، لقد وضعت على فمي كِمامة، لقد خرست مُحَقَراً نفسي، لقد امتنعت عن الكلام حتى عن أشياء طاهرة. وإذا ما علّمنا النبي في هذه الفقرة أن نُحْجِم في بعض الأحيان، حباً للصمت، حتى عن الأحاديث الجائزة، فينبغي أكثر أن نُحْجِم عن الأحاديث المحظورة حتى نتلافى عقاب هذه الخطيئة!» ثم واصل: «أما الابتذالات، والحماقات والسخافات فإننا نحكم عليها بالإقصاء إلى الأبد، في كل مكان، ولا نسمح للمُريد أن يفتح فمه للتفوه بأحاديث من ذلك القبيل».

ولم يتمالك يورج عن الملاحظة بصوت خافت «وهذا القول يصحّ بالنسبة إلى الحواشي التي تحدّثنا عنها اليوم. لقد قال جيوفاني بوكّادورو إن المسيح لم يضحك قط».

فردّ غوليالمو مُلاحظاً «لا شيء في طبيعته الإنسانية يمنعه من ذلك لأن الضحك، كما يقول علماء اللاهوت، هو من طبيعة الإنسان». فقال يورج بنبرة

Twitter: @ketab_n

حاسمة ذاكراً قول بييترو كانتوري: «ربما كان بوسعه أن يفعل ذلك ولكن لم يثبت أحد أنه فعله».

فهمس غوليالمو: «كُلْ، فالشواء جاهز» فسأل يورج: «ماذا؟» وقد ظن أنه يعني بعض الأكل الذي مدّ إليه.

- «هي الكلمات التي بحسب أمبروجيو، نطق بها القديس لورانسو وهو على المشواة، عندما دعا سفّاحيه ليقلبوه على الجنب الآخر كما يذكر أيضاً برودانسيو في كتابه **بريستيفانون (Peristephanon)**»، وقال غوليالمو ذلك بنبرة قداسة، ثم أضاف «إذن فقد كان القديس لورانسو يعرف كيف يضحك ويقول أشياء سخيفة، وإن أراد بها إهانة أعدائه».

- «وهذا ما يظهر أن الضحك أقرب ما يكون إلى الموت وإلى فساد الجسم». ولا يسعني إلا أن أعترف أنه تصرَّف تصرُّف المفكّر القدير.

عند ذلك الحد دعانا رئيس الدير بلطف إلى ملازمة الصمت. وعلى كل كان العشاء قد أوشك على نهايته، فنهض رئيس الدير وقدّم غوليالمو إلى الرُّهبان، وأثنى على حِكْمته ذاكراً ما يمتاز به من صيت، وأعلن أنه دُعي إلى التحقيق حول موت أدالمو طالباً من الرُّهبان الإجابة عن أسئلته وإلى إعلام من هم تحت تصرّفهم، في الدير كله، حتى يعملوا بالوصايا نفسها، وإلى تسهيل أبحاثه، وأضاف قوله: شريطة أن لا تتنافى مطالبه وقواعد الدير، وفي ذلك الحال ينبغي السعي إلى ترخيص منه.

عند نهاية العشاء تَأَهَّبَ الرُّهبان للذهاب إلى الخورس للقيام بصلاة النوم فأسدلوا من جديد طراطيرهم على وجوههم واصطفّوا أمام الباب في انتظار، ثم تحركوا في صف طويل، مجتازين المقبرة وداخلين إلى الخورس من الباب الشمالي.

وأخذنا طريقنا صِحْبَة رئيس الدير، فسأل غوليالمو: «في هذه الساعة تُغلق أبواب الصّرح؟»

- «ما إن ينتهي الخدم من تنظيف قاعة الأكل والمطابخ حتى يغلق حافظ المكتبة بنفسه كل الأبواب، ممترساً إياها من الداخل».

Twitter: @ketab_n

ـ «مِن الداخل؟ ومن أين يخرج؟»

فحدّق رئيس الدير لحظة في غوليالمو وقد بانت الجِّدِّية على وجهه، وقال بحدّة: «من الأكيد أنه لا ينام في المطبخ»، ثم حثّ خُطاه.

فهمس غوليالمو: «حسن، حسن، إذن يوجد مدخل آخر، ولكن لا يجب علينا معرفته». وتبسمت وكُلّي اعتزاز باستنتاجه فأنّبني قائلاً: «يكفي ضحكاً، قد رأيت أن الضحك لا يتمتع بين هذه الجدران بِسُمعة طيبة».

ودخلنا الخورس. كان هناك مصباح واحد موقد فوق منصب ثلاثي القوائم من البرونز يبلغ ارتفاعه طول رجلين. وجلس الرُّهبان فوق مقاعدهم في صمت بينما أخذ القارىء يتلو فقرة من خطبة وعظية للقديس غريغوريو.

ثم أشار رئيس الدير إلى المنشد فرتّل: «وأنت اللّهم ارحمنا» ورد عليه رئيس الدير: «وسأمنحكم عوني باسم الإلٰه» ثم أنشد الجميع بصوت واحد «الذي خلق السماوات والأرض» وعندئذٍ بدأ إنشاد المزامير: «عندما أدعوك استجب لدعائي، يا إلٰه العدل، أحمدك اللّهم من كل قلبي، هلمّ نحمد اللّه، يا عباد اللّه». أما نحن فلم نجلس على المقاعد، وتراجعنا لنقف في جناح الكنيسة الرئيسي. وأتيح لنا من هناك أن نرى فجأة مَلاخي يخرج من عتمة مصلّى جانبي. فقال لي غوليالمو:

ـ «راقب تلك النقطة، فقد يكون هناك ممرّ يؤدي إلى الصّرح».

ـ «تحت المقبرة؟»

ـ «ولم لا؟ بالعكس لو فكرنا جيداً، لا بد أن يكون في مكان ما موضع لحفظ عظام الموتى، فمن المستحيل أن يحمل ذلك الشبر من الأرض كل الرُّهبان الذين دفنوا على مرّ القرون»

ـ «وتريد حقيقة أن تدخل أثناء الليل إلى المكتبة؟»

ـ «حيث يوجد الرُّهبان الموتى والثعابين والأضواء الغامضة يا عزيزي أدسو؟ لا يا ولدي. لقد فكرت في ذلك طوال هذا اليوم وليس بدافع الفضول بل لأنني

Twitter: @ketab_n

كنت أتساءل عن الكيفية التي لقي بها أدالمو حتفه. أمّا الآن، كما قلت لك فإنني أميل إلى تفسير أكثر منطقية، وعلى كل حال أريد احترام عادات هذا المكان».

ـ «إذن لماذا تريد أن تعرف؟»

ـ «لأن العلم ليس فقط معرفة ما ينبغي أو ما يمكن للإنسان عمله، بل وأيضاً معرفة ما هو في مقدور الإنسان ولو أنه مع ذلك لا يجب عليه عمله. لذا كنت أقول اليوم لصانع الزُّجاج إنه يجب على العالم أن يخفي بطريقة ما الأسرار التي يكتشفها، كي لا يستعملها الآخرون لأغراض سيئة، ولكن يجب عليه اكتشافها، وهذه المكتبة بحسب ظني مكان تبقى فيه الأسرار مكتومة».

وبهذه الكلمات اتجهنا خارج الكنيسة لأن الفرض كان قد انتهى. وكنا متعبين جداً فذهبنا إلى حجرتنا وانطويت أنا على نفسي في ما سمّاه غوليالمو بمزاح «مدفنتي» وغرقت لفوري في النوم.

Twitter: @ketab_n

اليوم الثّاني

اليوم الثاني: صَلاة أول الصّبح

وفيه تحدث حادثة دموية مريعة فتقطع بعض الساعات من الغبطة الصوفية

ليس هناك حيوان أخوَن من الديك، إذ هو أحياناً رمز للشيطان وأحياناً رمز للمسيح الذي بُعث حياً، وما أكثر ما عرف نظامنا من خاملين أمثاله ممن لا يصيح عند بزوغ الشمس. ومن ناحية أخرى خاصة في الأيام الشتائية، تُقام صلاة أوّل الصبح في غسق الليل عندما تكون الطبيعة كلها نائمة، إذ ينبغي على الراهب أن ينهض في الظلمة وأن يصلي طويلاً في الظلمة منتظراً النهار ومنيراً العتمة بنار العبادة. لذا من حكمة التقاليد أنها تُبقي بعض الرُهبان ساهرين فلا يذهبون إلى الفراش مع إخوانهم بل يمضون الليل وهم يقرأون بإيقاع ذلك العدد المضبوط من المزامير الذي يعطيهم قياس الوقت المنقضي، بحيث ينبّهون النائمين إذا حانت ساعة اليقظة عند انتهاء الساعات المقررة للنوم.

لذا أيقظنا تلك الليلة أولئك الذين يجوبون قاعة النوم ودار الضيافة وهم يدقون الأجراس، بينما يتنقل أحد الرُهبان من حجرة إلى أخرى صائحاً بقوله «لنحمد اللّه» ويردّ عليه كل واحد قائلاً «الحمد للّه».

وتقيّدت أنا وغوليالمو بالعادة المُتّبعة عند البنيدكتيّين فتهيأنا في أقل من نصف ساعة لمواجهة هذا اليوم الجديد ثم نزلنا إلى الخورس حيث كان الرُهبان ينتظرون منبطحين على الأرض وهم ينشدون الخمسة عشر مزموراً الأولى إلى أن دخل المبتدئون يقودهم معلّمهم. عندئذٍ جلس كل واحد في مقعده، وأنشدت المجموعة «اللّهم افتح شفتيّ وسيسبّح فمي بحمدك» وارتفع الصوت إلى قباب

Twitter: @ketab_n

الكنيسة كأنها تضرّعات صبي، ثم اعتلى راهبان المنبر وتعالى صوتاهما منشدين المزمور الرابع والتسعين «هلّم نسبّح للربّ» الذي تبعته المزامير الأخرى المحددة لذلك الفرض. وأحسست أنا بحرارة الإيمان المتجدّد.

كان الرُّهبان جالسين على المقاعد وقد جعلت منهم جبابهم وطراطيرهم ستين صورة متماثلة، ستين شبحاً ألقت عليها نار المشعل نوراً ضعيفاً، ستين صوتاً ارتفعت بحمده تعالى. وعند سماعي ذلك النغم المؤثر، ذلك الرواق المؤدي إلى نعيم الجنة، تساءلت إن كان الدير حقيقة مكاناً لأسرار خفيّة، ولمحاولات غير مباحة لكشفها، ولتهديدات غامضة. لأن الدير كان يبدو لي الآن على عكس ذلك، مأوى للقدّيسين ومحلاً للفضيلة، مدّخر علم وفُلك سداد، برجاً للحكمة وسياجاً للوداعة، قلعة لقوة الإرادة ومبخرة للقداسة.

بعد إنشاد ستة مزامير بدأت قراءة الكتاب المقدس. وكان بعض الرُّهبان يتمايلون من النعاس بينما أحد ساهري تلك الليلة يطوف بين المقاعد وبين يده قنديل صغير ليوقظ من أخذه النوم. وإذا ما عثر على أحدهم وقد غلبه النعاس، يأخذ هو القنديل ويكمل دورة المراقبة تكفيراً عن ذنبه. إثر القراءة أُنشدت من جديد المزامير الستة ثم بارك رئيس الدير جميع الحاضرين وتلا الراهب المكلف بالفرائض في ذلك الأسبوع الصلوات وانحنى الجميع نحو المذبح في دقيقة خشوع، لا يدري عذوبتها إلا من عاش تلك الساعات من الوله الروحي ومن السلام الداخلي العميق. وأخيراً أُسدلت الطراطير من جديد على الوجوه ثم جلس الجميع وأنشدوا بهيبة «أنت يا ربّ». وحمدت أنا أيضاً الإله لأنه خلّصني من ظنوني، وقد حرّرني من الإحساس بالضيق الذي اعتراني في يومي الأول بالدير، وقلت في نفسي إننا مخلوقات ضعيفة، فحتى بين هؤلاء الرُّهبان العلماء والأتقياء ينشر الشيطان مشاعر الحسد الحقير والعداء الخفي. ولكنها ليست إلا دخاناً لا تلبث ريح الإيمان العاتية أن تُبَدّده، حالما يجتمعون باسم الربّ وحالما ينزل بينهم المسيح من جديد.

بين صلاة أوّل الصبح وصلاة الحمد لا يعود الراهب إلى حجرته، حتى في قلب الّليل. فأما المبتدئون فقد تبعوا معلّمهم إلى قاعة المجلس لمذاكرة المزامير،

Twitter: @ketab_n

بينما بقي بعض الرُّهبان في الكنيسة يعتنون بالأشياء المقدسة وخرج جلّهم يتمشى في رواق الدير للتأمل في صمت، وهذا ما فعلناه أنا وغوليالمو. أما الخدم فكانوا نائمين، وواصلوا نومهم إلى أن رجعنا إلى الخورس لأداء صلاة الحمد، والسماء لا تزال حالكة.

وبدأ من جديد إنشاد المزامير، وبالخصوص واحد من تلك المخصصة ليوم الإثنين، أعادني ثانية إلى تَخَوُّفاتي الأولى: «قد سيطرت الخطيئة على الباغي، وامتلكت دخيلة قلبه، فلا ترى في عينيه خشية اللّه ـ فهو يعمل أمامه بخداع ـ بحيث يصبح لسانه مقيتاً ـ» فقد بدا لي طالع نحس أن حددت القاعدة بالنسبة إلى ذلك اليوم بالذات إنذاراً رهيباً بتلك الصفة. ولم تهدّىء من نبضاتي المليئة بالخوف، بعد مزامير الحمد، القراءة المعتادة لسفر الرؤيا، وعادت إلى ذهني صور البوّابة التي شدّت قلبي ونظري في اليوم السابق. ولكن بعد ترنيمة الاستجابة والترتيل والآيات، وعندما بدأ نشيد الإنجيل، لمحت وراء نوافذ الخورس، فوق المذبح بالضبط، نوراً شاحباً أضاء زُجاج النوافذ بمُختلف ألوانه، بعد أن كان الظلام مخيّماً عليه إلى ذلك الحين. لم ينبلج الفجر بعد، إذ سيفرض نوره كاملاً عند «أولى»، تماماً عند إنشادنا «يا إلٰهي، أنت نور القدّيسين السّاطع، هو ذا نورك يضيء النّهار» بل كان تبشيراً أول وضعيفاً بالفجر الشتائي. ولكن ذلك النُّور الشاحب الذي أخذ يعوض العتمة وسط الرواق كان كافياً لإدخال الانشراح على قلبي.

كنا ننشد كلمات الكتاب المقدس، وبينما كنا نشهد بكلمة اللّه التي جاءت لتنير العباد، بدا لي أن كوكب النهار اجتاح المعبد بكل شعاعه. والنُّور الذي ما زال غائباً، بدا لي ساطعاً في كلمات النشيد، كزنبق روحي تفتّح بأريجه بين قُرَن القباب. وصلّيت في صمت «أشكرك اللّهم لهذه اللحظات من التنعّم الذي لا يمكن وصفه» ثم قلت لقلبي «وأنت أيها الغبي مِمَّ تخاف؟»

وفجأة تعالى صخبٌ من جهة الباب الشمالي. تساءلتُ كيف يمكن أن يحدث الخدم في استعدادهم للعمل تلك الضجة أثناء أداء الفروض المقدسة. وفي تلك اللحظة دخل ثلاثة رُعاة خنازير وقد بان الفزع على وجوههم ثم اقتربوا من رئيس الدير وهمسوا إليه بشيء. في البداية هدّأ من روعهم بإشارة، كمن لا يريد

Twitter: @ketab_n

قطع الفرض ولكن خدماً آخرين دخلوا وتعالت الصيحات بقوة أكثر، بينما قال أحدهم «إنه رجل، رجل ميّت!» وقال آخرون «إنه راهب، ألم ترَ نعليه؟»

وسكت المصلّون بينما هرع رئيس الدير إلى الخارج مشيراً إلى القيّم أن يتبعه. وخرج إثرهما غوليالمو، وحتى الرُّهبان الآخرون تركوا الآن مقاعدهم وأسرعوا إلى الخارج.

كانت السماء صافية وكان الثلج الذي يغطي الأرض ينير السّهل. خلف الخورس وأمام الزرائب، حيث انتصب منذ اليوم السابق الإناء الضخم المملوء بدم الخنازير، كان يبرز من حافة الجرّة شيء غريب له شكل يشبه الصليب، كأنهما عودان غُرسا في الأرض ليصبحا بعد تغطيتهما بالخرق فزّاعة للطيور.

كانتا على عكس ذلك ساقي إنسان، ساقي رجل غارق في الوعاء المليء بالدم ورأسه إلى أسفل.

وأمر رئيس الدير أن تخرج الجثة من ذلك السائل الكريه (إذ إنه للأسف لا يمكن لأي شخص على قيد الحياة أن يبقى في تلك الوضعية الشنيعة) فاقترب رُعاة الخنازير مترددين إلى حافة الجرة وجذبوا ذلك الشيء البائس المضرّج بالدم وقد تلوّثت منه أيديهم. وكما كان قد قيل لي حول الدم لمّا يمزج حال صبّه كما ينبغي ويترك في البرد، لم يتخثر إلا من طبقة كانت تغطي الجثة وأصبحت على وشك التجمد، وتشربت منه الثياب وأصبح من المستحيل التعرف على الوجه. فتقدم أحد الخدم بسطل من الماء وصبه على وجه تلك الجثة المسكينة بينما انحنى آخر لينظف الملامح بخرقة من القماش، وظهر لأنظارنا وجه أبيض وإذا به فينانتسيو دا سالفيماك العالم في الإغريقيات الذي تحادثنا معه في العشية السابقة أمام مخطوط أدالمو.

قال غوليالمو مُحَدِقاً في ذلك الوجه: «قد يكون أدالمو انتحر، أما هذا فبالتأكيد لا. كما لا أظن أن يكون قد رُفع صدفة حتى حافة الجرّة وأن يكون سقط دون قصد».

Twitter: @ketab_n

فاقترب منه رئيس الدير قائلاً: «أخ غوليالمو، كما ترى تقع في الدير أشياء تتطلب حكمتك. ولكنني أرجوك عجّل بالعمل!»

فسأله غوليالمو مشيراً إلى الجثة: «هل كان حاضراً في الخورس أثناء الفرض؟»

فأجاب رئيس الدير: «كلاّ، لقد لاحظت أن مقعده كان خالياً».

ـ «هل كان أحد غيره غائباً؟»

ـ «لا يبدو لي، لم ألاحظ شيئاً».

وتردد غوليالمو قبل أن يلقي بالسؤال ثم طرحه هامساً، متخذاً حذره حتى لا يسمعه الآخرون: «هل كان برينغاريو في مكانه؟» فنظر إليه رئيس الدير بإعجاب يتخلّله الارتباك، كمن يعبر عن دهشته لرؤية أستاذي يكنّ شكّاً مرّ لحظة بخاطره هو، ولكن لأسباب أوضح، ثم قال بسرعة: «كان موجوداً في الصف الاول على يميني تقريباً».

فقال غوليالمو «بطبيعة الحال، كل هذا لا يعني شيئاً. لا أظن أن أحداً مَرَّ من وراء صدر الكنيسة للدخول إلى الخورس، لذا يمكن أن تكون الجثة هنا منذ عدّة ساعات، على الأقل منذ أن ذهب الجميع للنوم».

ـ «أكيد فإن أول من يستيقظ من الخدم لا ينهض إلا مع الفجر، ولذا لم يكتشفوه إلاّ الآن».

ثم انحنى غوليالمو على الجثة كما لو كان معتاداً على معاملة الأجساد الميّتة. وبلّل قطعة من القماش التي كانت حذوه في ماء السطل وغسل جيداً وجه فينانتسيو. في الأثناء تَجمّع الرُّهبان الآخرون مرتاعين، في دائرة صاخبة ولم يلبث رئيس الدير أن أمرهم بالسكوت. وشق سيفيرينو طريقه بينهم وهو الذي كانت تُعهد إليه أجساد الموتى في الدير. وانحنى بقرب أستاذي. وكي أستمع إلى حوارهما، وأُعِيْنَ غوليالمو الذي كان يريد قطعة قماش أخرى نظيفة ومبللة بالماء، انضممت إليهما، متغلباً على فزعي واشمئزازي، وسمعت غوليالمو يسأل سيفيرينو:

Twitter: @ketab_n

ـ «هل رأيت غريقاً قبل الآن؟»

فأجابه «العديد من المرّات، وإذا ما تكهنت بما تريد أن تصل إليه، ليس لهم هذا الوجه، فملامحهم تكون منتفخة».

ـ «إذن كان الرجل ميتاً عندما أُلقي به في الجرّة».

ـ «وما مراد القاتل من فعل ذلك؟»

ـ «وما مراده من قتله؟ إننا نجد أنفسنا أمام عمل عقل زائغ. ولكن ينبغي الآن أن نرى إن كانت على الجسم آثار جروح أو رضوض. أرى أن نحمله إلى الحمّام وأن نخلع ثيابه فنغسله ثم نفحصه. سألحق بك بعد قليل».

وبعد أن استأذن سيفيرينو رئيس الدير أمر رُعاة الخنازير بحمل الجثة، بينما طلب أستاذي أن يعود كل الرُّهبان إلى الخورس سالكين الطريق نفسه الذي جاؤوا منه وأن يعود الخدم إلى أماكنهم بالطريقة نفسها بحيث يبقى المكان خالياً. ولم يسأله رئيس الدير عن أسباب طلبه وأرضاه. وبقينا وحدنا، بجانب الجرّة التي فاض منها الدم عند إخراج الجثة وأصبح الثلج من حولها كلّه أحمر بينما ذاب في أماكن عديدة من جرّاء الماء الذي صُبّ على الجثة وبقيت بقعة كبيرة سوداء حيث مُدّ الجسد. ثم أشار غوليالمو إلى الأشكال المتشابكة التي خلّفتها آثار أقدام الرُّهبان والخدم قائلاً:

ـ «يا لها من بلبلة! الثلج، يا عزيزي أدسو، رَقّ رائع يترك عليه جسم الإنسان كتابات على غاية من الوضوح. ولكن هذا رقّ قديم لم يُقشط كما ينبغي، ولا أظن أننا سنجد فيه شيئاً ذا فائدة. من هنا إلى الكنيسة تراكض الرُّهبان، ومن هنا إلى موضع السّماد ذهبت جموع الخدم. والفضاء الوحيد الذي لم يُمسّ هو الموجود بين موضع السّماد والصّرح. فلنرَ هل نجد هناك شيئاً ذا أهمية». فسألته: «ولكن ماذا تريد أن تجد؟».

ـ «إن لم يكن قد ألقى بنفسه في الوعاء، فهذا يعني أن أحدهم حمله إلى هناك، ميتاً بحسب تصوري. ومن يحمل جسم رجل آخر يترك آثاراً أكثر عمقاً في

Twitter: @ketab_n

الثلج. ولذا ابحث لعلك تجد قريباً من هنا آثاراً تبدو لك مُختلفة عن تلك التي تركها أولئك الرُّهبان الصاخبون الذين أتلفوا رقّنا».

وهكذا فعلنا. وأقول فوراً إنني كنت أنا، ليحفظني اللّه من الغرور، الذي اكتشف شيئاً بين الجرّة والصّرح. كانت آثار أقدام آدمية عميقة شيئاً ما، في مكان لم يكن قد مرّ به أحد آخر إلى ذلك الحين وكما لاحظ أستاذي في الحال، كانت أقل بروزاً من تلك التي تركها الرُّهبان والخدم. دليل على أن ثلجاً آخر قد سقط فوقها وأن تلك الآثار قد تُركت إذن في وقت أبعد. ولكن الشيء الذي بدا لنا جديراً بالاهتمام هو أن تلك الآثار كانت مُمتزجة بأثر متواصل، كما لو كان الشخص الذي ترك آثار الأقدام يجر شيئاً. باختصار، كان خطّاً يذهب من الجرّة إلى باب قاعة الأكل، على جانب الصّرح الذي يوجد بين البرج الجنوبي والبرج الشرقي.

فقال غوليالمو: «قاعة الكتابة، المكتبة. من جديد المكتبة. لقد لقي فينانتسيو حتفه في الصّرح، وأغلب الظن في المكتبة».

ـ «ولماذا في المكتبة بالذّات؟»

ـ «إنني أحاول أن أضع نفسي موضع القاتل. لو مات فينانتسيو مقتولاً في قاعة الأكل، في المطبخ أو في قاعة الكتابة، لماذا لم يترك هناك؟ ولكن لو مات في المكتبة لكان ينبغي نقله إلى مكان آخر، من جهة لأنه في المكتبة لا يمكن لأحد أن يكتشفه أبداً (وقد يهمّ القاتل فعلاً أن يُكتشف) ومن جهة أخرى لأن القاتل قد لا يودّ أن يتركّز الاهتمام على المكتبة».

ـ «ولماذا يهتم المجرم بأن تكتشف جثة القتيل؟»

ـ «لا أدري، إنني أقوم بافتراضات. من يقول لك إن المجرم قتل فينانتسيو لأنه يحقد عليه؟ قد يكون قتله، عوضاً عن أي شخص آخر، ليترك علامة، ليعبّر عن قصد آخر».

فقلت هامساً: «كائنات الدنيا جميعها مثل كتاب مفتوح أو حرف مكتوب، ولكن بخصوص أية علامة؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «هذا ما لا أعرفه. ولكن لا ننسَ أن هناك أيضاً علامات تبدو كأنها تعني شيئاً ولكنها في الحقيقة عديمة المعنى، كما لو قلنا: «بليتيري» أو «بو ـ با ـ باف». . .

فقلت: «من الفظاعة أن يقتل إنسان إنساناً آخر لمجرد قول بو ـ با ـ باف!» فعقب غوليالمو: «ومن الفظاعة أيضاً أن يقتله لقول «أؤمن بربّ واحد. .»».

في تلك اللحظة التحق بنا سيفيرينو وكانت الجثة قد غسلت وفحصت بعناية. لم يكن هناك أي جرح ولا رضوض على الرأس. كأنه مات بفعل السِّحْر.

فسأل غوليالمو: «كما لو كان عقاباً إلٰهياً؟»

فقال سيفيرينو: «قد يكون».

ـ «أو بالسّم؟»

فتردّد سيفيرينو ثم قال: «قد يكون، أيضاً».

فسأله غوليالمو ونحن في طريقنا إلى المستشفى: «هل لديك سموم في المخبر؟»

ـ «نعم. ولكن يتوقف الأمر على ما تعني بالسّم. بعض الموادّ تكون نافعة إذا أخذت بمقادير ضئيلة وتؤدي، بمقادير وافرة، إلى الموت. ومثل كلّ عشّاب معتبر أحتفظ ببعضها وأستعمله بحسب مقتضى الحال. فأنا أزرع في مبقلتي مثلاً الناردين. قطرات قليلة منه في نقيع حشائش أخرى تهدئ القلب الذي يدق باضطراب، وجرعة مبالغ فيها تحدث فتوراً ثم الموت».

ـ «ألم تلاحظ على الجسم علامات سُمّ معين؟»

ـ «البتة. ولكن هناك سُمُوماً كثيرة لا تترك علامات».

كنا قد وصلنا إلى المستشفى. وكان جسد فينانتسيو، بعد غسله في الحمام، قد نُقِل إلى هناك ومدّ على طاولة كبيرة في مخبر سيفيرينو: وذكّرتني الأنابيب والأدوات الأخرى من الزُّجاج والطين بحوانيت الكيمائيين (ولكنني كنت سمعتُ عنها فقط من خلال روايات غير مباشرة). وعلى رف مرشوق على امتداد الحائط الذي يفصل المخبر عن الخارج كانت توجد مجموعة كبيرة من القناني والأباريق، والأوعية ممتلئة بمواد ذات ألوان مُختلفة.

Twitter: @ketab_n

فقال غوليالمو: «إنها مجموعة جميلة من العقاقير، هل هي كلها من إنتاج حديقتك؟»

فقال سيفيرينو: «كلاّ، الكثير من هذه المواد النادرة والتي لا تنبت في هذه الجهات، حملها إليّ على مرّ السنين رُهبان أتوا من كل أنحاء الدنيا. لديّ أيضاً أشياء نفيسة ونادرة الوجود نحصل عليها بسهولة من نبات جهاتنا. انظر... هذا مسحوق العقيق، مجلوب من الكتاي، أعطانيه عالم عربي. وهذه ألوة سوكوترين، من الهند، وهي ملئم ممتاز للجروح. وهذا نبات محيي، يحيي الموتى، أو بالأحرى، يوقظ من غاب عن الوعي. وهذا زرنيخ خطير جداً، سمّ فتّاك لمن يبتلعه. وهذا حمحم، نبات نافع للرئة المريضة. وهذا قطران، نافع لرضّات الجمجمة. وهذه مصطكاء، تهدئ من النزلة الصدرية ومن الالتهاب المقلق والمُرّ....

فسألته: «مُرّ المجوس؟»

ـ «نعم مرّ المجوس، ولكنها تصلح للوقاية من الإجهاض وهي تقطف من شجرة تسمى بلساموداندرون ميرّا. وهذه تسمى «موميا» نادرة جداً، تحصل من تعفّن الأجساد المحنّطة، وتصلح لتحضير الكثير من الأدوية المعجزة. وهذه ماندراغولا، وهي نافعة للنوم...:

فعلّق أستاذي: «ولإثارة الشهوة الجنسية».

فابتسم سيفيرينو وقال: «يقولون ذلك، ولكنها هنا لا تستعمل لذلك الغرض كما يمكن أن تتصور. وانظر إلى هذه ـ ثم أخذ قنينة ـ إنها توتيا، وهي معجزة لمداواة العينين».

وسأل غوليالمو: «وما هذه؟» ثم لمس حجرة كانت موضوعة فوق رفّ.

ـ «هذه أُهديت إليّ منذ مدة. أظن أنها تسمى lopris amatiti أو lapis ematitis. يظهر أن لها فضائل طبية مُختلفة، ولكنني لم أكتشف إلى الآن ما هي. هل تعرفها؟»

Twitter: @ketab_n

فقال غوليالمو: «نعم، ولكن ليس بوصفها دواء». ثم أخرج من جيبه موسى صغيرة وقرّبها بأناة من الحجارة. وعندما أوصل غوليالمو بحركة رقيقة جداً الموسى قرب الحجارة رأيت السكين يقوم بحركة قوية، كما لو حرّك غوليالمو معصمه، بينما كان المعصم ثابتاً، والتصقت الموسى بالحجارة محدثة حسّاً معدنياً خفيفاً. ثم قال لي غوليالمو: «أرأيت؟ إنه مغناطيس».

فسألته: «ولأيّ شيء يصلح؟»

ـ «لعدّة أشياء سأحدثك عنها فيما بعد. ولكنني أريد الآن أن أعرف من سيفيرينو إن كان يوجد هنا شيئ يمكن أن يقتل إنساناً».

ففكّر سيفيرينو لحظة، بدت لي طويلة، نظراً لشفافية جوابه: «أشياء كثيرة. لقد قلت لك إن الفارق بين الدواء والسمّ ضئيل جداً، فقد كان اليونانيون يطلقون على كليهما اسم فارماكون».

ـ «ولم يُسرق شيء من بعض هذه المواد في المدة الأخيرة؟»

ففكر سيفيرينو من جديد ثم أجاب كمن يزن كلماته: «لا شيء في المدة الأخيرة».

ـ «وفي الماضي؟»

ـ «من يدري. لا أذكر. إني في هذا الدير منذ ثلاثين سنة وأعمل بالمستشفى منذ خمس وعشرين».

فأيده غوليالمو قائلاً: «كثير بالنسبة إلى ذاكرة إنسان». ثم أضاف فجأة: «لقد تحدثنا بالأمس عن الأعشاب التي يمكن أن تحدث رؤى. ما هي؟»

فأعرب سيفيرينو بحركاته وبتقاسيم وجهه أنه لا يودّ الخوض في ذلك الموضوع وقال: «ينبغي أن أفكّر، أنت تعلم أن لديّ الكثير من المواد المعجزة. ولكن لنتحدث عن فينانتسيو. ما رأيك؟»

فأجاب غوليالمو: «ينبغي أن أفكّر».

Twitter: @ketab_n

اليوم الثّاني: أولى

وفيه يبوح بانشيو دا أوبسالا ببعض الأشياء، وأشياء أخرى يبوح بها برينغاريو دا أروندال ويعرف أدسو ما هي التوبة الحقيقية

شوّش الحدث المشؤوم حياة المجموعة، وقطعت الجلبة التي أحدثها العثور على الجثة الفرض المقدس، فدفع رئيس الدير الرُّهبان على الفور إلى الخورس كي يصلّوا على روح أخيهم.

كانت أصوات الرُّهبان مرتعشة بينما اتخذنا موقعاً مناسباً لدراسة ملامحهم عندما لا تكون الطراطير، بحسب الطقس الديني، مسدلة. ورأينا حالاً وجه برينغاريو. كان شاحباً متشنّجاً، يلمع من العرق. وكان قد وصل إلى سمعيْنا في اليوم السابق ما يتهامس به الرُّهبان حول علاقة برينغاريو بأدالمو، وكانوا يلمّحون إلى طبيعة تلك العلاقة الخاصةِ التي كانت تتعدّى روابط الصداقة والتقارب في السنّ.

ولاحظنا بجانبه مَلاخي. كان مكفهر الوجه، متشنجاً وغامضاً. بجانب مَلاخي كان وجه يورج هو الآخر غامضاً. ولاحظنا على العكس حركات بانشيو دا أوبسالا المتوتّرة، وهو المختصّ في البلاغة الذي تعرفنا عليه في اليوم السابق في قاعة الكتابة. وتفطّنّا إلى نظرة سريعة كان يلقيها نحو مَلاخي. فلاحظ أستاذي قائلاً: «بانشيو متوتر الأعصاب، وبرينغاريو مرتاع. ينبغي استنطاقهما على الفور».

فسألته بسذاجة: «لماذا؟»

فقال غوليالمو: «إن مهنتنا مهنة شاقة. نعم، مهنة المحقّق صعبة. ينبغي الضرب على من هم أضعف، وفي اللحظة التي يكون فيها ضعفهم أكبر».

Twitter: @ketab_n

وفعلاً، ما إن انتهى الفرض حتى التحقنا ببانشيو الذي كان متجهاً نحو المكتبة وأظهر الشاب بعض التضايق عندما سمع غوليالمو يناديه، واختلق سبباً واهياً بأن لديه عملاً. كان يُظهر شيئاً من العجلة للالتحاق بقاعة الكتابة. ولكن أستاذي ذكّره بأنه يقوم بتحقيق بأمر من رئيس الدير، وقاده إلى رواق الدير ثم جلسنا على حافة حاجز داخلي بين عمودين. وانتظر بانشيو أن يبدأ غوليالمو بالكلام ملقياً بين الفينة والأخرى بنظرات نحو الصّرح، فسأله غوليالمو: «إذن، ماذا قيل ذلك اليوم الذي تحدثتم فيه عن الحواشي التي كان أدالمو ينمنمها، أنت وبرينغاريو وفينانتسيو ومَلاخي ويورج؟»

ـ «لقد سمعتَ ذلك بالأمس. كان يورج يُلاحظ أنه غير جائز أن تُنمّق الكتب التي تحمل في طياتها الحقيقة بصور سخيفة. ولاحظ فينانتسيو أن أرسطو نفسه تحدَّث عن النكتة والتورية كأداة لاكتشافٍ أكمل للحقيقة. وعلّق يورج بأن أرسطو، بحسب ما يتذكّر، تحدث عن تلك الأشياء في كتاب «الشعر»، وبخصوص الاستعارات. وأنه يرى في ذلك حالتين تبعثان على القلق، أولاً لأن كتاب «الشعر» الذي بقي مجهولاً في العالم المسيحي لمدة طويلة، وقد يكون ذلك بإرادة إلٰهية، وصل إلينا عن طريق العرب الكافرين..»..

فلاحظ غوليالمو: «ولكن ترجمه إلى اللاتينية أحد أصدقاء العَلاّمة الطاهر الأكويني».

فقال بانشيو وقد اطمأنَّ لفوره: «وذلك ما قلته له. فأنا لا أحسن قراءة اليونانية وتمكنت من الاطلاع على ذلك الكتاب العظيم فعلاً من خلال ترجمة غوليالمو دي مويرباك. هذا ما قلته له. ولكن يورج أضاف أن السبب الثاني المثير للقلق هو أنه في ذلك الكتاب يتحدث أصيل ستاجيرا عن الشعر، وهو مذهب وضيع يعيش من الأوهام. فقال فينانتسيو إن المزامير أيضاً هي شعر وتستعمل الاستعارات. فغضب يورج وقال إن المزامير هي عمل من وحي إلٰهي وتستعمل الاستعارات لتبليغ الحقيقة. بينما أعمال الشعراء الوثنيين تستعمل الاستعارات قصد نشر البهتان ولمجرد الاستمتاع. الشيء الذي أهانني كثيراً..»..

ـ «لماذا؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «لأنني أهتم بالبلاغة وأقرأ للكثير من الشعراء الوثنيين وأعرف... أو بالأحرى أظن أنه من خلال كلماتهم بلغت أيضاً حقائق «في طبيعتها» مسيحية... باختصار، عند ذلك الحد إن لم تخنّي ذاكرتي، تحدث فينانتسيو عن كتب أخرى فاحتدّ غضب يورج».

ـ «أي كتب؟»

فتردّد بانشيو ثم قال: «لا أذكر. ماذا يهم عن أي كتب جرى الحديث؟»

ـ «يهم كثيراً، لأننا بصدد التحقيق في ما حدث بين أشخاص يعيشون بين الكتب، مع الكتب ومن الكتب، وإذن حتى أقوالهم حول الكتب تصبح هامّة».

فقال بانشيو مبتسماً للمرة الأولى وقد تهلّل وجهه: «هذا صحيح نحن نعيش للكتب. ويا لها من مهمة عذبة في عالم تسوده الفوضى والانحطاط. ويمكن عندئذٍ أن تفهم ماذا حدث بعد ذلك اليوم. فينانتسيو الذي يفهم... كان يفهم جيداً اليونانية، قال إنّ أرسطو خصص للضحك الكتاب الثاني من «الشعر» وإنه إذا خصص فيلسوف في عظمة أرسطو كتاباً كاملاً للضحك، فلا بدّ من أن يكون الضحك شيئاً هاماً. فقال يورج إن العديد من الآباء خصصوا كتباً كثيرة للخطايا، التي هي أمر هامّ ولكن رديء. فقال فينانتسيو إنه بحسب علمه تحدث أرسطو عن الضحك على أنه شيء طيب وأداة لمعرفة الحقيقة. وعندئذ سأله يورج بسخرية إن كان قرأ كتاب أرسطو ذاك وأجاب فينانتسيو أنه لا يمكن أن يكون قرأه أحد إلى الآن، لأنه لم يُعثر عليه أبداً وقد يكون فُقد. وفعلاً لم يقدر أحد على الاطلاع على الكتاب الثاني من «الشعر»، ولم يتحصل عليه قط غوليالمو دي مويرباك. عندئذٍ قال يورج إن الكتاب غير موجود لأنه لم يكتب قط ولأن الحكمة الإلٰهية لا تسمح أن تُعظِّم الأشياء التافهة. وأنا، كي أهدّئ الخواطر ـ لأن يورج سريع الغضب وكان فينانتسيو يتكلم بطريقة استفزازية ـ قلت إن في الجزء الذي نعرفه من «الشعر» وفي «البلاغة» نجد الكثير من الملاحظات القيّمة حول الأحاجي الفطنة، ووافقني على ذلك فينانتسيو. وكان معنا آنذاك باتشيفيكو دا تيفولي، وكان يعرف جيداً الشعراء الوثنيين، فقال بخصوص الأحاجي الخفيّة إنّه لا أحد يفوق الشعراء الإفريقيين. وذكر علاوة على ذلك لغز السمك لسانفوزيو:

Twitter: @ketab_n

ـ «هناك دار على الأرض ترنّ بصوت صدّاح،

الدار نفسها تصدح، ولكنها لا ترنّ حينما يصمت الضيف، ومع ذلك يعدو الاثنان: الضيف والدار معاً».

عند ذلك قال يورج إنّ يسوع سيدنا أوصى بأن لا يتعدى كلامنا كلمتي «نعم» و«لا»، وإنّ ما زاد على ذلك هو عمل من الشيطان، وإنه يكفي أن يقول المرء سمك للدلالة عن السمك، دون إخفاء المعنى بأصوات كاذبة. وأضاف أنه لا يبدو له حكيماً أن نقتدي بالإفريقيين... وعندئذٍ..».

ـ «عندئذٍ؟»

ـ «عندئذٍ حدث شيء لم أفهمه. أخذ برينغاريو يضحك، ولما أنّبه يورج قال إنه يضحك لأنه تذكّر، أنه لو بحث باحث جيداً بين الإفريقيين لوجد أحاجي أخرى، وليست سهلة كأحجية السمك. فغضب مَلاخي، الذي كان حاضراً، غضباً شديداً وأمسك برينغاريو، أو كاد، من ثوبه، وصرفه إلى الاهتمام بأشغاله... برينغاريو، كما تعلم، هو مساعده...»

ـ «وبعد ذلك؟»

ـ «بعد ذلك وضع يورج حداً للنقاش بمغادرته الحلقة. ومضى كلّ منا لقضاء حاجاته، ولكن بينما كنت أعمل رأيت أوّلاً فينانتسيو ثم أدالمو يقتربان من برينغاريو ليطلبا منه شيئاً، ورأيته من بعيد وهو يحاول التملّص منهما، ولكنهما أثناء ذلك اليوم عادا إليه. وفي المساء رأيت برينغاريو وأدالمو يتحادثان في رواق الدير، قبل الذهاب إلى قاعة الأكل. هذا كلّ ما أعرفه».

فقال غوليالمو: «أنت إذن تعرف أن الشخصين اللّذين لقيا حتفهما في ظروف غامضة طلبا شيئاً من برينغاريو».

فأجاب بانشيو بحرج: «لم أقل ذلك! لقد ذكرت ما وقع ذلك اليوم كما طلبت مني ـ ثم فكّر قليلاً وأضاف بسرعة ـ ولكن إن أردت رأيي، قد يكون برينغاريو حدثهما عن شيء يوجد بالمكتبة، وإذن ينبغي أن تبحث هناك».

Twitter: @ketab_n

ـ «لماذا ذهب بك الظن إلى المكتبة؟ ماذا كان يعني برينغاريو بقوله لو بحثنا جيداً بين الإفريقيين؟ ألم يكن يريد أن يقول إنه يجب أن نقرأ أكثر الشعراء الإفريقيين؟»

ـ «قد يكون، هكذا يبدو، ولكن لماذا غضب إذن مَلاخي؟ إذ إليه يعود أخذ القرار بتسليم كتاب من كتب الشعراء الإفريقيين أو عدم تسليمه. ولكن هناك شيء أنا واثق من معرفته وهو أن من يتصفح قوائم الكتب، يجد من بين العلامات، التي لا يعرف معناها إلا حافظ المكتبة، علامة تقول غالباً «finis Africae». وطلبتُ مرّة كتاباً يحمل تلك العلامة، لا أذكر أي كتاب، كان العنوان قد أثار فضولي، فقال لي مَلاخي إن الكتب التي تحمل تلك العلامة قد فُقدت. هذا ما أعرف، ولذا أقول لك إنه من الصائب أن تراقب برينغاريو، وراقبه عندما يصعد إلى المكتبة. من يدري...»

فاختتم غوليالمو الحوار قائلاً: «من يدري..». ثم سمح له بالانصراف وبعد ذلك أخذ يتجوّل معي عبر الرواق ملاحظاً أنه: قبل كل شيء، ولمرّة أخرى، كان برينغاريو محلّ أحاديث رفاقه، وثانياً إن بانشيو كان يبدو ملحّاً على دفعنا نحو المكتبة. وقلت لعلّه يريدنا أن نكتشف شيئاً هناك يتوق هو نفسه إلى معرفته. وأجاب غوليالمو إنه من المحتمل أن يكون الأمر كما أقول، ولكنه قد يريد دفعنا أيضاً نحو المكتبة لإبعادنا عن بعض الأماكن الأخرى. فسألته عن أي مكان يعني. وأجاب أنه لا يعرف، ربما تكون قاعة الكتابة، وربما المطبخ أو الخورس، أو قاعة النوم أو المستشفى. فلفتُّ نظره إلى أنه في اليوم السابق، كان هو، غوليالمو، المفتون بالمكتبة، فأجاب أنه يريد أن تفتنه الأشياء التي تعجبه لا تلك التي ينصحه بها غيره. وأنه على كلٍّ، يجب مراقبة المكتبة، وأنه لا يرى حرجاً، عند ذلك الحدّ من الأبحاث، من أن يحاول الدخول إليها بطريقة من الطرق. فالظروف تسمح له الآن بأن يشفِي غليل فضوله، في حدود اللياقة والاحترام لعادات وقوانين الدير.

ثم أخذنا في الابتعاد عن الرواق. وكان الخدم والمبتدئون خارجين من الكنيسة بعد القدّاس. وبينما كنا نتجاوز الجانب الغربي للمعبد لاحظنا برينغاريو

Twitter: @ketab_n

وهو يخرج من باب جناح الكنيسة ويعبر المقبرة متجهاً نحو الصّرح. وناداه غوليالمو فتوقف، والتحقنا به. كان مضطرباً أكثر ممّا كان في الخورس فقرّر غوليالمو بطبيعة الحال استغلال حالته النفسية، كما فعل مع بانشيو، وقال له:

ـ «يبدو إذن أنك كنت آخر من رأى أدالمو حيّاً».

فأوشك برينغاريو أن ينهار مغشيّاً عليه وقال بصوت يكاد لا يُسمع «أنا؟» وكان غوليالمو قد طرح سؤاله هكذا دون قصد، وقد يكون فعل ذلك لأنه سمع بانشيو يقول إنه رآهما يتهامسان في الرواق بعد صلاة السّتار. ولكنه يظهر أنه أصاب، ولا ريب أن برينغاريو كان يفكر في لقاء آخر، كان فعلاً اللقاء الأخير، لأنه أخذ يتحدث بصوت متقطّع:

ـ «كيف يمكن أن تقول ذلك، لقد رأيته قبل الذهاب للنوم ككلّ الآخرين!»

فقرّر غوليالمو عندئذٍ أنه من الأفضل أن لا يمهله: «كلاّ، أنت رأيته مرّة أخرى ولديك من المعلومات أكثر مما تريد أن توهم. ولكن يوجد الآن قتيلان ولا يمكنك أن تتمادى في الصمت. إنك تعرف جيداً أن هناك أكثر من طريقة لإرغام شخص على الكلام!»

وكان غوليالمو قد قال لي عدّة مرات إنه، حتى عندما كان محقّقاً كان دائماً ينفر من استعمال وسائل التعذيب. ولكن برينغاريو أساء فهمه (أو أراد غوليالمو أن يُسيئ الفهم)، على كلّ أعطت حيلته نتائجها إذ قال برينغاريو مجهشاً بالبكاء:

ـ «نعم، نعم. لقد رأيت أدالمو تلك الليلة، ولكنّني رأيته ميّتاً!»

فسأله غوليالمو: «كيف؟ في أسفل الهاوية؟»

ـ «كلا، كلا، رأيته هنا في المقبرة، يسير بين القبور، دودة بين الديدان. لقد اعترضني ولاحظت في الحال أنني لا أجد نفسي أمام إنسان من هذه الدنيا، كان وجهه وجه جثّة، وكانت عيناه تنظران إلى العقاب الأبدي. بطبيعة الحال لم أفهم إلا في الصباح، عندما علمت بموته، أنني لاقيت شبحه. ولكن منذ تلك اللحظة فهمت أنني أمام رؤيا وأنني أرى تجاهي روحاً هالكة، شبحاً... آه يا إلٰهي، لقد حدثني بصوت خارج من القبر!»

Twitter: @ketab_n

- «وماذا قال لك؟»

- «إنني هالك! - هكذا قال لي - مثلما تراني، فإنك ترى أمامك شخصاً آتياً من الجحيم والى الجحيم ينبغي أن يعود - هكذا قال لي، فصحت به: أدالمو، هل تأتي حقيقة من الجحيم؟ كيف هو عذاب الجحيم؟ - وكنت أرتعد، لأنني خرجت منذ قليل من صلاة النوم حيث استمعت إلى قراءة صفحات مروّعة عن غضب الإلٰه، فقال لي:

- «إن عذاب الجحيم لامتناهٍ أكثر مما يقدر اللّسان على وصفه، وأضاف: أترى هذا الغطاء من السفسطة الذي ارتديته إلى حدّ الآن، إنه يثقل كاهلي ويسحقني فكأنني أحمل أكبر برج في باريس أو جبال العالم فوق كتفيّ ولن يمكنني خلعه أبداً. وقد عاقبتني العدالة الإلٰهية هذا العقاب لغروري، لأنني ظننت جسدي موضعاً للملذات، ولأنني ظننت نفسي أكثر علماً من الآخرين، ولأنني تسلّيت بأشياء فظيعة، حلمت بها في مخيلتي فأحدثت في دخيلة نفسي أشياء أفظع بكثير، وسأعيش معها الآن إلى الأبد. أترى؟ إن بطان هذه العباءة كما لو كان جمراً وناراً متوقّدة، وهي النار التي تلتهم جسمي، وقد مُنيت بهذا العقاب لخطيئة الجنس الخسيسة، التي تلذّذت بها، وهذه النار الآن تلتهمني وتحرقني دون هوادة. مدّ إليّ يدك يا أستاذي الجميل!» - ثم حرّك إصبع يده التي كانت تشتعل، فسقطت على يدي قطرة صغيرة من عرقه وبدا لي وكأنها ثقبت يدي، حتى إنني بقيت أحمل أثرها لعدة أيام، غير أنني أخفيتها عن الجميع. ثم غاب بين القبور، وفي الصباح علمت أن ذلك الجسد، الذي روّعني بتلك الصفة، كان آنذاك يجثم ميّتاً في أسفل الهاوية».

كان برينغاريو يتنفس بصعوبة ويبكي. فسأله غوليالمو: «ولماذا دعاك يا أستاذي الجميل؟ لقد كنتما أنداداً. هل علّمته شيئاً؟» فأخفى برينغاريو وجهه تحت الطرطور وسقط على ركبتيه مطوّقاً بذراعيه ساقي غوليالمو: «لا أدري، لا أدري لماذا دعاني كذلك، إنني لم أعلّمه شيئاً!» وأجهش بالبكاء: «إنني خائف يا أبت. أريدك أن تقبل اعترافي، ارحمني، فالشيطان يلتهم أحشائي».

فأبعده غوليالمو عن نفسه ومدّ له يده كي ينهض قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ «لا يا برينغاريو. لا تطلب مني أن أسمع اعترافك. لا تغلق شفتي بفتح شفتيك. ما أريد أن أعرفه منك ستقوله لي بطريقة أخرى. وإن رفضت قوله سأكتشفه بنفسي. أُطلب مني الشفقة إن أردت ولكن لا تطلب مني الصمت. فالكثيرون في هذا الدير يصمتون. ولكن قل لي، كيف رأيت وجهه الشاحب إن كان الليل حالكاً، وكيف أحرق عرقه يدك إن كانت ليلة مطر وبرد وثلج، وماذا كنت تعمل في المقبرة؟ هيّا ـ وهزه بعنف من كتفه ـ قل لي على الأقل هذا!»

كان برينغاريو يرتعد بكل أعضائه: «لا أدري ماذا كنت أفعل في المقبرة. لا أذكر. لا أدري كيف رأيت وجهه، أظن أنني كنت أحمل نوراً، كلاّ... بل هو الذي كان يحمل نوراً، قد أكون رأيت وجهه على ضوء فتيلة..».

ـ «كيف يمكن أن يحمل نوراً بينما كان المطر والثلج يتساقطان؟»

ـ «كان ذلك بعد صلاة النوم، بعدها بالضبط، ولم يكن الثلج يتساقط بعد، وإنما أخذ يتساقط في وقت لاحق... أذكر أن الهبّات الأولى من الثلج قد أخذت في السقوط بينما كنت أسارع نحو قاعة النوم، في الاتجاه المعاكس لاتجاه الشبح... وبعد ذلك لا أدري شيئاً، أرجوك، كفّ عن سؤالي، إن كنت لا تريد سماع اعترافي».

فقال غوليالمو: «حسناً، اذهب الآن، اذهب إلى الخورس، اذهب وتحدث مع الإله، بما أنك لا تريد الكلام مع البشر، أو اذهب للبحث عن راهب يقبل سماع اعترافك، لأنك إن لم تعترف منذ ذلك الحين بخطاياك، فقد اقتربت إذن آثماً من القدّاس. اذهب. سنلتقي فيما بعد».

وغاب برينغاريو بسرعة عن أنظارنا بينما فرك غوليالمو يديه، كما رأيته يفعل في عدة حالات أخرى عندما يريد التعبير عن الرضى، وقال: «حسناً، الآن اتضحت عدّة أشياء».

فسألته: «اتّضحت! كيف يا أستاذي؟ كيف اتضحت الآن وقد أصبح لدينا أيضاً شبح أدالمو؟»

فقال غوليالمو: «ياعزيزي أدسو، إن ذلك الشبح يبدو لي شبحاً صغيراً جدّاً،

Twitter: @ketab_n

وعلى كلّ حال كان يتلو صفحة سبق أن قرأتها في كتاب كان يستعمله الواعظون. هؤلاء الرُّهبان يفرطون في القراءة، وعندما تهيج أعصابهم يعيشون من جديد تلك الرؤى التي قرأوها في الكتب. لا أدري إن كان أدالمو قد قال حقيقة تلك الأشياء أو أن برينغاريو سمعها لأنه كان في حاجة إلى سماعها. الثابت هو أن هذه القصة تؤكد العديد من افتراضاتي. مثلاً: أن أدالمو قد مات منتحراً. فحكاية برينغاريو تقول إنه قبل أن يموت، كان يطوف وهو فريسة لهيجان كبير ولندم على فعلة كان قد اقترفها. كان ثائر الأعصاب ومروَّعاً من أجل الخطيئة التي ارتكبها، لأن أحدهم روّعه، وقد يكون قصّ عليه بالضبط الفقرة من الرؤيا الجهنمية التي تلاها بتلك المهارة الفائقة والمهلوسة. ومرّ من المقبرة لأنه كان آتياً من الخورس، حيث تحادث مع شخص أدخل عليه الهلع والندم (أو باح له باعترافه). وكان مارّاً من المقبرة ـ كما قال برينغاريو ـ في الاتجاه المعاكس لقاعة النوم. نحو الصّرح إذن، لكن أيضاً (وهذا ممكن) نحو السّور الخارجي وراء المزابل، ومن هناك، كما استنتجت يكون قد ألقى بنفسه في الهاوية. وقد رمى بنفسه قبل حدوث العاصفة، ومات عند أسفل السور، وبعد ذلك فقط حمل الانهيار جثته بين البرج الشمالي والبرج الشرقي».

ـ «ولكن قطرة العرق الملتهبة؟»

ـ «توجد هي أيضاً في القصة التي سمعها وأعادها علينا، أو تخيلها برينغاريو وهو فريسة للاضطراب والندم، لأنه مع شعور أدالمو بالندم هناك شعور برينغاريو بالندم، مثلما سمعت. وإذا كان أدالمو آتياً من الخورس فمن الممكن أنه كان يحمل شمعة، والقطرة التي سقطت على يد صديقه ما هي إلا قطرة شمع. ولكن برينغاريو أحس بحرق أكبر لأن أدالمو ناداه «أستاذي»، مما يدل على أن أدالمو كان يلومه لأنه علّمه شيئاً جعله ييأس حتى الموت. وبرينغاريو يعلم ذلك ويتألم لأنه يعرف أنه دفع بأدالمو إلى الموت بعد أن جعله يفعل شيئاً كان ينبغي عليه أن لا يفعله. وليس من الصعب أن تتخيل ماذا، يا عزيزي أدسو، بعد ما سمعناه عن مساعد حافظ المكتبة».

فقلت وأنا خجل من نباهتي: «أظن أنني فهمت ماذا وقع بينهما. ولكن ألا

Twitter: @ketab_n

نؤمن كلنا برب رحيم؟ لقد قلت إن أدالمو قد يكون اعترف؟ لماذا حاول أن يعاقب خطيئته الأولى بخطيئة دون شك أكبر أو على الأقل بالخطورة نفسها؟»

ـ «لأن أحدهم قال له كلمات ملؤها اليأس. لقد قلت إن صفحة كتبها بعض المبشرين في وقتنا هذا، قد تكون ألهمت أحدهم الكلمات التي روّعت أدالمو، وبدوره روّع بها برينغاريو. فالمبشرون لم يقدّموا إلى الشعب كما قدّموا في هذه السنوات الأخيرة، حتى يحثّوه على التقوى ويروّعوه (ويحرّكوا فيه الحماس والإجلال للشريعة الإنسانية والإلٰهية)، كلمات فظة، مثيرة ومرعبة إلى هذا الحدّ. وما حدث قط كما يحدث في أيامنا أن تسمع وسط مواكب المتسوّطين أناشيد مقدسة مستوحاة من آلام المسيح والعذراء، وما كان الواعظون يلحّون قط، كما يفعلون اليوم، على استحضار آلام الجحيم، بغية حثّ البُسَطاء على الإيمان».

فقلت: «قد يكون من أجل التوبة».

ـ «أدسو، لم أسمع قط كما سمعت في هذه الأيام نداءات بهذه الكثرة إلى التوبة، في زمن ليس بمقدور المبشرين ولا الأساقفة، ولا حتى إخواني الروحانيين، تحريك توبة حقيقية...»

فقلت محتاراً: «ولكن العهد الثالث، والبابا الملائكي، ومجمع بيروجيا»...

ـ «حنين إلى الماضي. إن زمن التوبة العظيم قد ولّى، ولهذا حتى المجمع العامّ للنظام يستطيع أن يتكلم على التوبة. نعم، لقد هبّت، منذ مائة أو مائتي سنة، ريح تجديد عاتية. كان ذلك عندما كان يُحرَق من يتكلم عليها، قديساً كان أو زنديقاً. الآن يتحدث عنها الجميع، وحتى البابا، إن أردنا، يناقشها. لا تثق بتجديد الجنس البشري عندما تتكلم على ذلك الهيئات الكنسية والبلاطات». فتجرأت وسألته: «ولكن الأخ دولتشينو»، ـ وكنت أتوق إلى التعرف أكثر على ذلك الشخص الذي كثيراً ما سمعت اسمه يذكر في اليوم السابق.

ـ «لقد مات، وبفظاعة، كما عاش. لأنه هو أيضاً جاء بعد فوات الأوان. ولكن أنت ماذا تعرف عنه؟»

ـ «لا شيء، ولذا سألتك...»

Twitter: @ketab_n

ـ أودّ أن لا أتحدث عنه أبداً. لقد حدث لي أن تعاملت مع البعض ممّن يسمّون الرّسل، وتأملت فيهم عن قرب. إنها قصّة محزنة. ستشوّش بالك. على كل حال قد شوشت بالي أنا، وستثير اضطرابك أكثر عدم قدرتي على الحكم. إنها قصة رجل قام بأشياء غير معقولة لأنه طبق فعلياً ما علّمه إياه الكثير من القديسين. وفي وقت من الأوقات لم أعد أفهم من المخطئ، لقد كنت وكأنني... تائه وسط ضباب في جو مألوف يهب من ساحتي الفريقين المتنازعين، من القديسين الذين يبشرون بالتوبة ومن مرتكبي الخطايا الذين كانوا يطبقونها، غالباً على حساب الآخرين... ولكنني بصدد الحديث عن شيء آخر. أو قد يكون لا، كنت أتحدث دائماً عن هذا: لمّا انتهى زمن التوبة، أصبحت حاجة التائبين إلى التوبة حاجة إلى الموت، وأولئك الذين قتلوا التائبين المجانين، معوضين الموت بالموت، كي يهزموا التوبة الحقيقية التي تؤدي إلى الموت، عوضوا توبة الروح بتوبة الخيال، بالرجوع إلى رؤى خيالية كلّها ألم ودم، مسمّين إيّاها «مرآة» التوبة الحقيقية. مرآة تجعل مخيلة البُسَطاء، وفي بعض الأحيان مخيلة العلماء، تعيش في الحياة الدنيا عذاب الجحيم. حتى لا يرتكب أحدهم الإثم، كما يقولون، آملين أن تُعرض النفوس عن الخطيئة بوسيلة الخوف، واثقين من أن الخوف سيعوض الثورة.

فسألته بقلق: «ولكن هل سيُعرِضون حقيقة عن ارتكاب الخطيئة؟» فأجاب أستاذي: «هذا يتوقف على ما تعني بارتكاب الخطيئة يا أدسو. إنني لا أريد أن أغلط في حق أهل هذا البلد حيث أعيش منذ بضع سنين، ولكن يبدو لي أن من خاصيات قلّة تقوى الشعوب الايطالية عدم ارتكاب الخطيئة خوفاً من بعض الآلهة، ولو أطلقوا عليها اسم قديس. إنهم يخافون من القديس سيباستيانو أو القديس أنطونيو أكثر ممّا يخافون من المسيح. فلو أراد أحدهم أن يُبقي مكاناً نظيفاً هنا، حتى لا يبول فيه الناس على طريقة الكلاب، فإنّه يرسم فوقه صورة القديس انطونيو بطرف من الخشب، فيبعد أولئك الذين كانوا يتأهبون للتبوّل فيه. وهكذا يتعرض الإيطاليون، بفضل مبشريهم، لخطر العودة إلى المعتقدات القديمة ولم يعودوا يؤمنون بانبعاث الجسد، إنهم يخافون فقط خوفاً عظيماً من الجروح الجسدية ومن الكوارث، ولذا يخافون القديس أنطونيو أكثر مما يخافون المسيح».

Twitter: @ketab_n

فقلت ملاحظاً: «ولكن برينغاريو ليس إيطالياً».

- «لا يهم، إنني أتحدث عن الجوّ الذي نشرته الكنيسة والأنظمة التبشيرية على شبه الجزيرة هذه ومنها ينتشر في كل مكان، ويصل حتى إلى دير جليل يسكنه رُهبان علماء كهؤلاء».

فألححت قائلاً: «ولكن ليتهم يمتنعون على الأقل عن ارتكاب الخطايا» لأنني كنت مستعداً للاكتفاء بذلك.

-«لو كان هذا الدير مرآة للعالم لوجدت الجواب». فسألته: - «أو ليس كذلك؟»

فختم غوليالمو قائلاً: «كي تكون للعالم مرآة ينبغي أن يكون للعالم شكل». لقد كان أستاذي فيلسوفاً كبيراً بالنسبة إلى قدرة شاب مراهق مثلي على الفهم.

Twitter: @ketab_n

اليوم الثّاني: ثالثَة

وفيه يحضر غوليالمو وأدسو خصومة بين أشخاص مبتذلين ويقوم أيمارو دا أليساندريا ببعض التلميحات، ويفكر أدسو حول القداسة وبِراز الشيطان. ثم يعود غوليالمو وأدسو إلى قاعة الكتابة، ويرى غوليالمو شيئاً جديراً بالاهتمام، ثم يكون له حوار ثالث حول إباحة الضحك، ولكنه في الختام لا يمكنه أن ينظر حيث يريد.

قبل الصعود إلى قاعة الكتابة ذهبنا إلى المطبخ لنصيب شيئاً من الغذاء، لأننا لم نأكل شيئاً منذ نهوضنا. وانشرحت لوقتي ما إن شربت صحفة من الحليب الساخن. وكانت المدفأة الجنوبية الكبيرة تشتعل كالمصهر، بينما كان الطباخون يعدّون في الفرن ما يلزم لذلك اليوم من خبز. وكان معّازان يضعان نعجة ذُبحت منذ قليل. ورأيت بين الطباخين سلفاتوري الذي ابتسم لي بفمه الذي يشبه شدقي ذئب. ورأيته يأخذ من فوق المائدة بقايا دجاج من عشاء البارحة ويمدّه خفية إلى المعّازين اللّذيْن أخفياه في سترتيهما المصنوعتين من الجلد وهما يتضاحكان من الرضى. ولكن كبير الطباخين انتبه لذلك وأخذ يوبّخ سلفاتوري قائلاً:

- «يا قيّم، عليك أن تدير أملاك الدير لا أن تُبَذِّرها»! فقال سلفاتوري: «إنهم أبناء الرب. وقد أمر يسوع أن نعامله كما نعامل أولئك المساكين!»

فصاح به الطباخ عندئذٍ: «أيها الفرانشسكاني القذر، أيها الفرانشسكاني الضرّاط. إنك لست الآن بين إخوانك الصعاليك! ستُعنى شفقة رئيس الدير بمساعدة أبناء الربّ!»

فتجَهّم وجه سلفاتوري والتفت إليه بغضب شديد: «إنني لست راهباً فرانشسكانياً، إنني راهب القديس بنيدكت»! أيها الغائط، أيّها البوغوميليّ الغائط!»

Twitter: @ketab_n

فصاح الطباخ: «البوغوميليّة هي البغي التي تنكحها في الليل بقضيبك الهرطيقي، أيها الخنزير!»

فأخرج سلفاتوري بسرعة المعّازين وعندما مرّ بالقرب منّا نظر إلينا بغمّ وقال لغوليالمو: «أيها الأخ، دافع أنت عن رهبانيتك فهي ليست رهبانيّتي. قل له إن أبناء القديس فرانشسكو ليسوا هراطقة!» ثم همس في أذني: «إنه كذّاب، تفوه!» وبصق على الأرض.

فجاء الطباخ ودفعه إلى الخارج بعنف مغلقاً الباب وراءه ثم قال لغوليالمو باحترام: «يا أخي، إنني لم أتحدث بسوء عن رهبانيتك ولا عن رجالها القديسين. كنت أتحدث عن هذا الفرانشسكاني الزائف والبنيدكتي الزائف الذي لا لون له ولا رائحة».

فقال غوليالمو بنبرة مسالمة: «إنني أعرف من أين أتى. ولكنه الآن راهب مثلك ينبغي عليك احترامه احتراماً أخوياً».

ـ «ولكنه يتدخل في ما لا يعنيه لأنه تحت حماية القيّم، ويظن نفسه القيّم، ويستعمل الدير كما لو كان ملكه في النهار والليل!»

فسأله غوليالمو: «لماذا قلت في الليل؟»، فقام الطباخ بحركة يعني بها أنه لا يودّ الحديث عن أشياء تنقصها العفّة. فلم يزد غوليالمو في سؤاله وأنهى شرب حليبه.

أما أنا فقد كان فضولي يزداد شيئاً فشيئاً. اللقاء مع أوبارتينو، والتهامس حول ماضي سلفاتوري والقيّم، والتلميحات المتزايدة أكثر فأكثر عن الإخوان الفرانشسكانيّين وعن الطوائف الفرانشسكانية الهرطيقية التي سمعتها في تلك الأيام، ثم إحجام أستاذي عن الحديث حول الأخ دولتشينو... وهكذا أخذت مجموعة من الصور تترتّب في ذهني. مثلاً، أثناء سفرنا اعترضتنا على الأقل مرتين جماعة من المتسوّطين، وكان سكان المنطقة ينظرون إليهم مرّة على أنهم قديسون، ويتهامسون أخرى على أنهم هراطقة، بينما كانوا مع ذلك الأشخاص أنفسهم. كانوا يمشون في موكب، اثنين وراء اثنين، في طرقات المدينة ولم يغطوا من

Twitter: @ketab_n

أجسادهم إلا العورة، متعدّين كل حدود الحياء. وكان كلّ واحد يمسك بسوط من الجلد يضرب به كتفيه حتى يخرج الدم، والجميع يبكون بدموع غزيرة كأنهم يشاهدون بأعينهم محنة المخلّص، ويتوسّلون بنشيد محزن رحمة الإله وعون أم الربّ. وليس فقط في النهار بل وحتى في الليل، حاملين الشموع المشتعلة، في قسوة البرد الشتائي، كانوا يذهبون في مجموعات كبيرة يطوفون بالكنائس ويركعون بخشوع أمام المذابح، يتقدمهم الكهنة حاملين الشموع والرايات، لا يوجد بينهم الرجال والنساء من عامة الناس فحسب، بل وحتى السيدات النبيلات، والتجار... وإذا بك ترى أعمال توبة عظيمة، من أولئك الذين يعيدون ما سلبوه دون حق، إلى الذين يعترفون بجرائمهم...

ولكن غوليالمو نظر اليهم ببرود وقال لي إن تلك ليست التوبة الحقيقية. لقد تكلم بالطريقة نفسها التي تحدث بها منذ حين في ذلك الصباح: وهو أن عهد الاغتسال التوبوي الكبير ولّى، وإن تلك كانت الطرق التي يستعملها المبشرون أنفسهم لتنظيم تقوى الجماهير حتى لا يقعوا ضحية رغبة أخرى في التوبة ـ وتلك ـ هي هرطيقية، وتبعث الخوف في الجميع. كان يبدو لي أن الفارق لا يأتي من أعمال هؤلاء أو أولئك، ولكن من النظرة التي كانت الكنيسة تحكم بها على هذه، أو تلك من الأعمال.

كنت أتذكر النقاش مع أوبارتينو. لقد كان غوليالمو دون شكّ ملمّحاً وحاول أن يقول إن الفارق ليس كبيراً بين إيمانه الروحي (والأرثوذكسي) وإيمان الهراطقة الملتوي. وشعر أوبارتينو بالإهانة كمن يرى جيّداً الفارق. والانطباع الذي بقي لي هو أنه كان مُختلفاً عن الآخرين لأنه كان يعرف إدراك الفارق. وقد انسحب غوليالمو من وظيفته في محكمة التفتيش لأنه لم يعد يعرف كيف ينظر إليها. ولذا لم يكن باستطاعته أن يحدثني عن قصة الأخ دولتشينو الغامضة، ولكن عندئذٍ، من الواضح (كنت أقول في نفسي) أن غوليالمو فقد معونة الإله، الذي لا يُدرك فقط معرفة الفارق، ولكنه إن شاء فهو يمنح عباده المختارين تلك المقدرة على إدراكه. لقد بقي أوبارتينو وكيارا دا مونتيفالكو (ولو أنها كانت محاطة بالآثمين) قديّسيْن لأنهما كانا يعرفان فعلاً إدراك الفارق. هذه هي القداسة، لا غير.

Twitter: @ketab_n

ولكن لماذا لا يعرف غوليالمو كيف يميز؟ ومع ذلك فهو رجل فَطِن، وفيما يخص أمور الطبيعة كان يُلاحظ أدنى تخالف وأدنى تقارب بين الأشياء...

كنت غارقاً في هذه الأفكار، بينما كان غوليالمو ينهي شرب حليبه عندما سمعنا أحداً يحيّينا. كان أيْمارو دا أليسّاندريا الذي كُنّا قد تعرفنا عليه من قبل في قاعة الكتابة، والذي استرعى انتباهي إليه ملامح وجهه، التي تعلوها دائماً ابتسامة استهزاء، كمن لا يقدر على إقناع نفسه بحماقة كل المخلوقات البشرية ومع ذلك يعير اهتماماً كبيراً لهذه المأساة الكونية.

ـ «إذن، هل تَعوَّدت يا أخ غوليالمو على هذا الوكر من المجانين؟»، فقال غوليالمو بحذر: «إنه يبدو لي مكاناً عامراً برجال جديرين بالإعجاب لقداستهم ولحكمتهم».

ـ لقد كان كذلك، عندما كان رؤساء الدير يقومون برئاسة الدير، وحافظو المكتبة بحفظ المكتبة. لقد رأيتَ الآن هناك ـ وأشار إلى الطابق الأعلى ـ ذلك الألماني الذي هو لا بالميّت ولا بالحي، يستمع بعيني أعمى إلى هذيان ذلك الإسباني الأعمى الذي له عينا ميّت. يبدو وكأنّ المسيح الدّجال سيطلّ علينا كل صباح. هنا نقشط الرقّ ولكن القليل جداً من الكتب الجدية تدخل إلى هذا المكان. إننا نقيم هنا بينما الحركة والنشاط هناك، في المدن... في السابق كانت أديرتنا هي التي تحكم العالم. والآن، ها أنت ترى، الإمبراطور يستعملنا لإرسال أصدقائه لملاقاة أعدائه (إنني على علم بعض الشيء بمهمتك، فالرُّهبان يتحدثون، يتحدثون، ليس لديهم شيء آخر يفعلونه) ولكن إن أردت مراقبة أمور هذه البلاد فابقَ في المدينة. نحن هنا نجمع القمح ونربي الدواجن، وهناك تُستبدل أذرعة الحرير بقطع القماش، وقطع القماش بأكياس التوابل، والكلّ بنقود صالحة. نحن هنا نحرس كنزنا وهناك تتراكم الكنوز. والكتب أيضاً، وأجمل من كتبنا نحن.

ـ في العالم تقع دون شك أشياء كثيرة جداً. ولكن لماذا تظن أنها غلطة رئيس الدير؟

ـ لأنه وضع المكتبة بين أيدي الأجانب ولأنه يعتبر الدير قلعة بنيت للدفاع عن المكتبة. إن ديراً بنيدكتيًا في هذا القطر الإيطالي، ينبغي أن يكون مكاناً يقرّر

Twitter: @ketab_n

فيه الإيطاليون الشؤون الإيطالية. ولكن ماذا يفعل الإيطاليون الآن ولم يعد لهم حتى البابا؟ يتاجرون، يصنعون، إنهم أثرى من ملك فرنسا. إذن، لنفعل مثلهم، فإن كنا نتقن صنع كتب جميلة فلنصنعها للجامعات، ولنهتمّ بما يقع في أسفل الوادي، لا أقول نهتم بالإمبراطور، مع كل احترامي لمهمتك، يا أخ غوليالمو، ولكن بما يفعل البولونيون والفلورنسيون. يمكننا من هنا مراقبة الحجيج والتجار، الذين يذهبون من إيطاليا إلى بروفانسا والعكس. لنفتح المكتبة إلى النصوص باللغة الإيطالية، وسيصعد إلينا أيضاً أولئك الذين لم يعودوا يكتبون باللاتينية. ولكننا مُراقَبون من طرف كتلة من الأجانب يواصلون إدارة المكتبة وكأنه لا يزال في كلوني إلى الآن الشمّاس أوديلّوني الطيّب..». فقال غوليالمو: «ولكن رئيس الدير إيطالي».

فقال أيمارو مبتسماً دائماً باستهزاء: «لا يُحسب هنا أي حساب لرئيس الدير. له خزانة مكتبة عوضاً عن دماغه. لقد نخره السوس. كي ينكّد بالبابا يترك الدير يمتلئ بالفرانشسكانيّين... أعني أولئك الهراطقة، يا أخي، الهاربين من رهبانيتكم المقدّسة... وكي يتقرّب إلى الإمبراطور يجلب إلى الدير رُهباناً من كلّ أديرة الشمال، كما لو لم يكن في فلورنسا وفي بيزا أبناء تجّار، أثرياء وكرماء، يودّون الدخول في الرُّهبانية، لو أعطتهم الرُّهبانية الفرصة لتنمية نفوذ آبائهم وهيبتهم. ولكن هنا لا يُقبل التسامح بخصوص أشياء الدنيا ما عدا الترخيص للألمان بـ... آه، يا إلٰهي العزيز، لتصعق لساني إذ كنت سأقول ما لا يليق!».

فسأله غوليالمو دون اكتراث وهو يصب لنفسه قليلاً من الحليب:

ـ «أتقع في الدير أشياء غير لائقة؟»

فقال أيمارو بتكلف: «الراهب أيضا إنسان» ـ ثم أضاف ـ «ولكن هنا صفة الإنسان فيهم أقل من أي مكان آخر. وما قلته، ليكن واضحاً أني لم أقله».

فقال غوليالمو: «هذا شيء هام جداً. وهل هذه آراؤك أنت أم أن هناك الكثير ممن لهم الرأي نفسه؟».

ـ إنه رأي الكثيرين والكثيرين. الكثيرين ممن يتحسّرون الآن على مصيبة أدالمو المسكين، ولكنهم لن يتأسّفوا لو سقط في الهاوية واحد آخر، ذلك الذي يتسكع في المكتبة أكثر مما ينبغي.

Twitter: @ketab_n

- «ماذا تعني؟»

- «لقد أكثرت من الكلام. إننا نكثر هنا من الكلام، قد تكون لاحظت ذلك. هنا لم يعد أحد يحترم الصمت، من ناحية، ومن ناحية أخرى هناك من يغالي في احترامه. هنا عوضاً عن الكلام والصمت يجب علينا العمل. في العهد الذهبي الذي عاشته رهبانيتنا، عندما لا يكون رئيس الدير في مستوى وظيفته يكفي كأس من الخمر المسموم وإذا بالخلافة مفتوحة. لقد قلت لك هذه الأشياء، يا أخي غوليالمو، لا للتهامس في شأن رئيس الدير أو في شأن إخوان آخرين. ليحفظني اللّه من ذلك، من حظي أنني بَراء من ذلك العيب القبيح، عيب الاغتياب. ولكنني مثل باتشيفيكو دا تيفولي أو بيترو دا سانتالبانو. نحن لا دخل لنا في حكاية المكتبة. ولكننا نريد أن ندخل فيها أكثر. لذا ارفع الغطاء عن ذلك الوكر من الثعابين أنت الذي أحرقتَ العديد من الهراطقة».

فأجابه غوليالمو بنبرة جافة: «أنا لم أحرق أحداً قط». فوافقه أيمارو بابتسامة عريضة قائلاً: «لقد قلت ذلك دون قصد. صيداً وفيراً، يا أخ غوليالمو، ولكن كن حذراً في الليل».

- «ولِمَ ليس في النهار؟»

- «لأن هنا، في النهار، يُعالج الجسم بالأعشاب النافعة وفي الليل تَمرض الروح بالأعشاب المضرّة. لا تظن أن أدالمو قد أسقطته في الهاوية أيدي أحد أو أن أيدي أحد وضعت فينانتسيو في الدم. يوجد هنا أحد لا يريد أن يقرّر الرُّهبان بأنفسهم أين يذهبون وماذا يفعلون وماذا يقرأون. وتُستعمل قوى الجحيم وقوى السَحَرة أصدقاء الجحيم، لإدخال الاضطراب على إدراك الفضوليين...»

- «هل تعني الأب العشّاب؟»

- «إن سيفيرينو دا سانتيمرّانو رجل طيب. بطبيعة الحال، هو ألماني، ومَلاخي ألماني...»

وبعد أن أظهر مرة أخرى أنه بعيد عن عيب الاغتياب، صعد أيمارو للعمل.

فسألت: «ماذا كان يريد أن يقول؟»

Twitter: @ketab_n

- «كل شيء ولا شيء. إن الدير دائماً مكان يتنافس فيه الرُّهبان فيما بينهم للتحكم في إدارة المجموعة. وهكذا أيضاً في «مالك»، ولكن من المحتمل، نظراً إلى كونك مبتدئاً، أنك لم تنتبه لذلك. ولكن في بلادكَ يعني التحكمُ في دير التحكّمَ في مكان يسمح بالتعامل مباشرة مع الإمبراطور. ولكن في هذه البلاد يختلف الأمر، فالإمبراطور بعيد، حتى عندما ينزل إلى روما. لا يوجد هنا بلاط، ولا حتى البلاط البابوي. هنا توجد المدن، قد تكون لاحظت ذلك».

- «بالتأكيد، وقد أذهلني ذلك. المدينة في إيطاليا شيء مُختلف عما يوجد عندنا... ليست فقط مكاناً للسكنى: هي مكان لأخذ القرارات، تجدهم دائماً في الساحة، الحكام المدنيون أهمّ من الإمبراطور أو البابا. إنها كما لو كانت.. ممالك عديدة...»

- «والملوك هم التجار. سلاحهم هو النقود. إن للنقود في إيطاليا صلاحية تختلف عن تلك الموجودة في بلادك أو في بلادي. إن النقود رائجة في كل مكان، ولكن الحياة في أغلب مظاهرها يُهَيْمِن عليها وينظمها تبادل المنتجات، دواجن أو حرز من القمح، أو محصد، أو عربة، والنقود تصْلح لامتلاك هذه الأشياء. وقد تكون لاحظت أنه في المدن الإيطالية، على العكس، تصلح المنتوجات لامتلاك النقود. والكهنة أيضاً والأساقفة، وحتى الأنظمة الدينية تحسب للنقود ألف حساب. ولهذا السبب بطبيعة الحال تتجلّى الثورة على السلطة في صور نداء للفقر، والفقراء الثائرون على السلطة هم أولئك الذين بقوا خارج حلقة النقود. وكل نداء للفقر يثير توتراً كبيراً ومناقشات حادة، والمدينة كلها، من الأسقف إلى الحاكم المدني، ترى من يلحّ في المناداة بالفقر عدوّاً شخصياً لها. والمحققون يشتمّون عُفُونة إبليس حيث يثور أحدهم ضدّ بِراز إبليس. ولذا تفهم الآن أيضاً ماذا كان يريد أيمارو أن يقول. كان الدير البنيدكتي، في العهود الذهبية التي عاشتها الرُّهبانية، المكان الذي يُراقب منه الرُّعاة قطيع المؤمنين. أيمارو يريد الرجوع إلى التقاليد. إلا أن حياة القطيع قد تغيَّرت، ولا يمكن للدير أن يعود إلى التقاليد (إلى مجده ونفوذه الماضيين) إلا إذا قبل أن وضع القطيع الآن وفي هذه الربوع لا يقع من خلال السلاح أو من خلال روعة الطقوس، ولكن من خلال

Twitter: @ketab_n

السيطرة على النقود، يريد أيمارو أن يُصبح الدير بأكمله، والمكتبة أيضاً، معملاً، ومصنعاً للنقود».

ـ «وما علاقة هذا بالجرائم، أو بالجريمة؟»

ـ «لست أدري بعد. ولكنّني أريد الآن أن أصعد إلى قاعة الكتابة. هيّا».

كان الرُّهبان قد أخذوا في العمل، وكان الصمت يسيطر على قاعة الكتابة، ولكن ليس ذلك الصمت الذي يعقب راحة القلوب المجتهدة. وتلقّانا برينغاريو، الذي سبقنا منذ قليل بارتباك، بينما رفع الرُّهبان الآخرون رؤوسهم عن أعمالهم. كانوا يعلمون أننا جئنا هناك لاكتشاف شيء عن فينانتسيو، وركّز اتجاه أنظارهم نفسه اهتمامنا على مكان فارغ، تحت نافذة تنفتح داخل المثمّن الوسطي.

وبالرغم من شِدّة برد ذلك اليوم فقد كانت الحرارة في قاعة الكتابة كافية. فهي لا توجد صدفة فوق المطابخ، التي تدفع اليها بحرارة كافية، كما أن مدخنتي الفرنين الموجودين في الأسفل تمرّان داخل العمودين اللذين يحملان السُّلَّمين الحلزونيين الموجودين في البرج الغربي والبرج الجنوبي. أما البرج الشمالي، في الجهة المعاكسة للقاعة الكبيرة، فلم يكن به سُلّم بل مدفأة كبيرة تتّقد ناشرة دفئاً لذيذاً. علاوة عن ذلك كانت الأرضية مغطاة بالتبن، مما جعل وقع أقدامنا دون ضجّة. بإيجاز، كان الركن الأقل دفئاً ذلك الموجود في البرج الشرقي. وفعلاً، بما أن المقاعد الشاغرة كانت أوفر من عدد الرُّهبان العاملين هناك، لاحظت أنهم كانوا كلهم يتفادون الطاولات الموضوعة في تلك الناحية. وعندما تبين لي من بعد أن السُّلّم الحلزوني الموجود في البرج الشرقي هو الوحيد الذي يقود، إضافة إلى الأسفل أي إلى قاعة الأكل، إلى الأعلى أيضاً أي إلى المكتبة، تساءلت إن لم يخطّط حساب ذكي تدفئة القاعة، بحيث يعرض الرُّهبان عن التطفّل في تلك الناحية وتصبح مراقبة الدخول إلى المكتبة أسهل بالنسبة إلى حافظ المكتبة. ولكنني قد أكون غاليت في ظنوني، محاكياً في ذلك، كالقرد الساذج، أستاذي إذ فكرت في الحال أن ذلك الحساب لن يعطي نتائجه في الصيف ـ (وقلت في نفسي) ـ إلا إذا كان ذلك الجانب في الصيف معرضاً أكثر للشمس وإذن يبتعد عنه الجميع مرة أخرى.

Twitter: @ketab_n

كانت طاولة فينانتسيو المسكين تدير ظهرها إلى المدفأة الكبيرة، ومن المحتمل أن تكون من بين الأماكن المرغوب فيها أكثر. وكنت قد قضيت في ذلك الوقت جزءاً يسيراً من حياتي في قاعة كتابة، ولكنني فيما بعد قضيت فيها جانباً كبيراً منها، وأعرف الآلام التي يحسّها الناسخ، أو المفهرس أو الباحث عندما يقضي على طاولته الساعات الشتائية الطويلة فتنكمش أصابعه على المرقم (مع الاعتبار أنه بعد ستّ ساعات وفي حرارة عادية، يَأخذ الأصابع عقال الراهب الأليم ويصيب الإبهام وجع وكأن أحداً داسه) وهذا يفسّر لماذا نجد في كثير من الأحيان على حاشية المخطوطات جملاً تركها الكاتب كشهادة على شدة احتماله (أو عدم احتماله) منها مثلاً «الحمد للّه أن بعد قليل سينزل الليل»، أو «آه لو كان لديَّ كأس من الخمر!» وأيضاً «الطقس بارد اليوم، والنُّور باهت، وهذا الجلد كلّه شعر، ليست الأمور كما ينبغي» وكما يقول مثل قديم، ثلاثة أصابع تمسك بالقلم، ولكن الجسم كله يعمل. ويتألم.

ولكنني كنت أتحدث عن طاولة فينانتسيو. كانت أصغر من الطاولات الأخرى، مماثلة لتلك الموضوعة حول الفسحة المثمنة الزوايا، معدّة للباحثين، بينما الطاولات الموضوعة تحت نوافذ الجدران الخارجية كانت أكبر ومعدّة للمنمنمين وللناسخين وكان فينانتسيو مع ذلك يستعمل المقرأ إذ من المحتمل أنه كان يطالع المخطوطات المُعارة للدير والتي ينقل منها نسخه. وتوجد تحت الطاولة رفوف قليلة الارتفاع تراكمت عليها أوراق غير مجلّدة، وبما أنها كانت كلها باللاتينية استنتجت أنها ترجماته الأخيرة. كانت مخطوطة بخط متسرّع ولا تكوّن صفحات كتاب بل كان ينبغي أن تعهد من بعد إلى الناسخ والى المُنمنِم. لذا كانت قراءتها صعبة. وكانت بين الأوراق بعض الكتب اليونانية، وكتاب آخر باليونانية كان مفتوحاً على المقرأ، وهو الكتاب الذي كان فينانتسيو في الأيام السابقة يقوم بترجمته. لم أكن أعرف بعد اليونانية ولكن أستاذي قال لي إن المؤلف يدعَى لوتشيانو وتروي القصة حكاية رجل تحوّل إلى حمار. فتذكرت عندئذ خُرافة مماثلة لأبوليو يُنصح المبتدئون بصرامة بعدم قراءتها. فسأل غوليالمو برينغاريو الذي كان بجانبنا:

ـ «ما الذي حمل فينانتسيو على هذه الترجمة؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «لقد طلبها من الدير سيد ميلانو مقابل حق الشفعة على إنتاج الخمر في بعض الأراضي الموجودة نحو الشرق»، وأشار بيده بعيداً. ولكنه لم يلبث أن أضاف: «لا يعني أن الدير يقوم بخدمات لصالح المدنيين بمقابل، ولكن المتعهّد عمل بكل جهده لاستعارة المخطوط اليوناني للدير من دوق البندقية الذي حصل عليه من إمبراطور بيزنطة. وعندما يكون فينانتسيو قد أنهى شغله تُصنع منه نسختان، واحدة للمتعهد والأخرى لمكتبتنا».

فقال غوليالمو: «أنت لا ترى مانعاً إذن من جمع مثل هذه الخُرافات الوثنية»، فجاء عندئذ صوت من خلفنا يقول «إن المكتبة شاهد على الحقيقة وعلى الخطأ».

كان يورج، ومرة أخرى أذهلني (ولكن كان عليَّ أن أذهل مرات عديدة أخرى في الأيام الموالية) للطريقة الفُجائية التي كان يظهر بها ذلك الشيخ، وكأنه يرانا ولا نراه. وتساءلت أيضاً ماذا كان يفعل ضرير في قاعة الكتابة، ولكنني تفطّنت من بعد أن يورج كان دائماً حاضراً في كل مكان من الدير. وفي الغالب يبقى في قاعة الكتابة، جالساً فوق كرسي قرب المدفأة، ويبدو أنه يتابع كل ما يقع في القاعة. ذات مرة سمعته يسأل من مكانه بصوت مرتفع: «من الصاعد؟» متوجهاً بالكلام إلى مَلاخي، الذي كان مُتَّجهاً، بِخُطَى خفّف التبن من وقعها، نحو المكتبة. وكان كل الرُّهبان يجلّونه كثيراً وغالباً ما يستعينون به في فهم الفقرات الصعبة. يستشيرونه في التأويل، مستنيرين برأيه في كيفية رسم حيوان أو قديس. وينظر في الفراغ بعينيه المظلمتين، وكأنه يحدق في صفحات بقيت حيّة في ذاكرته، ثم يجيب بأن الرسل الكاذبين لهم مثل لِباس الأساقفة بينما تخرج من أفواههم ضفادع، أو يذكر الأحجار التي ينبغي أن تزخرف بها أسوار القدس السماوية، أو يقول إنه ينبغي رسم قبيلة الأرسمابيين المتوحشين على الخريطة قرب أرض الكاهن جياني ـ ناصحاً بعدم المبالغة في تزويق قبحهم ـ وأنه يكفي أن يكون رسمهم رمزياً، يمكن معه التعرف عليهم دون تشويق أو نفور يصل إلى الإضحاك.

وقد سمعته مرة ينصح أحد الشارحين بالكيفية التي يجب أن يحلل بها «la recapitulatio» في نصوص تيكونيو بحسب تفكير القديس أغوسطينو، حتى يتفادى

Twitter: @ketab_n

الهرطقة الدوناتية. ومرة أخرى سمعته يعطي نصائح حول كيفية التمييز، عند الشرح، بين الهراطقة والمنشقّين. أو يدل أحد الباحثين المحتارين على الكتاب الذي ينبغي أن يبحث عنه في قوائم المكتبة، وعلى التقريب في أية ورقة سيجده، مؤكداً له أن حافظ المكتبة سيسلمه إياه دون شك، لأنه عمل مُسْتَوحى من الإله. أخيراً، سمعته مرة يقول عن كتاب، أن لا فائدة في البحث عنه، ولو أنه موجود فعلاً في القائمة، ولكن الفئران قد أتلفته منذ خمسين سنة، والآن ما إن تمسّه أصابع اليد حتى يتحول إلى غبار. لقد كان باختصار ذاكرة المكتبة نفسها وروح قاعة الكتابة. وكان في بعض الأحيان يحذر الرُّهبان عندما يسمعهم يتحادثون «سارعوا بترك بيّنة على الحقيقة، لأن الآجال قريبة!» وكان يلمّح إلى مجيء المسيح الدجّال.

قال يورج إذن: «إن المكتبة شاهد على الحقيقة وعلى الخطأ» فقال غوليالمو: «أكيد أن أبوليو ولوتشيانو مُذْنبان، إذ ارتكبا الكثير من الأخطاء. ولكن هذه الخُرافة تخفي تحت غشاء أحداثها الخيالية موعظة كبيرة، لأنها تعلّم كم يُدفع ثمن الأخطاء غالياً. وعلاوة على ذلك، أظن أن قصة الإنسان الذي يتحول إلى حمار ترمز إلى تحول الروح التي تقع في الخطيئة».

فقال يورج: «قد يكون».

«ولكنني فهمت الآن لماذا كان فينانتسيو أثناء المناقشة التي حدثني عنها بالأمس يبدي اهتماماً كبيراً بمسائل الملهاة. فعلاً. الخرافات من هذا النوع أيضاً يمكن أن تعادل هزليّات القدامى. فجميعها تحكي عن أشخاص لا يوجدون في الحقيقة، كما هو الشأن في المأساة ولكن، كما يقول إزيدورو، هي خيال، فقد استمد الشعراء اسم "favolo" من فعل "fando" لأنه لا يعني أشياء وقعت حقيقة بل صنعها الخيال».

في البداية لم أفهم لماذا تَوَغّل غوليالمو في تلك المجادلة العلمية، ومع رجل يبدو أنه كان لا يُحَبِّذ مثل تلك المواضيع، ولكن جواب يورج أظهر لي كم كان أستاذي دقيقاً، إذ قال يورج عابساً: «لم نتناقش ذلك اليوم حول الملهاة بل

Twitter: @ketab_n

فقط حول إباحة الضحك». بينما كنت أتذكر جيداً أنّ فينانتسيو عندما أشار إلى تلك المناقشة، وكان ذلك بالأمس، أكد يورج أنه لم يعد يتذكرها.

فقال غوليالمو دون مبالاة: «آه، كنت أظن أنكم تحدثتم عن أكاذيب الشعراء وعن الأحاجي الثقافية..».

فقال يورج بجفاء: «لقد تحدثنا عن الضحك. إن الهزليات كتبها الوثنيون لحمل المتفرجين على الضحك، ولم يعملوا صالحاً. إن يسوع سيّدنا لم يقصّ قط هزليات أو خُرافات، وإنما كان يعطي الأمثال الشفافة المعنى ليعلّمنا من خلال استعاراتها كيف نستحق الفردوس، وليكن كذلك. آمين».

فقال غوليالمو: «إنني أتساءل لماذا تعارض بهذا الشكل فكرة أن المسيح ضحك في يومٍ ما. إنني أظن أن الضحك دواء نافع، كالحَمّامات، لمداواة المزاج وأمراض الجسمِ الأخرى، خاصة منها الكآبة».

فقال يورج: «الحَمّامات شيء نافع، والأكويني نفسه ينصح بها لإبعاد الحزن، الذي قد يصبح هوساً مؤذياً إن لم يكن سبَبَه كرب يمكن التخلص منه عن طريق الجسارة. الضحك يزعزع الجسم، ويشوه ملامح الوجه ويجعل الإنسان شبيهاً بالقردة».

فقال غوليالمو: «القردة لا تضحك، إن الضحك من خاصيات الإنسان، وهو دليل على عقلانيته».

ـ «الكلام أيضاً من دلائل العقلانية الإنسانية، وبواسطة الكلام يمكن التجديف. ما كل ما هو من خصائص الإنسان يكون بالضرورة نافعاً. الضحك دليل على البلاهة. من يضحك لا يؤمن بالشيء الذي أضحكه ولكنه مع ذلك لا يبغضه. فالضحك من الشرّ يدلّ إذن على عدم الاستعداد لمكافحته، والضحك من الخير يدل على نكران القوة التي بفضلها ينشر الخير منافعه. ولذا تقول القاعدة «إن الدرجة العاشرة في التواضع تكمن في عدم الاستسلام بسهولة للضحك، وفعلاً قد كُتب: إن «الغبيّ يريد بضحكه أن يُعجب الآخرون بصوته».

فقاطعه أستاذي قائلاً: «يقول كنتيليانو إن الضحك غير مقبول في خطب

Twitter: @ketab_n

المدح، لإضفاء الوقار، ولكنه مشجع في عدة حالات أخرى. وينوّه تاسيتو بسخرية كالبورنيو بيزوني، بينما كتب بلينيو الشاب يقول «في الحقيقة أضحك أحياناً وأمزح وألعب، فأحس بنفسي إنساناً...».

فردّ يورج قائلاً «كانوا وثنيين، فالقاعدة تقول «في الحقيقة المزاح والكلمات الخاوية والجمل التي تبعث على الضحك محجّرة أينما كانت تحجيراً أبدياً، ولا يُسمح لمريد أن يتلفظ بمثل تلك الأحاديث».

- «ولكن حتى بعدما انتشرت كلمة المسيح على الأرض يقول سينيزيو دي تشيريني إن الإلٰه عرف كيف يمزج الهزلي بالمأساوي، ويقول سبارزيانو عن الإمبراطور أدريانو، الذي كان رجلاً ذا أخلاق عالية وروح بطبيعتها مسيحية، إنه عرف كيف يمزج لحظات الفرح بلحظات الجدّ. وأخيراً ينصح أوزونيو بالاعتدال في مزج الجدّ بالهزل».

- «ولكن باولينو دانولا وكليمنتس دي أليساندريا يحذراننا من تلك البلاهات، ويقول سولبيتشيو سيفيرو إن القديس مارتينو لم يرَه أحد قط فريسة للغضب ولا فريسة للضحك».

فقال غوليالمو: «ولكنه يذكر للقديس نفسه بعض الأجوبة المفعمة بالظّرَافة».

- «كانت أجوبة في محلها وعميقة المعاني، ولم تكن سخيفة. وقد كتب القديس أفراييم يحث الرُّهبان على الامتناع عن الضحك، وفي كتابه **سلوك الرُّهبان وعاداتهم** ينصح بتفادي البذاءة والاحتداد إذ هما كسمّ الأصلال!»

- «ولكن إلدِبيرتو قال «يُسمح بالمزاح بعد الأمور الجدية، إلا أنه ينبغي توخي طرق مهذبة»، بينما سمح جيوفاني دي سالِسبوري بشيء من الحبور. وأخيراً في الكتاب الرابع من العهد القديم، الذي أُخذت منه الفقرة التي تنصها قاعدتكم، يقرّ سليمان بالضحك الصامت، ضحك النفس المطمئنة».

- «لا تطمئن النفس إلاّ عندما تتأمل في الحقيقة وتستمتع بالخير الذي فعلته،

Twitter: @ketab_n

ولا ينبغي أن نضحك من الحقيقة والخير. ولذا لم يكن المسيح يضحك. فالضحك دافع إلى الشك».

ـ «ولكنه من الصواب أحياناً أن يشك الإنسان».

ـ «لا أرى داعياً لذلك. عند الشك يجب الرجوع إلى ذوي المعرفة، إلى كلمات أب أو عالم، وتنتهي كل دواعي الشك. إنك تبدو لي متشبعاً بأفكار قابلة للجدال، كأفكار منطقيي باريس. ولكن القديس برناردو عرف كيف يتدخل ضد ذلك المخصي أبيلاردو الذي كان يريد إخضاع كل المسائل إلى فحص قاسٍ لا حياة فيه، امتحان عقل لا تنيره الكتب المقدسة، جاهراً بأحكامه: كذا وليس كذا. أكيد أن من يقرّ بهذه الأفكار الخطرة يمكن أيضاً أن تعجبه لعبة الغبي الذي يضحك ممّا ينبغي عليه معرفة حقيقته الوحيدة، والتي قيلت وستقال مرّة واحدة إلى الأزل. وهكذا بضحكه يقول الغبي بصفة ضمنية «الربّ غير موجود».

ـ «يورج الجليل، إنك تبدو لي غير منصف عندما تنعت أبيلاردو بمخصي، أنت تعلم أنه وصل إلى تلك الوضعية التعيسة من جراء خبث الآخرين...»

ـ «للخطايا التي ارتكبها. لغرور إيمانه بعقل الإنسان. وهكذا سخروا من إيمان الناس البُسَطاء، واستبطنوا أسرار الإله (أو حاولوا، أغبياء أولئك الذين سعوا إلى ذلك) ودرسوا بجسارة مسائل تخص الأشياء السامية، ساخرين من الآباء لأنهم رأوا أن مثل تلك المسائل ينبغي تركها مغلقة وهو خيرٌ من حلّها».

ـ «إني لا أوافقك على ذلك، يا يورج الجليل، فاللّه يريدنا أن نتدبّر بعقولنا العديد من الأشياء التي تركها الكتاب المقدس لحرية اختيارنا. وعندما يدعونا أحد إلى الإيمان بفكرة ينبغي علينا أولاً أن ننظر إن كانت مقبولة. لأن اللّه خلق لنا الفكر وما يستحسنه فكرنا لا يُمكن أن لا يستحسنه الفكر الإلٰهي، الذي لا نعرف عنه إلاّ ما نستنتجه، بقياس التمثيل وغالباً بالنفي، من مناهجنا الفكرية. ولذا ترى أنه في بعض الأحيان، لدحض القيمة الزائفة لفكرة منافية للعقل، حتى الضحك يمكن أن يكون أداة صالحة. غالباً ما يصلح الضحك لادخال البلبلة على السفلاء ولإظهار غباوتهم، يُحكىَ عن القديس ماورو أنه، لما وضعه الوثنيون في الماء

Twitter: @ketab_n

الساخن لتعذيبه، اشتكى أن الحَمّام كان بارداً، فوضع الوالي الوثني يده بغباوة ليتعرّف بنفسه، فاحترق. وحسناً فعل ذلك القدّيس الشهيد الذي سخر بتلك الصفة من أعداء الدين».

فقال يورج بضحكة استهزاء: «حتى في الحكايات التي يقصها المبشرون نجد الكثير من النوادر. إن القديس الذي يلقى العذاب في الماء الساخن، يتألم من أجل المسيح، ولا يلعب أدواراً سخيفة للوثنيين».

فقال غوليالمو: «أرأيت؟ إن هذه الحكاية تبدو لك منافية للعقل وتتّهمها بالسخافة! ومع ذلك أنت تضحك من شيء حتى وإن كنت صامتاً ومراقباً حركة شفتيك وتريدني أنا أيضاً أن لا أعتبره جاداً. اضحك من الضحك، ولكن اضحك».

فقام يورج بحركة ضيق وقال: «بتلاعبك حول الضحك تجرّني إلى أحاديث فارغة. ولكنك تعلم أن المسيح لم يكن يضحك».

ـ لست واثقاً من ذلك. عندما كان يدعو الفريسيين إلى رمي الحجارة الأولى، وعندما كان يسأل لمن الصورة على قطعة النقود التي تدفع كضريبة، أو عندما كان يتلاعب بالألفاظ ويقول: «Tu es petrus» فأنا أظن أنه كان يقول أشياء فِطْنة، لإدخال البلبلة على عقول الآثمين ولتشجيع أصحابه. ويتحدث أيضاً بفِطْنة عندما يقول لقيافا «لقد قلت أنت ذلك»، وعندما يشرح جيرولامو كتاب إرميا، حيث يقول الرب للقدس «لقد عرّيت فخذيك وعَجُزك أمامك» ويفسر ذلك بقوله «سأعري فخذيك وأظهر عجيزتك».

الربّ أيضاً يخاطب عن طريق التلاعب بالألفاظ لإدخال البلبلة على أولئك الذين يريد عقابهم. وأنت تعلم أنه في أوج الصراع بين الكلونيين والشيستارشنسيين، اتهم الأوّلون الثانين، للسخرية منهم، بعدم لبس السراويل. ويحكى في كتاب **مرآة الحمقى** عن الحمار برونيلّو الذي تساءل ماذا يحدث لو رفع الريح الغطاء في الليل ورأى الراهب عورته...»

فضحك الرُّهبان من حولنا بينما احتدّ غضب يورج الذي قال: «إنك تجرّني ورفاقي الرُّهبان إلى حفل المجانين. إني أعلم أن الفرانشسكانيّين اعتادوا استعمال

Twitter: @ketab_n

بلاهات من هذا النوع لكسب ودّ الجماهير. ولكنني أقول لك عن هذه الألعاب السخيفة ما يقوله مقطع سمعته عن أحد مبشريكم: «لقد أخرج دبرك صوتاً فظيعاً».

كان التأنيب على شيء من الحدّة. صحيح أن غوليالمو كان نوعاً ما وقحاً، ولكن يورج يتّهمه الآن بإصدار الضراط من فمه. وتساءلت إن لم يكن ذلك الردّ الصارم يعني الدعوة، من طرف الراهب الشيخ، للخروج من قاعة الكتابة. ولكنني رأيت غوليالمو، الذي كان منذ قليل متحمّساً للجدال، يصبح على غاية الوداعة قائلاً:

ـ «إني أعتذر إليك، يورج الجليل، لقد خان فمي أفكاري. لم أكن أريد الوصول إلى عدم الاحترام تجاهك. قد تكون أنت على صواب وأنا المخطىء».

تجاه ذلك التواضع البديع، أصدر يورج همهمة قد تكون تَنِمُّ عن الرضى أو العفو، ولم يجد من عمل إلاّ العودة إلى مكانه، بينما أخذ الرُّهبان، الذين كانوا قد اقتربوا شيئاً فشيئاً أثناء المناقشة، في الرجوع إلى طاولات عملهم. وانحنى غوليالمو من جديد على طاولة فينانتسيو ليتابع البحث بين الأوراق. بإجابته المتواضعة ربح غوليالمو بعض الثواني من الهدوء، وما رآه أثناء تلك الثواني القليلة أوحى إليه بأبحاث الليلة المقبلة.

كانت فعلاً بضع ثوانٍ، إذ اقترب منا بانشيو بدعوى أنه نسي مرقمه فوق الطاولة عندما التحق بنا للاستماع إلى الحوار مع يورج، وهمس إلى غوليالمو أنه يرغب في التحدُّث إليه في أقرب وقت، ضارباً موعداً وراء قاعات الاستحمام، على أن يبتعد هو أولاً وسيلحق به بعد قليل.

فتردد غوليالمو لحظات ثم نادى مَلاخي، الذي تابع كل ما جرى دون أن يترك طاولته قرب الفهرس، وترجّاه، بصفته مكلفاً بمهمة من طرف رئيس الدير (مؤكداً كثيراً على ذلك الامتياز) أن يضع أحداً لحراسة طاولة فينانتسيو، لأنه يرى أنه من الصالح لأبحاثه أن لا يقترب منها أحد طوال ذلك اليوم، إلى أن تتسنى له العودة إليها. وقال ذلك بصوت مرتفع، حتى لا يُلزِم فقط مَلاخي بمراقبة الرُّهبان

Twitter: @ketab_n

ولكن ليُلزِم أيضاً الرُّهبان أنفسهم بمراقبة مَلاخي. ولم يجد حافظ المكتبة بدّاً من الموافقة، فابتعدنا عندئذ أنا وغوليالمو.

وبينما كنا نعبر المبقلة مقتربين من قاعات الاستحمام، الموجودة خلف مبنى المستشفى، قال غوليالمو ملاحظاً:

ـ «يبدو أن الكثيرين هنا لا يريدوننا أن نعثر على شيء يوجد فوق أو تحت طاولة فينانتسيو»

ـ «وماذا يكون ذلك الشيء؟»

ـ «يبدو لي أنه حتى الذي لا يعجبه ذلك ليس له به علم».

ـ «إذن بانشيو يريد فقط إبعادنا عن قاعة الكتابة، وليس لديه شيء يريد قوله؟»

فقال غوليالمو: «هذا ما سنعرفه حالاً».

وفعلاً، بعد قليل التحق بنا بانشيو.

Twitter: @ketab_n

اليوم الثّاني: سَادسة

وفيه يروي بانشيو قصة غريبة تتكشف من خلالها أشياء مزرية تخصّ حياة الدير

ما قاله بانشيو كان غامضاً نوعاً ما. يبدو حقاً أن غايته من ذلك كانت إبعادنا عن قاعة الكتابة لا غير. ومع أن أقواله كانت لا تبرّر ذلك الحرص على التحادث مع غوليالمو على انفراد فقد كشف أطرافاً من حقيقة أوسع كان يعرفها.

قال لنا إنه، في الصباح، كان ممتنعاً شيئاً ما، ولكنه الآن، بعد تفكير عميق، رأى أن من واجبه أن يُطلع غوليالمو على كل الحقيقة. خلال تلك المناقشة «المشهورة» حول الضحك، لمّح برينغاريو إلى «finis Africae» ماذا يكون؟ كانت المكتبة مليئة بالأسرار، وخاصة بكتب لم تُسلّم قط للرُّهبان لقراءتها. وقد أثّرت على بانشيو كلمات غوليالمو حول الامتحان العقلاني للقضايا. فهو يرى أن الراهب الدارس له الحق في معرفة كل ما تحفظه المكتبة، وقال كلمات ملتهبة ضدّ مجمع سواسون الذي أدان أبيلاردو. وبينما كان يتحدث تَبَيَّن لنا أن ذلك الراهب الذي مازال شاباً والذي يسلّي فكره بدراسة البلاغة، كانت تأخذه الرغبة الاستقلالية، ويصعب عليه قبول القيود التي تفرضها قواعد الدير على حبّ اطلاعه. لقد تعلّمت دائماً أن لا أثق بهذا النوع من حبّ المعرفة ولكنني أعرف جيداً أن أستاذي كان يحبّذ ذلك السلوك، ولاحظت أنه يتعاطف مع بانشيو ويثق بأقواله. باختصار، قال بانشيو إنه لا يعرف ما هي الأسرار التي تحادث في شأنها أدالمو وفينانتسيو وبرينغاريو، وإنه سيكون سعيداً لو سلّط غوليالمو النُور من خلال تحقيقه في تلك القضية المحزنة على أساليب تسيير المكتبة، وإنه يرجو أن يستمدّ منها أستاذي، مهما كانت الوسائل المستعملة لفكّ عقدة القضية، عناصر لتحريض

Twitter: @ketab_n

رئيس الدير على التخفيف من حدّة المراقبة الفكرية التي تثقل كاهل الرُّهبان الذين جاؤوا من أماكن نائية، كما جاء هو، قصد تغذية عقولهم بالكنوز التي تحفظها المكتبة في أرجائها الفسيحة.

وأظن أن بانشيو كان صادقاً بخصوص الأشياء التي قال إنه ينتظرها من التحقيق. ولكن من المحتمل أنه كان يريد في الوقت نفسه، كما توقّع غوليالمو، أن يدّخر لنفسه فرصة التفتيش في طاولة فينانتسيو قبل أي شخص آخر، إذ كان الفضول يلتهمه وكان مستعدّاً، كي يبقينا بعيداً عنها أن يعطينا مقابل ذلك معلومات أخرى هي الآتية:

كان برينغاريو، والعديد من الرُّهبان يعلم ذلك الآن، فريسة عاطفة جنونية نحو أدالمو، العاطفة المشؤومة نفسها التي عاقبها غضب الإله في سَدُوم وعَمُورة. هكذا كان تعبير بانشيو، ربّما لصغر سني. ولكن من عاش سن مراهقته في دير يعرف، حتى وإن احتفظ بعفّته، إنه سمع بمثل تلك الميول، وفي بعض الأحيان كان عليه أن يحترس من إغواء من كان عبداً لها. ألم أتلقّ، عندما كنت راهباً صغيراً، في «مالك»، من طرف راهب كبير السن ورقات عليها أبيات يهديها في العادة من هو غير راهب إلى امرأة؟ فالنذر الرُّهباني يحفظنا بعيداً عن بؤرة الرذائل التي هي جسد المرأة، ولكنه غالباً ما يحملنا قريباً جداً من زلاّت أخرى. وأخيراً، هل يمكنني أن أخفي عن نفسي أن شيخوختي نفسها يثيرها إلى الآن شيطان الظهيرة عندما يتوانى نظري، في الخورس، على وجه مبتدىء أمرد، صافٍ وغضّ كأنه طفلة؟

أقول هذه الأشياء، لا لأدخل الشكّ على الاختيار الذي اتبعته بتكريس نفسي للحياة الرُّهبانية، ولكن لأبرّر زلاّت الكثيرين من الذين ثَقُل على كاهلهم هذا الحمل المقدّس. وقد يكون لتبرير جُرْم برينغاريو الفظيع. ولكن يظهر، بحسب بانشيو؛ أن هذا الراهب كان يمارس رذيلته بطريقة أكثر خساسة، مستعملاً سلاح المساومة للحصول من الآخرين على ما لا تنصح العفة والسمعة بإعطائه.

كان الرُّهبان إذن يتهكّمون منذ مدة من النظرات الرقيقة التي كان برينغاريو

Twitter: @ketab_n

يلقيها على أدالمو، الذي يبدو أنه كان كثير الملاحة، بينما كان أدالمو مغرماً جدّاً بعمله ولا يجد متعة في سواه، فكان لا يهتم كثيراً بشغف برينغاريو به. ولكن من المحتمل، من يدري، أنه لم يتفطّن إلى أنه في قرارة نفسه كان يميل إلى الرذيلة نفسها. على كلّ، قال بانشيو إنه فاجأ حواراً بين أدالمو وبرينغاريو يشير فيه برينغاريو إلى سرٍّ كان أدالمو يرغب في معرفته ويعرض عليه تلك المساومة الخسيسة التي يمكن أن يتخيلها أبسط قارىء. ويظهر أن بانشيو سمع من شفتي أدالمو كلمات موافقة، قالها بنبرة تكاد تعبر عن الارتياح، وتجرأ بانشيو على القول بأن أدالمو ربّما كان لا يريد في نهاية الأمر إلا ذلك، وأنه كان يكفيه أن يجد عذراً غير الشهوة الجنسية للموافقة. وأضاف بانشيو مستنتجاً من ذلك دليلاً على أن سرَّ برينغاريو كان يخصّ أشياء العلم الغامضة، بحيث يمكن لأدالمو أن يتوهّم أنه يُقبِل على خطيئة الجنس لإرضاء رغبة الفكر. وأضاف بانشيو بابتسامة قائلاً إنه كم من مرّة كانت رغبات الفكر تهيجه بحدّة تجعله قد يقبل لإشباعها، إرضاء شهوة الآخرين الجنسية ولو ضدّ شهوته هو.

ثم سأل غوليالمو: «أليست هناك حالات قد تقوم فيها بأشياء جديرة باللوم لو أتيح لك أن تحصل على كتاب تبحث عنه منذ سنين؟» فأجاب غوليالمو: «إن الحكيم والطاهر سيلفاسترو الثاني، قبل الآن بقرون، أهدى لأحدهم محلّقة ثمينة جداً مقابل الحصول على مخطوط، أظنه، لستاتسيو أو للوكانو ـ ثم أضاف بحذر: ولكنها كانت محلّقة، لا عفّته».

ووافقه بانشيو قائلاً إن حماسه قد جرّه بعيداً، ثم تابع القصة. في الليلة التي سبقت موت أدالمو، تبع الاثنين، يحدوه في ذلك الفضول. ورآهما يتجهان بعد صلاة النوم نحو قاعة النوم. وانتظر طويلاً تاركاً باب حجرته مفتوحاً، ولم تكن بعيدة عن حجرتيهما، ورأى بوضوح أدالمو، عندما خيّم الصّمت على نوم الرُّهبان، وهو يتسلل إلى حجرة برينغاريو. وبقي ساهراً، دون أن يأخذه النوم إلى أن سمع باب حجرة برينغاريو يُفتح، وأدالمو يخرج منها وهو يكاد يجري، بينما صديقه يحاول الإمساك به. ثم تبع برينغاريو أدالمو الذي نزل إلى الطابق السفلي. وتبعهما بانشيو بحذر وعند مدخل الرواق السفلي رأى برينغاريو مختبئاً في ركن

Twitter: @ketab_n

وهو يرتعد بينما كان يحدق في باب حجرة يورج. لقد أدرك أن أدالمو رمى بنفسه عند قدمي أخيه الراهب الشيخ ليعترف له بخطيئته. وكان برينغاريو يرتعد بكل فرائصه لعلمه أن سرّه قد أُفشي، حتى ولو كان في كنف سريّة الاعتراف.

ثم خرج أدالمو شاحب الوجه، وأبعد عن نفسه برينغاريو الذي كان يحاول التحدث إليه، وهرع خارج قاعة النوم، طائفاً بصدر الكنيسة ثم دخل إلى الخورس من الباب الشمالي (الذي يبقى دائماً مفتوحاً أثناء الليل). ومن المحتمل أنه كان يريد أن يصلي. وتبعه برينغاريو، ولكن دون الدخول إلى الكنيسة، وبقي يطوف بين القبور وهو يفرك يديه من القلق.

لم يكن بانشيو يعرف ماذا كان يجب أن يفعل عندما تفطّن إلى وجود شخص رابع يتحرك قريباً من هناك، وقد تبع هو أيضاً الاثنين ومن المؤكد أنه لم ينتبه إلى وجود بانشيو، الذي كان واقفاً وراء جذع شجرة بلّوط مزروعة على حدود المقبرة. كان فينانتسيو. وعندما رآه برينغاريو اختبأ بين القبور ودخل فينانتسيو هو الآخر إلى الخورس. وعندها عاد بانشيو إلى قاعة النوم، خوفاً من أن يكتشفه أحد. وفي الصباح عثر الرُّعاة على جثة أدالمو في سفح الهاوية. ولم يكن بانشيو يعرف أكثر من ذلك.

كانت ساعة العشاء قد اقتربت، فتركنا بانشيو وبقينا قليلاً من الوقت وراء قاعات الاستحمام، ثم تجولنا بضع دقائق في المبقلة، ونحن نفكّر في تلك المكاشفات الغريبة.

وفجأة قال غوليالمو «نَبْق» ـ وانحنى كي ينظر من قريب إلى نبتة، تعرّف على نوعها في ذلك اليوم الشتائي من خلال جذوعها ـ «إن نقيع القشرة نافع لمداواة البواسير. وتلك الأخرى تسمّى «شبيط قطبي» وكمّادة من جذوره الطازجة تدمل إكزيم الجلد».

فقلت له: «إنك أبرع من سيفيرينو. ولكنني أريد الآن أن أسمع رأيك في ما سمعناه».

«يا عزيزي أدسو، يجب أن تتعلّم كيف تستعمل عقلك للتفكير. قد يكون ما

Twitter: @ketab_n

قاله لنا بانشيو صحيحاً. فقصّته تتطابق مع قصة برينغاريو التي سمعناها في أول هذا الصباح وإن كانت تشوبها الهلوسة. حاول أن تعيد تركيب الحادثة: برينغاريو وأدالمو يقومان معا بشيء فظيع جداً، قد فهمنا ما هو، ومقابل ذلك يُطلع برينغاريو أدالمو على سرّ سيبقى، للأسف، سرّاً. وأدالمو، بعد ارتكابه جرماً ضدّ العفّة وضدّ قواعد الطبيعة، لا يفكر إلاّ في الائتمان لأحد يستطيع أن يمنحه الغفران، ويسرع إلى يورج، الذي له طبع صارم جداً، وقد تبيّن لنا ذلك. ومن المؤكد أنه عنّف أدالمو بشدّة، ولعلّه رفض منحه الغفران، أو ربّما فرض عليه القيام بتوبة مستحيلة، لا ندري. ولن يقوله لنا يورج أبداً. الأمر الحاصل هو أن أدالمو جرى إلى الكنيسة ليركع أمام المذبح، ولكنه لم يقدر على تهدئة شعوره بالذنب. عند ذلك اقترب منه فينانتسيو. لا نعرف الحديث الذي دار بينهما. قد يكون أدالمو أعلم فينانتسيو بالسرّ الذي حصل عليه كهدية (أو كمقابل) من طرف برينغاريو، والذي لم يعد يهمّه منه الآن شيء، إذ أصبح يملك سرّاً يروّعه ويحرقه أكثر. ماذا يحدث لفينانتسيو؟ من المحتمل أنه كان يحرّكه الفضول نفسه الذي يحرّك اليوم صديقنا بانشيو، ومكتفياً بما عرف، يترك أدالمو لتوبيخ ضميره. ويرى أدالمو نفسه وحيداً فيزمع على الانتحار، ويخرج يائساً إلى المقبرة، حيث يلاقي برينغاريو، ويقول له كلمات مروّعة، ويذكّره بمسؤوليته ويناديه أستاذه في الفحش. أظن أن قصة برينغاريو، مجردة من كل هلوسة، هي فعلاً صحيحة. فأدالمو يعيد عليه الكلمات اليائسة نفسها التي قد يكون سمعها من يورج. وهكذا يذهب برينغاريو مرتبكاً من ناحية وأدالمو يذهب لينتحر من الناحية الأخرى. ثم يأتي الباقي، الذي كدنا أن نكون شاهدين عليه. ويظن الجميع أن أدالمو مات مقتولاً، فيستنتج فينانتسيو من ذلك أن سرّ المكتبة أعظم ممّا كان يظنّ، فيتابع البحث وحده، إلى أن أوقفه أحدهم، قبل أو بعد أن اكتشف ما كان يريد».

ـ من يكون قتله؟ برينغاريو؟

ـ قد يكون، أو مَلاخي، الذي أوكلت إليه حراسة الصّرح. أو شخص آخر. يمكن الشكّ في برينغاريو لأنه مرتاع ولأنه يعرف أن فينانتسيو على علم بسرّه، ويمكن الشكّ في ملاَخي: فهو حارس حرمة المكتبة، وعندما يكتشف أن أحدهم

Twitter: @ketab_n

قد انتهكها يقتله. ويورج يعرف كل شيء عن كل واحد، ويملك سرّ أدالمو، ولا يريد أن أكتشف أنا ما يمكن أن يكون فينانتسيو قد وجده... الكثير من الوقائع تنصح بالارتياب فيه. ولكن قل لي أنت، كيف يقدر رجل أعمى على قتل رجل آخر في عنفوان قوّته، وكيف يمكن لشيخ، ولو صحيح البنية، أن يحمل الجثة ويضعها داخل الجرّة. ولكن في آخر الأمر، لماذا لا يكون القاتل بانشيو نفسه؟ يمكن أنْ يكون كذب علينا، وتحرّكه أهداف منكرة. ولماذا نحدّد المشبوه فيهم فقط من أولئك الذين شاركوا في الحوار حول الضحك؟ يمكن أن تكون للجريمة دوافع أخرى، لا دخل لها البتّة في المكتبة؟ على كلّ حال نحتاج لشيئين: أن نعرف طريقة الدخول إلى المكتبة أثناء الليل، وأن نحصل على سراج. بالنسبة إلى السراج عليك أنت به. طف بالمطبخ أثناء الأكل وخذ واحداً...

ـ سرقة؟

ـ استعارة، لعزّة اللّه ومجده.

ـ إذا كان الأمر هكذا، اترك ذلك لي.

ـ أحسنت. في ما يخص الدخول إلى الصرح، قد رأينا من أين أطلّ مَلاخي ليلة أمس. سأقوم اليوم بزيارة إلى الكنيسة وإلى ذلك المصلّى بالخصوص. في ظرف ساعة سنذهب إلى المائدة. بعد ذلك لدينا اجتماع مع رئيس الدير. وقد سُمح لك بالحضور، لأنني طلبت كاتباً يتولّى تدوين ما سنقوله.

Twitter: @ketab_n

اليوم الثاني: تاسعة

وفيه يبدو رئيس الدير فخوراً بما يمتلكه ديره من كنوز وخائفاً من الهراطقة، وأخيراً يتساءل أدسو إن لم يخطئ عندما ذهب للتجوّل عبر الدنيا

وجدنا رئيس الدير في الكنيسة أمام المذبح الكبير. كان يتابع أعمال عدد من المبتدئين قد أخرجوا من بعض الخبايا مجموعة من الأوعية المقدّسة، والكؤوس والصواني، والمصامد، وصليباً لم أكن قد رأيته خلال فرض الصباح. ولم أقدر على كتمان صيحة إعجاب أمام الجمال الذي تشعّ به تلك الأمتعة المقدسة. كنا في تمام منتصف النهار، وكان النُّور ينفذ متدفقاً من نوافذ المحراب، وخاصّة من نوافذ الواجهات، مكوّناً شلالات بيضاء، كأنها سيول روحانية من جوهر رباني، تصبّ كلها في نقاط مُختلفة من الكنيسة، غامرة المذبح نفسه.

وكانت الأوعية والكؤوس وغيرها من الأشياء تكشف عن مادتها: بين صفرة الذهب، وبياض العاج الناصع وشفافية البلّور رأيت الأحجار الثمينة من كل حجم تشعّ بمُختلف الألوان، وتعرّفت من بينها على الياقوت الزعفراني، والزمرد الأصفر، والياقوت الأحمر، واللازورد، والزمرّد، والزبرجد، والجزع، والكهرمان، واليشب، والعقيق اليماني. وفي الوقت نفسه تفطّنت إلى شيء لم ألاحظه في الصباح، لما كنت عليه من الانخطاف أثناء الصلاة ثم من الاضطراب والفزع: كان ستار المذبح والثنايا الثلاث التي تحيط به كالتاج من الذهب الخالص، وأخيراً كان المذبح كلّه يبدو من ذهب من أيّ جهة نظرت إليه.

وابتسم رئيس الدير من ذهولي، وقال متلفتاً إليّ وإلى أستاذي: «إن هذه النفائس التي ترونها، وأخرى سترونها فيما بعد، هي تراث تركته قرون من التقوى والعبادة، وهي شاهد على هيبة هذا الدير وقداسته. أمراء وعظماء من كل أطراف

Twitter: @ketab_n

الدنيا، رؤساء أساقفة ضحّوا لهذا المذبح وللأشياء التابعة له بخواتم مناصبهم وبالذهب والأحجار التي تدلّ على عظمتهم، وأرادوها هنا لتذوّب من جديد تعظيماً لمجد الإله ولبيته هذا. فبالرغم من أن الدير شهد اليوم حدثاً آخر محزناً، لا يمكننا أن ننسى، أمام ضعفنا، قوة العليّ وجلاله. فالاحتفالات بالمولد المقدس تقترب، وبدأنا في تنظيف الأشياء المقدسة، حتى نحتفل بمولد المخلّص بكل الأبهة والفخامة التي يستحقها ويريدها. ينبغي أن يظهر كلّ شيء في تمام روعته..». ـ ثم أضاف محدقاً في غوليالمو، وفهمت لماذا يلحّ بذلك الزهو على تبرير عمله ـ «لأننا نظن أنه من النافع واللائق أن لا نخفي الهِبات التقديسية، بل بالعكس، أن نعلنها جهراً».

فقال غوليالمو بأدب: «أكيد، إذا كان سموّكم يرى أنه ينبغي أن يمجّد الإله بهذه الأبهة، فقد شارك ديركم في حمده بأبّهة لا يقدر عليها غيركم».

فقال رئيس الدير: «وهكذا يجب أن يكون. فإن كانت الجرار والقناني والمهارس الذهبية تستعمل بإرادة الإله أو بأمر من الأنبياء لتلقّي دم الماعز أو العجل أو البقرة في هيكل سليمان، فينبغي إذن أن نعدّ الأوعية الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة، وكل ما هو نفيس من بين الأشياء التي خُلقت، كي نستعملها بإجلال دائم وخشوع خالص لتلقّي دم المسيح! فلو خلقنا ثانية من مادّة تكون المادة نفسها التي خلقت منها الملائكة والساروفيمون لبقينا دائماً غير جديرين بخدمة ضحية لا يقدر اللسان على وصف عظمتها..»..

فقلت: «آمين»،

ـ «يعترض الكثيرون بقولهم إن عقلاً ملهماً بالقداسة، وإن قلباً صافياً ونية مفعمة بالإيمان تكفي لأداء هذا الفرض المقدس. ونحن أول من يؤكد بوضوح وثبات أن ذلك أمر أساسي: ولكننا مقتنعون أن التكريم ينبغي أن يكون أيضاً من خلال الزخرف الخارجي للأشياء المقدسة، إذ في نهاية الأمر، يكون من العدل واللائق أن نخدم مخلّصنا في كل شيء، بكمال، لأنه، هو لم يرفض أن يعنى بنا في كل شيء بكمال وبدون استثناء».

فأيده غوليالمو قائلاً: «لقد كان هذا أيضاً رأي كبار رجال نظامكم، وأذكر

Twitter: @ketab_n

أشياء على غاية من الروعة كتبها الأب العظيم والجليل سوغيرو، حول زخرف الكنائس».

فقال رئيس الدير: «وهو كذلك، أرأيت هذا الصليب؟ إن زخرفه لم يتمّ بعد» ـ وأخذه بين يديه بحب لامتناهٍ وتأمل فيه بوجه يُضيئه نور الطوبى ـ «تنقصه هنا بعض الدّرر، وما وجدتها من الحجم المناسب. لقد قال فيما مضى القديس أندريا متحدثاً عن صليب الجُلْجُلة إنه مزيّن بأعضاء المسيح كما لو كان بالدرر، وبالدرر ينبغي أن تزخرف هذه الصورة المتواضعة من تلك المعجزة العظيمة. حتى ولو أنني رأيت أنه من السانح أن أرصّع، في هذه النقطة، فوق رأس المخلّص نفسه، أروع ألماس رأيته في حياتي ـ ومسح بيدين ورعتين، بأصابعه الطويلة البيضاء على أنفس أجزاء اللوح المقدس، أو بالأحرى العاج المقدس، إذ كان ذراعا الصّليب مصنوعين من تلك المادّة الرائعة.

«إنني، عندما أستمتع برؤية كل روائع هذا البيت المقدس، وينتزعني سِحْر هذه الأحجار المُختلفة الألوان عن المشاغل الخارجية، يسوقني التأمل النبيل، محولاً ما هو مادّي إلى ما هو غير مادّي، إلى التفكير في تنوّع الفضائل المقدسة، عندئذٍ يبدو لي أنني أجد نفسي، إن صح التعبير، في منطقة غريبة من الكون، لا هي سجينة في وحل الأرض ولا هي طليقة في صفاء السماء. ويبدو لي أنني، بنعمة من الإلٰه، أرتفع من هذا العالم السفلي إلى عالم أعلى عن طريق التأمّل الروحي..».

كان يتكلم وقد أدار وجهه نحو جناح الكنيسة. وكان سيل من النُّور المتدفق من أعلى، بسماحة خاصّة من الكوكب النهاري، يغمر وجهه ويديه المفتوحتين في شكل صليب، وقال وقد خطفه الحماس «كل كائن مرئياً كان أو غير مرئيّ، هو نور وضعه في الكون ربّ النُّور. إن هذا العاج وهذا الجزع، ولكن أيضاً هذه الحجارة التي تحيط بنا هي نور، لأنني أحسّ أنها طيبة وجميلة، وأنها تعيش بحسب قواعد تناسبها، تختلف من حيث الصنف والجنس عن كل الأصناف والأجناس الأخرى، وأنها محددة من حيث عددها، ولأنها لا تحيد عن نظامها، وتبحث عن مكانها الخصوصي وفقاً لجاذبيتها. وتتجلى لي هذه الأشياء أكثر عندما تبهر عيني طبيعة مادتها النفيسة، وتصبح أكثر نوراً لقوة الخلق الإلٰهية، حتى إني

Twitter: @ketab_n

أصل إلى سموّ السبب الأول، الذي لا يمكن بلوغه بصفة تامة، من خلال سموّ المسبب، ولا غرابة أن يُحدثني بصفة أكمل عن السببية الإلٰهية مسبّب رائع مثل الذهب أو الماس، إن كانت تقدر على ذلك حتى الحشرة! عندئذٍ، عندما تتبين لي من خلال هذه الأحجار مثل تلك الأشياء السامية، تبكي الروح، من البهجة والتأثر، وليس من الغرور المادي أو من حب المال، ولكن من الحب الصافي الذي تكنّه للسّبب الأول الذي لم يُسبَّب».

فقال غوليالمو بكل تواضع: «إنها حقًّا أعذب لاهوتية». وبدا لي أنه يستعمل تلك الصورة الذهنية المخاتلة والتي يسميها علماء الفصاحة: السخرية، والتي ينبغي أن تتصدرها دائماً نبرة تدل عليها وتبرّرها، ولكن غوليالمو لم يكن يستعملها قط. ولهذا السبب رأى رئيس الدير، الذي كان مَيّالاً بطبيعته إلى استعمال صور الكلام، أن يأخذ كلام غوليالمو على الجدّ وتابع وهو لا يزال فريسة انخطافه الروحي، قائلاً: «إنها أقوم طريق للوصول إلى العليّ، المتجلّي من خلال المادة».

فأخذ غوليالمو يسعل بأدب: «إيه، أوه..». ـ وكان يفعل ذلك عندما يريد الدخول في موضوع آخر. وكان يحسن ذلك بلياقة تامّة لأن تلك هي عادته ـ وأظنها من خاصيات أناس بلده ـ أن يستهل كل تدخل بتأوهات طويلة، وكأنه يتهيأ لعرض فكرة متكاملة كلّفته مجهوداً فكرياً كبيراً. بينما تأكد لي، إذ أصبحت الآن مقتنعاً بذلك، أنه كلما أكثر من تلك التأوهات لتقديم رأيه، كان متأكداً من صلاحية الفكرة التي يقدم على عرضها.

قال إذن غوليالمو: «إيه... أوه. أظن أنه ينبغي علينا أن نتحدث عن اللقاء وعن المناقشة حول الفقر».

فأعاد رئيس الدير: «آه... الفقر..». ـ وكان لايزال غارقاً في أفكاره، كمن يجد صعوبة في النزول من تلك المناطق الكونية الجميلة حيث اختطفته أحجاره الكريمة ـ «صحيح، اللقاء...».

وأخذا يتحادثان بصفة مكثفة حول أشياء كنت أعرف بعضها من قبل والبعض الآخر فهمته فقط من خلال حوارهما. كان يخصّ، كما قلت في أول هذا العرض

Twitter: @ketab_n

الوفي، النزاع بين الإمبراطور والبابا من جهة ومن جهة أخرى بين البابا والفرانشسكانيّين الذين تبنّوا في مجمع بيروجيا، ولو بعد مضيّ عدة سنين، أفكار الروحانيين بخصوص فقر المسيح، وحول التعقيد الذي تكوّن بتحالف الفرانشسكانيّين مع الإمبراطور، ومن تعقيد ثُلاثي بين معارضين وحلفاء، تحوّل إلى رباعي بتدخّل رؤساء أديرة نظام القديس بنيدكت، الذي بقيت لي دوافعه غامضة جداً.

لم أفهم قط بوضوح السبب الذي جعل رؤساء الأديرة البنيدكتيين يعطون الحماية والمأوى للفرانشسكانيين الروحانيين، حتى قبل أن يشاطرهم نظامهم نفسه بطريقة من الطرق آراءهم. لأنه، إن كان الروحانيون ينادون بالإعراض عن كل أمور الدنيا، فقد تأكد لي يومها بصفة واضحة أن رؤساء الأديرة التابعين لنظامي يتبعون طريقاً وإن كانت لا تقل عفّة عن الأخرى إلاّ أنها معاكسة تماماً لها. ولكنني أظن أن رؤساء الأديرة كانوا يرون أنه بإعطاء البابا سلطة كبيرة يقوى نفوذ الأساقفة والمدن، بينما احتفظ نظامي بنفوذه كاملاً عبر القرون فعلاً من خلال وقوفه ضدّ الإكليروس العلماني والتجار المدنيين، جاعلاً من نفسه الوسيط المباشر بين السماء والأرض ومستشار الملوك.

كثيراً ما سمعت الجملة التي تقول إن شعب الربّ ينقسم إلى رُعاة (أي الإكليروس) وكلاب (أي المقاتلين) ونعاج (أي الشعب). ولكنني تعلمت فيما بعد أن هذه الجملة يمكن قولها بطرق مُختلفة. غالباً ما يتحدث البنيدكتيون لا عن ثلاثة أنظمة، ولكن عن فرعين كبيرين، يهتم أحدهما بإدارة الأمور الدنيوية والآخر بإدارة الأمور السماوية. وفي ما يخص الأمور الدنيوية فهي تتوزّع بين الإكليروس والأسياد والشعب، ولكن فوق هذا التقسيم الثلاثي يسيطر تواجد النظام الرُّهباني، الوسيط المباشر بين الربّ والشعب. ولا يشبه الرُّهبان في شيء أولئك الرعائيين المدنيين من قساوسة وأساقفة وجهلاء ومُرْتشين، الذين أصبحوا الآن خاضعين لمصالح المدن، حيث لم تعد النعاج أولئك الفلاحين الطيبين والمؤمنين، بل التجار وأصحاب الحرف. ولا يرى النظام البنيدكتي مانعاً من أن تُعهد شؤون العامّة إلى الإكليروس المدني، إذا ما عادت في آخر الأمر إلى الرُّهبان مهمّة تحديد قواعد تلك العلاقة، بما أنهم باتصال مباشر مع كلّ سلطة دنيوية، أي

Twitter: @ketab_n

الإمبراطورية، كما كانوا من قبل مع كل سلطة سماوية. ولهذا إذن، أظن أن الكثير من رؤساء الأديرة البنيدكتيين، لإعادة الهيبة للإمبراطورية ضدّ حكومات المدن (أساقفة وتجّاراً معاً)، قبلوا أن يحموا الفرانشسكانيّين الروحانيين، وإن كانوا لا يشاطرونهم الأفكار نفسها لأن حضورهم يخدم مصالحهم ولأنه يوفّر للإمبراطورية حججاً قوية ضدّ سلطة البابا المفرطة.

هذه هي، بحسب استنتاجي، الأسباب التي من أجلها يتهيأ أبّوني الآن للتعاون مع غوليالمو، مبعوث الإمبراطور، ليكون وسيطاً بين النظام الفرانشسكاني والبلاط البابوي. وفعلاً، حتى في أوج النزاع الذي كان يهدد وحدة الكنيسة، كان ميكيلي دا تشيزينا، الذي دعاه البابا جيوفاني إلى أفينيون العديد من المرات، مُسْتعداً في النهاية لقبول الدعوة، لأنه لم يكن يريد أن يصل نظامه إلى اصطدام نهائي مع البابا. فبصفته زعيم الفرانشسكانيّين كان يريد في الوقت نفسه إنجاح مواقف الجمعية وكسب موافقة البابا، إذ كان يحسّ أنه بدون موافقة البابا لا يمكنه أن يبقى طويلاً على رأس النظام.

ولكن الكثيرين لفتوا انتباهه إلى أن البابا ينتظره في فرنسا لينصب له فخّاً، فيتهمه بالهرطقة ويحاكمه. ولذا نصحوا أن يكون ذهاب ميكيلي إلى فرنسا مسبوقاً ببعض المفاوضات. وكانت لمارسيليو فكرة أحسن، وهي أن يُرسَل أيضاً، صحبة ميكيلي، مبعوث إمبراطوري ليقدم للبابا وجهة نظر مؤيدي الإمبراطورية، لا لإقناع كاهورس الشيخ ولكن لمساندة موقف ميكيلي: كعضو من بعثة إمبراطورية، لا يمكن أن يقع بسهولة ضحية ثأر البابا.

ولكن هذه الفكرة أيضاً تبرز عدّة نقائص، ولا يمكن تحقيقها في الوقت نفسه. ومن هنا جاءت فكرة إعداد لقاء تمهيدي بين أعضاء البعثة الإمبراطورية وبعض مبعوثي البابا، لامتحان وجهات النظر ولإعداد اتفاق تكون فيه سلامة الزائرين مضمونة. وفعلاً كُلّف غوليالمو دا باسكرفيل بإعداد هذا اللقاء الأول، كما سيكون عليه من بعد تقديم وجهة نظر اللاهوتيين الإمبراطوريين، في أفينيون، إذا ما رأى أن السفر ممكن وخالٍ من الأخطار. ولم تكن مهمة سهلة إذ من المتوقع أن البابا، الذي كان يريد أن يأتي ميكيلي وحده كي يتسنى له بسهولة إخضاعه

Twitter: @ketab_n

لطاعته، سيرسل إلى إيطاليا بعثة ستعمل إن أمكنها ذلك على إحباط سفر المبعوثين الإمبراطوريين إلى بلاطه. وقد تحرك غوليالمو حتى ذلك الحين بمهارة كبيرة. فبعد استشارات مطوّلة مع عدة رؤساء أديرة بنيدكتيين (وهذا هو سبب توقفنا المتعدّد أثناء السفر) اختار الدير الذي نوجد فيه لأنه يعلم أن رئيسه كان مخلصاً للإمبراطور، ومع ذلك، لمهارته الدبلوماسية الكبيرة، لم يكن مبغوضاً من طرف البابا. فالمجموعتان ستلتقيان إذن في أرض محايدة هي أرض الدير.

ولكن مقاومة البابا لم تنتهِ بعد. فقد كان يعلم أنه عندما تصل قصادته إلى الدير، ستكون تحت تشريع رئيس الدير. وبما أن في البعثة البعض من أعضاء الإكليروس المدني، لم يقبل البابا تلك الوضعية، بدعوى أنه يخاف أن يَنْصُبَ الإمبراطور لهم شركاً. واشترط إذن أن تعهد سلامة مبعوثيه إلى كتيبة من نبّالي ملك فرنسا، تحت أوامر شخص من ثقاته. وقد سمعت بعض الشيء عن ذلك من خلال حوار أجراه غوليالمو مع سفير البابا في بوبيّو: وتناول الحديث كيفية ضبط مهام هذه الكتيبة، أو بالأحرى توضيح ما يراد بحماية سلامة المبعوثين البابويين. وأخيراً قَبِل الجميع صيغة اقترحها الأفينيونيون بدت معقولة: وهي أن تكون للمسلّحين ولقائدهم السلطة على «كل من يحاول بأيّة صفة كانت اغتيال أحد أعضاء القصادة البابوية أو التأثير على سلوكها وعلى حكمها باستعمال العنف». في ذلك الوقت بدا الاتفاق مستوحى من انشغال شكلي بحت. أما الآن وبعد الأحداث الأخيرة التي وقعت في الدير، كان رئيس الدير منشغلاً، وأبدى قلقه لغوليالمو. لو وصلت البعثة إلى الدير ولا يزال مقترف الجريمتين مجهولاً (في اليوم التالي ازداد انشغال رئيس الدير، لأن الجرائم أصبحت ثلاثاً) لاضطر إلى الاعتراف أن بين تلك الجدران يطوف شخص في مقدرته أن يؤثر باستعمال العنف على حكم المبعوثين البابويين وسلوكهم. ولا نفع من إخفاء الجرائم التي ارتكبت، لأنه لو وقع بعد ذلك شيء آخر، لظنها المبعوثون البابويون مكيدة دبرت لهم. وإذن هناك حلاّن فقط: إمّا أن يكتشف غوليالمو المجرم قبل وصول البعثة (وهنا حدّق فيه رئيس الدير وكأنه يلومه بصمت لأنه لم يصل بعد إلى حلّ تلك العُقْدة)، أو ينبغي إعلام ممثّل البابا بصدق عمّا يحدث وطلب معونته لفرض مراقبة مشددة

Twitter: @ketab_n

على الدير طوال مدة الأعمال. وهذا لايرضي رئيس الدير لأنه يمثل تنازلاً عن جانب من سلطته ويضع رُهبانه أنفسهم تحت مراقبة الفرنسيين. ولكن مع ذلك لا تمكن المجازفة. كان غوليالمو ورئيس الدير منشغلين للمجرى الذي اتخذته الأحداث ولكن لم يكن لديهما الخيار. وتواعدا إذن على أخذ القرار النهائي في اليوم التالي. في الانتظار لا يبقى إلاّ أن يسلما الأمر إلى العناية الإلٰهية وإلى فطنة غوليالمو الذي قال: «سأفعل ما في وسعي يا صاحب السموّ. من ناحية أخرى لا أرى كيف يمكن لأمر كهذا أن يحبط اللقاء. حتى الممثل البابوي يفهم الفارق بين عمل مجنون، أو مجرم، أو حتى روح تائهة، والمسائل الخطرة التي سيناقشها رجال أتقياء».

فقال رئيس الدير وهو يحدق في غوليالمو: «أتظن؟ لا تنسَ أن الأفينيونيين يعرفون أنهم سيتلاقون مع الفرانشسكانيّين، وإذن مع أشخاص يقتربون بصفة خطرة من الإخوان المتسوّلين ومن آخرين أكثر جنوناً منهم، من هراطقة خطرين لوّثوا أيديهم بجرائم ـ وهنا خفض رئيس الدير صوته ـ تتلاشى أمامها الأحداث الفظيعة التي وقعت هنا كما يتلاشى الضباب أمام الشمس».

فهتف غوليالمو بشدة: «ليس الشيء نفسه! لا يمكنكم أن تضعوا في الكفة نفسها فرانشسكانيّي مجمع بيروجيا وبعض الفئات الهرطقية التي فهمت غلطاً رسالة الإنجيل محوّلة الكفاح ضدّ المال إلى سلسلة من الثارات الخاصة أو الجنون الإجرامي..»..

فقال رئيس الدير بنبرة جافة: «إن إحدى تلك الفئات، كما تقول، قد أعملت الحديد والنار، منذ بضع سنوات وغير بعيد عن هنا، في أراضي أسقف فرتشيلّي والجبال المحيطة بنوفارا».

ـ «تتحدث عن الأخ دولتشينو والرسوليين...»

فصحّح رئيس الدير: «عن الرُّسُل الزائفين» ومرة أخرى سمعت اسم الأخ دولتشينو يُذكر، ومرة أخرى يُذكر بنبرة فيها حذر وربما شيء من الخوف.

فاعترف غوليالمو تلقائياً قائلاً: «عن الرسل الزائفين. ولكن لا دخل لهم بالفرانشسكانيّين..»..

Twitter: @ketab_n

فعقب رئيس الدير قائلاً: «أعرف، أعرف ذلك. وأنت تعلم بأي عناية أخوية تلقّت رهبانيتنا الروحانيين عندما سلّط عليهم البابا نقمته. ولا أتكلم فقط على أوبارتينو ولكن على العديد من الإخوان الآخرين المتواضعين والذين لا نعرف عنهم إلاّ القليل، بينما ينبغي علينا أن نعرفهم أكثر. إذ حدث أن تقدّم إلينا لاجئون لابسين زي الفرانشسكانيّين، وعلمت فيما بعد أن الأحداث التي عاشوها حملتهم قريباً جداً من الدولتشينيين..»..

فسأله غوليالمو: «هنا أيضاً؟»

- «هنا أيضاً. إني أخبرك الآن بشيء لا أعرف عنه في الحقيقة إلاّ القليل، لا يكفي، بأية حال، كي أوجّه اتهامات. ولكن، بما أنك تحقّق حول حياة هذا الدير فمن الأحسن أن تعرف أنت أيضاً هذه الأشياء. وأقول لك إذن إنني أظنّ، ولكن حذارِ، أنا أظنّ معتمداً على أشياء سمعتها أو تكهنت بها، أظنّ أنّ في حياة القيّم، فترة غامضة جدّاً، إذ وصل إلى هنا فعلاً، منذ سنوات متّبعاً نزوح الفرانشسكانيّين».

فقال غوليالمو: «القيّم؟ رميجيو دا فراجيني من أتباع دولتشينو! إنه يبدو لي أودع كائن وأقلهم انشغالاً بمسألة الفقر..»..

- «وفعلاً لا أستطيع أن أقول شيئاً ضدّه، وإنّي لأستفيد من الأعمال التي يقوم بها هنا والتي تشكره عليها كل المجموعة. ولكنني أقول لك كل هذا كي تفهم كم من السهل إيجاد ارتباط بين راهب وراهب متسوّل».

فقاطعه غوليالمو قائلاً: «إن حضرتك لم تعدل مرّة أخرى، إن صحّ القول. لقد كنا نتحدث عن الدولتشينيين لا عن الرُّهبان المتسوّلين الذين يمكن أن نقول عنهم الكثير، حتى دون التمييز بينهم لأنهم من أصناف متعدّدة، ولكن لا يمكن أن نقول عنهم إنهم سفّاحون. أقصى ما يمكن هو لومهم لأنهم طبقوا دون إعمال الفكر، أشياء نادى بها الروحانيون باعتدال أكبر، يحدوهم في ذلك حب حقيقي للإله، وفي هذا أعترف أن الفارق ضئيل جداً بين أولئك وهؤلاء..»

فقاطعه رئيس الدير بحدّة: «ولكن الإخوان المتسوّلين هراطقة! إنهم لا يكتفون بتأكيد فقر المسيح والحواريين، وهي فكرة حتى وإن كنت لا أميل إلى

Twitter: @ketab_n

مشاطرتها يمكن استغلالها لمواجهة غرور صاحب أفينيون. ولكن الإخوان المتسوّلين يستمدّون من تلك الفكرة قياساً عملياً، يستخرجون منه الحق في الثورة، والنهب، وإفساد الأخلاق».

- «ولكن أي إخوان متسوّلين؟»

- «كلهم، على الإطلاق. أتعرف أنهم لوّثوا أيديهم بجرائم لا يمكن وصفها، ولا يعترفون بالزواج، وينفون وجود الجحيم، ويمارسون اللّواط ويتّبعون هرطقة نظام بلغاريا البوغوميلية، وهرطقة النظام الدريغونطي. . .»

فقال غوليالمو: «أرجوك، لا تخلط بين أشياء مُختلفة! أنت تتحدث وكأن الإخوان المتسوّلين، والبتاريين، والفوديين، والمانويين ومن بينهم بوغوميليّو بلغاريا وهراطقة دراغوفيتسا، شيء واحد!» فقال رئيس الدير بنبرة جافة: «إنهم كذلك. لأنهم هراطقة، ولأنهم يعرّضون للخطر نظام العالم المتحضر نفسه، وحتى نظام الإمبراطور الذي يبدو لي أنك تتمناه. لقد أحرق أتباع أرنالدو دا بريشا، منذ مائة سنة وأكثر، منازل النبلاء والكرادلة، وكانت تلك ثمار هرطقة البتاريين اللومباردية. إني أعرف حكايات مريعة حول أولئك الهراطقة وقرأتها أيضاً عند تشيزاريو دي إيسترباك. لقد لاحظ مرة إيفيراردو كاهن كنيسة القديس جدعون بفيرونا، أن الرجل الذي يقيم عنده كان يخرج كل ليلة من البيت صحبة زوجته وابنته. فسأل واحداً منهم إلى أين يذهبون وماذا يفعلون فأجابه: عليك أن تأتي معنا وسترى. فتبعهم إلى منزل سفلي فسيح جداً، حيث كان يلتقي أشخاص من الجنسين. وبينما كان الجميع يستمعون في صمت ألقى زنديق خطاباً مليئاً بالتجديفات، بغية إفساد حياتهم وأخلاقهم. ثم، بعد إطفاء الشمعة، ارتمى كل واحد على المرأة القريبة منه، دون التفرقة بين الزوجة الشرعية والبكر، وبين الأرملة والعذراء وبين السيدة والخادمة، ولا حتى (وهذا أسوأ من الباقي، ليغفر لي الإلٰه إن تفوّهت بهذه الأشياء الفظيعة) بين البنت والأخت. وعندما رأى إيفيراردو ذلك، وكان عندئذٍ شاباً طائشاً وفاجراً، تظاهر بأنه تلميذ واقترب، لا أدري إن كان من بنت مضيفه أو من طفلة أخرى، وعندما أُطفِئت الشمعة ارتكب معها الخطيئة. وداوم على ذلك، للأسف، سنة أو أكثر، إلى أن قال الأستاذ يوماً إن ذلك الشاب يتابع بكثير من

Twitter: @ketab_n

الاهتمام مجالسهم وإنه سيصبح عن قريب قادراً على تعليم المبتدئين. عند ذلك الحين فهم إيفيراردو الهاوية التي سقط فيها واستطاع التخلص من إغرائهم قائلاً إنه كان يأتي إلى ذلك المنزل لا لأن الهرطقة كانت تعجبه ولكن لإعجابه بالفتيات. فطرده هؤلاء. وهذه كما ترى قاعدة الهراطقة وحياتهم سواء كانوا بتاريين أو مانويين أو جواكيميين أو روحانيين من كلّ شتلة. ولا غرابة في ذلك: فهم لا يؤمنون ببعث الأجساد وبالجحيم كعقاب للآثمين، ويظنون أنه يمكنهم القيام بكل الأعمال دون عقاب، إذ يسمّون أنفسهم «catharoi» أي المتطهّرين».

فقال غوليالمو: «أبّوني، أنت تعيش منعزلاً في هذا الدير الرائع والمقدس، بعيداً عن رذائل العالم. فالحياة في المدن أكثر تعقيداً ممّا تظن، وأنت تعرف أن هناك تدرّجاً في الأخطاء وفي الإثم. لقد كان لوط أقل إثماً من أبناء بلده الذين بنوا أفكاراً دنسة حتى في ما يخص الملائكة الذين بعثهم الإلٰه، وخيانة بطرس هي لا شيء بالقياس إلى خيانة يهوذا، وبالفعل غُفِر للأول ولم يُغفر للثاني. لا يمكن اعتبار البتاريين والمانويين الشيء نفسه. فالبتاريون ينتمون إلى حركة إصلاح أخلاقي داخل قوانين الكنيسة المقدسة. لقد أرادوا دائماً تحسين حالة عيش رجال الكنيسة...»

- «مؤكدين أنه لا ينبغي قبول سرّ القربان المقدس من الكهنة غير الطاهرين...»

- «إنهم أخطأوا، ولكن كان ذلك الخطأ الوحيد في مذهبهم. لم يكن قط في نيّتهم تغيير قانون الربّ...»

- «ولكن التبشير البتاري الذي قام به أرنالدو دا بريشيا، في روما منذ أكثر من مائتي سنة، دفع رعاع الفلاحين إلى حرق منازل الأسياد والكرادلة».

- «لقد حاول أرنالدو أن يجلب إلى حركته أعيان المدينة، ولكنهم لم يتبعوه، ووجد تجاوباً من طرف جماعات الفقراء والمعوزين. لم يكن مسؤولاً عن الاندفاع والحنق الذي استجاب به هؤلاء لنداءاته من أجل مدينة أقل فساداً».

- «إن المدينة دائماً فاسدة».

Twitter: @ketab_n

ـ «المدينة هي المكان الذي يعيش فيه اليوم شعبٌ، نحن وإيّاكم رُعاته، هو شعب الربّ. إنه مكان الفضيحة، حيث ينادي الأسقف الغني إلى الفضيلة شعباً فقيراً جائعاً. إن ثورات البتاريين كانت ناتجة عن تلك الوضعية. إنها محزنة لا غامضة. المانويون شيء آخر. إنها هرطقة شرقية، خارجة عن مذهب الكنيسة. إنني لا أعرف إن كانوا اقترفوا حقّاً الجرائم التي اتُّهِمُوا بها، أعرف أنهم كانوا يرفضون الزواج وينفون وجود الجحيم. وأتساءل إن لم تنسب اليهم الكثير من الأعمال التي يقومون بها، فقط من أجل الأفكار (التي هي فاسدة دون شك) التي أتوا بها».

ـ «أأنت الذي تقول إن المانويين لم يختلطوا بالبتاريين، وإنهم كلهم ليسوا إلاّ وجهين، من بين الوجوه المتعدّدة، التي يظهر بها الشيطان؟»

ـ «أقول إن الكثير من هذه الهرطقات، بقطع النظر عن الأفكار التي تدافع عنها، كانت تجد تجاوباً عند السذّج، لأنها توحي إليهم بإمكانية الوصول إلى حياة أفضل. أقول إنه في كثير من الأحيان لا يفهم السذّج شيئاً عن المذاهب. أقول إنه غالباً ما حدث أن مجموعات من السذّج اختلط عليها تبشير المانويين بتبشير البتاريين، وهذا الأخير عامّة، بتبشير الروحانيين. إن حياة العامّة، يا أبوني، لا يضيئها نور المعرفة ولا يقودها إدراك الفارق الذي يجعل منا نحن عقلاء، ويرهقها هاجس المرض والفقر، الذي يجعلها تعبّر من خلال الجهل. غالباً ما يكون الانتماء، بالنسبة إلى الكثير منهم، إلى فريق هرطيقي وسيلة فقط مثل غيرها للتعبير عن اليأس. إنهم يحرقون دار الكاردينال لأنهم يريدون في الوقت نفسه أن تصل حياة الإكليروس إلى درجة الكمال، ولأنهم يعتبرون أن الجحيم الذي يتحدّث عنه ذلك الكاردينال غير موجود. ولكنهم يفعلون ذلك دائماً لأن الجحيم الدنيوي موجود، حيث يعيش القطيع الذي نحن رُعاته. ولكنك تعرف جيّداً، أنه مثلما لا يفرقون هم بين الكنيسة البلغارية وأتباع الكاهن ليبراندو، غالباً لم تفرق السلطة الإمبراطورية هي أيضاً وأنصارها بين الروحانيين والهراطقة. وحدث أن ساندت بعض الفئات الجيبيلينية علناً أفكار المانويين، لإلحاق الهزيمة بخصومها (وبئس ما فعلت بحسب رأيي). ولكن ما أعرفه الآن هو أن تلك الفئات نفسها، في أغلب

Twitter: @ketab_n

الأحيان كي تتخلص من أولئك الخصوم المضطربين والخطرين لكثرة سذاجتهم، نسبت هرطقة أولئك إلى هؤلاء، ودفعت بهم نحو المحرقة. لقد رأيتُ، أقسم لك يا أبّوني، رأيت بعينيّ، أشخاصاً يعيشون عيشة طاهرة، متبعين بوفاء حياة الفقر والعفّة، ولكنهم كانوا أعداء الأساقفة، ورمى بهم الأساقفة إلى السلطة المدنية، سواء كانت سلطة الإمبراطور أو سلطة المدن الحرة، متهمين إياهم بالاختلاط الجنسي وباللّواط وبأعمال شنيعة، يمكن أن يكون قام بها آخرون، أما هم فلا. إن السذّج دواب تُساق إلى المجزرة، يُستعمَلون عندما يراد وضع سلطة الخصم في أزمة، ويُضحّى بهم عندما تنتهي الحاجة اليهم».

فقال رئيس الدير بخبث واضح: «إذن الأخ دولتشينو ومجانينه، وجيراردو سيغاليلّي وتلك المجموعات من المجرمين أكانوا مانويين متوحشين أم إخواناً متسوّلين فضلاء، بوغوميليين لوطيين أو بتاريين مصلحين؟ أيمكنك أن تقول لي إذن، ياغوليالمو، أنت الذي تعرف كل شيء عن الهراطقة، حتى إنك تبدو واحداً منهم، أين توجد الحقيقة؟»

فقال غوليالمو بأسف: «في بعض الأحيان، هي غير موجودة في أي مكان».

«أترى؟ إنك أنت أيضاً لم تعد قادراً على التمييز بين هرطيق وهرطيق. على الأقل أنا لديّ قاعدة. أعرف أن الهراطقة هم أولئك الذين يضعون في خطر النظام الذي تقوم عليه حياة شعب الرب. وأدافع عن الإمبراطورية لأنها تضمن لي هذا النظام. وأحارب البابا لأنه وضع السلطة الروحية بين أيدي أساقفة المدن الذين يتحالفون مع التجار والجمعيات المهنية، ولن يستطيعوا الحفاظ على هذا النظام. لقد حافظنا عليه نحن طيلة قرون. وحتى فيما يخصّ الهراطقة عندي أيضاً قاعدة، وتتلخّص في الردّ الذي أجاب به أرنالدو أماليريكو رئيس دير سيطو، عندما سألوه ما العمل بأهالي بيزييه، المدينة المتهمة بالهرطقة، قال: اقتلوهم جميعا وسيعرف اللّه أتباعه». فخفض غوليالمو عينيه وبقي بعض الوقت صامتاً ثم قال: «عندما سقطت مدينة بيزييه لم يولِ رجالنا اعتباراً لا للمقام ولا للجنس ولا للسنّ وأعملوا السيف في حوالى عشرين ألف رجل. بعد المذبحة نُهبت المدينة وأحرقت».

Twitter: @ketab_n

ـ «إن الحرب المقدسة حرب».

ـ «إن الحرب المقدسة حرب. ولذا قد لا ينبغي أن تكون هناك حروب مقدسة. ولكنني ماذا أقول، أنا هنا للدفاع عن حقوق لودوفيكو، الذي هو أيضاً بصدد إضرام النار في إيطاليا. أجد نفسي أنا أيضاً داخل لعبة من التحالفات الغريبة. غريب تحالف الروحانيين مع الإمبراطورية، وغريب تحالف الإمبراطورية مع مارسيليو الذي ينادي بالسيادة للشعب. وغريب التحالف الذي بيننا نحن الاثنين مع اختلافنا الكبير من حيث التفكير والتقاليد. ولكن يجمعنا واجبان. نجاح اللقاء واكتشاف مجرم. فلنعمل بوفاق».

ففتح رئيس الدير ذراعيه قائلاً: «أعطني قبلة السلام، يا أخ غوليالمو. مع عالم مثلك يمكن النقاش طويلاً حول مسائل دقيقة في اللاهوت والأخلاق. ولكن لا ينبغي أن نستسلم لميلنا إلى المجادلة كما يفعل أساتذة باريس. صحيح ينتظرنا موعد هام، وينبغي أن نواصل العمل باتفاق متبادل. ولكنني تكلمت على هذه الأشياء لأنني أظن أن هناك علاقة، أفهمت؟ علاقة محتملة، أو بالأحرى، أن يجد الآخرون علاقة بين الجريمتين اللتين وقعتا هنا وأفكار رفاقك. لذا حذّرتك، ولذا يجب أن نتفطّن إلى أي ظنّ أو تلميح من طرف الأفينيونيين».

ـ «ألا ينبغي أن أفهم من ذلك أنّ حضرتك توعز اليّ باقتفاء أثر يخص الأبحاث التي أنا بصدد القيام بها؟ أتظن أن مصدر الأحداث الأخيرة يمكن أن يكون قصة غامضة تعود إلى فترة هرطيقية مرّ بها أحد الرُّهبان في الماضي؟»

فبقي رئيس الدير صامتاً بضع لحظات، وهو ينظر إلى غوليالمو دون أن يبدو على وجهه أدنى تعبير ثم قال: «في هذه الحادثة المؤلمة المحقّق هو أنت ويمكنك أن ترتاب وأن تجازف حتى باتهام خاطئ. أنا هنا فقط أب للجميع، وأضيف، لو وصل إلى علمي أن ماضي أحد رهباني يسمح بشكوك حقيقية لكنت اقتلعت النبتة الفاسدة. ما أعرفه، تعرفه. ما لا أعرفه، من الصائب أن يخرج إلى النُّور بفضل فِطْنتك. ولكن على كل حال أعلمني دائماً وقبل كل شيء».

ثم ودّعنا وخرج من الكنيسة.

Twitter: @ketab_n

قال غوليالمو وقد اكفهرّ وجهه: «إن القصة تتعقّد أكثر فأكثر يا عزيزي أدسو. نحن نجري وراء مخطوط، ونهتمّ بمناقشات بعض الرُّهبان الذين يحركهم حبّ الاطلاع وبظروف بعض الرُّهبان الآخرين الذين كثر عندهم الفسق، وها إنه يتراءى بإلحاح أكثر أثر آخر، مُختلف تماماً. القيّم، إذن. . . ومع القيّم جاء ذلك الحيوان الغريب سلفاتوري. . . ولكن الآن ينبغي أن نذهب للراحة، لأننا عزمنا على البقاء صاحيَيْن طوال الليل».

ـ «إذن، أنت عازم دائماً على الدخول إلى المكتبة هذه الليلة؟ لن تترك هذا الأثر الأول!»

ـ «أبداً. ثم من قال إنهما أثران مُختلفان؟ وأخيراً، قد تكون قصة القيّم مجرد شك خامر رئيس الدير».

ثم اتجه نحو دار الضيافة. وعندما وصل إلى العتبة توقف وقال كمن يواصل حديثه الأول: «لقد طلب مني رئيس الدير، في نهاية الأمر، أن أحقق في موت أدالمو عندما ظنّ أن هناك شيئاً غير طاهر بين رهبانه الشبّان. ولكن الآن يثير موت فينانتسيو شكوكاً أخرى. ولعلّ رئيس الدير أحسّ أن مفتاح هذا السرّ الغامض يوجد في المكتبة، ويريد أن يبعدني عنها. وها هو إذن يعرض عليّ أثر القيّم كي يبعد اهتمامي عن الصّرح».

ـ «ولكن لماذا لا يريدك أن. . .»

ـ «لا تكثر من الأسئلة. لقد قال لي رئيس الدير منذ البداية إن المكتبة لا تمسّ. قد تكون له تعلاّته. وقد يكون هو الآخر مرتبطاً ببعض الأحداث وكان يظن أن المكتبة لا دخل لها بموت أدالمو، ولكنه الآن يتفطّن إلى أن الفضيحة تتسع ويمكن أن تشمله هو الآخر. ولا يريد أن تُكتَشَف الحقيقة، أو على الأقل لا يريد أن أكتشفها أنا. . .»

فقلت وقد انتابني اليأس: «نحن نعيش إذن في مكان هَجَرته رحمة اللّه».

فسألني غوليالمو وهو ينظر إليّ من علوّ قامته: «هل وجدت من قبل أماكن أحسّ اللّه فيها نفسه في راحة؟»

Twitter: @ketab_n

ثم بعثني كي أستريح. وبينما كنت أتهيأ للنوم قلت في نفسي إنه ما كان على أبي أن يرسلني عبر الدنيا، إذ هي معقدة أكثر مما كنت أظن. لقد كنت بصدد تعلم الكثير من الأشياء في الوقت نفسه. ثم صلّيت «اللّهم أنقذني من أنياب الأسد» واستسلمت للنوم.

Twitter: @ketab_n

اليوم الثّاني: بَعد صَلاة السّتار

وفيه يذكر الشيخ أليناردو، رغم قصر هذا الباب، أشياء هامة جداً حول المتاهة وحول كيفية الدخول إليها

أفقت وقد أوشكت ساعة الأكل المسائية. كنت أحس بنفسي مسترخياً من النوم، لأن نوم النهار كخطيئة الجنس: كلما أصبت منه أردت الزيادة، ومع ذلك يحس المرء بنفسه غير سعيد، متخماً وجائعاً في الوقت نفسه. لم يكن غوليالمو في حجرته، من الواضح أنه نهض قبلي بكثير. ووجدته، بعد تجوال وجيز، خارجاً من الصّرح. وقال لي إنه كان في قاعة الكتابة، يتصفح الفهرس ويعاين عمل الرُّهبان، محاولاً الاقتراب من طاولة فينانتسيو لمتابعة البحث. ولكن، لسبب أو لآخر، يبدو أنهم عقدوا النية على أن لا يتركوه يتطفل بين تلك الأوراق. في الأول اقترب منه مَلاخي ليريه بعض النمنمات النفيسة، ثم ألهاه بانشيو بتعلاّت واهية. بعد ذلك، عندما انحنى ليتابع بحثه أخذ برينغاريو يحوم حوله عارضاً عليه مساعدته.

أخيراً عندما رأى مَلاخي أن أستاذي كان يبدو عازماً على الاطلاع على أوراق فينانتسيو، قال له بوضوح إنه من الأحسن، قبل التفتيش بين أوراق الميّت، أن يطلب ترخيصاً من رئيس الدير. وإنّه هو نفسه، رغم أنه الحافظ، امتنع عن ذلك، احتراماً وطاعة. وإنّه على كل حال لم يقترب أحد من تلك الطاولة كما طلب منه ذلك غوليالمو، وإنّه لن يقترب منها أحد طالما لم يرخص في ذلك رئيس الدير. ولما نبّهه غوليالمو إلى أن رئيس الدير سمح له بالتحقيق داخل كلّ الدّير، سأله ملاخي بخبث إن كان رئيس الدّير سمح له بالتحرك بحرية داخل قاعة الكتابة أو، لا سمح اللّه، داخل المكتبة. وفهم غوليالمو أنه من الأفضل أن لا

Twitter: @ketab_n

يدخل في صراع مع مَلاخي، حتى وإن زادت تلك التحركات وتلك التخوفات حول أوراق فينانتسيو من رغبته في معرفة محتواها. ولكنه كان عازماً على الدخول هناك أثناء الليل، دون أن يدري إلى الآن كيف، ولذا قرّر أن لا يتسبّب في أي حادث من شأنه أن يعرقل خطته. كان مع ذلك يضمر نيات واضحة في الانتقام، ولو لم تكن مستوحاة من تعطشه إلى معرفة الحقيقة لبدت عنيدة وجديرة بالذّم.

قبل الدخول إلى قاعة الأكل، قمنا مرّة أخرى بجولة قصيرة في رواق الدير، لتشتيت ضباب النوم في هواء المساء البارد. وكان بعض الرُّهبان يطوفون هناك في تأمل. وفي الحديقة المواجهة للرواق لاحظنا الشيخ الهرم أليناردو دا غروتافيرّاتا، الذي أصبح الآن ضعيف القوى، ويقضي قسطاً كبيراً من يومه بين النباتات، عندما لا يكون في الكنيسة للصلاة. كان يبدو وكأنه لا يحسّ بالبرد، جالساً على امتداد الجهة الخارجية للبوّابة. فبادره غوليالمو ببعض كلمات تحية وبدا الشيخ سعيداً أن حاوره أحد، وقال غوليالمو:

- «إنه يوم هادىء».

فأجاب الشيخ: «من فضل اللّه».

- «هادىء في السماء وقاتم على الأرض، أكنت تعرف فينانتسيو؟» فقال الشيخ: «فينانتسيو من؟» ثم لمع بريق في عينيه «آه، الشاب الذي مات. إن الوحش يطوف في الدير».

- «أي وحش؟»

- «الوحش العظيم الذي يأتي من البحر... له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان وعلى رؤوسه ثلاثة أسماء تجديف. الوحش الذي يبدو وكأنه نمر، وقوائمه كقوائم دبّ وفمه كفم أسد... إني رأيته».

- «أين رأيته؟ في المكتبة؟»

- «في المكتبة؟ لماذا؟ منذ سنين لم أعد أذهب إلى قاعة الكتابة ولم أرَ قط المكتبة. لا يدخل أحد إلى المكتبة. إني عرفت أولئك الذين كانوا يصعدون إلى المكتبة...»

Twitter: @ketab_n

ـ «من؟ مَلاخي، برينغاريو؟»

ـ «لا، كلاّ»، وضحك الشيخ بصوت يشبه النقنقة «لا، قبل ذلك. الحافظ الذي أتى قبل مَلاخي، منذ عدّة سنوات. . .»

ـ «من كان؟»

ـ «لا أذكر، لقد مات عندما كان مَلاخي شاباً، والحافظ الذي أتى قبل أستاذ مَلاخي وكان آنذاك مساعد الحافظ، كان شاباً عندما كنت أنا شاباً. . . ولكنني لم أضع قط قدميّ في المكتبة. إنها متاهة. . .»

ـ «المكتبة متاهة؟»

فتلا الشيخ وكأنه غارق في تفكير عميق: «تلك المتاهة هي صورة من هذا العالم: فسيحة لمن يريد الدخول، وضيِّقة لمن يرغب في الخروج» المكتبة متاهة كبيرة، وهي دليل على متاهة العالم. ادخل اليها ولن تعرف إن كنت ستخرج. لا ينبغي أن نتعدّى أعمدة هرقل. . .»

ـ «إذن أنت لا تعرف كيف يمكن الدخول إلى المكتبة عندما تكون أبواب الصّرح مغلقة؟»

فضحك الشيخ قائلاً: «بلى، الكثير يعرف ذلك. مروراً من المَعْظَمة. يمكنك المرور من المَعْظَمة، ولكنك لا تريد أن تمرّ من المَعْظَمة. الرُّهبان الموتى يحرسون».

ـ «هل الرُّهبان الذين يحرسون هم هؤلاء، أم هم أولئك الذين يطوفون في المكتبة حاملين سراجاً؟»

فقال الشيخ مستغرباً: «حاملين سراجاً؟ إنني لم أسمع قط هذه القصّة. إن الرُّهبان الموتى موجودون في المقبرة، شيئاً فشيئاً تنزل العظام من المقبرة وتتجمع هناك لحراسة الممرّ. ألم ترَ قط مذبح المصلّى الذي يؤدي إلى المعظمة؟»

ـ «إنه الثالث على الشمال بعد جناح الكنيسة المصالب، أليس كذلك؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «الثالث؟ قد يكون. إنه المصلّى الذي يحمل حجارة نقش عليها ألف هيكل عظمي. الجمجمة الرابعة على اليمين، أدفع داخل العينين... وستجد نفسك في المَعْظَمة. ولكن لا تذهب. إنني لم أذهب قط إلى هناك. رئيس الدير لا يريد».

ـ «والوحش، أين رأيت الوحش؟»

ـ «الوحش؟ آه المسيح الدجّال... إنه آتٍ، لقد انقضت الألف عام، ونحن ننتظره».

ـ «ولكن الألف عام انقضت منذ ثلاثمائة سنة ولم يأتِ...»

ـ «الدجال لا يأتي بعد الألف عام. بعد انتهاء الألف عام يبدأ العهد الذي يحكم فيه العادلون، ثم يأتي الدجّال لإدخال البلبلة على العادلين، ثم تكون المعركة النهائية...»

فقال غوليالمو: «ولكن، العادلون سيحكمون ألف عام، فإمّا أن يكونوا حكموا منذ موت المسيح إلى الألف عام الأولى، وإذن ينبغي أن يكون الدجال أتى وقتئذٍ، أو أنهم لم يحكموا بعد، ومجيء الدجال لا يزال بعيداً».

ـ «إن الألف عام لا تحتسب من موت المسيح ولكن من هِبة قسطنطين. نحن الآن في نهاية الألف عام...»

ـ «إذن ينتهي الآن حكم العادلين؟»

ـ «لا أدري، لم أعد أدري... إنني متعب. الحساب صعب. لقد قام به بياتو دي ليبانا، اسأل يورج فهو أصغر سناً، ويتذكر جيداً... ولكن الأزمنة ناضجة. ألم تسمع الأبواق السبعة؟»

ـ «لماذا الأبواق السبعة؟»

ـ «ألم تسمع كيف مات الشاب الآخر، المُنمِنم؟ نفخ الملاك الأول في البوق الأول فسقط بَرَد ونار مخلوطان بدم. ثم نفخ الملاك الثاني في البوق الثاني

Twitter: @ketab_n

فصار ثلث البحر دماً... ألم يمت الشاب الثاني في بحر من الدم؟ حذار من البوق الثالث! ستموت ثلث المخلوقات الحية التي تعيش في البحر. إن اللّه يعاقبنا. لقد اجتاحت الهرطقة كلّ العالم المحيط بالدير. لقد قالوا لي إن على عرش روما يجلس بابا ضالّ يستعمل القربان المقدس لاستحضار الموتى ولتغذية ثعابينه... وهنا انتهك أحدهم الحظر، وكسر أختام المتاهة...»

ـ «من قال لك هذا؟»

ـ «لقد سمعت ذلك، كلهم يتهامسون بأن الخطيئة دخلت الدير. هل لديك حمّص؟»

كان السؤال موجّهاً إليّ وفاجأني، فقلتُ بارتباك: «كلاّ، ليس لديّ حمّص».

ـ «في المرة القادمة، ائتني بالحمّص. إنني أتركه في فمي، أترى فمي المسكين دون أسنان، أتركه حتى يصبح لينا. إنه يساعد على تكوين اللعاب، «الماء نبع الحياة». هل تأتيني غداً بالحمّص؟» فقلت: «غداً سآتيك بالحمّص». ولكنه استسلم للنوم فتركناه للذهاب إلى قاعة الأكل. وسألت أستاذي:

ـ «ما رأيك في ما قاله؟»

ـ «إنه يتمتع بالخبل الإلٰهي الذي يصيب من لحق المائة عام. من الصعب التمييز بين الصحيح والباطل في أقواله. ولكنني أظن أنه قال لنا شيئاً حول كيفية الدخول إلى الصّرح. لقد رأيت المصلّى الذي خرج منه مَلاخي في الليلة الفارطة. يوجد به فعلاً مذبح من الحجارة نقشت على قاعدته جماجم. سنحاول هذه الليلة».

Twitter: @ketab_n

اليوم الثّاني: صَلاة النَّوم

وفيه يدخل غوليالمو وأدسو إلى الصّرح، ويكتشفان زائراً خفياً، ثم يعثران على رسالة غامضة تحمل علامات تنجيمية، ويختفي حال العثور عليه، كتاب سيتواصل البحث عنه في أبواب كثيرة أخرى، وآخر ما حصل سرقة عدستي غوليالمو النفيستين

تعشّينا في كآبة وصمت. لقد مرّ ما يزيد بقليل على الاثنتي عشرة ساعة منذ أن اكتشفت جثة فينانتسيو. وكان الجميع ينظرون خلسة إلى مكانه الفارغ على المائدة. وعندما حانت ساعة صلاة النوم اتجه الموكب إلى الخورس وكأنه صفّ مأتمي. وحضرنا الفرض جالسين في صحن الكنيسة ومراقبين المصلّى الثالث. كان النُّور خافتاً، وعندما رأينا مَلاخي يبرز من الظلمة للالتحاق بمقعده، لم نستطع أن نعرف من أين خرج بالضبط. على كل حال اختفينا في العتمة، متواريَيْن في الجناح الجانبي، حتى لا يرى أحد أننا بقينا هناك بعد انتهاء الفرض. وكنت أخفي داخل ثوبي السّراج الذي أخذته من المطبخ أثناء العشاء والذي سنشعله فيما بعد من المشعل البرونزي ذي القوائم الثلاث الذي يبقى مشتعلاً طول الليل. وكانت معي فتيلة جديدة، وكثير من الزيت، سيكون لدينا نور يكفي لوقت طويل.

وكنت ثائر الأعصاب وأنا أفكّر في المغامرة التي سنقوم بها حتى إنني لم أهتمّ بالفرض، ولمّا انتهى كدت أن لا أنتبه لذلك. وأسدل الرُّهبان طراطيرهم على وجوههم وخرجوا في صفّ بطيء للالتحاق بحجراتهم. وبقيت الكنيسة خالية، يضيئها وميض المشعل البرونزي.

قال غوليالمو: «هيّا بنا، إلى العمل».

واقتربنا من المصلّى الثالث. كانت قاعدة المذبح شَبيهة حقّاً بمَعْظَمة: كانت هناك مجموعة من الجماجم ذات الأعين الخاوية والغارقة، تثير الخوف في كل من

Twitter: @ketab_n

ينظر اليها، وكانت موضوعة، كما تبدو من النحت الرائع، فوق كومة من الظّنابيب. وأعاد غوليالمو بصوت خافت الكلمات التي سمعها من أليناردو (الجمجمة الرابعة على اليمين، ادفع العينين). وأدخل إصبعيه في عيني ذلك الوجه المجرّد من اللحم وفي الحال سمعنا صريراً مبحوحاً، وتحرّك المذبح، دائراً على محور خفيّ، فظهرت من ورائه فتحة مظلمة. ولما رفعت السراج لإنارتها، رأينا سلّماً تنبعث منه الرطوبة. وقررنا النزول، بعد أن تناقشنا إن كان من الأفضل غلق الممرّ وراءنا. قال غوليالمو إنه من الأحسن أن لا نغلقه إذ لا نعرف إن كنّا سنقدر من بعد على فتحه. وأمّا عن احتمال أن يكتشف أحد وجودنا، فإن من سيأتي في تلك الساعة ويحرك الآلية نفسها يعرف كيفية الدخول ولن يوقفه على كلّ حال ممرّ مغلق.

ونزلنا ما يقرب عن عشر درجات ثم دخلنا في رواق تنفتح فيه على الجانبين كوى أفقية، كما أتيح لي أن أرى فيما بعد في العديد من النّواويس. ولكنها كانت المرة الأولى التي أدخل فيها إلى المَعْظَمة، وجمد دمي من الفزع. كانت عظام الرُهبان قد جُمعت طيلة قرون، بعد إخراجها من القبور، ووُضعت في تلك الكوى دون محاولة إعادة تركيب هيئة الجسم. فكانت بعض الكوى مليئة بعظام صغيرة، وأخرى بجماجم، مرتبة بشكل هرم، حتى لا تتدحرج الواحدة فوق الأخرى. كان حقّاً منظراً مرعباً، خاصة مع تلاعب الظلال والأنوار التي يرمي بها السّراج على مدى الممرّ. وفي كوّة لم أرَ إلاّ أيد، مجموعة هائلة من الأيدي، أصبحت متماسكة إلى الأبد، وقد تشابكت أصابعها الميتة. وأطلقت صيحة في ذلك المكان الآهل بالأموات، وقد أحسست للحظة أن هناك شيئاً حيّاً، وصفيراً، ثم حركة خاطفة في العتمة. فطمأنني غوليالمو قائلاً إنها فئران.

ـ «ماذا تفعل الفئران هنا؟»

ـ «إنها تمرّ، كما نمرّ نحن، لأن المَعْظَمة تقود إلى الصّرح، وإذن إلى المطابخ، وإلى كتب المكتبة اللذيذة. الآن تفهم لماذا كان وجه مَلاخي صارماً بتلك الصفة. فمهامّه تجبره على المرور من هنا مرتين في اليوم، في المساء وفي الصباح. أكيد أنه لا يجد أي دافع للضحك».

Twitter: @ketab_n

فسألته دون سبب: «ولكن لماذا لا يذكر الإنجيل أبداً أن المسيح كان يضحك؟ هل الحقيقة كما قال يورج؟»

ـ «إن الذين تساءلوا هل ضحك المسيح قطّ كثيرون جداً. والأمر لا يهمني كثيراً. أعتقد أنه لم يضحك قط، لأنه كان عالماً بكل شيء كما ينبغي أن يكون ابن الرّب وكان يعرف إذن ماذا سنفعل نحن، المسيحيين. ولكن ها نحن قد وصلنا».

وفعلاً انتهى الرواق والحمد للّه، وبدأت مجموعة أخرى من الدرجات وبعد أن تجاوزناها لم يبقَ إلاّ أن ندفع باباً من اللوح الغليظ المقوّى بالحديد، فوجدنا نفسينا وراء مدفأة المطابخ، بالضبط تحت السلم الحلزوني الذي يؤدي إلى قاعة الكتابة. وبينما كنا نصعد، خُيِّل إلينا أننا سمعنا صوتاً آتياً من فوق. فبقينا لحظات في صمت ثم قلت:

ـ «مستحيل، لم يدخل أحد قبلنا».

ـ «ذلك إذا ما افترضنا أن هذه الطريق هي الوحيدة المؤدية إلى الصّرح. في القرون الماضية كانت هذه قلعة، وقد يكون هناك من الممرات السرية أكثر مما يمكن أن نتصوّر. لنصعد بأناة، ولكن ليس لنا الخيار. إن أطفأنا السراج لن نتعرف على طريقنا وإن تركناه مشتعلاً أَنْذَرْنا من هو موجود من فوق. أملنا الوحيد، إن كان هناك أحد، أن يكون خوفه أشدّ من خوفنا».

ووصلنا إلى قاعة الكتابة، خروجاً من البرج الجنوبي. كانت طاولة فينانتسيو توجد في الجهة المعاكسة بالضبط. وكان سراجنا لا يُنير في تنقلنا إلاّ أذرعاً قليلة من الجدار، لأن القاعة كانت فسيحة جداً. وأملنا أن لا يكون هناك أحد في الساحة يرى النُّور من خلال النوافذ. كانت الطاولة تبدو مرتبة، ولكن غوليالمو انحنى ليعاين الأوراق في الرف السّفلي وبعث بصيحة تنمّ عن خيبة الأمل فسألته: «هل ينقص شيء؟»

ـ «لقد رأيت اليوم هنا كتابين، وكان أحدهما باليونانية. وهذا الأخير غير موجود. لقد أخذه أحدهم، وبكثير من العجلة، لأن رقّاً سقط هنا على الأرض».

Twitter: @ketab_n

ـ «ولكن الطاولة كانت محروسة...»

ـ «أكيد، قد يكون أحدهم لمسها منذ قليل. ولعلّه لا يزال هنا»، ثم التفت نحو الظلال ودوّى صوته قائلاً: «إن كنت هنا حاذر على نفسك!». وبدت لي فكرة طيبة، كما قال غوليالمو منذ حين، من الأفضل أن يكون خوف من يثير فينا الخوف أشدّ من خوفنا.

ثم وضع غوليالمو الورقة التي وجدها تحت الطاولة وقرّب منها وجهه، وطلب مني أن أضيئه. فقرّبت منه السراج ورأيت ورقة نصفها الأول أبيض، والنصف الثاني مغطّى بأحرف دقيقة جداً، تعرفت من خلالها بصعوبة على مصدرها. فسألته:

ـ «هل هي يونانيّة؟»

ـ «نعم، ولكنني لا أفهم جيّداً»، وأخرج من ثنايا ثوبه عدستيه ووضعهما بإحكام فوق أنفه، ثم قرّب وجهه أكثر:

ـ «إنها يونانية، كتبت بأحرف صغيرة جداً، وعلى كلّ حال بدون نظام، حتى بالعدستين أقرأ بصعوبة. يلزم نُور أكثر. اقترب...»

كان قد أخذ الورقة ممسكاً إياها أمام وجهه وأنا، بغباوة، بدلاً من أن أمرّ خلف كتفيه وأن أمسك بالنُّور عالياً فوق رأسه، وقفت أمامه بالضبط. فطلب مني أن أتحول على الجانب، وفي تنقلي لامست النار قفا الورقة، فدفعني غوليالمو بعيداً وسألني إن كنت أريد أن أحرق له المخطوط، ثم صاح صيحة إعجاب. ورأيت علامات تظهر بوضوح في النصف الأعلى من الصفحة، غير محددة وذات لون أصفر كستنائي. فطلب مني غوليالمو السّراج وحرّكه وراء الورقة، مقرباً النار من سطح الرّق بحيث تُسخّنه دون أن تلمسه. وببطء، وكأن يداً خفيّة أخذت تكتب «Mane, Tekel, Fares» ورأيت رسوماً لا تشبه أي نوع من الحروف إلاّ تلك التي يستعملها المُنَجّمون، تظهر واحدة بعد الأخرى، كلّما حرك غوليالمو السّراج بينما الدخان الخارج من طرف الجذوة كان يسوّد القفا. فقال غوليالمو:

Twitter: @ketab_n

ـ «رائع! إننا نمرّ من هامّ إلى أهمّ!»، ثم نظر حواليه وقال: «ولكن من الأحسن أن لا نعرض هذا الاكتشاف إلى تحيّلات ضيفنا المجهول، إن كان لا يزال هنا...»، ثم خلع العدستين ووضعهما على الطاولة ولفّ الرقّ بعناية ثمّ خبأه بين ثنايا ثوبه. كنت لا أزال مندهشاً لتلك السلسلة من الأحداث التي أقل ما يمكن أن يقال فيها إنها معجزة، وكنت على وشك أن أسأله بعض الشروح، عندما لفت انتباهنا صوت مفاجىء وحادّ. كان يأتي من أسفل السلّم الشرقي المؤدي إلى المكتبة. فصاح غوليالمو: «إن صاحبنا هناك، أمسك به!»

واندفعنا نحو تلك الجهة، وكان هو أسرع مني لأنني كنت أحمل النُور. ثم سمعت صوت جسم يتعثّر ويسقط، فأسرعت ووجدت غوليالمو عند أسفل السلّم وهو يتفحص مجلداً ضخماً تشدّ غلافه أسطوانات من المعدن. وفي اللحظة نفسها سمعنا صوتاً آخر صادراً من الجهة التي أتينا منها. فصاح غوليالمو: «يا لي من غبيّ! أسرع إلى طاولة فينانتسيو!»

وفهمت أن أحداً كان مختفياً في الظلمة وراءنا ورمى بالمجلّد كي يبعدنا.

ومرة أخرى كان غوليالمو أسرع مني والتحق بطاولة فينانتسيو. وبينما كنت أتبعه لمحت بين الأعمدة ظلاً يختفي، متخذاً سلّم البرج الغربي.

وأخذني حماس المحارب فسلّمت السراج لغوليالمو ورميت بنفسي في الظلمة نحو السلّم الذي نزل منه الهارب. كنت أحسّ بنفسي في تلك اللحظة كمحارب المسيح في كفاح ضدّ كتائب الجحيم كلّها، وكنت أتّقد رغبة في القبض على المجهول لتسليمه إلى أستاذي. وتدحرجت، إن صحّ القول، على السلّم الحلزوني متعثراً في أطراف ثوبي (وأقسم انها كانت تلك المرة الوحيدة التي ندمت فيها على الدخول في نظام رهباني!) ولكن في اللحظة نفسها تعزيت، كان خاطراً دام ومضة عين، مفكراً أن خصمي أيضاً كان يعاني دون شك من العرقلة نفسها. بل وأكثر، إن كان قد سرق الكتاب، لأن يديه ستكونان مشغولتين. واندفعت إلى المطبخ وراء فرن الخبز، وفي ضوء الليلة المليئة بالنجوم التي كانت تنير الرواق الفسيح، رأيت الشبح الذي كنت ألاحقه، وهو يدخل من باب قاعة الأكل مغلقاً

Twitter: @ketab_n

الباب وراءه. وأسرعت نحو ذلك الباب ووجدت صعوبة في فتحه، ولكنني بعد لحظات تمكّنت من الدخول ونظرت حواليَّ فلم أر أحداً. كان الباب الذي يفتح على الخارج لا يزال موصداً. التفتُّ ورائي، لا شيء غير الظلمة والصمت. ثم لمحت نوراً آتياً من المطبخ فاتكأت على حائط، وعلى العتبة التي تفصل بين القاعتين ظهر شبح يضيئه نور. صحت. كان غوليالمو:

ـ «لا أحد؟ لقد توقعت ذلك. إنه لم يخرج من باب من الأبواب. هل اتخذ الممرّ عبر المَعْظَمة؟»

ـ «كلاّ، لقد خرج من هنا، ولكن لا أدري من أين؟»

ـ «لقد قلت لك إنّ هناك ممرّات أخرى، ولا فائدة من البحث عنها. قد يكون صاحبنا الآن خارجاً من بعض الأماكن البعيدة. ومعه عدستاي».

ـ «عدستاك؟»

ـ «فعلاً، هو كذلك، لم يقدر أن يفتكّ مني الورقة ولكنّه عند مروره قرب الطاولة، وبحضور ذهني كبير، أخذ عدستيّ».

ـ «ولماذا؟»

ـ «لأنه ليس غبياً. لقد سمعني أتحدث عن هذه المذكرة وفهم أنها هامّة، ففكّر أنه بدون العدستين لن يكون بإمكاني فكّ رموزها، ويعرف بكلّ تأكيد أنني لن أثق بأحد لإظهارها له. وفعلاً، الآن أصبحتُ وكأنني لا أملكها».

ـ «ولكنه كيف كان على علم بعدستيك؟»

ـ «ماذا تقول! بقطع النظر عن كوننا تحدثنا عن ذلك بالأمس مع الزجّاج، فقد وضعتهما هذا الصباح في قاعة الكتابة لأتفحص بهما أوراق فينانتسيو. وإذن كثيرون يعرفون الآن قيمة تلك الأداة وأهميّتها. وفعلاً أستطيع أن أقرأ مخطوطاً عادياً، ولكن ليس كهذا»، وكان يحلّ من جديد لفافة الرق الغامض، حيث كانت أحرف الجزء المكتوب باليونانية صغيرة جدّاً، بينما كان الجزء الأعلى غامضاً تماماً. . . .

Twitter: @ketab_n

وأراني الرسوم الغامضة التي ظهرت، بصفة تكاد تكون سِحْرية، بفعل حرارة النار وقال: «لقد أراد فينانتسيو أن يخفي سرّاً هامّاً واستعمل حبراً لا يترك أثراً ويظهر بفعل الحرارة. أو استعمل عصير الليمون. ولكن بما أنني لا أعرف أي مادّة استعمل، ويمكن أن تختفي الرسوم من جديد، أسرع أنت، بما أن نظرك جيّد، وانسخها حالاً بأكثر ما تستطيع من الدقة وبحروف أكبر قليلاً إن أمكن.

وهكذا فعلت دون أن أعرف ماذا كنت أنسخ. كانت مجموعة من أربعة أو خمسة سطور تنتمي حقيقة إلى عالم الشعوذة، وأستحضر منها الآن العلامات الأولى فقط كي أعطي للقارىء فكرة عن الغموض الذي كان تحت أنظارنا:

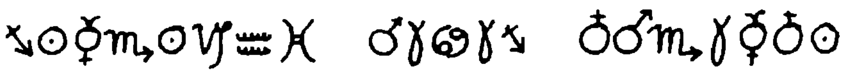

عندما انتهيت من النسخ نظر غوليالمو، للأسف دون عدستيه، ممسكاً بلوحتي على مسافة بعيدة عن أنفه وقال: «إنها دون شكّ حروف غامضة وينبغي فك رموزها. ولم تُرسم العلامات جيداً وربما نقلتها أنت بصفة أسوأ، ولكنها دون شك حروف بروجية. أترى؟ في السطر الأول عندنا...»، وأبعد الورقة أكثر، مضيّقاً عينيه ومركزاً جهوده ثم قال: «الرامي، الشمس، عطارد، العقرب...»

ـ «وماذا تعني؟»

ـ «لو كان فينانتسيو ساذجاً لاستعمل الحروف البروجية المعتادة أكثر أي: أ، تساوي الشمس، ب تساوي الزهرة... السطر الأول يعني إذن... حاول أن تنقل: RAIQASVL...»، ثمّ توقّف: «لا، لا يعني شيئاً، ولم يكن فينانتسيو غبيّاً. لقد أعاد تركيب الحروف بحسب مفتاح آخر وينبغي أن أكتشفه».

فسألته بإعجاب: «وهل ذلك ممكن؟»

ـ «نعم، لو كان لدينا القليل من معرفة العرب. إن أروع الدراسات حول الشفرات الغامضة كتبها علماء كفّار، وفي أُكسفورد استطعت أن أحصل على إحداها لقراءتها. لقد صحّ قول بيكون عندما أكّد أن التمكن من العلم يمرّ من

Twitter: @ketab_n

خلال معرفة اللغات. لقد كتب أبو بكر أحمد بن علي بن وحشية النبطي، منذ عدة قرون، كتاب **شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام**، وعرض عدة قواعد لتركيب ولفكّ رموز الحروف الغامضة، صالحة للشعوذة ولكن أيضاً للمراسلة بين الجيوش، أو بين ملك وسفرائه. لقد رأيت كتباً عربية تعرض مجموعة من الوسائل حقاً عبقرية. يمكنك مثلاً أن تعوّض حرفاً بحرف آخر، أو أن تكتب الحرف مقلوباً، أو أن تضع الحروف في نظام معاكس، أو أن تأخذ مرة حرفاً وأخرى لا، ثمّ تعيد الكرّة من جديد. يمكنك كما هو الحال هنا تعويض الحروف بالعلامات البروجية، معطياً للحروف الخفية قيمتها العدديّة وبعد ذلك، بحسب حروف أبجدية أخرى، تعويض الأرقام بالحروف».

- «وأي طريقة اتخذ فينانتسيو من بين هذه الطرق؟»

- «ينبغي محاولتها كلها، وأخرى زيادة عنها. ولكن القاعدة الأولى لفكّ رمز رسالة هو معرفة ماذا تعني».

فضحكت قائلاً: «إذن لا داعي عندئذٍ لفك رموزها».

- «ليس بذلك المعنى. ولكن بوسعنا أن نصوغ بعض الافتراضات حول المعنى الذي يمكن أن تؤديه الكلمات الأولى للرسالة، ثم التحقق إن كانت القاعدة المستخرجة منها صالحة لبقية المكتوب. مثلاً، من المؤكد أن فينانتسيو قد سجّل المفتاح للدخول إلى «finis Africae». لو بنيتُ الفكرة على أن الرسالة تتحدث عن ذلك، ها إنني أجد نسقاً ينيرني... حاول أن تنظر إلى الكلمات الثلاث الأولى، لا تعطِ أهمية للحروف بل انتبه لعدد العلامات فقط... IIIIIII IIIII IIIIIIII... الآن حاول أن تقسّمها إلى مقاطع يتركب كل منها من علامتين على الأقل واقرأ بصوت مرتفع: طا طا طا، طا طا، طا طا طا... ألا تذكرك بشيء؟»

- «أنا؟ لا شيء»،

- «أما أنا فنعم. Secretum finis Africae... ولكن إذا كان الأمر هكذا فسيكون في الكلمة الأخيرة حرف أول وسادس متماثلين، وفعلاً هو كذلك، ها نحن نجد مرّتين رمز الأرض والحرف الأول في الكلمة الأولى، حرف «S» يكون

Twitter: @ketab_n

مماثلاً للحرف الأخير من الكلمة الثانية: وفعلاً نجده أعاد رسم رمز العذراء. قد نكون على الطريق الصحيحة وقد تكون سلسلة من الصدف فقط. ينبغي إيجاد قاعدة التطابق».

ـ «إيجادها أين؟»

ـ «في الرأس. ابتكارها. ثم التحقق إن كانت صحيحة. ولكن بين تجربة وأخرى، سأضيع في هذه اللعبة يوماً كاملاً. لا أكثر ـ تذكّر ـ لأنه ليست هناك كتابة سرية لا يمكن فكّ رموزها بقليل من الصبر. ولكننا الآن قد نتعطل بينما نريد زيارة المكتبة. زِد على ذلك أنه دون عدستيَّ لن أقدر أبداً على قراءة الجزء الثاني من الرسالة، وأنت لا تستطيع مساعدتي لأن هذه العلامات بالنسبة إليك...»

فأكملت متصاغراً «يونانية ولا يمكنني قراءتها».

ـ «فعلاً، كما ترى كان بيكون على حقّ. ادرس! ولكن لا ينبغي أن نفقد العزم. لنحفظ الرق ومذكرتك ثم نصعد إلى المكتبة، لأن هذا المساء لن تمنعني عن ذلك ولو عشر كتائب من الجحيم».

فرسمت علامة الصليب وسألته: «من تظن سبقنا إلى هنا؟ بانشيو؟»

ـ «بانشيو قد يتّقد رغبة في معرفة ماذا يوجد بين أوراق فينانتسيو، ولكنه لا يبدو لي قادراً أن يلعب لنا دوراً لئيماً كهذا. في نهاية الأمر قد عرض علينا تحالفاً، ثم لا يبدو لي من الشجاعة بحيث يدخل إلى الصّرح أثناء الليل».

ـ «إذن برينغاريو؟ أو مَلاخي؟»

ـ «برينغاريو يبدو لي قادراً على القيام بأعمال من هذا القبيل. فهو في نهاية الأمر مكلف أيضاً بالمكتبة، وهو فريسة لتوبيخ الضمير لأنه خان بعض أسرارها. يظن أن فينانتسيو سرق الكتاب وكان يريد إعادته إلى مكانه. لم يستطع الصعود. والآن قد أخفى الكتاب في مكان ما، وإذا ما كان اللّه في عوننا، سنفاجئه ويده في الكيس عندما سيحاول إعادته إلى موضعه».

ـ «ولكن يمكن أن يكون مَلاخي، فإن الدوافع نفسها تحرّكه».

Twitter: @ketab_n

ـ «لا أظن. فقد سنح لمَلاخي كل الوقت الذي يريده للتفتيش في طاولة فينانتسيو عندما بقي وحده لغلق الصّرح. كنت أعرف ذلك جيداً ولم تكن لديّ أية وسيلة لتفاديه. الآن نعرف أنه لم يفعل ذلك. وإذا ما فكرت جيداً، ليس لدينا دافع للظن أن مَلاخي كان يعرف أن فينانتسيو دخل إلى المكتبة وأخذ منها شيئاً. هذا يعرفه برينغاريو وبانشيو ونعرفه أنا وأنت. وبعد اعتراف أدالمو يمكن أن يكون يعرفه يورج، ولكنه، دون شك، ليس رجلاً بمقدوره أن يندفع بتلك القوة في سلّم حلزوني...»

ـ «إذن، إمّا برينغاريو أو بانشيو...»

ـ «ولِمَ لا يكون باتشيفكو دا تيفولي أو أحد الرُّهبان الذين رأيناهم اليوم؟ أو نيكولا الزَّجّاج، فهو على علم بنظاراتي؟ أو ذلك الشخص الغريب سلفاتوري، الذي قالوا لنا إنه يطوف أثناء الليل والله أعلم لقضاء أي شأن؟ ينبغي أن نحاذر من تضييق حلقة المشتبه فيهم فقط لأن مكاشفات بانشيو وجّهتنا نحو اتجاه واحد. قد يكون هدف بانشيو أن يضلّلنا».

ـ «ولكنه كان يبدو لك صادقاً».

ـ «أكيد، ولكن تذكّر أن أوّل ما يجب على المحقق الكفء هو أن يشكّ بادىء ذي بدء في من يبدون له صادقين».

ـ «إنها لمهنة بغيضة تلك التي يقوم بها المحقق».

ـ «لذلك تركتها، والآن كما ترى يجب عليّ الرجوع إليها. هيّا بنا الآن. إلى المكتبة».

Twitter: @ketab_n

اليوم الثاني: ليلاً

وفيه يتوغّل أدسو وغوليالمو أخيراً داخل المتاهة، وتحدث لهما رؤى عجيبة ثم، وكما يقع عادة في المتاهات، يتيهان

صعدنا من جديد إلى قاعة المكتبة، وهذه المرة عبر السُّلّم الشرقي الذي يصعد أيضاً إلى الطابق المحجّر، يسبقنا السّراج عالياً أمامنا. وكنت أنا أفكر في كلمات أليناردو حول المتاهة منتظراً أن أرى أشياء مرعبة.

وفوجئت عندما صعدنا إلى المكان الذي كان ينبغي أن لا ندخله، لمّا وجدت نفسي في قاعة ذات سبعة جوانب، ليست فسيحة جداً ولا توجد بها نوافذ، وكانت تسودها كباقي الطابق رائحة قوية من الانغلاق والتعفن. ولا شيء يبعث على الرعب.

قلت إن القاعة كانت ذات سبعة جوانب، ولكن في أربعة منها فقط ينفتح، بين عمودين مندمجين في الحائط، ممرّ على شيء من الاتساع يعلوه قوس ذو عقد كامل. وعلى طول الجدران الخالية من النوافذ تقف خزائن ضخمة محملة بكتب مرصوفة بنظام. وعلى كل خزانة بطاقة تحمل رقماً وكلّ رفّ منها يحمل بطاقة مماثلة: من الواضح أنها كانت الأرقام نفسها التي رأيناها في الفهرس. وفي وسط القاعة طاولة محملة هي أيضاً بالكتب. وكان على كل الكتب غشاء خفيف من الغبار، مما يدل على أن الكتب كانت تنظف بشيء من الانتظام، وحتى الأرض كانت خالية من الأقذار من أي نوع كانت. وفوق قوس أحد الأبواب رَشْم كبير رُسم على الحائط يحمل هذه الكلمات: Apocalypsis Iesu Christi ولم تفقد الكتابة لونها حتى وإن كانت قديمة. ولاحظنا فيما بعد وفي القاعات الأخرى أيضاً أن تلك الكتابات كانت في الحقيقة محفورة في الحجارة، وبعمق أيضاً، ثم مُلىء التجويف بالألوان كما يقع العمل في الرسم بالألوان على جدران الكنائس.

Twitter: @ketab_n

ومررنا عبر أحد المنافذ فوجدنا نفسينا في قاعة أخرى توجد بها نافذة كانت تحمل عوضاً عن الزُّجاج صفائح من المرمر الأبيض. ولها جداران مليئان ومنفذ يشبه المنفذ الذي مررنا منه يؤدي إلى قاعة أخرى لها جداران مليئان هي أيضاً وواحد يحمل نافذة، وباب آخر ينفتح أمامنا. وفي القاعتين رَشْمان شبيهان في شكليهما بالأول الذي رأيناه ولكن بكلمات أخرى. ويقول رَشْم الأولى: Super thronos viginti quatuor ورَشْم الثانية: Nomen illi mors. وما عدا ذلك، ومع أن القاعتين كانتا أصغر من التي دخلنا منها إلى المكتبة (وفعلاً، كانت هذه مسبَّعة الأضلاع بينما كانت الأخريان مستقيمتي الأضلاع)، فإن الأثاث كان هو نفسه: خزائن مليئة بالكتب وطاولة في الوسط.

ثم مررنا إلى القاعة الثالثة. كانت خالية من الكتب ولا تحمل رَشْماً وكان تحت النافذة مذبح من الحجارة كما كان يوجد بالقاعة ثلاثة أبواب، الباب الذي دخلنا منه، والباب الذي يؤدي إلى القاعة المسبّعة الأضلاع التي زرناها، وباب ثالث أدّى بنا إلى قاعة جديدة، غير مُختلفة عن الأخريات، ما عدا الرَشْم الذي كان يقول: Obscuratus est sol et aer ومن هناك مررنا إلى قاعة أخرى تقول كتابتها: Facta est grando et ignis ولم تكن بها أبواب، أو بالأحرى، بعد الوصول إلى تلك القاعة لا يمكن المضي إلى الأمام وينبغي الرجوع إلى الوراء.

فقال غوليالمو: «لنفكر. خمس قاعات مربّعة الزوايا أو شبيهة بالمُنحرف، تحمل كل منها نافذة وتحيط كلها بقاعة مسبّعة الأضلاع دون نوافذ، يصعد إليها السُلَّم. بسيطة. إننا في البرج الشرقي. كل برج يظهر من الخارج خمس نوافذ وخمسة جوانب. الحساب مضبوط. القاعة الفارغة هي فعلاً تلك التي تطل على الشرق، في اتجاه محراب الكنيسة نفسه وأشعة الفجر تضيء المذبح وهذا يدل على الصواب والتقوى. والفكرة الوحيدة التي تبدو لي ذكية هي صفائح المرمر الأبيض. في النهار ينفذ من خلالها ضوء جميل وفي الليل لا تنفذ منها حتى أشعة القمر. في آخر الأمر ليست متاهة كبيرة. لنرَ الآن أين يؤدي البابان الآخران الموجودان في القاعة المسبّعة الأضلاع. أظن أننا سنجد وجهتنا بسهولة».

لقد أخطأ أستاذي وكان بُناة المكتبة أكثر مهارة ممّا كنا نظن. لا أعرف كيف أفسر

Twitter: @ketab_n

جيّداً ما حصل، ولكن عندما تركنا البرج، أصبح نظام القاعات أكثر فوضى. فقد كان بعضها ذا بابين والبعض الآخر ذا ثلاثة. وكانت لكل واحدة منها نافذة، حتى تلك التي دخلناها آتين من قاعة ذات نافذة وقد توقعنا أننا سنذهب داخل المبنى. وكانت لكل قاعة دائماً خزائن من النوع نفسه وطاولات، وكانت الكتب المكدسة في نظام جميل كلها متشابهة ولا تعيننا البتة على التعرف بنظرة واحدة على المكان. فحاولنا أن نتجه متبعين الرسوم، فاجتزنا مرة قاعة تحمل كتابة تقول: In diebus illis وبعد طواف وجيز بدا لنا أننا عدنا إلى هناك، ولكننا كنا نتذكر أن الباب أمام النافذة كان يؤدي إلى قاعة تحمل كتابة تقول: «Primogenitus mortuorum»، بينما نجد الآن كتابة أخرى تقول من جديد: «Apocalypsis Iesu Christi»، وليست القاعة المسبّعة الأضلاع التي بدأنا منها. وهذا الأمر أقنعنا أن الرشوم تُعاد هي نفسها في قاعات مُختلفة. ووجدنا قاعتين تحملان: «Apocalypsis»، الواحدة تلو الأخرى تتبعهما حالاً أخرى تحمل: «Cecidit de coelo stella magna».

كان مأتى الجُمل التي تحملها الرشوم واضحاً، هي أبيات من رؤيا يوحنا، ولكن لم يكن واضحاً بالمرّة لماذا رسمت على الجدران، ولا حسب أي منطق رتبت. ومما زاد في حيرتنا، أننا لاحظنا أن بعض الرشوم، وليست كثيرة، كانت باللون الأحمر بدلاً عن الأسود.

وفجأة وجدنا نفسينا في القاعة المسبعة الأضلاع التي بدأنا بها (كان من السهل التعرف عليها لأن مخرج السلم يفتح فيها)، ومضينا على يميننا محاولين المضي دائماً إلى الأمام مارّين من قاعة إلى أخرى. فاجتزنا ثلاث قاعات ثم وجدنا نفسينا أمام جدار مغلق. كان الممر الوحيد الموجود يؤدي إلى قاعة أخرى بها باب واحد، لما خرجنا منه اجتزنا أربع قاعات أخرى ووجدنا نفسينا من جديد أمام جدار. فعدنا إلى القاعة السابقة التي كان بها بابان واجْتزنا الباب الذي لم نجرّبه من قبل، ومررنا إلى قاعة أخرى فوجدنا نفسينا من جديد في القاعة المسبعة الأضلاع التي بدأنا منها، فسألني غوليالمو: «ماذا كانت تسمّى القاعة الأخيرة التي رجعنا منها؟»

فاجتهدت كي أجمع ذاكرتي وقلت: «Equus albus».

ـ «حسناً، لنعد إليها».

Twitter: @ketab_n

وكان ذلك سهلاً. من هناك إن أردنا أن لا نعود على أعقابنا فليس علينا إلاّ أن نمرّ من القاعة المسماة «Gratia vobis et pax»، ومن هناك، على اليمين بدا لنا أننا وجدنا ممراً آخر يعيدنا من حيث أتينا. وفعلاً وجدنا من جديد قاعتي «In diebus illis» و «Primogenitus mortuorum» (هل كانتا القاعتين نفسيهما اللتين رأيناهما منذ حين؟) وأخيراً وصلنا إلى قاعة لم يبدُ لنا أننا زرناها من قبل تحمل كتابة «Tertia pars terrae combusta est» ولكن عند ذلك الحد لم نعد نعرف أين كنّا نوجد بالنسبة إلى البرج الشرقي.

وتقدمت نحو القاعات الموالية ويدي تسبقني بالسراج. وإذا بعملاق ذي هامة مخيفة وجسم متموج وسابح كجسم الشبح يتقدم نحوي فصحت: «الشيطان!» وكاد السّراج أن يقع من يدي بينما دُرْتُ على نفسي دَوْرة واحدة وهربت لألتجىء بين أحضان غوليالمو. فأخذ من يدي السِّراج وبعد أن أبعدني عنه تقدم بعزم بدا لي رائعاً. ورأى هو أيضاً شيئاً، لأنه تراجع فجأة إلى الوراء ثم تقدم من جديد ورفع المصباح وانفجر ضاحكاً: «فكرة عبقرية حقاً. إنها مرآة!»

ـ «مرآة؟»

ـ «نعم، أيها الفارس الشجاع. أنت الذي لاحقت بكل شجاعة عدواً حقيقياً في قاعة الكتابة، ترعبك الآن صورتك. مرآة تردّ إليك صورتك مضخمة وملتوية».

ثم أخذني من يدي وقادني أمام الجدار الذي يقع تجاه مدخل القاعة. في صفيحة من البِلَّوْر متموجة رأيت صورتينا، الآن وقد أضاءهما النُّور من قريب، مشوهتين بصفة غريبة، ويتغيّر شكلهما وقامتهما كلما اقتربنا أو ابتعدنا عنها.

فقال غوليالمو بمرح: «يجب أن تقرأ بعض الكتب في علم البصريات كما قرأها دون شك مؤسّسو هذه المكتبة. وأحسنها هي كتب العرب. لقد ألف أبو الحسن بن الهيثم(*) كتاباً بعنوان **المناظر** حيث يتحدث، مستدلاً ببراهين

(*) ابن الهيثم (أبو علي الحسن) [965-1039م] فلكي ورياضي من أهل البصرة، اشتهر بكتابه «المناظر» في البصريّات. [المترجم].

Twitter: @ketab_n

دقيقة في علم المساحة، عن قوة المرايا. فبعضها، بحسب الشكل الذي صنع به سطحها، تستطيع أن تضخم الأشياء الصغيرة جداً (وليست عدستاي إلاّ ذلك)، وأخرى تظهر الصور منقلبة، أو مائلة، أو تظهر شيئين عوضاً عن واحد، وأربعة عوضاً عن اثنين. وأخرى كهذه تجعل من القزم عملاقاً ومن العملاق قزماً».

فقلت: «يا إلٰهي، هذه إذن الرؤى التي قال أحدهم إنه رآها في المكتبة؟»

«قد يكون. إنها فكرة عبقرية جداً. ثم قرأ الكتابة على الحائط، فوق المرآة: «Super thronos viginti quatuor»، لقد عثرنا عليها من قبل، ولكن القاعة كانت دون مرآة، ومن ناحية أخرى لا توجد بهذه نوافذ ومع ذلك فهي ليست مسبّعة الأضلاع. أين نحن؟» ثم نظر حواليه واقترب من خزانة: «أدسو، بدون تلك العدستين المجعولتين للقراءة لا أقدر على فهم ما هو مكتوب على هذه الكتب. اقرأ لي بعض العناوين».

فأخذت من بينها كتاباً: «سيدي ليس مكتوباً!»

- «كيف؟ أرى أنه مكتوب. ماذا تقرأ؟»

- «لا أقرأ. ليست حروفاً أبجدية ولا يونانية، لو كانت كذلك لكان بإمكاني التعرف عليها. تبدو ديداناً أو ثعابين، أو وسخ ذباب...»

- «آه، إنها عربية. هل هناك كتب أخرى مثل هذا؟»

- «نعم، البعض. ولكن ها واحد باللاتينية، إن شاء اللّه. الـ...، الخوارزمي،»

- «لوحات الخوارزمي الفلكية، ترجمها أديلاردو دا باث! إنه كتاب نادر جداً! واصل».

- «عيسى بن علي، **في علم البَصر**، الكندي(*)، **في تناهي جرم العالم**».

(*) الكندي (أبو يوسف يعقوب) [نحو 796-873] فيلسوف عُنِيَ بالرياضيات والمنطق والعلوم الطبيعية والفلك والموسيقى. من كتبه «رسالة في الفلسفة الأولى»، «رسالة في حدود الأشياء ورسومها» وألّف في علم الفلك «رسالة في إيضاح تناهي جرم العالم» [المترجم].

Twitter: @ketab_n

- «انظر الآن فوق الطاولة».

ففتحت كتاباً كبيراً كان موضوعاً على الطاولة، كتاب **الحيوان** وعثرت على صفحة منمنمة بدقة وتمثل وحيد قرن جميلاً جداً. فقال غوليالمو معلقاً: «إنها من نمط رفيع»، وكان بإمكانه أن يرى جيداً الصور، «والآخر؟»

فقرأت **كتاب الوحوش بمُختلف أنواعها**. وهذا أيضاً كان يحمل صوراً جميلة ولكنها كانت تبدو لي أكثر قدماً.

فانحنى غوليالمو بوجهه على النص: «لقد نَمْنَمَهُ رُهبان إيرلنديون منذ خمسة قرون على الأقل. أما كتاب وحيد القرن فهو أحدث بكثير، ويبدو لي عمل رُهبان فرانشسكانيين».

وأعجبت مرة أخرى بسعة علم أستاذي. ثم دخلنا إلى القاعة الموالية، واجتزنا القاعات الأربع الموالية، وكانت كلها ذات نوافذ وملِيئة بكتب في لغات مجهولة، مع بعض النصوص في علم التنجيم، ووصلنا إلى جدار ألزمنا على الرجوع إلى الوراء لأن القاعات الأخيرة الخمس كانت تفضي الواحدة إلى الأخرى دون إمكانية للخروج.

فقال غوليالمو: «بحسب انحناء الجدران، نحن نوجد الآن في مخمَّس برج آخر. ولكن لا توجد هنا قاعة وسطى مسبّعة الأضلاع، قد نكون أخطأنا». فقلت: «ولكن النوافذ؟ كيف يمكن أن توجد نوافذ بهذا العدد؟ من المستحيل أن تفتح كل القاعات على الخارج».

- «لقد نسيت البئر الوسطى، إن الكثير من تلك النوافذ التي رأيناها تفتح على مثمَّن البئر. لو كان الوقت نهاراً لاستطعنا أن نتبيّن، من اختلاف النُّور، النوافذ الخارجية من النوافذ الداخلية، ويمكن أن يرشدنا حتى إلى موقع القاعة بالنسبة إلى الشمس. ولكن في الليل لا يمكن ملاحظة أي فارق. لنعد إلى الوراء». ورجعنا إلى قاعة المرآة ثم انعطفنا نحو الباب الثالث الذي ظننا أننا لم نمرّ منه بعد. فرأينا أمامنا أربع أو خمس قاعات متتابعة، ونحو القاعة الأخيرة لمحنا نوراً ضعيفاً. فصحت بصوت مختنق: «هناك أحد!»

Twitter: @ketab_n

فقال غوليالمو: «إن كان هناك أحد فقد تفطّن إلى ضوئنا» ـ وغطّى مع ذلك السِّراج بيده. وبقينا كذلك دقيقة أو دقيقتين. وبقي الضياء يتراقص ببطء، ولكن دون أن يقوى أو يضعف.

فقال غوليالمو: «قد يكون سراجاً لا غير، من تلك التي وضعت لتقنع الرُّهبان بأن أرواح الموتى تسكن المكتبة. ولكن ينبغي أن نعرف. ابقَ أنت هنا مغطياً الضوء، سأتقدم أنا بحذر».

كنت لا أزال خجلاً من سلوكي الجبان منذ حين أمام المرآة وأردت أن أصلح من موقفي أمام غوليالمو فقلت: «لا، سأذهب أنا، ابقَ أنت هنا. سأتقدم بحذر، فقامتي أصغر وأنا أخفّ. حالما أتأكد أن لا خطر هناك سأناديك».

وهكذا فعلت. تقدمت من قاعة إلى أخرى محاذياً الجدران، خفيفاً كالقط (أو كمبتدىء ينزل إلى المطبخ ليسرق الجبن من المخزن، وكنت ماهراً في هذه العملية وأنا في دير مالك). ووصلت إلى عتبة القاعة التي كان الضياء الضعيف يأتي منها، ملاصقاً الجدار خلف العمود الذي كان يكوّن قائمة الباب اليمنى وألقيت نظرة على القاعة. لم يكن بها أحد. كان هناك شيء يشبه القنديل موضوعاً على الطاولة، وكان يشتعل محدثاً دخاناً خفيفاً. لم يكن قنديلاً كقنديلنا، كان أشبه بمبخرة عارية، ولم يكن بها لهيب بل رماد خفيف كان يحترق فيه شيء. فتشجعت ودخلت. على الطاولة، قرب المبخرة كان يوجد كتاب مفتوح ذو ألوان زاهية. فاقتربت ولمحت على الصفحة أربعة شرائط بألوان مُختلفة، أصفر وزنجفر وفيروزي وكستنائي. وكانت تبرز وحشاً فظيع المرأى، تنّيناً هائلاً ذا عشرة رؤوس وكان يجذب بذنبه نجوم السماء ويقذفها على الأرض. وفجأة رأيت التنّين يتعدّد وحراشف جلده تصبح غابة من الشظايا المتوهجة تنفصل عن الورقة وتأخذ في الدوران حول رأسي. فسقطت إلى الوراء ورأيت سقف القاعة ينحني ويسقط فوقي، ثم سمعت صفيراً كأنه صفير ألف ثعبان، ولكن لم يرعبني، بل وكأنه فتنني، ثم ظهرت امرأة يحيط بها النُّور وقربت مني وجهها حتى وصل نفسها إلى وجهي. فأبعدتها بيديّ الممتدّتين وخيّل إليّ أن يديَّ تمسّان كتب الخزانة المقابلة،

Twitter: @ketab_n

أو أن الكتب كانت تكبر بإفراط. ولم أعد أدري أين أنا، وأين توجد الأرض وأين السماء، ورأيت وسط القاعة برينغاريو يحدّق فيّ بابتسامة بغيضة ملؤها الفجور. فأخفيت وجهي بين يديَّ وبدت لي يداي وكأنهما أعضاء ضفدع، لزجة وكفّيّة الشكل. فصحت، أو خُيّل إليّ، وأحسست بمرارة في فمي ثم سقطت في ظلام لامتناهٍ، كان ينفتح دائماً أكثر تحتي ولم أدرِ بعد ذلك شيئاً.

أفقت بعد مدة بدت لي قروناً وأنا أحس بضربات تدوي في رأسي. كنت ملقى على الأرض وكان غوليالمو يصفعني على خدي. لم أعد في تلك القاعة ورأت عيناي كتابة تقول: «ليستريحوا من أتعابهم»، بينما كان غوليالمو يهمس إلي:

«تشجع، تشجع يا أدسو. ليس هناك شيء..».

فقلت وأنا لا أزال أهذي: «الأشياء... هناك، الوحش...»

«ليس هناك أي وحش. لقد وجدتك تهذي عند أسفل طاولة توجد فوقها نسخة مستعربيّة جميلة من سفر الرؤيا، مفتوحة في صفحة رسمت عليها «امرأة متسربلة بالشمس» وهي تواجه التنين. ولكنني تفطّنت من الرائحة إلى أنك تنفّست شيئاً فاسداً وأبعدتك في الحال عن ذلك المكان. أنا أيضاً أحس بوجع في رأسي».

«ولكن ماذا رأيتُ؟»

«لم ترَ شيئاً. إنهم يحرقون هناك مواد قادرة على إحداث رؤى. لقد تعرفت على الرائحة، إنها مادة يستعملها العرب. قد تكون المادة نفسها التي يعطيها شيخ الجبل لمجرميه كي يتنفسوها قبل أن يدفعهم إلى أعمالهم الجنونية. وهكذا فسرنا سرّ الرؤى. إن أحدهم يضع أعشابا سِحْرية أثناء الليل لإقناع الزائرين غير المرغوب فيهم بأن المكتبة يحميها حضور شيطاني. ماذا أحسست في نهاية الأمر؟»

فقصصت عليه دون نظام وبحسب ما كنت أتذكر الرؤيا التي عشتها فضحك غوليالمو قائلاً: «نصف الرؤيا هو ما رأيته في الكتاب والنصف الآخر تركت فيه رغباتك ومخاوفك تتكلم. تلك هي العملية التي تنشطها تلك الأعشاب. ينبغي أن نتحدث في هذا غداً مع سيفيرينو، أظنه يعرف أشياء أكثر مما يريد أن يوهمنا. إنها أعشاب، أعشاب لا غير، دون اللجوء إلى التحضيرات السِّحْرية التي حدثنا عنها

Twitter: @ketab_n

صانع الزُّجاج. أعشاب، مرايا.. مكان العلم هذا، المحجّر، تحرسه ابتداعات علمية كثيرة. هنا يُستعمل العلم للتغطية عوضاً عن الإنارة. هذا لا يعجبني. إن عقلاً مُنحرفاً يترأس حماية المكتبة المقدسة. ولكنّنا قضينا ليلة مضنية، ينبغي الخروج الآن. أنت مضطرب وتحتاج إلى ماء وإلى هواء منعش. من العبث أن نحاول فتح هذه النوافذ، إنها عالية جداً وقد تكون مغلقة منذ عشرات السنين. كيف ذهب بهم الظن إلى أن أدالمو رمى بنفسه من هنا؟»

لنخرج، هكذا قال غوليالمو، كما لو كان أمراً سهلاً. كنّا نعرف أنه لا يمكن الدخول إلى المكتبة إلاّ من برج واحد، البرج الشرقي. ولكن أين كنا في تلك الآونة؟ لقد ضيعنا الوجهة تماماً. وذلك الطواف الذي قمنا به، إضافة إلى خوفنا من أن لا نخرج أبداً من ذلك المكان، بينما كنت أنا لا أزال مرتجّاً مع رغبة من حين لآخر في التقيّؤ وبينما كان غوليالمو قلقاً عليّ وساخطاً على قلّة علمه، أوحى لنا أو بالأحرى إلى غوليالمو بفكرة لليوم المقبل. يجب أن نعود إلى المكتبة، إذا ما استطعنا الآن الخروج منها، بعود محترق أو بمادة أخرى يمكن أن تترك علامات على الجدران.

وفعلاً أخذ غوليالمو يقول: «لإيجاد طريق للخروج من متاهة، ليس هناك إلا وسيلة. عند كل عقدة جديدة، أي لم نمرّ بها من قبل، ينبغي وضع ثلاث علامات عند آخر المطاف. إذا ما تبين من خلال علامات سابقة على أحد مسالك العقدة، أن تلك العقدة قد مررنا بها من قبل، وضعنا في نهاية المطاف علامة واحدة. وإذا ما أصبحت كل الممرات مميّزة بعلامات ينبغي عندئذ اتخاذ تلك الطريق رجوعاً إلى الوراء. أما إذا كان هناك ممر أو ممران دون علامات فينبغي اختيار واحد منهما ووضع علامتين فوقه. وعند المرور من منفذ يحمل علامة واحدة تضاف فوقه علامتان أخريان بحيث يصبح ذلك الممر يحمل ثلاث علامات. وستكون كل أجزاء المتاهة قد طُرقت، إذا ما لم نمرّ قط، عند الوصول إلى عقدة ما، من الممرّ الذي يحمل ثلاث علامات، إلاّ إذا لم يتبقَّ أي ممرّ آخر خالٍ من العلامات».

ـ «كيف تعرف ذلك؟ هل أنت عالم في المتاهات؟»

Twitter: @ketab_n

- «كلا، كنت أذكر فقرة من نص قديم قرأته فيما مضى».

- «ويمكن الخروج بحسب هذه القاعدة؟»

- «يكاد يستحيل ذلك، بحسب علمي. ولكننا مع ذلك سنحاول. ستكون لديّ في الأيام المقبلة عدستان ويمكنني التوقف أكثر عند الكتب. فلعلّ رشوم الكتب تعطينا قاعدة الاتجاه حيث جعلتنا رشوم الممرّات نضلّ طريقنا».

- «ستكون لديك عدستان؟ كيف ستفعل للعثور عليهما؟»

- «لقد قلت ستكون لديَّ عدستان. سأصنع أخريين. أظن أن الزَّجّاج لا ينتظر إلاّ فرصة مثل هذه للقيام بتجربة جديدة إذا ما كانت لديه الآلات اللازمة لنحت قطع الزُّجاج. أما عن قطع الزُّجاج فالدُّكان مليء بها».

بينما كنا نطوف باحثين عن طريقنا أحسست فجأة، وسط إحدى القاعات، بيد خفيفة تداعب وجهي، بينما تعالى أنين ليس بالإنساني ولا بالحيواني في تلك القاعة وفي القاعة المجاورة، كما لو كان هناك شبح يتجول من قاعة إلى أخرى. كان عليّ أن أكون متهيئاً الآن لمفاجآت المكتبة ولكن تملّكَني الرعب مرة أخرى وقفزت إلى الوراء. ويبدو أن غوليالمو تعرّض هو الآخر للتجربة نفسها إذ لمس خده رافعاً السراج إلى فوق وملتفتاً حوله.

ثم رفع يده مشيراً إلى جذوة النار التي بدت أكثر التهاباً وبلّل إصبعه بريقه ورفعه أمامه قائلاً: «الأمر واضح»، وأراني نقطتين على جدارين متواجهين، على ارتفاع قامة إنسان، تنفتح فيهما كوّتان ضيقتان، عندما تقرب منهما يدك يمكنك أن تحس الهواء البارد الآتي من الخارج. وعندما تقرب منهما أذنك تسمع حفيفاً كما لو كانت الريح تهب في الخارج.

فقال غوليالمو: «كان لا بد أن تكون للمكتبة طريقة للترويح وإلاّ لكان الهواء غير قابل للتنفس، خاصة في الصيف. ومن جهة أخرى تعطي هاتان الكوّتان كمية محددة من الرطوبة حتى لا تيبس الرقوق. ولكن حكمة المؤسسين لم تتوقف عند هذا الحد. باختيارهم موقع هاتين الكوتين بحسب زوايا محدّدة تمكنوا من جعل هبّات الريح في الليالي العاصفة تدخل من هذه النافذة وتلتقي بهبات أخرى فتنحشر

Twitter: @ketab_n

جميعها داخل القاعات محدثة تلك الأصوات التي سمعناها. وهذه، مع المرايا والأعشاب تزيد من خوف المتهورين مثلنا، الذين يدخلون هنا دون معرفة جيدة للمكان. ونحن أنفسنا ظننا لبضع ثوان أنها أشباح تنفخ أنفاسها في وجهينا. والآن فقط انتبهنا إلى ذلك لأن الريح لم تأخذ في الهبوب إلاّ الآن. وهذا السرّ أيضاً قد وجدنا حلّه. ولكن مع كلّ هذا لا نعرف حتى الآن كيف الخروج من هنا».

وبقينا نطوف هكذا دون جدوى ونحن نتحدث، تائهين، وقد أهملنا حتى قراءة الرشوم التي كانت تطالعنا كلها متساوية. ثم وصلنا إلى قاعة أخرى مسبعة الأضلاع وطفنا في القاعات المجاورة فلم نجد أي طريق للخروج. فعدنا على أعقابنا ومشينا لمدة ساعة تقريباً وقد عدلنا عن معرفة أين نوجد. وأخيراً قرر غوليالمو أننا قد غُلبنا على أمرنا ولم يتبقَّ إلاّ أن ننام في إحدى القاعات آملين أن يعثر علينا مَلاخي في اليوم التالي. وبينما كنا نتأسف على النهاية البائسة التي آلت اليها مهمتنا الرائعة وجدنا بمحض الصدفة القاعة التي يوجد بها السُلّم. فشكرنا السماء كثيراً ونزلنا بفرح كبير.

وحينما وصلنا إلى المطبخ أسرعنا نحو المدفأة ودخلنا إلى دهليز المَعْظَمة، وأقسم أن ابتسامة الموت المرسومة على تلك الرؤوس العارية بدت لي ابتسامة وجوه صديقة. ودخلنا الكنيسة ثم خرجنا من الباب الشمالي وجلسنا أخيراً بانشراح فوق لوحات القبور الحجرية. وبدا لي ذلك الهواء الليلي الجميل بلسماً إلٰهياً. وكانت النجوم تسطع من حولنا بينما أصبحت رؤى المكتبة شيئاً بعيداً جداً، وقلت بارتياح: «ما أجمل العالم وما أقبح المتاهات!»

فأجاب أستاذي قائلاً: «كم يكون العالم جميلاً لو كانت هناك قاعدة للتجوّل داخل المتاهات».

فسألته: «كم الساعة يا ترى؟»

ـ «لقد أضعت الإحساس بالزمن. ولكن من الأحسن أن نكون في حجرتينا قبل أن تدق صلاة أوّل الصبح».

ثم حاذينا جانب الكنيسة الأيسر ومررنا أمام البوّابة (وأدرت وجهي إلى

Twitter: @ketab_n

الناحية الأخرى حتى لا أرى شيوخ الرؤيا، «على أربعة وعشرين عرشاً»، وعبرنا الرواق للوصول إلى دار الضيافة.

هناك على العتبة وجدنا رئيس الدير، الذي نظر إلينا نظرة صارمة قائلاً لغوليالمو: «لقد بحثت عنكما طوال الليل، ولم أجدكما في الحجرة، ولا في الكنيسة..».

فقال غوليالمو بارتباك واضح: «كنا نقتفي أثراً» دون أي تحديد فحدّق فيه رئيس الدير طويلاً ثم قال بصوت بطيء وصارم: «لقد بحثت عنكما حالما انتهت صلاة النوم. لم يكن برينغاريو في الخورس».

فسرّ غوليالمو لذلك وقال: «ماذا تقول!» لَقد اتضحت له فعلاً الآن هويّة الشخص الذي كان مختبئاً في قاعة الكتابة.

فأعاد رئيس الدير قوله: «لم يكن في الخورس عند صلاة النوم. ولم يعد إلى حجرته. إن صلاة أوّل الصبح على وشك أن تدق وسنرى الآن هل سيظهر. وإلاّ فأنا أخشى وقوع كارثة أخرى».

عندما دقت صلاة أول الصبح لم يكن برينغاريو هناك.

Twitter: @ketab_n

اليوم الثالث

اليوم الثالث: من صَلاة الحمد إلى أولى

وفيه يقع العثور على ثوب ملطخ بالدم في حجرة برينغاريو، وكفى

إنني أحس بنفسي متعباً وأنا أكتب كما كنت أحس بالتعب في تلك الليلة، أو بالأحرى في ذلك الصباح. ماذا يمكنني أن أقول؟ بعد أداء الفرض دعا رئيس الدير جلّ الرُّهبان، وقد انتابهم الجزع، إلى البحث في كل مكان عن برينغاريو، دون جدوى.

حوالى صلاة الحمد، بينما كان أحد الرُّهبان يفتش في حجرة برينغاريو إذ عثر تحت الفراش على ثوب أبيض ملطخ بالدم. وحملوه إلى رئيس الدير الذي رأى فيه طالع شؤم. وكان يورج حاضراً وعندما أعلموه بالخبر قال: «دم؟»، كما لو كان الأمر يبدو له بعيد الاحتمال. وقالوا ذلك لألينياردو الذي هزّ رأسه قائلاً: «لا، لا، عندما يُنفخ في البوق الثالث يأتي الموت عن طريق الماء..».

أمّا غوليالمو فعندما دقّق جيداً في الثوب قال: «الآن اتضح كل شيء..».

فسألوه «أين برينغاريو إذن؟»

فأجاب «لا أدري». فسمعه أيمارو ورفع عينيه إلى السماء هامساً إلى بيترو دا سانتالبانو: «تلك هي طبيعة الإنكليز».

حوالى «أولى» وقد بزغت الشمس، أرسل رئيس الدير الخدم للبحث عند أسفل الهاوية وحول الأسوار. وعادوا عند «ثالثة» دون أن يجدوا شيئاً.

Twitter: @ketab_n

وقال لي غوليالمو إنه لم يكن بوسعنا أن نفعل أكثر من ذلك. ينبغي أن ننتظر الأحداث. ثم ذهب إلى المَصاهر وتحادث طويلاً مع نيكولا الزَّجّاج.

أما أنا فجلست في الكنيسة، قرب الباب الأوسط، بينما كان يقام القُدّاس. ونمت في ذلك الجو من التقوى طويلاً، لأنه يبدو أننا نحن الشبان نحتاج إلى النوم أكثر من الشيوخ، الذين أخذوا قسطهم من النوم ويتأهبون الآن للنوم الأزلي.

Twitter: @ketab_n

اليوم الثالث: ثَالثَة

وفيه يفكر أدسو وهو بقاعة الكتابة في تاريخ جمعيته الرُّهبانية وفي مصير الكتب

خرجت من الكنيسة وقد خفّ عني التعب ولكن فكري بقي مشوّشاً، لأن الجسم لا يتمتع براحة آمنة إلا خلال الساعات الليلية. وصعدت إلى قاعة الكتابة، وبعد طلب الإذن من مَلاخي أخذت أتصفح الفهرس. وبينما كنت ألقي بنظرات شاردة على الأوراق التي كانت تمرّ تحت أنظاري كنت أراقب الرُّهبان.

وراعني انكبابهم على أعمالهم في هدوء وطمأنينة كأن البحث لم يكن جارياً، بقلق كبير، في كل أنحاء الدّير للعثور على أحد إخوانهم، وكأنه لم يُفتقد اثنان آخران في ظروف مريعة. فقلت في نفسي، تلك هي إذن عظمة رهبانيتنا التي شهد رجالها من أمثال هؤلاء، طيلة قرون، العصابات الهمجية تغير وتنهب أديرتهم، ورأوا ممالك تسقط في دوامات من النيران، ومع ذلك تمادوا في شغفهم بالرقوق والحبر وواصلوا ترتيلهم الخافت لكلمات تناقلوها على مرّ القرون وبدورهم ينقلونها إلى القرون اللاحقة: لقد تابعوا القراءة والنسخ بينما كان العام الألف يقترب، فما يمنعهم الآن من مواصلة ذلك؟

لقد قال بانشيو في اليوم السابق إنه مستعدّ لارتكاب معصية لو مكّنه ذلك من الحصول على كتاب نادر. لم يكن يكذب ولم يكن يمزح. لا شك أنه يجب على الراهب أن يحب كتبه بخشوع، باحثاً من خلالها عن الخير لا عن غرور الفضول: ولكن إغراء المعرفة عند الرُّهبان هو بمثابة إغواء الجنس عند غير الكنسيين أو بمثابة التلهّف على المال عند رجال الكنيسة النظامية.

Twitter: @ketab_n

تصفحت الفهرس ورقصت أمام عينيّ محافل من العناوين الغامضة: **كتاب الأدوية** لكوينتي سريني، فينومينا، كتاب إيزوبي في طبيعة الحيوانات، كتاب بيرونيم الأخلاقي في الكوسموغرافيا، كتب الأسقف إركولفوس الثلاثة التي جمع فيها كتابات أدمنانو حول الأماكن المقدسة في ما وراء البحر، كتاب ك. يولي هيلاريونيس حول نشأة العالم، كتاب سوليني بولسيستور في أحوال الكون الأرضي وأشياء أخرى عجيبة، ألماجستوس...

ولم يدهشني إذن أن يحوم سرّ الجرائم حول المكتبة. فبالنسبة إلى أولئك الرجال الذين كرّسوا حياتهم للكتابة تعتبر المكتبة في الآن نفسه أورشليم المقدسة وعالماً سفلياً على الحدود بين الأرض المجهولة والجحيم. لقد كانت تسيطر عليهم المكتبة بوعودها وبممتنعاتها. كانوا يعيشون معها، ولها وربما ضدّها، يحدوهم الأمل، في ضلالهم، أن يفكّوا يوماً كلّ أسرارها، ولم لا يخاطرون بحياتهم لإرضاء فضول عقولهم أو يقتلون لمنع أحدهم من الاستيلاء على سرّ من أسرارهم الغالية عليهم؟

إنه بدون شك إغراء وغرور فكري. فما أبعدنا اليوم عن ذلك الراهب الناسخ الذي تصوّره قديسنا ومؤسس رهبانيتنا، الذي كان ينسخ دون فهم مستسلماً لإرادة الرب. ناسخ لأنه متعبد ومتعبد بما أنه ناسخ. لماذا لم يعد الأمر هكذا؟ آه، من الأكيد أن ليست هذه فقط مظاهر انحطاط نظامنا فقد قويت سلطته كثيراً وأصبح رؤساء أديرته يتنافسون مع الملوك، ألا أرى في أبّوني نفسه مثالاً لملك يحاول، بتصرف ملكي، حلّ الخلافات بين الملوك؟ والعلم نفسه الذي جمعته الأديرة يُستعمل اليوم كبضاعة للتبادل، داعي كبرياء وسبب اعتزاز وهيبة، مثل الفرسان الذين يتباهون بالأسلحة والبيارق يتباهى رؤساء أديرتنا بمخطوطاتهم المنمنمة...

زِدْ على ذلك، (ياللجنون)، أنّ أديرتنا اليوم قد فقدت قصب السبق في الحكمة: لقد أصبحت اليوم المدارس الكاتدرائية والهيئات المدنية والجامعات تنسخ كتباً، وربما أكثر وأحسن منا، وتنتج الجديد منها ـ وقد يكون ذلك السبب في كل تلك المآسي.

Twitter: @ketab_n

إن الدير الذي كنت أجد نفسي فيه قد يكون آخر الأديرة التي بإمكانها أن تعتز بجودة ما تنتج وما تنقل من العلم ولعله لهذا السبب لا يكتفي رهبانه بعمل النسخ المقدس، بل يريدون هم أيضاً إنتاج إضافات جديدة إلى الطبيعة، يدفعهم في ذلك الطمع في معرفة أشياء جديدة. ولم يكونوا يفطنون، وكنت أدرك ذلك بالحدس حينذاك (وأعرف جيداً الآن وقد ابيضّ شعري من طول السنين والتجارب) كنت أدرك أنهم بعملهم ذلك كانوا يقرّون بهلاك عظمتهم. لأنه لو خرج ذلك العلم الذي كانوا يريدون إنتاجه خارج تلك الأسوار، بحرية، لما فرق شيء بين ذلك المكان المقدس ومدرسة كاتدرائية أو جامعة مدنية. أمّا إذا بقي مخفياً فهو يحتفظ بهيبته وبقوّته كاملتين، فلا تفسده المجادلات ولا يفسده غرور الجدل الذي يريد عرض كلّ سر وكل عظمة على غربال الجزم والنفي. وقلت في نفسي، هذه هي إذن أسباب الصمت والظلام اللّذين يحيطان بالمكتبة فهي ذخر علم، ولكن لا يمكنها حفظ ذلك العلم كاملاً إلا بمنعه من أن يصل إلى أي كان، حتى الرُّهبان أنفسهم. ليس كقطعة النقود التي تبقى مادّياً كاملة حتى عبر أشنع المقايضات: فهو بالأحرى كلباس جميل جداً، يتآكل من فرط الاستعمال والمباهاة، وفعلاً، أليس الكتاب نفسه كذلك تتفتت صفحاته ويفقد حبره وذهبه لمعانهما عندما تلمسه أيدٍ كثيرة؟ هوذا، كنت أرى على مقربة مني باتشيفيكو دا تيفولي وهو يتصفّح مجلّداً قديماً قد التصقت صفحاته بعضها ببعض بفعل الرطوبة. فكان يبلل السبابة والإبهام بلسانه لتصفح كتابه، وعند كل لمسة من ذلك اللعاب تفقد تلك الصفحات من قوتها، فإنَّ فتحها يعني ثنيها وعرضها لمفعول الهواء والغبار القاسي الذي سينخر الأخاديد الدقيقة التي تَعَرَّق بها الرق تحت الضغط وسيحدث عفناً جديداً حيث ليّن اللعاب زاوية الورقة ولكنه أضعفها. وكما أن الإفراط في الرقة يجعل المحارب متخاذلاً وقاصراً، هذا الإفراط في الحب التملكي والفضولي يجعل الكتاب عرضة للمرض الذي سيحمله إلى الموت.

ماذا ينبغي أن نفعل؟ هل نكفّ عن القراءة ونكتفي بالمحافظة؟ هل كانت مخاوفي في محلها؟ ماذا سيقول أستاذي؟

ورأيت غير بعيد مفهرساً، مانيوس دا أيونا، قد أتم حكّ قطعة الجلد بالحجر

Twitter: @ketab_n

الإسفنجي وأخذ يليّنها بالجبس ليصقل سطحها بعد ذلك بالمصقل. وآخر، حَذْوَه، ربانو دا توليدو، قد ركّز رَقَّه فوق اللوحة ووضح حواشيه بثقب خفيفة جانبية من الناحيتين، سطّر بينهما بمرقم معدني خطوطاً أفقية نحيفة جداً. بعد قليل ستمتلئ الورقتان بالألوان والأشكال، وستصبح الصفحة كالمدّخر، ساطعة بالجواهر المرصعة في ما سيصبح بعد ذلك نسيج الكتابة الخاشع. فقلت في نفسي إن ذينك الأخوين كانا يعيشان ساعاتهما الفردوسية على الأرض. فقد كانا يخلقان كتباً جديدة، مثل تلك التي سيفنيها الزمن حتماً من بعد... إذن لا يمكن أن تكون المكتبة مهددة من طرف أية قوة أرضية، هي إذن شيء حيّ... ولكنها لو كانت حية لم لا تتفتّح لمغامرة المعرفة؟ هل كان ذلك ما يريده بانشيو وربما أيضاً ما كان يريده فينانتسيو؟

وأحسست بنفسي مشوّشاً ومتخوفاً من أفكاري، فهي قد لا تكون صالحة لمبتدىء، عليه فقط أن يتبع القاعدة بالتزام وتواضع، طيلة كل السنوات المقبلة ـ وهذا ما فعلته من بعد، دون أن ألقي على نفسي أسئلة أخرى، بينما العالم من حولي يتردّى كل يوم أكثر في عاصفة من الدم والجنون.

وحانت ساعة الأكل الصباحية فتوجهت إلى المطبخ، وقد أصبحت هناك صديقاً للطباخين فأعطوني أفضل ما لديهم من الطعام.

Twitter: @ketab_n

اليوم الثالث: سَادسَة

وفيه يبوح سلفاتوري إلى أدسو بقصته التي لا يمكن تلخيصها في كلمات قليلة، ولكنها أوحت إليه بالكثير من التأملات المقلقة للبال

بينما كنت أتغذّى رأيت في ركن من الأركان سلفاتوري وقد بدا من الواضح أنه تصالح مع الطباخ، وكان يلتهم بغبطة عجينة من لحم النعاج. كان يأكل وكأنه لم يذق شيئاً في حياته، دون أن يسقط ولو فتاتة واحدة، وكان يبدو وكأنه يشكر ربه على ذلك الحدث الخارق للعادة.

وغمزني، قائلاً لي في لغته الغريبة، إنه يأكل لكل السنين التي صام فيها. وسألته عن قصته فحكى لي عن طفولته المؤلمة جداً، في قرية هواؤها فاسد تتساقط فيها الأمطار بكثرة فتتعفن الحقول بينما يتلف كل شيء في عفونة قاتلة. وفهمت أن فيضانات وقعت طيلة فصول حتى إن خطوط المحارث لم تعد ظاهرة في الحقول وأصبح الصاع من البذار لا يعطيك إلاّ ستّيّة واحدة، وتنقص الستّيّة حتى تصبح لاشيء. وحتى الأسياد كانوا شاحبي الوجوه كالفقراء، وأضاف ملاحظاً، حتى ولو كان الفقراء يموتون أكثر من الأسياد (وعلّق بابتسامة) ربما لأنهم كانوا يتذكرون أن الحالة كانت هي نفسها في السابق، حتى إنهم استنتجوا أن الأزمنة كانت دوماً على وشك النهاية. وهكذا عندما أكل الناس كل جِيَف الطيور، وكل الحيوانات الدّنِسة التي عثروا عليها سرى الخبر في القرية أن أحدهم أخذ يخرج الموتى من تحت الأرض. وكان سلفاتوري يشرح بمهارة كبيرة، وكأنه ممثل، كيف كان يفعل أولئك البشر الأشرار «الذين كانوا ينبشون الأرض بأظافرهم في المقابر»، في اليوم الموالي لدفن أحد الأموات ثمّ «يم!»، كان يقول ذلك ويقضم في عجينة لحم النعجة، ولكنني كنت أرى على وجهه تكشيرة البائس الذي

Twitter: @ketab_n

كان يأكل الجثة. وبعد ذلك لم يكفهم أن نبشوا في الأرض المقدسة، إذ أخذ بعضهم ممن هم شرّ من الآخرين، كقطّاعي الطُرق، يختبىء في الغابة ويغافل المارّين و«تشاك!» ـ هكذا كان سلفاتوري يقول ـ بالسكين على حلقه ثم «يم!» ومن كان أكثر شراً من الجميع أخذ يغري الأطفال ببيضة أو بتفاحة ثم تقع المجزرة، ولكنهم ـ كما دقّق لي سلفاتوري بجديّة كبيرة ـ كانوا يطبخونهم قبل أكلهم. وحكي لي عن رجل أتى إلى القرية ليبيع لحماً مطبوخاً بدراهم قليلة وكان الجميع لا يصدق عقله لذلك البخت، إلى أن قال القِسّيس إنه لحم إنسان فأخذت الجموع الرجل وقد اتقد غضبها وقطعته إرباً. ولكن في الليلة ذاتها ذهب أحد سكان القرية ونبش قبر الميت وأكل لحم آكل لحوم البشر، حتى إنه، عندما اكتُشف أمره، حكمت عليه القرية هو أيضاً بالموت.

ولكن سلفاتوري لم يقصّ عليّ فقط هذه الحكاية. فقد قصّ عليّ، بنصف كلمات بينما اجتهدت أنا لأتذكر القليل مما أعرف من لغة بروفانسا ومن لهجات إيطالية، قصة هربه من القرية التي ولد فيها وتسكعه عبر الدنيا. وأعادت قصته إلى ذهني عدّة مُتشرّدين تعرفت عليهم أو اعترضوا طريقي. وكثيرين آخرين عرفتهم فيما بعد ويتّضح لديّ الآن أمرهم، بحيث لست متأكداً من أنني لا أنسب إليه بعد مرور زمن، مغامرات وجرائم ارتكبها آخرون، من قبله ومن بعده، وهي تتسطّح الآن في ذهني المتعب لترسم صورة واحدة، لقوة المخيلة التي تجمع ذكرى الذهب وذكرى الجبل، فتكوّن فكرة جبل من الذهب.

غالباً ما سمعت غوليالمو، خلال رحلتنا، يذكر البُسَطاء. وهي كلمة يستعملها بعض إخوانه للتعبير ليس فقط عن الشعب ولكن في الوقت نفسه عن الأميّين. وهي عبارة بدت لي دائماً غير محدّدة، لأنني التقيت في المدن الإيطالية بتجار ومُحترفين ولم يكونوا من الإكليروس ولكنهم لم يكونوا أميّين، حتى وإن أظهروا معرفتهم من خلال استعمال اللغة العامية. ويمكن أن نقول إن بعض الطُغاة ممن كانوا يحكمون في ذلك الوقت شبه الجزيرة كانوا جاهلين فيما يخص علوم اللاهوت والطب والمنطق واللاتينية، ولكن من المؤكد أنهم لم يكونوا لا بسطاء ولا سُذَّجاً. ولذا أعتقد أن أستاذي أيضاً، عندما كان يتحدث عن البُسَطاء كان

Twitter: @ketab_n

يستعمل مفهوماً بسيطاً على الأرجح. ولكن سلفاتوري كان دون شك بسيطاً، أصيل ريف يعاني منذ قرون من المجاعة ومن جبروت الأسياد الإقطاعيين. كان بسيطاً ولكنه لم يكن غبيّاً. كان يأمل في عالم مُختلف، تجسّم له في تلك الفترة التي هرب فيها من دار أبويه، بحسب ما قال، في صورة بلد النعيم حيث تنضح الأشجار بالعسل وتنبت قطع الجبن والنقانق الفوّاحة.

وبدافع من تلك الآمال، كمن يرفض أن يرى في هذه الدنيا نهراً من الدموع، الجور فيها هو أيضاً (كما علّموني) من تدبير العناية الإلٰهية للإبقاء على توازن الأشياء بحسب رسم غالباً ما يفوت اجتهادنا، رحل سلفاتوري عبر مُختلف البلدان، من جهة مونفيراتّو التي ولد فيها إلى ليغوريا، ثم من بروفانسا إلى أراضي ملك فرنسا.

وجاب سلفاتوري الدنيا تارة متسوّلاً وتارة سارقاً، متظاهراً مرّة بالمرض وواضعاً نفسه مرة أخرى، مؤقتاً، في خدمة بعض الأسياد، ثم من جديد متخذاً طريق الغابة أو الطريق الرئيسية: ومن القصة التي رواها لي تخيلته مع تلك الفرق من المتسكعين التي رأيتها فيما بعد خلال السنين التي تلت، تتجوّل أكثر الأحيان عبر أوروبا: رُهبان زائفون ودجّالون وغشاشون ومحتالون وشحاذون بائسون وجذمى وكسحان ومتجولون ومتسكعون وقصّاص وكهنة دون وطن وطلبة متجولون وخداعون وبهلوانيون ومرتزقة عاجزون ويهود مشردون نجوا من الكافرين محطمي الروح ومجانين وهاربون محكوم عليهم بالنفي وأشرار قد قطعت آذانهم ولوطيّون ومعهم محترفون متجولون من حائكين، ونحاسين، وصانعي كراسي، ومجلّخين، ومقششي كراسي وبنائين، ومن جديد أنذال من كل طائفة ومحتالون وفاسقون وأوغاد وسرّاق وأنذال خداعون ومتعسّفون ومتسكعون وصعاليك، وكهنة وقساوسة سيمونيون وخانثون، وأناس يعيشون من سذاجة الغير، ومزيفو طوابع وأختام بابوية وبائعو غفرانات ومشلولون زائفون يضبطجعون أمام أبواب الكنائس ومتسكعون هاربون من أديرتهم وبائعو بقايا القديسين، ومخلّصون ومنجمون وقارئو حظ وعرّافون وجامعو صدقات مزيفون وزُناة من كلّ لون ومفسدو راهبات وفتيات بالخدعة وبالعنف، منهم من يتظاهر بداء الاستسقاء، أو بداء النقطة أو بداء

Twitter: @ketab_n

الباسور، أو بالنِّقرس وبالقروح وحتى بالجنون الكئيب. ومنهم من كان يلصق على جسمه أدهنة ليتظاهر بأنه مصاب بقروح مستعصية، وآخرون يملأون أفواههم بمادة في لون الدم للتظاهر بسعال المسلولين، ولئام يتظاهرون بشلل أحد أعضائهم، حاملين عصيًا دون لزوم ومتصنعين الصرع، والجرب، والدّمل والأورام، ملصقين الضمادات، وصبغ الزعفران، جاعلين الحديد في أيديهم، والعصابات على رؤوسهم يندسّون بنتونتهم في الكنائس ويسقطون فجأة وسط الساحة والزبد يخرج من أفواههم وأعينهم زائغة، مخرجين من فتحتي الأنف دماً مصنوعاً من عصير التوت والزنجفر لينتزعوا الطعام أو النقود من الأتقياء الذين كانوا يتذكرون دعوة الآباء القديسين للإحسان: «اقتسم خبزك مع الجائع، اصطحب إلى منزلك من لا مسكن له، لِنَزُر المسيح، لنتقبّل المسيح، لِنَكْسُ المسيح لأنه كما يُطَهِّر الماء النار تُطَهِّر الصدقة خطايانا».

وحتى بعد الأحداث التي أقصها، رأيت على طول نهر الدانوب الكثير منهم ولا أزال أرى إلى الآن أولئك الدجالين الذين اتخذوا أسماء وتَشعَّبوا إلى طوائف، كالشياطين: أنذال وقذرون، أطباء دجّالون ومحتالون، خدّاعون، عملاء، كلاب، متاجرون ببقايا القديسين، مغبّرون، متعجرفون، ملبّدون، متسكّعون نتنون، متظاهرون بلدغة الرتيلاء، حمّالون، وسطاء، رعّاشون، صخّابون، كلاب سوق، شُغْبي، متباكون مدنّسون.

فكأن سيلاً من الوحل يجري عبر دروب عالمنا، ويدنّس فيه واعظون نزهاء وهراطقة يبحثون عن فرائس جديدة ومشعلي فتن. وفعلاً، كان البابا جيوفاني، الذي كانت دائماً تخيفه حركات الأناس البُسَطاء الذين ينادون بالفقر ويعيشون في الفقر، هو الذي توعّد الواعظين المتسوّلين الذين كانوا، بحسب زعمه يجلبون الفضوليين، حاملين رايات ملوّنة بالصور، يعظون ويبتزون الأموال. هل كان على حق هذا البابا السيموني والمُنحرف عندما كان يقارن الإخوان المتسوّلين الذين ينادون بالفقر بتلك الجموع من المحرومين وقَطّاعي الطُرُق؟ ففي تلك الأيام، بعد أن سافرت قليلاً عبر شبه الجزيرة الإيطالية، لم تعد الأفكار في ذهني واضحة: لقد سمعت بعض إخوان ألتوباتشيو يعظون مهددين بالحرمان من اقتبال السرّ الأعظم

Twitter: @ketab_n

وواعدين بالصّفح، وكانوا يغفرون لمن سرق أو قتل أخاه أو ارتكب جرماً أو نكث باليمين مقابل مال. وكانوا يوهمون الناس أنهم في مستشفاهم يقيمون حتى مائة قداس كل يوم، فيجمعون له الهِبات، وأنهم بأملاكهم يدفعون المهر لمائتي فتاة فقيرة. وسمعت عن الأخ باولو دزوبو، الذي كان يعيش في نسك بغابة رييتي، أنه كان يباهي بتلقي الوحي مباشرة من الروح القدس يقول له فيه إن الصلة الجنسية ليست خطيئة: فكان يغري ضحاياه اللواتي كان يسميهن أخواته ويجبرهن على تلقي السوط عاريات وعلى الركوع على الأرض خمس مرات في شكل صليب، قبل أن يقدمهن إلى الرّب مطالباً إياهن بما يسميه قبلة السلام.

ولكن هل كان ذلك صحيحاً؟ وما العلاقة بين هؤلاء النُسَّاك الذين كانوا يقولون عن أنفسهم إنهم يحملون النُور وإخوان الحياة الفقيرة الذين كانوا يجوبون بتكفير حقيقي طرق شبه الجزيرة، مبغَضين من طرف الإكليروس والأساقفة لأنهم كانوا يشهرون برذائلهم وبسرقاتهم؟

من خلال رواية سلفاتوري وبامتزاج ذلك بما حصل لديَّ أنا من معلومات كانت هذه الفوارق لا تظهر جلية في وضح النهار: كان كل شيء مساوياً لكلّ شيء. كان يبدو لي في بعض الأحيان واحداً من أولئك المقعدين الشحاذين الذين كما تقول الأسطورة، هربوا عند اقتراب جُثّة القديس مارتينو المعجزة خوفاً من أن يشفيهم القديس من عاهاتهم فيحرمهم بذلك من مصدر الربح، ولكن القديس أنعم عليهم دون شفقة قبل أن يجتازوا الحدود فعاقبهم على شرّهم بأن أعاد اليهم القدرة على استعمال أعضائهم. وأحياناً أخرى يستضيئ وجه ذلك الراهب ذو التقاسيم الوحشية بنور لطيف جدًا، عندما يقص عليّ كيف استمع، وهو بين تلك الجماعات، إلى كلمات الواعظين الفرانشسكانيّين، وكانوا هم أيضاً يعملون في الخفاء مثله، وفهم أنه لا ينبغي أن يعتبر عيشة الفقر والتسكع التي كان يعيشها وكأنها حتمية بائسة، بل كعمل تكريسي يبعث على البهجة، وهكذا دخل ضمن طوائف وجماعات تكفيرية كان يذكر أسماءها ويعرّف بمذهبها بطريقة خاطئة. واستنتجت من حديثه أنه التقى بتاريين وفوديين وربما أيضاً بمانويين وأرنالديين أليبجيين وأنه مرّ أثناء تجواله عبر الدنيا من فريق إلى آخر وشيئاً فشيئاً اعتبر تشرّده

Twitter: @ketab_n

رسالة ينبغي أن يضطلع بها فعمل في سبيل الإلٰه ما كان يفعل من أجل بطنه.

ولكن كيف، وإلى متى؟ ما فهمته هو أنه انضم منذ ثلاثين سنة إلى دير فرانشسكاني في توسكانا ولبس هناك زي طائفة القديس فرانشسكو دون الانخراط في الأخوية. وأظنه تعلّم هناك القليل من اللاتينية التي كان يتكلمها ويمزجها بكل لهجات الأماكن التي حلّ بها وهو فقير دون وطن وبلهجات كل رفاق التسكع الذين عرفهم، من مرتزقة جهاتنا إلى البوغوميليين الدلماتيين. وهناك كرّس نفسه للحياة التكفيرية، كما كان يقول (ويردّد بعينين ملهمتين «Penitenziagite»، وسمعت من جديد تلك العبارة التي أذكت فضول غوليالمو)، ولكن بحسب ما يظهر لم تكن الأفكار واضحة حتى لدى أولئك الفرانشسكانيّين الذين انضم إليهم، لأنهم استسلموا يوماً لغضب شديد على كاهن الكنيسة المجاورة المتّهم بالسرقة وبرذائل أخرى وهجموا على داره ودفعوه من فوق السلم، حتى إن المذنب لقي حتفه ثم نهبوا الكنيسة ممّا جعل الأسقف يرسل بالجند. وتشتت الإخوان وتجوّل سلفاتوري طويلاً في إيطاليا الشمالية مع فريق من الإخوان البؤساء، أو بالأحرى فرانشسكانيين متسوّلين أصبحوا دون قاعدة ودون انضباط.

ومن هناك التجأ إلى جهة تولوز، حيث سمع حكاية غريبة ـ وهناك اشتد حماسه أثناء الرواية ـ كانت تروي أعمال الصليبيين العظيمة. فقد اجتمعت يوماً مجموعة كبيرة من الرُّعاة والفقراء في موكب كبير ليجتازوا البحر ويحاربوا أعداء الدين. وسمّوهم الرُّعاة. وكانوا في الحقيقة يريدون الهرب من أرضهم الملعونة. وكان هناك قائدان أوحيا لهم بنظريات خاطئة، أحدهما قس حرم من كنيسته والآخر راهب مرتدّ عن نظام القديس بنيدكت. وقد أخرج الاثنان أولئك السذج عن أطوارهم حتى إن أطفالاً في الخامسة عشرة من عمرهم انضموا اليهما ضدّ إرادة أهاليهم، حاملين معهم فقط خرجاً وعصاً، دون نقود، وهكذا تركوا حقولهم وتبعوهما كالقطيع مكوّنين مجموعة هائلة. وأصبحوا لا يتبعون لا العقل ولا العدالة، بل القوة فقط وإرادتهم وصاروا كالسكارى لما اجتمعوا كلهم، بعد أن تحرّروا أخيراً، وراودهم أمل غامض في بلوغ الأرض الموعودة. فكانوا إذا ما أُوقف أحدهم هجموا على السجون وحرّروه. ولتحرير البعض من رفقائهم الذين

Twitter: @ketab_n

كان الأسياد قد سجنوهم، هجموا على قلعة باريس ولما حاول حاكم باريس التصدي لهم ضربوه وألقوا به من أعلى سُلَّم القلعة ثم حطموا أبواب السجن وبعد ذلك اصْطَفّوا للمعركة في سهل سان جيرمان، لكن لم يجرؤ أحد على أن يتقدم إليهم. ثم خرجوا من باريس متجهين نحو أَكِيتان وقتلوا كل اليهود الذين اعترضوهم هنا وهناك وسلبوا أملاكهم...

فسألت سلفاتوري: «ولماذا اليهود؟» - فأجاب: «ولِم لا؟» - وفسّر لي أنهم سمعوا طيلة حياتهم من الواعظين أن اليهود أعداء المسيحية وأنهم يجمعون تلك الأملاك التي حرموا هم منها. فسألته إن لم يكن صحيحاً أيضاً أن الأملاك كان يجمعها الأسياد والأساقفة عن طريق ضريبة العشور وأن الرُّعاة إذن لم يكونوا يكافحون ضدّ أعدائهم الحقيقيين. فأجابني أنه عندما يكون الأعداء الحقيقيون أقوياء ينبغي اختيار أعداء أضعف منهم. ففكرت أنهم لذلك سُمّوا بسطاء. إن الأقوياء وحدهم هم الذين يعرفون دائماً بوضوح تام أين يوجد أعداؤهم الحقيقيون. لم يكن الأسياد يريدون أن يضع الرُّعاة أملاكهم في خطر وكان من حسن حظهم أن يُوعز قُوّاد الرُّعاة إلى أتباعهم فكرة وجود أموال كثيرة في حوزة اليهود.

فسألته من أدخل في ذهن تلك المجموعة فكرة مهاجمة اليهود، لكن سلفاتوري لم يكن يتذكر. أظن أنه لما تجتمع حشود غفيرة، تسعى وراء وعد وتريد الحصول عليه فوراً، من غير الممكن أبداً معرفة من يتكلم. وبدا لي أن قوّادهم درسوا في الأديرة وفي المدارس الأسقفية وأنهم يتكلمون لغة الأسياد وإن ترجموها إلى لغة يقدر الرُّعاة على فهمها. لم يكن الرُّعاة يعلمون شيئاً عن البابا ولكنهم كانوا يعرفون اليهود. وهكذا حاصروا برجاً آخر عظيماً لملك فرنسا، احتمت به جموع من اليهود وقد انتابهم الرّعب ودافع اليهود الذين خرجوا تحت أسوار البرج بشجاعة إلى آخر رمق، قاذفين الألواح والحجارة. ولكن الرُّعاة ألهبوا النار في باب البرج لتعذيب اليهود المحاصرين بالدخان والنار. وعندما تبيّن لليهود أن لا أمل لهم في النجاة فضلوا الانتحار على الموت بأيدي أشخاص لم يُختنوا، فطلبوا من أحدهم، كان يبدو أكثر شجاعة من غيره، أن يقتلهم بسيفه. فقبل وقتل

Twitter: @ketab_n

منهم ما يقرب الخمسمائة ثم خرج من البرج مع أطفال اليهود وطلب من الرُّعاة أن ينصّروه. ولكنّ الرُّعاة قالوا له: لقد قمت بمثل تلك المجزرة بأناسك والآن تريد أن تُجَنِّب نفسك الموت؟ وقَطَّعُوه إرباً بينما أبقوا على الأطفال وعمّدوهم. ثم اتجهوا نحو كركاسّون قائمين بالكثير من السرقات الدامية في طريقهم. عند ذلك أعلن ملك فرنسا أنهم قد تعدّوا كل الحدود وأمر أن تقع مقاومتهم في كل مدينة يحلّون بها وأن يقع الدفاع عن اليهود كما لو كانوا من رجال الملك...

لماذا أصبح الملك يظهر كلّ ذلك الاهتمام باليهود؟ ربما من خوفه ممّا قد يفعله الرُّعاة في كل المملكة وأن يتزايد عددهم. لذا أحسّ نحو اليهود ببعض الرفق، لأنهم كانوا ذوي نفع في تجارة المملكة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لأنه كان ينبغي القضاء على الرُّعاة حتى يجد المسيحيون الطيبون كلّهم داعياً للبكاء على جرائمهم. ولكن الكثير من المسيحيين لم يطيعوا الملك، رأياً منهم أنه ليس من العدل الدفاع عن اليهود، الذين كانوا دائماً أعداء الدين المسيحي. وفي كثير من المدن فرحت عامة الناس، خاصة أولئك الذين كان عليهم أن يدفعوا الربا لليهود، للعقاب الذي سلّطه عليهم الرُّعاة من أجل ثرواتهم. عندئذٍ أمر الملك أن لا يمدّ أحد يد المعونة للرُّعاة وإلا كان جزاؤه الموت، وجمع جيشاً كبيراً وهاجمهم فقتل منهم الكثيرين بينما نجا الآخرون بالهرب والاختفاء في الغابات حيث ماتوا جوعاً وحرماناً. وفي وقت قصير تم القضاء عليهم، فكان مبعوث الملك يقبض عليهم ويشنقهم جماعات من عشرين وثلاثين معاً في الأشجار الكبيرة، حتى تبقى جثثهم مثالاً خالداً فلا يجرؤ أحد بعد ذلك على إثارة الفتنة في المملكة.

والغريب أن سلفاتوري كان يقصّ عليّ تلك القصة وكأنها عمل ورع جداً. وفعلاً بقي مقتنعاً أن جموع الرُّعاة كانت تحركت لافتكاك ضريح المسيح وتخليصه من الكافرين، وما كان بوسعي إفهامه أن هذا الفتح العظيم قد تمّ في عهدي بيترو الناسك والقديس برناردو، وتحت حكم لويس قديس فرنسا. على كلّ لم يصل سلفاتوري إلى الكفار لأنه أُجْبِر على الابتعاد فوراً عن الأراضي الفرنسية. وقال لي إنه مرّ إلى جهة نوفارا، ولكنه بقي غامضاً جداً حول ما حدث آنذاك. وأخيراً

Twitter: @ketab_n

وصل إلى كزالي حيث تلقاه دير فرانشسكاني (وأظن أنه تلاقى هناك مع ريميجيو)، بالتحديد في تلك الفترة التي استبدل فيها الكثير منهم لباسهم الطائفي، نظراً لاضطهاد البابا لهم، باحثين عن ملاذ في أديرة تابعة لرهبانيات أخرى، حتى لا يعدموا حرقاً، كما قال لنا ذلك فعلاً أوبارتينو. ونظراً لما حصل لديه من تجربة في الكثير من الأعمال اليدوية (التي كان قد قام بها لأهداف خسيسة عندما كان يتسكع حرًّا ولأهداف مقدسة عندما أصبح يتسكع حبّاً للمسيح)، اتخذه القيّم في الحال كمساعد له. وهذا يفسّر لماذا بقي هناك سنين طويلة، غير مهتم ببذخ الرُّهبانية ومهتماً كثيراً بإدارة قبو النبيذ ومخزن المؤونة، حرًّا أن يأكل دون أن يسرق وأن يشكر الإله دون أن يتعرض للحرق.

هذه هي القصّة التي سمعتها منه، بين لقمة وأخرى، ولا أدري ماذا اختلق وماذا كتم.

ونظرت إليه بفضول، لا لغرابة تجربته بل بالعكس لأن ما وقع له كان يبدو لي خُلاصة رائعة لكثير من الأحداث ومن الحركات التي كانت تجعل إيطاليا في تلك الفترة جذّابة وغامضة.

ماذا تبيّن لي من تلك الأحاديث؟ صورة رجل عاش حياة مغامرة، قادر على قتل أخيه دون أن يتفطّن لفداحة الجرم الذي قام به. ولكن رغم أنه في ذلك الوقت كان كل عصيان للشريعة الإلٰهية يبدو لي مساوياً لغيره فقد بدأت أفهم البعض من الأحداث التي وصلت إلى سمعي. وبدأت أفهم الفارق بين المجزرة التي تقوم بها مجموعة، تحت تأثير انخطاف يكاد يكون وجدياً وقد اشتبهت لديها نواميس الشيطان بالنواميس الإلٰهية، والجرم الفردي المدبر ببرودة دم، في الصمت وفي المكر. ولم يكن يبدو لي أن سلفاتوري قد لوّث يديه بجرم مماثل.

ومن ناحية أخرى كنت أريد اكتشاف بعض الشيء حول تلميحات رئيس الدير وقد استحوذت على بالي قصة الأخ دولتشينو التي لم أكن أعرف عنها إلاّ القليل، ومع ذلك كان شبحه يحلّق فوق العديد من المحادثات التي سمعتها خلال ذينك اليومين.

Twitter: @ketab_n

وهكذا سألته على غرّة: «ألم تلتقِ قط خلال رحلاتك بالأخ دولتشينو؟»

كان ردّ فعل سلفاتوري غريباً. فقد جحظت عيناه، إن كان بإمكانهما أن تجحظا أكثر مما هما عليه من جحوظ، ورسم عدة مرات علامة الصليب هامساً ببعض الجمل المتقطعة في لغة لم أقدر حقيقة تلك المرة على فهمها. وكان إلى ذلك الحين ينظر إليّ بتآلف وثقة، ويمكن أن أقول بصداقة، ولكنه في تلك اللحظة نظر إليّ بنفور ثم اختلق عذراً من الأعذار وابتعد.

عند ذلك لم يعد بوسعي أن أصبر أكثر من ذلك. من هو هذا الراهب الذي يبعث اسمه الخوف في كل من يسمعه؟ وقررت أنه لم يعد بإمكاني البقاء طويلاً فريسة لرغبتي في المعرفة وخطرت ببالي فكرة: أوبارتينو! لقد تلفظ هو نفسه بذلك الاسم في المساء الأول الذي التقينا فيه به، وهو يعرف كل شيء عن الأحداث الجلية والغامضة التي تحيط بذلك الراهب وبالأخوانيين وبالذريات الأخرى التي عاشت تلك السنين الأخيرة. أين يمكن أن أجده في تلك الساعة؟ بالتأكيد في الكنيسة، غارقاً في صلاته. وبما أنني كنت أحظى بقليل من الحرية ذهبت إلى هناك.

لم أجده، بل لم يأتِ حتى المساء. وهكذا بقيت متشوقاً، بينما كانت تقع الأحداث الأخرى التي يجب عليَّ أن أرويها الآن.

Twitter: @ketab_n

اليوم الثالث: تاسعة

وفيه يحدّث غوليالمو أدسو عن الموجة الهرطيقية الكبرى وعن وظيفة البُسَطاء في الكنيسة، وعن شكوكه بخصوص معرفة القوانين العامة، ويقصّ عليه بإيجاز كيف تمكّن من فكّ رموز العلامات الغامضة التي تركها فينانتسيو

وجدت غوليالمو في المصهر، يعمل مع نيكولا. وكان كلاهما غارقاً في العمل، وقد وضعا فوق الطاولة عدة أقراص صغيرة من الزُّجاج، ربما كانت معدّة لحشرها في صِلات بعض النوافذ، وصغّرا بعضها بآلات مخصصة لذلك العمل إلى أن أعطياها السَّمْك المرغوب. وكان غوليالمو يجربها بوضعها أمام عينيه، بينما كان نيكولا يعطي أوامره للحدادين كي يصنعوا الحمّالة التي ستقحم فيها قطعتا الزُّجاج الصالحتان.

وكان غوليالمو يتذمّر قلقاً. فالعدسة الوحيدة التي لاقت رضاه كانت في لون الزمرّد. وقال إنه لا يريد أن يرى المخطوطات كما لو كانت مروجاً. وعندما ابتعد نيكولا لمراقبة الحدّادين وفي حين كان غوليالمو مشتغلاً بأقراصه، رويت له ما دار بيني وبين سلفاتوري من حديث، فقال:

ـ «قد مرّ الرجل بعدة تجارب، وربما كان فعلاً مع أتباع دولتشينو. هذا الدير حقيقة عالم مُصَغّر، وعندما يصلنا مبعوثو بابا جيوفاني والأخ ميكيلي سيكتمل الشمل».

فقلت: «يا أستاذي، إنني لم أعد أفهم شيئاً».

ـ «بخصوص ماذا يا أدسو؟»

ـ «أولاً، حول الفوارق بين مُختلف المجموعات الهرطيقية. ولكن عن هذا

Twitter: @ketab_n

سأسألك فيما بعد. إن ما يضنيني الآن هو مشكل الفوارق نفسه. لقد تهيأ لي في حديثك مع أوبارتينو أنك كنت تحاول إقناعه بأن القديسيين والهراطقة هم على التساوي. بينما عند حديثك مع رئيس الدير كنت تحاول جاهداً أن تشرح له الفرق بين هرطيق وهرطيق، وبين هرطيق وأورثوذكسي. أي كنت تلوم أوبارتينو لأنه كان يعتبر متشابهين من كانوا في نهاية الأمر مُختلفين». فوضع غوليالمو العدسات لحظة على اللوحة وقال: «يا عزيزي أدسو، لنحاول أولاً ضبط الفوارق. ولنفرق بحسب معايير المدارس الباريسية. إذن يقولون هناك أن لكل البشر الشكل الجوهري نفسه. هل أنا على خطأ؟»

فقلت معتزاً بمعرفتي «أكيد. البشر حيوانات عاقلة، ومن خاصياتها القدرة على الضحك».

ـ «حسن جداً. ولكن تومازو مُختلف عن بونافانتورا. تومازو بدين بينما بونافانتورا نحيف. ويقع أن يكون أوغوتشيو شرّيراً بينما فرانشسكو طيّب، وأدالمو هادىء بينما أجيلولفو غضوب، أم لا؟»

ـ «هذا صحيح دون أدنى شك».

ـ «إذن هذا يعني أن هناك وحدة، عند أناس مُختلفين، بخصوص الشكل الجوهري، واختلافات بخصوص العوارض، أو بالأحرى بخصوص الأطراف السطحية».

ـ «هو كذلك بكل تأكيد!»

ـ «إذن عندما أقول لأوبارتينو إن الطبيعة الانسانية نفسها، في تعقّد عمليّاتها، توجّهنا بحدّ السواء نحو حب الخير ونحو حب الشر، أحاول إقناع أوبارتينو بوحدة الطبيعة الإنسانية. وعندما أقول بعد ذلك لرئيس الدير إن هناك فرقاً بين مانويّ وفوديّ، فإني أؤكد على تنوّع عوارضهما. وأؤكد على ذلك لأنه يحدث أن يُحرق فوديّ بعد اتهامه بأعراض مانويّ، والعكس بالعكس. وعندما يُحرق إنسان يُحرق جوهره الفردي، ويتحوّل إلى لاشيء ذلك الذي كان فعلاً وجوداً محسوساً، ولذا طيّباً، على الأقل في نظر الإله الذي يشده إلى الكينونة. هل يبدو لك هذا تعليلاً جيداً للتأكيد على الفوارق؟»

Twitter: @ketab_n

فقلت بحماس: «نعم يا أستاذي والآن فهمت لماذا تتحدث هكذا، وأقدّر حسن فلسفتك».

فقال غوليالمو: «ليست فلسفتي. ولست أدري حتى إن كانت حسنة. ولكن المهم هو أنك فهمت. لنأتِ الآن إلى سؤالك الثاني».

فقلت: «إنني. . .، إنني أظن أني لست صالحاً لشيء. إنني لم أعد قادراً على تمييز الفوارق العَرَضية الموجودة بين فوديين ومانويّين، وفقراء ليون ومتذلّلين ومتزمتين ومرائين ولومبارديين وجواكيميين، وغوليالميين وبتاريين ورسوليين وفقراء لومبارديين وأرنالديين، وأتباع الفكر الحر وعبدة الشيطان. . . ماذا ينبغي أن أفعل؟»

فضحك غوليالمو ضارباً بكفه على رقبتي بودّ: «مسكين أنت يا أدسو، أنت لست مخطئاً! انظر، إنّه كما لو مَرَّت خلال القرنين الأخيرين، وحتى قبل ذلك، على عالمنا، هبّات تعصّب، وأمل ويأس، معاً. . . أو لا، إنها ليست مقارنة جيدة. تخيل نهراً، كثيفاً وعظيماً، يجري أميالاً وأميالاً بين سدود قويّة، وأنت تعرف أين يوجد النهر، أين توجد السدود وأين توجد اليابسة. في نقطة ما، لا يدري النهر ماذا يفعل، إما من التعب، لأنه جرى مسافة طويلة في فضاء شاسع، أو لأنه اقترب من البحر الذي تَضْمَحِلّ فيه كلّ الأنهار، فيكوّن دلتا. قد يتبقى منه فرع رئيسي، ولكن فروعاً كثيرة أخرى تنشأ منه، في كل النواحي، وبعضها يصب من جديد في البعض الآخر، فلا تعرف ما هو مصدر ماذا، وأحياناً لا تعرف أين النهر وأين البحر. . .»

- «إذا ما فهمت مجازك فالنهر هو مدينة الإلٰه أو عهد العادلين، الذي يقترب من الألف عام، وفي حيرته لا يتماسك، ويظهر رسل حقيقيون ورسل زائفون، وكلّهم يصبّون في السهل الكبير الذي سيقع فيه يوم الحشر».

- «لم أكن أفكّر في ذلك بالضبط. ولكنه صحيح أيضاً، إنه بيننا نحن الفرانشسكانيّين، لا تزال حية فكرة عهد ثالث وقيام مُلْك الروح القُدُس. كلا، لقد كنت أحاول أن أفهمك كيف أن جسم الكنيسة، الذي كان أيضاً لقرون، جسم كل المجتمع، شعب الرّب، قد أصبح متنوعاً جداً، وكثيفاً، فجذب معه حثالة كل

Twitter: @ketab_n

البلدان التي اجتازها وفقد من نقاوته الأصلية. وفروع الدلتا هي، إن أردت، كل محاولات النهر للجري حثيثاً نحو البحر، أو بالأحرى نحو وقت التطهير. ولكن استعارتي لم تكن كاملة. كانت تصلح فقط لتظهر لك أن فروع الهرطقة وحركات التجديد، عندما يخرج النهر عن مجراه، كثيرة ومتداخلة. ويمكنك أن تضيف إلى استعارتي السيئة صورة شخص يحاول بكل وسعه أن يعيد بناء السدود، دون أن يصل إلى ذلك. فجُفّفت بعض فروع الدلتا وأعيد وصل بعضها الآخر بالنهر عبر قنوات اصطناعية وأخرى تُرِكت تجري لشأنها، لأن ليس من الممكن حصرها كلها ومن الأحسن أن يُضيع النهر جزءاً من مياهه إن أراد أن يبقى مجراه مستقيماً وبيّناً».

ـ «أفهم أقلّ من ذي قبل».

ـ «أنا أيضاً. لست بارعاً في الكلام من خلال المجاز. انسَ قصة هذا النهر. الأَوْلى هو أن تفهم أن الكثير من الحركات التي سميتها قد نشأت على الأقل منذ قرنين واندثرت، وأخرى نشأت حديثاً. . .»

ـ «ولكن عندما يأتي الحديث عن الهراطقة يقع ذكرهم معاً».

ـ «صحيح، ولكن هذه هي الطريقة التي تنتشر بها الهرطقة، وإحدى الطرق التي تقضي عليها».

ـ «لا أفهم من جديد».

ـ «يا إلٰهي، ما أعسر هذا الأمر. تخيَّل أنك مصلح أخلاقي وأنك جمعت بعض الرفاق فوق قمة جبل للعيش في فقر. بعد مدة قصيرة ترى أن الكثيرين يأتونك حتى من بقاع نائية، ويعتبرونك نبياً، أو رسولاً، ويتبعونك. هل أتوا حقيقة من أجلك أو من أجل أقوالك؟»

ـ «لا أدري، أرجو أن يكون الأمر كذلك، وإلا لماذا؟»

ـ «لأنهم سمعوا من آبائهم قصص مصلحين آخرين، وأساطير جماعات كادت أن تصل حدّ الكمال، ويظنون أن هذه هي تلك وأن تلك هي هذه».

ـ «وهكذا ترث كلّ حركة أبناء الحركات الأخرى».

Twitter: @ketab_n

«أكيد، لأن أكثر من يسرع إليها هم من البُسَطاء الذين لا يستطيعون التدقيق في المذاهب. ومع ذلك فحركات الإصلاح الأخلاقي تنشأ في أماكن مُختلفة وبطرق وبمذاهب مُختلفة. مثلاً، غالباً ما يقع الخلط بين المانويين والفوديّين، مع أن هناك فرقاً كبيراً بينهم. فالفوديّون كانوا ينادون بإصلاح أخلاقي داخل الكنيسة ذاتها، بينما كان ينادي المانويون بكنيسة مُختلفة، وبرؤية جديدة للإله وللأخلاق. كان المانويون يعتقدون أن العالم مقسّم بين قوى الخير وقوى الشّر، وأسّسوا كنيسة يتميّز فيها الكاملون عن بسطاء المؤمنين ولهم قدّاسهم ونواميسهم، وأنشأوا درجات على غاية من الدِّقة، تكاد تكون في دقّة درجات أمّنا الكنيسة المقدّسة ولم يكونوا يفكرون أبداً في تهديم أي شكل من أشكال السلطة. وهذا يفسر لك لماذا انضم إلى المانويين رجال قيادة وأصحاب أملاك وإقطاعيون. وما كانوا يفكرون في إصلاح العالم، لأن التعارض بين الخير والشر بالنسبة إليهم لا يمكن التقليل منه. أمّا الفوديون (ومعهم الأرنالديون والفقراء اللومبارديون) فقد كانوا يريدون خلق عالم مُختلف يقوم على فكرة الفقر، لذا كانوا يجمعون المحرومين، ويعيشون جماعات يكسبون قُوْتَهم من عمل أيديهم. وكان المانويون يرفضون أسرار القداس الكنسيّة، أما الفوديون فلا وإنما يرفضون الاعتراف».

ـ «ولكن لماذا يقع إذن الخلط بينهم، ويأتي الحديث عنهم كما لو كانوا النبتة الفاسدة نفسها؟»

ـ «لقد قلت لك ذلك. وهو أن ما يخلقهم هو أيضاً ما يهلكهم. تتضخم صفوفهم ببسطاء كانت تحثهم حركات أخرى، فيظنون أنها فكرة الثورة والأمل نفسها. ويهلكهم المحقّقون الذين ينسبون أخطاء أولئك إلى هؤلاء، وإذا ما قام أتباع بعض الحركات بجريمة، تنسب تلك الجريمة إلى كل الأتباع من كل الحركات. والمحققون مخطئون حسب العقل، لأنهم يضعون معاً مذاهب متعارضة، ويصيبون بحسب خطأ الآخرين. لأنه عندما تنشأ حركة ما في مدينة، حركة الأرنالديين على سبيل المثال، يأتيها أيضاً من كان ينبغي أن يكون أو من كان سابقاً، في أماكن أخرى، مانوياً أو فودياً. فقد كان رسل الأخ دولتشينو ينادون بإبادة رجال الكنيسة والأسياد جسدياً، وقاموا بكثير من الجرائم. وكان

Twitter: @ketab_n

الفوديون ضدّ العنف، وكذلك الإخوانيون. ولكنني متأكد أنه في أيام دولتشينو انضم إلى فريقه الكثيرون ممن تبعوا بشارة الإخوانيين أو الفوديين، لا يستطيع البُسَطاء أن يختاروا هرطقتهم، يا أدسو، إنهم يتشبثون بمن يأتي إلى أراضيهم بنظرية أو بمن يمرّ عبر القرية أو بساحة المدينة. وأعداؤهم ينتهزون ذلك. فعندما يُظْهِرون للشعب هرطقة واحدة، قد تنادي في الوقت نفسه برفض المتعة الجسدية وبالتشارك في الأجساد، فتلك مهارة في فن التبشير: لأنها تظهر الهراطقة في مظهر خليط واحد من التناقضات الشيطانية الجارحة للإحساس العامّ».

ـ «إذن ليست هناك علاقة بينهم، وبخدعة من الشيطان يجد البسيط نفسه بين أيدي المانويين بينما كان يريد أن يكون جواكيمياً أو روحانياً، والعكس بالعكس؟»

ـ «ولكن ليس الأمر كذلك. لنحاول أن نبدأ المسألة من جديد من أولها يا أدسو، وأؤكد لك أنني أحاول أن أشرح لك شيئاً لا أعتقد أنا نفسي أنني أملك عنه الحقيقة. أظن أن الخطأ هو الاعتقاد بأن الهرطقة تأتي أولاً، ثم يأتي البُسَطاء الذين يتهالكون عليها (ويهلكون فيها). في الحقيقة تأتي أولاً وضعية البُسَطاء ثم الهرطقة».

ـ «كيف؟»

«إن تركيبة شعب الرّب واضحة في ذهنك. قطيع كبير فيه نعاج طيبة ونعاج شريرة، تراقبها كلاب شرسة وهم الجند أو السلطة الزمنية المتمثلة في الإمبراطورية والأسياد، يقود الجميع الرُّعاة أي رجال الكنيسة، الذين ينطقون باسم الإلٰه. الصورة واضحة».

«ولكنها ليست صحيحة. إن الرُّعاة يتصارعون مع الكلاب لأن كلاً منهما يريد حقوق الآخر».

ـ «صحيح، وفعلاً هذا ما يجعل طبيعة القطيع غير دقيقة. أهمل الرُّعاة والكلاب القطيعَ لانشغالهم بتمزيق بعضهم بعضاً، وبقي جزء من القطيع على الحاشية».

ـ «كيف على الحاشية؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «نعم على الحاشية. فلاحون، وليسوا بفلاحين لأن لا أرض لهم أو لأن تلك التي يملكونها لا تسدّ رمقهم. مدنيّون، وليسوا مدنيين لأنهم لا ينتمون إلى حِرفة ولا إلى هيئة عُمّالية أُخرى. شعب فقير، ضحية الجميع. أرأيت أحياناً في الأرياف بعض الجماعات من المجذومين؟»

ـ «نعم، لقد رأيت مرة مائة منهم معاً. مشوّهين قد تعفّن لحمهم حتى أصبح أبيض، كانوا يمشون على عكازاتهم، وجفونهم منتفخة، وعيونهم دامية. لم يكونوا يتكلمون أو يصيحون، كانوا يصفرون كالفئران».

ـ «إنهم بالنسبة إلى الأمة المسيحية، الآخرون، أولئك الذين يوجدون على حاشية القطيع. والقطيع يبغضهم، وهم يبغضون القطيع. يودّون موتنا ويودّون لو كنّا كلّنا مرضى بالجُذام مثلهم».

ـ «نعم، أذكر قصة للملك تريستانو الذي كان يريد إعدام إيزوتّا الجميلة، وبينما كانت تُقاد إلى المحرقة جاء المجذومون إلى الملك وقالوا له إن المحرقة عقاب خفيف، وإنّ هناك عقاباً أشد، وصاحوا بالملك أن أعطنا إيزوتّا لتكون لنا كلّنا، فالداء يوقد شهواتنا، أعطها لمرضاك بالجُذام. انظر، خِرَقنا ملتصقة بجروحنا التي تتألم، وهي التي كانت بجانبك تنعم بالأقمشة المبطنة بالفرو وبالحلي، عندما ترى بلاط المجذومين وتضطر إلى دخول أكواخنا وإلى مضاجعتنا، عندئذ ستقرّ فعلاً بذنبها وستتحسّر على نار هذه المحرقة الجميلة».

فقال غوليالمو مازحاً: «أرى أنه بالنسبة إلى مبتدىء بنيدكتي لك قراءات غريبة». واحمرّ وجهي لأنني كنت أعلم أنه لا ينبغي لمبتدىء أن يقرأ روايات غرامية، لكنها في دير «مالك» كانت تدور بيننا نحن الشبّان وكنا نقرأها في الليل على نور الشمع. وأضاف غوليالمو «ولكن لا يهمّ، لقد فهمت ماذا كنت أعني. يريد المجذومون أن يهلكوا الجميع معهم. وكلما زدت في إبعادهم زاد شرّهم. وكلما اعتبرتهم جمعاً من الأشباح زدت في إقصائهم. وكلّما زدت في إقصائهم أرادوا هلاكك. لقد فهم القديس فرانشسكو ذلك، وكان اختياره الأول أن يذهب ليعيش بين المجذومين. لا يتغيّر ما بأمة الرّب ما لم يرجع في صلبها العائشون على حاشيتها».

Twitter: @ketab_n

- «ولكنك تتحدث عن محرومين آخرين. ليس المجذومون هم الذين يكوّنون الحركات الهرطيقية».

- «القطيع هو كمجموعة من الدوائر المتراكزة، من أبعاد القطيع الأكثر اتساعاً إلى ضاحيته المباشرة. المجذومون يمثلون الحرمان بصفة عامة. لقد فهم القديس فرانشسكو ذلك. لم يكن يريد فقط مساعدة المجذومين وإلا ما كان عمله ليتعدّى فعل الرّحمة المتواضع وغير المجدي. كان يعني أكثر من ذلك. هل قصّوا عليك وعظه للطيور؟»

- «آه، نعم، لقد سمعت تلك القصة الرائعة وعجبت للقديس الذي ينعم بصحبة تلك المخلوقات الوديعة».

- «إذن قد قصّوا عليك قصة خاطئة، أو بالأحرى القصة التي يقوم الآن النظام بإعادة تركيبها. عندما تحدّث فرانشسكو إلى خلق اللّه وإلى حكّامهم ورأى أنهم لا يفهمونه ذهب نحو المقبرة وأخذ يبشر الغربان والعقاعق والصقور والجوارح التي تعيش من الجِيَف»، فقلت: «ياله من شيء فظيع، لم تكن إذن طيوراً وديعة».

- «كانت طيوراً مفترسة، طيوراً ينفر منها الناس كالمرضى بالجُذام. من المؤكد أن فرانشسكو كان يفكر في تلك الآية من سفر الرؤيا التي تقول: «رأيت ملاكاً، ارتفع في الشمس، وصاح بصوت قوي إلى كلّ الطيور المخفّقة في السماء هلمّ اجتمعي إلى عشاء الإله العظيم لكي تأكلي لحوم ملوك ولحوم قوّاد ولحوم أقوياء ولحوم خيل والجالسين عليها ولحوم الكلّ حرّاً وعبداً صغيراً وكبيراً»».

- «إذن فرانشسكو كان يريد حث المحرومين على الثورة؟»

- «كلاّ، ربما كان هذا ما فعله دولتشينو وأتباعه. كان فرانشسكو يدعو إليه المحرومين، المتأهبين للثورة، كي ينضمّوا إلى شعب الرّب. لجمع شمل القطيع ينبغي استرجاع المحرومين. ولم ينجح فرانشسكو في مسعاه وأقول لك ذلك بكثير من المرارة. لاسترجاع المحرومين كان ينبغي أن يعمل داخل الكنيسة، وكي يعمل داخل الكنيسة كان ينبغي أن يحصل على اعتراف بقاعدته، التي منها يتكون نظام،

Twitter: @ketab_n

والنظام، عند نشأته يغلق رسم الدائرة، التي يوجد على حاشيتها المحرومون. والآن تفهم لماذا توجد جماعات الإخوانيين والجواكيميين، الذين يجمعون حولهم، مرة أخرى، المحرومين».

ـ «ولكننا لم نكن نتحدث عن فرانشسكو، بل عن الكيفية التي تنتج بها الهرطقة من البُسَطاء المحرومين».

ـ «فعلاً. كنا نتحدث عن الذين وقع إقصاؤهم عن قطيع النعاج. طيلة قرون، بينما كان البابا والإمبراطور يتناحران في مخاصماتهما حول السلطة، واصل هؤلاء العيش على حاشية المجتمع، هم المجذومون الحقيقيون، وليس المرضى بالجُذام إلا صورة وضعها الإله حتى نفهم هذه الاستعارة الرائعة ونفهم منها: مقصيّين، فقراء، بسطاء، محرومين، مقتلعين من أريافهم، مذلولين في المدن. ونحن لم نفهم، لقد بقي سرّ الجُذام يستحوذ على فكرنا لأننا لم نفهم طبيعته الدلالية. وإقصاؤهم عن القطيع جعلهم مستعدّين لسماع أو لخلق كل بشارة تستعيد أقوال المسيح، وتُعَرِّض للاتهام فعلاً تصرفات الكلاب والرُّعاة واعدة بأنه سيأتي يوم يجدون فيه عقابهم. وهذا ما فهمه دائماً أهل الحول والطول. فاسترجاع المقصيّين يُحتّم التقليل من امتيازاتهم ولذا يُتهم المقصيون الذين يستيقظ فيهم الوعي بوضعيتهم كمقصيّين بالهرطقة، بقطع النظر عن نظريتهم. وهؤلاء من جهتهم ـ وقد أعمتهم وضعيتهم كمقصيّين ـ لا يهتمون في الحقيقة بأية نظرية. هذا هو خداع الهرطقة. جميعهم هراطقة وجميعهم أرثوذكسيّون. لا تُؤخذ العقيدة التي تأتي بها الحركة بعين الاعتبار لأنّ ما يهم هو الأمل الذي تعرضه (على الآخرين). كل الهرطقات راية لواقع الإقصاء. اكشط الهرطقة تجد تحتها الجُذام. وكل مكافحة ضد الهرطقة لا تريد إلا هذا: أن يبقى الأجذم على حاله. وأما المجذومون فماذا تريد منهم؟ أن يفرقوا، في عقيدة الثالوث أو في سرّ القربان المقدس، بين ماهو صحيح وما هو باطل؟ هلّم يا أدسو، هذه ألعاب نلهو بها نحن رجال الفكر. أما البُسَطاء فلهم مشاكل أخرى. ولعلّك لاحظت أنهم يحلّونها كلها بطريقة خاطئة. لذا يصبحون هراطقة».

ـ «ولكن لماذا يؤيدهم البعض؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «لأنهم يخدمون أغراضهم التي لا تُعنى إلاّ نادراً بالعقيدة وهمّها هو الظفر بالسلطة».

ـ «لذا تتهم الكنيسة الرومانية بالهرطقة كل أعدائها؟»

ـ «نعم، ولذلك تعترف بصواب تلك الهرطقة التي يمكنها أن تعيدها داخل مراقبتها، أو تلك التي تُجبر على قبولها لأنها أصبحت قوية جداً ولا يُستحسن أن تكون في صف أعدائها. ولكن دون قاعدة مضبوطة، بحسب الأشخاص وبحسب الظروف. وهذا صحيح حتى بالنسبة إلى الأسياد المدنيين. لقد أصدرت بلدية بادوفا منذ ثلاثين سنة، أمراً يقضي بأن من يقتل رجل كنيسة يُحكم عليه بغرامة نقدية كبيرة...»

ـ «لا شيء!»

ـ «فعلاً. كانت طريقة لحث الشعب على بغض رجال الكنيسة، لأن المدينة كانت في صراع مع الأسقف. تفهم الآن لماذا أعان سابقاً المُوالون للإمبراطورية في كريمونا المانويين، لا لأسباب عقائدية ولكن لتوريط الكنيسة الرومانية. أحياناً يشجع الحكام المدنيون الهراطقة لأنهم يترجمون الإنجيل إلى اللغة العامية: لقد أصبحت العاميّة الآن لغة المدينة، واللاتينية لغة روما ولغة الأديرة. أو يؤيدون الفوديين لأنهم يؤكدون أن الجميع، رجالاً ونساء، صغاراً وكباراً، يمكنهم أن يدرّسوا وأن يعظوا والعامل الذي يصبح تلميذاً، بعد عشرة أيام يبحث عن تلميذ آخر ليكون له أستاذاً...»

ـ «وهكذا يمحون الفارق الذي يجعل رجال الكنيسة لا غنى عنهم! ولكن كيف يقع من بعد أن الحكومات المدنية نفسها تثور ضدّ الهراطقة وتعين الكنيسة على حرقهم؟»

ـ «لأنهم يتفطّنون إلى أنّ انتشارهم سيضع في أزمة أيضاً امتيازات المدنيين الذين يتكلمون العامية. في مجمع لاتران سنة 1179 (ترى أنها أحداث تعود إلى ما يزيد عن مائتي سنة) كان والتر ماب قد حذّر مما يمكن أن يحدث إذا ما وقع تصديق أولئك الفوديين الأغبياء الجهّال. قال، إن كنت أذكر جيّداً، إنهم دون مسكن قارّ ودائم،

Twitter: @ketab_n

يتجولون حُفاة لا يملكون شيئاً، مقتسمين بينهم كل شيء، يتّبعون عُراة المسيح العاري. إنهم يبدأون الآن بهذه الطريقة من التواضع الكبير لأنهم محرومون، ولكن لو تُرك لهم مجال أكبر فسيطردون الجميع. لذلك ساعدت المدن الأنظمة المتسوّلة وخاصة نحن الفرانشسكانيّين: لأنها تسمح بعلاقة مُنسجمة بين الحاجة إلى التوبة والحياة المدنية، بين الكنيسة والمدنيين الذين يهتمّون بأسواقهم...»

ـ «قد تحقق إذن الانسجام بين حب اللّه وحب التجارة؟»

ـ «كلا، لقد توقفت حركات التجديد الروحاني ووقع توجيهها داخل حدود نظام يعترف به البابا. أما ما كان يسري من تحتها فلم يقع توجيهه. وانتهى من ناحية في حركات المتسوّطين الذين لا يؤذون أحداً، وفي الجماعات المسلحة أيضاً كتلك التابعة للراهب دولتشينو، وفي طقوس الشَّعْوَذة مثل تلك التي يمارسها إخوان مونتيفالكو الذين تحدث عنهم أوبارتينو...»

فسألته بحيرة: «ولكن من كان على صواب، من الصائب ومن المخطىء؟»

ـ «لكلٍّ حجته المعقولة، وكلهم أخطأوا».

فصحت بحماس يكاد يكون ثورياً: «ولكن أنت، لماذا لا تأخذ موقفاً، لماذا لا تقول لي أين توجد الحقيقة؟»

فبقي غوليالمو بعض الوقت صامتاً، رافعاً العدسة التي كان يصنعها نحو النُّور. ثم وضعها على الطاولة وأراني من خلال العدسة أداة حديدية وقال لي: «أنظر، ماذا ترى؟».

ـ «الحديد، أكبر بقليل».

ـ «هو ذا، إن أقصى ما يمكننا عمله هو أن ننظر أحسن».

ـ «ولكن هو دائماً الحديد نفسه!».

ـ «ومخطوط فينانتسيو سيبقى دائماً المخطوط نفسه عندما سأتمكن من قراءته بفضل هذه العدسة. ولكنني ربما بعد قراءة المخطوط سأعرف جزءاً من الحقيقة معرفة أحسن. وربما يمكننا أن نجعل حياة الدير أفضل».

Twitter: @ketab_n

- «ولكن لا يكفي!»

- «إنني أقول لك أكثر مما يبدو، يا أدسو. ليست هذه المرة الأولى التي أحدثك فيها عن روجر بيكون. ربما لم يكن أحْكَم رجل عرفه التاريخ، ولكن سَحَرني دائماً الأمل الذي كان يحرك فيه حب المعرفة. كان بيكون يؤمن بقوة البُسَطاء الروحانية وبحاجاتهم وابتداعاتهم. ما كان يمكن أن يكون فرانشسكانياً لو لم يظن أن الفقراء، والمحرومين، والأغبياء والأميين يتكلمون غالباً بلسان سيدنا المسيح، ولو أمكنه أن يعرفهم عن قرب، لكان اهتمامه بالإخوانيين أكثر من اهتمامه بالآباء المشرفين على النظام. إن للبسطاء شيئاً لا يملكه العلماء، الذين غالباً ما يتيهون وراء البحث عن قواعد عامة جداً. إنهم يدركون ما هو فردي ولكن هذا الإدراك وحده لا يكفي. إن البُسَطاء يحسون بحقيقتهم، التي هي ربما حقيقية أكثر من حقيقة علماء الكنيسة، ولكنهم يستهلكونها في أعمال غير متبصرة. ما العمل؟ أنعطي العلم إلى البُسَطاء؟ هذا سهل جداً، أو صعب جداً. ثم أي علم؟ ذلك الموجود في مكتبة أبّوني؟ غالباً ما طرح الفرانشسكانيّون على أنفسهم هذا المشكل. لقد كان بونفانتورا العظيم يقول إنه ينبغي على الحكماء أن يوضحوا مفاهيم تلك الحقيقة المختفية وراء أعمال البُسَطاء...»

فقلت: «كمجمع بيروجيا ومذكرات أوبارتينو العلمية التي تحوّل نداء البُسَطاء إلى الفقر إلى قرارات لاهوتيّة».

- «نعم، ولكنك رأيت، أنها تأتي بعد فوات الأوان، وعندما تأتي تكون حقيقة البُسَطاء قد تحولت إلى حقيقة أصحاب السلطة، صالحة أكثر للإمبراطور لودوفيكو منها للأخ الذي يعيش حياة فقيرة. كيف يمكن الوقوف إلى جانب تجربة البُسَطاء مع الحفاظ، إن استطعنا القول، على قوتها العملية، وعلى قدرتها على العمل من أجل تغيير العالم وجعله أفضل؟ كان هذا مشكل بيكون وهو: إن ما ينشأ من عمل المدنيين المتهوّر لا يمكن أن يؤدي إلاّ إلى نتيجة عرضية. إنّ تجربة البُسَطاء تصل إلى نتائج وحشية ولا يمكن التحكم فيها، في حين أن عوالم الحكمة تنظمها قاعدة مضبوطة وتبلغ يقيناً النتيجة النهائية. فكأنه يقول إنه حتى في إدارة الأشياء العملية، سواء كانت آليات، أو فلاحة أو حكم مدينة، يلزم نوع من

Twitter: @ketab_n

اللاهوت. كان يرى أن علم الطبيعة الجديد يجب أن يكون عمل العلماء الجديد والعظيم لإدارة الحاجيات الأولية من خلال معرفة مُختلفة للتطورات الطبيعية والتي تتمثّل في التراكم غير المنظم، ولكنه على طريقته حقيقيّ وعادل، للآمال التي يتعلق بها البُسَطاء. هذا هو العلم الجديد، والسِّحْر الطبيعي الجديد. إلا أنه بالنسبة إلى بيكون ينبغي أن تُشرف الكنيسة على هذا العمل، وأظن أنه كان يقول ذلك لأنه في زمنه كانت مجموعة رجال الكنيسة تتطابق مع مجموعة العلماء. الآن لم يعد الأمر كذلك، فالعلماء يظهرون خارج الأديرة وخارج الكنائس وحتى خارج الجامعات. انظر مثلاً في هذه البلاد، ترى أن أكبر فلاسفة هذا القرن ليس راهباً بل عقاقيري. أتحدث عن ذلك الفلورنسي الذي قد تكون سمعت قصيدته تذكر، والتي لم أقرأها لأنني لا أفهم لغة العامّة، وبحسب ما أعرف عنها لن تعجبني إلا قليلاً لأن فيها هذياناً عن أشياء بعيدة جداً عن تجربتنا. ولكنه كتب، على ما أظن، أروع حِكَم أتيح لفهمنا أن يدركها حول طبيعة العناصر والكون كله، وحول قيادة الدول. وهكذا أظن، بما أنني أنا ورفاقي نرى أن قيادة الأشياء البشرية ليست الآن من مشمولات الكنيسة بل من مشمولات مجلس الشعب الذي عليه أن يقنّنها، أنه بالطريقة نفسها يتحتم في المستقبل على مجموعة العلماء تقديم هذه اللاهوتية الجديدة والإنسانية التي هي فلسفة طبيعية وشَعْوَذة إيجابية».

فقلت: «إنه عمل رائع، ولكن هل هو ممكن؟»

ـ «لقد كان بيكون يؤمن به».

ـ «وأنت؟»

ـ «أنا أيضاً كنت أؤمن به. ولكن للإيمان به ينبغي التأكد من أن البُسَطاء على حق لأنهم يملكون الإحساس بالفردية، الذي هو الوحيد الصحيح، كيف يمكن للعلم أن يعيد تكوين القوانين الشاملة التي من خلالها، ومن خلال تأويلها، تصبح الشَّعْوَذة الإيجابية عملية؟»

فقلت: «صحيح، كيف سيمكنه ذلك؟»

ـ «لم أعد أدري. لقد كانت لي عدة مناقشات في أكسفورد مع صديقي

Twitter: @ketab_n

غوليالمو دي أوكّام، الذي يوجد الآن في أفينيون. إنه ملأ نفسي شكوكاً. فإن كان مجرّد الحدس بالفردية هو الصحيح يصبح من الصعب القول بأن أسباباً من نوع ما تنجرّ عنها مسبّبات من النوع نفسه. إن الجسم نفسه يمكن أن يكون بارداً أو ساخناً، حلواً أو مراً، رطباً أو جافاً، في هذا المكان، لا في مكان آخر. كيف يمكنني اكتشاف العلاقة العامّة التي تجعل الأشياء منظمة إن لم يكن بإمكاني أن أحرّك إصبعاً دون أن أخلق مجموعة لامتناهية من الحالات، بما أنه بمثل تلك الحركة تتغيّر كل علاقات الموقع بين إصبعي وكل الأشياء الأخرى؟ إن العلاقات هي الكيفيات التي يرى بها فكري العلاقة بين حالات مفردة، ولكن من يضمن أن تلك الكيفية شاملة وقارّة؟»

ـ «ولكنك تعرف أن سَمْكاً معيّناً للزُّجاج تطابقه قوّة معيّنة للرؤية، ولأنك تعرف ذلك يمكنك الآن أن تصنع عدستين متساويتين لتينك اللتين أضعتهما وإلا فكيف سيمكنك أن تفعل؟»

ـ «إنه ردّ ثاقب، يا أدسو. فعلاً لقد وضعت هذه القضية وهي أنه لسَمْك معين قوة رؤية معادلة تقابله. ووضعتها لأنه في مرات سابقة كانت لي إدراكات حدسية فردية من النوع نفسه. إنه من المعروف بكل تأكيد لمن يجرب الخاصية الشفائية للنباتات أن كل الأنواع النباتية من الطبيعة نفسها لها التأثير نفسه على المريض الذي له العوارض نفسها، لذا يطرح المجرب القضية: إن كل نبتة من نوع معين تنفع المصاب بالحُمّى، أو إن كل عدسة من نوع معيّن تزيد بدرجة معيّنة من نظر العين. إن العلم الذي كان يتحدث عنه بيكون يتمحور دون شك حول هذه القضايا. احترس، فأنا أقصد قضايا عن الأشياء نفسها. فالعلم له علاقة بالقضايا وبأطرافها، والأطراف تعني أشياء مفردة. أتفهم يا أدسو، ينبغي أن أعتقد أن قضيتي ستعطي نتيجة لأني تعلمت ذلك من خلال التجربة، ولكن للاعتقاد في ذلك ينبغي أن أفترض وجود قوانين شاملة، ومع ذلك لا يمكنني قول ذلك لأن الفكرة نفسها أن هناك قوانين شاملة، ونظاماً أُعطي للأشياء، تؤدي إلى القول بأن الإلٰه سجين ذلك النظام، بينما الإلـه حرّ مطلقاً ولو أراد بإشارة واحدة لجعل العالم مُختلفاً».

Twitter: @ketab_n

- «إذن إذا كان فهمي صائباً، فأنت تفعل، وتعرف لماذا تفعل، ولكنك لا تعرف لماذا تعرف أنك تعرف ماذا تفعل؟»

يجب أن أقول باعتزاز إن غوليالمو نظر إليّ بإعجاب قائلاً: «قد يكون كذلك. على كل حال هذا يبيّن لك لماذا أُحسّ بكل ذلك الشكّ في الحقيقة التي أملكها، حتى ولو أني أؤمن بها».

فقلت بخبث: «إنك أكثر تصوّفاً من أوبارتينو!»

- «ربما. ولكن كما ترى، أنا أعمل حول أشياء الطبيعة. وحتى في التحقيق الذي نحن بصدد القيام به، لا أريد أن أعرف من الطيّب ومن الشرير، ولكن من كان في قاعة الكتابة ليلة أمس، من سرق النظارات، من ترك على الثلج آثار جسم يجرّ جسماً آخر، وأين يوجد برينغاريو. هذه وقائع. . ومن ثم سأحاول الربط بينها، إن كان ذلك ممكناً، لأنه من الصعب القول ما هو المعلول الذي أحدثته علة ما. يكفي تدخل ملاك كي يتغير كل شيء، لذلك ليس من العجيب أن لا نتمكن من البرهنة على أن شيئاً هو سبب شيء آخر ولو أنه ينبغي دائماً محاولة ذلك كما أفعل الآن».

فقلت: «إنك تعيش حياة صعبة!»

فصاح غوليالمو: «لكنني وجِدت برونيلّو!» ملمحاً إلى الجواد الذي رأيناه منذ يومين.

فصحت بظفر: «إذن هناك نظام للعالم!»

فأجاب غوليالمو: «إذن هناك قليل من النظام في رأسي المسكين». عند ذلك دخل نيكولا وهو يحمل حمّالة للزجاج أوشك على إتمام صنعها وأرانا إياها بظفر، فقال غوليالمو: «وعندما أضع هذه المسّاكة فوق أنفي المسكين، قد يصبح رأسي المسكين أكثر نظاماً».

ثم جاءنا مبتدىء يُعْلِمنا أن رئيس الدير يريد مقابلة غوليالمو، وأنه ينتظره في الحديقة. فتحتم على أستاذي ترك تجاربه إلى ما بعد، وأسرعنا نحو مكان الملاقاة. وبينما كنا في طريقنا ضرب غوليالمو بكفه على جبينه وكأنه تذكر في

Twitter: @ketab_n

تلك اللحظة فقط أمراً كان قد نسيه، وقال: «بالمناسبة، لقد فككتُ رموز فينانتسيو الغامضة».

ـ «كلها؟ متى؟»

ـ «بينما كنت أنت نائماً. ويتوقف الأمر على ما تعني بكلّها. لقد فككت الرموز التي ظهرت بفعل النار، تلك التي نقلتها. أما المذكرة باليونانية فيجب أن تنتظر حتى أحصل على عدستين جديدتين».

ـ «إذن كانت تخصّ سرّ «finis Africae»؟»

ـ «نعم، وكان المفتاح سهلاً. كان فينانتسيو يستعمل العلامات البروجية وثماني علامات للسيارات الخمس، والشمس والقمر، والأرض. عشرون علامة في مجموعها. كافية كي تناسبها الأحرف الأبجدية اللاتينية، إذ بالإمكان استعمال الحرف نفسه لصوت الحرفين الأولين في «unum» و «velut». ترتيب الأحرف نعرفه، ماذا يكون ترتيب العلامات؟ لقد فكرت في نظام السماوات، واضعاً فلك البروج في أقصى محيط الدائرة. إذن، الأرض، القمر، عطارد، الزهرة، الشمس... إلى آخره، ثم تأتي العلامات البروجية في تتابعها الاعتيادي، كما رتبها إزيدورو دي سيفيليا، مبتدئاً بالحَمَل وبمنقلب الربيع ومنتهياً بالحوت. الآن لو حاولت أن تطبق هذا المفتاح لأصبح لمذكرة فينانتسيو معنى». وأراني الرق وقد كتب فوقه فحوى المذكرة بأحرف لاتينية كبيرة «Secretum finis Africae manus supra idolum age primum et septimum de quatuor»

وسألني: «هل هو واضح؟»

فأعدت وأنا أهزّ رأسي: «اليد فوق الصورة تحرك الأول والسابع من بين الأربعة... ليس واضحاً بالمرة».

ـ «أعرف ذلك. ينبغي علينا أولاً أن نعرف ماذا كان فينانتسيو يعني بـ «Idolum». صورة، أم شبحاً أم رمزاً؟ ثم، ماذا تكون هذه الأربعة التي لها أول وسابع؟ وماذا ينبغي أن نفعل؟ أن نحركها، أن ندفعها، أم أن نجذبها؟»

Twitter: @ketab_n

فقلت بخيبة أمل كبيرة: «إذن نحن لا نعرف شيئاً ولا نزال في النقطة نفسها التي بدأنا منها». فتوقف غوليالمو ونظر إليّ بهيئة لا تنمُّ قط على الرقة وقال «أيها الولد، أمامك فرانشسكاني مسكين استطاع بمعرفته المتواضعة وبذلك القليل من المهارة التي وهبتها إياه قدرة الإلـه اللامتناهية أن يفكّ في بضع ساعات رموز كتابة سرية كان كاتبها واثقاً من أنها ستبقى مغلقة على الجميع إلا على نفسه.. وأنت، أيها الأمّي البائس تسمح لنفسك بأن تقول إننا لا نزال في النقطة التي بدأنا منها».

فاعتذرت إليه بارتباك كبير. لقد جرحت كبرياء أستاذي مع أنني كنت أعرف كم كان فخوراً بسرعة استنتاجاته وبثباتها. لقد قام غوليالمو حقيقة بعمل يستوجب الإعجاب وليست غلطته أن الداهية فينانتسيو لم يكتفِ بإخفاء ما اكتشف تحت حجاب أحرف بروجية غامضة، بل وضع أيضاً لغزاً لا يمكن فكّ رموزه».

فقاطعني غوليالمو قائلاً: «لا بأس، لا بأس، لا تعتذر. في نهاية الأمر أنت على حق، إننا لا نعرف إلى الآن إلا شيئاً قليلاً جداً. هيّا بنا».

Twitter: @ketab_n

اليوم الثالث: صَلاة السّتار

وفيه يجري غوليالمو محادثة أخرى مع رئيس الدير وتخطر بباله أفكار عجيبة لفكّ لغز المتاهة، وينجح في ذلك بالطريقة الأكثر معقولية، ثم يأكل أدسو وغوليالمو فطيرة من الجبن

كان رئيس الدير ينتظرنا مُكْفَهِرّ الوجه مُنْشغلاً، وفي يده ورقة. وقال: «لقد تسلّمت الآن رسالة من رئيس دير كونك يعلمني فيها باسم الشخص الذي عهد إليه جيوفاني بقيادة الجنود الفرنسيين، وبضمان سلامة القصادة. ليس رجل سلاح، ولا رجل بلاط وسيكون في الوقت نفسه عضواً في القصادة».

فقال غوليالمو بقلق: «إنه لاقتران نادر لمناقب مُختلفة. من يكون؟

ـ «برناردو غي، أو برناردو غويدوني، كما تريد أن تسميه».

فانطلقت من غوليالمو عبارة في لغته، لم أفهمها، ولا فهمها رئيس الدير، وربما كان من الأفضل كذلك بالنسبة إلى الجميع، لأن الكلمة التي نطق بها غوليالمو أحدثت صوتاً فاحشاً. ثم أضاف في الحال: «هذا أمر لا يعجبني. لقد كان برناردو لمدة سنين مدقّة الهراطقة في جهة تولوز وألّف كتاباً بعنوان **دليل المفتش في التحقيق حول ضلال الهراطقة** مخصصاً لمن كُلّف بمراقبة الهراطقة وإبادتهم من فوديين، ومترهبين متسكعين ومتزمتين منافقين، وإخوانيين ودولتشينيين.

ـ «أعرف ذلك، وأعرف الكتاب، إنه روعة في الفكر».

فأيده غوليالمو معيداً: «روعة في الفكر. إنه مخلص لجيوفاني الذي أوكل إليه في السنوات الماضية العديد من المهمات في جهات فلاندرا وفي إيطاليا الشمالية.

Twitter: @ketab_n

وحتى عندما عُيّن في غاليتسيا لم يظهر قط في أبرشيته وتابع نشاطه التفتيشي. كنت أظن أنه تنسّك في أسقفية لوداف، ولكن بحسب ما يظهر قد أعاده جيوفاني إلى العمل وفي شمال إيطاليا بالذات. لماذا برناردو بالذات، ولماذا عُهدت إليه مسؤولية الجند. . . ؟». فقال رئيس الدير: «الجواب موجود، ويؤكد كل التخوفات التي عبّرت لك عنها بالأمس. أنت تعرف جيداً - حتى وإن كنت لا توافقني على ذلك - أن المواقف حول فقر المسيح والكنيسة، التي أيدها مجمع بيروجيا، ولو بحجج لاهوتية وافرة، هي نفسها التي تؤيدها بأقل تبصّر وأقلّ استقامة في السلوك، الكثير من الحركات الهرطوقية. ليس من الصعب البرهنة على أن مواقف ميكيلي دا تشيزينا، التي تبنّاها الإمبراطور، هي نفس مواقف أوبارتينو وأنجيلو كلارينو. وعلى هذا ستكون البعثتان متفقتين. ولكن بمقدور غي أن يعمل أكثر من ذلك، ولديه المهارة الكافية لذلك: سيحاول أن يؤكد على أن أفكار مجمع بيروجيا هي أفكار الإخوانيين، أو الرسل الكاذبين نفسها. أتوافقني على ذلك؟»

- «أتقول إن الأشياء هي على هذا النحو أم إن برناردو غي سيقول إنها على هذا النحو؟»

فاعترف رئيس الدير بحذر: «لنقل إنني أقول إنه سيقول ذلك».

- «إني أشاطرك الرأي. ولكن هذا كان متوقعاً. أريد أن أقول إنه من المعروف أننا سنصل إلى ذلك حتى دون حضور برناردو. على أقصى تقدير سيقوم برناردو بذلك بفعالية أكثر من أولئك الكنسيّين الحمقى، وينبغي أن نناقشه بأكثر دقة».

فقال رئيس الدير: «نعم، ولكن عند ذلك الحد سنجد أنفسنا في القضية نفسها التي أثيرت أمس. إذا لم نعثر اليوم أو غداً على مرتكب الجريمتين أو ربما الثلاث سأضطر إلى السماح لبرناردو بالقيام بمراقبة أمور الدير. لا يمكنني أن أخفي على رجل عهدت إليه سلطة، مثل تلك التي عهدت إلى برناردو (وباتفاق متبادل من طرفنا، لنتذكر ذلك) أنه وقعت في الدير ولا تزال تقع أحداث لا يمكن تفسيرها. وإلا، فعندما سيكتشف ذلك، أو عندما يقع (لا سمح اللّه) حدث جديد غامض، سيكون لديه ألف حق في أن ينادي بالخيانة».

Twitter: @ketab_n

فتمتم غوليالمو بانشغال قائلاً: «هذا صحيح، ليس هناك ما يمكننا عمله. ينبغي أن نكون حذرين، وأن نراقب برناردو الذي سيراقب المجرم الغامض وربما يكون ذلك أفضل، فسينشغل برناردو بالمجرم ولن يتوافر له الوقت للتدخل في المناقشة».

- «إن اهتمام برناردو باكتشاف المجرم سيكون كالشوكة المرشوقة في جنب سلطتي، تذكّر ذلك. إن هذه الواقعة الملتبسة تضطرني لأول مرة أن أتنازل عن جانب من سلطتي داخل هذه الأسوار، وهذا حدث لم يسبق أن وقع ليس في تاريخ هذا الدير فحسب، بل وفي تاريخ النظام الكلوني نفسه. إني مستعد إلى أن أفعل أي شيء لمنع ذلك. وأول ما يمكنني أن أفعله هو رفض استضافة البعثتين. فقال غوليالمو: «أرجو حضرتك بحرارة أن تفكر في هذا القرار الخطير. بين يديك رسالة من الإمبراطور يسألك فيها بإلحاح أن. .».

فأجاب رئيس الدير بحدة: «أعرف ماذا يربطني بالإمبراطور، وأنت أيضاً تعرف ذلك. وتعرف إذن أنه للأسف، لا يمكنني التراجع. ولكن كل هذا فظيع جداً. أين برينغاريو، ماذا وقع له، وأنت ماذا تفعل؟»

- «إنني فقط راهب قاد بنجاح، في وقت مضى، أبحاثاً تفتيشية ناجعة. أنت تعرف أن الحقيقة لا تظهر في يومين. وأخيراً ماذا أعطيتني كسلطة؟ هل أستطيع الدخول إلى المكتبة؟ هل يمكنني، بتأييد دائم من سلطتك، أن ألقي كل الأسئلة التي أريدها؟»

فقال رئيس الدير غاضباً: «لا أرى العلاقة بين الجرائم والمكتبة».

فشرح غوليالمو بصبر: «لقد كان أدالمو منمنماً، وفينانتسيو مترجماً، وبرينغاريو أمين المكتبة. .».

- «هذا يعني أن الرُّهبان الستّين كلهم لهم علاقة بالمكتبة، كما لهم علاقة بالكنيسة. لماذا لاتبحث إذن في الكنيسة؟ أخ غوليالمو، إنك تقوم بتحقيق بتكليف مني وفي الحدود التي رجوتك أن تقوده فيها. فيما تبقّى، داخل هذه الأسوار، أنا هو الآمر بعد الرب، وبفضل منه. وهذا يصدق بالنسبة إلى برناردو أيضاً». - ثم

Twitter: @ketab_n

أضاف بلطف ـ «ومن جهة أخرى، ليس هناك ما يؤكد أن برناردو آتٍ إلى هنا من أجل اللقاء. لقد كتب اليّ رئيس دير كونك يقول أيضاً إنه ينزل إلى إيطاليا لمواصلة سفره نحو الجنوب. ويقول لي أيضاً إن البابا رجا الكاردينال ديل بودجيتو للصعود من بولونيا والتحول إلى هنا لتسلُّم قيادة القصادة البابوية. ربما يكون برناردو آتياً إلى هنا لملاقاة الكردينال».

«وهو أشنع إن نظرنا نظرة أشمل. فبرناردو هو سَوْط الهراطقة في إيطاليا الوسطى. وهذا اللقاء بين بطلين في مكافحة الهراطقة يمكن أن يهيئ لهجمة أوسع في البلاد، تشمل في آخر الأمر الحركة الفرانشسكانية كلها..»

فقال رئيس الدير: «وسنعلم الإمبراطور بذلك في الحال. ولكن في هذه الحالة لن يكون الخطر فورياً. سنكون يقظين. وداعاً».

بقي غوليالمو بُرهة صامتاً بينما كان رئيس الدير يبتعد ثم قال لي: «لنحاول بالخصوص يا أدسو، أن نتجنّب التّسرّع. لا تُحلّ الأشياء بسرعة عندما ينبغي أن تتجمع الكثير من التجارب الصغيرة الفردية. إني عائد إلى المخبر، لأني دون العدستين لن يمكنني أن أقرأ المخطوط ولن يكون حتى من الصالح أن نعود هذه الليلة إلى المكتبة. اذهب أنت واستخبر إن جدّ جديد حول برينغاريو».

في تلك اللحظة هرع نحونا نيكولا دا موريموندو يحمل أخباراً سيئة للغاية. بينما كان يزيد في صقل أفضل عدسة، تلك التي علّق عليها غوليالمو آمالاً كبيرة إذ انكسرت، وأخرى، كان يمكن أن تعوضها، انشقت عند محاولة اقحامها في المسّاكة. ورفع عينيه إلى السماء مغموماً، إذ حانت صلاة السّتار وبدأت الظُّلمة تهبط. فاعترف غوليالمو بمرارة أنه قد ضاع منا يوم آخر متماسكاً عن الرغبة (كما اعترف لي فيما بعد) التي تملكته، في خنق الزّجّاج الأخرق، الذي كان من ناحيته ذليلاً بما فيه الكفاية.

وتركناه لخزيه وذهبنا للاستخبار عن برينغاريو. بطبيعة الحال لم يكن قد عثر عليه أحد.

كنا نحسّ بنفسينا في نقطة توقف، فتنزّهنا قليلاً في الرواق، مترددين حول ما

Twitter: @ketab_n

ينبغي عمله. ولكنني رأيت بعد قليل غوليالمو سابحاً بنظره في الفراغ، وكأنه لا يرى شيئاً. كان قد أخذ منذ حين من عباءته عوداً صغيراً كنت قد رأيته يقطفه قبل أسابيع، وأخذ في مضغه كما لو كان يستنبط منه نوعاً من التهيّج الهادىء. وفعلاً كان يبدو هادئاً لولا أنه من حين لآخر كانت عيناه تتقدان، وكأنما في الفراغ الذي يملأ فكره كانت تومض فكرة جديدة، ثم يسقط من جديد في بلهه الغريب النشيط. وفجأة قال «أكيد، يمكن».

فسألته «ماذا؟»

- «كنت أفكر في طريقة تمكّننا من أن نجد وجهتنا في المتاهة. ليس من السهل إنجازها ولكنها قد تكون ناجحة... في نهاية الأمر نعرف أن الخروج يكون من البرج الشرقي. الآن افْتَرِضُ أننا نملك آلة تدلنا على الشمال. ماذا سيقع؟»

فلاحظت قائلاً «بطبيعة الحال يكفي أن ندور على يميننا وستوجهنا نحو الشرق. أو يكفي أن نذهب في الاتجاه المعاكس، وسنعرف أننا بصدد الذهاب نحو البرجِ الجنوبي. ولكن حتى ولو افترضنا أن مثل هذا السِّحْر موجود فالمتاهة هي فعلاً متاهة، وما إن نتجه نحو الشرق حتى يعترضنا جدار يمنعنا من المضي إلى الأمام، وسنضيع الطريق من جديد...».

- «نعم، ولكن الآلة التي أتحدث عنها ستشير دائماً إلى الشمال، ولو غيرنا نحن اتجاهنا، وعند كل نقطة ستقول لنا أين ينبغي علينا أن ندور».

- «سيكون شيئاً رائعاً. ولكن ينبغي أن تكون لدينا تلك الآلة ويجب أن تكون قادرة على معرفة الشمال في الليل وفي مكان مغلق، دون أن ترى الشمس أو النجوم...»، ثم ضحكت قائلاً «ولا أظن أن صاحبك بيكون يملك مثل تلك الآلة!»

فقال غوليالمو «بالعكس، إنك مخطئ، لأن مثل هذه الآلة قد صُنعت واستعملها بعض البحّارة. وهي لا تحتاج لا للنجوم ولا للشمس، لأنها تستغل قوة حجارة عجيبة، تماثل تلك التي رأيناها في مستشفى سيفيرينو، تلك التي تجذب

Twitter: @ketab_n

الحديد. وقد قام بدراستها بيكون وساحر بيكاردي، بيترو دا ماريكور، الذي وصف استعمالاتها المتعدّدة».

«هل تستطيع أنت صنعها؟»

«لن يكون ذلك في حدّ ذاته شيئاً صعباً. يمكن استعمال الحجارة لصنع عدة روائع من بينها آلة تتحرك بصفة لانهائية دون أية قوة خارجية، ولكن الاختراع الأكثر بداهة قد وصفه عربي، بَيْلَق القَبَاكي. خذ وعاء مليئاً بالماء وضع بداخله قطعة خفاف تطفو فوق الماء وقد رشقت فيها إبرة من حديد. ثم مرّر فوق سطح الماء الحَجرة المغناطيسية بحركة مستديرة، إلى أن تحصل الإبرة على خاصيات الحجرة نفسها. عند ذلك تتجه الإبرة نحو الشمال ـ وستفعل الحجرة الشيء نفسه لو أمكن أن تتحرك حول محور ـ ولو تحركت أنت بالوعاء، لأشارت دائماً إلى جهة القطب. من العبث أن أقول لك، إنه لو رسمت على حافة الوعاء، بصِلة مع القطب، مواقع الجنوب والشمال، إلى آخره، فستعرف دائماً نحو أي اتجاه تتحرك في المكتبة للوصول إلى البرج الشرقي».

فقلت باعجاب «يا له من شيء رائع! ولكن لماذا تتجه الإبرة دائماً نحو الشمال؟ الحجرة تجذب الحديد، لقد رأيت ذلك وأتصور أن كمية كبيرة من الحديد تجذب الحجارة. ولكن، إذن. . . إذن في اتجاه نجمة القطب، عند أقصى حدود الكرة الأرضية توجد مناجم الحديد الكبرى!»

«فعلاً، لقد قال أحدهم ذلك. بيد أن الإبرة لا تتجه بالضبط نحو النجمة البحرية، ولكن نحو نقطة التقاء الخطوط الاستوائية السماوية. وهذا يدل، كما قيل أن هذه الحَجرة ترتسم فيها السموات بدقة وتستمد أقطاب المغناطيس انحناءها من أقطاب السماء لا من قطبي الارض. وهذا مثال رائع لحركة محدثة عن بعد ولا عن سببية مادية مباشرة. وهذه مسألة يهتمّ بها كثيراً صديق لي، جيوفاني دي جياندونو، عندما لا يطلب منه الإمبراطور أن يدفن في جوف الأرض أفينيون. . .»

فقلت باندفاع «إذن هيا نأخذ حجارة سيفيرينو ووعاء، وماء، وقطعة من خفاف. .».

Twitter: @ketab_n

ـ «اهدأ، اهدأ. لا أدري لماذا ولكني لم أرَ قط آلة وصلت إلى الكمال في أوصاف الفلاسفة، وكانت كاملة أيضاً في استعمالها الميكانيكي. بينما منجل الفلاح الذي لم يصفه أي فيلسوف يعمل كما ينبغي. . . وأخاف أنه لو طفنا في المتاهة حاملين النُّور بيد ووعاء الماء بيد أخرى أن. . انتظر لديّ فكرة أخرى. الآلة تشير إلى الشمال حتى وإن كنا خارج المتاهة، أليس كذلك؟»

ـ «نعم، ولكن عندئذٍ لن تنفعنا إذ ستكون لدينا الشمس والنجوم. . .»

ـ «أعرف، أعرف ذلك، ولكن إذا كانت الآلة تعمل بالخارج كما تعمل بالداخل، لماذا لا يكون الأمر كذلك حتى بالنسبة إلى عقلنا؟»

ـ «عقلنا؟ أكيد أنه يعمل حتى في الخارج، وفعلاً نحن نعرف جيداً في أي اتجاه يقع الصرح! ولكن عندما نصبح بالداخل لا نفهم شيئاً!»

ـ «فعلاً ولكن دَعْنا الآن من الآلة. إنّ التفكير في الآلة دفعني إلى التفكير في القوانين الطبيعية وقوانين عقلنا. هذا هو المشكل: يجب أن نجد من الخارج الكيفية لوصف الصّرح كما هو بالداخل. . .»

ـ «وكيف؟»

ـ «دعني أفكر، لا يمكن أن يكون أمراً صعباً جداً. . .»

ـ «إنها الطريقة التي تحدثت عنها بالأمس؟ ألم تكن تريد التجول في المتاهة مصوراً رسوماً بالفحم؟»

فأجاب «كلا، كلما زدت تفكيراً في ذلك قل اقتناعي به. قد لا أذكر جيّداً القاعدة، أو قد يلزم للطواف داخل متاهة أن تكون معنا أريانا طيبة تنتظرنا عند الباب ماسكة بطرف الخيط. ولكن لا توجد خيوط في ذلك الطول. وحتى وإن وُجدت فهذا يعني (غالباً ما تقول الخرافات الحقيقة) أنه لا وسيلة للخروج من متاهة إلاّ بإعانة خارجية، حيث تكون قوانين الخارج موازية لقوانين الداخل. هو ذا يا أدسو. سنستعمل علوم الرياضيات. في علوم الرياضيات فقط كما يقول ابن رشد تتطابق الأشياء المعروفة لدينا وتلك المعروفة إطلاقاً».

Twitter: @ketab_n

ـ «ترى إذن أنك تقرّ بالمعرفة الشاملة».

ـ «إن علوم الرياضيات هي قضايا صنعها عقلنا بحيث تعمل دائماً على أنها حقيقيّة. إمّا لأنها فطرية أو لأن الرياضيات قد اخترعت قبل العلوم الأخرى. وقد بنى المكتبة عقل إنساني كان يفكر بطريقة رياضية لأنه دون رياضيات لا تُصنع متاهات. ينبغي إذن مقارنة قضايانا الرياضية بقضايا الباني، ومن هذه المقارنة يمكن استخراج علم، لأنه علم حدود حول حدود. وعلى كل حال كُفَّ عن جرّي في مناقشات ميتافيزيقية. أي شيطان تملّكك هذا اليوم؟ الأجدر هو أن تأخذ رقّاً، بما أن نظرك جيّد ولوحة، أو شيئاً يمكنك أن ترسم فوقه علامات، ومرقماً... حسن، لديك كل شيء أحسنت يا أدسو. هلمّ نَطُفْ حول الصرح مادام هناك قليل من النّور».

طفنا إذن حول الصرح لمدة طويلة. أي إننا حققنا من بعيد في البرج الشرقي، والجنوبي والغربي، والأسوار التي تربط بينها. لأن ما تبقى كان يشرف على الهاوية، ولكن لأسباب تناسقية كان لا يمكن أن يكون مُختلفاً عمّا كنا نراه.

ولاحظ غوليالمو أنّ ما رأيناه ـ وكان يأمرني بكتابة ملاحظات دقيقة على لوحتي ـ وهو أنه في كل جدار كانت هناك نافذتان وفي كل برج خمس نوافذ.

ثم قال لي أستاذي «والآن فكر، كل قاعة من تلك التي رأيناها كانت لها نافذة...».

فقلت «إلا القاعات ذات الجوانب السبعة».

ـ «طبيعي، هي تلك الموجودة وسط كل برج».

ـ «وما عدا بعض القاعات التي كانت دون نوافذ ولم تكن مسبعة الزوايا».

ـ «انسَها. لنجد أولاً القاعدة، ثم نحاول تفسير الشذوذ. إذن سيكون لدينا في الخارج خمس قاعات بالنسبة لكل برج وقاعتان لكل جدار، ولكل واحدة منها نافذة. ولكن إذا ما مررنا من قاعة لها نافذة متقدمين نحو داخل الصرح، تعترضنا قاعة أخرى لها نافذة. وهذا يعني أنها النوافذ الداخلية. الآن، ماهو شكل البئر الداخلية، كما تبدو لنا من المطبخ ومن قاعة الكتابة؟»

Twitter: @ketab_n

فقلت: «مُثمَّنة الزوايا».

- «حسن، وعلى كل جانب من المُثَمَّن، في قاعة الكتابة، نافذتان. هذا يعني أن كل جانب من المُثَمَّن تقابله قاعتان داخليتان؟ أليس كذلك؟»

- «نعم، ولكن القاعات الخالية من النوافذ؟»

- «ثمانية، في جملتها. فعلاً، إنّ القاعة الداخلية لكل برج هي ذات سبعة أضلاع، ولها خمسة جدران تحدّ بالقاعات الخمس لكل برج. بماذا يحدّ إذن الجداران الآخران؟ ليس بقاعة موجودة طول الجدران الخارجية وإلا كانت بها نوافذ، ولا بقاعة موجودة طول المُثَمَّن، للأسباب نفسها، ولأنها ستكون في تلك الحالة طويلة جداً. حاول أن ترسم كيف يمكن أن تظهر المكتبة لو رأيناها من فوق، فإنك تَرَى أن كل برج توافقه قاعتان تحدان بالقاعة المسبعة الأضلاع وتفتحان على قاعتين تحدان بالبئر المثمنة الأضلاع الداخلية».

وحاولت رسم ذلك بحسب ما أوحاه إليّ أستاذي وانطلقت مني صيحة ظفر «إذن، نحن نعرف كل شيء! اتركني أعدّ... تحتوي المكتبة على ستّ وخمسين قاعة، منها أربع قاعات مسبعة الأضلاع واثنتان وخمسون شبه مربعة، ومن بينها، أربع دون نوافذ بينما ثمان وعشرون تفتح على الخارج وست عشرة على الداخل!»

- «ويحتوي كل من البروج الأربعة على خمس قاعات لها أربعة جوانب وواحدة لها سبعة جوانب... لقد شُيِّدت المكتبة بحسب انسجام سماوي يمكن أن تُنسب إليه معانٍ مُختلفة مدهشة...»

فقلت: «إنه لاكتشاف رائع، ولكن لماذا إذن يصعب لهذا الحد أن يجد فيها المرء اتجاهه؟»

- «لأن ما لا يستجيب لأية قاعدة رياضية هو ترتيب الممرّات. بعض القاعات تسمح بالمرور إلى قاعات أخرى عديدة وبعضها إلى واحدة فقط، ويمكن التساؤل إن لم تكن هناك قاعات لا تؤدي إلى أية قاعة أخرى. إذا ما أخذت بعين الاعتبار هذا العنصر، وأضفت إليه انعدام النُور وغياب كلّ إشارة يمكن أن يوفرها

Twitter: @ketab_n

موقع الشمس (زِدْ على كلّ ذلك الرؤى والمرايا) فهمت لماذا تقدر المتاهة أن تدخل الارتباك على كل من يعبرها ويشوّشه بالإضافة إلى ذلك الإحساس بالذنب. ومن ناحية أخرى أتذكر كيف تملكنا اليأس ليلة الأمس، لما عجزنا عن العثور على طريقنا. أقصى البلبلة من خلال أقصى نظام: يبدو لي حساباً رائعاً. إن بُناة المكتبة كانوا فنيين عظاماً».

ـ «كيف سنفعل إذن لنجد اتجاهنا فيها؟»

ـ «عند هذا الحدّ ليس ذلك بالشيء الصعب. مع الخارطة التي رسمتها والتي توافق تقريباً رسم المكتبة، ما إن ندخل القاعة الأولى المسبّعة الأضلاع حتى نتحرك في اتجاه إحدى القاعتين الخاليتين من النوافذ ثم ندور على يميننا، بعد ثلاث أو أربع قاعات، سنجد نفسينا من جديد في برج، ولا يمكن أن يكون إلاّ البرج الشمالي إلى أن نعود من جديد إلى قاعة أخرى دون نوافذ، تحدّ على شمالها بالقاعة المسبعة الأضلاع، وعلى يمينها تسمح لنا بقطع مسافة مماثلة لتلك التي وصفتها لك الآن، إلى أن نصل إلى البرج الغربي».

ـ «نعم، هذا إذا ما كانت كل القاعات تفتح على قاعات أخرى. . .»

ـ «فعلاً، ولذا تلزمنا خارطتك، التي سنرسم فوقها الجدران المليئة، بحيث نعرف ما هي المنعرجات التي قمنا بها. ولكن لن يكون ذلك صعباً».

فقلت محتاراً: «هل من المؤكد أن تنجح هذه الطريقة؟» ـ لأن كل ذلك كان يبدو لي على غاية من البساطة.

فأجاب غوليالمو «ستنجح»، ثم تلا: «إن كل علة لمعلول طبيعي تتجلّى من خلال خطوط وزوايا وصور وإلاّ أصبح من المستحيل اكتشاف السبب الذي من أجله وُجدت فيه». إنها كلمات أحد كبار أساتذة أوكسفورد. ولكن للأسف لا نعرف كل شيء. لقد تعلمنا كيف نتفادى أن نتيه. الآن ينبغي أن نعرف إن كانت هناك قاعدة في توزيع الكتب على القاعات. وأبيات سفر الرؤيا لا تنيرنا إلا قليلاً، وذلك راجع أيضاً إلى أن الكثير منها يتكرّر في قاعات مُختلفة. . .»

ـ «ومع ذلك كان كتاب الحواري يسمح بإيجاد أكثر من الستة والخمسين بيتاً!»

Twitter: @ketab_n

ـ «دون شك. إذن ليست هناك إلا بضعة أبيات صالحة. غريب كما لو كان لديهم أقل من خمسين أو ثلاثين أو عشرين... آه، أُقسِم بلحية مرلينو!»

ـ «بلحية من؟»

«لا شيء، إنه ساحر من بلادي... لقد استعملوا من الأبيات بقدر عدد الحروف الأبجدية! أكيد أن الأمر هكذا! إن نص الأبيات لا يهم، تهمّ الحروف الأولى. كل قاعة تحمل حرفاً من الحروف الأبجدية وجميعها تكوّن نصاً ينبغي علينا أن نكتشفه!»

ـ «كقصيد مجازي، في شكل صليب أو سمكة!»

ـ «تقريباً، ومن الممكن أنه في العصر الذي أُسّست فيه المكتبة كان ذلك النوع من الشعر منتشراً جداًا!»

ـ «ولكن من أين ينطلق النص؟»

ـ «من رَشْم أكبر من الرشوم الأخرى، من القاعة المسبعة في البرج الذي يوجد به المدخل.. أو.. أكيد، من الجُمَل باللون الأحمر!»

ـ «ولكنها كثيرة!»

ـ «إذن ستكون هناك عدة نصوص أو عدة كلمات. انقل الآن خارطتك بشكل أحسن وأكبر، وعند زيارتنا للمكتبة سترسم بمرقمك، دون عمق، لا فقط القاعات التي نمر بها، وموضع الأبواب والجدران (مع النوافذ)، ولكن أيضاً الحرف الأول للبيت الذي تحمله، وبطريقة من الطرق، وكمنمنم بارع، تكتب الأحرف الحمراء أكبر».

فقلت بإعجاب: «ولكن كيف حدث أنك قدرت على حل سرّ المكتبة ناظراً إليها من الخارج ولم تنجح في ذلك عندما كنت بداخلها».

ـ «كذلك هي معرفة الرب للعالم، لأنه تصوّره في عقله، قبل خلقه، فكأنه من الخارج، بينما نحن نجهل قاعدته لأننا نعيش بداخله ولأننا وجدناه مهيّأً».

ـ «وهكذا تمكن معرفة الأشياء بالنظر إليها من الخارج!»

Twitter: @ketab_n

ـ «أشياء الفن، لأننا نعيد في فكرنا عمليّات فنانها. لا أشياء الطبيعة لأنها ليست من صنع عقلنا».

ـ «ولكن بالنسبة إلى المكتبة يكفينا ذلك، أليس صحيحاً؟». فقال غوليالمو: «نعم، ولكن بالنسبة إلى المكتبة فقط. لنذهب الآن للنوم. ليس بإمكاني ان أفعل شيئاً قبل صبيحة الغد عندما سأحصل، إذا تحقّق أملي، على عدستيّ. من الأحسن أن ننام وأن نستيقظ في الإبّان. سأحاول التفكير».

ـ «والعشاء؟»

ـ «آه، صحيح العشاء. لقد فات الأوان الآن وذهب الرُّهبان لصلاة النوم ولكن قد يكون المطبخ ما زال مفتوحاً. اذهب وابحث عن بعض الأكل».

ـ «أَسرق؟»

ـ «اطلب من سلفاتوري، الذي أصبح الآن صديقك».

ـ «ولكن سيسرق هو!»

فأجاب غوليالمو بكلمات قابيل «هل تكون أنت حارس أخيك؟» ـ ولكنني تفطّنت إلى أنه كان يمزح وكان يريد أن يقول إن اللّه عظيم رحيم. ولذلك أخذت في البحث عن سلفاتوري ووجدته قرب اصطبلات الخيول.

بدأت أطارحه الحديث وأشرت إلى برونيلّو قائلاً: «إنه جواد جميل، كم بودّي أن امتطيه».

ـ «لا يمكن، إنه لأبّوني. ولكن لا يلزم جواد جميل للجري بسرعة، حتى ذلك يكفي. وأشار إلى حصان قوي ولكن عديم الجمال «vide illuc, tertius equi...» وكان يريد أن يريني الحصان الثالث. ضحكت من لاتينيته الغريبة وسألته «وماذا تفعل بذلك الحصان؟»

فقصّ عليّ قصة غريبة. قال إنه يمكن جعل أي حصان، حتى الحيوان الأكبر سنًا والأضعف قوة جواداً سريعاً مثل برونيلّو. يكفي خلط شوفانه بحشيش يسمى ساتيريون، بعد تفتيته جيداً، ثم دهن أوراكه بشحم أيل. وبعد ذلك يُمتطى الجواد

Twitter: @ketab_n

وقبل نَخْسه يُوجّه رأسه نحو الشرق وتُهمس في أذنيه ثلاث مرات، وبصوت خافت، كلمات: «غسباري، مالكيوريه، مركيزاردو» وسينطلق الجواد بسرعة ويقطع في ساعة ما يقطعه برونيلو في ثماني ساعات. وإذا ما علّقت في رقبته أسنان ذئب، قد يكون الجواد قتله أثناء ركضه، فلن يحس الحيوان بأي تعب.

فسألته إذا ما كان قد جرب ذلك قط. فقال لي، مقترباً مني بحذر وهامساً في أذني، برائحة فمه الكريهة جداً، إن ذلك صعب جداً لأن حشيش الساتيريون قد أصبح لا ينتجه الآن إلاّ الأساقفةُ والفرسان أصدقاؤهم، ويستعملونه لتقوية سلطانهم. فوضعت حدّا لحديثه وقلت له إنّ أستاذي يريد ذلك المساء أن يقرأ بعض الكتب في حجرته ويودّ أكل بعض الشيء، هناك.

فقال: «اترك لي الأمر سأعد فطيرة من الجبن».

ـ «وكيف هي؟»

ـ «بسيطة! خذ جبناً ليس بالقديم ولا بالمالح وقطِّعه شرائح أو قطعاً مربّعة أو كما يحلو لك... ثم ضع قليلاً من الزبدة أو من الشحم الطازج يسخن فوق النار. وضع بداخله قطعتين من الجبن وعندما يبدو لك طرياً، رش فوقه سكراً وقرفة واحمله في الحال إلى المائدة، لأنه ينبغي أكله ساخناً».

فقلت: «لتكن فطيرة جبن». واختفى داخل المطبخ بعد أن طلب مني أن أنتظره. وعاد بعد نصف ساعة يحمل طبقاً مغطى بكتان. كانت الرائحة طيبة.

ثم قال «خذ»، ومدّ لي أيضاً قنديلاً كبيراً مليئاً بالزيت. فسألته «ماذا سأفعل به»؟

فأجاب مراوغاً: «وما يدريني؟ قد يريد أستاذك هذه الليلة أن يذهب إلى مكان مظلم».

من الواضح أن سلفاتوري كان على علم بأشياء هي أكثر ممّا كنت أظن. لم أزد في سؤاله وحملت الأكل إلى غوليالمو. أكلنا، وانسحبت أنا إلى حجرتي. أو على الأقل، تظاهرت. كنت أريد اللقاء ثانية بأوبارتينو ودخلت خفية إلى الكنيسة.

Twitter: @ketab_n

اليوم الثالث: بعد صَلاة النَّوم

وفيه يقص أوبارتينو على أدسو قصّة الأخ دولتشينو، وأدسو من جهته يتذكر أو يقرأ في المكتبة قصصاً أخرى، ثم يحدث له أن يلاقي صبيّة جميلة ومرهبة كجيش بألوية

وجدت أوبارتينو عند صنم العذراء. واقتربت منه بصمت متظاهراً لبضع لحظات (وأعترف بذلك) بالصلاة. ثم تجرأت على مخاطبته. وقلت له «أيها الأب القديس، أيمكنني أن أسألك أن تنيرني؟»

فنظر إليّ أوبارتينو وأخذني من يدي ثم وقف ورافقني لأجلس معه على مقعد. وضمني إليه بقوة حتى أحسست بأنفاسه فوق وجهي. ثم قال «يا بنيّ العزيز، إن كل ما يستطيعه هذا المذنب المسكين من أجل روحك، فسيفعله بابتهاج. ما الذي يقلقك؟ العذاب، أليس كذلك؟» ـ وقال ذلك كأنما كان هو نفسه معذباً ـ «عذاب الجنس؟»

فاحمرَّ وجهي خجلاً وأجبت: «كلاّ، أو بالأحرى عذاب الفكر، الذي يريد أن يعرف أكثر مما ينبغي...»

ـ «وهذا خطأ. اللّه هو الذي يعرف الأشياء، علينا نحن أن نقدّس علمه فقط».

ـ «ولكن علينا نحن أيضاً أن نميّز بين الخير والشر وأن نفهم طبيعة الأهواء البشرية. إنني مبتدئ ولكنني سأصير راهباً ثم كاهناً، ويجب أن أعرف أين يوجد الشرّ وأي صورة يتّخذ، لأتعرّف عليه ولأعلّم الآخرين كيف يتعرفون عليه».

ـ «إنه قول صائب، يا بنيّ. إذن ماذا تريد أن تعرف؟»

فقلت باقتناع: «نبتة الهرطقة الفاسدة، أيها الأب ـ ثم أضفت بنفس واحد ـ لقد سمعت حديثاً عن رجل شرير أغوى الكثيرين، الأخ دولتشينو».

Twitter: @ketab_n

بقي أوبارتينو صامتاً ثم قال: «إنك على حق، لقد سمعتنا نلمّح إليه تلك الليلة أنا والأخ غوليالمو. ولكنها قصة شنيعة حقاً. والحديث عنها يؤلمني، لأنها تعلّم (نعم، في هذا المعنى ينبغي أن تعرفها كي تتلقن منها درساً نافعاً)، كنت أقول، لأنها تعلّم كيف، من حبّ التوبة ومن الرغبة في تطهير العالم، يُمكن أن ينشأ الدمار والدم» ثم استوى في جلسته وخفّف من تطويقه لكتفي، واضعاً دائماً يده على رقبتي، كما لو كان يريد أن ينقل إليّ لا أدري إن كان علمَه أم حماسَه. وقال: «تبدأ القصة قبل دولتشينو، منذ ستين سنة، وكنت آنذاك طفلاً صغيراً. كان في ذلك الوقت بمدينة «بارما» رجل يدعى غيراردو سيغاليلي أخذ يعظ الناس ويدعو الجميع إلى حياة التوبة. وكان يطوف في الشوارع صائحاً «Penitenziagite» كانت تلك طريقته كرجل أمّي ليقول: «Penitenziam agite, appropinquabit enim regnum coelorum»(*) وكان يدعو أتباعه للتشبه بالحواريين، وأراد أن تأخذ طائفته اسم نظام الحواريين، وأن يجوب أتباعه الدنيا فقراء متسولين يعيشون من الصدقات فقط...»

فقلت: «كالإخوان المتسولين، أليست تلك وصيّة مولانا ووصيّة قديسكم فرانشسكو؟»

فأقرّ أوبارتينو بتردّد خفيف في النبرة وبتحسّر: «نعم، ولكن ربما أفرط غيراردو. لقد نُسبت إليه وإلى أتباعه التهمة بأنهم لا يعترفون بسلطة الكهنة، وبإقامة القداس، وبالاعتراف، وبالتسكع دون شغل».

- «ولكن الفرانشسكانيّين والروحانيين أيضاً قد اتُّهموا بذلك. ألا يقول الفرانشسكانيّون الآن إنه لا ينبغي الاعتراف بسلطة البابا؟»

- «نعم، ولكن ليس سلطة الكهنة. نحن أنفسنا كهنة. من الصعب يا بنيّ التميز بين هذه الأشياء. إن الخيط الذي يفرق بين الخير والشر دقيق جداً... لقد أخطأ غيراردو بطريقة ما وشوّه نفسه بالهرطقة... طلب أن يدخل في نظام

* توبوا واعملوا، وستنالوا دون شك مملكة السماء.

Twitter: @ketab_n

الفرانشسكانيّين ولكن إخواننا لم يوافقوا. كان يقضي الأيام في كنيسة فرانشسكانية ورأى هناك صوراً للحواريين لابسين نعالاً في أقدامهم ورداءً ملتفاً بأكتافهم، وهكذا فعل هو فأطال شعره ولحيته ووضع نعلين في قدميه ولبس زنّار الفرانشسكانيّين، لأنه ينبغي لكل من يؤسّس طائفة جديدة أن يأخذ دائماً شيئاً من نظام القديس فرانشسكو».

ـ «لقد كان إذن في الطريق القويم...»

ـ «ولكنه في شيء ما أخطأ... بالتفافه بمئزر أبيض فوق رداء أبيض وبشعره الطويل، اكتسب لدى البُسَطاء صفة القداسة. فباع داراً صغيرة كانت على ملكه وبعد أن قبض ثمنها، جلس فوق صخرة كان الحكّام في العهود الغابرة يخطبون فوقها، ماسكاً بكيس النقود، ولم يفرقه أو يعطِه إلى الفقراء ولكنه نادى بعض الصعاليك الذين كانوا يلعبون قريباً من هناك وفرق عليهم النقود قائلاً «ليأخذ منه من شاء منكم» فأخذ أولئك الصعاليك النقود وذهبوا للعب الميسر وهم يلعنون الربّ الحيّ. وهو الذي أعطاهم النقود كان يسمع ذلك ولا يحمرّ وجهه من الخجل».

ـ «ولكن فرانشسكو أيضاً تعرّى من كل شيء وسمعتُ اليوم من غوليالمو أنه ذهب ليبشر العقاعق والصقور، إضافة إلى المجذومين، أي إلى الحثالة التي يتركها الشعب المعتبر تقيّاً على الحاشية».

ـ «نعم، ولكن غيراردو أخطأ في شيء. لم يدخل فرانشسكو قطّ في صراع مع الكنيسة، ويقول الإنجيل إنه ينبغي إعطاء الصدقة إلى الفقراء لا إلى الصعاليك. غيراردو أعطى ولم يحصل على شيء عوضاً عن ذلك لأنه أعطى إلى أناس أشرار فكانت بداية نحسٍ، ومتابعة نحس ونهاية نحس لأن جماعته لم تحظَ بتأييد البابا غريغوريو العاشر...»

فقلتُ: «ربما كان ذلك البابا أقصر نظراً من البابا الذي أيّد قاعدة فرانشسكو...»

ـ «نعم، ولكن غيراردو أخطأ في شيء. لقد كان فرانشسكو يعرف جيداً ماذا

Twitter: @ketab_n

يفعل. وأخيراً، أيها الصبي، هؤلاء الرُّعاة للخنازير والبقر الذين أصبحوا بين عشية وضحاها رسلاً كذّابين كانوا يريدون بكل راحة وبدون عرق أن يعيشوا بصدقات أولئك الذين تعب الإخوان الفرانشسكانيّون تعباً شديداً في وعظهم ومثلوا لهم الفقر تمثيلاً بطولياً! ـ وأضاف فوراً ـ ولكن ليس هذا ما أقصد. للتشبه بالحواريين الذين كانوا من اليهود اختتن غيراردو، وهذا مخالف لتعاليم بولس إلى الكلتيين، وأنت تعرف أن قدّيسين كثيرين أعلنوا أن الدّجّال الآتي سيكون من شعب المختونين. ولكن غيراردو فعل أشنع من ذلك، كان يجمع البُسَطاء ويقول لهم «هبّوا معي إلى مزرعة الكروم» وأولئك الذين كانوا لا يعرفونه يدخلون معه إلى كروم الغير، ظانين أنها له فيأكلون من عنب الناس».

فقلت بوقاحة: «لن يكون الإخوان الفرانشسكانيّون هم الذين سيدافعون عن ممتلكات الغير».

فحدّق فيّ أوبارتينو بعين صارمة: «إن الفرانشسكانيّين يطلبون أن يكونوا فقراء ولكنهم لم يطلبوا قط من الآخرين أن يكونوا فقراء. لا يمكنك أن تمس دون عقاب أملاك المسيحيّين الطيبين، وإلا فسيعتبرك المسيحيون الطيبون لصاً. وهذا ما وقع لغيراردو. وقالوا عنه أخيراً (حذار، فأنا لا أدري إن كان صحيحاً، وأثق بأقوال الأخ سالمبيني الذي عرف أولئك الناس) إنه لامتحان قوة إرادته وعفته رقد مع بعض النساء دون أن تكون له معهن علاقة جنسية ولكن عندما حاول أتباعه تقليده كانت النتائج مُختلفة كل الاختلاف... أوه، إنها أشياء لا ينبغي لطفل أن يعرفها، فالأنثى مركب للشيطان... وبينما كان غيراردو يواصل نداءه «توبوا واعملوا» حاول أحد أتباعه، غويدو بوتاجيو، أن يستولي على قيادة الفريق، وكان يطوف في موكب فخم يتبعه فرسان كثيرون منفقاً أموالاً طائلة ومقيماً المآدب كما يفعل كرادلة روما. ثم تصارعا من أجل قيادة الطائفة، ووقعت أشياء فاحشة جداً. ومع ذلك فقد تبع غيراردو أناس كثيرون، ولم يكونوا فقط من الفلاحين بل كان هناك أهل المدن من أصحاب الحرف وكان غيراردو ينزع عنهم كل ما يملكونه حتى يتبعوا عُراةً المسيح العاري، مُرسلاً إياهم عبر الدنيا للتبشير. أما هو فقد صنع لنفسه جلباباً دون أكمام، أبيض، من خيوط قوية، وبلباسه ذلك كان يبدو

Twitter: @ketab_n

مهرّجاً أكثر منه رجل دين! كانوا يعيشون في الهواء الطلق، ولكن في بعض الأحيان كانوا يصعدون فوق منابر الكنيسة مقاطعين جمع العباد الأتقياء وطاردين منها الواعظين، ووضعوا مرة طفلاً فوق الكرسي الأسقفي في كنيسة القدّيس أورسودا رافينّا. وكانوا يَدَّعون أنهم ورثاء مذهب جُواكّينو دا فيوري...»

فقلت: «ولكن حتى الفرانشسكانيّون، وحتى غيراردو دا بورغوسان دونينو - وأضفت صائحاً - وحتى أنت!»

- «اهدأ أيها الصبيّ. لقد كان جُواكّينو دا فيوري نبيّاً عظيماً، الأول الذي فهم أن فرانشسكو سيجدّد الكنيسة. ولكن الرّسل الكذابين استعملوا مذهبه لتبرير جنونهم. لقد كان سيغاليلي برفقة رسولة، تدعى تريبيا أو ريبيا، كانت تدّعي أنها تملك موهبة النبوّة. امرأة، أتفهم ذلك؟»

فحاولت معارضته: «ولكن أيها الأب، أنت نفسك تحدثت تلك الليلة عن قداسة كيارا دا مونتيفالكو وأنجيلا دا فولينيو...»

- «لقد كانتا قدّيستين! تعيشان في خشوع معترفتين بسلطة الكنيسة، ولم تدّعيا قط ملكة النبوّة! أما الرسل الكذّابون فكانوا يؤكدون أن النساء أيضاً بإمكانهن الطواف بالمدن للتبشير، كما فعل العديد من الهراطقة الآخرين. ولم يكونوا يميزون بين عُزّب ومتزوجين، أو يحترمون نذراً من النذور الأبدية مهما كان نوعه. باختصار، وحتى لا أطيل عليك بحكايات مؤسفة لا يمكنك أن تفهم جيداً خفاياها، قرّر الأسقف أوبيتزو دي بارما أخيراً أن يعدم غيراردو حرقاً. ولكن حدث هنا شيء غريب، يريك كيف أن الطبيعة الإنسانية ضعيفة وكيف أن الهرطقة مغوية. لأن الأسقف في نهاية الأمر أطلق سراح غيراردو وقرّبه إلى مائدته، متسلّياً بحماقاته ومحتفظاً به عنده كمهرّجه الشخصي».

- «ولكن لماذا؟»

- «لا أعرف، أو أخشى معرفة ذلك. كان الأسقف نبيلاً وكان يكره تجار المدينة وأصحاب الحرف. ربما كان يعجبه أن يتكلم غيراردو ضدّهم، من خلال تبشيره بحياة الفقر، وأن يمرّ من التسوّل إلى النهب. ولكن في آخر الأمر تدخل

Twitter: @ketab_n

البابا وعاد الأسقف إلى صرامته العادلة، وأهلك غيراردو حرقاً إذ كان هرطيقاً سادراً. لقد كان ذلك في بداية هذا القرن».

ـ «وما دخل الأخ دولتشينو في كلّ هذا؟»

ـ «له دخل، وهذا يظهر لك كيف أن الهرطقة تعيش حتى بعد هلاك الهراطقة أنفسهم. دولتشينو هذا كان ابن زنا لقسيس كان يعيش في أبرشية نوفارا، في هذه الجهة من إيطاليا، أبعد إلى الشمال بقليل. وقد قال بعضهم إنه ولد في جهات أخرى، في سهل أوسّولا أو في رومانيانو. ولكن لا يهم. كان شاباً حاد الذكاء، ودرس الآداب، ولكنه سرق القسيس الذي كان ساهراً عليه وفرّ نحو الشرق، إلى مدينة ترينتو. وهنالك واصل تبشير غيراردو، وبهرطقة أكثر، مؤكداً أنه رسول الرب الوحيد والحقيقي وأنه ينبغي أن يكون كل شيء مشتركاً في الحب، وأنه حلال أن يضاجع المرء كل النساء على حد السواء بحيث لا يمكن اتهام أي كان بالتسري، حتى ولو ضاجع زوجته وابنته...»

ـ «أكان يقول حقيقة تلك الأشياء أم أنهم اتهموه بها؟ لأنني سمعت أن الروحانيين أيضاً اتهموا بجرائم، مثل رُهبان مونتيفالكو...»

فقاطعني أوبارتينو بحدّة: «قد سئمت الحديث عن هذا! أولئك لم يعودوا رُهباناً. كانوا هراطقة. وقد لوّثهم فعلاً دولتشينو. من ناحية أخرى اسمع، يكفي أن تعرف ماذا فعل دولتشينو بعد ذلك، ليتضح لك أنه كان شريراً. قد يكون مرّ من بارما، وهو شاب وسمع غيراردو. ما نعرفه هو أنه حافظ على اتصالات في جهة بولونيا مع أولئك الهراطقة بعد موت سيغاليلي. ولكن المؤكد أنه بدأ تبشيره في ترينتو. وهناك أغوى طفلة جميلة جداً من عائلة نبيلة، مارغريتا، أو هي أغوته، كما أغوت إيلوزا أبيلاردو، إذ لا تنسَ أن الشيطان ينفذ إلى قلوب الرجال عن طريق المرأة! عند ذلك الحدّ طرده أسقف ترينتو من أبرشيته، ولكن آنذاك كان دولتشينو قد جمع حوله ما يزيد على الألف من الأتباع وبدأ مسيرة طويلة قادته إلى البلاد التي نشأ فيها. وأثناء الطريق التحق به العديد من السُذَّج الآخرين، قد فتنتهم كلماته، وربما يكون التحق به العديد من الهراطقة الفوديين الذين كانوا يسكنون

Twitter: @ketab_n

الجبال التي مرّ بها أو أنه هو كان يريد الالتحاق بالهراطقة الفودين في تلك الجهات الشمالية. وعندما وصل إلى جهة نوفارا وجد دولتشينو جوّاً ملائماً لثورته، لأن المُقْطَعين الذين كانوا يحكمون بلدة غاتينارا باسم أسقف فارتشيلي قد طردهم الأهالي الذين تقبلوا صعاليك دولتشينو كحلفاء صالحين».

ـ «ماذا فعل مُقْطَعو الأسقف؟»

ـ «لا أدري، وليس لي أنا أن أحكم على ذلك. ولكن كما ترى تقترن الهرطقة بالثورة على الأسياد، في كثير من الأحيان، ولذا يبدأ الهرطيق في الدعوة إلى الفقر ثم يسقط فريسة لكل مغريات السلطة، والحرب، والعنف. كان هناك صراع بين عائلات في فارتشيلّي، وانتهز الرسل الكذابون ذلك، واستخدمت تلك العائلات لصالحها الفوضى التي أحدثها الرسل الكذابون. وجنّد الأسياد الإقطاعيون مغامرين لنهب الأهالي فطلب الأهالي حماية أسقف نوفارا».

ـ «يالها من قصّة مُعَقَّدة. ولكن دولتشينو كان مع من؟»

ـ «لا أدري، كان يعمل لحسابه. لقد اندسَّ في كل تلك النزاعات منتهزاً منها الفرص للمناداة بالصراع ضدّ ملكية الغير باسم الفقر، وحطّ دولتشينو رحاله مع من معه، وقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف، فوق جبل قرب نوفارا يحمل اسم «الجبل الأقرع» وأقاموا قصوراً صغيرة وخرباً، وكان دولتشينو يشرف على كل تلك الجموع من الرجال والنساء الذين كانوا يعيشون في اختلاط مخزٍ للغاية. ومن هناك كان يبعث الرسائل إلى أوفيائه يعرض عليهم فيها مذهبه الهرطيقي. فكان يقول ويكتب إن مثلهم الأعلى هو الفقر وإنهم ليسوا مقيدين بأية طاعة خارجية، وإنه هو، دولتشينو، قد أرسله الرب لفك ختم النبوءات ولفهم كتابات العهدين القديم والجديد. وكان يسمّي الإكليريكيين المدنيين، والمبشرين والفرانشسكانيّين، رسل الشيطان ويعتبر أن الناس في حلّ من واجب الطاعة لهم. وكان يميز أربعة عهود في شعب الربّ. الأول هو العهد القديم، عهد الآباء والأنبياء، وقبل مجيء المسيح، حين كان الزواج صالحاً لأنه كان ينبغي أن يتزايد عدد البشر. الثاني هو عهد المسيح والحواريين وكان عهد القداسة والعفّة. ثم جاء العهد الثالث، حين

Twitter: @ketab_n

كان على أحبار الكنيسة أن يقبلوا الثروات الأرضية حتى يمكنهم حكم الشعب، ولكن عندما أخذ الإنسان يبتعد عن حب اللّه جاء بنيدكت، الذي عارض في تعاليمه كل شكل من أشكال الملكية الزمنية. وعندما أخذ رُهبان بنيدكت من جديد في جمع الأموال جاء إخوان القديسين فرانشسكو ودومينيكو اللّذين كانا أكثر صرامة من بنيدكت في مناهضة السلطان والمال الدنيويين والآن أخيراً تتناقض من جديد حياة الكثير من الأحبار مع كل التعاليم الصالحة، فقد وصلنا إلى نهاية العهد الرابع وينبغي الرجوع إلى تعاليم الحواري».

ـ «إذن كان دولتشينو ينادي بتلك الأشياء التي كان ينادي بها الفرانشسكانيّون، ومن بين الفرانشسكانيّين الروحانيون بالذات، وأنت نفسك أيها الأب!»

ـ «صحيح، ولكنه كان يستنتج من ذلك قياساً خادعاً! كان يقول إنه لوضع حدّ لهذا العهد الثالث، عهد الفساد، ينبغي أن يموت كل الإكليريكيين، والرُهبان والكهنة موتة قاسية جداً، كان يقول إن كل أحبار الكنيسة، الإكليريكيين والمُتَرَهِّبين، ورجال الدين والراهبات، وكل من يدخل ضمن أنظمة المبشرين والفرانشسكانيّين، والنُسّاك، والبابا بونيفاسيو نفسه ينبغي أن يهلكهم الإمبراطور الذي سيختاره هو، دولتشينو، أي فريدريك الصقلّي».

ـ «ولكن ألم يكن فريدريك بالذات هو الذي تَقَبّل بارتياح في صقلية الروحانيين المطرودين من جهة أومبريا، أَوَلَمْ يكن الفرانشسكانيّون هم الذين طلبوا من الإمبراطور بالذات، ولو أنه الآن لودوفيكو، أن يهدم سلطة البابا والكرادلة الزمنية؟»

ـ «إنه من قبيل الهرطقة أو الجنون أن تُغيّر الأفكار المستقيمة وأن تُستعمل لأهداف تتناقض مع شريعة اللّه والإنسان. إن الفرانشسكانيّين لم يطالبوا قط الإمبراطور بإبادة الكهنة الآخرين».

كان على خطأ، الآن أعرف ذلك. لأنه بعد بضعة أشهر، عندما ركّز البافاري حكمه في روما، فعل مرسيليو وفرانشسكانيون آخرون برجال الدين الذين كانوا مخلصين للبابا ما كان يطالب به دولتشينو. ولست أعني بهذا أن دولتشينو

Twitter: @ketab_n

كان على صواب، بل إن مرسيليو كان على خطأ هو الآخر. وبدأت أتساءل، خاصة بعد نقاش العشية مع غوليالمو، كيف يمكن للسُّذَّج الذين كانوا يَتْبَعون دولتشينو أن يميزوا بين وعود الروحانيين وتنفيذ تلك الوعود من قِبل دولتشينو. ألا يمكن أن يكون خطأُه هو تنفيذه عملياً ما كان ينادي به رجال عُرفوا باستقامة الرأي لأغراض روحية بحتة. أو ربما ذلك كان الفارق، وهو أن القداسة تتمثل في انتظار أن يمنحنا الإلٰه ما وعدنا به قدّيسوه، دون محاولة الفوز به بطرق دنيوية؟ الآن أعرف أنه كذلك وأعرف لماذا كان دولتشينو مخطئاً. لا ينبغي تغيير نظام الأشياء ولو أمّلنا بكل حماس تغييره. ولكنني كنت ذلك المساء فريسة أفكار متناقضة.

ـ «أخيراً، ـ كان يقول لي أوبارتينو ـ إن علامة الهرطقة تكمن دائماً في الغرور. في رسالة ثانية، سنة 1303، سمّى دولتشينو نفسه القائد الأعلى للجمعية الرسولية، وسمى، نواباً له، مارغريتا المخاتلة (امرأة!) ولونجينو دا برغامو، وفديريكو دا نوفارا، وألبارتو كارانتينو وفالديريكو دا بريشيا. وأخذ يهذي حول سلسلة من البابوات القادمين، اثنان طيّبان، الأول والأخير، واثنان شريران، الثاني والثالث. الأول هو سيلاستين، والثاني بونيفاتيوس الثامن، الذي قالت عنه الأنبياء «لقد أخزاك كبرياء قلبك، يا أيها الذي يسكن في شقوق الصخور». البابا الثالث لم تقع تسميته ولكن قد يكون ذلك الذي قال عنه إرميا «هو ذا، الأسد» ويا للخزي، تعرّف عليه دولتشينو في شخص فريدريك الصقلّي. البابا الرابع بالنسبة إلى دولتشينو غير معروف إلى الآن، وهو الذي سيكون البابا القديس، البابا الملائكي الذي كان يتحدّث عنه الشمّاس جُواكّينو. وسيختاره الرب وعندئذٍ سيغمر نور الروح القُدُس دولتشينو وأتباعه جميعاً (الذين بلغ عددهم آنذاك الأربعة آلاف) وستتجدّد الكنيسة إلى نهاية العالم. ولكن في السنوات الثلاث التي ستسبق مجيئه يجب أن يمحق كلّ البشر. وهذا ما حاول أن يفعله دولتشينو، منشباً الحرب في كل مكان. والبابا الرابع، وهنا يظهر كيف يسخر الشيطان من الخاضعين له، كان كليمنتس الخامس الذي أعلن حرباً صليبية ضدّ دولتشينو. وكان على صواب لأن دولتشينو في تلك الرسائل أصبح يؤيد نظريات متناقضة مع الأرثوذكسيين. فقد أكد أن الكنيسة الرومانية فاجرة، ولا تجب طاعة الكهنة، وأن كل سلطة روحانية قد مرّت إلى

Twitter: @ketab_n

جمعية الرسوليين، وأن الرسوليين فقط يكوّنون الكنيسة الجديدة ويمكنهم فسخ الزواج، وأنه لا يمكن لأحد أن يحصل على النجاة إن لم ينضمّ إلى الجمعية، وأنه لا يمكن لأيّ بابا أن يحدّ من الخطايا، ولا ينبغي دفع العشور وأن الحياة دون نذر هي أكمل من التي تقوم على النذور، وأن كنيسة مقدّسة لا تصلح للصلاة، مثلها مثل اصطبل، وأنه يمكن عبادة المسيح في الغابات وفي الكنائس على حد سواء».

ـ «أقال حقاً هذه الأشياء؟»

ـ «أكيد، هذا مؤكد، لقد كتبها. ولكنه للأسف فعل أسوأ من ذلك. عندما استقر فوق «الجبل الأقرع» أخذ ينهب القرى الموجودة في السهل ويقوم بغارات للحصول على المؤونة، باختصار، كان يقود حرباً حقيقية وفعلية ضدّ القرى المجاورة».

ـ «كان الجميع ضدّه؟»

ـ «لا أحد يدري. ربّما تحصّل على مساعدة البعض، لقد قلت لك إنه اندسّ في عُقْدة مُتَشابِكة من النزاعات في تلك المنطقة. وفي الأثناء جاء شتاء سنة 1305 وكان من أقسى شتاءات السنين العشر الأخيرة وحلّت بتلك الأماكن مجاعة كبيرة. وكان دولتشينو قد أرسل رسالة ثالثة إلى أتباعه والتحق به العديد منهم. ولكن الحياة فوق ذلك الجبل أصبحت مستحيلة ووصل بهم الجوع إلى حدّ أكل لحوم الخيل وحيوانات أخرى والتبن المطبوخ والعديد لقي حتفه من جرّاء ذلك».

ـ «ولكنهم أصبحوا يكافحون ضدّ مَنْ الآن؟»

ـ «طلب أسقف فارتشيلي تدخّل كليمنتس الخامس وأُعلنت حرب صليبية ضد الهراطقة. ووقع الإعلان عن غفران عامّ لكل من يشارك فيها، والتُمست مساعدة لودوفيكو دي سافويا وحكّام التفتيش اللومبارديين ومطران ميلانو، وحمل الكثيرون الصليب لإغاثة أهالي منطقتي فارتشيلي ونوفارا، حتى من سافويا وبروفانسا ومن فرنسا وتقلّد أسقف فارتشيلي القيادة العليا. فكانت اصطدامات

Twitter: @ketab_n

متواصلة بين طلائع الجيشين، ولكن تحصينات دولتشينو كانت عصيّة، وبطريقة من الطرق كانت المساعدة تصل إلى الزنادقة».

- «ممّن؟»

- «من زنادقة آخرين، على ما أظن، كانوا يجدون صالحهم في ذلك المنبع من الفوضى. ولكن في أواخر 1305 اضطر الزنديق إلى مغادرة «الجبل الأقرع» تاركاً الجرحى والمرضى، وانتقل إلى جهة ترفيرو، حيث تحصّن في جبل كان يسمّى سابقاً «زوبيلّو» وأصبح يسمّى منذ ذلك الحين «روبيلّو» أو «ريبلّو»(*) لأنه أصبح قلعة المتمردين على الكنيسة. بإيجاز، لا يمكنني أن أقصّ عليك كلّ ما حدث. لقد كانت مجازر رهيبة. ولكن في نهاية الأمر اضْطُرَّ المتمردون إلى الاستسلام، وأُسر دولتشينو ومن معه وكانت نهايتهم المحرقة».

- «حتى مارغريتا الجميلة؟»

فنظر إليّ أوبارتينو ثم قال: «لقد تذكرت أنها جميلة، أليس كذلك؟ يقولون إنها كانت جميلة وإن العديد من أسياد تلك الجهة حاولوا أن يتزوجوها لإنقاذها من المحرقة. ولكنها أبت وماتت سادرة مع ذلك السّادر عشيقها. وليكن هذا درساً لك، لتحترس من فاجرات بابل، حتى ولو اتّخذن شكل أودع خلق اللّه».

- «ولكن قل لي الآن يا أبتِ. لقد علمت أن قيّم الدير وربما سلفاتوري أيضاً كانا قد التقيا بدولتشينو، وبطريقة من الطرق كانا معه..»

- «اصمت، ولا تتفوه بأحكام جريئة. لقد عرفتُ القيّم في دير فرانشسكانيين، بعد الأحداث التي تخصّ قصّة دولتشينو، هذا صحيح. لقد عاش الكثير من الروحانيين في تلك السنوات، قبل أن يقرّروا الالتجاء إلى نظام القديس بنيدكت، حياة مضطربة، واضطروا إلى ترك أديرتهم. لا أدري أين كان ريميجيو قبل أن ألتقي به. أعرف أنه كان دائماً راهباً صالحاً، على الأقل من جهة استقامة عقيدته. أما ما عدا ذلك، وأسفاه، فإرادة الإنسان ضعيفة...»

---

* لأن عبارة «ribelle» بالإيطالية تعني «متمرّد» [المترجم].

Twitter: @ketab_n

ـ «ماذا تقصد؟»

ـ «إنها أشياء لا يحسن أن تعرفها. حسن، ثم، بما أننا أخذنا في الحديث عن ذلك، يجب أن تعرف كيف تميّز بين الخير والشّر. ـ ثم تردّد من جديد ـ سأقول لك إنني سمعت من يتهامس هنا في الدير بأن القيّم لا يستطيع مقاومة بعض النزوات. . . ولكنه تهامس. عليك أنت أن تتعلم حتى عدم التفكير في هذه الأشياء».

ثم جذبني إليه من جديد وضمّني بقوة مشيراً إلى صنم العذراء: «يجب عليك أن تتعلم الحب الصافي الذي لا تشوبه شائبة. هي ذي تلك التي تسامت فيها الأنوثة. ولذا يمكنك أن تقول عنها إنها جميلة، كمحبوبة نشيد الأنشاد ـ ثم قال بوجه فَتَنه الحبور الداخلي، كرئيس الدير بالضبط في اليوم السابق، عندما كان يتحدث عن ذهب وجواهر أوعيته ـ حتى جمال الجسم يصبح فيها دلالة على الجمال السماوي، ولذا مثّلها النحات بكل الحسن الذي يجب أن تتحلّى به المرأة ـ وأشار إلى نصف العذراء الأعلى النحيف يشدّه إلى أعلى مخصّر تربطه في الوسط خيوط كانت تلعب بها يدا الرضيع الصغيرتان ـ «جميل حقاً ذلك النهد الذي يبرز قليلاً، ممتلئ قليلاً ولكنه لا يتموّج بدعارة، بل مشدود بخفّة، متماسك قليلاً دون سقوط. . . ماذا تحس أمام هذه الرؤية العذبة؟»

فاحمرّ وجهي بقوة وأحسست وكأن ناراً داخلية تلتهمني. وربما يكون أوبارتينو قد تفطّن لذلك، أو أنه لاحظ احمرار وجنتيّ لأنه أضاف على الفور: «ولكن يجب أن تميِّز نار الحب السماوي من ميوعة الحواسّ. وهذا يصعب حتى على القدّيسين».

فقلت وأنا أرتعد: «ولكن كيف نتعرف على الحب الصالح؟»

ـ «ما هو الحب؟ لا شيء في العالم، لا إنسان ولا شيطان ولا أي شيء آخر أعتبره أدعى للارتياب من الحبّ، إذ إنه يلج الروح أكثر من أي شيء آخر. لا يوجد أي شيء يشغل ويقيّد القلب كالحب. ولذا عندما تنعدم الأسلحة التي تقاومه، تهوي الروح من أجل الحب في مهلكة عظيمة. وأعتقد أنه دون فتنة مارغريتا ما كان لدولتشينو أن يرمي بنفسه إلى التهلكة الأبدية، ولا كانت كل تلك

Twitter: @ketab_n

الجموع أحسّت بجاذبية ثورته، لولا حياة الصلف والاختلاط التي كانوا يعيشونها فوق «الجبل الأقرع». احترس، إني لا أقول لك هذه الأشياء بخصوص الحب الفاسد فقط، الذي ينبغي بطبيعة الحال أن يبتعد عنه الجميع كشيء شيطاني، أقول لك هذا بخوف كبير، حتى بخصوص الحب الصالح الذي بين الرب والإنسان وبين الإنسان والإنسان. ويحدث غالباً أن يحبّ شخصان أو ثلاثة، رجالاً أو نساء، بعضهم بعضاً بأخوية كبيرة ويكنّ أحدهما للآخر عاطفة فريدة، ويودّ أحدهما لو عاش دائماً قرب الآخر، وعندما يرغب أحدهما يريد الآخر. وأعترف لك بأنني أحسست بعاطفة مماثلة نحو نساء ورعات مثل أنجيلا وكيارا. ومع ذلك، حتى هذا فهو جدير جدّاً باللّوم، وإن كنا نفعل ذلك روحياً وفي سبيل الرب... فحتى الحب الذي تحسه الروح، إن لم نتسلّح لمقاومته، بل تقبّلناه بوجد، فهو يسقط بعد ذلك أو إنه يعمل بطريقة فوضوية. آه، إن للحب خصائص متعدّدة، فالروح ترقّ في البداية من أجله، ثم تسقط عاجزة.. ولكنها بعد ذلك تحسّ بحرارة الحب الإلٰهي الحقيقية وتصرخ وتتألم، وتجعل من نفسها حجارة في مصهر لتتحوّل صاروجاً، وتتفرقع وسط ألسنة اللهب...»

ـ «وهذا هو الحب الصالح؟»

مسح أوبارتينو بيده على رأسي، وعندما نظرت إليه رأيت عينيه قد رقّتا إلى حدّ الدمع: «نعم هذا هو أخيراً الحب الصالح ـ ونزع يده عن كتفي مضيفاً ـ ولكن كم هو صعب، كم يصعب تمييزه عن الآخر. وأحياناً عندما تغري الشياطين روحك تحس بنفسك كالمشنوق من عنقه، وقد قُيّدت يداه خلف ظهره وضمّدت عيناه فيبقى معلّقاً في المشنقة ومع ذلك هو حيّ، دون غوث، دون سند، دون حيلة، يدور في الفراغ..»

ولم يعد وجهه مبلّلاً بالدمع فقط بل بغشاء من العرق: «اذهب، اذهب الآن ـ قالها لي بسرعة ـ لقد قلت لك ما كنت تريد أن تعرف. هنا موكب الملائكة وهناك مهاوي الجحيم. اذهب، وليكن الحمد للّه». ـ وركع من جديد أمام العذراء: وسمعته يجهش بهدوء. لقد كان يصلّي.

لم أخرج من الكنيسة. لقد أدخل الحوار مع أوبارتينو في روحي وفي

Twitter: @ketab_n

عروقي ناراً غريبة وارتباكاً لا يوصف. ربما لذلك أقدمت على العصيان وقررت العودة وحدي إلى المكتبة. لم أكن أعرف أنا نفسي عمّا كنت أبحث. كنت أريد أن أستكشف وحدي مكاناً مجهولاً وكانت تسحرني فكرة القدرة على التوجه فيه دون مساعدة أستاذي. وصعدت إليه كما صعد دولتشينو إلى جبل روبيلّو.

كان معي السراج (لماذا حملته معي؟ ربما كانت لديَّ منذ البداية تلك النية الخفية) وولجت المَعْظَمَة بعينين تكادان تكونان مغمضتين. وبعد بُرهة وجيزة وجدت نفسي في قاعة الكتابة.

كانت ليلةً محتومة، على ما أظن، لأنني بينما كنت أتطفل بين الطاولات لاحظت واحدة فوقها مخطوط مفتوح كان يقوم بنسخه أحد الرُّهبان في تلك الأيام. وجذبني في الحال العنوان «سيرة الراهب الهرطيق دولتشينو». أظن أنها كانت طاولة بيترو دا سانتالبانو، الذي قيل لي عنه إنه بصدد تأليف عمل عظيم حول تاريخ الهرطقة (وبَعد الأحداث التي وقعت في الدير، بطبيعة الحال لم يكتبه ـ ولكن لا نستبق الأحداث). لم يكن من الغريب إذن أن يكون ذلك النص هناك، ومعه نصوص أخرى ذات مواضيع مماثلة، حول البتاريين والمتسوّطين. ولكني اعتبرت تلك الصدفة دلالة خارقة للطبيعة، لا أدري إن كانت سماوية أو شيطانية، وانكببت على قراءة النص بِنَهَم. لم يكن طويلاً جداً، وفي الباب الأول كان يقول بتفاصيل أكثر، نسيتها، ما كان قد قاله لي أوبارتينو. وكان يتحدث أيضاً عن الجرائم العديدة التي ارتكبها أتباع دولتشينو أثناء الحرب والحصار، وعن المعركة النهائية التي كانت دامية جداً. ولكنني وجدت فيه أيضاً ما لم يقصّه عليَّ أوبارتينو، برواية راوٍ كان دون شك شاهد عيان بقيت مخيلته تتقد بكل ما رأى.

علمت إذن كيف أنه في آذار/مارس من سنة 1307 يوم السبت المقدس، وقع القبض أخيراً على دولتشينو ومارغريتا ولونجينو وحُملوا إلى مدينة بييلا حيث سُلّموا للأسقف الذي كان ينتظر قرار البابا. وعندما وصل الخبر إلى البابا أرسل إلى فيليب ملك فرنسا يقول له: «قد بلغتنا أخبار مرضية جداً، محمّلة بالفرح والجذل، لأن ذلك الشيطان الموبوء، ابن إبليس والهرطيق الفظيع دولتشينو، بعد أخطار كبيرة، وأتعاب ومجازر وتدخلات متوالية، هو الآن أخيراً مع أتباعه أسير في سجوننا بفضل ما قام به

Twitter: @ketab_n

أخونا الوقور رانييرو، أسقف فارتشيلّي، وقد قُبض عليه يوم العشاء السري المقدس، والناس الكثيرون الذين أصيبوا بوبائه قد أُعدموا في ذلك اليوم نفسه». لم يشفق البابا على الأسرى وأمر الأسقف بإعدامهم. وفي شهر تموز/يوليو إذن من ذلك العام نفسه، في اليوم الأول من الشهر سُلِّم الهراطقة إلى السلطة المدنية. وبينما كانت الأجراس تدق دون انقطاع، وُضعوا فوق عربة يحيط بها الجلادون يتبعهم الحرّاس، وطافت بهم كل المدينة، وعند كل عطفة كانت الكُلاّبات الحامية تُمزق لحم الآثمين. وأُحرقت مارغريتا أولاً أمام دولتشينو الذي لم تتحرّك في وجهه عضلة، كما لم تندّ عنه صرخة عندما كانت الكلاّبات تقطع أعضاءه وتابعت العربة طريقها، بينما كان الجلادون يغمسون أدواتهم الحديدية في أوعية مليئة بالجذوات الملتهبة. وكابد دولتشينو ألواناً أخرى من العذاب، صامتاً دائماً إلا عندما قصّوا أنفه، لأنه هزّ كتفيه هزّة خفيفة وعندما قطعوا ذكره انطلق منه تأوه طويل كأنه عواء. وكانت الكلمات الأخيرة التي قالها تنمّ على العصيان، وأعلن أنه سيُبعث في اليوم الثالث. ثم أُحرق وأُلقيت بقاياه إلى الرياح.

وأغلقتُ المخطوط بيديَّ اللتين كانتا ترتعشان. لقد ارتكب دولتشينو آثاماً متعدّدة، كما قيل لي، ولكنه أُحرق بصفة شنيعة. وسلوكه فوق المحرقة... كيف كان؟ أكان ثبات الشهداء أم كبرياء الهالكين؟ وبينما كنت أصعد مترنحاً السُّلَّم الذي يحمل إلى المكتبة، فهمت لماذا كنت مضطرباً بذلك الشكل. فقد تذكرت فجأة مشهداً رأيته قبل بضعة أشهر، بعد وصولي إلى توسكانا بقليل. وكنت أتساءل كيف كدت أنساه إلى ذلك الحين، وكأن نفسي المريضة أرادت فسخ ذكرى كانت تثقلها وكأنها كابوس. أو بالأحرى لم أكن قد نسيتها، لأنني ما سمعت حديثاً عن الإخوان المتسوّلين إلا وعادت إليّ صور من تلك الواقعة، ولكنني كنت أعيدها في الحال إلى طيات فكري، وكأن مشاهدتي لتلك الفظائع كانت في حد ذاتها خطيئة.

إن المرّة الأولى التي سمعت فيها عن الإخوان المتسولين كانت أثناء الأيام التي قضيتها في فلورنسا، حيث شاهدت واحداً منهم يحترق فوق المحرقة. كان ذلك قبل لقائي بغوليالمو بقليل في بيزا. كان هو قد أخّر مجيئه إلى تلك المدينة فأذن لي أبي بزيارة فلورنسا التي سمعنا الكثير من الثناء على كنائسها الرائعة. وكنت قد طفت

Twitter: @ketab_n

بجهات توسكانا كي أتقن العامية الإيطالية، وأخيراً أقمت أسبوعاً في فلورنسا لأنني كنت قد سمعت الكثير عن تلك المدينة وكنت أتمنى التعرف عليها.

وهكذا، ما إن وصلت إليها حتى سمعت عن حدث كبير، كان يشوّش حياة المدينة بأكملها. كان بخصوص راهب من الإخوان المتسولين مُتَّهَم بالهرطقة وبارتكاب خطايا ضدّ الدين، يمثل في تلك الأيام أمام الأسقف وإكليريكيين آخرين لمواجهة تحقيق صارم. وتنقلت إلى مكان الحدث مقتفياً أثر الأشخاص الذين حدثوني عن ذلك، بينما كنت أسمع الناس يقولون إن ذلك الإخواني، المدعو ميكيلي، كان في الحقيقة رجلاً على غاية من التقوى، وكان ينادي بالتوبة وبالفقر، ومُعِيْداً كلمات القديس فرانشسكو، وإن خُبث بعض النساء اللواتي كنّ يتظاهرن بالاعتراف لينسبن إليه من بعد أقوالاً هرطيقية، هو الذي جرّه أمام القُضاة. بل إن رجال الأسقف قبضوا عليه فعلاً في دار تلك النساء، واستغربت ذلك لأنه لا ينبغي لرجال الكنيسة أن يقدموا سرّ القربان في أماكن غير لائقة، ولكن يبدو أن تلك كانت نقطة ضعف الإخوان المتسوّلين وهي عدم أخذ اللياقة بعين الاعتبار، وربما كان هناك شيء من الصحة في الأحاديث التي كان يتناقلها الرأي العام الذي كان ينسب إليهم، إضافة إلى الهرطقة، سلوكاً مُرِيْباً (كما كان دائماً يُقال عن المانويين من أنهم بلغاريون ولوطيون).

وصلت إلى كنيسة القديس سلفاتوري حيث كانت تجري المحاكمة، ولكنني لم أقدر على الدخول بسبب الغفر الكبير الذي كان موجوداً أمامها، إلاّ أن بعض الأشخاص تسلّقوا الحائط وتشبّثوا بحديد النوافذ فكانوا يشاهدون ويسمعون ما يحدث في القاعة وينقلون ذلك إلى الآخرين الموجودين تحتهم. كانت تُعاد آنذاك على الأخ ميكيلي قراءة الاعتراف الذي أدلى به في اليوم السابق، والذي قال فيه إن المسيح والحواريين «لم يملكوا أي شيء لا فردياً ولا جماعياً بغرض الملكية» ولكن ميكيلي كان يعارض لأن المسجّل الشرعي قد أضاف «الكثير من الأقوال الباطلة» وكان يصيح (وسمعت ذلك من الخارج) «ستُسألون عن ذلك يوم القيامة»، ولكن المحققين قرأوا الاعتراف كما حرّروه وأخيراً سألوا ميكيلي إن كان يريد أن يمتثل إلى تعاليم الكنيسة ولرأي عامّة سكان المدينة. وسمعت ميكيلي يصيح

Twitter: @ketab_n

بصوت عالٍ إنه يريد التمسّك بما يؤمن به وهو أنه «يؤمن بالمسيح، فقيراً ومصلوباً وأن البابا جيوفاني الثاني والعشرين هرطيق لأنه يقول عكس ذلك» وتبعت ذلك مُناقشة كبيرة، حاول فيها المحققون، ومن بينهم العديد من الفرانشسكانيّين إقناعه بأن الكتابات لم تقل ما كان يقوله هو، وكان هو يتهمهم بإنكار القاعدة نفسها التي يرتكز عليها نظامهم، ويجيبون سائلين إياه إن كان يظنّ أنه يفهم الكتابات أحسن منهم وهم فقهاؤها. وكان الأخ ميكيلي يعارضهم، بجهد كبير، حتى إن هؤلاء أخذوا يستفزونه بأقوال من نوع «إذن نريدك أن تقول إن المسيح صاحب أملاك، وإن البابا جيوفاني كاثوليكي وقديس» وكان هو يجيب دون أن يحيد «كلا هرطيق» وكان هؤلاء يقولون إنهم لم يروا قط أحداً يتمادى بذلك العناد في رجسه. ولكنني سمعت الكثيرين من بين الجموع خارج المبنى يقولون إنه كالمسيح وسط الفريسيّين، ولاحظت أن الكثيرين من بينهم كانوا يؤمنون بقداسة الأخ ميكيلي.

وأخيراً اقتاده رجال الأسقف إلى السجن مكبلاً بالأغلال. وقيل لي في المساء إن العديد من الرُّهبان، أصدقاء الأسقف ذهبوا لشتمه طالبين منه أن يتراجع، ولكنه كان يجيب كمن هو متأكد من الحقيقة التي يملكها. وكان يعيد لكلّ منهم أن المسيح فقير وأن القديسين فرانشسكو ودومينيكو قالا ذلك أيضاً وأنه إذا ما كان سيُعدم لمجاهرته برأي مستقيم، فسيكون ذلك خيراً له، لأنه هكذا سيرى عن قريب ما أتت به الكتابات، وسيرى شيوخ الرؤيا الأربعة والعشرين وعيسى المسيح والقديس فرانشسكو والشهداء المبجلين. ونقلوا لي إنه قال «إن كنا نقرأ بورع كبير آراء بعض المطارنة القدّيسين، فبورع أكبر وبحبور ينبغي أن نتمنى أن نكون بينهم» وعند سماع أشياء من ذلك القبيل كان المحققون يخرجون من السجن ووجوههم متجهمة صائحين بسخط (وقد سمعتهم)، «إن الشيطان قد تملّكه!» وفي اليوم التالي علمنا أنه وقع التصريح بالحكم، وعندما ذهبت إلى الأسقفية تمكنت من رؤية الرق، ونقلت البعض من فحواه فوق لوحتي.

كان يبدأ: «باسم سيدنا المسيح. آمين.

هذه عقوبة جسدية وحكم بعقوبة جسدية تم إصداره وتسليمه في هذا المكتوب بعد أن وقع الإعلان عنه وإقرار إلخ..»، ويتابع بوصف قاسٍ لآثام

Twitter: @ketab_n

وخطايا المسمّى ميكيلي، والتي أنقل جزءاً منها هنا حتى يتمكن القارىء من الحكم عليها ببصيرة:

ـ «جيوفاني المعروف بالأخ ميكيلي دي جياكومو، من جمعية القديس فريدياني، رجل شرّير وسيئ السُّمْعة عُرف بذلك في عيشه وفي أعماله، هرطيق دنّس نفسه ببرص الهرطقة، عرف بآرائه ومعتقداته ضد العقيدة الكاثوليكية. أبعد عن نفسه صورة الإلٰه واتّبع عدوّ الجنس البشري وبإدراك تام، عن قصد وبرَوِيّة من له نفس خبيثة وبنية ممارسة الهرطقة، تآمر مع الإخوان المتسولين، كما يدعوهم عامة الناس، الهراطقة والمُنْشَقين، واتبع طائفتهم الضالّة وهرطقتهم ولا يزال يتبعها إلى الآن ضد العقيدة الكاثوليكية.. ذهب إلى مدينة فلورنسا وفي الأماكن العمومية الخاضعة لسلطة محكمة التفتيش صرّح بمعتقداته الراسخة وأعلن عن علم، بلسانه وبفكره... إن المسيح المخلص سيدنا لم يملك شيئاً ملكاً خاصاً أو باشتراك مع آخرين وإن ما ملكه، بحسب ما جاء في الكتابات المقدسة، كان فقط لقصد الاستعمال..».

ولكن لم تكن هذه فقط الذنوب التي اتُهم بها، ومن بين الأخرى بدا لي أحدها دنيئاً جدًّا، ولو أنني لم أكن أعرف (بحسب الطريقة التي جرت بها المحاكمة) إن هو أكد ذلك حقاً، بإيجاز كان يقال إنّ المتهم كان يؤكد أن القديس توما الأكويني لم يكن لا قديساً ولا كان ينعم بالنجاة الأزلية، بل بالعكس هو من الهالكين! ويختتم الحكم بتحديد العقوبة بما أن المتهم لم يرد إصلاح ما به:

ـ «ويتضح لنا ممّا سبق ذكره ومن الحكم الذي أصدره مولانا أسقف فلورنسا أن المذكور جيوفاني يعتبر هرطيقاً لا ينوي إصلاح ما به رافضاً أن يتوب وأن يعود إلى الطريق القويم، لذا نعتبر المذكور جيوفاني رجلاً عنيداً، ضالاً وسادراً في ضلاله وممارساته المُنحرفة، وحتى لا يتجرأ المذكور جيوفاني على التباهي بضلاله وبممارساته المُنحرفة وحتى يكون جزاؤه مثالاً يعتبر به الآخرون تقرّر أن المذكور جيوفاني المسمّى بالأخ ميكيلي، الهرطيق المُنشَق، سيقاد إلى مكان الإعدام المعتاد وهناك، بعد إضرام النار، يحرق حرقاً تاماً إلى أن تفارق روحه الجسد». وبعد أن أخرج الحكم للعموم، جاء رجال كنيسة آخرون إلى السجن وأعلموا ميكيلي بما

Twitter: @ketab_n

سيقع، بل وسمعتهم يقولون له «أخ ميكيلي، لقد أُعدّت البراطل والأردية، ورُسمت فوقها صور أخوانيين مصحوبين بالأبالسة» لترويعه ولإجباره على العدول عن أقواله. ولكن الأخ ميكيلي جثا على ركبتيه قائلاً «إنني أظن انه سيكون حول المحرقة أبونا فرانشسكو وأقول أكثر، أظن أنه سيكون هناك عيسى والحواريون، والشهيدان الجليلان بارتولوميو وأنطونيو». وكانت تلك طريقته لرفض مطالب المحققين رفضاً لا رجوع فيه.

وفي الصباح كنت أنا أيضاً عند جسر الأسقفية حيث اجتمع المحققون، ومثل أمامهم الأخ ميكيلي مُكبَلاً دائماً بالأغلال. وركع أمامه أحد المؤمنين لتسلّم البركة منه فقبض عليه الجند وقادوه فوراً إلى السجن. وبعد ذلك تلا المحققون من جديد على المحكوم عليه نص الحكم وسألوه إن كان يريد التوبة وكلما كان النص يقول إنه هرطيق، كان ميكيلي يجيب «لست هرطيقاً، أنا مذنب صحيح، ولكن كاثوليكي» وعندما كان النص يذكر «الجليل والقديس بابا جيوفاني الثاني والعشرين» كان ميكيلي يجيب «كلاّ، بل هرطيق». عند ذلك أمر الأسقف أن يركع ميكيلي أمامه، فأجاب بأنه لا يركع أمام الهراطقة. وأركعوه غصباً عنه فهمس قائلاً «ذلك مغفور لي أمام الرب». وبما أنه حُمل إلى هناك بأثوابه الكهنوتية، بدأت المراسيم التي تقضي بأن تخلع الأثواب قطعة بعد قطعة، إلى أن بقي بذلك الرداء، الخفيف الذي يُسمّونه في فلورنسا «cioppa»؛ وكما تقضي العادة بالنسبة إلى الكهنة الذين تنزع عنهم القداسة قطعت أطراف أصابعه بحديد قاطع كما حُلق شعره. ثم سُلّم إلى القائد وإلى رجاله، الذين عاملوه معاملة قاسية جداً، ثم كبلوه بالأغلال وأعادوه إلى السجن، بينما كان هو يقول للجموع «أموت من أجل اللّه». وعلمت أنه سيحرق في اليوم الموالي. وفي ذلك اليوم ذهبوا من جديد ليسألوه إن كان يريد الاعتراف وتناول سرّ القُربان المقدّس فرفض اقتراف خطيئة إن هو قبل القداس ممّن هو في الخطيئة. وفي هذا أظن أنه أساء الفعل، وبدا لي أن هرطقة البتاريين قد أفسدته.

وأخيراً جاء صباح الإعدام وقدم لتسلّمه القاضي البلدي الذي بدا لي رجلاً طيباً، لأنه سأله أي نوع من الرجال هو، ولماذا يعاند بينما كان يكفيه أن يقول ما

Twitter: @ketab_n

كان يقوله كل الناس وأن يقبل رأي الكنيسة المقدسة، ولكن ميكيلي كان يجيب بعناد كبير «إني أؤمن بالمسيح فقيراً ومصلوباً». فذهب القاضي البلدي لحاله وهو يهزّ ذراعيه من اليأس. عند ذلك أتى القائد ورجاله وحملوا ميكيلي إلى الساحة حيث كان هناك نائب الأسقف الذي قرأ عليه من جديد اعترافه ونصّ الحكم، وكان ميكيلي يتدخل من جديد مُعترضاً على ما كان ينسب إليه من آراء باطلة: وكانت في الحقيقة من الدّقة بحيث لا أذكرها كما لم أفهمها جيّداً آنذاك. ولكن بشأنها كان يُقرّر إعدام ميكيلي، هذا مؤكد، واضطهاد الإخوان المتسولين، حتى إني لم أكن أفهم جيداً لماذا كان رجال الكنيسة والسلطة المدنية يتشدّدون بتلك الصفة مع أشخاص يريدون فقط أن يعيشوا في فقر ويعتقدون أن المسيح لم يملك أشياء دنيوية. وكنت أقول لنفسي: كان عليهم بالأحرى أن يخافوا من أولئك الذين يريدون العيش في البذخ ويسلبون أموال الآخرين، ويدفعون الكنيسة إلى الخطيئة مدخلين فيها الممارسات السيمونية. وقلت ذلك إلى شخص كان بجانبي، لأنه لم يعد بطاقتي أن أصمت. فابتسم بسخرية وقال لي إن الراهب الذي يمارس الفقر يصبح مثالاً سيئاً للشعب، الذي لن يعتاد بعد ذلك على الرُّهبان الذين لا يمارسونه. وقال مضيفاً إن المناداة بالفقر تعطي للشعب أفكاراً سيئة، إذ سيجد في فقره تعلّة للكبرياء، والكبرياء يحمل على العديد من أعمال العجرفة. وأخيرا إنه كان ينبغي عليّ أن أعرف، ولم يكن واضحاً حتى بالنسبة إليه من خلال أي قياس منطقي، أن المناداة بالفقر من طرف الرُّهبان تعني الوقوف بجانب الإمبراطور وأن ذلك لا يرضي البابا. وكانت كلها حججاً صائبة وإن نطق بها رجل قليل العلم. إلاّ أنني عند ذلك الحد لم أكن أفهم لماذا أراد ميكيلي الموت بتلك الشناعة لإرضاء الإمبراطور أو لفض مجادلة بين أنظمة دينية. وفعلاً كان من بين الحاضرين من كان يقول إنه «ليس قديساً لقد أرسله لودوفيكو لنشر الفتنة بين المواطنين، وإن الإخوان المتسولين هم توسكانيون ولكن يوجد وراءهم مبعوثو الإمبراطور»، ويقول آخرون «إنه مجنون، لقد تملّكه إبليس، وملأه الصَلَف، يريد الاستشهاد لإرضاء كبريائه الفاسد، هؤلاء الرُّهبان يفرطون في قراءة سِيَر القديسين، كان من الأفضل أن يتزوجوا!» وآخرون كانوا يقولون أيضاً «كلا، نحن في حاجة إلى أن يكون كل المسيحيين مثله، مستعدّين للبرهنة على إيمانهم كما كانوا في عهد الوثنيين»،

Twitter: @ketab_n

وبينما كنت أسمع كل تلك الآراء وصرت لا أدري ما هو موقفي منها اتفق أن رأيت من جديد وجه المحكوم عليه، الذي كانت تحجبه عني بين الفينة والأخرى الجموع التي كانت أمامي. فشاهدت وجه من كان ينظر إلى شيء ليس على هذه الأرض كما كنت أرى ذلك أحياناً على وجوه أصنام القديسين المنخطفين في الرؤى. وفهمت أنه، مجنونا أم مستبصراً، كان يريد الموت عن إدراك واعٍ لاعتقاده بأنه بموته سيهزم عدوّه، مهما كان. وفهمت أن مثاله سيؤدي بآخرين إلى الموت. إلاّ أني بقيت مندهشاً أمام ذلك الثبات، لأنني إلى الآن لا أدري إن كان يغلب على هؤلاء تفانيهم المغرور من أجل الحقيقة التي يؤمنون بها، الذي يجرهم إلى الموت، أم تغلب عليهم رغبتهم المغرورة في الموت التي تجعلهم يبرهنون من خلاله على الحقيقة التي يؤمنون بها، أياً كان نوعها. وكان ذلك يملأني إعجاباً ورهبة.

ولكن لنعد إلى الإعدام، إذ كان الجميع يتجهون الآن إلى المكان الذي سيقع فيه تنفيذ الحكم.

جذبه القائد ورجاله خارج الباب، بقميصه الخفيف والبعض من أزراره مفتوحة وكان يمشي بِخُطىً واسعة مُنْحَنِي الرأس وهو يتلو صلواته وكأنه واحد من الشهداء. وكان هناك جمع غفير جدّا وكثيرون كانوا يصيحون به «لا تمت!» ويجيب «أريد أن أموت من أجل المسيح،» «ولكنك لا تموت من أجل المسيح»، فيجيب «ولكن من أجل الحقيقة». وعندما وصلوا إلى مكان يسمّى زاوية بروكنصولو صاح به أحدهم أن يصلي للرب من أجلهم جميعاً، وبارك هو الجموع. وعند فوند مانتي دي سانتا ليبيراتا، قال له أحدهم «يالك من أحمق، آمن بالبابا!» فأجاب «لقد جعلتم منه رباً هذا البابا!» وأضاف «إن ببغاواتكم قد جعلتكم تفلسون» (وكان ذلك تلاعباً بالألفاظ، أو تلميحاً، يجعل من البابا في اللهجة التوسكانية حيواناً كما فسّروا لي ذلك): وذهل الجميع لأنه كان يواجه الموت وهو يمْزح.

عند سان جيوفاني صاحوا به «انجُ بحياتك!» فأجابهم «انجوا من الخطايا!» وعند السوق القديمة صاحوا به «انجُ! انجُ!» فأجابهم «انجوا من الجحيم» وعند

Twitter: @ketab_n

السوق الجديدة صاحوا به «تُبْ، تُبْ،» فأجابهم «توبوا عن الرّبا» وعندما وصل إلى سانتا كروتشي رأى رُهباناً من جمعيته فوق المُدَرَّج وعاتبهم لأنهم لا يتّبعون قاعدة القديس فرانشسكو. ومن بين هؤلاء كان البعض يهزّون أكتافهم ولكن آخرين كانوا يُخفون وجوههم في طراطيرهم من الخجل.

وفي الطريق نحو باب العدالة قال له الكثيرون «أَنْكِرْ، أَنْكِرْ، ارفض الموت» فأجاب «لقد مات المسيح من أجلنا» فقالوا له «ولكنك لست المسيح، وليس عليك أن تموت من أجلنا» فأجاب «ولكنني أريد أن أموت من أجله» وعند مرج العدالة قال له أحدهم لماذا لا يتراجع كما تراجع راهب كان رئيسه قد أنكر، ولكن ميكيلي أجاب أنه لم ينكر. ورأينا الكثيرين من بين الجمع أخذوا يؤيدون ويشجعون ميكيلي كي يكون قوياً: ففهمت أنا وكثيرون آخرون أنهم من أتباعه وابتعدنا عنهم.

ووصلنا أخيراً خارج الباب وظهرت أمامنا المحرقة، أو الكوخ كما يُسمّونها هنالك، لأن الحطب كان يوضع في شكل كوخ. وهناك وقف الفرسان في شكل دائرة حتى لا يقترب الناس كثيراً ثم أوقفوا الأخ ميكيلي إلى العمود. وسمعت من جديد أحداً يصيح به «ما هذا إذن الذي تريد أن تموت من أجله؟» فأجابه «إنها حقيقة تسكن أعماقي ولا يمكن البرهنة عليها إلا بالموت». ثم أشعلوا النار. وكان الأخ ميكيلي قد انتهى من إنشاد «أؤمن» وأتبعه بـ «أنت يارب». وأنشد منه حوالى ثمانية أبيات، ثم انحنى كمن يريد أن يسعل، وسقط على الأرض لأن الحبال التي كانت توثقه قد تقطعت. وكان قد مات لأنه قبل أن يحترق الجسم تماماً يموت الإنسان من فرط الحرارة التي تجعل القلب ينفلق من الدخان الذي يغمر الصدر.

ثم اشتعل الكوخ بأكمله كما لو كان مشعلاً وأحدث وميضاً كبيراً ولولا جسد الأخ ميكيلي المسكين المحترق الذي كان لا يزال ظاهراً بين الحطب المشتعل، لقلت إنني أمام العَوْسَج المُلْتهب. وكنت على وشك أن تختطفني رؤيا عادت إلى ذهني (وتذكرتها بينما كنت أصعد سُلَّم المكتبة) فيها بعض الكلمات حول انخطاف القديسة إيلديغاردا الصوفي، والتي كنت قد قرأتها في بعض كتب القديسة، وصعدت تلقائياً إلى شفتيّ «الشعلة هي شعاع رائع، وقوة فِطرية وأُجّة نارية،

Twitter: @ketab_n

الإشعاع الرائع كي تضيء والأُجّة النارية كي تحرق». وتذكرت بعض جمل أوبارتينو حول الحب. واختلطت صورة ميكيلي فوق المحرقة بصورة دولتشينو، وصورة دولتشينو بصورة مارغريتا الجميلة. وأحسست من جديد بذلك الاضطراب الذي تملكني في الكنيسة.

حاولت أن لا أفكّر في ذلك وتقدمت بعزم نحو المتاهة.

كانت المرّة الأولى التي أدخل فيها المتاهة وحدي، وكانت الظلال التي يلقيها السراج على الأرض تروّعني بقدر ما روّعتني رؤى الليالي الفارطة. كنت أخاف في كل لحظة أن أجد نفسي أمام مرآة أخرى، لأن ذلك هو سحر المرايا، وهو أنك ولو كنت تعرف أنها مرايا فهي مع ذلك لا تنفك تُدخل عليك الارتباك.

ومن ناحية أخرى لم أكن أحاول أن أجد وجهتي، أو أن أتفادى قاعة الروائح التي تحدث الرؤى. كنت أتقدم وكأنني فريسة حمّى، ولم أكن أعرف أين أذهب. وفعلاً لم أبتعد كثيراً عن نقطة الانطلاق، لأنني وجدت نفسي بعد قليل في القاعة المسبعة الزوايا التي دخلت منها. كانت هناك بعض الكتب موضوعة فوق طاولة خيّل إليّ أني لم أرَها في الليلة الفارطة. وخمّنت أنها كتب أخذها مَلاخي من قاعة الكتابة ولم يرجعها بعد إلى الأماكن المخصصة لها. لم أكن أعرف إن كنت بعيداً عن قاعة العطورات، لأنني أحسست بشيء من الدوران، ربما لأن بعض الروائح كانت تصل إلى ذلك المكان أو هي الأشياء التي تخيّلتها إلى ذلك الحين. وفتحت كتاباً ثرياً بالنمنمات، كان يبدو لي من أسلوبه أنه متأتٍّ من أديرة «تول» الأخيرة.

وبهرتني صورة أسد في الصفحة التي يبدأ بها الإنجيل المقدَّس للحواري مرقس. كان بكل تأكيد أسداً وإن لم أرَ قط أسداً بلحمه ودمه، وكان المنمنم قد نقل بوفاء هيئته، وربما كان استوحى ذلك من رؤية أسود إيبارنيا وهي أرض مخلوقات فظيعة واقتنعت بأن هذا الحيوان، كما يقول أيضاً الفيزيولوجي، تجتمع فيه الوحشية والهيبة في الوقت نفسه. .كذلك كانت تلك الصورة توحي إليّ في الآن نفسه بصورة العدوّ وبصورة سيدنا المسيح، وما كنت أدري بحسب أي مفتاح رمزي كان ينبغي عليّ قراءتها، وكنت أرتعش بكل مفاصلي، من الخوف ومن الريح التي كانت تنفذ من كُوى الجدران.

Twitter: @ketab_n

كان فم الأسد الذي تجلّى لنظري مليئاً بالأنياب الحادة، ورأسه مدرّعاً بدقّة كرؤوس الثعابين، وكان جسمه الضخم يقف على أربع قوائم تحمل مخالب مُسنَّنة ومفترسة، ويشبه في صوفه البعض من تلك الزرابي التي رأيتها فيما بعد مجلوبة من الشرق، ذات حراشف حمراء وزمردية، رسمت فوقها، صفراء كالطاعون، أعضاء فظيعة وغليظة من عظام. وكان الذنب أيضاً أصفر يلتوي من المؤخرة إلى أعلى حتى يصل إلى الرأس منتهياً بدورة أخيرة تحمل خصلات بيضاء وسوداء.

وكانت رؤية الأسد قد أثّرت فيّ بالغ التأثير (ودرت على نفسي أكثر من مرّة كمن ينتظر أن يرى حيواناً بذلك الشكل يظهر فجأة) حين قرّرت تصفح أوراق أخرى ووقع نظري عند بداية إنجيل متّى، على صورة رجل. لا أدري لماذا ولكنه رَوَّعَني أكثر من الأسد: كان الوجه وجه رجل ولكن ذلك الرجل كان مدرّعاً في حلّة صلبة كانت تغطيه إلى القدمين، وكانت تلك الحلة أو الدرع مُرَصَّعاً بأحجار حمراء وصفراء. وذلك الرأس الذي كان يبرز غامضاً من ذلك القصر المصنوع من الياقوت والزبرجد، كان يبدو لي (يا للرّعب، كيف جعلني أجذّف!) كالمجرم الغامض الذي كنا نقتفي آثاره الخفية. وفهمت بعد ذلك لماذا كنت أقيم في ذهني علاقة متينة بين الوحش والمدرّع من جهة والمتاهة من جهة أخرى: لأن كليهما، ككل صور ذلك الكتاب، كانا يبرزان فوق نسيج مصوّر من المتاهات المتشابكة، خطوط من الجزع والزمرد، وخيوط من الذهب وأشرطة من الزمرد الريحاني، كانت كلها تذكر بلفيفة القاعات والأروقة التي كنت أجد فيها نفسي. كان نظري يتيه فوق الصفحة، عبر مسالك بديعة، كما كانت قدماي تتيهان في تلك السلسلة الرهيبة من قاعات المكتبة. وملأتني قلقاً رؤية شرودي ممثلة على ذلك الرّق وأقنعتني بأن كلاً من تلك الكتب كانت تقص بتهكمات غامضة قصتي في تلك الآونة. «إنما تروي الحكاية قصتك» قلت لنفسي، وتساءلت إن لم تكن تلك الصفحات تحتوي على قصة اللحظات المقبلة التي كانت تنتظرني.

فتحت كتاباً آخر، وبدا لي منتمياً للمدرسة الإسبانية. كانت الألوان عنيفة، فالحمراء منها تبدو وكأنها دم أو نار. كان كتاب **وحي الحواري**، ووقع نظري مرّة أخرى، كالليلة الفارطة، على صفحة «المرأة المتسربلة بالشمس». ولكنه لم يكن

Twitter: @ketab_n

الكتاب نفسه، كانت النمنمة مُختلفة، هنا ألحّ الفنان أكثر على ملامح المرأة. وقارنت وجهها، ونهديها وانعطافة خاصرتها بصنم العذراء التي رأيتها مع أوبارتينو. كانت قسماتها مُختلفة، ولكن هذه المرأة أيضاً بدت لي جميلة جداً. وفكرت أنه لا ينبغي أن ألحّ على هذه الأفكار، وأدرت بعض الصفحات فوجدت امرأة أخرى، ولكن هذه المرّة كانت بغي بابل. ولم تسترعِ انتباهي كثيراً ملامحها ولكن فكرة أنها هي أيضاً امرأة كالأخرى، ومع ذلك فهذه كانت تحمل كل الرذائل، وكانت الأخرى مجمع كل الفضائل. ولكن الملامح كانت في الحالتين ملامح امرأة، وصرت غير قادر، إلى حد ما على فهم الفارق بينهما. وأحسست من جديد باضطراب داخلي، واختلطت صورة عذراء الكنيسة بصورة مارغريتا الجميلة. فقلت لنفسي «لقد هلكت!» أو «إني مجنون». وقررت أن لا أبقى أكثر من ذلك في المكتبة.

ومن حسن الحظ أنني كنت قريباً من السُّلَّم. وهرعت إلى أسفل، غير مكترث بأنه يمكنني أن أتعثّر وأن ينطفئ النُّور. ووجدت نفسي تحت عقود قباب قاعة الكتابة الفسيحة، ولكني حتى في ذلك المكان لم أتوقف وانطلقت نازلاً السلم المؤدي إلى قاعة الأكل.

هنالك توقفت، لاهثاً. كان نور القمر، في تلك الليلة الساطعة، ينفذ من الزُّجاجيات، وكان بوسعي إذن أن أستغني عن السراج، الذي كان لازماً في قاعات المكتبة وفي أروقتها. إلا أنني احتفظت به مشتعلاً ربما بحثاً عن بعض الطمأنينة. ولكنني كنت لا أزال ألهث، وفكرت في أنه ربما يكون من الأفضل أن أشرب قليلاً من الماء لتهدئة التوتر، وبما أن المطبخ كان قريباً، اجتزت قاعة الأكل وفتحت ببطء أحد الأبواب التي تفتح على الجزء الثاني من طابق الصرح الأرضي.

وعند ذلك الحد، وعوض أن يهدأ روعي، ازداد. لأنني تفطّنت حالاً إلى وجود شخص بالمطبخ، قرب فرن الخبز: أو على الأقل تفطّنت إلى نور كان يلمع في ذلكِ الركن، ومن شدّة فزعي أطفأت سراجي. ولشدّة ارتياعي روّعت من كان هناك، وفعلاً أطفأ الآخر (أو الآخرون) سراجه. ولكن دون جدوى، لأن ضياء الليل كان ينير المطبخ بما فيه الكفاية، ليصوّر أمامي على الأرضية، ظلاً أو ظلالاً عديدة مختلطة.

Twitter: @ketab_n

فتجمّدت أنا، ولم أعد أجرؤ لا على التراجع، ولا على التقدم. وسمعت وشوشة، همساً متذلّلاً، بدا لي صوت امرأة. ثم من كتلة الظلال العديمة الشكل، المصورة في العتمة قرب الفرن، تملّص شبح أسود وقصير وهرب نحو الباب الخارجي، الذي من الواضح أنه كان منفرجاً، وأغلقه خلفه.

بقيت أنا، على الحد الفاصل بين قاعة الأكل والمطبخ، مع شيء غير واضح ـ وكيف يمكن أن أقول؟ ـ متأوّه. كان يتأتى من ذلك الشبح فعلاً أنين، يكاد يكون بكاء متذللاً، نشيجاً إيقاعياً ينمّ عن الخوف.

ولا شيء يبعث الشجاعة لدى الخائف قدر خوف الآخرين: ولكنني لم أتقدم نحو الشبح بدافع من الشجاعة. وإنما، يمكن أن أقول، كانت تدفعني نشوة غير بعيدة عن تلك التي أحسستها عندما حدثت لي الرؤى. وكان في المطبخ شيء يشابه التبخيرات التي فوجئت بها اليوم الفارط في المكتبة. ربما لم تكن المواد نفسها، ولكن كان لها التأثير نفسه على حواسّي الهائجة. كانت تصلني رائحة حامزة من صمغ الكثيراء وشبّ ودُرْدِي كان الطباخون يستعملونها لتعطير الخمر. أو ربما كانوا يعدّون ـ كما علمت فيما بعد ـ في تلك الأيام الجعة (التي كانت محبذة في تلك الجهة من شمال شبه الجزيرة) وكانت تصنع بحسب طريقة بلادي، بالخلنج، وريحان المستنقع وإكليل البركة البرّي. وكل تلك الروائح أسكرت عقلي أكثر ممّا أسكرت خياشيمي.

وبينما كنت بدافع من غريزتي المنطقية أريد أن أصيح «أعوذ باللّه!» وأن أبتعد عن ذلك الشيء الذي يئن والذي كان دون شك شيطاناً أرسله إليّ إبليس، كان هناك شيء في غريزتي الشهوانية يدفعني إلى الأمام، كما لو كنت أريد المشاركة في حدث عجيب.

وهكذا اقتربت من الشبح إلى أن تفطّنت على ضوء الليل، الذي كان يسقط من النوافذ، إلى أنها امرأة، كانت ترتعد وتضمّ بيدها لفافة إلى صدرها، وكانت تزحف متراجعة إلى الوراء نحو فوهة الفرن.

ليقف الرب والعذراء المنعمّة وكلّ قديسي الفردوس الآن إلى جانبي وأنا أقصّ ما وقع لي. إن الحياء وهيبة وضعيتي (وأنا الآن راهب شيخ في دير «مالك»

Twitter: @ketab_n

الجميل، مكان السلام والتأمل الهادىء) ينصحاني باحتياطات شديدة التقوى. كان من الأولى أن أقول ببساطة إن شيئاً سيّئاً وقع، ليس من الاستقامة أن أقصّه، فلا أشوّش نفسي ولا أشوّش قارئي.

ولكنني وعدت نفسي أن أقصّ، عن تلك الأحداث، كل الحقيقة، والحقيقة لا تتجزأ، وهي تسطع بشفافيتها الداخلية ولا تقبل أن تُبتر من أجل مصالحنا أو من أجل حيائنا. المشكل هو بالأحرى، أن أقص ما حدث لا كما أراه الآن وكما أتذكره (حتى ولو أني كنت أذكر إلى الآن كلّ شيء بحيوية لا ترحم، ولا أدري إن كانت التوبة التي تبعته هي التي ركزت بتلك الحيوية ظروفاً وأفكاراً في ذاكرتي، أو أنه ضعف تلك التوبة نفسها هو الذي يعذبني معيداً إلى فكري المتأمل أقلّ مشاعر الخزي الذي أحسست به)، ولكن كما رأيته وأحسست به آنذاك. ويمكنني أن أفعل ذلك، بوفاء المؤرخ، لأنني لو أغمضت عينيَّ لأمكنني أن أقص لا فقط كل ما فعلته ولكن كل الأفكار التي جالت بخاطري في تلك اللحظات، كما لو كنت أنسخ رقاً حرّر في ذلك العهد. ينبغي إذن أن أتابع على هذا النحو، وليحفظني ميخائيل ملك الملائكة. لأنني، قصدَ إعطاء العبرة للقراء الآتين وتكفير ذنبي، أريد الآن أن أقص كيف يمكن أن يسقط شاب في مكائد الشيطان، حتى تصبح هذه واضحة بيّنة فيمكن لمن يسقط ضحيتها أن يهزمها.

كانت إذن امرأة. ماذا أقول، فتاة صغيرة. وبما أنه لم تكن لي إلى ذلك الحين (ومنذ ذلك الحين، والحمد للّه) صلة كبيرة بمخلوقات ذلك الجنس، لا أستطيع أن أقول كم كان سنها. أعرف أنها كانت صغيرة السن، تكاد تكون يافعة، ربما في ربيعها السادس عشر أو الثامن عشر أو العشرين، وأذهلني تعبير الواقعية الإنسانية الذي كان ينبعث من ذلك الوجه. لم تكن رؤيا وبدت لي على كل حال «طيبة جداً». ربما لأنها كانت ترتعد كالعصفور في ليلة شتاء، لأنها كانت تبكي ولأنها كانت خائفة مني.

وهكذا، وأنا أفكر أن واجب كلّ مسيحي صالح هو إغاثة أمثاله، اقتربت منها بلطف كبير وقلت لها بلاتينية جيّدة إنه لا ينبغي أن تخاف لأنني صديق، وإنني على كلّ حال لست عدوّاً، وبالتأكيد غير العدوّ الذي كانت ربما تهابه.

Twitter: @ketab_n

وربما كانت الرِّقّة التي تنبعث من نظري هي التي هدأتها، فاقتربت مني. وتفطّنت إلى أنها لا تفهم اللاتينية وخاطبتها عفوياً بلغتي الألمانية فأذعرها ذلك كثيراً، ولا أدري إن كان من أجل نبراتها الخشنة، وغير المعهودة عند أناس تلك الجهة، أو لأن تلك النبرات كانت تذكرها ببعض التجارب مع جند بلادي. عندئذٍ ابتسمتُ، لاعتقادي أن لغة الحركات والوجه أبلغ من لغة الكلمات، فاطمأنت، ثم ابتسمت وقالت لي بضع كلمات.

كنت أفهم شيئاً قليلاً جداً من لهجتها، التي كانت مُختلفة عن اللهجة التي تعلّمت بعضها في بيزا. ومع ذلك عرفت من النغمة أنها كانت تقول لي كلمات عذبة، وبدا لي أنها كانت تقول شيئاً من قبيل «أنت شاب، أنت جميل..». وكان من النادر أن يحدث لراهب مبتدىء قضى كامل طفولته في دير أن يسمع أحكاماً تخصّ جماله، بل وكانوا يحذروننا أن جمال الجسم زائل وأنه لا يستحقّ أي اعتبار: ولكنّ مكائد الشيطان ليست لها حدود وأعترف أن ذلك التلميح إلى جمالي، مهما كان كاذباً، كان له أعذب وقع في مسمعي وكان له في نفسي تأثير لا يوصف. زد على ذلك أن الفتاة مَدّت يدها، وهي تقول لي تلك الكلمات، ولمست لمساً خفيفاً بأناملها وجنتي، التي كانت آنذاك حليقة اللحية تماماً. وأحسست وكأنه سيغمى عليّ، ولكني لم أكن أشعر في تلك اللحظة بأدنى إحساس بالخطيئة. مما يدلّ على قدرة الشيطان عندما يريد امتحاننا ويمسح من نفوسنا آثار العفو الربّاني.

ماذا أحسست؟ ماذا رأيت؟ أذكر فقط أن انفعالات اللحظة الأولى كانت خالية من كلّ تعبير، لأن لساني وفكري لم يتعلما التعبير عن إحساسات من ذلك النوع. إلى أن عادت إلى ذاكرتي كلمات أخرى داخلية، سمعتها في أوقات أخرى وفي أماكن أخرى، ومن المؤكد أنها كانت قد قيلت لأغراض أخرى، ولكنها بدت لي تتناسب بروعة مع عذوبة تلك اللحظات، وكأنها نشأت متشاركة معها في الجوهر لتعبر عنه. كلمات تزاحمت في تجاويف ذاكرتي وصعدت إلى سطح شفتيّ (الصامتتين)، ونسيت أنها استُعملت في الكتابات المقدّسة أو في صفحات القدّيسين للتعبير عن حقيقة أسطع بكثير. ولكن أكان هناك حقيقةٌ فارق بين اللذات

Twitter: @ketab_n

التي كان القديسون يتحدثون عنها وتلك التي كانت نفسي المتهيجة تحس بها في تلك الآونة؟ في تلك اللحظة زالت مني تلك القدرة الحذرة على فهم الفارق. وهذا فعلاً، بحسب رأيي، الدليل على الانخطاف في مهاوي الذاتية.

وفجأة ظهرت لي الصبية كالعذراء السوداء والجميلة التي يتحدث عنها نشيد الأَنْشاد. كانت تحمل ثوباً بسيطاً من الكتان الخشن ينفتح دون احتشام فوق الصدر، وحول عنقها قلادة من الحجيرات الملونة والتي كانت، بحسب ظني، عديمة القيمة. ولكن رأسها كان يعلو، مزهوّاً، عنقاً أبيض كبرج من العاج، وكانت عيناها صافيتين كمسابح حشبون وأنفها كبرج لبناني وشعرها في لون الأرجوان. نعم، لقد بدا لي شعرها كقطيع من الماعز، وأسنانها كالنعاج الصاعدة من الحمّام، اثنتين اثنتين، دون أن تسبق واحدة الأخرى. ورحت أقول: «كم أنت جميلة، يا حبيبتي، كم أنت جميلة» وأهمس: «شعرك كقطيع ماعز نازل من جبال قلعاد، وشفتاك كسلكة من القرمز، وخدّك كفلقة رمانة وعنقك كبرج داود عُلّق عليه ألف مِجَنّ». وكنت أتساءل وأنا مروّع ومنخطف من تكون هذه التي تقف أمامي كأنها الفجر جميلة كالقمر، ساطعة كالشمس، مرهبة كجيش بألوية.

عندئذٍ اقتربت مني الصبية أكثر، ملقية باللفافة التي كانت إلى ذلك الحين تشدها بقوة إلى صدرها، ورفعت يدها من جديد لتداعب وجهي معيدة مرّة أخرى الكلمات التي كنت قد سمعتها. وبينما كنت لا أدري أأهرب منها أم أقترب أكثر، وكان رأسي يدق كما لو كانت أبواق يشوع على وشك أن تسقط أسوار مدينة أريحا، وكنت في الوقت نفسه راغباً في لمسها وخائفاً منه، فابتسمت هي ببهجة كبيرة، وندّ عنها أنين متذلل كأنها معزة رقيقة، ثم فكّت الخيوط التي كانت تربط الثوب فوق صدرها ونزعت الثوب عن جسدها كما يُنزع الجلباب، وبقيت أمامي كما يمكن أن تكون ظهرت حواء لآدم في جنّة عدن. وهمست معيداً الجملة التي سمعتها من أوبارتينو «جميل حقاً ذلك النهد الذي يبرز قليلاً، ممتلئ قليلاً ولكنه لا يتموج بدعارة» لأن نهديها ظهرا لي وكأنهما شادنان، توأمان من الغزلان يرعيان بين الزنابق، وبدت لي سرّتها كأساً مُستديراً لا يفرغ أبداً من الخمر المخدِّر، وبطنها كومة من القمح تحفّ بها أزهار الوادي.

Twitter: @ketab_n

وصحت بها: «يا كوكبي المشرق، أنت جنّة مغلقة، ينبوع مختوم، حجرة مقفلة على مرّ وعود، حجرة مليئة بالعطور». ووجدت نفسي رغم إرادتي لصيق جسدها وأحسست بدفئه وبعطره الحامز كعطر مراهم ما سبق لي قط أن عرفتها. وتذكرت «يا أبنائي، عندما يأتي الحب المجنون، لا يستطيع الإنسان شيئاً!». وفهمت أنه، مهما كان ما كنت أشعر به، مكيدة دبّرها لي الشيطان أو هِبة سماوية، لم يعد بإمكاني أن أفعل شيئاً لمقاومة الاندفاع الذي كان يحركني. وصحت «آه إني أتلاشى»، وأضفت: «من شدّة وجدي أراها ولا أحذر من حبّها» لأن عطراً وردياً كان ينبعث من شفتيها وكانت قدماها جميلتين في ذينك النعلين، وساقاها كانتا عمودين، وكعمودين كانت انعطافة خاصرتيها، فهي روعة أبدعها فنان عظيم. وكنت أهمس لنفسي. آه يا حبّ، يا ابنة النعم، لقد بات مَلِكٌ أسير ضفيرتك، وارتميت بين ذراعيها وسقطنا معاً على أرضية المطبخ العارية، ولا أدري إن كانت المبادرة مني أو كانت من صنعها هي، وجدت نفسي قد تحررت من جلباب المبتدىء ولم نشعر بالخجل من جسدينا وكان كلّ شيء طيباً.

وقبّلتني هي بقبلات فمها، وكان حبّها ألذ من الخمر ورائحة عطورها شذية، وكان عنقها جميلاً وسط اللآلي وخدّاها جميلين وسط الأقراط، كم أنت جميلة يا حبيبتي، كم أنت جميلة، عيناك حمامتان (هكذا كنت أقول) ثم أريني وجهك، أسمعيني صوتك، فصوتك نغم ووجهك سحر، لقد جننتني من الحبّ يا أختاه، لقد جننتني بنظرة من عينيك، بلؤلؤة واحدة من عنقك، شفتاك رحيق يقطر، وتحت لسانك الحليب والعسل، وشذى أنفاسك كعطر التفاح، وثدياك عناقيد، كعناقيد العنب ثدياك، وفمك خمر لذيذة تصل إلى أعماق حبي وتسيل فوق الشفتين وفوق الأسنان... ينبوع بستان، ناردين وزعفران، قرفة وكافور، صبر وألوة، وكنت آكل قرصي وعسلي، وأشرب خمري وحليبي، من تكون، من تكون هذه التي تقف أمامي كالفجر، جميلة كالقمر، ساطعة كالشمس، رهيبة كجند شاكي السلاح.

آه يا إلٰهي، عندما تنخطف الروح، تكون الفضيلة الوحيدة في حب ما تراه (أليس كذلك؟)، وتكون السعادة العظمى في امتلاك ما هو لك، وتشرب الحياة

Twitter: @ketab_n

السعيدة من ينبوعها (ألم يقولوا ذلك؟)، وتستلذ بالحياة الحقيقية التي سنعيشها بعد هذه الحياة الزائلة، قرب الملائكة إلى الأبد... كنت أفكر في ذلك وكان يبدو لي أن النبوءات تتحقق أخيراً، بينما كانت الفتاة تغمرني بملذات لا توصف وكنت كما لو كان جسدي كله عيناً من الخلف ومن الأمام وكنت أرى بنظرة واحدة كلّ ما يحيط بي. وكنت أفهم أنه منه هو، الحبّ، تنشأ في الوقت نفسه الوحدة والرقة والخير، والقبلة والعناق، كما كنت قد سمعت من قبل وكنت أظن أنهم كانوا يحدثونني عن شيء آخر. وللحظة واحدة فقط، بينما كانت غبطتي تكاد تصل أوجَّها، تذكرت أنني ربما كنت أجرّب، وفي الليل، استحواذ شيطان الظهيرة وقد حكم عليه أن يتجلّى أخيراً، على حقيقته الشيطانية، للنفس التي تتساءل منخطفة «من أنت» هو الذي يعرف كيف يخطف الروح وكيف يوهم الجسد. ولكنني اقتنعت في الحال أن ترددي هو الذي كان دون شك شيطانياً لأنه لا يمكن أن يكون في الوجود شيء أعدل، وأطيب، وأقدس مما كنت أحسّه والذي كانت عذوبته تزداد من لحظة إلى أخرى. كالقطرة الصغيرة من الماء في كمية من الخمر، تذوب فيه لتأخذ لون الخمر وطعمه، كالحديد المتقد والمشتعل الذي يصبح شبيهاً جداً بالنار ويفقد شكله الأول، كالهواء الذي يغمره نور الشمس ويتحول إلى إشراقها نفسه وإلى ضيائها نفسه، حتى إنه لا يبدو مضاء بل هو نفسه نور، كذلك كنت أحس أنا بنفسي أموت في ذوبان عذب، حتى إنه لم يبقَ لي من القوة إلا ما يكفي لأهمس كلمات المزمور «هو ذا صدري، إنه كالخمر الجديدة، لا ثغرة فيه، يحطّم القرب الجديدة»، ورأيت على الفور نوراً ساطعاً جداً وفي وسطه صورة في لون اللازورد تشتعل كلّها بنار متوهجة وعذبة، وانتشر ذلك النُّور الساطع في كلّ أرجاء تلك النار المتوهجة، وانتشرت تلك النار المتوهجة في تلك الصورة الساطعة وذلك النُّور المشع وتلك النار المتوهجة في كامل الصورة.

بينما كنت أسقط، وأنا على وشك الإغماء، فوق الجسد الذي جامعته، فهمت في نفس أخير من الحيوية أن النار تتكوّن من ضياء ساطع ومن قوة كامنة ومن حرارة نارية، ولكن الضياء الساطع تملكه لكي تنير والحرارة النارية لكي تحرق. ثم فهمت الهاوية والهُوى التابعة التي تدعو إليها.

Twitter: @ketab_n

الآن وأنا أكتب هذه السطور بيد ترتعش (ولا أدري إن كان لفظاعة الخطيئة التي أقصها أو للحنين المذنب نحو الحدث الذي أتذكره) أتفطّن إلى أنني استعملت لوصف نشوتي المخجلة في تلك اللحظات العبارات نفسها التي استعملتها، في صفحات قليلة سابقة، لوصف النار التي كانت تحرق جسد الشهيد الفرانشسكاني ميكيلي. وليس من قبيل الصدفة أن تصوغ يدي، المنكبّة على تنفيذ ما تأمر به روحي، بالعبارات نفسها تجربتين مُختلفتين تمام الاختلاف لأنني قد أكون عشتهما آنذاك بالطريقة نفسها، عندما أحسست بهما، ومنذ قليل، عندما كنت أحاول أن أبعثهما ثانية على الرق.

هناك حكمة غامضة تجعلنا نسمّي أحداثاً مُختلفة فيما بينها بعبارات مماثلة، هي نفسها تلك التي تجعلنا ندلّ على الأشياء الإلٰهية بأسماء أرضية، فيمكن القول عن الرب برموز ملتبسة إنه أسد أو فهد، وأن الموت جرح، والفرحة شعلة، والشعلة موت، والموت هاوية، والهاوية هلاك، والهلاك غشيان والغشيان وجد.

لماذا، وأنا شاب حديث السن، كنت أسمّي وجد الموت الذي راعني عند الشهيد ميكيلي بالعبارات التي سمّت بها القديسة وجد الحياة (الإلٰهية)، ولكن ما كان يمكنني أن أسمّي بغير تلك العبارات وجد المتعة الأرضية (الآثم والزائل)، الذي من جهته بدا لي حالاً إحساساً بالموت وبالتلاشي؟ إنني أحاول الآن أن أفكر في الكيفية التي أحسست بها، على بعد بضعة أشهر، تجربتين كلتاهما مثيرتان وأليمتان، وحول الكيفية التي تذكرت بها، تلك الليلة في الدير، واحدة وبإحساسي عشت الأخرى، على فترة بضع ساعات، وأيضاً الكيفية التي عشتهما بها في الوقت نفسه من جديد الآن، محرّراً هذه السطور، وكيف أنني في الحالات الثلاث ذكرتها لنفسي بكلمات تجربة مُختلفة لروح قديسة كانت تتلاشى في رؤيا الإله. ربما أكون جدّفت (آنذاك، الآن؟) ما وجه الشبه بين توق ميكيلي إلى الموت، وبين الانخطاف الذي أحسسته وأنا أنظر إلى النار التي كانت تلتهمه، ثم بين التوق إلى الوصال الجنسي الذي أحسسته نحو الصبية، والعِفّة الروحية التي كنت أترجمه بها مجازياً، وبين الرغبة نفسها في التلاشي العذب التي كانت تحمل القديسة إلى الموت من فرط وجدها لتعيش حياة أبدية؟ أيمكن التعبير عن أشياء على هذه

Twitter: @ketab_n

الدرجة من الاختلاف بكيفية لها تلك الدرجة من الوحدة؟ ومع ذلك، يبدو لي، أن هذا هو ما علّمنا إياه الكبار من بين العلماء: «كل صورة إذن تكشف الحقيقة بجلاء أكثر، إذا ما استطاعت بوضوح أكثر من خلال التشابه والاختلاف أن تظهر أنها هي نفسها صورة وليس الحقيقة». ولكن إن كان حب النار وحب الهاوية صورة من حب الرب، أيمكن أن يكونا صورة من حب الموت ومن حب الخطيئة؟ نعم، كما أن الأسد والثعبان هما في الوقت نفسه صورة للمسيح وللشيطان. ذلك أن صحة التأويل لا يمكن أن تحددها إلا سلطة الآباء، وفي الحالة التي تضنيني ليست هناك سلطة يمكن أن يعود اليها ذهني الطائع، ويحرقني الشك (ومرّة أخرى تدخل صورة النار لتعني غياب الحقيقة واكتمال الخطأ اللّذين يذيبانني!) يا إلٰهي، ماذا يحدث في نفسي، وقد أخذتني دوّامة الذكريات محدثة في الآن نفسه انقلاباً لأزمنة مُختلفة كما لو كنت أعبث بنظام الكواكب وتعاقب حركتها السماوية؟ إنني أتجاوز دون شك حدود فكري المذنب والمريض. هيّا، لنعد إلى هذه المهمة المتواضعة التي تعهدت القيام بها. كنت أقص أحداث ذلك اليوم وعن الفقدان التام للأحاسيس الذي هويت فيه. هو ذاك، لقد قلت ما تذكرته عن ذلك الظرف، وليكتفِ بهذا القدر قلمي الضعيف الذي يروي الحقيقة بوفاء وإخلاص.

لا أدري كم من الوقت، بقيت مستلقياً، والفتاة إلى جانبي. كانت يدها تواصل بحركة خفيفة لمس جسدي، الذي قد بَلَّلَهُ العرق. وكنت أحس بنشوة داخلية، ولم يكن هدوءاً، بل كان كاشتعال أخير وضعيف لنار تتباطأ في الانطفاء تحت الرماد بعد أن مات لهيبها. ولن أتردد في أن أُسمِّي سعيداً من أمكنه أن يحس بشيء مماثل (كنت أهمس بذلك وكأني في المنام)، ولو نادراً، في هذه الحياة (وفعلاً أحسست بذلك في تلك المرة فقط) وحسبه أن يكون خاطفاً، أن يدوم لحظة واحدة. فكأن الوجود غاب، والإحساس بالنفس امَّحى، فنشعر وكأننا انهرنا، وتحطمنا، ولو قُدّر لأحدهم (هكذا كنت أقول في نفسي) أن ينعم لحظة واحدة وبصفة خاطفة بما تنعمت به، فسينظر في الحال بعين السخط إلى هذا العالم الفاسد، وسيثيره خبث الحياة اليومية، وسيحس بثقل جسم الموت...

Twitter: @ketab_n

أليس ذلك ما علموني؟ تلك الدعوة التي كانت روحي كلها تنادي بها إلى نسيان كل شيء في الطوبى، كانت بالتأكيد (الآن أفهم ذلك) إشعاع الشمس الأزلية، والحبور الذي ينشأ منه، يفتح، ويبسط، ويعظم الإنسان، والحلق الفاغر الذي يحمله الإنسان في نفسه لن ينغلق بسهولة، إنه الجرح الذي فتحه سيف الحب، وليس هناك شيء على هذه الأرض أعذب ولا أرهب. ولكن تلك هي سنّة الشمس، إنها ترمي الجريح بأشعتها فتنفتح كل الجروح وينفتح الإنسان ويتمدد، وعروقه نفسها تنفتح، ولا تعود قواه بوسعها أن تنفذ الأوامر التي تتلقاها ولكن تحركها الرغبة فقط، وتحترق النفس الهاوية في هوّة ما تلمسه الآن، وهي ترى رغبتها وحقيقتها قد تجاوزهما الواقع الذي عاشته والذي تعيشه. وتشاهد مذهولة ذوبانها.

وتحت وقع تلك الأحاسيس بمتعة داخلية لا توصف أخذني النعاس.

فتحت عينيَّ وقد مرّ بعض الوقت، وكان ضياء الليل، وربما بسبب سحابة، قد ضعف كثيراً. ومددت يدي إلى جانبي فلم ألمس جسد الفتاة. أدرت وجهي: لم تكن هناك.

وفجأة نبّهني غياب الشيء الذي أهاج رغبتي وشفى غليلي إلى طيش تلك الرغبة وإلى ضلال ذلك العطش: «جميع الحيوانات كئيبة بعد الجِماع» وأخذني الوعي بأنني قد ارتكبت خطيئة. الآن، بعد سنين وسنين، بينما أبكي بمرارة ذنبي، لا يمكنني أن أنسى أنني أحسست تلك الليلة بمتعة عظيمة وسأخطئ في حق العليّ الذي خلق كل شيء للخير وللجمال، لو أنكرت أنه، حتى في تلك القصة التي جمعت مذنبين، حدث شيء كان، في طبيعته، طيباً وجميلاً. ولكن لعلها شيخوختي الحالية هي التي تجعلني أشعر، وأنا آثم في ذلك، بأن كل ما عشته في شبابي كان جميلاً وصالحاً. بينما ينبغي أن أوجه أفكاري نحو الموت الذي يقترب. آنذاك، وأنا شاب، لم أفكر في الموت، ولكنني بكيت خطيئتي بقوة وبصدق.

نهضت وأنا أرتعش، ذلك لأنني بقيت أيضاً وقتاً طويلاً على أرضية المطبخ

Twitter: @ketab_n

الباردة فتجمد جسدي. وارتديت ثيابي وكأنني محموم. ورأيت آنذاك، في إحدى الزوايا، اللفافة التي تركتها الفتاة أثناء فرارها. فانحنيت لأفحصها: كانت لفافة من الكتان، ربما متأتية من المطابخ. ففتحتها، ولأول وهلة لم أفهم ماذا كان بداخلها، وذلك لقلة النُّور وللشيء العديم الشكل الذي كانت تحتويه. ثم فهمت: وسط الدم المتجمد وقطع لحم أكثر طراوة وبياضاً، كان يوجد أمام عينيّ، ميتاً ولكنه لا يزال نابضاً بالحياة اللزجة للأحشاء الميتة، قلب كبير الحجم، تخدّده تعاريق ممتقعة.

وسقط على عينيَّ حجاب أسود وامتلأ فمي ببريق مرّ، ثم أطلقت صيحة وسقطت كما تسقط الجثة الهامدة.

Twitter: @ketab_n

اليوم الثالث: ليلاً

وفيه يعترف أدسو، وهو فريسة للاضطراب، إلى غوليالمو بخطيئته ثم يفكر في دور المرأة في رسم الكون، ولكنه يكتشف بعد ذلك جثة رجل

استفقت وأنا أشعر بشخص يبلّل وجهي. كان غوليالمو الذي حمل معه سراجاً ووضع شيئاً تحت رأسي. ثم سألني «ماذا حدث لك يا أدسو، حتى تطوف أثناء الليل في المطبخ لسرقة بعض أسلاب الحيوانات؟»

بإيجاز، كان غوليالمو قد استيقظ وبحث عني لا أدري لأيّ سبب. ولمّا لم يَجِدْني فَكَّر أنني ربما أكون ذهبت لامتحان جسارتي في المكتبة. وبينما كان يقترب من الصرح رأى شبحاً يخرج من الباب متجهاً نحو المبقلة (كانت الفتاة وهي بصدد الفرار، ربما لأنها سمعت أحداً يقترب). فحاول أن يعرف من يكون وأن يتبعه ولكنه (أي ذلك الذي كان بالنسبة إليه شبحاً) ابتعد نحو السور الخارجي واختفى. عندئذٍ، وبعد أن قام بجولة استطلاعية في الأماكن المحيطة، دخل غوليالمو إلى المطبخ وهنالك وجدني فاقد الحسّ.

وعندما أشرت، وأنا لا أزال مروّعاً، إلى اللفافة التي تحمل القلب، مغمغماً أنها جريمة جديدة، أخذ يضحك قائلاً: «أي انسان، يا أدسو يمكن أن يكون له قلب بذلك الحجم؟ إنه قلب بقرة، أو ثور. لقد ذبحوا اليوم بالذات بعض الحيوانات! بل قل لي، ماذا يفعل بين يديك؟»

عند ذلك الحد، وقد طغى عليّ الندم، إضافة إلى الرعب الذي تملّكني، انفجرت باكياً وطلبت منه أن يمنحني سرّ الاعتراف. وهذا ما فعل، فقصصت عليه كل ما حدث ولم أُخفِ عنه شيئاً.

Twitter: @ketab_n

وأصغى إليّ الأخ غوليالمو بجدّيّة كبيرة، ولكن مع شيء من التسامح وعندما انتهيت بدت على وجهه الصرامة وقال لي «أدسو، لقد ارتكبت خطيئة، هذا أكيد، في حق الوصية التي تلزمك بعدم الزنى، وفي حق واجباتك كمبتدىء. وما يمهد لك العذر هو أنك وجدت نفسك في إحدى تلك الحالات التي يضلّ فيها حتى أب في الصحراء. أما حول المرأة كمنبع للإغراء فقد تحدثت الكتابات المقدسة عن ذلك بما فيه الكفاية. وعن المرأة يقول سفر الجامعة إن حديثها كالنار الملتهبة، وتقول الأمثال إنها تستحوذ على أرواح الرجال النفيسة وإن أقواهم قد هلكوا بسببها. ويقول سفر الجامعة أيضاً: اكتشفت أن ما أمرّ من الموت إلاّ المرأة، فهي كشرك الصيادين، قلبها كالشبكة ويداها كالحبال. وقال آخرون إنها مركب للشيطان. بعد هذا التوضيح، يا عزيزي أدسو، لا أستطيع أن أقنع نفسي بأن الإلٰه أراد أن يدخل في الكون مخلوقاً بتلك النجاسة دون أن يهبه بعض الخِصال. ولا يمكنني عدم التفكير في أنه منحها امتيازات عديدة ودواعي للفخر، منها على الأقل ثلاثة كبرى. وفعلاً، قد خلق الرجل في هذا العالم الدنيء، من الطين وخلق المرأة في وقت لاحق، في الجنة ومن مادة إنسانية نبيلة. ولم يخلقها من قدمي آدم أو من أحشائه، بل من الضلع. ثانياً كان يمكن للإلٰه، الذي يقدر على كل شيء أن يتجسّد مباشرة في صورة رجل، بطريقة من الطرق المعجزة، ولكنه اختار أن يسكن في بطن امرأة، وهذا يدل على أنها ليست بالنجاسة التي تُنسب إليها. وعندما بُعث بعد الموت ظهر لامرأة. وأخيراً، في المملكة السماوية لن يكون أي من الرجال ملكاً، وستكون ملكة امرأة لم ترتكب قط خطيئة، فإذا ما أولى الإلٰه كل تلك العناية بحواء نفسها وبناتها، أيكون غير طبيعي أن نحس في أنفسنا نحن جاذبية نحو حسن ذلك الجنس ونبله؟ إن ما أريد أن أقوله لك يا أدسو، هو أنه لا ينبغي، دون شك، أن تكرر فعل ذلك، ولكن ليس شنيعاً إلى هذه الدرجة أن تكون رغبت في فعله. ومن جهة أخرى، أن يجرّب راهب على الأقل مرّة في حياته العشق الجسدي، بحيث يمكنه فيما بعد أن يكون متسامحاً ومتفهماً مع المذنبين الذين سينصحهم وسيطمئنهم... هو إذن، يا عزيزي أدسو شيء يحسن أن لا نتمناه قبل وقوعه، ولكنه إذا ما وقع لا يستحق هذا التشنيع الكبير. إذن، اذهب وليكن اللّه معك وكفى حديثاً في هذا. ولكن الأجدر، وحتى

Twitter: @ketab_n

لا نطيل التفكير في أمر من الأفضل أن ننساه، إن أمكنك ذلك، ـ وبدا لي عند ذلك الحد أن صوته ضعف كما لو كان مضطرباً داخلياً ـ لنتساءل بالأحرى عن معنى ما حدث هذه الليلة. من هي تلك الفتاة؟ ومع من كانت على موعد؟»

فقلت: «هذا حقيقة ما لا أعرفه، ولم أرَ الرجل الذي كان معها».

ـ «حسناً، ولكن يمكننا أن نستنتج من هو من خلال الكثير من الأدلة القاطعة. قبل كل شيء هو رجل دميم ومسنّ، لا تعاشره الفتاة عن طيب خاطر، خاصة إذا كانت جميلة كما تقول، ولو أنه يبدو لي أيها الذئب الصغير، إنك تستلذ كل طعام».

ـ «لماذا دميم ومسنّ؟»

ـ «لأن الفتاة تعاشره لا عن كلف به، ولكن مقابل لفافة من الكلى. من المؤكد أنها فتاة من القرية تتاجر بجسدها، ربما ليس للمرة الأولى، مع بعض الرُّهبان الفاسقين يدفعها إلى ذلك الجوع، وكمقابل تتلقى بعض الأكل لها ولعائلتها».

فقلت بجزع: «عاهرة؟»

ـ «فلاحة فقيرة، يا أدسو. ربما لها أخوة يحتاجون إلى طعام. ولو أمكنها لمنحت نفسها من أجل الحبّ لا من أجل الربح. كما فعلت هذا المساء. ولقد قلت لي فعلاً إنها وجدتك حديث السن جميلاً، وأعطتك مجاناً وحُبّاً بك، ما تعطيه لآخرين مقابل قلب ثور أو قطعة رئة. وأحسّت بنفسها عفيفة ومرتاحة لأنها جادت بنفسها، حتى إنها هربت دون أن تأخذ شيئاً مقابل ذلك. لذا أظن أن الشخص الآخر الذي قارنتك به ليس حديث السنّ ولا جميلاً».

أعترف، رغم قوة توبتي، إن ذلك الشرح ملأني اعتزازاً عذباً للغاية، ولكنني بقيت صامتاً وتركت أستاذي يواصل حديثه.

ـ «لا بدّ من أن هذا الشيخ الفاسد والدميم بإمكانه النزول إلى القرية والاتصال بالفلاحين، لأسباب لها صلة بمهامه. إنه يعرف طريقة لإدخال وإخراج

Twitter: @ketab_n

أشخاص من أسوار الدير، ويعرف أنه في المطبخ توجد تلك الأسلاب (ولو سئل غداً عن اختفائها لقال إن الباب بقي مفتوحاً وإن كلباً دخل وأكلها). وأخيراً، هذا الرجل مقتصد شيئاً ما، ويهمّه أن لا يحرم المطبخ من مأكولاته النفيسة، وإلاّ لأعطاها شريحة من اللحم أو قطعة أخرى طيبة. وإذن ترى أن صورة رجلنا المجهول تتضح بكلّ جلاء وأن كلّ تلك الصفات، أو العوارض، تتلاءم مع مادة لا أخشى أن أعزّفها بِقيِّم ديرنا، ريميجيو دا فراجيني. أو لو أخطأت، بصاحبنا الغامض سلفاتوري، الذي هو أصيل هذه الجهات ويتكلم جيداً مع أهل هذا المكان ويعرف كيف يقنع فتاة بأن تفعل ما يريده، لو لم تأتِ أنت».

فقلت باقتناع: «لا بد من أن يكون الأمر كذلك، ولكن ما تنفعنا الآن معرفة ذلك؟»

فقال غوليالمو: «بلا شيء، وبكل شيء. قد تكون لهذه القصة علاقة، أو قد لا تكون لها علاقة بالجرائم التي نهتم بها. ومن جهة أخرى، إذا ما كان القيّم في السابق من أتباع دولتشينو، فهذا يفسر ذلك والعكس بالعكس. ونعرف أخيراً أن هذا الدير يصبح في الليل ساحة لأعمال صعلوكية كثيرة. ومن يدري إن لم يكن القيّم، أو سلفاتوري، اللذان يطوفان في الظلام بهذه السهولة، يعرفان أشياء أكثر ممّا يقولان».

ـ «ولكن هل يخبراننا بها نحن؟»

ـ «كلا، إذا ما عاملناهما بشفقة، متجاهلين ما ارتكباه من آثام. ولكن لو أردنا فعلاً أن نعرف شيئاً، ستكون لدينا وسيلة لإقناعهما بالاعتراف. بعبارات أخرى، إن لزم، فالقَيِّم وسلفاتوري تحت رحمتنا، وسيغفر لنا الإلٰه زيغنا عن الحق، بما أنه يغفر أشياء كثيرة أخرى». قال ذلك ونظر إليّ بخبث، ولم أجد الجرأة على إبداء ملاحظات حول استقامة نواياه.

ـ «والآن ينبغي أن نذهب للنوم، لأن صلاة أول الصبح ستدقّ بعد ساعة. ولكنني أراك لا تزال مضطرباً أيها المسكين، وخائفاً من الخطيئة التي ارتكبتها... لا شيء أفضل لانشراح النفس من وقفة في الكنيسة. لقد منحتك الغفران ولكن من يدري، اذهب واطلب مصادقة الرب».

Twitter: @ketab_n

وحرّضني بضربة من كفّه على رأسي، قوية شيئاً ما، ربما كدليل على حبّه الأبوي والرجولي، أو كعقاب حليم، أو (كما خطر ببالي الآثم في تلك اللحظة) لشيء من الغيرة الصادرة عن رجل مثله متشوق لتجارب جديدة وقوية.

واتجهنا نحو الكنيسة، خارجين من طريقنا المعتاد الذي عبرته بسرعة، مغمض العينين، لأن رؤية تلك العظام كانت تذكرني بوضوح جليّ، في تلك الليلة، بأنني أنا أيضاً تراب، وكم كان جنونياً ذلك الذي أحسست به من اعتزاز بجمالي.

عندما وصلنا إلى صحن الكنيسة رأينا شبحاً أمام المذبح الأكبر. ظننته من جديد أوبارتينو. ولكنه كان أليناردو، الذي لم يتعرف علينا في البداية. ثم قال إنه أصبح لا يقدر على النوم، فقرّر أن يقضي ليلته في الصلاة من أجل ذلك الراهب الشاب المفقود (ولم يكن يذكر حتى اسمه). كان يصلي على روحه إن كان قد مات، وعلى جسده إن كان مصاباً ووحيداً في مكان ما. ثم قال «أموات كثيرون... أموات كثيرون... ولكن كان كلّ ذلك مكتوباً في كتاب الحواري. عندما يُنفخ في البوق الأول يسقط البرد، ومع البوق الثاني يصبح ثلث البحر دماً، وقد وجدتم الأول في الثلج والثاني في الدم... وينبئ البوق الثالث أنّ كوكباً متّقداً سوف يسقط على ثلث الأنهار وعلى ينابيع المياه. هكذا أقول لكما. لقد فقدنا أخانا الثالث وخافوا مصير الرابع، لأنه سوف يُضرب ثلث الشمس وثلث القمر وثلث النجوم، حتى يوشك الظلام أن يصبح تامّاً..».

وبينما كنّا خارجين من الجناح، تساءل غوليالمو إن لم يكن في كلمات الشيخ بعض الصحّة.

فلفتُّ انتباهه قائلاً: «ولكن ذلك يعني أنّ عقلاً شيطانياً واحداً، مستعملاً سِفر الرؤيا دليلاً يتبعه، هو الذي هيأ الجرائم الثلاث إذا ما افترضنا أن برينغاريو أيضاً قد مات. بينما نعرف أن موت أدالمو كان ناتجاً عن إرادته...»

فقال غوليالمو: «هذا صحيح، ولكن هذا العقل نفسه الشيطاني أو المريض، يمكن أن يكون قد ألهمه موت أدالمو فهيأ رمزياً الجريمتين الأخريين. وإذا ما كان الأمر هكذا، فيمكن أن يكون برينغاريو الآن غارقاً في نهر أو في عين ماء.

Twitter: @ketab_n

ولا توجد في الدير أنهار ولا عيون، أو على الأقل ليس بالحجم الذي يمكن أن يغرق فيه شخص، أو أن يغرقوه فيه. . .»

فقلت ملاحظاً، دون مبالاة: «هنا توجد فقط حمّامات».

ـ «أدسو، أتعرف أن هذه يمكن أن تكون فكرة؟ الحمّامات!»

ـ «ولكنهم قد فتشوا فيها. . .»

ـ «لقد رأيت الخدم هذا الصباح بينما كانوا يفتشون، لقد فتحوا باب الحمّامات وألقوا نظرة حواليها، دون تفتيش، لأنهم لم يتصوروا بعد أنه يجب البحث عن شيء مخفي جيداً، كانوا ينتظرون أن يجدوا جثة ملقاة بصفة مسرحية في مكان ما، كما وجدوا جثة فينانتسيو في الجرّة. هيّا نلقِ نظرة، فالظلام لا يزال حالكاً وسراجنا يشتعل بقوّة».

وهكذا كان العمل، وفتحنا دون عناء باب مبنى الحمّامات، خلف المستشفى.

كانت أستار عريضة تحجب الأحواض أحدها عن الآخر، ولا أدري كم كان عدد تلك الأحواض. وكان الرُّهبان يستعملونها للاغتسال، عندما يحدد نظام الدير اليوم المخصص لذلك، ويستعملها سيفيرينو لأغراض علاجية. لأن لا شيء يهدئ الجسم والعقل كالحمّام. وفي ركن كانت هناك مدفأة لتسخين الماء بسهولة، ووجدناها وسخة برماد جديد بينما كان يوجد أمامها سخّان مقلوب. وكان الماء يُستمدّ من حنفية موجودة في أحد الأركان.

ألقينا نظرة على الأحواض الأولى التي كانت فارغة، إلاّ الحوض الأخير يحجبه ستار قد سُحب، وكان مليئاً وبجانبه كومة من الثياب. كان سطح الماء يبدو، لأول وهلة وتحت نور سراجنا، هادئاً. ولكن عندما سقط فوقه النُّور رأينا في قاع الحوض جسم إنسان، عارياً ودون حياة. فجذبناه خارج الحوض بأناة: كان برينغاريو. وقال غوليالمو: «هذا، له حقيقة وجه غريق». كانت ملامح وجهه منتفخة. وكان جسده أبيض مرتخياً، وخالياً من الشعر، شبيهاً بجسد امرأة، لولا منظر الخصيتين القبيحتين والمتدليتين. فاحمرّ وجهي واقشعرّ بدني. ورسمت علامة الصليب بينما كان غوليالمو يبارك الجثة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

اليَوم الرّابع

اليَوم الرّابع: صَلاة الحَمد

وفيه يفحص غوليالمو وسيفيرينو جثة برينغاريو، ويكتشفان أن لسانه أسود، وهو أمر غريب بالنسبة إلى غريق. ثم يتحادثان عن سُمُوم فتّاكة وعن سرقة وقعت في ماضٍ بعيد

لن أُطيل في ذكر كيف أخبرنا رئيس الدير وكيف استفاق كلّ الدير قبل الساعة الكنسية، ولن أحكي عن صيحات الهول، وعن علامات الفزع والألم التي كانت تُقرأ على كلّ الوجوه، وكيف انتشر الخبر ليصل إلى أهل الوادي، وعن الخدم الذين كانوا يرسمون علامة الصليب ويستعيذون. لا أدري إذا ما كان الفرض الأول في ذلك الصباح قد أُقيم بحسب ما تمليه القاعدة، ولا من حضره. لأني تبعت غوليالمو وسيفيرينو اللذين لفّا جسد برينغاريو وأمرا أن يمدّد فوق طاولة بالمستشفى.

وبعد أن ابتعد رئيس الدير والرُّهبان الآخرون أخذ العشّاب وأستاذي في فحص مطوّل للجثة، ببرودة دم رجال الطب.

وقال سيفيرينو: «لقد مات غريقاً، ليس في ذلك شكّ، فهو منتفخ الوجه، مشدود البطن..»..

فلاحظ غوليالمو: «ولكنه لم يغرق بفعل آخرين وإلاّ لتمرّد على عنف قاتله، ولوجدنا آثاراً للماء حول الحوض. ولكن على العكس، كان كلّ شيء مرتباً ونظيفاً، كما لو سخّن برينغاريو الماء، وملأ الحوض وغطس فيه من تلقاء نفسه».

فأجاب سيفيرينو: «إنني لا أستغرب ذلك. فقد كان برينغاريو يشكو أحياناً

Twitter: @ketab_n

من التشنج، وقلت له بنفسي مراراً إن حمّاماً دافئاً يُهدِّىء من اضطراب الجسم والعقل وطلب مني عدة مرات أن أسمح له بالدخول إلى الحمّامات. ويمكن أن يكون فعل ذلك هذه الليلة أيضاً..».

فأبدى غوليالمو ملاحظة: «تلك الليلة، لأن هذا الجسد - كما ترى - قضى في الماء على الأقل يوماً..».

فأيده سيفيرينو قائلاً: «يمكن أن يكون في الليلة السابقة». وأعلمه غوليالمو جزئياً بأحداث الليلة الفارطة. لم يقل له إننا دخلنا خفية إلى قاعة الكتابة ولكن قال له، مخفياً عنه عدة تفاصيل، إننا لاحقنا شبحاً غامضاً سرق منا كتاباً. وفهم سيفيرينو أن غوليالمو كان يقول له فقط جزءاً من الحقيقة، ولكنه لم يُلقِ أسئلة أخرى. وقال إن ارتباك برينغاريو، إن كان هو السارق المجهول، يمكن أن يكون دفعه للبحث عن بعض الهدوء من خلال حمّام مهدىء. وأضاف ملاحظاً أن برينغاريو كان ذا طبيعة حسّاسة جداً، أحياناً تكفي بعض الخلافات أو بعض الانفعال لتثير فيه ارتعاشات وعرقاً بارداً، وتزوغ عيناه ثم يسقط على الأرض والزبد يخرج من فمه.

فقال غوليالمو: «على كلّ حال، قبل أن يأتي إلى هنا ذهب إلى مكان آخر، لأنني لم أرَ في الحمّام الكتاب الذي سرقه».

فأيدت كلامه بشيء من الاعتزاز «صحيح، لقد رفعت ثوبه الملقى قرب الحوض ولم أجد أثراً لشيء ذي حجم».

فابتسم لي غوليالمو قائلاً: «أحسنت. إذن قد ذهب إلى مكان آخر، ثم لنفترض أنه لتهدئة اضطرابه، وربما للإفلات من متابعتنا، انسلّ داخل الحمّام وغطس في الماء. أتظن، سيفيرينو، أن الداء الذي كان يصيبه كافٍ ليفقده الحواس ويغرقه؟»

فأجاب سيفيرينو مرتاباً: «هذا ممكن. من ناحية أخرى إذا حدث كلّ هذا منذ ليلتيْن فيمكن أن يكون هناك ماء حول الحوض، ثمّ جفّ. وهكذا لا يمكننا أن نستبعد إمكانية أن يكون أغرقه أحد».

Twitter: @ketab_n

فقال غوليالمو: «كلاّ. أرأيت قط قتيلاً يخلع ثيابه قبل أن يغرقوه؟»

فهزّ سيفيرينو رأسه، كما لو كانت تلك الحجة قد فقدت كلّ معانيها. وكان منذ بُرهة يفحص يدي القتيل، ثم قال: «إنه شيء غريب. . ».

ـ «ماذا؟»

ـ «لقد فحصت في اليوم الفارط يدي فينانتسيو، بعد أن نظفت الجثة من الدم، ولاحظت شيئا لم أولِهِ آنذاك أهمية كبيرة. كان طرفا إصبعين من يدي فينانتسيو اليمنى سوداوين، كأنهما سُوّدا بمادة قاتمة. هكذا بالضبط، انظر. مثل طرفَي إصبعَيْ برينغاريو الآن. بل وأكثر، نجد هنا بعض الأثر على إصبع ثالث. عندئذٍ ذهب بي الظن إلى أن فينانتسيو كان قد لمس بعض الحبر في قاعة الكتابة. . .»

فقال غوليالمو متأملاً: «هامّ جداً»، ـ ثم اقترب لينظر من قريب إلى أصابع برينغاريو. كان الفجر قد أخذ يطلع والنُور بالداخل كان لا يزال ضعيفاً ومن الواضح أن أستاذي كان يعاني فقدان عدستيه. وردّد قائلاً «هام جداً. السبابة والإبهام مسوّدان على مستوى الأنملين، والوسطى من الداخل، أقل سواداً. ولكن هناك آثاراً أضعف على اليد اليسرى أيضاً، على الأقلّ فوق السبابة والإبهام. ـ لو كانت فقط اليمنى، لكانت أصابع من يقبض شيئاً صغير الحجم، أو شيئاً طويلاً ونحيفاً. . .»

ـ «كمرقم، أو طعام أو حشرة. أو ثعبان. أو معرض القربان المقدس. أو عصا. أشياء عديدة. ولكن إذا كانت هناك آثار على اليد الأخرى يمكن أن يكون كأساً، تشدّه اليمنى بقوة وتشارك اليسرى بجهد أقل. . .»

فأخذ عندئذ سيفيرينو يفرك بخفة أصابع الميت ولكن اللون القاتم لم ينمحِ. ولاحظت أنه لبس قفازاً، ربما كان يستعمله عندما يجب عليه أن يلمس بعض المواد السامة. وأخذ يشتمُّ الأصابع دون أن يستنتج أي إحساس، ثم قال: «يمكنني أن أذكر لك عدة مواد نباتية (وأيضاً معدنية) تترك آثاراً من هذا النوع. بعضها قاتل والآخر لا. فأصابع المنمنمين تكون أحياناً وسخة بمسحوق الذهب. .».

Twitter: @ketab_n

فقال غوليالمو «كان أدالمو منمنماً. وأتصور أنه أمام جسده المهشّم لم يخطر ببالك أن تفحص أصابعه. ولكن الآخرين قد يكونان لمسا شيئاً كان في السابق لأدالمو».

فأجاب سيفيرينو «هذا حقيقةً ما لا أعرفه. ميّتان، والاثنان أصابعهما سوداء، ماذا تستنتج؟»

ـ «لا أستنتج شيئاً. لا يمكن الخروج باستنتاج انطلاقاً من خصوصيات من الطبيعة نفسها. يجب أن نعيد كلتا الحالتين إلى قاعدة واحدة. مثلاً: توجد مادة تسوّد أصابع من يلمسها...»

فأكملت القياس المنطقي بظفر «فينانتسيو وبرينغاريو أصابعهما سوداء، إذن قد لمسا تلك المادة!»

فقال غوليالمو: «حسن يا أدسو، ولكن قياسك ليس صحيحاً، لأن الحدث الذي يقع مرّة أو يتكرر حدوثه لا يفضي بالضرورة إلى قاعدة عامّة، وفي هذا القياس لا يظهر الحدّ الأوسط أبداً في مظهر حقيقة عامة. وهذا يدلّ على أننا لم نحسن اختيار المقدمة الكبرى. كان ينبغي أن لا أقول: كلّ من يلمس مادة ما له أصابع سوداء، لأنه يمكن أن يكون هناك أشخاص لهم أصابع سوداء ولم يلمسوا تلك المادة. كان ينبغي أن أقول: «كل الذين وفقط كل الذين لهم أصابع مسودة قد لمسوا بالتأكيد مادة ما. فينانتسيو وبرينغاريو إلى آخره. وهذا ما يعطينا «Darii» وهو قياس ثالث يمتاز عن الشكل الأول».

فقلت بفرح كبير: «إذن لدينا الجواب!»

ـ «للأسف يا أدسو، كم تؤمن أنت بالقياسات المنطقية! لدينا فقط ومن جديد السؤال. لنفترض أن فينانتسيو وبرينغاريو قد لمسا الشيء نفسه، وهذا افتراض دون شك معقول. ولكن بعد أن تصورنا وجود مادة، وحيدة من بين كل المواد، تعطي هذه النتيجة (وهذا لا يزال يستوجب التحقيق) فنحن لا نعرف ما هي وأين وجداها ولماذا لمساها. واحترس جيداً، نحن لا نعرف حتى إن كانت تلك المادة التي لمساها، هي التي أودت بهما. تصوّر أن مجنوناً يريد أن يقتل كلّ من يلمس مسحوق الذهب. أتقول إن مسحوق الذهب هو الذي يقتل؟»

Twitter: @ketab_n

بقيت مرتبكاً. لقد كنت دائماً أظن أن المنطق سلاح شامل، والآن أتفطّن إلى أن صلاحيته تتوقف على الطريقة التي يُستعمل بها. ومن جهة أخرى، وبمخالطة أستاذي تفطّنت، وتفطّنت أكثر في الأيام الموالية، إلى أن المنطق يمكن أن يصلح في كثير من الحالات على شرط أن ندخل إليه وأن نخرج منه بعد ذلك.

وفي الأثناء كان سيفيرينو، الذي لم يكن بكل تأكيد منطقياً كبيراً يُفكّر بحسب تجربته الخاصّة «إن عالم السُّمُوم متنوع كتنوع أسرار الطبيعة»، قال ذلك وأشار إلى مجموعة من الأوعية والقناني كُنّا قد تأملناها سابقاً بإعجاب مُرَتَّبَة أحسن ترتيب فوق الرفوف على طول الجدران، مع كثير من الكتب وأضاف قوله: «كما كنت قد ذكرت لك، إن الكثير من هذه الأعشاب، مخلوطة كما ينبغي وبأقساط، يمكن أن تعطي مشروبات وأدهاناً قاتلة. هناك مثلاً، الداتورة وستّ الحسن والشوكران: يمكنها أن تحدث استرخاء أو هيجاناً، أو الاثنين معاً. عندما تستعمل بحذر يمكن أن تكون أدوية نافعة جداً، وبمقادير مفرطة تؤدي إلى الموت. وهناك، فول القديس إينياتسو والأنغتورة وجوزة القيء وهي قادرة على قطع النفس».

ـ «ولكن لا تترك أية واحدة منها آثاراً على الأصابع؟»

ـ «كلاّ، على ما أظن. ثم هناك مواد تصبح خطرة فقط عندما تُبتلع، وأخرى على العكس، تؤثر على الجلد. الخربق الأبيض يثير القيء عند من يمسكه ليقتلعه من الأرض. وهناك نوع من البغونيات عندما تزهر تحدث نشوة عند البستانيّين الذين يلمسونها، كما لو شربوا خمراً. والخربق الأسود، عند لمسه فقط يحدث الإسهال. ونباتات أخرى تحدث خفقاناً للقلب، وأخرى للرأس، وأخرى أيضاً تفقد الصوت. وسمّ الأفعى، على العكس، عند دَلْك الجلد به دون وصوله إلى الدم، يحدث التهاباً خفيفاً فقط... ولكنني رأيت مرّة خليطاً، عندما يلصق في المنطقة الداخلية من فخذي الكلب، قريباً من الأعضاء التناسلية، يؤدي بالحيوان إلى الموت في وقت قصير وسط تشنجات فظيعة بينما تتصلب الأعضاء شيئاً فشيئاً..».

فقال غوليالمو: «إنك تعرف أشياء كثيرة عن السُّمُوم»، وقال ذلك بصوت

Twitter: @ketab_n

كانت تبدو فيه نبرة إعجاب. فحدّق فيه سيفيرينو وقاوم نظرات غوليالمو لبضع لحظات ثم قال: «إنني أعرف ما ينبغي أن يعرفه طبيب أو عشّاب أو من يتعاطى علم الصحة الإنسانية».

وبقي غوليالمو وقتاً طويلاً غارقاً في التفكير ثم رجا سيفيرينو أن يفتح فم الميت، وأن يفحص لسانه. وبدافع حب الإطّلاع أخذ سيفيرينو مبسّطاً نحيفاً، وهو إحدى الأدوات التي يستعملها في فنّه الطبي، ونفّذ ما أراده غوليالمو. ثم أطلق صيحة استغراب: «اللسان أسود!»

فهمس غوليالمو «هذا هو إذن. لقد أمسك شيئاً بأصابعه وابتلعه... وهذا يُلغي إمكانية استعمال السُّمُوم التي ذكرتها، وتلك التي تقتل بنفاذها عبر الجلد. ولكن هذا لا يسهل استقراءاتنا لأنه ينبغي علينا الآن أن نتصور بالنسبة إليه وبالنسبة إلى فينانتسيو، أنها بادرة تلقائية، غير عفوية، وغير ناتجة عن غفلة أو عن عدم احتياط، أو ناتجة عن تعنيف. لقد أمسكا بشيء وحملاه إلى فمهما وهما يعلمان ماذا كانا يفعلان...».

- «أيكون طعاماً؟ أم شراباً؟»

- «ربما. أو ربما.. لا أدري، آلة موسيقية، ناياً مثلاً...»

فقال سيفيرينو «مستحيل».

- «أكيد مستحيل. ولكن لا ينبغي أن نهمل أي افتراض، مهما كان غريباً. ولكن لنحاول الآن أن نتعرف على المادة السامة. لو دخل إلى هنا أحد له درايتك بالسُّمُوم واستعمل البعض من أعشابك، أيمكنه أن يصنع مرهماً قاتلاً يمكن أن يترك تلك العلامات على الأصابع وعلى اللسان؟ يمكن وضعه في طعام، أو في شراب، أو ملعقة، أو فوق شيء يمكن حمله إلى الفم؟»

فوافقه سيفيرينو قائلاً «نعم، ولكن من؟ ثم، حتى ولو قبلنا هذا الافتراض، كيف أمكنه أن يسقي السمّ زميلينا التعيسين؟»

وبصراحة لم أكن أتصوّر أنا أيضاً، فينانتسيو أو برينغاريو يقبلان أن يقترب

Twitter: @ketab_n

منهما أحد مادّاً إليهما مادة مجهولة ومقنعاً إياهما بأكلها أو بشربها. ولكن غوليالمو لم يكن يبدو مستغرباً من ذلك وقال: «سنفكر في ذلك فيما بعد، لأنني أودّ منك حالياً أن تحاول تذكّر حدث لم يعد إلى الآن إلى ذهنك، لا أدري، أحد ألقى عليك الأسئلة عن أعشابك، أحد يدخل بسهولة إلى المستشفى».

فقال سيفيرينو: «انتظر لحظة، منذ وقت طويل، أعني سنوات، كنت أحتفظ على أحد تلك الرفوف بمادة عظيمة الفعالية، أعطاني إياها زميل قام بأسفار إلى بلدان بعيدة. لم يكن يعرف ممّا كانت متكوِّنة، دون شك من أعشاب، ولم تكن كلها معروفة. كانت في هيئتها لزجة ويميل لونها إلى الأصفر، ولكنه نصحني بأن لا ألمسها، لأنها لو لمست فقط شفتي لقتلتني في وقت وجيز. وقد قال لي ذلك الزميل إنها لو ابتُلعت ولو بمقدار طفيف جداً، فهي تحدث في ظرف نصف ساعة إحساساً بفتور كبير، يتبعه شلل بطيء لكل الأعضاء وأخيراً الموت. لم يكن يريد أخذها معه وأهداني إيّاها. واحتفظت بها مدة طويلة، إذ وعدت نفسي بأن أفحصها بحال من الأحوال. وفي يوم من الأيام قامت على المرتفع عاصفة كبيرة. وكان أحد مساعديّ، وهو راهب مبتدىء قد ترك باب المستشفى مفتوحاً فقلبت الزوبعة هذه القاعة التي نحن فيها رأساً على عقب. قناني محطمة، وسوائل على الأرض، وأعشاب ومساحيق منتثرة. وعملت يوماً كاملاً لإعادة ترتيب أشيائي.. ولم أستعن بأحد إلا لكنس الشظايا والأعشاب التي أصبحت غير صالحة. وفي الآخر تفطّنت إلى غياب تلك القارورة بالذات التي حدثتك عنها. وانشغلت في بداية الأمر ثم اقتنعت أنها انكسرت واختلطت بالبقايا الأخرى. فغسلت جيداً أرضية المستشفى، والرفوف...».

ـ «وهل كنت قد رأيت القنينة قبل قيام الزوبعة ببضع ساعات؟»

ـ «نعم.. أو بالأحرى لا، الآن تذكرت. كانت وراء مجموعة من الأوعية، مخفية جيداً، ولم أكن أراقبها كلّ يوم..»

ـ «إذن، بحسب علمك، يمكن أن تكون سُرقت قبل الزوبعة بمدّة طويلة، دون أن تتفطّن إلى ذلك؟»

ـ «الآن وقد نبهتني إلى ذلك، نعم، دون شكّ».

Twitter: @ketab_n

ـ «وذلك المبتدىء مساعدك، يمكن أن يكون أخذها ثم انتهز فرصة الزوبعة لترك الباب مفتوحاً وإدخال الفوضى بين أمتعتك».

فبدا سيفيرينو كثير التهيج وقال «أكيد، نعم. ليس ذلك فقط، ولكن عند تذكري لما حدث استغربت كثيراً كيف أمكن للزوبعة، مهما كانت قوية، أن تكون قلبت كل تلك الأشياء. يمكنني جيّداً أن أقول إن أحدهم انتهز فرصة الزوبعة لإحداث الفوضى في القاعة وإحداث خسائر أكثر ممّا تقدر على فعله الريح!»

ـ «من كان ذلك المبتدىء؟»

ـ «كان يسمّى أغوسطينو. ولكنه مات السنة الفارطة، لما سقط من الدعائم التي كان يعمل فوقها مع رُهبان آخرين ومع بعض الخدم لتنظيف نقوش واجهة الكنيسة. ثم، أذكر الآن أنه أقسم أغلظ الأيمان أنه لم يترك الباب مفتوحاً قبل الزوبعة. لقد كنت أنا، في شدّة غضبي، أعتبره مسؤولاً عمّا حدث. ربما كان حقيقة بريئاً».

ـ «وهكذا يصبح لدينا شخص ثالث، ربّما يفوق بكثير راهبك المبتدىء علماً وتجربة، ويعرف قصة السُمّ الذي تحتفظ به. إلى من تحدثت بذلك؟»

ـ «هذا مما لا أذكره بالضبط. إلى رئيس الدير، دون شك، عندما طلبت منه الإذن بالاحتفاظ بتلك المادة الخطرة. وإلى شخص آخر، ربّما في المكتبة، لأنني كنت أبحث عن بعض كتب أعشاب لعلها تكشف لي شيئاً».

ـ «ولكن ألم تقل لي إنك تحتفظ بالكتب التي تحتاجها لممارسة عملك؟»

ـ «نعم، والكثير ـ ثم أشار إلى ركن من القاعة به رفوف محمّلة بعشرات المجلدات ـ ولكني كنت آنذاك أبحث عن بعض الكتب التي لم يكن بإمكاني الاحتفاظ بها عندي، والتي كان مَلاخي غير مستعد لأن يريني إياها حتى أني التجأت إلى رئيس الدير ـ ثم خفض صوته وكأنه يتحرز من أن أسمعه أنا أيضاً ـ أتعرف أنه، في مكان خفي من المكتبة توجد أيضاً كتب عرافة وسحر، ووصفات لمشروبات شيطانية. لقد تمكنت من مراجعة البعض من تلك المؤلفات، لواجب المعرفة، مؤملاً أن أجد وصفاً لذلك السم ولاستعمالاته، دون جدوى».

Twitter: @ketab_n

ـ «إذن تحدثت في ذلك مع مَلاخي؟»

ـ «أكيد، دون شك معه، وربما أيضاً مع برينغاريو نفسه الذي كان يساعده. ولكن لا تتسرع في استنتاجاتك. لا أذكر، ربما كان هناك رُهبان آخرون عندما تحدثت في ذلك، أنت تعرف أن قاعة الكتابة تكون في بعض الأوقات مكتظة..»

ـ «إنني لا أتهم أحداً. أريد فقط أن أفهم ماذا يمكن أن يكون قد حدث. على كل حال أنت قلت إن كل هذا وقع منذ سنين طويلة، ومن الغريب أن يسرق أحد سمّاً ليستعمله بعد وقت طويل. فلن يدلّ ذلك إلاّ على إرادة شيطانية أضمرت في الخفاء ومنذ وقت طويل نِيّة القتل». فرسم سيفيرينو علامة الصليب وقد بَدَت على وجهه علامات الفزع وقال «ليغفر لنا الرب جميعاً!».

ولم تعد هناك أشياء أخرى يمكن قولها، فغطينا جثة برينغاريو، التي كان ينبغي أن تُهيأ للدّفن.

Twitter: @ketab_n

اليَوم الرّابع: أولى

وفيه يستدرج غوليالمو سلفاتوري أوّلاً ثم القيّم إلى الاعتراف بماضيهما، ويعثر سيفيرينو على العدستين المسروقتين ويأتي نيكولا بأخريين جديدتين. ويمضي غوليالمو بستّ أعين لفكّ رموز مخطوط فينانتسيو.

كنا نتأهب للخروج عندما دخل مَلاخي، وبدا متضايقاً من حضورنا وتأهب للعودة على أعقابه. فرآه سيفيرينو من الداخل وسأله: «أتبحث عني؟ في ما يخص..». ثم توقف عن الكلام ناظراً إلينا، بينما أومأ اليه مَلاخي بإشارة تكاد لا تبين، كمن يقول: «سنتحدث عن ذلك فيما بعد..».. كنا بصدد الخروج وكان هو داخلاً وتعارضنا كلنا في فتحة الباب فقال مَلاخي، وقد غلب عليه التردد: «كنت أبحث عن العشّاب... إنني... إنني أحسّ بصداع».

فقال غوليالمو بنبرة تفهم وإشفاق: «قد يكون من جراء هواء المكتبة المغلق. عليك بالتبخير».

فحرّك مَلاخي شفتيه كمن يريد أن يضيف شيئاً ثم عدل عن ذلك وأحنى رأسه ودخل بينما كنا نبتعد. فسألت غوليالمو: «ماذا يريد من سيفيرينو؟»

فأجاب أستاذي بنفاد صبر: «أدسو، تعلّم أن تفكر بعقلك» ـ ثم غيّر مجرى الحديث وقال: «الآن، ينبغي أن نستجوب بعض الأشخاص». ـ وأضاف مستطلعاً الرحبة بأنظاره: «ما داموا على الأقل على قيد الحياة. وبالمناسبة: من الآن فصاعداً ينبغي أن نحاذر عند الأكل والشرب. خذ طعامك دائماً من الصحن الجماعي وشرابك من الإبريق الذي اغترف منه الآخرون. بعد برينغاريو نحن نعرف أشياء أكثر، ما عدا المجرم بطبيعة الحال».

Twitter: @ketab_n

ـ «ولكن من تريد أن تستنطق الآن؟»

فقال غوليالمو: «أدسو، لقد لاحظت أن الأحداث الأكثر أهمية تقع أثناء الليل: هناك من يموت، هناك من يطوف بقاعة الكتابة، وهناك نساء يدخلن من الأسوار... لدينا دير نهاري ودير ليلي، والليلي يبدو للأسف أهم من النهاري. ولذا كل من يطوف أثناء الليل يهمنا، بمن فيهم الرجل الذي رأيته ليلة أمس مع الفتاة. قد تكون قصة الفتاة دون علاقة البتة بقصة السُّمُوم، وقد تكون لها علاقة. على كل حال عندي فكرة عن رجل الليلة الفارطة، والذي سيكون دون شكّ على علم بأشياء أخرى تخص حياة هذا المكان المقدس الليلة. و، مثل ذئب الخُرافة، ها هو بالذات يمرّ هناك».

وأشار إلى سلفاتوري الذي كان قد رآنا هو الآخر. ولاحظت تردداً خفيفاً في خطواته كأنه يرغب في تفادي ملاقاتنا، إذ توقف متأهباً للعودة على أعقابه. كان ذلك في لحظة. ومن الواضح أنه رأى أنه لا يمكنه تفادينا فتابع سيره وألقى علينا ابتسامة عريضة وسلاماً كلّه تملّق. فلم يتركه أستاذي ينهي كلامه وبادره بنبرة خشنة: «أتعلم أن محكمة التفتيش تصل غداً؟»

فظهر على سلفاتوري عدم الارتياح لذلك الخبر وقال بصوت ضعيف: «وأنا، ما دخلي؟»

ـ «أنت، خير لك أن تقول لي الحقيقة، إليّ أنا صديقك، وفرانشسكاني مثلما كنت أنت، خير من أن تقولها غداً إلى هؤلاء الذين تعرف جيداً من هم».

وأفقدت تلك المبادرة العنيفة سلفاتوري كل قدرة على المقاومة، ونظر بخضوع إلى غوليالمو وكأنه يريد أن يفهمه أنه مستعدّ أن يقول له ما يريد أن يعرف.

ـ «هذه الليلة كانت توجد في المطبخ امرأة. من كان معها؟»

فأخذ سلفاتوري يقول «آه، أنثى تبيح نفسها وتتاجر بجسدها لا يمكن أن تكون طيبة، ولا محترمة».

ـ «لا أريد أن أعرف إن كانت فتاة طيبة. أريد أن أعرف من كان معها!»

Twitter: @ketab_n

- «يا إلٰهي، كم أن النساء ماكرات لعينات. يفكرن ليلاً نهاراً كيف يخدعن الرجال».

فأمسكه غوليالمو بشدة من تلابيبه: «من كان معها، أنت أم القيّم؟» ففهم سلفاتوري أنه لا جدوى من التمادي في الكذب وأخذ يقصّ حكاية غريبة، فهمنا منها بمشقة أنه كان يجلب فتيات من القرية، لإرضاء القيّم، ويدخلهن أثناء الليل داخل الأسوار من مسالك لم يُرد أن يكشف عنها. ولكنه أقسم أنه يفعل ذلك لطيبة قلبه، مُبْدِياً أسفاً مضحكاً لعدم تمكنه هو أيضاً من تلبية رغائبه، فتمنحه الفتاة، بعد إرضاء القيّم، شيئاً قليلاً أيضاً. وقال كل ذلك بابتسامات لزجة وفاحشة، وبغمزات، كأنه يعني أنه يتحدث إلى بشر من لحم ودم، معتادين على الممارسات نفسها. وكان ينظر إليّ من تحت، وما كنت أستطيع أن أنهره، كما كان بودي أن أفعل، وأنا أحسّ أن سراً واحداً كان يجمعنا، فأنا شريكه وصديقه في الخطيئة.

عند ذلك الحدّ قرر غوليالمو أن يجازف مجازفة واحدة وباغته قائلاً: «هل عرفت ريميجيو قبل علاقتك بدولتشينو أم بعدها؟» فجثا سلفاتوري على ركبتيه عند قدمي غوليالمو وتوسّل إليه بين الدموع أن لا يعمل على هلاكه وأن ينقذه من محكمة التفتيش فأقسم غوليالمو بأن لا يقول لأحد ما سيسمعه منه فلم يتردّد سلفاتوري وكشف لنا ماضي القيّم. لقد تعارفا عند «الجبل الأقرع» وكان كلاهما من جماعة دولتشينو، ثم هرب مع القيّم والتجأ إلى دير كزالي، ومنه تنقل بصحبته ضمن الكلونيين. وكان يلوك توسلات عفو وبدا من الواضح أنه لا يعرف شيئاً آخر. فقرر غوليالمو أنه من الأحسن أخذ رميجيو على غرّة، وترك سلفاتوري الذي جرى للاحتماء بالكنيسة.

كان القيّم في الجهة المقابلة من الدير، يساوم بعض قرويي الوادي. ونظر إلينا بتخوف متظاهراً بأنه مشغول جداً، ولكن غوليالمو ألح في طلب التحدث إليه. لم تكن لنا، إلى ذلك الحين، مع الرجل إلاّ علاقات قليلة وكان دائماً متأدباً معنا وكذلك نحن معه. في ذلك الصباح توجه إليه غوليالمو بالكلام كما يفعل مع زميل من نظامه. وبَدَا القيّم متحرجاً من تلك الألفة وأجاب في البداية بكثير من

Twitter: @ketab_n

الاحتراس. وقال له غوليالمو: «أتصوَّر أنك، للقيام بمهامك، تجبرك الظروف دون شك بأن تطوف في الدير عندما يكون الآخرون نائمين».

فأجاب ريميجيو: «بحسب الظروف، قد تكون هناك في بعض الأحيان أعمال ينبغي إتمامها وتكلفني بضع ساعات أسرقها من النوم».

ـ «ألم يحدث لك شيء أثناء تلك الحالات، يمكن أن يدلّنا على الشخص الذي يطوف، دون أن تكون لديه مبرراتك، بين المطبخ والمكتبة؟»

ـ «لو كنت رأيت شيئاً لأخبرت رئيس الدير».

فوافقه غوليالمو قائلاً: «هذا صحيح» ـ ثم غيّر فجأة مسار الحديث وسأله «القرية في الوادي ليست ثرية، أليس كذلك؟»

فأجاب ريميجيو: «نعم ولا، يعيش فيها بعض المنتفعين من الدير وهؤلاء يتقاسمون نعمنا، في السنوات الدسمة. ففي يوم القديس يوحنّا مثلاً تسلموا اثني عشر مدًّا من الشعير المجفف وحصاناً، وسبع ثيران مَخْصِيَّة وثوراً، وأربع عِجلات وخمسة عجول، وعشرين نعجة، وخمسة عشر خنزيراً، وخمسين دجاجة وسبع عشرة خلية نحل. ثم عشرين خنزيراً مُدَخَّناً وسبعة وعشرين قالباً من شحم الخنزير، ونصف مِكيال من العسل، وثلاثة مكاييل من الصابون، وشبكة للصيد. . .»

فقاطعه غوليالمو «فهمت، فهمت، ولكنك تعترف أن كل هذا لا يرشدني عن وضعية القرية، ومن هم المنتفعون من الدير من بين سكانها، وكم يملك غيرهم من الأرض. .».

فقال ريميجيو: «آه، هذا سهل. إن عائلة عادية تملك هناك حتى خمسين لوحة من الأرض».

ـ «كم تعادل اللوحة؟»

ـ «بطبيعة الحال، أربعة «ترابوكات» مربّعة».

ـ ««ترابوكات» مربعة؟ وكم تساوي؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «ستاً وثلاثين قدماً مُربَّعة بالنسبة إلى الترابوك المربَّع الواحد. أو إن أردت، فثمانمائة ترابوك خَطِّيَة تساوي ميلاً بييمونتياً. واعتبر أن عائلة، في الأراضي نحو الشمال، تستثمر من الزيتون ما يوفر لها على الأقل نصف كيس من الزيت».

ـ «نصف كيس؟»

ـ «نعم، الكيس يساوي خمس أيمينات، الأيمينة تساوي خمسة أكواب». فقال أستاذي بيأس «لقد فهمت، لكل بلاد أكيالها. أنتم مثلاً تكيلون الخمر بالقَماقِم؟»

ـ «أو بالروبية. ست روبيات، تعادل برانته واحدة وثماني برانتات تساوي برميلاً. أو إن أردت، الروبي يساوي ست بنتات من قُمْقُمَين».

فقال غوليالمو مسلّماً أمره للّه «أظن أن الأفكار أصبحت أكثر وضوحاً». فسأله ريميجيو، بنبرة بَدَا لي أن فيها تحدياً «أتريد معرفة شيء آخر؟»

ـ «نعم، كنت أسألك عن حالة عيش سكان الوادي، لأني كنت اليوم أفكر في المكتبة حول مواعظ أومبارتو دا رومانس للنساء، وخاصة الفصل «إلى نساء القرى الفلاحية المُعْوِزَات»، حيث يقول إنهن مُعَرَّضات، أكثر من غيرهن لخطايا الجنس، من جرّاء بؤسهن، ويقول بحكمة إنهن: «يرتكبن خطيئة مميتة عندما يزنين برجل كنيسي، وخطيئتهن أعظم عندما يضاجعن رجل كنيسة رُسِم في الكهنوت المقدس، وأشنع عندما يرتكبن خطيئة الجنس مع رجل دين نذر العفة وتخلى عن شهوات الدنيا». أنت تعرف أكثر مني أنه حتى الأماكن المقدسة كالأديرة لا تخلو من إغواء شيطان الظهيرة. كنت أتساءل إن لم يصل إلى علمك، في علاقتك مع أهالي القرية، إن كان بعض الرُهبان، لا سمح اللّه، قد حمل بعض الفتيات على ارتكاب الزنى».

وبالرغم من أن أستاذي كان يقول تلك الأشياء بنبرة تكاد تكون شاردة، فالقارىء يفهم أن تلك الكلمات أدخلت الارتباك على القيِّم المسكين، لا أستطيع أن أقول إن لونه أصبح شاحباً، ولكنني أقول إنني كنت أنتظر حقاً أن يصفرّ وجهه لدرجة أنه بَدَا لي شاحباً فعلاً. وأجاب بخضوع «إنك تسألني عن أشياء لو كانت وصلت إلى علمي لأخبرت بها رئيس الدير. على كلّ حال، وكما أتصوّر، تصلح

Twitter: @ketab_n

هذه المعلومات للتحقيق الذي أنت بصدد القيام به، ولن أخفي عنك شيئاً مما يمكن أن يصل إليّ من معلومات. بل بالعكس، الآن وقد نبهتني إلى ذلك وبخصوص سؤالك الأول... الليلة التي مات فيها أدالمو المسكين، كنت أتجوّل في الساحة... أنت تعرف، قصّة الدجاجات... وصل إلى علمي أن لئيماً، أثناء الليل يسرق الدجاج من القن... إذن، تلك الليلة، اتّفق لي أن لمحت من بعيد، ولكنني لا أقدر أن أجزم بذلك، لمحت برينغاريو وهو يعود إلى قاعة النوم محاذياً الخورس، كأنما لو كان آتياً من الصرح... ولم أستغرب ذلك، نظراً لما يتهامس به الرُّهبان منذ مدّة بشأن برينغاريو، ربما أنت على علم بذلك...»

- «كلاّ، قل لي».

- «حسن، كيف يمكن أن أقول؟ كان يقال إن لبرينغاريو ميولاً... لا تليق براهب...»

- «تريد أن تقول إنه كانت له علاقات مع فتيات من القرية، كما جاء في سؤالي؟»

فسعل القيِّم بحرج، وابتسم ابتسامة سمجة «لا، كلا، ميول أقلّ لياقة من ذلك..».

- «لأن راهباً يلتذّ جنسياً مع فتيات من القرية يمارس بطريقة من الطرق ميولاً لائقة؟»

- «لم أقل ذلك، ولكنك تقول إن هناك درجات في الرذائل كما هو الشأن في الفضائل. يمكن أن تغوي الإنسان ميول مطابقة للطبيعة أو... منافية للطبيعة».

- «أنت تقول لي إن برينغاريو كانت تحرّكه شهوات جنسية نحو أشخاص من جنسه؟»

- «أنا أقول إن ذلك ما يتهامس به الآخرون... وأقول لك هذه الأشياء كدليل على صدقي وعلى حسن نيّتي».

- «وأنا أشكرك، وأتفق معك على أن خطيئة اللواط هي أشنع أنواع الفسق الأخرى، والتي لست مؤهلاً، بصراحة للتحقيق فيها...»

Twitter: @ketab_n

فقال القيّم بفلسفة: «إنها تفاهات، تفاهات... حتى وإن حدثت...»

- «صحيح يا ريميجيو، تفاهات. كلنا نخطئ. ولن أبحث أبداً عن التبنة التي في عين أخي، من خوفي أن بعيني أنا عوداً. ولكنّي سأكون لك شاكراً، لكل الأعواد التي ستريد في المستقبل أن تحدثني عنها. وهكذا سنتحاور حول جذوع كبيرة وشديدة ونترك التبن يطير في الهواء. كم قلت إن الترابوك يساوي؟»

- «ستّاً وثلاثين مربّعة. ولكن لا تجهد نفسك بذلك. عندما تريد أن تعرف شيئا بدقة، تعال إليّ. اعتبرني صديقاً وفيّاً».

فقال غوليالمو بحماس «وكذلك أعتبرك. لقد قال لي أوبارتينو إنك كنت في السابق من نظامي. ولن أخون أبداً زميلاً قديماً، خاصة في هذه الأيام التي ننتظر فيها وصول بعثة بابوية يقودها محقق كبير، عُرف بإحراق العديد من أتباع دولتشينو. كنت تقول إن الترابوك الواحد يساوي ستّاً وثلاثين قدماً مربّعة؟»

لم يكن القيّم غبياً. ورأى أن لا فائدة من التمادي في لعبة القط والفأر، خاصة وأنه كان يعرف أنه هو الفأر، فقال «أخ غوليالمو، أرى أنك تعرف أشياء أكثر مما كنت أتصوّر. لا تخنّي، ولن أخونك. صحيح أنّي رجل مسكين فاسق، وأرضخ لشهوات الجنس. لقد قال لي سلفاتوري إنك أنت أو تلميذك قد فاجأه أحد ليلة أمس في المطبخ. وأنت سافرت كثيراً يا غوليالمو، وتعرف أنه حتى كرادلة أفينيون ليسوا مثالاً للفضيلة. أعرف أنك لا تستنطقني بخصوص هاته الخطايا الصغيرة الحقيرة. ولكني أفهم أنك علمت بعض الشيء عن قصة ماضيّ. لقد عشت حياة غريبة، كما حدث لكثير منا نحن الفرانشسكانيّين. لقد آمنت لسنوات بمثال المعيشة في الفقر، وتركت المجموعة لأتعاطى حياة صعلوكية، وآمنت بتبشير دولتشينو، ككثيرين آخرين مثلي. لست رجلاً مثقفاً. لقد تسلمت زِيَّ النظام ولا أعرف حتى كيف أقيم القداس. أعرف القليل جداً من اللاهوت. وربما لا أستطيع حتى أن أتمسك بالأفكار. كما ترى، في ما مضى حاولت أن أثور على الأسياد، والآن أخدمهم. وأعطي الأوامر لمن هم مثلي خدمة لسيد هذه الأراضي. إمّا الثورة أو الخيانة، ليس لنا نحن البُسَطاء خيارات كثيرة».

Twitter: @ketab_n

فقال غوليالمو «أحياناً يفهم البُسَطاء أكثر من العلماء».

فهزّ القيِّم كتفيه قائلاً: «ربما. ولكنني لا أعرف حتى لماذا فعلت ما فعلته آنذاك. كما ترى، بالنسبة إلى سلفاتوري يمكن فهم ذلك. فأصله من الخدم والغوغاء، وليد المجاعات والبؤس... كان دولتشينو يمثل الثورة وتحطيم الأسياد. بالنسبة إليّ كان الأمر مُختلفاً، فقد كنت من عائلة مدنية وما كنت هارباً من الجوع. كانت... لا أدري كيف يمكن أن أقول، كانت حفلة مجانين، كرنفالاً جميلاً... فوق الجبال مع دولتشينو، قبل أن يصل بنا الأمر إلى أن نأكل رفقاءنا الذين سقطوا في المعارك، وقبل أن يموت الكثيرون من الضنى حتى استحال أكلُهم كلِّهم، وألقينا بهم إلى الجوارح والوحوش المفترسة في منحدرات جبل ريبلّو... أو ربما حتى في تلك اللحظات... كنا نتنفس هواء... هل أستطيع أن أقول هواء الحرية؟ لم أكن أعرف قبل ذلك ما هي الحرية، كان المبشرون يقولون لنا «الحقيقة ستجعلكم أحراراً». كنا نحس بأنفسنا أحراراً، كنا نظن أنها الحقيقة. كنا نظن أن كلّ ما كنّا نفعله كان عادلاً..».

فسألته: «وهناك تعلمتم... أن تجامعوا النساء بحرية؟» ولم أكن أدري لماذا ألقيت ذلك السؤال، ولكن كلمات أوبارتينو كانت تستحوذ عليّ منذ الليلة الفارطة، وكذلك ما قرأته في قاعة الكتابة والوقائع نفسها التي حدثت لي. ونظر إليّ غوليالمو باستغراب، وربما لم يكن ينتظر مني مثل تلك الجرأة، وتلك الدعارة. أمّا القيِّم فقد حدّق فيّ كما لو كنت حيواناً غريباً ثم قال: «فوق جبل ريبلّو كان هناك أناس ناموا كامل عهد طفولتهم بالعشرات وأكثر، في حجرة حدودها بضعة أذرع، إخوة مع أخواتهم وآباء مع بناتهم. ماذا تريد أن يكون بالنسبة إليهم قبول هذه الوضعية الجديدة؟ إنهم يفعلون خياراً ما كانوا يفعلون سابقاً بحكم الضرورة ثم في الليل، عندما تخاف وصول الكتائب العدوّة وتلتصق برفيقك، على الأرض، حتى لا تحس البرد... الهراطقة: أنتم، الأطفال الذين تخرجون من قصر لتدخلوا إلى دير، تعتقدون أنها طريقة تفكير أوحى بها الشيطان. ولكن على العكس، هي طريقة عيش، وهي... وكانت... تجربة جديدة... لم يعد هناك أسياد، وكانوا يقولون لنا إنّ الربَّ معنا. لا أقول إننا كنا على حق، ياغوليالمو، وفعلاً ها إنك

Twitter: @ketab_n

تراني هنا، لأنني سرعان ما تركتهم. إلاّ أنني لم أفهم قط مجادلاتكم العلمية حول فقر المسيح، والعبادة والعمل والعدل... لقد قلت لك، كان كرنفالاً عظيماً، وفي الكرنفال ينقلب كل شيء. ثم تصير شيخاً، ولا تصبح عاقلاً بل نَهِماً. وهنا أُرضي نَهَمي... تستطيع أن تدين هرطيقاً، ولكن أتريد أن تدين نَهِماً؟»

فقال غوليالمو «كفى يا ريميجيو، إنني لا أستنطقك بشأن ما حصل آنذاك، ولكن بخصوص ما حصل أخيراً، ساعدني وأؤكّد لك أنني لن أكون سبب هلاكك. لا أقدر، ولا أريد أن أحكم عليك. ولكن ينبغي أن تقول لي ماذا تعرف عن شؤون الدير. يبدو لي مستحيلاً أن لا تكون على معرفة بشيء وأنت تطوف كثيراً، ليلاً ونهاراً. من قتل فينانتسيو؟»

ـ «لا أدري، أقسم لك. أعرف متى مات، وأين».

ـ «متى؟ وأين؟»

ـ «اترُكني أقصّ عليك. تلك الليلة، بعد مُضِيّ ساعة من صلاة النوم، دخلت إلى المطبخ...»

ـ «من أين؟ ولأي سبب؟»

ـ «من الباب، ناحية المبقلة. لديّ مفتاح طلبت صُنْعَه منذ زمان من الحدّادين. إن باب المطبخ هو الوحيد الذي لا يُوْصَد من الداخل. والأسباب.. لا أهمية لها، لقد قلت بنفسك إنك لا تريد أن تدينني لضعف إرادتي ـ وابتسم بحرج ـ ولكني لا أريدك أن تظن أني أقضي أيامي في تعاطي الزنى... تلك الليلة كنت أبحث عن بعض الأكل للفتاة التي كان سلفاتوري سيدخلها وراء الأسوار...»

ـ «من أين؟»

ـ «آه، إن حزام الأسوار له عدّة مداخل، إضافة إلى الباب الرئيسي. ورئيس الدير يعرفها، وأعرفها أنا أيضاً... ولكن الفتاة لم تأتِ تلك الليلة، لقد أرجعتها على أعقابها فعلاً بسبب ما اكتشفته وما سأقصه عليك الآن. لذا حاولت أن أرجعها

Twitter: @ketab_n

ليلة البارحة. ولو وصلتما بعد لحظات لوجدتماني أنا عوضاً عن سلفاتوري. لقد أخبرني هو بوجود أشخاص في الصرح، فعدت إلى حجرتي...»

ـ «لنعد إلى الليلة الفاصلة بين الأحد والاثنين».

ـ «هو ذاك، لقد دخلت إلى المطبخ ورأيت فينانتسيو ملقى على الأرض ميّتاً».

ـ «في المطبخ؟»

ـ «نعم قرب المغسلة. ربما كان قد نزل آنذاك من قاعة الكتابة».

ـ «أكانت هناك آثار لصراع؟»

ـ «لا أثر. بل كان قرب الجسد كوب محطّم، وآثار ماء على الأرض».

ـ «لماذا تقول إنه ماء؟»

ـ «لا أدري. كنت أظن أنه ماء. وماذا يمكن أن يكون؟»

كان ذلك الكوب، كما لفت انتباهي إلى ذلك غوليالمو، يمكن أن يعني شيئين مُختلفين. إما أن أحدهم أعطى لفينانتسيو، في المطبخ بالذات، شراباً مسموماً، أو أن المسكين كان قد ابتلع السمّ (ولكن أين؟ ومتى؟) ونزل ليشرب حتى يهدىء حُرقةً فجائيّة، أو ألماً حادًّا، أو وجعاً يحرق أمعاءه، أو لسانه (ومن المؤكد أن لسانه كان أسود كلسان برينغاريو).

على كلٍّ، لم يكن مُمكناً في تلك الآونة معرفة المزيد. عندما اكتشف ريميجيو الجثة، ارتاع وأخذ يتساءل ماذا يفعل، وأخيراً قرر أن لا يفعل شيئاً. لو طلب العون، لكان عليه أن يبرّر طوافه في الصرح أثناء الليل، ولم يكن لذلك فائدة بالنسبة إلى الزميل الذي فُقد وانتهى أمره. ولذا قرر أن يترك الأشياء على حالتها، منتظراً أن يكتشف أحدهم الجثة في الصباح الموالي عند فتح الأبواب. وأسرع لإمساك سلفاتوري الذي كان بصدد إدخال الفتاة إلى الدير، ثم ذهب ـ هو وشريكه ـ للنوم، إن كان ممكناً أن نسمي نوماً تلك اليقظة القلقة التي عاشاها إلى الصبح. وعند صلاة أول الصبح، عندما جاء رُعاة الخنازير لإعلام رئيس الدير،

Twitter: @ketab_n

كان ريميجيو يظن أن الجثة اكتشفت حيث تركها، وبقي مبهوتاً عندما رآها في الجرّة. من أبعد الجثّة عن المطبخ؟ حول ذلك لم تكن لدى ريميجيو أدنى فكرة.

فقال غوليالمو «إن الوحيد الذي يمكنه التحرّك بحرية داخل الصرح هو مَلاخي».

فرد القيّم بقوة: «لا، مَلاخي لا. أي. لا أظن... على كلٍّ لم أقل أنا شيئاً ضد مَلاخي..».

ـ «مهما يكن الدَّيْن الذي يربطك بمَلاخي، فلا تنشغل. هل يعرف عنك شيئاً؟»

فاحمرَّ وجه القيّم وقال: «نعم، وتصرّف معنا تصرّف رجل كتوم. لو كنت في مكانك لراقبت بانشيو. لقد كانت له علاقات غريبة مع برينغاريو وفينانتسيو. ولكني أقسم لك إنني لم أرَ شيئاً آخر. إن وصل إلى علمي شيء أخبرتك به».

ـ «يكفيني الآن ما عرفت. سأعود إليك عند الحاجة».

فعاد القيّم، وقد بان عليه الارتياح بوضوح، إلى مساوماته، زاجراً بعض القرويين الذين حوّلوا في تلك الأثناء أكياساً من البذور من مكانها.

وبينما نحن كذلك إذ التحق بنا سيفيرينو وهو يحمل بين يديه عدستيْ غوليالمو اللتين سرقتا منه في الليلة الفارطة وقال: «وجدتهما في جيب برينغاريو. لقد رأيتهما فوق أنفك، ذلك اليوم في المكتبة إنهما لك، أليس كذلك؟»

فصاح غوليالمو بابتهاج: «الحمد للّه! لقد حللنا مشكلتين! استعدت عدستيّ، وعرفت أخيراً، ودون شك، أن برينغاريو هو الذي سرقنا تلك الليلة في قاعة الكتابة».

لم يكد ينهي كلامه حتى هُرع إلينا نيكولا دا موريموندو، يبدو عليه الظفر أكثر من غوليالمو، وهو يحمل في يديه زوجاً من عدستين جاهزتين، محملتين على مسّاكتهما، وصاح: «غوليالمو، لقد نجحت في صنعهما وحدي، إنهما جاهزتان. أظن أنهما صالحتان!» ـ ثم تفطّن إلى أن غوليالمو كان يحمل على

Twitter: @ketab_n

وجهه عدستين أخريين وبقي كأنه من حجر. فلم يرد غوليالمو إذلاله، وخلع عدستيه القديمتين وجرّب الجديدتين ثم قال: «إنهما أحسن من الأخريين، وهذا يعني أني سأحتفظ بالقديمتين كعدستين احتياطيتين، وسأحمل دائماً عدستيك». ثم قال لي «أدسو، الآن سأختلي بنفسي في حجرتي لقراءة الورقات التي تعرفها. أخيراً! انتظرني في مكان ما. وشكراً، شكراً لكم كلّكم، يا إخواني الأعزاء».

كانت «صلاة ثالثة» تدق وذهبت إلى المحراب لأنشد مع الآخرين الترتيلة، والمزامير، والآيات والكيريي(*). وكان الآخرون يصلّون ترحماً على روح برينغاريو، وكنت أنا أشكر الإله الذي ساعدنا على العثور لا على زوج بل على زوجين من العدسات.

كان يسود هدوء عظيم، ونسيت كل الدناءات التي رأيتها وسمعتها، فنمت، ولم أستيقظ إلاّ عندما انتهى الفرض. وتفطّنت إلى أنني لم أنم تلك الليلة، وارتبكت وأنا أفكر أنني استنفدت من قواي أكثر ممّا ينبغي. وعند ذلك الحد، لمّا عدت إلى الخارج، عادت ذكرى الفتاة لتستحوذ على فكري.

حاولت أن أشغل نفسي بشيء آخر وأخذت أتحرك بسرعة عبر السهل. كنت أشعر بدوار خفيف. كنت أضرب يديَّ المجمدتين بالبرد الواحدة بالأخرى، وأضرب الأرض بقدميّ. كنت لا أزال أحسّ بالنعاس، ومع ذلك كنت أحسّ بنفسي مستيقظاً ومليئاً بالحيوية. لم أكن أفهم ماذا كان يحدث لي.

* نشيد ابتهالي من أصل يوناني يعني «يا رب...» يُنشد في الجزء الأول من القدّاس [المترجم].

Twitter: @ketab_n

اليَوم الرّابع: ثالثة

وفيه يتخبط أدسو في آلام الحب، ثم يأتي غوليالمو ومعه نصّ فينانتسيو، الذي بقي غامضاً، حتى بعد فكّ رموزه

في الحقيقة، بعد لقائي الآثم بالصبيّة، كادت الأحداث المفجعة الأخرى أن تنسيني تلك الواقعة. ومن جهة أخرى، ما إن ألقيت باعترافي على مسامع غوليالمو حتى تخفَّفت نفسي من الندم الذي شعرت به بعد الاستفاقة من استسلامي الآثم، وبَدَا لي أني سلّمت إلى الأخ، مع أقوالي، الحمل الذي كانت تلك الكلمات تعنيه. وفعلاً، ما فائدة اغتسال الاعتراف ونعيمه، إن لم يكن لإلقاء حمل الخطيئة، والندم الناتج عنه، في حضن سيدنا نفسه، فنحسّ، مع الصفح، بخفة هوائية تنعش الروح، بحيث ننسى الجسد الذي جرَّحته الرذائل؟ ولكنني لم أتحرر من كل شيء. الآن وأنا أتجول تحت أشعة الشمس الشاحبة وفي برد ذلك الصباح الشتائي، يحيط بي حماس الإنسان والبهائم، بدأت أحداث الماضي تعود إليّ بطريقة مُختلفة، وكأنه من كلّ ما حدث، لم يبقَ شيء البتة من التوبة ومن كلمات اغتسال التوبة المواسية، وإنما بقيت فقط صور أجساد وأعضاء إنسانية. ويعود إلى ذهني المتهيج شبح برينغاريو المنتفخ بالماء، فيقشعرّ بدني من الاشمئزاز والشفقة. ثم، وكأني أريد أن أهرب من ذلك الشبح، يتجه خاطري إلى صور أخرى لا تزال الذاكرة تحتفظ بها حية، ولم يكن بوسعي آنذاك أن أتفادى رؤيةً، واضحة أمام عينيّ (أمام عينَي الروح، ولكنها تكاد تظهر أمام العينين الجسديتين): صورة الصبية، الجميلة والمرهبة كجيش بألوية.

لقد وعدت نفسي مجدداً (أنا الناسخ العجوز لنصّ لم يُكتب قط قبل الآن ولكنه تحدّث إليّ لمدة عشرات السنين الطويلة) بأن أكون راوياً مخلصاً. وليس

Twitter: @ketab_n

فقط حباً للحقيقة، ولا للرغبة (وهي دون شك جديرة جداً بذلك) في تهذيب قرائي الآتين، ولكن أيضاً لتحرير ذاكرتي الذابلة والمُنْهَكَة، من رُؤًى أرهقتها طول الحياة. وإذن ينبغي أن أقول كل شيء، باحتشام نعم، ولكن دون خجل. وينبغي أن أقول، الآن وبكلمات واضحة، ما مرّ آنذاك بخاطري وما حاولت أن أخفيه حتى عن نفسي، وأنا أتجول عبر السهل، وأركض أحياناً لأنسب إلى حركة الجسم خفقات قلبي الفجائية، متوقفاً لأنظر إلى أعمال القرويين، موهماً نفسي بالتشاغل وأنا أتأمل فيهم، ومتنفساً الهواء البارد بكل رئتيّ، كما يفعل من يشرب الخمر لينسى الخوف أو الألم.

دون جدوى. كنت أفكِّر في الفتاة. كان جسدي قد نسي المتعة العميقة، والآثمة الزائلة (والخسيسة) التي وجدتها في وصالها، ولكنّ روحي لم تنسَ وجهها، ولم تكن تقدر أن تحس بأن تلك الذكرى ضالة، بل بالعكس، كانت تخفق كما لو كانت تسطع في ذلك الوجه كل عذوبة الخلق.

كنت أحس بغموض، وأكاد أنفي لنفسي حقيقة ما كنت أحسه، وهو أن تلك البائسة، القذرة، تلك المخلوقة الداعرة التي تبيع جسدها (ومن يدري بأي تمادٍ في الفجور) إلى آثمين آخرين، ابنة حواء هذه التي، في ضعفها الشديد ككل أخواتها، تاجرت عديد المرات بجسدها، كانت مع ذلك شيئاً رائعاً وعجيباً. كان عقلي يقول لي إنها داعٍ للخطيئة، وكانت رغبتي الحسية ترى فيها مثوى لكل جمال. من الصعب أن أقول ماذا أحسست، وأكاد أكتب أنني، وأنا لا أزال سجيناً في مكائد الخطيئة، كنت أرغب، آثماً، أن أراها تظهر في كل لحظة، وأكاد أرقب أشغال العاملين وأتقصّى زاوية بعض الزرائب أو عتمة الإصطبل، مؤملاً أن تظهر تلك الصورة التي فتنتني. ولكنني لا أكتب الحقيقة، أو إني أحاول أن أحجب الحقيقة لأخفف من قوتها ومن جلائها. لأنني في الحقيقة كنت «أرى» الفتاة. كنت أراها في أغصان الشجرة العارية التي ترتعش ارتعاشة خفيفة حينما يطير إليها عصفور قد جمده البرد ليحتمي بها. كنت أراها في أعين العجول التي تخرج من الإصطبل، وأسمعها في ثُغاء الحملان التي تعترض تجوالي. كان وكأنما الخلق كله يحدثني عنها، وكنت أرغب، نعم، في رؤيتها، ولكنني كنت مستعداً أيضاً

Twitter: @ketab_n

لقبول فكرة أن لا أراها بعد ذلك أبداً، وأن لا أجامعها أبداً، لو مكنني ذلك من التمتع بذلك الحبور الذي كان يغمرني ذلك الصباح، وأن تكون بقربي حتى ولو كانت، للأبد، بعيدة عني. كان الحال، الآن أحاول فهم ذلك، كما لو كان الكون بأجمعه، الكون الذي من الواضح أنه يكاد يكون كتاباً خطته يد الرب، وكلّ شيء فيه يحدثنا عن طيبة خالقه اللامحدودة، وحيث كل مخلوق يكاد أن يكون كتابة ومرآة للحياة وللموت، وحيث تصبح أحقر وردة تفسيراً لمسارنا الأرضي، بإيجاز، كان كل شيء لا يحدثني إلاّ عن الوجه الذي تراءى لي في عتمة المطبخ الفائحة. وكنت أتسامح مع نفسي وأنا أعيش تلك الخيالات، لأنني كنت أقول لنفسي (أو بالأحرى، لم أكن أقول لنفسي، لأنني في تلك الآونة لم أكن أصوغ أفكاراً يمكن التعبير عنها بالكلام) إنه إذا كان هدف العالم كله هو أن يحدثني عن عظمة الخالق، وطيبته، وحكمته، وإذا كان العالم كله ذلك الصباح يحدثني عن الفتاة (مهما كانت آثمة) التي هي أيضاً فصل من كتاب الخلق العظيم، وبيت من نشيد يغنيه الكون ـ كنت أقول لنفسي (وأقول الآن)، إنه إذا ما كان ذلك حدث فلا يمكن أن لا يكون جزءاً من الرسم الإلٰهي العظيم الذي ينظم الكون، والمهيَّأ في شكل مزهر، معجزة في التناغم والانسجام. وكالثَّمِل، كنت أنعم آنذاك بوجودها من خلال الأشياء التي كنت أراها، ومن خلالها كنت أتشوق إليها، وبرؤية تلك الأشياء كنت أشبع نهمي. ومع ذلك كنت سعيداً بكل أشباح الحضور تلك. ويصعب عليّ أن أفسر غموض هذا التناقض، وهذا دليل على أن الروح الانسانية ضعيفة، ولا تتبع أبداً طرق الحكمة الإلٰهية المستوية، التي صنعت الكون كقياس منطقي كامل، ولكنها تلتقط من ذلك القياس قضايا منعزلة، وفي الغالب دون ترابط، ولذا تقع بسهولة ضحية أوهام الشيطان. أكان وهماً من الشيطان ذلك الذي كان يجعلني مضطرباً إلى ذلك الحد؟ أظن الآن أنه كان كذلك، لأنني كنت مبتدئاً، ولكن أظن أن العاطفة الإنسانية التي كانت تهيجني لم تكن في حد ذاتها فاسدة، بل كانت كذلك إذا ما اعتبرنا وضعيتي. لأنها في حد ذاتها كانت العاطفة التي تحرك الرجل نحو المرأة حتى يتجامعا كما يريد رسول البشر، وأن يصبحا لُحمة من جسد واحد، وينجبا معاً مخلوقات إنسانية أخرى، فيعنى أولئك بهؤلاء من الشباب إلى الشيخوخة. إلاّ أن الرسول قال ذلك لمن يبحث عن دواء للشهوة

Twitter: @ketab_n

الجنسية ولمن لا يريد أن يحترق، مذكّراً مع ذلك أن حالة الطهر أفضل بكثير، وهي الحالة التي كرّستُ لها نفسي راهباً. ولذا كنت في ذلك الصباح أتألم من شيء كان بالنسبة إليّ شرّاً، ولكنه بالنسبة إلى الآخرين كان خيراً، وربما خيراً على غاية من العذوبة، بحيث أفهم الآن أن حيرتي لم تكن ناتجة عن فساد أفكاري، التي كانت في حد ذاتها لائقة وعذبة، ولكن عن فساد العلاقة بين أفكاري والنذور التي نذرتها. إذن كنت مُخطئاً وأنا ألتذّ بشيء طيّب لو نظرنا إليه من زاوية، ولكنّه سيّء إذا نظرنا إليه من زاوية أخرى، وكان خطئي هو محاولة التوفيق بين الشهوة الطبيعية وأفكار الروح العقلانية. الآن أعرف أنني كنت أتألم من التباين بين الشهوة العقلية، حيث كان يجب أن تظهر سلطة الإرادة، والشهوة الحسية، شأن العواطف الإنسانية. وفعلاً، وكما يقول الأكويني: «إن أفعال الشهوة الحسية أهواء لأنها تتجلّى من خلال انفعالات جسدية، لا بفعل الإرادة». وكان عملي الشهواني فعلاً مصحوباً بارتعاش في كامل الجسد، وباندفاع جسدي يجعلني أصيح وأضطرب. ويقول العلاّمة الملائكي إن العواطف في حد ذاتها ليست سيئة، إلا أنه ينبغي أن تعدلها الإرادة التي تقودها العقلانية. ولكن روحي العقلانية كانت في ذلك الصباح خامدة من التعب الكابح لجماح الشهوة العاتية التي تتجه نحو الخير ونحو الشر قصد الامتلاك، ولكن ليست الشهوة الحسية التي تتجه نحو الخير ونحو الشر على أنهما متعارفان. ولتبرير خفتي اللامسؤولة آنذاك أقول اليوم، وبعبارات العلاّمة الملائكي، إنني كنت دون شك أسير الحب، الذي هو عاطفة وشريعة كونية، فحتى جاذبية الأجساد هي حب طبيعي. وكنت بطبيعة الحال مفتوناً بتلك العاطفة، لأنه في تلك العاطفة «تميل الشهوة إلى أن تتحقق بامتلاك ما تشتهي كي تبلغ هدفها» مما يجعل الحب بطبيعة الحال «يتحقق في تحقيق الأشياء التي يطمح إليها المحبوبان والتي تمكنهما من الوصال، كما أن الحب متكون من التجربة أكثر منه من المعرفة المجردة».

وفعلاً كنت وقتها أرى الفتاة أجسن مما كنت قد رأيتها في الليلة الفارطة، وكنت أفهمها «باطنياً وظاهرياً» لأني كنت أفهم نفسي فيها، وفي نفسي كنت أفهمها هي نفسها. وأتساءل الآن إن كان ما كنت أشعر به هو حب الصداقة، حيث يحب القريب قريبه ويريد فقط الخير للغير، أم إنه حب الشهوة الجنسية، حيث كنت

Twitter: @ketab_n

أريد من الفتاة شيئاً لم أحصل عليه أبداً قبل ذلك، بينما في ذلك الصباح لم أكن أريد من الفتاة أي شيء، وكنت أريد فقط الخير لها، وأود لو أُخرجت من الضرورة القاسية التي كانت تجبرها على منح نفسها مقابل قليل من الطعام، وأن تكون سعيدة، وما كنت أريد أن أطلب منها شيئاً ولكن فقط أن أتمادى في التفكير فيها وفي رؤيتها من خلال النعاج، والثيران، والشجر، والضياء الهادىء الذي يغمر الدير بالحبور.

الآن أعرف أن سبب الحب هو الخير وما هو خير يتحدد من خلال المعرفة، ولا يمكن أن نحب إلاّ ما عرفنا أنه خير، بينما عرفت الفتاة، أي نعم، على أنها خير الشهوة العاتية، لكن على أنها شر الإرادة. ولكنني كنت آنذاك فريسة تفاعلات روحية متعددة ومتناقضة لأن ما كنت أحسه كان مشابهاً للحب الأكثر قداسة، كما يصفه فعلاً الحكماء: كان يُحدث في نفسي ذلك الوجد، الذي يجعل المحب والمحبوب يريدان الشيء نفسه (وبوحي غامض، كنت أنا في تلك الآونة أعرف أن الفتاة، أينما كانت، كانت تريد الأشياء نفسها التي كنت أريدها أنا)، ومن أجلها كنت أحس بالغيرة، لا تلك السيئة التي أدانها بولس في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس التي هي «الرغبة القوية في الامتلاك» ولا تقبل «المشاركة في المعشوق»، ولكن تلك التي يتحدث عنها ديونيسيوس في «الأسماء الإلٰهية» حيث يقول إن الرب أيضاً غيور «للحب العظيم الذي يكنّه نحو كل الوجود» (وفعلاً كنت أحب الفتاة لأنها كانت موجودة، وكنت سعيداً، لا أشعر بالحسد من وجودها). كنت غيوراً بالمعنى الذي يقول فيه العلاّمة الملائكي إن الغيرة هي «تحرّك نحو المعشوق»، غيرة الصداقة التي تحمل على التحرّك ضد كلّ ما من شأنه أن يضرّ بالمحبوب (وكنت أنا لا أتصور إلاّ شيئاً واحداً في تلك اللحظة، وهو أن أخلّص الفتاة من سلطان من كان يشتري جسدها ملوّثاً إياها بعواطفه الدَّنِسة).

أعرف الآن أن الحب، كما قال العلاّمة، يمكن أن يضرّ بالمحب عندما يكون مفرطاً. وكان حبي مفرطاً. لقد حاولت أن أفسر ماذا أحسست آنذاك، ولا أحاول بالمرة تبرير ما كنت أحسّ. أتحدث عن تلك التي كانت صبوة شبابي الآثمة. كانت آثمة، ولكن الحقيقة تلزمني القول بأنني في ذلك الوقت أحسست

Twitter: @ketab_n

بها طيبة للغاية. وليكن هذا درساً لمن سيقع، كما حدث لي، في شباك الإغراء. اليوم، وأنا شيخ، أعرف ألف طريقة للإفلات من مثل تلك الفتن (وأتساءل إن كان يمكنني أن أعتز بذلك، بما أنني إذ تحررت من فتن شيطان الظهيرة، فلست متحرراً من كل الفتن الأخرى، مما يجعلني أتساءل إن كان ما أنا الآن بصدد القيام به ليس مطاوعة لعاطفة الذاكرة الدنيوية، التي ليست إلاّ محاولة غبية للهرب من تيار الزمن، ومن الموت).

نجوت آنذاك بإلهام معجزة من الغريزة. كانت الفتاة تبدو لي في الطبيعة وفي الأشغال الإنسانية التي كانت تحيط بي. فحاولت اذن، بإلهام صائب من الروح، أن أغوص في تأمل فسيح لتلك الأشغال. فتأملت في رُعاة الأبقار وهم يحملون الثيران خارج الإصطبل، وفي رُعاة الخنازير وهم يحملون العلف لتلك الحيوانات، وفي الرُّعاة الذين كانوا يُحرضون الكلاب على تجميع النعاج، وفي الفلاحين وهم يحملون القمح والذرة إلى المطاحن ويخرجون منها بأكياس من الغذاء النافع. وغرقت في تأمل الطبيعة، محاولاً نسيان أفكاري ومحاولاً أن أرى المخلوقات فقط كما هي، وأن أنسى نفسي في رؤياها، بانشراح.

كم كان منظر الطبيعة جميلاً ولم تمسسه بعد يد المعرفة الإنسانية، التي غالباً ما تكون مُنحرفة!

رأيت الحمل، الذي سُمّي كذلك كما لو كان اعترافاً بنقائه وبطيبته. وفعلاً، يأتي اسم «agnus» من كون هذا الحيوان «agnoscit» يعرف أمه بالذات ويعرف صوتها وسط القطيع بينما الأم، وسط حملان كثيرة لها شكل واحد وثُغاء واحد، تعرف دائماً وفقط ابنها، وتغذيه. ورأيت النعجة، واسمها ovis ويقال عنها ab oblatione لأنها منذ القدم كانت تصلح للطقوس القربانية، النعجة التي، كعادتها، عندما يحل الشتاء، تبحث بلهفة عن العشب وتشبع نفسها بالعلف قبل أن يحرق الصقيع المراعي. وكانت القُطعان تحرسها الكلاب، التي تستمد اسمها من canor(*) بسبب نباحها. والكلب من بين الحيوانات الأخرى كامل، ويمتاز عليها

* الكلب في اللغة الإيطالية هو «cane» [المترجم].

Twitter: @ketab_n

بحدة ذكائه، ويعرف الكلب سيده، ويروض لصيد الوحوش في الغاب، وأحياناً يهلك أثناء مهمة الدفاع تلك. والملك غَرامانتي، الذي أخذه أعداؤه أسيراً، أرجعته إلى وطنه مجموعة من مئتي كلب، شقت طريقها وسط جيوش العدو. وكلب جيازوني ليتشو، بعد موت سيده، امتنع عن الأكل حتى مات هُزالاً. وكلب الملك ليسيماكو رمى بنفسه في المحرقة التي أعدم فيها سيده للموت معه. وللكلب المقدرة على شفاء الجراح بلعقها بلسانه كما أن لسان صغاره يشفي من أوجاع الأمعاء. ومكنته الطبيعة من استعمال الأكل نفسه مرتين بعد تقيئه. هو القناعة التي هي رمز الكمال الفكري، كما أن قدرة لسانه الإعجازية هي رمز التطهير من الخطايا الذي يتحصل عليه المرء من خلال الاعتراف والتوبة. ولكن في عودة الكلب إلى ما تقيأه رمز أيضاً، وأنه بعد الاعتراف يعود المرء إلى ارتكاب الخطايا نفسها. وكانت هذه الموعظة نافعة جداً بالنسبة إليّ في ذلك الصباح لتحذير قلبي، بينما أتأمل في روائع الطبيعة.

وكانت خطواتي تحملني في هذه الأثناء إلى إصطبلات الثيران، التي كانت خارجة في جموع يقودها البقارون. وبدت لي في الحال كما كانت وكما هي، رمز الصداقة والطيبة، لأن كل ثور، أثناء العمل، يلتفت للبحث عن رفيق المحراث، وإذا ما حدث أن كان في تلك الآونة غائباً أرسل إليه خواراً ودوداً. وتتعلم الثيران أن تطيع وأن تعود وحدها إلى الإصطبل عندما يكون الطقس ممطراً، وعندما تحتمي بالمعلف تمد رأسها وتواصل ذلك لتنظر إن كفّ الطقس الرديء في الخارج لأنها تودّ العودة إلى العمل. ومع الثيران كانت تخرج في تلك الآونة العجول التي، إناثاً وذكوراً، تستمد اسمها من viriditas أو أيضاً من vigro، لأنها في ذلك السن لا تزال غَضّة، صغيرة السن وطاهرة، وكنت أقول في نفسي إنني كنت قد أسأت وكنت أسيء عندما كنت أرى في حركتها الرشيقة صورة الفتاة، التي، هي، لم تكن طاهرة. كنت أتأمل في تلك الأشياء وقد تصالحتُ مع الدنيا ومع نفسي وأنا أنظر إلى العمل الصباحي البهيج. ولم أفكر بعد ذلك في الفتاة، أو بالأحرى، اجتهدت كي أحوّل العاطفة التي كنت أحس بها نحوها إلى معنى من معاني الحبور الداخلي والسلام التقي.

Twitter: @ketab_n

وقلت لنفسي إن العالَم طيب ويستحق الإعجاب. وإن طيبة الخالق تظهر حتى من خلال أبشع الحيوانات، كما يفسر ذلك أونوريو أوغسطو دونيانسي. وهذا صحيح. هناك ثعابين ضخمة تبتلع وعلاً بأكمله وتسبح في المحيط، وهناك وحش الشنقروش الذي له جسد حمار وقرنا وعل، وصدر أسد وفكّاه ورِجْل حصان ولكن مشقوق كظلف الثور، وشقّ في فمه يصل إلى أذنيه، وصوته يكاد يكون آدمياً وعوضاً عن الأسنان له عظم واحد صلب. وهناك وحش المنتاكورة، بوجه إنسان وثلاثة صفوف من الأسنان، وجسم أسد، وذنب عقرب وعينان دهماوان لونهما في لون الدم وصوتها يشبه صفير الثعابين، وتكون نَهِمة للحم الإنسان. وهناك وحوش لها ثمانية أصابع بكل رجل، وخيشوم ذئب، ومخالب معقوفة، ولها جلد نعجة ونُباح كلب، تصبح، بتقدم السن، سوداء عوضاً عن بيضاء وعمرها أطول بكثير من عمرنا. وهناك مخلوقات لها عيون على أعضائها وثقبان على صدرها عوضاً عن فتحتي الأنف، لأنه ينقصها الرأس، وأخرى أيضاً تعيش طول نهر الغانج، وتعيش من رائحة نوع من التفاح فقط، إذا ابتعدت عنه ماتت. ولكن حتى هذه الحيوانات البشعة تتغنى على اختلافها بحمد الخالق وبحكمته، كالكلب، والثور، والنعجة، والحمل والفهد. وقلت آنذاك لنفسي، مُعيداً كلمات فينتشانسو بيلوفتشانسي، يا لعظمة أحقر جمال في هذه الدنيا، ويا لها من متعة أن تتأمل عين الفكر بانتباه، لا في أشكال الأشياء وأعدادها ومراتبها فحسب وقد وضعت في مثل ذلك التناسب عبر الكون بأجمعه، بل وأيضاً في مرور الأزمنة التي تمتد في تتابع وعثرات يرسمها موتُ ما وُلِد. وأعترف، أنا ذلك الآثم الذي كانت روحه إلى وقت قريب حبيسة شهوات الجسد، أنه حركتني نحو الخالق ونحو قاعدة هذا العالم عذوبة روحية، وأُعجبت بانشراح وبإجلال بعظمة الخلق وباستقراره.

وعلى هذه الحال من طيب الخاطر لقيني أستاذي حيث افترقنا قبل ساعتين وكانت قدماي قد حملتاني، دون أن أفطن، عبر السهل حتى كدت أكمل دورة الدير. كان غوليالمو هناك، وما قاله لي ألهاني عن أفكاري وأعاد ذهني من جديد إلى أحداث الدير الغامضة.

Twitter: @ketab_n

كان غوليالمو يبدو مُغتبطاً جداً. وكان يمسك في يده ورقة فينانتسيو وقد تَمَكّن أخيراً من فَكِّ رموزها، فذهبنا إلى حجرته، بعيداً عن الآذان المتطفلة. وترجم لي ما كان قد قرأه. بعد الجملة المكتوبة بالأحرف البروجية التي كانت تقول: (Secretum finis Africae manus supra idolum age primum et septimum de quatuor)* هذا ما كان يقوله النص باليونانية:

«السُّم المُربع الذي يعطي الطهارة...

السلاح الأفضل لإهلاك العدوّ...

استعمل الأشخاص المتواضع منهم والذليل والدميم، استمتع برذائلهم... لا ينبغي أن يموتوا... لا في ديار النبلاء والمقتدرين ولكن من قرى الفلاحين، بعد طعام وفير وشرب... أجساد قزمة، وجوه ممسوخة. يغتصبون العذارى ويضطجعون مع البغايا، لا أشرار، دون خشية. حقيقة مُختلفة، صورة للحقيقة مُختلفة...

أشجار التين الجليلة.

الحَجْرة العديمة الحياء تتدحرج إلى السهل... تحت الأعين.

يجب أن نخاتل وأن نفاجئ بالمخاتلة، نقول الأشياء عكس ما يظنها الغير، نقول شيئاً ونعني شيئاً آخر.

إليهم ستغني الزِيزَة من الأرض».

ولا شيء آخر. بحسب رأيي قليل جداً، لا شيء أو يكاد.

كان يبدو هذياناً مجنوناً وقلت ذلك لغوليالمو فقال: «قد يكون. ويبدو أكثر جنوناً مما هو عليه بسبب ترجمتي فأنا أعرف اليونانية بصفة جدّ تقريبية. ومع ذلك حتى ولو فرضنا أن فينانتسيو مجنون، أو أن مؤلف الكتاب مجنون، فهذا لا يفسّر لنا لماذا بذل أشخاص عديدون، وليسوا كلهم مجانين، ما في وسعهم، في البداية لإخفاء الكتاب ثم لاستعادته من جديد...»

- «ولكن هل الأشياء المكتوبة هنا مُسْتَمِدَّة من الكتاب السرّي؟»

---

* سرّ قاعة «أقصى إفريقيا» اليد فوق الصورة تحرّك الأول والسابع من الأربعة.

Twitter: @ketab_n

ـ «إنها دون شك أشياء كتبها فينانتسيو. ترى بنفسك أنه ليس رقّاً قديماً. ربما كانت ملاحظات كتبها وهو يقرأ الكتاب، وإلاّ فلا داعي إلى أن يكتبها باليونانية، لقد نقل دون شك، باختصار، جملاً من المجلد المسروق من القاعة المسماة «أقصى إفريقيا». وحمله معه إلى قاعة الكتابة وأخذ في قراءته، مسجلاً ما كان يبدو له جديراً بالملاحظة. ثم حدث شيء. إمّا أنه أحسّ بوجع أو أنه سمع أحداً يصعد. عند ذلك وضع الكتاب مع الملاحظات، تحت طاولته، وربما ممنّياً نفسه بالعودة اليه في المساء. على كل حال لا يمكننا معرفة طبيعة الكتاب السري إلا بداية من هذه الورقة، ومن طبيعة الكتاب فقط يصبح بالإمكان الوصول إلى طبيعة المجرم. فمن خلال كل جريمة ترتكب للحصول على شيء، تعطينا طبيعة ذلك الشيء فكرة، ولو باهتة، عن طبيعة القاتل. إذا ارتُكبت جريمة من أجل الظفر بقبضة ذهب، يكون القاتل شخصاً جشعاً، وإذا كانت الجريمة من أجل كتاب، فذلك يعني أن القاتل يريد الاحتفاظ وحده بأسرار ذلك الكتاب. ينبغي إذن أن نعرف ماذا يقول الكتاب الذي هو ليس بحوزتنا».

ـ «ويمكنك أن تعرف، من خلال هذه السطور القليلة، ما هو الكتاب المعني؟»

ـ «يا عزيزي أدسو، هذه الكلمات تبدو لي كلمات نصّ مقدس، ومغزاها يتجاوز المعنى الحرفي. عندما قرأتها هذا الصباح، بعد حديثنا مع القيّم، أذهلني أنه حتى هنا يقع التلميح إلى البُسَطاء والى الفلاحين، كأشخاص يحملون حقيقة مُختلفة عن الحقيقة التي يحملها العلماء. وقد جعلنا القيّم نفهم أن علاقة غريبة تربطه بمَلاخي. أيكون مَلاخي أخفى نصاً هرطيقياً خطيراً سلّمه إياه ريميجيو؟ عندئذٍ يكون فينانتسيو قد قرأ وسجل بعض الملحوظات الغامضة حول مجموعة من الأجلاف والبُسَطاء في ثورة على كل شيء وعلى الجميع. ولكن...»

ـ «ولكن؟»

ـ «ولكن هناك شيئان يناقضان هذا الافتراض. الأول هو أن فينانتسيو كان لا يبدو مهتماً بتلك المسائل: كان مترجماً للنصوص اليونانية، لا مبشراً بأفكار هرطيقية... والأمر الآخر هو أن جملاً كالتي تتعلق بالتين، والحجارة والزِّيزة لا يفسرها الافتراض الأول...»

Twitter: @ketab_n

- «قد تكون أحاجي لها معانٍ أخرى، أم أن لديك افتراضاً آخر؟»

- «لديّ افتراض آخر لكنه لا يزال مُبهماً. يبدو لي من قراءة هذه الصفحة أنني قد قرأت البعض من هذه الكلمات في وقت سابق، وتعود إلى ذهني جمل مماثلة كنت قد رأيتها في أماكن أخرى. بل يبدو لي أن هذه الورقة تتكلم على شيء جرى الحديث عنه في الأيام السابقة. . . . ولكنني لا أذكر ماذا. ينبغي أن أفكر في ذلك. ربما يجب أن أقرأ كتباً أخرى».

- «كيف ذلك؟ كي تعرف ما يقول كتاب يجب أن تقرأ كتباً أخرى؟»

- «في بعض الأحيان يتحتم أن نفعل ذلك. غالباً ما تتحدث الكتب عن كتب أخرى. وغالباً ما يكون كتاباً غير مؤذٍ، كالبذر يزهر من بعد في كتاب خطير، أو العكس، يكون غلّة حلوة من جذور مرّة. ألا يمكنك من قراءة ألبارتو أن تعرف ماذا كان يريد أن يقول توما! أو بقراءة توما معرفة ما قاله ابن رشد؟»

فقلت بإعجاب «هذا صحيح،» - لقد كنت أعتقد إلى ذلك الحين أن كل كتاب يتكلم على الأشياء، الإنسانية والإلٰهية، الموجودة خارج الكتب. وتفطّنت آنذاك إلى أنه ليس من النادر أن تتحدث الكتب عن كتب، أو بالأحرى، أن الكتب كانت وكأنها تتحدث فيما بينها. وعلى ضوء هذه الفكرة، بدت لي المكتبة مُخيفة أكثر من ذي قبل. فهي إذن مكان لتهامس طويل وسحيق، لحوار لا يدرك بين رَقّ ورقّ، هي شيء حيّ ومأوى لقوى لا يقدر الفكر الإنساني على السيطرة عليها، هي كنز من أسرار أبدعتها عقول كثيرة، وبقيت حية بعد موت من أبدعها أو من كان رسولها. وقلت«ولكن، ما المنفعة إذن من إخفاء الكتب، إذ يمكن من الكتب المكشوفة الوصول إلى الخَفيّة؟»

- «على مستوى القرون، لا ينفع لشيء. على مستوى السنين والأيام ينفع. أنت ترى، بالفعل، كم نحن تائهان».

فسألته بحيرة: «إذن ليست المكتبة أداة لنشر الحقيقة بل لتأجيل ظهورها؟»

- «ليس دائماً ولا بالضرورة. ولكن في حالتنا الراهنة هي كذلك».

Twitter: @ketab_n

اليَوم الرّابع: سادسة

وفيه يذهب أدسو لجمع الكمأ ويرى الفرانشسكانيّين وهم قادمون ويكون لهؤلاء حديث طويل مع غوليالمو وأوبارتينو، وتُعرف عدّة أشياء محزنة عن جيوفاني الثاني والعشرين

بعد تلك الاعتبارات قرر أستاذي أن لا يفعل شيئاً. لقد سبق أن ذكرت أن نشاطه ينعدم تماماً في بعض الأحيان، كما لو أن دورة الكواكب المستمرة قد توقفت، وتوقف هو معها. وهكذا فعل ذلك الصباح. تمدّد فوق الحصير وعيناه مفتوحتان في الفراغ، مشبكاً يديه فوق صدره ومحرّكاً شفتيه، بحركة لا تكاد تُرى، كأنه يتلو صلاة ولكن دون انتظام ودون خشوع.

مرّ ببالي أنه كان يفكر، وقررت أن أحترم تأمله، وعدت إلى الساحة ورأيت أن الشمس قد فترت حدّتها، والصباح الذي كان صافياً وجميلاً (بينما كان النهار في نصفه الأول) أضحى رطباً وضبابياً. سُحُب كبيرة من الشمال كانت تغمر قمة المرتفع وتغطيها بضباب خفيف. كان يبدو ضباباً، وربما كان ضباباً صاعداً من الأرض، ولكن عند ذلك الارتفاع من الصعب التمييز بين الضباب الآتي من تحت وذلك الذي ينزل من فوق. وأصبح من الصعب رؤية أشكال المباني الأكثر بعداً.

رأيت سيفيرينو وهو يجمع بابتهاج رُعاة الخنازير والبعض من حيواناتهم، وقال لي إنهم سينزلون مُنحدرات الجبل وإلى الوادي للبحث عن الكمأ ولم أكن أعرف بعدُ غلّة الغاب الممتازة تلك التي تنبت في تلك البلاد، وكانت تبدو من خاصيات الأراضي البنيدكتية، في نورتشيا ـ ولونها أسود ـ أو في تلك الأراضي ـ حيث تكون أنصع وأفوح. وشرح لي سيفيرينو ما هي، وكم هي لذيذة، عندما تطبخ بمُختلف الطرق. وقال لي إنه من الصعب جداً العثور عليها، لأنها مختفية

Twitter: @ketab_n

تحت الأرض، وهي أخفى من الفطر، والحيوانات الوحيدة القادرة على العثور عليها مستعملة الشمّ هي الخنازير. إلاّ أنه، عندما تعثر عليها فهي تحاول التهامها وينبغي في الحال إبعادها والتدخل لاستخراج الكمأة من الأرض. وعرفت من بعد أن الكثير من الأسياد لا يزدرون تعاطي هذا الصيد، مُتّبعين الخنازير كما لو كانت أنبل كلاب الصيد، ويتبعهم الخدم بدورهم حاملين المجارف. بل وأذكر، بعد ذلك الحدث بسنوات، أحد سادة بلادي الذي سألني لمّا عرف أنني زرت إيطاليا، كيف يمكن أن يحمل الأسياد هنالك الخنازير إلى المرعى، وضحكت أنا لأنني فهمت أنهم، على العكس، كانوا يبحثون عن الكمأة ولكن عندما قلت له إن هؤلاء كانوا يريدون العثور على الـ «tartufo» تحت الأرض لأكله من بعد، رسم بخشوع علامة الصليب وهو ينظر إليّ بدهشة. إذ فهم أنني كنت أقول الـ «der Teufel» أي الشيطان. ثم رُفع الالتباس وضحكنا من ذلك معاً. ذلك هو سحر الكلام البشري، الذي باتفاق بشري، غالباً ما يعني، بأصوات مماثلة، أشياء مُختلفة.

وحرّكت استعدادات سيفيرينو فضولي فقررت أن أتبعه، ولأني فهمت أيضاً أنه يخرج لذلك طلباً لتناسي الأحداث المفجعة التي كانت تُحزن الجميع، وفكرت في أنني بإعانته على تناسي أفكاره قد أنسى أنا أيضاً، أو على الأقل أكبح جماح أفكاري. ولا أخفي، بما أنني قررت أن أكتب دائماً وفقط الحقيقة، أنها كانت تفتنني تلك الفكرة فربما بنزولي إلى الوادي قد أتمكن من رؤية شخص لا أقول من هو. ولكني أؤكد لنفسي وأكاد أقول لها ذلك بالصوت العالي إنه بما أننا كنا ننتظر وصول القصادتين، ربما وقع بصري على واحدة منهما من بعيد.

وكان الهواء، كلما نزلنا في مُنحدرات الجبل، يصبح أكثر صفاء، ليس لأن الشمس عادت للظهور، إذ إن السماء كانت مُثقلة بالغيوم، ولكن الأشياء كانت تُبين بدقّة لأن الضباب بقي فوقنا. بل وأكثر، عندما نزلنا أكثر وأدرت وجهي لأنظر إلى قمة الجبل لم أرَ شيئاً: من مُنتصف المُنْحَدَر إلى ما فوق قمة الجبل والسهل والصرح، كل شيء اختفى بين السحاب.

صباح وصولنا إلى الدير، عندما بلغنا الجبال كان بإمكاننا عند بعض

Twitter: @ketab_n

المُنْعَطَفَات رؤية البحر، على بعد عشرة أميال لا أكثر، بل ربما أقل. كانت سفرتنا ثرية بالمفاجآت، لأننا كنا نجد نفسينا فجأة كما لو كنا فوق شرفة جبلية تفتح من أعلى على خلجان رائعة، وبعد قليل كنا ندخل وسط مضائق عميقة حيث ترتفع بين الجبال جبال أخرى، وكل منها تحجب عن الأخرى رؤية الساحل البعيد بينما كانت الشمس تنفذ بصعوبة إلى أعماق الأودية. لم أرَ قط كما رأيت في ذلك المكان من إيطاليا، منافذ في ذلك الضِّيق وفي تلك الفجئية للبحر وللجبال، لسواحل ولمشاهد جبلية. ومن خلال الريح التي تصفُر بين الأودية يمكن الإحساس بالصراع المتبادل بين البلاسم البحرية وأنفاس البرّ المثلجة.

ذلك الصباح، على العكس، كان كلّ شيء رمادياً، يكاد يكون أبيض كالحليب ولم تكن هناك آفاق حتى عندما تنفتح المضائق على السواحل البعيدة. ولكنني أطيل الحديث حول ذكريات لها أهمية قليلة بالنسبة إلى غايات الواقعة التي تشغل بالنا يا قارئي الصبور. وإذن لن أذكر الأحداث التي تخللت بحثنا عن الـ «der Teufel»، وسأتحدث، على العكس، عن قصادة الإخوان الفرانشسكانيّين التي كنت أول من أبصرها وهرعت حالاً إلى الدير لإعلام غوليالمو.

وانتظر أستاذي أن يدخل القادمون الجُدُد وأن يحييهم رئيس الدير وفقاً للطقوس. ثم ذهب لمُلاقاة الجماعة. فكانت سلسلة من المعانقات ومن التحيات الأخوية.

كانت قد انقضت ساعة الأكل، ولكن أُعِدَّت للضيوف مائدة ومن لطف رئيس الدير أنه تركهم فيما بينهم، وحدهم مع غوليالمو، وأعفاهم من وجوب اتباع قاعدة الدير، وتركهم أحراراً في أن يأكلوا ويتبادلوا الآراء في الوقت نفسه: إذ في نهاية الأمر، وليغفر لي الرب هذا التشبيه الكريه، كان كمجلس حرب ينبغي أن يلتئم في أقرب وقت قبل أن يصل الضيف الخصم، أي القصادة الأفينيونية.

من العبث أن أقول إن القادمين الجُدُد التقوا حالاً بأوبارتينو أيضاً وحيّوه بابتهاج وإجلال وقد سرّتهم المفاجأة لغيابه الطويل وللمخاوف التي صاحبت اختفاءه ولخصال ذلك المناضل الشجاع الذي خاض منذ عشرات السنين المعركة نفسها التي يخوضونها الآن.

Twitter: @ketab_n

سأتحدث فيما بعد عن الرُّهبان الذين يكوِّنون الجماعة، عند الحديث عن اجتماع اليوم المُوالي. وأيضاً لأنني تكلمت معهم قليلاً جداً، إذ كنت مهتماً بالمجلس الثلاثي الذي التأم فوراً بين غوليالمو وأوبارتينو وميكيلي دا تشيزينا.

كان ميكيلي يبدو رجلاً غريباً: متوقداً جداً في حماسه الفرانشسكاني (كانت له أحياناً حركات، ونبرات أوبارتينو في لحظات انخطافه الروحي) مع إنسانية وبشاشة كبيرتين في طبيعته الدنيوية، كرجل من جهات رومانيا، يقدِّر أطايب المائدة ويسعد بِرِفْقة الأصدقاء، حاذقاً ومُراوغاً، وفجأة يصبح متنبهاً بارعاً كالثعلب، مرائياً كالجرذ، عندما يمس الحديث العلاقات بين ذوي النفوذ، قادراً على ضحكات كبيرة وعلى توتر متوهج وعلى صمت فصيح، ماهراً في غض الطرف عن محدثه عندما يتطلب سؤاله أن يخفي رفضه للجواب، متظاهراً بالشرود. لقد كنت تحدثت عنه قليلاً في الصفحات السابقة. وكانت أشياء سمعتها عنه، ربما من أشخاص سمعوها بدورهم عن غيرهم. أما الآن فكنت أفهم أحسن الكثير من تصرفاته المتناقضة وتغيرات أغراضه السياسية المفاجئة التي أدهش بها في السنوات الأخيرة أصدقاءه وأتباعه أنفسهم. كان الرئيس العام لنظام الرُّهبان الفرانشسكانيّين. مبدئياً هو خَلَف القديس فرانشسكو، وفعلياً خلف مسؤوليه: كان عليه أن يباري مع قداسة وحكمة سلف مثل بونفانتورا دا بانيوريجيو، كان عليه أن يضمن احترام القاعدة وفي الوقت نفسه مصير النظام الذي أصبح في تلك القوة وفي ذلك الانتشار، كان عليه أن يصغي إلى البلاطات وإلى الحكام المدنيين التي يتحصل منها النظام، ولو في شكل صدقات، على هِبات أو وصايا، تمكنه من أسباب الرخاء والثراء، وكان عليه في الآن نفسه أن يحترس من أن تجرّ الرغبة الشديدة في التوبة الروحانيين الأكثر حماساً إلى خارج النظام فتفكك تلك المجموعة الرائعة التي كان على رأسها، إلى كوكبة من الجماعات الهرطيقية. كان عليه أن يرضي البابا، والإمبراطور، والرُّهبان الذين اختاروا حياة الفقر، والقديس فرانشسكو الذي كان دون شك يُراقبه من السماء، والأمّة المسيحية التي تراقبه على الأرض. عندما أدان جيوفاني كل الروحانيين كهراطقة لم يتردد ميكيلي وسلّمه خمسة من بين رُهبان بروفانسا الأكثر تصلباً، تاركاً الحبر الأعظم يرسل بهم إلى المحرقة. ولكنه عندما أحس أن الكثيرين كانوا يتعاطفون مع أتباع البساطة الإنجيلية

Twitter: @ketab_n

(ولحركة أوبارتينو ضلع في ذلك)، تصرّف بطريقة جعلت مجمع بيروجيا، بعد أربع سنوات من ذلك، يتخذ عرائض المحرقين لوائح له، مُحاولاً بطبيعة الحال أن يتبنى داخل حدود وأسس النظام رغبات، كان يمكن أن تكون هرطيقية، حتى يصبح ما يريده النظام مُراداً أيضاً من طرف البابا. ولكن، في حين كان ينتظر إقناع البابا، الذي بدون موافقته كان لا يريد أن يمضي إلى الأمام، لم يكن يرفض مساعدة الإمبراطور واللاهوتيين الإمبراطوريين. قبل سنتين من اليوم الذي رأيته فيه كان قد أمر رهبانه في مجمع ليون العام أن لا يذكروا شخص البابا إلاّ باعتدال وتقدير (وكان ذلك بعد بضعة أشهر من تهجمات البابا على الفرانشسكانيّين واحتجاجاته على «نُباحهم، وهفواتهم وحماقاتهم») وها هو الآن على المائدة، صديق حميم لأشخاص كانوا يتحدثون عن البابا بتقدير أقل ما يقال فيه إنه مُنْعَدم.

أمّا بقية القصة فقد ذكرتها من قبل. كان جيوفاني يريده في أفينيون، وكان هو يريد ولا يريد الذهاب إلى هناك. ولقاء اليوم المُوالي كان يجب أن يقرر ظروف وضمانات سفرة لا ينبغي أن تظهر بمظهر الخضوع ولا أن تظهر بمظهر التحدّي. لا أظن أن ميكيلي كان قد لاقى شخصياً جيوفاني، على الأقل منذ أن أصبح بابا. وعلى كل حال لم يكن قد رآه منذ عهد بعيد، فكان رفقاؤه يرسمون له، بألوان قاتمة، صورة ذلك البابا السيموني. وكان غوليالمو يقول له: «يجب أن تعرف شيئاً، أن لا تثق بأَيْمانه، لأنه يحترمها دائماً لفظياً وينتهكها جوهرياً».

بينما كان أوبارتينو يقول له: «الجميع يعرفون ماذا حدث زمن انتخابه...»

فقاطعه أحد الجالسين إلى المائدة، سمعتهم يدعونه أوغو دا نوفوكاسترو، وكانت لهجته قريبة من لهجة أستاذي: «إنني لا أسميه انتخاباً، بل إلزاماً، قبل كلّ شيء، إن موت كليمنتس نفسه لم يكن واضحاً جداً. ولم يغفر له الملك قط وعوده بمحاكمة ذكرى بونيفاسيو الثامن كما لم يغفر له من بعد ما بذله من جهد حتى لا يتنكّر لسابقه. لا أحد يعرف جيداً كيف مات في كاربنتراس. على كلّ عندما اجتمع الكرادلة في كاربنتراس لانتخاب البابا، لم يظهر من بينهم البابا الجديد، لأن النقاش تحوّل (وذلك ما كان واجباً) إلى الاختيار بين روما وأفينيون. «لا أعرف جيداً ماذا حدث في تلك الأيام، كانت مجزرة فيما قالوا لي، وقد هدد

Twitter: @ketab_n

حفيد البابا المتوفى الكرادلة، واغْتِيل خدمهم، وأحرق القصر، واستغاث الكرادلة بالملك، فقال هذا الأخير إنه لم يرد قط أن يهجر البابا روما، وطلب منهم أن يتحلّوا بالصبر وأن يحسنوا الاختيار... ثم مات فيليب الجميل، هو أيضاً، ويعلم اللّه كيف مات».

فقال أوبارتينو «أو يعلم الشيطان كيف» ثم رسم علامة الصليب وحاكاه الجميع.

ووافقه أوغو بضحكة استهزاء «أو يعرف الشيطان كيف، على كل خلفه ملك آخر بقي ثمانية عشر شهراً ثم مات، ومات أيضاً بعد بضعة أيام ولي عهده المولود حديثاً، وأخذ المُلكَ أخوه الذي كان وصيّاً على العرش..».

فقال ميكيلي: «الذي هو بالذات فيليب الخامس. هذا الذي، كان لا يزال كونتاً في بواتييه، أعاد شمل الكرادلة الفارّين من كاربنتراس».

وتابع أوغو: «فعلاً، يجمعهم في مجمع انتخاب في ليون في دير الدومينيكان، مُقَسِّماً أن يصون سلامتهم وأن لا يسجنهم. ولكن ما إن سَلَّمَ هؤلاء أنفسهم إليه حتى أغلق الأبواب (وكان صائباً في ذلك) ولكن لم يَكْفِهِ ذلك وأخذ ينقص لهم الأكل يوماً بعد يوم ما لم يتخذوا قراراً. وكان يعد كلاًّ منهم بأن يسانده في تطلعه إلى العتبة البابوية، وعندما جلس على العرش وبعد أن تعب هؤلاء من سَجْن دام عامين، خائفين أن يبقوا هناك طوال حياتهم يأكلون طعاماً رديئاً جداً، قَبِلَ النَّهِمُون كلّ شيء ووضعوا فوق كرسي بطرس ذلك القزم الذي يتجاوز سِنُّه السبعين عاماً...»

فضحك أوبارتينو قائلاً «صحيح قزم، وله مظهر مسلول، ولكنه أصحّ وأدهى مما يظنّونه!»

فغمغم أحد أعضاء القصادة: «ابن إسكافي».

ولامه أوبارتينو بشدة قائلاً: «كان المسيح ابن نجّار! ولكن ليس هذا هو الأمر. إنه رجل مُثقَّف درس القانون في مونبولييه والطب في باريس، وعرف كيف يقيم صداقاته بالطريقة التي تُمكنه من الحصول على المناصب الأسقفية وعلى القلنسوة الكردلية عندما كان يرى ذلك صالحاً. وعندما كان مستشار روبارتو

Twitter: @ketab_n

الحكيم في نابولي أذهل الكثيرين بذكائه. وعندما كان أسقف أفينيون أعطى كل النصائح الصائبة (أقول صائبة لأهداف تلك العملية الدنيئة) إلى فيليب الجميل لإبادة الهيكليين. وبعد الانتخاب استطاع النجاة من مُؤامرة دبرها الكرادلة لقتله... ولكن ليس هذا ما كنت أريد قوله، كنت أتحدث عن مهارته في حنث ما يقسم عليه دون أن يمكن اتّهامه بالحنث. عندما انتُخب، وكي يُنتخَب وعد الكاردينال أورسيني بإعادة كرسي البابوية إلى روما، وحلف على القربان المقدس أنه لو أخلف وعده فلن يركب أبداً جواداً أو بغلاً. أتعرفون ماذا فعل ذلك الثعلب؟ عندما لبس التاج في ليون (ضد إرادة الملك الذي كان يريد أن تقام المراسم في أفينيون) سافر بعد ذلك من ليون إلى أفينيون على زورق!».

فضحك كلّ الرُّهبان. لقد كان البابا حانثاً ولكن لا يمكن أن ننكر أنه كان على شيء من الذكاء.

وعلّق غوليالمو قائلاً: «إنه قليل الحياء. ألم يقل أوغو إنه لم يحاول حتى إخفاء سوء نيته؟ ألم تقصّ لي أنت، يا أوبارتينو ماذا قال لأورسيني يوم وصوله إلى أفينيون؟»

فقال أوبارتينو: «أكيد. لقد قال له إن سماء فرنسا هي من الروعة بحيث لا يرى لماذا يضع قدميه في مدينة مليئة بالخرب مثل روما. وقال له بما أن البابا كبطرس، له سلطة الحل والعقد، فالآن هو يمارس تلك السلطة، وله هو أن يقرر البقاء حيث هو وحيث يجد نفسه في أحسن حال. وعندما ذكره أورسيني أن واجبه يحتم عليه العيش فوق هضبة الفاتيكان، أمره بجفاء بالطاعة ووضع حداً للنقاش. ولكن قصة القسم لم تنتهِ. عندما نزل من الزورق كان ينبغي أن يمتطي بغلة بيضاء يتبعه الكرادلة فوق خيول سوداء، كما تقضي العادة. ولكنه، على العكس، ذهب إلى القصر الأسقفي على قدميه. وما سمعت أنه ركب بعد ذلك قط جواداً. وتنتظر من هذا الرجل، يا ميكيلي، أن يحترم الضمانات التي سيعطيها لك؟»

بقي ميكيلي طويلاً صامتاً ثم قال: «أستطيع أن أفهم رغبة البابا في البقاء بأفينيون، ولا أناقش ذلك. ولكن لا يمكنه مناقشة رغبتنا في الفقر وتأويلنا لمثال المسيح».

Twitter: @ketab_n

فتدخل غوليالمو قائلاً: «لا تكن ساذجاً يا ميكيلي، رغبتكم، ورغبتنا، تظهر رغبته هو تحت ضوء قاتم. يجب أن تعرف أنه منذ قرون لم يصعد قط فوق كرسي البابوية رجل أكثر طمعاً. إن بغايا بابل اللواتي كان يدمدم ضدّهن صديقنا أوبارتينو، والأحبار الفاجرين الذين تحدّث عنهم شعراء بلادك مثل ذلك الشاعر أليغييري هم حملان وديعة وقنوعة إذا ما قارناهم بجيوفاني. إنه عقعق سارق ومُرابٍ يهودي. في أفينيون تمارس التجارة أكثر مما يقع في فلورنسا! لقد علمت بالمساومة الخسيسة مع حفيد كليمنتس، بارتران دي غوث، ذلك الذي قام بمجزرة كاربنتراس (وقد حدث فيها من جملة ما حدث سلب الكرادلة مجوهراتهم). لقد وضع هذا الأخير يده على كنز عمه، الذي لم يكن بالشيء القليل، ولم يَخفَ على جيوفاني أي شيء مما كان قد سرقه (في المرسوم البابوي «Cum venerabiles» عدّ بدقّة النقود والأوعية الفضية والذهبية والكتب والزرابي والأحجار الثمينة والحليّ...) ولكن جيوفاني تظاهر بأنه يجهل أن بارتران حصل على أكثر من مليون ونصف من الفلورينات الذهبية خلال نهب كاربنتراس، وناقشه بخصوص ثلاثين ألفاً من الفلورينات الأخرى اعترف بارتران أنه تَسلّمها من عمّه للقيام بمهمة «ورعة» أي بحرب صليبية. ووقع الاتفاق بأن يحتفظ بارتران بنصف المبلغ للصليبية وأن يذهب النصف الآخر إلى كرسي البابوية. ولكن بارتران لم يقم قط بالصليبية أو على الأقل لم يقم بها إلى الآن، ولم يرَ البابا ولو فلوريناً واحداً...»

فعقب ميكيلي مُلاحظاً: «ليس هو إذن بالذكاء الذي يقولونه عنه».

وأجاب أوبارتينو: «لقد كانت المرة الوحيدة التي خسر فيها لعبة تخص المال. يجب أن تعرف مع أي نوع من التجار ستتعامل. في كل الحالات الأخرى أظهر مهارة شيطانية في جمع الأموال. إنه الملك ميداس، ما يلمسه يصير ذهباً يتدفق إلى صناديق أفينيون. ما دخلت مرة إلى شققه إلاّ ووجدت عنده مُموّلين وصيارفة وطاولات محملة بالذهب وقساوسة يحسبون ويكدسون الفلورينات الواحدة فوق الأخرى... وسترى أي قصر صنع لنفسه، ببذخ كان ينسب في الماضي فقط لإمبراطور بيزنطة أو للخان الأكبر التتري. والآن تفهم لماذا أصدر كل تلك المراسيم ضدّ فكرة الفقر. أتعرف أنه، لشدة كرهه لنظامنا، أجبر

Twitter: @ketab_n

الدومينيكان على صنع أصنام لمسيح يحمل التاج الملكي وحلة من الأرجوان والذهب وأحذية فخمة؟ لقد علّقت في أفينيون صلبان تحمل عيسى وقد دُقّ مسمار في يد واحدة بينما كانت اليد الأخرى تلمس كيساً معلقاً في حزامه، بمعنى أنه يسمح باستخدام الأموال لأغراض دينية..».

فصاح ميكيلي: «يا لقلة حيائه! ولكن هذا هو التجديف بعينه!»

وتابع غوليالمو: «لقد أضاف تاجاً ثالثاً للتاج البابوي، أليس كذلك يا أوبارتينو!»

ـ «أكيد في بداية الألف عام اتخذ البابا ألديبراندو تاجاً، كتب عليه «تاج الملك من يد الإله» وأضاف بونيفاسيو اللئيم منذ عهد قريب تاجاً ثانياً كتب فوقه «إكليل السيادة من يد بطرس» وما كان من جيوفاني إلاّ أن أكمل الرمز: ثلاثة تيجان، السلطة الروحية السلطة الزمنية والسلطة الإكليريكية، إنه رمز ملوك فارس، رمز وثني...»

كان هناك راهب بقي إلى ذلك الحين صامتاً، منشغلاً بورع كبير في التهام الطعام الطيب الذي أمر رئيس الدير بحمله إلى المائدة. كان يصغي بأذن شاردة إلى الأحاديث المُختلفة، مصدراً من حين لآخر ضحكة ساخرة تجاه البابا أو غمغمة تأييد لتعابير السخط المتأتية من الجالسين إلى المائدة. وما عدا ذلك كان مهتماً بمسح ذقنه من المَرَق ومن قطع اللحم التي كانت تسقط من فمه النَّهِم، رغم خلوّه من الأسنان، والمرات الوحيدة التي تحدّث فيها إلى أحد مجاوريه كانت للتنويه ببعض المأكولات اللذيذة. عرفت من بعد أنه كان السيد جيرولامو، أسقف قِيافا، ذلك الذي كان أوبارتينو يظنه، قبل بضعة أيام، قد مات (ويجب أن أقول إن فكرة موته منذ عامين قد جالت كنبأ صحيح عبر كل العالم المسيحي ولوقت طويل، لأنني سمعتها حتى بعد ذلك. وفعلاً مات بعد بضعة أشهر من لقائنا ولا أزال أعتقد أنه مات بسبب الغضب الكبير الذي تملكه أثناء اجتماع اليوم التالي، حتى إنني كدت أظنه سينفلق على الفور، لما كان عليه من ضعف الجسم وشدة الانفعال).

Twitter: @ketab_n

تدخل عند ذلك الحد في المُناقشة بفم مليء: «ثم أتعلمون أن ذلك اللئيم قد أعد قانوناً حول «الرسوم المقدّسة لمنح الغفران» حيث يتاجر بخطايا رجال الدين لابتزاز أموال أخرى. إذا ما ارتكب رجل كنيسة خطيئة الجنس، مع راهبة أو مع قريبة أو حتى مع امرأة مهما كانت (لأن ذلك يحدث أيضاً!) فلن يتمكن من الحصول على الصفح ما لم يدفع سبعاً وسبعين ليرة ذهبية واثني عشر فلساً. أمّا إذا اقترف خطيئة بهيمية فتصير أكثر من مائتي ليرة، ولكنه إذا ما ارتكبها مع طفل أو مع حيوان، لا مع امرأة، فتخفض الغرامة بمقدار مائة ليرة. والراهبة التي تبيح جسدها لرجال كثيرين، سواء كانوا معاً أو في أوقات مُختلفة، داخل الدير أو خارجه، ثم تريد أن تصبح بعد ذلك رئيسة دير، ينبغي عليها أن تدفع مائة وواحدة وثلاثين ليرة ذهبية وخمسة عشر فلساً..».

فاحتج أوبارتينو قائلاً: «هلمّ يا سيّد جيرولامو، إنك تعرف قلة حبي للبابا، ولكن في هذا يجب أن أدافع عنه! إنها تهمة كاذبة أذاعها بعضهم في أفينيون، إني لم أرَ قط هذا القانون!»

فأكد جيرولامو بحدّة: «إنه موجود. أنا أيضاً لم أرَه، لكنه موجود».

فهزّ السيّد رأسه وصمت الآخرون. وفهمت أنهم كانوا متعوّدين على أن لا يحملوا ما يقوله السيّد جيرولامو محمل الجد، وهو الذي سمّاه غوليالمو في يوم سابق غبياً. على كل حاول غوليالمو أن يستأنف الحوار وقال: «على كل حال، حقيقياً كان أم زائفاً، هذا ما يعطينا فكرة عن الجوّ المعنوي الذي يخيم على أفينيون، حيث يعرف الجميع، المستغِلّون والمستغَلّون أنهم يعيشون في سوق أكثر مما هو بلاط ممثل المسيح. عندما ارتقى جيوفاني الكرسي كان يتحدث عن كنز يساوي سبعين ألفاً من الفلورينات الذهبية، والآن هناك من يقول إنه جمع ما يزيد عن عشرة ملايين».

فقال أوبارتينو: «هذا صحيح، ميكيلي، ميكيلي، لا يمكنك أن تتصوّر الأشياء المُخزية التي رأيتُها في أفينيون».

فأجاب ميكيلي: «لنحاول أن نكون منصفين. نحن نعرف أنه حتى إخواننا

Twitter: @ketab_n

ارتكبوا تجاوزات. لقد وصلتني أخبار عن فرانشسكانيين يهاجمون بالسلاح أديرة دومينيكية ويُجرّدون رُهبانها من أثوابهم ويفرضون عليهم الفقر... لذلك لم أجرؤ على معارضة جيوفاني زمن أحداث بروفانسا... أريد أن أصل إلى اتفاق معه، لن أذل كبرياءه، سأطلب منه أن لا يذل خشوعنا. لن أحدثه عن المال، سأسأله فقط أن يقبل تأويلاً سليماً للكتابات. وهذا ما ينبغي أن نفعل مع مبعوثيه، غداً. إنهم في نهاية الأمر رجال لاهوت، ولن يكونوا كلهم جشعين كجيوفاني. وعندما يأخذ رجال حكماء قرارات تخصّ تأويل الكتابات فلن يمكنه..».

فقاطعه أوبارتينو: «هو؟ بل أنت لا تعرف خبله في الميدان اللاهوتي. إنه يريد فعلاً أن يربط كل شيء بيده، في السماء وعلى الأرض. لقد رأينا ماذا فعل على الأرض. أما في السماء... الحال هو، أنه لم يصرّح بالأفكار التي أذكرها، على الأقل ليس علناً، ولكني أعرف بالتأكيد أنه همس بها إلى بعض ثقاته. إنه بصدد إعداد بعض المقترحات الجنونية، إن لم نقل المُنحرفة، والتي ستغير جوهر المذهب نفسه وتفرغ خطبنا الوعظية من كل قوّة وفعالية».

فسأله كثيرون: «ما هي؟»

ـ «اسألوا برينغاريو، فهو يعرف، لقد قال لي هو ذلك». ـ وأشار إلى برينغاريو تالّوني، الذي كان في السنوات السابقة أحد خصوم البابا الأكثر عزماً في بلاطه. كان آتياً من أفينيون والتحق منذ يومين بجماعة الفرانشسكانيّين الآخرين ووصل معهم إلى الدير.

فقال برينغاريو: «إنها قصة غامضة، لا تكاد تصدق. يبدو أن جيوفاني ينطوي على فكرة أن الصالحين لن ينعموا بالرؤية الطوباوية إلاّ بعد يوم القيامة. وهو منذ زمن طويل يتأمل في البيت التاسع من الباب السادس للرؤيا، وفيه يذكر فك الختم الخامس: حيث يظهر تحت المذبح أولئك الذين قتلوا ليشهدوا بكلمة الرب ويطلبوا الإنصاف. وإلى كل منهم يُعطى ثوب أبيض ويطلب منهم أن يصبروا قليلاً... وهذا، بحسب استنتاج جيوفاني، دليل على أنّه لن يمكنهم رؤية الرب في جوهره إلاّ عند اكتمال يوم الحساب».

Twitter: @ketab_n

فسأله ميكيلي ذاهلاً: «ولكن لمن قال هذه الأشياء؟»

ـ «إلى حد الآن لبعض ثقاته، ولكن الخبر ذاع، ويقال إنه يُعِدّ مداخلة مفتوحة». فضحك جيرولامو بسخرية وهو يمضغ «ها، ها».

ـ «ولا يكفي هذا، يبدو أنه يريد أن يذهب إلى أبعد من ذلك مؤكداً أن الجحيم أيضاً لن يُفتح قبل ذلك اليوم... حتى للأبالسة».

فصاح جيرولامو: «ليكن سيدنا عيسى في عوننا. وماذا سنقول للمذنبين إن لم نُهدّدهم بجحيم فوري، حالاً بعد الموت!»

وقال أوبارتينو «إننا في قبضة مجنون. ولكني لا أفهم لماذا يريد تأكيد كل هذه الأشياء..».

فقال جيرولامو متشكياً «إن مذهب الصفح كله يتلاشى كالبخار، وهو لا يمكنه الاتّجار به. لماذا يدفع راهب ارتكب خطيئة بهيمية كل تلك الليرات الذهبية لتفادي عقاب بعيد الأمد؟»

فقال أوبارتينو بقوة: «ليس بالبُعْد الذي تعتقده، فالآجال قريبة!» ـ فصاح جيرولامو الذي يبدو أنه لم يعد يلتذ بالأطعمة الموجودة أمامه: «أنت تعرف ذلك أيها الأخ العزيز، ولكن البُسَطاء لا يعرفون. يا للفكرة الفاسدة، قد يكون أوحى بها إليه أولئك الرُّهبان المبشرون... آه!»، ثم هزّ رأسه بينما ردد ميكيلي دا تشيزينا «ولكن لماذا؟»

فقال غوليالمو «لا أظن أن هناك سبباً. إنه دليل على أنه فعل ذلك ليرضي غروره. يريد أن يكون حقيقة هو صاحب الحل والربط في الأمور السماوية والأرضية. كنت على علم بهذه الشائعات، لقد كتب إليّ في ذلك غوليالمو دا أوكّام. سنرى في النهاية من سينتصر، البابا أم علماء اللاهوت وصوت الكنيسة كلّها ورغبات شعب الرب والأساقفة».

فقال ميكيلي بحزن: «أوه، في المسائل المذهبية يقدر أن يحني حتى رؤوس علماء اللاهوت».

فأجاب غوليالمو: «ليس بالضرورة. إننا نعيش في عصر لا يهاب فيه العلماء

Twitter: @ketab_n

في الأمور الدينية التصريح بأن البابا هرطيق. وعلماء الأمور الدينية هم بطريقة ما صوت الأمة المسيحية. ولن يقدر البابا أبداً أن يقف ضدها».

فهمس ميكيلي مُروّعاً: «من سيىءٍ إلى أسوأ. من جهة بابا مجنون، ومن جهة أخرى شعب الرب، ولو على لسان علمائه في اللاهوت، سيدّعي مستقبلاً تأويل الكتابات بحرّية. .».

فسأله غوليالمو: «لماذا؟ وماذا فعلتم أنتم في مجمع بيروجيا؟»

واهتزّ ميكيلي وكأنه لُدغ في موضع حساس: «ولذا أريد مقابلة البابا، إننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً دون موافقته».

وردّ غوليالمو بنبرة غامضة: «سنرى، سنرى».

لقد كان أستاذي حقيقة ثاقباً. كيف كان بإمكانه أن يتوقع بأن ميكيلي نفسه سيقرر فيما بعد الاستعانة بعلماء اللاهوت الإمبراطوريين وبالشعب لإدانة البابا؟ كيف كان بإمكانه أن يتوقع أنه، بعد أربع سنوات من ذلك وبعد أن أعلن جيوفاني للمرّة الأولى فكرته المُذهلة، ستقع انتفاضة للمسيحية بأسرها؟ لو تأخرت الرؤية الطوباوية كل ذلك التأخير كيف يمكن للموتى أن يتوسطوا للأحياء؟ وماذا سيكون مآل عبادة القديسين. وسيكون الفرانشسكانيّون بالذات هم الذين سيبدأون المناهضة مَدِينين البابا وفي مُقَدِّمَتهم سيكون غوليالمو دا أوكّام، صارماً، لا يلين في حججه. وسيدوم الصراع ثلاث سنوات إلى أن يقوم جيوفاني، وقد قرب من الموت، بتكفير جزئي. وسمعتهم يصفونه، بعد أعوام، كيف ظهر في مجلس الكرادلة في كانون الأول/ ديسمبر 1334، أصغر حجماً مما كان عليه أبداً إلى ذلك الحين وقد أيبسته السنون، مناهزاً التسعين ومُحْتَضَراً، شاحب الوجه وقال (وكان كالثعلب يتلاعب بالكلمات، لا ليحنث في أيمانه فحسب ولكن ليرتد أيضاً عن أفكاره العنيدة): «إننا نعترف ونعتقد أن الأرواح المنفصلة عن الأجساد والمطهرة تماماً تصعد إلى السماء، إلى الفردوس مع الملائكة، ومع عيسى المسيح، وأنها ترى الرب في جوهره الرباني، بوضوح ووجهاً لوجه. .». ثم سكت بعض الوقت، ولا يدري أحد إن كان لصعوبة التنفس أو لإرادته الضالة لإبراز الفقرة

Twitter: @ketab_n

الأخيرة كاعتراض، مضيفاً «بالقدر الذي تسمح به حالة وظروف الروح المُنفصلة عن الجسد». وفي الصباح المُوالي وكان يوم أحد، طلب أن يمدّدوه فوق كرسي طويل، محني الظهر وتَسلَّم قبلة اليد من كرادلته ومات.

ولكنني أخرج من جديد عن الموضوع، وأقصّ غير ما يجب عليّ روايته. وذلك لأن بقية الأحاديث على المائدة كانت لا تضيف في الحقيقة شيئاً كثيراً لفهم الأحاديث التي أرويها. واتفق إذن الفرانشسكانيّون على السلوك الذي سيسلكونه في اليوم التالي. وقوّموا منافسيهم واحداً واحداً، معلّقين بانشغال على النبأ الذي أُخبر به غوليالمو عن قدوم برناردو غي، وأكثر منه على أن رئيس القصادة البابوية سيكون الكاردينال دل بودجيتو. محققان اثنان، هذا كثير، ويدلّ على وجود نية استعمال حجة الهرطقة ضد الفرانشسكانيّين.

وقال غوليالمو: «ليكن، ونحن أيضاً سنصفهم بأنهم هراطقة».

فقال ميكيلي: «لا، لا، لنتصرّف بحذر، لا ينبغي أن نجازف بتضييع أي اتفاق محتمل».

فقال غوليالمو: «إنني بحسب ما يقدر عليه فهمي، ورغم أني سعيت لتحقيق هذا اللقاء، وأنت تعرف ذلك يا ميكيلي، فلا أظن أن الأفينيونيين قادمون إلى هنا للخروج بأية نتيجة إيجابية. جيوفاني يريدك وحدك في أفينيون ودون ضمانات. ولكن هذا اللقاء سيصلح على الأقل لشيء، وهو أن يُفهمك ذلك. ولو ذهبت إليه دون أن تكون لك هذه التجربة لكان الأمر أدهى».

فأجاب ميكيلي بمرارة: «وهكذا بذلت ما في وسعك مدّة شهور عديدة، لتحقيق شيء تعتقد أنه بلا جدوى».

فقال غوليالمو: «لقد طلبوا مني ذلك. طلبته مني أنت وطلبه مني الإمبراطور. وأخيراً، ليس أبداً دون فائدة أن يعرف المرء خصومه أكثر».

وعند ذلك الحد جاء أحدهم لإعلامنا بأن القصادة الثانية قد وصلت. فنهض الفرانشسكانيّون وذهبوا لاستقبال رجال البابا.

Twitter: @ketab_n

اليَوم الرّابع: تاسعة

وفيه يصل الكاردينال دِل بودجيتو، وبرناردو غي ورجال أفينيون الآخرون، ثم يقوم كل واحد بأشياء مُختلفة

رجال يعرف بعضهم بعضاً منذ زمن، ورجال دون سابق معرفة عن بعضهم بعضاً كانوا يتبادلون التحية في الساحة، ظاهرياً بوداعة. كان الكاردينال دِل بودجيتو يتحرّك بجانب رئيس الدير كمن له إلف بالسلطان، كما لو كان هو نفسه بابا ثانياً، موزّعاً على الجميع، وخاصة على الفرانشسكانيّين ابتسامات أخوية، راجياً حصول اتفاقات رائعة من لقاء اليوم التالي، ومبلغاً أدعية جيوفاني الثاني والعشرين بالسلام والخير (واستعمل قصداً هذه العبارة الأثيرة عند الفرانشسكانيّين).

وعندما تفضل غوليالمو بتقديمي إليه كتلميذه وككاتبه قال لي «أحسنت، أحسنت،» وسألني إن كنت أعرف بولونيا وأثنى على جمالها وعلى أكلها الطيب وعلى جامعتها الرائعة ودعاني إلى زيارتها عوضاً عن العودة يوماً، كما قال، بين قومي الألمان الذين كانوا يؤلمون بذلك الشكل سيدنا البابا. ثمّ مد إليّ الخاتم لتقبيله بينما كانت ابتسامته اتجهت إلى آخر.

ومن جهة أخرى اتجه انتباهي حالاً إلى الشخص الذي سمعت عنه أكثر خلال تلك الأيام: برناردو غي، كما يُسَمِّيه الفرنسيون، أو برناردو غويدوني أو برناردو غويدو كما يسمّونه في بقاع أخرى.

كان دومينيكياً يناهز السبعين، نحيفاً ولكن مستقيم الهيئة. وراعتني عيناه الرماديتان، الباردتان، والقادرتان على التحديق فيك دون تعبير، واللتان رأيتهما في كثير من الأحيان تلمعان على العكس بوميض غامض، وكان بارعاً سواء في إخفاء

Twitter: @ketab_n

أفكاره وعواطفه أو في التعبير عنها قصداً. وفي التبادل العام للتحيات لم يكن كالآخرين ودوداً أو أخوياً، بل دائماً في حدود اللياقة فحسب. وعندما رأى أوبارتينو، الذي كان يعرفه، كان معه مؤدباً ولكنه حدّق فيه بطريقة جعلتني أشعر بارتعاشة قلق. وعندما حيّا ميكيلي دا تشيزينا بدت عليه ابتسامة يصعب تفسيرها وهمس دون حرارة: «إنهم ينتظرونك هناك منذ وقت طويل».

ولم أتمكن من أن ألمس في تلك الجملة لمحة انشغال أو ظل سخرية، أو إصدار أمر ولا حتى نبرة اهتمام. وتلاقى مع غوليالمو، وعندما عرف من هو نظر إليه بضغينة مؤدبة. وليس لأن وجهه نمّ عن مشاعره الخفية ـ كنت متأكداً من ذلك (حتى وإن كنت متشككاً في إن كانت له قط مشاعر مهما كان نوعها)، ولكنه كان دون شك يريد أن يحسّ غوليالمو بتلك الضغينة. وبادله غوليالمو العداوة مفرطاً في المودة، قائلاً له «كنت أود منذ زمن أن أعرف الرجل الذي كانت شهرته بالنسبة إليّ درساً وتحذيراً في الكثير من القرارات الهامة التي ألهمت حياتي». وكانت تبدو دون شك جملة إطراء تكاد تكون تملُّقية لمن كان لا يعرف، بينما كان برناردو على العكس يعرف، أن من أهم القرارات التي اتخذها غوليالمو في حياته هي تركه لمهنة المحقق، وخيّل إليّ أنه إذا كان غوليالمو يود رؤية برناردو في أحد السجون الإمبراطورية فإن برناردو كان يرى بعين الرضى أن تخطف الأخ غوليالمو موتة مباغتة وفورية. وبما أنه كان تحت أوامر برناردو رجال سلاح في تلك الأيام، فقد خِفت على حياة أستاذي الطيب.

وكان برناردو قد علم عن طريق رئيس الدير بالجرائم المرتكبة في الدير. وفعلاً تظاهر بعدم فهم ما في جملة غوليالمو من خبث وقال له: «يبدو أنه في هذه الأيام، بأمر من رئيس الدير، وكي أقوم بالمهمة التي عُهدت إليّ في نطاق الاتفاق الذي يجمعنا هنا، ينبغي عليّ أن أهتم بأحداث مفجعة تشتم من ورائها رائحة الشيطان النتنة. وأقول لك ذلك لأني أعرف أنك في أوقات بعيدة، حيث كان بإمكانك أنت أيضاً أن تكون قريباً مني، إلى جانبي، وإلى جانب أمثالي، كنت قد كافحت في ذلك الميدان الذي كانت فيالق الخير تواجه فيه فيالق الشرّ».

فقال غوليالمو بهدوء: «فعلاً، ولكنني مررت بعد ذلك إلى الشق الآخر».

Twitter: @ketab_n

فتقبل برناردو تلك الضربة ببراعة وقال: «أيمكنك أن تقول لي شيئاً مفيداً حول هذه الأحداث الإجرامية؟»

فأجاب غوليالمو بأدب: «لسوء الحظ، لا. ليست لي تجربتك في الأشياء الإجرامية».

ومنذ ذلك الحين إلى ما بعد فقدت آثار كل منهما. بعد محادثة أخرى مع ميكيلي وأوبارتينو اختلى غوليالمو بنفسه في قاعة الكتابة، وطلب من مَلاخي أن يطالع بعض الكتب، لم أتمكن من سماع عناوينها. ونظر إليه مَلاخي بصفة غريبة ولكنه لم يقدر على منعه منها، والغريب في الأمر أنها لم تستوجب جلبها من المكتبة، كانت كلها فوق طاولة فينانتسيو. وغرق أستاذي في القراءة فقررت أن لا أزعجه.

نزلت إلى المطبخ. وهناك رأيت برناردو غي. ربما كان يريد أخذ فكرة عن حياة الدير وأخذ يطوف في كل مكان. وسمعته يستنطق الطباخين وخدماً آخرين، متكلماً ما أمكنه بلهجة تلك الجهة (وتذكرت أنه كان فيما مضى محقّقاً في إيطاليا الشمالية). وخيّل إليّ أنه كان يطلب معلومات حول المحاصيل وحول تنظيم العمل في الدير. ولكن حتى عندما كان يلقي الأسئلة الأكثر براءة فقد كان ينظر إلى محدّثه بعينين ثاقبتين، ثم يُلقي فجأة سؤالاً جديداً وعند ذلك يشحب وجه ضحيته ويتلعثم. واستنتجت أنه كان يحقق، بطريقة من الطرق فريدةٍ من نوعها. وكان يستعمل سلاحاً رهيباً، يملكه كل محقق عند القيام بمهامه ويستعمله وهو خوف الآخرين. لأنه في العادة كل معنيّ بالتحقيق، خشية أن يُشتبه فيه، يقول للمحقق ما يمكن أن يلقي بالشبهة على شخص آخر.

وطوال بقية العشية، وأينما ذهبت، رأيت برناردو يفعل ذلك، إما قرب الطواحين أو في الرواق. ولكنه لم يواجه قط أو نادراً الرُّهبان، وإنما كان دائماً يسأل الإخوان العَوام أو الفلاحين. عكس ما فعل غوليالمو إلى ذلك الحين.

Twitter: @ketab_n

اليَوم الرّابع: صلاة السّتار

وفيه يبدو أن أليناردو يعطي معلومات ثمينة، ويكشف غوليالمو عن منهجه للوصول إلى حقيقة محتملة من خلال سلسلة من الأخطاء المؤكدة

بعد قليل نزل غوليالمو من قاعة الكتابة وهو بشوش. وبينما كنا ننتظر ساعة العشاء وجدنا في الرواق أليناردو. وبما أني تذكرت طلبه كنت قد أخذت معي منذ اليوم الفارط قليلاً من الحمّص من المطبخ وأعطيته له. فشكرني ودسّه في فمه الخالي من الأسنان والمَليء باللُّعاب ثم قال لي: «أرأيت أيها الصبي، الجثة الأخرى كانت هي أيضاً في الموضع الذي أنبأ به الكتاب... انتظر الآن البوق الرابع!»

فسألته ما الذي جعله يظن أن مفتاح سلسلة الجرائم يوجد في كتاب التنزيل. فنظر إليّ بدهشة قائلاً: «إن كتاب يوحنا هو مفتاح كل شيء!» وأضاف بتكشيرة شنعاء «لقد كنت أعرف ذلك، وكنت أقول ذلك منذ زمن طويل... لقد كنت أنا، أتعرف ذلك، الذي عَرَضَ على رئيس الدير... رئيس الدير في ذلك الوقت، أن يجمع أكثر ما يمكن من تفاسير كتاب الرؤيا. كنت سأصبح أنا حافظ المكتبة... ولكن الآخر تمكن من الحصول على ترخيص بالذهاب إلى سيلوس، حيث وجد أجمل المخطوطات وعاد بغنيمة رائعة... آه، لقد كان يعرف أين يجب أن يبحث، وكان يتكلم لغة الكافرين... وهكذا تحصَّل هو على مهمة حِفْظ المكتبة، لا أنا. ولكن الرّب عاقبه وأدخله قبل الأوان إلى عالم الظلمات، ها، ها..». وضحك ضحكة شريرة، ذلك الشيخ الذي بدا لي إلى ذلك الحين غارقاً في سلام شيخوخته، كأنه طفل بريء. فسأله غوليالمو: «من ذلك الذي تتحدث عنه؟»

فنظر إلينا بدهشة مجيباً: «عمّن كنت أتحدث؟ لا أذكر... كان ذلك منذ

Twitter: @ketab_n

زمن بعيد. ولكن الرب يعاقب. الرب يمحو، الرب ينزل الظلام حتى على الذاكرة. لقد ارتُكب في المكتبة الكثير من الأعمال التي تنمّ عن الكبرياء. خاصة عندما سقطت بين أيدي الأجانب. الرب لا يزال يعاقب..»..

ولم يكن بإمكاننا أن ننتزع منه كلمات أخرى فتركناه لهذيانه الهادىء والمشحون بالحقد. بينما قال غوليالمو إنه وجد ذلك الحوار هاماً «يجب أن نستمع إلى ما يقوله أليناردو. مَا تكلّم إلاّ وقال شيئاً هاماً».

ـ «وماذا قال هذه المرّة؟»

فأجاب غوليالمو: «أدسو، إن حلّ لغز غامض ليس كاستنتاج من علل أولى. ولا يعادل حتى جمع عدة معطيات معينة ثم الخروج منها بقاعدة عامة. بل يعني بالأحرى أننا نجد أنفسنا أمام معلومة أو معلومتين أو ثلاث معلومات معينة لا شيء البتة يجمع بينها في الظاهر، ونحاول تصوّر أنها يمكن أن تكون حالات متعددة لقاعدة عامة لا نعرفها وربما لم تُبيّن قط. أكيد أنك لو عرفت ـ كما يقول الفيلسوف ـ أن الانسان والحصان والبغل جميعاً لا مِرّة لهم ويعيشون طويلاً، أمكنك أن تحاول وضع مبدأ أن الحيوانات التي ليست لها مِرّة تعيش طويلاً. ولكن تصوّر حالة الحيوانات التي لها قرون. لماذا تملك قروناً؟ وتتفطّن فجأة إلى أن كل الحيوانات التي تملك قروناً لا تملك أسناناً في الفك الأعلى. يكون اكتشافاً عظيماً إذا لم تتفطّن، واأسفاه، إلى أن هناك حيوانات دون أسنان في الفك الأعلى ومع ذلك ليست لها قرون، كالجمل. وأخيراً تتفطّن إلى أن كل الحيوانات التي لا تملك أسناناً في الفك الأعلى تملك معدتين. حسن، يمكنك أن تتصور أن من لا يملك أسناناً كافية لا يمضغ جيداً وتلزمه إذن مَعْدَتان لهضم الأكل هضماً جيداً. ولكنْ القرنين؟ تحاول إذن أن تتصور علّة مادية للقرنين، وهي أن انعدام الأسنان يمنح الحيوان طفحاً عظمياً ينبغي أن يبرز في مكان ما من الجسم. ولكن هل هو تفسير كافٍ؟ كلاّ، لأن الجمل لا يملك أسناناً عُليا، وله معدتان، ولا يملك قرنين. وإذن ينبغي أن تتصور علّة نهائية، أن المادة العظمية تبرز في شكل قرون فقط عند الحيوانات التي لا تملك وسائل دفاعية. بينما الجمل له جلد قويّ جداً ولا حاجة له بالقرون. إذن يمكن أن تكون القاعدة...».

Twitter: @ketab_n

فقاطعته وقد نفد صبري: «ولكن ما دخل القرون؟ ولماذا تهتم بالحيوانات التي لها قرون؟»

ـ «إنني لم أهتمّ بها قط، ولكن أسقف لنكولن اهتمّ بها كثيراً، متتبعاً فكرة لأرسطو. بصراحة، لا أعرف إن كانت الحُجَج التي وجدها هي الصحيحة، كما لم أتحقق قط أين يملك الجمل أسناناً، وكم معدة له، ولكن كل هذا لأقول لك إن البحث عن القواعد التفسيرية، في الأشياء الطبيعية، يتقدم بطريقة متعثرة. أمام بعض الظواهر التي يمكن شرحها يجب أن تتصور عدة قوانين عامة، لا ترى بعد علاقتها بالظواهر التي تهتم بها: وفجأة في ارتباط مفاجئ لنتيجة، لحدث أو لقاعدة، يظهر لك استنتاج مقنع أكثر من الاستنتاجات الأخرى فتحاول أن تطبقه على كل الحالات المماثلة، وأن تستعمله لتستنتج منه تكهنات، وتكتشف أن تخمينك كان صحيحاً. ولكنك لن تعرف إلى النهاية ما هي المحمولات التي ينبغي اعتبارها في برهنتك وما هي تلك التي ينبغي الاستغناء عنها. وهكذا أفعل أنا الآن. أصفف عدة عناصر لا ارتباط بينها، وأتخيل افتراضات. ولكن ينبغي أن أتصور العديد من الافتراضات، والكثير منها هو من السخافة بحيث أخجل من عرضها عليك. مثلاً، بشأن الجواد برونيلّو، عندما رأيت الآثار، تصورت الكثير من الافتراضات المكمّلة والمتناقضة: كان يمكن أن يكون جواداً هارباً، كان يمكن أن يكون رئيس الدير قد نزل المنحدر ممتطياً ذلك الجواد الجميل، كان يمكن أن يكون جوادٌ اسمه برونيلّو قد ترك الآثار على الثلج وترك جواد آخر اسمه فافيلّو، في اليوم السابق، الشعر عالقاً بالعَوْسَج، وأن يكون أناس قد كسروا الأغصان. ولم أكن أعرف أي الافتراضات كانت صحيحة إلاّ عندما رأيت القيّم والخدم يبحثون بقلق. عند ذلك فهمت أن افتراض برونيلّو فقط هو الصحيح، وحاولت التحقق من صحته بمخاطبة الرُّهبان كما فعلت، ونجحت، ولكن كان يمكنني أن أخفق. وظنني الآخرون حكيماً لأنني نجحت، ولكنهم لا يعرفون الحالات الأخرى الكثيرة التي ظهرتُ فيها بمظهر الغبي لأنني أخفقت، ولم يكونوا يعرفون أنني قبل بضع ثوانٍ لم أكن واثقاً من أنني لن أخفق. الآن، وحول أحداث هذا الدير، لديَّ الكثير من الافتراضات، ولكن ليس هناك أي حدث جليّ يسمح لي بالقول أي منها أفضل. ولذا، وحتى لا أظهر غبياً من بعد، فأنا أعدل الآن عن

Twitter: @ketab_n

الظهور فَطِناً. اتركني أفكر، إلى غد، على الأقل».

فهمت عندئذٍ منهج أستاذي في التفكير، وبدا لي مُختلفاً جداً عن منهج الفيلسوف الذي يفكر في العِلَل الأولى، بحيث يكاد يسلك عقله طُرق العقل الإلٰهي. وفهمت أن غوليالمو، عندما لا يكون لديه جواب، يعرض على نفسه أجوبة متعددة ومُختلفة جداً فيما بينها. وبقيت مُحْتاراً وقلت له بجرأة: «إذن، أنت لا تزال بعيداً عن الحل..».

فأجاب غوليالمو: «إني قريب جداً منه، ولكن لا أدري من أي حلّ».

ـ «إذن ليس لديك جواب واحد لأسئلتك؟»

ـ «أدسو، لو كان لديّ جواب لدرَّستُ اللاهوت في باريس».

ـ «ألديهم دائماً الجواب الصحيح في باريس؟»

فقال غوليالمو: «أبداً، ولكنهم متأكدون غاية التأكد من أخطائهم». فقلت بوقاحة صبيانية «وأنت، ألا تخطئ أبداً؟»

فأجاب «كثيراً، ولكن عوضاً عن تصور خطأ واحد أتصور الكثير من الأخطاء. وهكذا لا أصبح سجين أي منها».

وبدا لي أن غوليالمو لا تهمه كثيراً الحقيقة، التي ليست سوى التطابق بين الشيء والعقل، بل كان، على العكس، يتسلَّى بتصور أكثر ما يمكن من الإمكانيات.

أعترف أنني في تلك اللحظة يئست من أستاذي ووجدت نفسي أفكر: «من حُسْن الحظ أن محكمة التفتيش قد وصلت»، وانحزت إلى تعطشي لمعرفة الحقيقة، ذلك التعطش الذي كان يحرّك برناردو غي. وفي تلك الحالة الفكرية المذنبة، وقد فاق ارتباكي ارتباك يهوذا ليلة الخميس المقدس، دخلت مع غوليالمو إلى قاعة الأكل لتناول طعام العشاء.

Twitter: @ketab_n

اليوم الرّابع: صلاة النوم

وفيه يتحدث سلفاتوري عن سحر معجز

كان العشاء المعدّ للقصادة رائعاً. لا شك في أن رئيس الدير كان على معرفة جيدة بميول الإنسان من ناحية وبعادات البلاط البابوي من ناحية أخرى (والتي، يجب أن أقول، أعجبت أيضاً رفاق ميكيلي). كان من المفروض أن تكون هناك الفصائد المصنوعة بحسب طريقة كاسّينو، كما قال لنا الطباخ، بدم الخنازير التي ذُبحت منذ أيام قليلة. ولكن نهاية فينانتسيو المفجعة أجبرت الطباخين على إلقاء كل دماء الخنازير، في انتظار أن تذبح خنازير أخرى. ومن ناحية أخرى أظن أنه في تلك الأيام كره الجميع قتل مخلوقات الرب. ولكن كانت هناك فراخ حمام قد نُقعت في خمر تلك الجهات، وأرانب مشوية كما تشوى الخنّوصات، وأقراص القديسة كيارا، وأرز بلَوْز تلك الجبال ـ بعبارة أخرى الأكل الأبيض بمناسبة الاحتفال بالبَيْرمون ـ وخبز مقليّ بالحمحم وزيتون محشو وجبن مقلي ولحم نعجة بمرق فلفل نيء وفول أبيض وحلويات لذيذة وأقراص القديس برناردو ومرطبات القديس نيكولا وعوينات القديسة لوتشيا وخمور وروح شراب من نباتات جعلت الجميع ينشرحون بما فيهم برناردو غي، الذي هو في العادة صارم: روح الترنجان، ونبيذ الجوز، وخمر ضد النقطة وخمر جنطيانة. كان يبدو اجتماع أكولين، لو لم تكن كل جرعة وكلّ لقمة مصحوبة بقراءات خاشعة.

وأخيراً نهض الجميع وهم على غاية من الجذل، واختلق بعضهم توعكاً مفاجئاً لعدم النزول لصلاة النوم. ولكن رئيس الدير لم يتأذَ من ذلك. ليس الجميع مطالباً بالواجبات التي يطالب بها من كرّس نفسه لرهبانيتنا.

Twitter: @ketab_n

وبينما كان الرُّهبان خارجين تباطأتُ بفضول في المطبخ، حيث كانوا يتهيأون للغلق الليلي. فرأيت سلفاتوري ينسلّ نحو المبقلة حاملاً في يديه لفافة. وحرّك ذلك فضولي فتبعته وناديته. وحاول هو أن يتجنبني ثم، إزاء أسئلتي أجاب أنه يحمل في الصرة (التي كانت تتحرك كما لو كان بداخلها شيء حي) عظاءة.

ـ «حاذر من العظاءة، ملكة الثعابين، مليئة بالسم حتى إنه ينضح منها في الخارج. أقول لك السم، إن رائحته تخرج وتقتلك، تسمّمك... ولها بقع بيضاء على الظهر ورأسها كرأس الديك، ونصفها يمشي واقفاً فوق الأرض والنصف الآخر يزحف على الأرض كالثعابين الأخرى. ويقتلها السرعون...»

ـ «السرعون؟»

ـ «نعم، إنه حيوان صغير جداً، أطول بقليل من الفأر، ويبغضه الفأر كثيراً. والثعبان أيضاً والضفدع السام. وعندما تعضه إحداها يجري السرعون إلى الشمرة أو إلى السرخس ويأكل منها، ويقولون إنه يعود بعد ذلك إلى القتال وإن الأنثى تلد من عينيها، ولكن أغلب الناس يقولون إنهم على خطأ».

فسألته ماذا يفعل بعظاءة وأجاب أنه أمر يخصه. فقلت له، وقد التهمني الفضول، إنه في تلك الأيام ومع كل تلك الميتات لم تعد هناك أمور سِرِّية، وإنني سأقول ذلك لغوليالمو. عندئذ توسّل إليّ سلفاتوري بحرارة أن أسكت وفتح الصُّرّة وأراني قطاً أسود. ثم جذبني إليه وقال لي بابتسامة فاجرة إنه لم يعد يقبل أن يحظى القيّم أو أحظى أنا بحب بنات القرية لأن أحدنا ذو نفوذ والآخر شاب جميل، بينما يحرم هو لأنه دميم وبائس. وأنه يعرف سِحْراً مُعْجِزاً لإسقاط كل النساء في شرك الحب. ينبغي قتل قط أسود واقتلاع عينيه، ثم وضعهما داخل بيضتين باضتهما دجاجة سوداء، عين في كل بيضة، (وأراني بيضتين مؤكداً لي أنه أخذهما من الدجاجات المعنية). وينبغي وضع البيضتين كي تنتنا وسط كومة من روث جواد (وقد أعد كومة في ركن من المبقلة لا يمرّ به أحد)، وسيولد من كل بيضة عفريت صغير يكون من بعد في خدمته ويجلب إليه كل ملذات الدنيا. وأضاف لكن، وأسفاه، كي ينجح السِّحْر يجب أن تبصق المرأة التي يريد حبها

Twitter: @ketab_n

على البيضتين قبل أن يدفنهما في الروث. وكان ذلك يشغله، إذ يجب أن تكون المرأة المعنية بجانبه تلك الليلة، وأن تقوم بما يطلب منها دون أن تعرف الهدف من العملية.

فأحسست عندئذ بنار تستعر في وجهي، أو في أحشائي، أو في كامل بدني، وسألته بصوت لا يكاد يُسمع إن كان سيُدخل تلك الليلة إلى الدير فتاة الليلة الماضية. فضحك، ساخراً مني، وقال إني حقيقة فريسة إغراء كبير (فأنكرت وقلت إني أسأله بدافع الفضول فقط). ثم قال لي إن هناك نساء كثيرات في القرية، وإنه سيأتي بامرأة أخرى، أجمل من تلك التي أعجبتني. وخمّنت أنه يكذب ليبعدني عنه. ومن ناحية أخرى ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ أن أتبعه كامل الليل بينما كان غوليالمو ينتظرني لأشياء أخرى أهم؟ وأن أعود لأرى تلك التي (إن كانت هي المعنية) تدفعني شهواتي إليها بينما كان عقلي يبعدني عنها، والتي لا يجب أبداً أن أراها حتى وإن كنت دائماً أرغب في رؤيتها مرّة أخرى! أكيد لا. ولذا أقنعت نفسي بأن سلفاتوري كان يقول الحقيقة فيما يخصّ المرأة، أو أنه كان يكذب بخصوص كل شيء، وأن السِّحر الذي كان يتحدث عنه هو خيال من فكره الساذج والخُرافي، وأنه لن يفعل شيئاً من ذلك.

واحتدّ غضبي وأنّبته بعنف، وقلت له إنه من الأفضل أن يذهب تلك الليلة للنوم، لأن الجند يطوفون في الساحة. فأجاب أنه يعرف الدير أحسن من الجند، وأن ذلك الضباب لن يسمح لأحد بأن يرى الآخر ـ وأضاف: «بل وأكثر، الآن سأذهب وحتى أنت لن تراني، حتى ولو كنتُ هناك على بعد خطوتين منك وأنا أستمتع بالفتاة التي ترغب فيها». وقال ذلك بعبارات أخرى، أوقح جداً، ولكن ذلك كان معناها. فابتعدت ساخطاً، لأن مثلي، كوني نبيلاً وراهباً مبتدئاً، لا يمكنه حقاً أن يكون منافساً لذلك الوغد.

والتحقت بغوليالمو وعملنا ما كان ينبغي أن نعمل. أي أننا تهيأنا لحضور صلاة النوم، في آخر صحن الكنيسة، بحيث نكون مستعدين حالما ينتهي الفرض لسفرتنا الثانية (وبالنسبة إليّ الثالثة) في أعماق المتاهة.

Twitter: @ketab_n

اليَوم الرابع: بعْد صلاة النّوم

وفيه يزور أدسو وغوليالمو المتاهة من جديد، ويصلان إلى عتبة قاعة «أقصى إفريقيا» ولكنهما لا يتمكنان من الدخول إليها، لأنهما لا يعرفان ما هو الأول والسابع من بين الأربعة، وأخيراً يقع أدسو من جديد في مرض الحب وقوعاً علميًا إن شئنا

لقد أخذت منا الزيارة إلى المكتبة ساعات طويلة من العمل. نظرياً كان الفحص الذي كنا نريد القيام به سهلاً، ولكن التقدم وراء نور سراج، وقراءة الكتابات، ورسم الممرات والجدران المليئة على الخريطة، وتسجيل الحروف الأولية، والقيام بمُختلف المسافات التي كانت تسمح بها لعبة المنافذ والمسدّات، كل ذلك كان طويلاً جداً، ومضجراً.

كان البرد شديداً. ولم تكن الليلة عنيفة الريح فلم نكن نسمع ذلك الصفير الخفيف الذي روّعنا في الليلة الأولى، ولكن هواء رطباً ومثلجاً كان ينفذ من الكُوى. وكنا قد اتخذنا قفازين من الصوف للمس الكتب دون أن تتجمد يدانا. ولكنها كانت تلك التي تستعمل في الشتاء للكتابة، بأطراف الأصابع عارية، فكنا نقرّب من حين لآخر أيدينا للشُعلة، أو ندُسُّها داخل ثوبينا أو نضربها الواحدة بالأخرى، قافزين من شدة البرد.

لذلك لم نقم بكل العملية تِباعاً بل توقفنا للنظر في خزانات الكتب، والآن وقد أمكن لغوليالمو، بِزُجاجَتَيْه الجديدتين فوق أنفه، أن يتباطأ لقراءة الكتب، كان يطلق صيحات فرح عند كل اكتشاف لعنوان، إما لأنه كان يعرف الكتاب، أو لأنه يبحث عنه منذ وقت طويل أو أخيراً لأنّه لم يسمع أحداً يذكره من قبل فبلغ به الهيجان والفضول كل مبلغ. باختصار، كان كل كتاب بالنسبة اليه بمثابة حيوان خُرافي يعترضه فوق أرض مجهولة. وبينما كان يتصفح مخطوطاً كان يأمرني بأن أبحث عن مخطوطات أخرى.

Twitter: @ketab_n

ـ «أنظر ماذا يوجد في تلك الخزانة!»

ـ فأخذت أهجّي وأحوّل الكتب من أماكنها: «**في تاريخ الإنكليز**، ومؤلفه بيدا. . . ودائماً لبيدا **حول تشبيد هيكل سليمان، حول بيت القربان، في علم الكتابة، حول ديونيسيوس وزمنه والأحداث التي عاشها وحسابه الزمني ودوائره [الفلكية]، في علم الأوزان، حول سيرة القديس كوتبارتي، في علم البحور الشعرية**».

ـ «طبيعي، كلها أعمال العلاّمة الجليل. . . . وانظر هذه: **في علم البلاغة، تحديد الصور البلاغية**، وهنا العديد من النحويين، بريشيانو، أونوراتو، دوناتو، ماسيمو، فيتورينو، أوتيكي، فوكا، أسبير. . . غريب، كنت أعتقد في بداية الأمر أنّه هنا يوجد مؤلِّفو إنكلترا. . . لننظر تحت. . .».

ـ «Hisperica.... famina» ما هو؟

ـ «قصيدة من إيرلندا. اسمع:

Hoc spumans mundanas obvallat Pelagus oras
terrestres amniosis fluctibus cudit margines.
Saxeas undosis molibus irruit avionias.
Infima bomboso vertice miscet glareas
asprifero spergit spumas sulco,
sonoreis frequenter quatitur flabris...(*)

---

* هذا البحر المزبد يحصر شواطئ المعمورة
يكوّن بأمواجه المتلاحقة حدوداً من الرمال،
بتلاطم مياهه يندفع على الأحجار
فتتدحرج،
وبزمجرة مدوية يقلب قاع البحر
وحصاه،
وينشر زبده في أغوار عميقة،
وكثيراً ما تهزه الرياح المولولة.

=

Twitter: @ketab_n

لم أكن أفهم المعنى، ولكن غوليالمو كان يقرأ والكلمات تتلاطم في فمه فيخيّل إليك أنك تسمع صوت الأمواج والزبد في البحر.

ـ «وهذا؟ إنه أدالم دي ملماسبوري، اسمع هذه الصفحة:

Primitus pantorum procerum poematorum pio potissimum paternoque presertim privilegio panegiricum poemataque passim prosatori sub polo promulgatas...

ـ «تبدأ كلّ الكلمات بالحرف نفسه!»

فقال غوليالمو باعتزاز: «إن أهل جزيرتي كلّهم على شيء من الجنون. لننظر في الخزانة الأخرى».

ـ «فيرجيليو».

ـ «ماذا يفعل هنا؟ فيرجيليو من؟ هل هو كتاب «Georgiche»؟»

ـ «كلاّ «Epitomi» لم أسمع عنه شيئاً قط».

«ولكنه ليس ماروني! إنه فيرجيليو دي تولوزا، الخطيب، لستة قرون بعد ولادة سيدنا المسيح. لقد عُرِفَ بالحكمة...»

ـ «يقول هنا إن الفنون هي poema, rethoria, grama, leporia, dialecta, geometria ولكن بأية لغة يتكلم؟»

ـ «لاتينية، ولكنها لاتينية من ابتداعه هو، يعتبرها أكثر جمالاً بكثير، اقرأ هنا: يقول إن علم الفلك يدرس العلامات البروجية التي هي: mon, man, tonte, piron, dameth, perfellea, belgalic, margaleth, lutamiron, taminon, raphalut».

ـ «أكان مجنوناً؟»

= (وهذا أقصى ما أمكننا ترجمته لأن الفقرات التالية تبرز غرابة لاتينية الإيرلنديين وتعطي أمثلة من البهلوانيات اللغوية التي كانوا يتسلّون بها والتي يصعب نقلها إلى عربية واضحة وسليمة).

Twitter: @ketab_n

- «لا أدري، لم يكن أصيل جُزرِي. اسمع هذا أيضاً. يقول إن هناك اثنتي عشرة طريقة للدلالة على النار:

ignis, coquihabin (quia incocta coquendi habet dictionem), ardo, calax ex calore, fragon ex fragore flammae, rusin de rubore, fumaton, ustrax de urendo, vitius quia pene mortua membra suo vivificat, siluleus, quod de silice siliat, unde et silex non recte dicitur, nisi ex qua scintilla silit. E aeneon, de Aenea deo, qui in eo habitat, sive a quo elementis flatus fertur».

- «ولكن لا يوجد أحد يتكلم بهذه الطريقة!»

- «لحسن الحظ. ولكنها فترة كان يتسلى فيها النحويون، لنسيان عالمهم الشرير، بمسائل معقدة. لقد قيل لي إنه في ذلك الزمن، ولمدة خمسة عشر يوماً وخمس عشرة ليلة، تناقش الخطيبان غابوندوس وتيرانسيوس حول الحرف الندائي «ego» وفي النهاية استعملا السلاح».

- «ولكن هذا أيضاً، اسمع...» وكنت قد أخذت كتاباً منمنماً بطريقة رائعة بمتاهات نباتية تطلّ من تعاريشها قردة وثعابين: «اسمع هذه الكلمات:

cantamen, collamen, gongelamen, stemiamen, plasmamen, sonerus, alboreus, gaudifluus, glaucicomus...»

فقال غوليالمو من جديد بحنين: «إنها جُزري. لا تكن صارماً مع أولئك الرُّهبان في إيرلندا النائية. قد يعود الفضل إليهم إن كان هذا الدير موجوداً وإن كنا لا نزال نتكلم عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة. في ذلك الوقت صار باقي أوروبا كومة من الأنقاض، وفي يوم من الأيام قيل إن التعميد الذي قام به بعض الرُّهبان في بلاد الغال غير صالح، لأنهم كانوا يعمدون «in nomine patris et filiae»، لا لأنهم كانوا يمارسون هرطقة من نوع جديد معتبرين يسوع امرأة، بل لأنهم نسوا اللاتينية».

- «مثل سلفاتوري؟»

- «تقريباً. كان قراصنة أقصى شمال أوروبا يصلون عبر الأنهار إلى روما لنهبها. وكانت المعابد الوثنية تندثر بينما لم تكن قد أقيمت المعابد المسيحية بعد. ورُهبان إيرلندا وحدهم، في أديرتهم، كتبوا وقرأوا، قرأوا وكتبوا، ونمنموا، ثم

Twitter: @ketab_n

رموا بأنفسهم في قوارب صغيرة مصنوعة من جلود الحيوانات وأبحروا نحو هذه الأراضي وبشروها بالإنجيل كما لو كنتم كفاراً، أفهمت؟ قد ذهبت إلى بوبيو، لقد أسسها القديس كولومبانو، وكان واحداً منهم. اتركهم إذن يبتدعون لاتينية جديدة بما أن الناس في أوروبا لم يعودوا يعرفون القديمة. كانوا رجالاً عظاماً. لقد وصل القديس برناردو إلى جزر فورتوناتي، وطول سواحل الجحيم حيث رأى يهوذا مقيداً بالسلاسل إلى صخرة، ووصل يوماً إلى جزيرة فنزل إليها، وكانت وحشاً بحرياً». وأعاد بسرور ـ «بطبيعة الحال كانوا مجانين».

فقلت بإعجاب كبير: «يا لرسومهم... إنني لا أكاد أصدق عيني. ويا لها من ألوان!»

ـ «في أرض لا تملك من الألوان إلاّ القليل، قليلاً من الزُرْقة وكثيراً من الخضرة. ولكننا لسنا هنا للحديث عن رُهبان إيرلندا. ما أريد معرفته هو لماذا يوجدون هنا مع مؤلفي إنكلترا ومع نحويين من بلدان أخرى. انظر فوق خريطتك، أين نحن؟»

ـ «في قاعات البرج الغربي. ونقلت أيضاً الكتابات. إذن، عندما نخرج من القاعة الخالية من النوافذ ندخل القاعة المسبعة الزوايا وهناك ممر واحد يفضي إلى قاعة واحدة في البرج، والحرف باللون الأحمر هو H ثم نمرّ من قاعة إلى أخرى طوافاً بالبرج لنعود إلى القاعة الخالية من النوافذ. وتتابع الأحرف يعطي... إنك على صواب! HIBERNI!»

«HIBERNIA، اذا ما رجعت من القاعة الخالية من النوافذ إلى القاعة المسبعة الزوايا التي لها كالقاعات الثلاث الأخرى حرف A من Apocalypsis ولذا نجد أعمال «تول» الأخيرة وحتى النحويين والخطباء، لأن منظمي المكتبة فكروا أن النحوي ينبغي أن يكون مع النحويين الشماليين، ولو كان من تولوز. إنه معيار مثل غيره من المعايير. أرأيت أننا بدأنا نفهم بعض الشيء».

ـ «ولكن في قاعات البرج الشرقي، الذي دخلنا منه قرأنا FONS.... ماذا يعني؟»

Twitter: @ketab_n

- «اقرأ جيداً خريطتك، واصل قراءة حروف القاعات التي تتبع بحسب الدخول».

- «FONS ADAEU»

- «لا، Fons Adae حرف «u» هي القاعة الخالية من النوافذ الثانية، الشرقية، إنني أتذكرها، ربما تدخل في سلسلة أخرى. وماذا وجدنا في Fons Adae أي في الفردوس الأرضي (تذكر أنه يوجد بها المذبح المتجه نحو مشرق الشمس)؟»

- «كان فيها الكثير من كتب التوراة، ومن تفاسير الكتاب المقدس، وكلّها مؤلفات تخص الكتابات المقدسة».

- «ترى إذن أن كلمة الرب توافق الفردوس الأرضي، التي هي، كما يقول الجميع، بعيدة نحو الشرق. وهنا في الغرب إيرلندا».

- «إذن ينقل رسم المكتبة خارطة العالم والكون؟»

- «ربما. والكتب مرتبة بحسب البلدان المتأتية منها، أو بحسب المكان الذي ولد فيه كاتبها أو، كما هو الحال هنا، بحسب المكان الذي كان ينبغي أن يولد فيه. لقد رأى أمناء المكتبة أن فيرجيليو النحوي ولد خطأ في تولوز وكان ينبغي أن يولد في الجزر الغربية. لقد صوّبوا أخطاء الطبيعة».

ثم تابعنا طوافنا. ومررنا بمجموعة من القاعات الثرية بنسخ رائعة من سفر الرؤيا، وكانت إحدى تلك القاعات هي التي حدثت لي فيها الرؤى. بل رأينا من بعيد النُّور فهرع غوليالمو، وقد سدّ أنفه، لإطفائه، باصقاً على الرماد. وزيادة في الحيطة عبرنا القاعة بسرعة، ولكنني أذكر أني رأيت فيها الرؤيا الرائعة ذات الألوان المُختلفة وصورة المرأة المتسربلة بالشمس والتنين. وأعدنا ترتيب هذه المجموعة من القاعات ابتداء من الأخيرة التي دخلناها والتي كانت تحمل كحرف أولي باللون الأحمر Y. والقراءة بالتراجع أعطتنا كلمة YSPANIA، ولكن A الأخيرة كانت هي نفسها التي تختتم بها HIBERNIA. دليل، كما قال غوليالمو، على أنه بقيت قاعات تجمع فيها أعمال ذات موضوعات مُختلفة.

Twitter: @ketab_n

على كل حال بدا لنا القسم الذي يحمل اسم YSPANIA زاخراً بمخطوطات كثيرة لسفر الرؤيا، كلها جيدة للغاية، تعرّف من خلالها غوليالمو على أنه فن إسباني. ولاحظنا أن المكتبة قد تكون تملك أكبر مجموعة من نسخ كتاب الرسول في العالم المسيحي مع مجموعة ضخمة من التعليقات على ذلك النصّ. مجلدات ضخمة كانت تخص التعليق على كتاب الرؤيا لبياتو دي ليبانا، وكان النص تقريباً هو نفسه دائماً، ولكننا وجدنا تنوعاً رائعاً لرسوم تعرّف غوليالمو من خلالها على البعض من أولئك الذين كان يعتبرهم من أكبر منمنمي مملكة أستوريا: ماجيوس، فاكوندوس وآخرون.

وبينما كنا نتبادل هذه الاعتبارات وأخرى أيضاً وصلنا إلى البرج الجنوبي، الذي مررنا بجانبه في الليلة السابقة. كانت القاعة S من YSPANIA، دون نوافذ، تؤدي إلى قاعة E وأخذنا نطوف عابرين قاعات البرج الخمس إلى الأخيرة، دون ممر آخر، وتحمل حرف L بالأحمر ثم قرأنا بطريقة معاكسة فوجدنا LEONES.

ـ «LEONES، الجنوب، على خريطتنا نكون الآن في إفريقيا، «هنا توجد الأسود». وهذا ما يفسر لماذا وجدنا هنا نصوصاً بتلك الكثرة لكتّاب كفّار».

فقلت وأنا أفتش في خزانة «وها هنا كتب أخرى. **القانون** لابن سينا، وهذا المخطوط الجميل بخط لا أعرفه..»..

ـ «من الزخرفة يبدو أنه قرآن، ولكن للأسف لا أعرف العربية».

ـ «القرآن، كتاب الكفّار، إنه كتاب ضالّ...»

ـ «كتاب فيه حكمة مُختلفة عن حكمتنا. ولكنك تدرك لماذا وضعوه في هذا المكان، حيث الأسود والوحوش. لذلك رأينا هنا ذلك الكتاب حول المخلوقات الفظيعة وحيث وجدت أيضاً وحيد القرن الخرافي. هذا القسم المسمّى LEONES يحتوي على تلك الكتب التي اعتبرها مؤسسو هذه المكتبة كتب بهتان. ماذا يوجد هناك؟»

ـ «إنها باللاتينية، ولكنها مترجمة من العربية. أيوب الروحاوي، دراسة حول

Twitter: @ketab_n

رُهاب الماء عند الكلاب. وهذا كتاب **الكنوز**. وهذا كتاب **المناظر** لابن الهيثم».

ـ «أرأيت، لقد وضعوا بين الوحوش والأكاذيب كتب علم أيضاً فيها الكثير مما يمكن للمسيحيين أن يتعلموه. هكذا كان الناس يفكرون في العهود التي أسست فيها المكتبة. . .»

فسألته: «ولكن لماذا وضعوا بين الأكاذيب كتاباً فيه أُحادي القَرْن الخرافي؟»

ـ «من الواضح أن مؤسسي هذه المكتبة كانت لهم أفكار غريبة. لقد اعتبروا أن هذا الكتاب الذي يتحدث عن حيوانات غريبة تعيش في بلدان نائية هو من جملة الأكاذيب التي أتى بها الكفّار».

ـ «ولكن هل أُحادي القَرْن كَذِبٌ؟ إنه حيوان وديع جداً وهو رمز رفيع. هو صورة للمسيح وللعِفة، ولا يمكن تصيّده إلاّ بوضع عذراء في الغاب فيشتم الحيوان رائحتها الطاهرة ويأتي إليها ليضع رأسه في حجرها، مسلّماً نفسه فريسة لحبال الصيّادين».

ـ «هكذا يقولون، يا أدسو. ولكن يميل الكثيرون إلى اعتبار ذلك ابتداعاً خُرافياً جاء به الوثنيون».

فقلت: «يا للخيبة. كنت آمل أن يعترضني أحدها وأنا أجتاز الغاب. وإلاّ ما المتعة في اجتياز الغاب؟»

ـ «هذا لا يعني أنه غير موجود. ربما هو مُختلف عمّا تصفه هذه الكتب. لقد ذهب رحالة بندقي إلى بقاع نائية، قريبة جداً من منبع الفردوس الأرضي الذي تذكره الخرائط، ورأى حيوانات وحيد القرن. ولكنه وجدها خشنة وسمجة، قبيحة الشكل سوداء اللون. أظن أنه رأى حيوانات حقيقية لها قرن في جبينها. من المحتمل أن تكون هي نفسها تلك التي ذكرها علماء المعرفة القديمة والصحيحة دائماً، الذين أتاح لهم الرب فرصة لرؤية أشياء لم نرَها نحن، وأعطونا عنها وصفاً أولياً وفياً. وذلك الوصف، في تنقله من سلطة علميّة إلى أخرى، تغيّر لتتابع التركيبات الخيالية، فأصبح وحيد القرن حيواناً أسطورياً، أبيض وديعاً. لذا لو قيل

Twitter: @ketab_n

لك إن هناك وحيد قرن يسكن الغاب، لا تذهب إليه مصحوباً بعذراء، إذ يمكن أن يكون الحيوان أشبه بذلك الذي ذكره شاهد عيان منه بحيوان الكتاب».

ـ «ولكن كيف حدث أن علماء المعرفة القديمة تسلموا من الرب الوحي بخصوص طبيعة وحيد القرن الحقيقية؟»

ـ «ليس الوحي ولكن التجربة. لقد كان من حظهم أنهم ولدوا في بقاع كان يعيش فيها وحيد القرن، أو في عهود كان يعيش فيها وحيد القرن في البقاع نفسها».

ـ «ولكن كيف يمكن إذن أن نثق بالمعرفة القديمة، التي تقتفي أنت دائماً أثرها، بينما نقلتها إلينا كتب كاذبة أوّلتها بكثير من الحرية؟»

ـ «الكتب لم توضع كي نؤمن بما تقوله ولكن كي نتحرّى فيها. لا يجب أن نتساءل أمام كتاب ماذا يقول ولكن ماذا يريد أن يقول، وهي فكرة كانت واضحة جداً عند مفسّري الكتب المقدسة القدامى. ووحيد القَرْن الخُرافي كما تتحدث عنه هذه الكتب يخفي حقيقة أخلاقية، أو رمزية أو تأملية، تبقى حقيقية، كما تبقى حقيقيةً فكرة أن العِفّة فضيلة نبيلة. ولكن بخصوص الحقيقة الحرفية التي تقوم عليها الثلاث الأخرى، يبقى أن نرى من أية تجربة أصلية نشأ اللفظ. يجب أن نناقش اللفظ، حتى عندما يكون المعنى الإضافي صحيحاً. لقد ذُكر في بعض الكتب أن الماس لا يقطعه إلاّ دم تيس. فقال أستاذي الكبير روجر بيكون إن ذلك غير صحيح، لأمر بسيط، لأنه جرّب ذلك ولم ينجح. ولكن لو كان لعلاقة الماس بدم التيس معنى سامٍ، فذلك المعنى يبقى سامياً».

فقلت: «إذن يمكن أن نقول حقائق سامية ونكذب بخصوص المعنى الحرفي. ولكن ما يؤسفني هو أن وحيد القَرْن الخُرافي، هكذا كما وصفوه، غير موجود، أو لم يوجد، أو لا يمكن أن يوجد يوماً».

ـ «ليس جائزاً أن نضع حدوداً لقدرة الإلٰه العظيمة، ولو أراد اللّه فسيوجد أيضاً وحيد القَرْن الخُرافي. ولكن هوّن عليك، إنه موجود في هذه الكتب، التي إن كانت لا تتحدث عن الكائن الواقعي فهي تتحدث عن الكائن الممكن».

Twitter: @ketab_n

ـ «ولكن، ينبغي إذن أن نقرأ الكتب دون اللجوء إلى الإيمان، الذي هو فضيلة إلٰهية؟»

ـ «تبقى فضيلتان إلٰهيتان أخريان. الرجاء أن يكون الممكن موجوداً. والمحبّة، نحو من آمن بإخلاص أن الممكن موجود».

ـ «ولكن ما منفعتك بوحيد القَرْن الخُرافي إن كان فكرك لا يؤمن به؟»

ـ «ينفعني كما نفعتني آثار قدمي فينانتسيو على الثلج، وهو يُجَرُّ إلى جرّة دم الخنازير. وحيد القَرْن الخُرافي الموجود في الكتب هو كالأثر. إن وجد الأثر فيجب أن يكون هناك الشيء الذي هو منه أثر».

ـ «ولكن مُختلفاً عن الأثر، هكذا تقول لي».

ـ «أكيد. لا يكون دائماً للأثر شكل الجسم الذي رسمه ولا ينشأ دائماً من ضغط جسم. أحياناً يصوّر انطباعاً تركه جسم في فكرنا، هو أثر لفكرة. والفكرة علامة على الشيء، والصورة علامة على الفكرة، علامة علامة. ولكن من الصورة أعيد تركيب، إن لم يكن الجسم، فالفكرة التي أخذها عنه الآخرون».

ـ «ويكفيك ذلك؟»

ـ «كلا، لأن العلم الحقيقي لا يجب أن يكتفي بالأفكار، التي هي فعلاً علامات، ولكنه يجب أن يعثر على الأشياء في حقيقتها الفريدة. وإذن يسعدني أن أصل من هذا الأثر إلى أثر وحيد القرن الكائن، الفرد الموجود في أول السلسلة. كما سيسعدني أن أصل من الآثار الملتبسة التي تركها قاتل فينانتسيو (وهي آثار يمكن أن تعود إلى أشخاص كثيرين) إلى شخص واحد هو القاتل بعينه. ولكن لا يمكن تحقيق ذلك دائماً في وقت وجيز دون الاستعانة بعلامات أخرى».

ـ «ولكن، أستطيع أن أتحدث دائماً وفقط عن شيء يحدِّثني عن شيء آخر إلى آخره، ولكن الشيء النهائي، ذلك الحقيقي غير موجود أبداً!»

ـ «قد يكون موجوداً. إنه وحيد القرن، الكائن الفرد. ولا تغتم ستلتقي به في يوم من الأيام، حتى وإن كان أسودَ وقبيحاً».

Twitter: @ketab_n

فقلت عند ذلك الحدّ: «وحيد القرن، أُسُود ومؤلفون عرب وسودان بصفة عامة. إنها دون شك إفريقيا التي يتحدث عنها الرُّهبان».

ـ «هي ذي دون شكّ. وإن كانت هي ينبغي أن نعثر على الشعراء الإفريقيين الذين لمّح إليهم باتشيفيكو دا تيفولي».

وفعلاً عندما رجعنا إلى الوراء وعدنا إلى القاعة L، وجدت في إحدى الخزانات مجموعة من كتب فلورو وفرونطوني وأبوليو ومارزيانو كابيلاّ وفولجانسيو. فقلت:

ـ «إذن هذا هو المكان الذي يقول برينغاريو إنه يوجد فيه سرّ ما».

ـ «هنا تقريباً. لقد استعمل عبارة «finis Africae»، وهذه هي العبارة التي أغضبت كثيراً مَلاخي. يمكن أن تكون هذه القاعة الأخيرة، أو...» ـ ثم صاح ـ «بكنائس كلوماكنوا السبع! ألم تلاحظ شيئاً؟»

ـ «ماذا؟»

ـ «لنعد إلى الوراء، إلى القاعة S التي انطلقنا منها!»

فرجعنا إلى القاعة الأولى الخالية من النوافذ حيث يقول البيت Super thronos viginti quatuor. كانت لها أربع فتحات. واحدة منها تفضي إلى القاعة Y، ولها نافذة تفتح على مثمن الزوايا. والأخرى تفضي إلى القاعة P التي تواصل، متبعة الواجهة الخارجية، سلسلة YSPANIA. وتلك الموجودة قرب البرج تفضي إلى القاعة E التي طفنا بها منذ حين. ثم جدار مَلْء وأخيراً فتحة تؤدي إلى قاعة ثانية دون نوافذ تحمل حرفاً أولياً U والقاعة S كانت قاعة المرآة، ومن حسن الحظ أن المرآة كانت على الحائط الموجود على يميني، وإلاّ لذعرت من جديد.

وعندما تأملت جيداً في الخريطة تفطّنت إلى غرابة تلك القاعة. ككل القاعات الأخرى الخالية من النوافذ كان ينبغي أن تفضي إلى القاعة المسبعة الزوايا الوسطى. إن لم تكن كذلك فالدخول إلى مسبّع الزوايا ينبغي أن يكون من القاعة دون نوافذ القاعة المحاذية، القاعة U. ولكن هذه كانت تؤدي عبر فتحة إلى قاعة

Twitter: @ketab_n

T التي لها نافذة تفتح على المثمّن الداخلي، وترتبط عبر الفتحة الأخرى بالقاعة S وجدرانها الثلاثة الأخرى كانت دون فتحات وتغطيها الخزانات. وعندما نظرنا حوالينا لاحظنا ما أصبح الآن واضحاً من خلال الخريطة أيضاً: لأسباب منطقية، إضافة إلى التناسب الدقيق، كان ينبغي أن يكون لذلك البرج قاعته المسبعة الزوايا. ولكنها لم تكن موجودة!

فقلت: «إنها غير موجودة».

ـ «لا، موجودة. لو لم تكن موجودة لكانت القاعات الأخرى أكبر، بينما هي تقريباً بحجم قاعات الجوانب الأخرى نفسها. إنها موجودة ولكن لا يمكن الوصول إليها».

ـ «هل سدّوا عليها الحائط؟»

ـ «ربما. هو ذا «أقصى إفريقيا»، هو ذا المكان الذي كان يحوم حوله أولئك الفضوليون الذين لقوا حتفهم. لقد سدّوا عليه بحائط، ولكن هذا لا يعني أنه لا يوجد ممرّ. بل من المؤكد أنه موجود، وقد وجده فينانتسيو، أو أنه حصل على وصفه من أدالمو وهذا الأخير من برينغاريو. لنُعد قراءة مذكراته».

وأخرج من ثوبه ورقة فينانتسيو وأعاد قراءتها «اليد فوق الصورة تحرّك الأول والسابع من الأربعة». ـ ثم نظر حواليه ـ «أكيد. idolum هو الصورة في المرآة! كان فينانتسيو يفكر باليونانية وفي تلك اللغة، أكثر مما في لغتنا، eidolon هي في الوقت نفسه الصورة والشبح، والمرآة ترجع إلينا صورتنا مشوهة وهي التي ظننا‌ها نحن تلك الليلة شبحاً! ولكن ماذا تكون الأربع supra speculum؟ شيئاً فوق سطح المرآة العاكس؟ إذن ينبغي أن نقف في ناحية بحيث نتمكن من رؤية شيء ينعكس في المرآة ويتطابق مع الوصف الذي أعطاه فينانتسيو».

فتحركنا في كل الاتجاهات، ولكن دون نتيجة. كانت المرآة تُرجع خلف صورتينا خطوطاً غير واضحة لبقية القاعة، التي كان ينيرها السراج بضوء ضعيف جداً.

فقال غوليالمو مفكراً «إذن، ربما كان يعني بـ supra speculum وراء

Twitter: @ketab_n

المرآة. . . . وهذا يحتم أن نذهب أولاً وراء المرآة، لأن هذه المرآة هي دون شكّ باب.». .

كانت المرآة أعلى من قامة رجل عادي، وكانت مركبة في الجدار ومندمجة بواسطة إطار متين من خشب السنديان. فلمسنا الإطار بكل الطرق، وحاولنا حشر أصابعنا، وأظافرنا بين الإطار والجدار، ولكن المرآة بقيت ثابتة كأنها جزء من الحائط، حجر وسط حجر.

وكان غوليالمو يتمتم «إن لم يكن ما وراء، فيمكن أن يكون super speculum ـ ويرفع ذراعيه، واقفاً على أطراف أصابعه، ممرّراً يده على حافة الإطار العُليا دون أن يجد شيئاً ما عدا الغبار.

وكان يفكر بكآبة «من ناحية أخرى، حتى وإن كانت وراءها قاعة، فالكتاب الذي نبحث عنه، والذي بحث عنه آخرون، لم يعد موجوداً بها لأنهم أخذوه، حمله فينانتسيو أوّلاً وبرينغاريو ثانياً، يعلم اللّه إلى أين».

ـ «ولكن، ربما يكون برينغاريو قد أعاده إلى هنا».

ـ «كلاّ. لقد كنّا تلك الليلة في المكتبة، وكل شيء يحملنا على الظن أنه مات بعد وقت قليل من سرقة الكتاب، تلك الليلة نفسها، في قاعات الاستحمام. وإلا لكنا رأيناه في الصباح الموالي. لا يهمّ. . . لحد الآن تحققنا من المكان الذي توجد فيه قاعة «أقصى إفريقيا» ولدينا تقريباً كل العناصر لإتمام خريطة المكتبة إتماماً أفضل. يجب أن نعترف بأن الكثير من أسرار المتاهة قد توضحت الآن. جميعها، يمكن أن أقول، إلا واحداً. أظن أنني سأستمدّ من قراءة أخرى منتبهة لمخطوط فينانتسيو معلومات أكثر مما يمكن أن تمدني به زيارات أخرى. لقد رأيت أننا اكتشفنا سر المتاهة من الخارج أحسن من الداخل. هذه الليلة، وأمام صورتينا المشبوهتين لن نصل إلى حلّ هذه المعضلة. وأخيراً قد بدأ النُّور يضعف. هيّا، لنضع العلامات الأخرى التي ستصلح لإتمام الخريطة(*).

---

* انظر الرّسم على الصفحة التالية ص378.

Twitter: @ketab_n

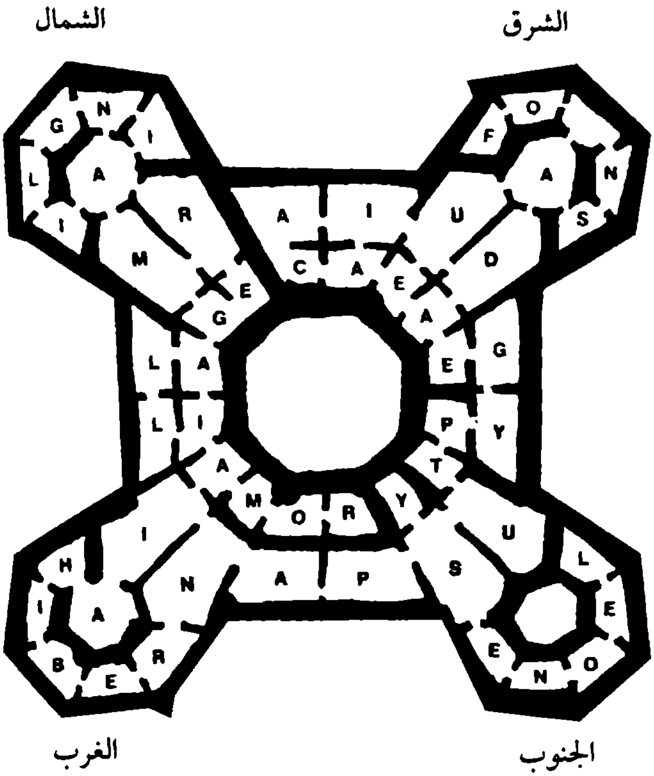

Twitter: @ketab_n

وعبرنا قاعات أخرى مسجلين دائماً ما نكتشفه على خريطتي واعترضتنا قاعات مخصصة فقط للرياضيات ولعلم الفلك، وأخرى لكتب بحروف آرامية لم نكن نفهمها، وأخرى بخط مجهول أكثر، ربما كانت نصوصاً هندية. كنا نتحرك وسط سلسلتين متشابكتين تحملان اسمَيْ IUDAEA و AEGYPTUS. باختصار، وحتى لا أضجر القارىء بسرد تفاصيل فكّ كل الرموز، عندما انتهينا من إتمام الخريطة، اقتنعنا بأن المكتبة قد بُنيت ووُزِّعت بحسب صورة الأرض. في الشمال وجدنا ANGLIA و GERMANI، اللتين تربطان طول الجانب الغربي بـ GALLIA لتولّدَا بعد ذلك في أقصى الغرب HIBERNIA ونحو السور الجنوبي ROMA (فردوس الكلاسيكيين اللاتينيين!) وYSPANIA. تأتي بعد ذلك في الجنوب LEONES و AEGYPTUS التي تصبح نحو الشرق IUDAEA و FONS ADAE. بين الشرق والشمال، على طول السور ACAIA، مجاز بلاغي جميل، كما قال غوليالمو، للتعبير عن اليونان، وفعلاً في تلك القاعات الأربع يوجد عدد وافر من شعراء وفلاسفة العصور الوثنية القديمة.

كانت طريقة القراءة غريبة، أحياناً تسير في اتجاه واحد، وأحياناً إلى الخلف، وأحياناً في شكل دائرة، وكما قلت، غالباً ما يصلح حرف واحد لتكوين كلمتين مُختلفتين (وفي تلك الحالات تكون للقاعة خزانة مخصصة لموضوع وأخرى مخصصة لموضوع آخر). ولكن اتضح أنه لا فائدة من البحث عن قاعدة ذهبية تحكم ذلك التنظيم. كانت حيلة استذكارية فحسب، تسمح لحافظ المكتبة بالعثور على كتاب. عندما تقول عن كتاب إنه موجود في quarta Acaiae يعني أنه في القاعة الرابعة ابتداء من القاعة التي تظهر فيها A الاستهلالية، أما عن كيفية العثور عليه فيفترض أن حافظ المكتبة يعرف الطريق عن ظهر قلب، إن كان مستوياً أم دائراً. مثلاً ACAIA موزعة على أربع قاعات، مما يجعل A الأولى هي أيضاً الأخيرة، وهذا فهمناه نحن أيضاً في وقت وجيز. كما تعلمنا حالاً لعبة الحواجز: مثلاً، عندما نأتي من الشرق، ليست هناك أية قاعة من ACAIA تفضي إلى القاعات التالية: عند ذلك الحد تنتهي المتاهة، وللوصول إلى البرج الشمالي ينبغي المرور من القاعات الثلاث الأخرى. ولكن، بطبيعة الحال، يعرف أمناء المكتبة

Twitter: @ketab_n

جيداً، أنه عند الدخول من FONS وللذهاب مثلاً إلى ANGLIA ينبغي عليهم أن يعبروا GALLIA, YSPANIA, AEGYPTUS و GERMANI.

بهذه وبغيرها من الاكتشافات الرائعة أنهينا استطلاعنا المثمر للمكتبة. ولكن قبل أن أقول إننا كنا نتهيأ للخروج، ونحن راضيان، (للمشاركة في أحداثٍ أخرى سأقصها بعد قليل)، يجب أن أفضي لقارئي باعتراف. لقد قلت إننا قمنا برحلتنا الاستطلاعية باحثين من جهة عن مفتاح المكان السري، ومن جهة أخرى متوقفين من حين لآخر، في القاعات التي نكتشف موقعها وموضوعها، لتصفح كتب مُختلفة، كما لو كنا نكتشف قارّة سرّية أو أرضاً مجهولة. وفي العادة كان ذلك الاستطلاع يقع باتفاق الطرفين، نتوقف، أنا وغوليالمو، حول الكتب نفسها، فأشير أنا إلى الكتب الأكثر غرابة، ويُفسّر لي هو الكثير من الأشياء التي لم أكن أقدر على فهمها.

ولكن في نقطة ما، بينما كنا نطوف في قاعات البرج الجنوبي بالذات، تلك المسماة LEONES، حدث أن توقف أستاذي في قاعة ثرية بالكتب العربية والتي تحتوي على رسوم غريبة في **علم البصريات**، وبما أننا كنا لا نحمل في تلك الليلة سراجاً واحداً بل سراجَيْن، تحوّلت أنا بدافع الفضول إلى القاعة المجاورة، متفطّناً إلى أن حكمة مخططي المكتبة وحذرهم جعلاهم يجمعون على طول أحد جدرانها كتباً، لا يمكن دون شك أن تُسلّم للقراءة إلى كل إنسان، لأنها بطرق مُختلفة تتحدث عن أمراض متنوعة تصيب الجسم والعقل، وتكاد تكون كلها من تأليف علماء كفار. ووقع نظري على كتاب غير كبير، تزخرفه نمنمات مُختلفة تماماً (ولحسن الحظ!) عن الموضوع فيها أزهار وتعاريش وأزواج من الحيوانات، وبعض النباتات الطبية كان عنوانه «Speculum amoris» للراهب ماسيمو دا بولونيا، روى فيه شواهد منقولة عن مؤلفات أخرى عديدة، كلها حول مرض الحب. ولعلّ القارىء قد فهم أن ذلك كان كافياً لإثارة فضولي المريض. بل وأكثر، كان ذلك العنوان كافياً ليضطرم ذهني، الذي خمدت ناره منذ الصباح، مهيّجاً إياه من جديد بصورة الفتاة.

وبما أني أبعدت عني طيلة ذلك اليوم الأفكار الصباحية، قائلاً لنفسي إنها لا

Twitter: @ketab_n

تليق بمبتدىء سليم متوازن، وبما أنه، من ناحية أخرى، كانت أحداث ذلك اليوم ثرية جداً ومكثفة بما يكفي لتصرفني عن تلك الأفكار، خمدت شهواتي بحيث كنت أظن أنني تحرّرت من ذلك الذي لم يكن إلا اضطراباً عرضياً. ولكن كفتني رؤية ذلك الكتاب كي أقول لنفسي إن تلك الصفحات «لا تروي إلاّ قصّتي» وأن أكتشف أني مريض بالحب أكثر مما كنت أظن. وتعلمت فيما بعد أننا عندما نطالع كتب الطب، نقتنع دائماً بأننا نحسّ بالأوجاع التي تتحدث عنها. وكان ذلك ما حدث لي فعلاً، وهو أنّ قراءة تلك الصفحات، التي كنت أختلس إليها النظر بسرعة، مخافة أن يدخل غوليالمو إلى القاعة وأن يسألني على ماذا كنت منكباً بذلك الاهتمام العلمي، أقنعتني بأنني أعاني فعلاً من ذلك الداء، الذي كانت أعراضه موصوفة بروعة، مما جعلني، من جهة، أنشغل من إصابتي به (وبرفقة علماء يُعتبرون حجّة) بينما كنت من جهة أخرى مبتهجاً لرؤية حالتي موصوفة بتلك الدقة، مقنعاً نفسي، أني، وإن كنت مريضاً، فمرضي، إن أمكن القول، عادي، بما أن الكثيرين عانوا منه معاناتي نفسها، وكان يبدو لي أن الكتّاب المذكورين اتخذوني أنا بالذات أنموذجاً لأوصافهم.

وتأثرت وأنا أقرأ صفحات ابن حَزْم، الذي يُعرِّف الحب كمرض عُضال، دواؤه فيه، والمصاب به لا يريد الشفاء منه ولا يبتغي الخروج منه (واللّه يعلم كم كان هذا القول صائباً!) وتفطّنت لماذا كنت عند الصباح متأثراً إلى ذلك الحد بكل ما كنت أشاهده، إذ يبدو أن الحب ينفذ من العين كما يقول أيضاً بازيليو دا نتشيرا، وهناك دلالة واضحة ـ وهي أن المصاب بذلك المرض يبدي جذلاً مفرطاً، بينما يحبذ في الوقت نفسه الانفراد والعُزْلة (كما فعلت أنا ذلك الصباح)، وتصحب ذلك أعراض أخرى، منها الاضطراب العنيف والانذهال الذي يُخرس.. وجزعت كثيراً عندما قرأت أن المحب الصادق، عندما يُمنع من رؤية المحبوب، لا يلبث أن يقع في حالة ذُبول غالباً ما تضطره إلى ملازمة الفراش، وأحياناً يغلب الداء المخ، فيفقد المصاب رشده ويهذي (وكان من الواضح أنني لم أصل بعد إلى تلك الحالة بما أنني قمت بعمل جيّد في استطلاع المكتبة). ولكنني قرأت بانشغال أنه عندما تسوء حالة المريض، يمكن أن يصل إلى الموت وتساءلت إن كانت البهجة

Twitter: @ketab_n

التي تغمرني عندما يذهب فكري إلى الفتاة تساوي هذه التضحية السامية بالحياة، بقطع النظر عن كل اعتبار بخصوص نجاة الروح.

ذلك لأنني وجدت استشهاداً آخر لبازيليو يقول فيه: «أولئك الذين يلوثون الروح بنزوات الجسد وهيجان الحواس يحطمون تحطيماً تاماً ذلك الذي هو على العكس نافع وضروري للحياة، ومن جهة أخرى يُلقون في وحل الملذات الجسدية روحاً نقية وشفافة، والقذارة التي يوسخون بها نقاوة الجسم وطهارته تلحق أذى كبيراً بالحياة» وهي حالة قصوى لا أودّ قط أن أجد نفسي فيها.

وعرفت أيضاً من جملة للقدّيسة إيلديغاردا أن ذلك المزاج الكئيب الذي أحسست به ذلك اليوم، والذي كنت أنسبه إلى الإحساس العذب بالألم لغياب الفتاة، يشبه بخطورة الإحساسَ الذي يشعر به من يحيد عن حالة الانسجام والكمال الذي يحس به الإنسان في الفردوس، وأن تلك الكآبة «السوداء والمرّة» متأتية من الثعبان نفسه ومن وسوسة الشيطان. وهي فكرة يشاطرها أيضاً كفّار في المستوى نفسه من الحكمة، إذ وقع نظري على السطور المنسوبة إلى أبي بكر محمد بن زكريا الرازي، الذي يطابق في كتاب **الحاوي** كآبة المحب بالذئبية، وهي تدفع المصاب بها إلى التصرف مثل الذئب. وقد انقبض قلبي لوصفه ذلك: في البداية يبدو المحبّون متغيرين في مظهرهم الخارجي، فيضعف نظرهم وتغرق عيونهم وتفرغ من الدموع، ويجف اللسان شيئاً فشيئاً وتظهر فوقه القروح، ويجف الجسم كله ويتألمون دائماً من العطش، عند ذلك الحد يقضون يومهم مستلقين على وجوههم، وتظهر علامات شبيهة بعضات الكلب على الوجه وعلى الظنابيب وفي النهاية يجوبون المقابر كالذئاب.

وأخيراً لم تبقَ لديّ شكوك حول خطورة حالتي عندما قرأت استشهادات لابن سينا العظيم، حيث يعرّف الحب بأنه هاجس معذب ذو طبيعة كئيبة، ينشأ من التفكير وإعادة التفكير في قسمات وحركات أو عادات شخص من جنس مقابل (كيف صوّر ابن سينا بوفاء حيّ حالتي أنا!): لا ينشأ كمرض ولكنه يصبح مرضاً عندما لا يلاقي إرضاء فيصبح هاجساً استحواذياً (ولماذا أحس أنا إذن بالاستحواذ إن كنت، والله يغفر لي، أرضيت نفسي إرضاء كاملاً؟ أو ربما ما حدث لي في

Twitter: @ketab_n

الليلة الفارطة ليس شفاء للحب؟ وكيف يُشفى هذا الداء) وتكون نتيجته حركة متواصلة للجفنين، وتنفساً غير منتظم، ويضحك المرء أحياناً ويبكي أحياناً أخرى، ويخفق النبض بشدة (وفعلاً كان نبضي يخفق بشدة وأنفاسي تتقطع وأنا أقرأ تلك السطور!) وينصح ابن سينا بطريقة ناجعة، كان قد عرضها غالينو، لمعرفة الشخص المصاب بالحب: إمساك نبض المريض والتلفظ بأسماء كثيرة لأشخاص من الجنس المقابل إلى أن يحس الممسك بالنبض عند ذكر اسم من الأسماء بزيادة في سرعة النبض. وكنت أخاف أن يدخل أستاذي فجأة ويمسكني من ذراعي فيكشف سرّي من خلال نبضات شراييني، مما سيجعلني أخجل كثيراً... واحسرتاه، كان العلاج الذي يشير به ابن سينا هو الجمع بين المحبوبين عن طريق الزواج. صحيح أنه كان كافراً، وإن كان حكيماً، لأنه لم يقرأ حساباً لحالة راهب مبتدىء بنيدكتي، محكوم عليه إذن بأن لا يُشفى أبداً - أو بالأحرى نذر باختيار منه، وباختيار متمعّن من والديه، أن لا يمرض أبداً بذلك الداء. لحسن الحظ أن ابن سينا، وإن لم يفكر في النظام الكلوني، اعتبر حالة محبوبين لا يمكن وصالهما، وينصح كعلاج جذري، بالاستحمام بالماء الساخن (أكان يريد برينغاريو أن يبرأ من حبه لأدالمو؟ ولكن أيمكن أن يتألم المرء من حبه لشخص من الجنس نفسه، أو أن ذلك ليس إلاّ فُجوراً حيوانياً؟ أيكون غير حيواني فجوري أنا في الليلة الفارطة؟ من الأكيد لا، هكذا كنت أقول في نفسي، لقد كان على غاية من العذوبة - ولكنني كنت أقول على الفور: كلاّ، إنك تخطئ يا أدسو، لقد كان ذلك وهماً من الشيطان، وكان حيوانياً جداً، وإن أنت ارتكبت خطيئة جنسية فإنك ترتكب الآن خطيئة أكبر لأنك لا تريد الاعتراف بذلك!). ولكني قرأت بعد ذلك، ودائماً بحسب ابن سينا، أن هناك طرقاً أخرى: مثلاً اللجوء إلى معونة العجائز المجرّبات كي يقضين الوقت في ذم المعشوقة، ويبدو أن للعجائز خبرة أكثر من الرجال في هذا الميدان. قد يكون ذلك هو الحل ولكن من أين لي في الدير بعجائز (ولا حتى بصغيرات السن، في حقيقة الأمر). أينبغي إذن أن أطلب من بعض الرُّهبان أن يحدّثني بكلام سوء عن الفتاة، ولكن ممّن؟ ثم هل يمكن لراهب أن يعرف المرأة كما تعرفها عجوز ثرثارة؟ والحلّ الأخير الذي كان ينصح به ذلك العربي كان حقيقة وقحاً جداً لأنه يتطلب أن يجامع المحبّ البائس عدة إماء، وهو

Twitter: @ketab_n

شيء لا يليق أبداً براهب. وأخيراً، قلت لنفسي، كيف يمكن لراهب شاب أن يبرأ من مرض الحب، أو أنه حقيقة لا نجاة له منه؟ ربما ينبغي أن أستعين بسيفيرينو وبأعشابه؟ وفعلاً، وجدت فقرة لأرنالدو دا فيلاّنوفا، وهو كاتب سمعت غوليالمو يذكره بكثير من التقدير، ينسب فيها مرض الحب إلى وفرة الأخلاط والأهوية في الجسم، أي عندما يوجد في الجسم إفراط في الرطوبة والحرارة، بما أن الدم (الذي يولّد البذر التناسلي) عندما يزيد فوق المقدار يحدث إفراطاً في البذر، وهو ما يسمّى بالـ «complexio venerea»، ورغبة شديدة في الجِماع بين رجل وامرأة. هناك طاقة تقييمية موجودة في الجهة الظهرية للقسم الأوسط للمخ (وتساءلت ماذا يكون؟) وهدفها هو التقاط الرغبات اللامحسوسة الموجودة في الأشياء المحسوسة الملتقطة من طرف الحواس، وما إن تصبح الرغبة فيما تدركه الحواس قويّة جداً حتى تضطرب الطاقة التقييمية ولا تنتعش إلاّ بشبح الشخص المحبوب. عندئذٍ تتوقد الروح والجسم، وتتعاقب الكآبة مع البهجة، لأن الحرارة (التي تنزل في فترات اليأس إلى المناطق السفلية من الجسم مجمّدة الجلدة) في فترات الجذل تصعد إلى السطح فيلتهب الوجه. والعلاج الذي ينصح به أرنالدو يتمثل في فقدان الثقة والأمل في الوصول إلى الشيء المحبوب بحيث يبتعد عنه الفكر.

فقلت في نفسي، لقد شفيت إذن، أو أتماثل للشفاء، لأن أملي في رؤية محلّ أفكاري ضعيف إن لم يكن مفقوداً تماماً، وإن رأيته، في الوصول إليه، وإن وصلت إليه في امتلاكه من جديد، وإن امتلكته في الاحتفاظ به إلى جانبي، سواء بسبب حالتي الرُّهبانية أو بسبب الواجبات التي يفرضها عليّ مقام أهلي... فقلت في نفسي، لقد نجوت. وأغلقت الكرّاس مستعيداً هيئتي الاعتيادية في الحين نفسه الذي دخل فيه غوليالمو القاعة. وتابعت معه الرحلة عبر المتاهة وقد خلعنا عنها قناعها (كما كنت قد ذكرت) ونسيت على الأقل بالنسبة لتلك الآونة الأفكار التي كانت تستحوذ عليّ.

ولكنها، كما سنرى، ستعود إليّ بعد وقت قليل وفي ظروف، للأسف، مُختلفة جداً.

Twitter: @ketab_n

اليَوم الرّابع: ليـلاً

وفيه يُفتضح أمر سلفاتوري من طرف برناردو غي، ويُقبض على الفتاة المحبوبة بتهمة السِّحْر ثم يذهب الجميع إلى النوم أكثر تعاسة وانشغالاً من ذي قبل

وفعلاً، كنّا بصدد النزول إلى قاعة الأكل عندما سمعنا صخباً ورأينا أضواء ضعيفة تلمع من ناحية المطبخ. فأطفأ غوليالمو النُّور واقتربنا محاذين الجدران إلى الباب الذي يفضي إلى المطبخ، فسمعنا الضجيج آتياً من الخارج، إلاّ أن الباب كان مفتوحاً. ثم ابتعدت الأصوات والأضواء وأغلق أحدهم الباب بعنف. كانت جلبة كبيرة تنبئ بمكروه. مررنا من جديد بسرعة عبر المَعْظَمة وبرزنا في الكنيسة التي كانت خالية، ثم خرجنا من الباب الجنوبي ورأينا أضواء مشاعل في الرواق.

اقتربنا، وفي غمار الفوضى كان يبدو أننا هُرعنا، نحن أيضاً، إلى ذلك المكان مع الكثيرين الذين كانوا هناك، وقد خرج بعضهم من قاعات النوم وبعضهم من دار الضيافة. ورأينا النبّالين يمسكون بشدة بسلفاتوري، شاحباً أكثر من بياض عينيه، وبامرأة كانت تبكي. وأحسست بانقباض في قلبي: إنها هي، فتاة خواطري. ولما رأتني عرفتني وألقت إليّ بنظرة متوسلة يائسة. كدت أندفع لتخليصها ولكن غوليالمو أمسكني هامساً إليّ بكلمات تعنيف خالية تماماً من المودّة. وكان الرُّهبان آنذاك والضيوف يتراكضون من كلّ صوب.

وصل رئيس الدير، ووصل برناردو غي الذي قدّم إليه قائد النبّالين تقريراً وجيزاً. وهذا ما حدث.

بأمر من المحقق كانوا يطوفون أثناء الليل عبر المكان كلّه، مُوْلِين اهتماماً خاصاً بالمسلك المؤدي من باب الدير إلى الكنيسة، بجهة المبقلة، وبواجهة الصرح (وتساءلت لماذا؟ ثم فهمت: من الواضح أن برناردو غي التقط من الخدم

Twitter: @ketab_n

ومن الطباخين معلومات عن تحرّكات ليلية، ربما دون معرفة المسؤولين عنها بالضبط، كانت تقع بين خارج الأسوار والمطابخ، ومن يدري إن لم يكن ذلك الغبي سلفاتوري، كما حدثني أنا عن مقاصده، كان قد تحدث بذلك في المطبخ أو في الإصطبلات إلى بعض اللئام وأخافت هذا الأخير تحقيقات برناردو في العشية فنقل إليه تلك الأحاديث). وبينما كانوا يطوفون، متيقظين، في العتمة وبين الضباب، فاجأ النبّالون أخيراً سلفاتوري صِحْبَة المرأة بينما كان مُنْهَمِكاً في شؤونه أمام باب المطبخ.

وقال برناردو بصرامة متوجهاً إلى رئيس الدير: «إمرأة في هذا المكان المقدس! ومع راهب!» ثم تابع «سيدي الجليل، لو كان الأمر يقتصر على انتهاك نُذُر العِفّة فعقاب هذا الرجل يكون من مشمولاتكم القضائية. ولكن بما أننا لا نعرف إلى الآن إن كانت لأعمال هذين الفاجرين علاقة بسلامة الضيوف، ينبغي قبل كل شيء أن نزيح السّتار عن هذا السر الغامض. هلمّ إذن، أتحدث إليك أيها البائس» ـ وانتزع من صدر سلفاتوري اللفافة التي كانت ظاهرة بوضوح بينما كان يظن أنها مخفية ـ «ماذا يوجد بداخلها؟»

كنت أعرف أنا ماذا يوجد بها: سكين، وقط أسود وثب وهو يموء هائجاً عندما فتحت اللفافة، وبيضتان أصبحتا لزجتين وقد كسرتا، وبانتا للجميع دماً أو مِرّة صفراء أو مادة أخرى نجسة. كان سلفاتوري يستعد للدخول إلى المطبخ لذبح القط وانتزاع عينيه، ومن يدري بأي وعود جعل الفتاة تتبعه. وعرفت حالاً نوعية تلك الوعود عندما فتّش النبّالون الفتاة وسط ضحكات خبيثة وأنصاف كلمات داعرة، ووجدوا عندها ديكاً صغيراً ميتاً لم ينتف ريشه بعد. وشاء سوء الحظ في الليل، حيث تبدو كل القطط رمادية، أن يظهر الديك أسود كالقط. بينما فهمت أنا أنّ ذلك كان كافياً لاستمالة تلك الجائعة المسكينة التي تخلّت في الليلة الفارطة (ومن أجل حبها لي!) عن قلب الثور الثمين...

وصاح برناردو بنبرة تنمّ عن الانشغال الكبير «قط وديك كلاهما أسود... ولكنني أعرف أدوات الشيطان هذه.»... ـ ثم لمح غوليالمو من بين الحاضرين - فقال له: «ألا تعرفها أنت أيضاً، يا أخ غوليالمو؟ ألم تكن مُحققاً في كيلكينّي،

Twitter: @ketab_n

منذ ثلاث سنوات، حيث كانت تلك الفتاة تتعامل مع شيطان يظهر لها في هيئة قط أسود؟»

وبدا لي أن أستاذي كان يسكت عن جُبْن. فأمسكته من كمّه وحرّضته هامساً إليه بيأس «بل قل له إنها أخذته كي تحصل على قوت.»..

فتحرر من قبضتي وتوجه بأدب إلى برناردو «لا أظن أنك بحاجة إلى خبراتي القديمة كي تصل إلى استنتاجاتك». فابتسم برناردو قائلاً «آه، كلاّ، توجد شهادات أكثر وثوقاً فهذا ستيفانو دي بوربوني يروي في دراسته حول هِبات الروح القدس السبع كيف أن القديس دومينيكْس، بعد أن وعظ بفونجو ضدّ الهراطقة، أعلن إلى بعض النساء أنهن سيرين من كُنَّ يخدمن إلى ذلك الحين. وفجأة قفز بينهن قط فظيع في حجم كلب كبير، له عينان كبيرتان وملتهبتان، ولسان دام يصل إلى السرة، وذنب قصير منتصب، كيفما يتحرك الحيوان يظهر فُجُور دُبْره النَتن أكثر من أي دُبْر آخر، كما يجدر بذلك الدُّبْر الذي اعتاد دائماً متعبدو إبليس، وجنود الهيكل ليسوا الأخيرين، أن يقبّلوه أثناء اجتماعاتهم. وبعد أن طاف حول النساء لمدّة ساعة قفز القط على حبل الجرس وتسلّقه تاركاً وراءه بقاياه العفنة. أو ليس القط هو الحيوان الذي يحبه المانويون الذين يستمدون اسمهم (catari) بحسب ألانو ديلّي إيزولي، من catus بالذات، لأنهم يقبّلون من الحيوان مُؤَخِّرَتَهُ وهم يعتبرونها تجسيداً للوسيفوروس! ألا يؤكد هذه المُمارسة الكريهة غوليالمو دا لفارنيا أيضاً، في كتابه **في القانون**؟ ألا يقول ألبارتو مانيو إن القطط شياطين بالقوّة؟ ثم ألا يقول زميلي الوقور جاك فورنييه إنه ظهر على فراش موت المحقق غوفريدو دا كاركاسوني قطّان أسودان، لم يكونا إلاّ شيطانين كانا يريدان العبث بتلك الجثة؟».

وسرت همسات الفظاعة بين مجموعة الرُّهبان بينما رسم العديد منهم علامة الصليب المقدس.

وقال في الأثناء برناردو بنبرة ورع «سيدي رئيس الدير، سيدي رئيس الدير، قد لا تعرف سيادتكم ماذا اعتاد المذنبون أن يفعلوا بهذه المعدّات! ولكنني أنا أعرف ذلك جيداً، لا سمح اللّه! لقد رأيت نساء شريرات جداً كنّ في الساعات

Twitter: @ketab_n

الحالكة من الليل صحبة نساء أخريات من طائفتهن، يستعملن قططاً سوداء للحصول على معجزات لم يقدرن قط على إنكارها: كن يذهبن راكبات صهوة بعض الحيوانات، قاطعات تحت ستر الظلام مساحات شاسعة وهن يجذبن وراءهن عبيدهن وقد تحوّلوا إلى كوابيس ذوي شهوات جنونية... والشيطان نفسه يظهر لهن، أو على الأقل هن يعتقدن ذلك بقوة، في هيئة ديك، أو حيوان آخر شديد السواد، ويجامعن، ولا تسألوني كيف، ذلك الحيوان. وأعرف بالتأكيد أنه بسحر مماثل، وفي وقت غير بعيد، في أفينيون بالذات، كانت تُعدّ مشروبات سحرية وأدهان لاغتيال مولانا البابا نفسه، بتسميم الأكل. وقد استطاع البابا أن ينجو من ذلك وأن يتفطّن للسمّ فقط لأنه مُحصّن بجواهر مُعجزة في شكل لسان ثعبان، مقوّاة بأحجار رائعة من الزمرّد والياقوت تصلح بقدرة إلـهية لاكتشاف وجود السم في الأكل! وقد أهدى إليه ملك فرنسا أحد عشر لساناً من تلك الألسن الثمينة، ليكن الشكر للسماء، وهكذا فقط استطاع مولانا البابا النجاة من الموت! صحيح أن خُصوم الحَبْر الأعظم فعلوا أكثر من ذلك. ويعلم الجميع ماذا اكتشف حول الزنديق برنار ديليسيو الذي وقع إيقافه منذ عشر سنوات: لقد اكتُشفت في منزله كُتُب سِحْر فيها مُلاحظات في أكثر الصفحات فُسُوقاً بالذات، مع كلّ التعليمات لصنع صور من الشمع يستطيع من خلالها أن يلحق الضّرر بخصومه. ولن تصدقوا ذلك، لقد وجدوا لديه صوراً تمثّل، بفن دون شك جدير بالإعجاب، صورة البابا نفسه، بدوائر صغيرة في مناطق الجسم الحيويّة: ويعلم الجميع أن مثل تلك الصور تُعلّق في حبل وتُوضع أمام مِرآة ثم تُصاب الدوائر الحيوية بإبر ف... آه، ولكن لماذا أطيل الحديث في مثل هذه الحقارات المُخزية؟ البابا نفسه حدثني عنها ووصفها لي وقد أدانها، في السنة الفارطة بالذات، في دستوره «Super illius specula» وأرجو أن تكون لديكم نُسخة منه في مكتبتكم الثرية، للتأمل فيه كما ينبغي.»..

فسارع رئيس الدير بالتأييد وهو مُرْتَبِك أشد الارتباك «لدينا، لدينا ذلك».

فاختتم برناردو قائلاً: «حسن. الآن يبدو لي الأمر واضحاً. راهب ضالّ، وساحرة، وبعض الطقوس التي من حسن الحظ لم تتمّ. ولكن لأي غرض؟ وهذا

Twitter: @ketab_n

ما سنعرفه، وأريد اختلاس بعض الساعات من النوم لمعرفة ذلك. هل تتفضل سيادتكم أن تضع تحت تصرفي مكاناً يمكن لنا فيه حراسة هذا الرجل..».

فقال رئيس الدير «لدينا بعض الزنزانات في الطابق السفلي تحت مشغل الحدّادين، تُستعمل لحسن الحظ قليلاً وهي خالية منذ سنين»..

فقال برناردو «لحسن الحظ أو لسوء الحظ». وطلب أن تُبيّن الطريق للنبالين آمراً أن يُقاد الأسيران إلى زنزانتين مُختلفتين، وأن يوثق الرجل جيداً إلى بعض الحلق المثبتة في الحائط، حتى يتمكن بعد قليل من النزول لاستنطاقه محدقاً جيداً في وجهه. وقال مضيفاً: «أمّا الفتاة ومن تكون فذلك واضح، وليست هناك جدوى من استنطاقها هذه الليلة. تنتظرها مِحَن أخرى قبل حرقها على أنها ساحرة. وإن كانت ساحرة فلن تتكلم بسهولة. ولكن الراهب، من يدري، قد يتوب (وحدّق في سلفاتوري الذي كان يرتعد، كما لو كان يريد أن يفهمه أنه يمنحه فرصة أخيرة للتوبة) كاشفاً عن هويّة شُركائه».

وجُرّ كلاهما، أحدهما صامت ومُنكسر، وكأنه محموم، والأخرى تبكي وتركل وتصرخ كحيوان يُقاد إلى المجزرة. ولكن لا برناردو ولا النبّالون ولا أنا، كنا نفهم ماذا كانت تقول في لهجتها تلك، لهجة الفلاحين، ورغم كلّ أقوالها كانت كأنها بكماء. هناك كلمات تعطي نفوذاً وأخرى تجعل صاحبها أكثر ضعفاً من ذي قبل. ومن هذا النوع الأخير كلمات البُسَطاء العامية، الذين لم يمنحهم الإلٰه القدرة على التعبير باللّغة الكونية، لغة العلم والنفوذ.

ومرة أخرى كدت أتبعها، ومرّة أخرى أمسكني غوليالمو وهو مُكفهر الوجه، قائلاً «لا تتحرك، أيها الغبيّ. إن الفتاة هالكة، فهي لحم محروق».

وبينما كنت أتابع المشهد بارتياع، في دوامة من الأفكار المُتناقضة وأنا أحدق في الفتاة، إذ أحسست بأحد يلمس كتفي. ولا أدري لماذا ولكني قبل أن ألتفت لأراه عرفت من اللمسة أنه أوبارتينو. وسألني:

ـ «إنك تنظر إلى الساحرة، أليس صحيحاً؟». وكنت أعرف أنه لا يمكن أن

Twitter: @ketab_n

يكون على علم بقصتي، وأنه كان يتحدث إذن كذلك فقط لأنه تفطّن، لعُمق معرفته بالعواطف الإنسانية، إلى عُمق نظراتي.

فأجبت منفلتاً «كلاّ، لم أكن أنظر إليها... أي، ربما كنت أنظر إليها، ولكنها ليست ساحرة... لا نعرف ذلك، ربما هي بريئة».

ـ «إنك تنظر إليها لأنها جميلة. إنها جميلة أليس كذلك؟» ـ وألقى سؤاله بحرارة غريبة، ضاغطاً على ذراعي «إن كنت تنظر إليها لأنها جميلة وترتبك من أجل ذلك (وأعرف أنك ترتبك، لأنها مُتهمة بخطيئة تجعلها أكثر فتنة في عينيك)، إن كنت تنظر إليها وتحس بالرغبة، فلذلك السبب نفسه هي ساحرة. حذار، يا بُني... إن جمال الجسد لا يتعدى الجلد. لو أن الرجال رأوا ماذا يوجد تحت الجلد، كما حدث مع فهد بيوتسيا، لاقشعرّوا من رؤية المرأة. كل ذلك الجمال مُتكون من نُخاع ودَم، من أخلاط ومرّة. ولو فكرنا فيما يختفي في المنخرين، في المزدرد وفي البطن لما وجدنا إلاّ عُفُونة. وإن كنت تنفر من لمس المُخاط أو الرَّوْث بطرف إصبعك، فكيف يمكن أن ترغب في معانقة الكيس نفسه الذي يحتوي على الزبل؟»

فشدتني رغبة في التقيؤ ولم أعد أرغب في سماع تلك الكلمات، فسارع أستاذي لنجدتي، وكان قد سمع ذلك، فاقترب بعنف من أوبارتينو وأمسكه بشدة من ذراعه، وفك قبضته عني قائلاً له:

«كفى يا أوبارتينو. عمّا قريب ستُعذّب تلك الفتاة، ثم تُحرق. ستصبح بالضبط كما كنت تقول، مُخاطاً، ودماً وأخلاطاً ومِرّة. ولكن سيكون أمثالنا هم الذين سيُخرجون من تحت جلدها ما أراد الرب إخفاءه وتزيينه بذلك الجلد. ومن ناحية المادة الأولى، أنت لست أفضل منها. اترك الولد لحاله».

فارتبك أوبارتينو هامساً «قد أكون ارتكبت ذنباً. إني ارتكبت دون شك ذنباً. وماذا يمكن أن يفعل مُذنب؟»

كان الجميع في ذلك الحين بصدد العودة إلى حجراتهم، معلّقين فيما بينهم على ما حدث. وتحادث غوليالمو قليلاً مع ميكيلي ومع الفرانشسكانيّين الآخرين، الذين كانوا يسألونه عن انطباعاته.

Twitter: @ketab_n

ـ «برناردو يملك الآن حجُة، ولو أنها مُلتبسة. يطوف في الدير مشعوذون يفعلون الأشياء نفسها التي استُعملت ضد البابا في أفينيون. دون شك هذا ليس دليلاً، ولا يمكنه استعماله في مقام أول لتشويش لقاء الغد. سيحاول هذه الليلة أن ينتزع من ذلك التعيس بعض المعلومات الأخرى، ولن يستعملها حالاً، كما أنا متأكد من ذلك، في صبيحة الغد. سيحتفظ بها لتصلح له فيما بعد، لعرقلة مسار المُناقشات إذا ما اتخذت مجرى لا يعجبه».

فسأله ميكيلي دا تشيزينا «أيمكن أن يرغمه على قول شيء يستعمله ضدنا؟»

فبقي غوليالمو متردداً ثم أجاب «نرجو أن لا يفعل ذلك». ففكرت في أن سلفاتوري إن قال لبرناردو ما قاله لنا نحن، عن ماضيه وعن ماضي القيّم، وإن لمّح ولو بصفة خاطفة إلى علاقتهما بأوبارتينو، فسيخلق ذلك حالة مُحرجة جدّاً.

فقال غوليالمو بهدوء «على كل حال لننتظر الأحداث. ومن ناحية أخرى، يا ميكيلي، لقد تقرّر كل شيء من قبل. ولكنك تريد أن تحاول».

فأجاب ميكيلي «أريد ذلك، وسيكون الإلٰه في عوني. وليتوسط بيننا القدّيس فرانشسكو».

فردّ الجميع «آمين».

فعقّب غوليالمو مُتجاسراً «ولكن ليس ذلك مؤكداً، قد يكون القديس فرانشسكو ينتظر في مكان ما يوم الدينونة الأخيرة دون رؤية الرب وجهاً لوجه».

وسمعت السيّد جيرولامو يغمغم بينما كان الجميع يعودون إلى فراشهم «لعنة اللّه على الزنديق جيوفاني! إذا ما حرمنا من معونة القدّيسين، ماذا سيكون حالنا، نحن المذنبين المساكين؟»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

اليوم الخامس

اليوم الخامس: أولى

وفيه تدور مناقشة أخوية حول فقر المسيح

استيقظت صباح اليوم الخامس بينما كانت تدق «أولى»، تُثير نفسي آلاف مشاعر القلق بعد مشهد تلك الليلة، وبعد أن هزّني غوليالمو بعنف ونبّهني إلى أن القصادتين ستجتمعان بعد قليل. نظرت خارج نافذة الحجرة فلم أرَ شيئاً. لقد أصبح ضباب اليوم السابق سِتاراً كثيفاً كالحليب يُهَيْمن دون منازع على السهل.

ما إن خرجت حتى رأيت الدير كما لم أره قبل ذلك. ما عدا بعض البناءات الكبرى كالكنيسة والصرح وقاعة المجلس، التي كانت تبرز حتى من بعيد، ولو بدون دقة في الخطوط، أشباحاً بين الأشباح، كانت باقي البناءات ظاهرة على بعد خطوات قليلة فقط، فكأن الأشكال والأشياء والحيوانات تبرز بصفة مفاجئة من العدم، وكان الأشخاص يبرزون من الضباب، في البداية رماديّي اللون كأنهم أشباح، ولا يمكن التعرف عليهم إلاّ بصعوبة.

لم يكن ذلك العنصر الطبيعي جديداً بالنسبة إليَّ، أنا المولود في البلدان الشمالية، وكان يمكن في حالات أخرى أن يذكّرني، بشيء من الحنين، بالسّهل والقصر اللذين نشأت فيهما. ولكن في ذلك الصباح بدت لي حالة الهواء مُماثلة في كدرها لحالاتي النفسية وازداد شيئاً فشيئاً ذلك الإحساس بالكرب الذي استيقظت عليه كلما زدت اقتراباً من قاعة المجلس.

على بُعْد خطوات قليلة من المبنى رأيت برناردو غي يستأذن في الانصراف من شخص آخر لم أتعرف عليه من أول وهلة. ولمّا مر بجانبي رأيت أنه مَلاخي.

Twitter: @ketab_n

وكان ينظر حواليه كمن يريد أن لا يراه أحد وهو يرتكب جريمة: ولكني كنت قد ذكرت أن ملامح ذلك الرجل هي بطبيعتها ملامح من يخفي، أو يحاول إخفاء سرّ لا يمكن الاعتراف به.

لم يتعرف عليّ، وابتعد. وأنا، بدافع الفضول، تبعت برناردو ورأيته يقرأ بعض الأوراق، ربما كان قد سلّمها إليه مَلاخي. وعلى عتبة القاعة أومأ إلى قائد النبّالين الذي كان قريباً من هناك وهمس إليه بضع كلمات. ثم دخل، وتبعته.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أضع فيها قدمي في ذلك المكان، الذي كان من الخارج ذا حجم متواضع وأشكال بسيطة، وتفطّنت إلى أن بناءه قد أُعِيدَ في عصور قريبة فوق أنقاض كنيسة ديرية بدائية ربما كان قد دمّر حريق جزءاً منها.

عندما يدخل المرء من الخارج يمر تحت باب كبير مصنوع على الطريقة الجديدة، ذي قوس قوطية، دون زخرف تعلوها نجمية. ولكن من الداخل تجد نفسك في بهو أُعِيدَ بناؤه فوق بقايا مجاز قديم. في الجهة المقابلة يقف باب كبير آخر، ذو قوس على الطريقة القديمة، له لوحة جبهة في شكل نصف دائرة منحوتة بروعة. قد تكون بوّابة الكنيسة المُندثرة.

وكانت نُقوش لوحة الجبهة في مثل جمال نقوش الكنيسة الحالية ولكنها كانت أقلّ ترويعاً. وهنا أيضاً كان يعلو لوحةَ الجبهة مسيحٌ فوق العرش، ولكن كان بجانبه، في أوضاع مُختلفة وماسكين بأشياء مُختلفة، الحواريون الاثنا عشر الذين تسلموا منه الأمر بالذهاب عبر العالم ليبشروا بالإنجيل. فوق المسيح وفي قوس مقسّم إلى اثني عشر إطاراً، وعند قدمي المسيح، في صف لا ينقطع من الصور، كانت شعوب العالم كلها ممثلة، تلك التي ستتسلم البشارة الجديدة. وتعرّفت من لباسهم، على اليهود، والكَبّادوقيين، على العرب والهنود، على الفريجيين، على البيزنطيين والأرمينيين، على السّيت والرومان. ولكن امتزجَ بهم، في ثلاثين إطاراً دائرياً موضوعة في شكل نصف دائرة فوق قوس الأُطُر الاثني عشر، سكانُ العوالم المجهولة، التي حدّثنا عنها قليلاً «الفيزيولوجي» وروى لنا الرحالة عنها روايات قليلة وغير ثابتة. وكنت أجهل كثيراً من تلك الشعوب وأعرف

Twitter: @ketab_n

أخرى: مثلاً هناك المتوحشون الذين لهم ستة أصابع في كل يد، والفونيون، الذين يُولدون من الديدان المُتكوِّنة بين لِحاء الشجر ولُبِّها، وجنيّات البحر ذات الذنب المُحرشف، التي تغري البحارة، والأثيوبيون ذوو الجسد الأسود الذين يحمون أنفسهم من حرارة الشمس بحفر مغاور تحت الأرض، والسنتوريون وهم بشر إلى السُرّة وحَمِير ما تحت ذلك، والعمالقة بعين واحدة في حجم درع وسيلاّ الذي له رأس وصدر فتاة، وبطن ذئبة وذنب دلفين ورجال الهند الكثيفو الشعر الذين يعيشون في المستنقعات وعلى ضفاف نهر إبيغماريد، وكلبيّات الرؤوس التي لا تستطيع أن تقول شيئاً دون النباح من حين لآخر، والسكيابوديون الذين يَعدُون بسرعة فائقة على ساق واحدة وعندما يريدون الاحتماء من الشمس يستلقون ويرفعون قدمهم الكبيرة كأنها مظلة، وعديمو الفم الذين يتنفسون من المناخير ويعيشون بالهواء فقط، ونساء أرمينيا ذوات اللحى، والأقزام، والإبيستجيون، وبعضهم يسمونهم بليميين، يولدون دون رأس، لهم فم فوق البطن وعينان على الكتفين، ونساء البحر الأحمر الفظيعات، تبلغ قامتهن اثنتي عشرة قدماً ويصل شعرهن إلى القدمين، ولهن ذنب بقر في أسفل الظهر وحوافر جمل، وأولئك الذين لهم باطن قدم منقلب، ومن يطاردهم متتبعاً آثارهم يصل دائماً إلى المكان الذي انطلقوا منه ولا يصل أبداً إلى المكان الذي ذهبوا إليه، ثم بشر بثلاثة رؤوس، وآخرون بعيون لامعة كالفوانيس ومُسوخ جزيرة سيرسي، بجسم بشر وعنق حيوانات مُختلفة.

هذه وروائع أخرى كانت منقوشة على تلك البوابة. ولكن لم يكن أحدها يثير الخوف لأنها لم تكن تمثل شرور هذه الأرض أو عذاب الجحيم، بل كانت شاهدة على أن البشارة بالخير قد وصلت إلى كل بقاع الأرض المعروفة وأنها تمتد إلى المجهولة منها، بحيث تكون البوابة واعدة بالوفاق وبإتمام الوحدة تحت كلمة المسيح، وبشمول رائع.

فقلت في نفسي إنه لَبَشير خير بالنسبة إلى اللقاء الذي سيقع وراء تلك العتبة، حيث سيتلاقى رجال أصبحوا أعداء لاختلاف تأويلهم للإنجيل، ربما ليُصلحوا ما بينهم من خلاف. وقلت لنفسي إنني كنت مذنباً ضعيفاً إذ كنت أتألم

Twitter: @ketab_n

لحالاتي الشخصية بينما ستقع أحداث ذات أهمية عظيمة بالنسبة إلى تاريخ المسيحية. وقارنت حقارة آلامي بعظمة الوعد بالسلام وبالأمن المنحوت على حجارة لوحة الجبهة. وسألت الرب أن يغفر لي ضعفي، واجتزت العتبة بطمأنينة أكبر.

ما إن دخلت حتى رأيت أعضاء القَصادتين، وقد تواجهوا جالسين فوق مجموعة من الكراسي وضعت في شكل نصف دائرة، وتفصل الجبهتين طاولة جلس إليها رئيس الدير والكاردينال برتراندو.

ووضعني غوليالمو، الذي أخذني معه كي أدوّن ما سيقال، في جهة الفرانشسكانيّين، حيث كان يجلس ميكيلي ورفاقه مع فرانشسكانيين آخرين من بلاط أفينيون. إذ كان ينبغي أن لا يبدو اللقاء نِزالاً بين إيطاليين وفرنسيين، ولكن مُجادلة بين مؤيدي القاعدة الفرانشسكانية ومُنتقديهم، يوحّد الجميعَ إخلاصٌ صادق وكاثوليكي للبلاط البابوي.

مع ميكيلي دا تشيزينا كان يجلس الأخ أرنالدو داكيتانيا والأخ أوغو دا نوفو كاسترو والأخ غوليالمو ألنويك، الذين كانوا قد شاركوا في مجمع بيروجيا، ثم أسقف قيافا وبرينغاريو تالّوني، بونغراتسيا دا برغامو وفرانشسكانيون آخرون من البلاط الأفينيوني. في الجهة المقابلة كان يجلس لورانتسو ديكوالكوني، فقيه أفينيون وأسقف بادوفا وجون دانّو، عالِم في اللاهوت بباريس. بجانب برناردو غي كان يجلس صامتاً وغارقاً في أفكاره، الدومينيكاني جون دي بون الذي كانوا يسمونه في إيطاليا جيوفاني دالبينا. وقال لي غوليالمو إنه كان قبل سنوات مُحققاً في ناربونا، حيث حاكَمَ العديد من المُتزمتين والمُترهبين، ولكن بما أنه أدان بالهرطقة تلك الفكرة بالذات التي تتعلق بفقر المسيح، قام ضدّه برينغاريو تالّوني، وكان مُقرئاً في دير تلك المدينة، مُستنجداً بالبابا. كان جيوفاني آنذاك متردداً حول تلك القضية فدعا الاثنين إلى البلاط للمجادلة، دون الخروج بأية نتيجة. مما جعل الفرانشسكانيّين بعد وقت قليل يتخذون الموقف الذي كنت قد تحدثت عنه، في مجمع بيروجيا. وأخيراً من جهة الأفينيونيين كان هناك آخرون، من بينهم أسقف ألبوريا.

وافتتح أبوني الجلسة ورأى أنه من الأفضل تلخيص الأحداث القريبة العهد.

Twitter: @ketab_n

فذكّر أنه في السنة الميلادية 1322 قرّر مجمع الرُّهبان الفرانشسكانيّين العام، الذي التأم في بيروجيا تحت زعامة ميكيلي دا تشيزينا وبعد مُداولة جادّة ومُعمّقة أن المسيح، كي يعطي مثال الحياة الكاملة، والحواريين كي يتّبعوا تعاليمه، لم يشتركوا قط في ملك شيء لغاية الامتلاك أو لغاية السيادة، وأن هذه الحقيقة تكوّن المادة لعقيدة صحيحة وكاثوليكية، كما يمكن استخلاص ذلك من استشهادات مُختلفة من الكتب الكنيسية. ولذا يكون جديراً بالتقدير ومقدّساً العدول عن امتلاك كلّ الأشياء، وكان المُؤسسون الأولون للكنيسة المناضلة قد تمسّكوا بهذه القاعدة المقدّسة. كما أن مجمع فيينا كان قد تمسّك سنة 1312 بهذه الحقيقة وأن البابا جيوفاني نفسه سنة 1317، في الدستور الذي يخصّ حالة الإخوان الفرانشسكانيّين الذي يبدأ بـ «Quorundam exigit»، كان قد علّق على قرارات ذلك المجمع على أنها وضعت بقداسة وجلاء وبثبات ونضج. ولذا اعتبر مجمع بيروجيا، أن ما أيده برأي صائب كرسي البابوية ينبغي أن يبقى دائماً مقبولاً، ولا يمكن بطريقة من الطرق الحياد عنه، فاكتفى بتأييد ذلك القرار المجمعي من جديد بإمضاء عُلماء في اللاهوت المقدّسة كالأخ غوليالمو من إنكلترا، والأخ إنريكو من ألمانيا والأخ أرنالدو من أكيتانا، ووُلاة ووزراء، دون أن ننسى ختم الأخ نيكولا وزير فرنسا، والأخ غوليالمو بلوك الذي كان فقيهاً، والوزير العام وأربعة وزراء جهويين، والأخ طومازو من بولونيا، والأخ بيترو من مقاطعة القديس فرانشسكو، والأخ فرناندو دا كاستيلو والأخ سيموني دا تورونيا، ولكن، أضاف أبوني، في السنة الموالية أصدر البابا المرسوم «Ad conditorem canonum» الذي نادى بنقضه الأخ بوناغراتسيا دا برغامو، واعتبره مُناقضاً لمصالح نظامه. عند ذلك خلع البابا ذلك من باب الكنيسة الكبرى في أفينيون ونقّحه في عدّة نقاط. ولكنه جعله في الحقيقة أكثر حدّة، والدليل أنه كنتيجة فورية لذلك بقي الأخ بوناغراتسيا سنة في السجن. ولم تعد هناك شكوك بخصوص صرامة البابا، إذ أصدر في السنة نفسها «Cum inter nonnullos» الذي أصبح مشهوراً جداً، والذي يدين فيه نهائياً مواقف مجمع بيروجيا.

فتكلم عندئذٍ الكاردينال برتراندو، مقاطعاً أبوني بأدب قائلاً إنه ينبغي التذكير بأنه مما زاد الأشياء تعقيداً وأغضب البابا تدخّلُ الإمبراطور لودوفيكو البافاري سنة

Twitter: @ketab_n

1324 بتصريح ساكسِنهاوزن، الذي يُؤيِّد فيه دون سبب معقول مواقف بيروجيا (ولا يُفهَم لماذا، كما ولاحظ برتراندو، بابتسامة مُريبة ـ يُؤيِّد الإمبراطورُ بذلك الحماس فقراً لا يمارسه هو نفسه البتّة)، ويتّخذ فيه موقفاً مُعادياً لمولانا البابا، مسمّياً إياه «عدوّ السلام» وقائلاً إنه لا يهتم إلاّ بخلق الفضائح والشّقاق، ورماه أخيراً بالزندقة، بل بالإلحاد.

فحاول أبوني أن يتوسّط قائلاً «ليس تماماً».

وردّ برتراندو بجفاء «كان ذلك هو الفحوى». وأضاف أنه للردّ فعلاً على تدخل الإمبراطور الذي جاء في غير محله اضطر مولانا البابا إلى إصدار مرسوم «Quia quorundam»، وأنه لذلك دعا بصرامة ميكيلي دا تشيزينا للمثول أمامه. فبعث ميكيلي برسائل يعتذر فيها بأنه مريض، ولم يشك أحد في ذلك، وأرسل عوضاً عنه الأخ جيوفاني فيدانزا والأخ أوميلي كيستوديو دا بيروجيا. ولكن حدث كما قال الكاردينال إن الغوالفيين في بيروجيا أخبروا البابا بأن الأخ ميكيلي، الذي لم يكن مريضاً البتة، كانت له اتصالات مع لودوفيكو البافاري. وأنه على كل حال ما وقع قد وقع وانتهى، والآن يبدو الأخ ميكيلي مُطمئناً ومُعافى، وأنه مُنتظَر إذن في أفينيون. ومن الأحسن كما اعترف الكاردينال، أن توزن، أمام رجال متبصرين من الشقين، الأقوال التي سيتقدم بها ميكيلي إلى البابا، إذ إن الهدف الذي يصبو إليه الجميع هو أن لا تزيد الأشياء حدّة أكثر مما هي عليه، وأن يوضع حدّ لمُجادلة ما كان ينبغي أن تقع بين أب عطوف وأبنائه الأتقياء، والتي إلى ذلك الحين لم تتأجّج نارها إلاّ من تدخل المدنيين، من إمبراطوريين ونائبين، الذين ليس لهم نظر البتة في أمور الكنيسة المقدسة.

فتدخّل عندئذ أبّوني وقال إنه، بالرغم من أنه رجل كنيسة ورئيس دير نظام تدين له الكنيسة بالكثير (وجرت عند ذلك همسات تقدير وإجلال تأتّت من ناحيتي نصف الدائرة) فهو لا يعتبر مع ذلك أن الإمبراطور يجب أن يبقى غريباً عن مثل تلك المسائل، لكثير من الأسباب سيذكرها بعد قليل غوليالمو دا باسكرفيل. وواصل أبّوني قوله إنه صحيح مع ذلك أن الجزء الأول من المُناقشة يجب أن يدور بين المبعوثين البابويين وممثلي أبناء فرانشسكو، أولئك الذين بمشاركتهم

Twitter: @ketab_n

نفسها في هذا اللقاء، يظهرون للبابا بمظهر الأبناء الأوفياء. ولذا يدعو الأخ ميكيلي أو من سيتكلم باسمه إلى كشف ماذا ينوي أن يقول في أفنيون.

فقال ميكيلي إنه بابتهاج وبتأثر بالغيْن يرى بينهم ذلك الصباح أوبارتينو دا كزالي، الذي طلب منه البابا نفسه، سنة 1322، تقريراً مُدعّماً حول قضية الفقر وأوبارتينو بالذات يمكنه أن يلخص، بالوضوح، وبالمعرفة وبالإيمان المُتحمّس الذي يعترف له بهما الجميع، النقاط الرئيسية لتلك التي أصبحت الآن، وستبقى دائماً، مواقف النظام الفرانشسكاني.

فنهض أوبارتينو، وما إن أخذ في الكلام حتى فهمت لماذا كان يُثير كلّ ذلك الحماس عند سامعيه كواعظ وكرجل بلاط. لقد كان ذا حركات مُتحمّسة، وصوت مُقنع وابتسامة جذابة وتفكير واضح ومنطقي واستهلّ حديثه، فشدّ إليه السامعين طيلة الوقت الذي تكلم فيه. واستهل حديثه بعرض مُفصّل ودقيق للحُجَج التي تدعم مواقف بيروجيا. قال إنه ينبغي قبل كل شيء الاعتراف بأن المسيح وحوارييه كانوا في حالة مُزدوجة، لأنهم كانوا أحبار كنيسة العهد الجديد وفي هذا المعنى امتلكوا مالاً، كي يعطوا للفقراء ورجال الكنيسة، وذلك بوصفهم سلطة التوزيع والتفريق، كما هو مكتوب في الباب الرابع من أعمال الحواريين، ولا أحد يُناقش ذلك. ولكن، من ناحية ثانية ينبغي إعتبار المسيح والحَواريين أشخاصاً أفراداً، هم أساس كلّ كمال ديني، ومثال للاحتقار التامّ لحُطام الدنيا. وفي هذا المعنى تتوضح طريقتان في الامتلاك، الأولى مدنية ودنيوية، تلك التي تعرفها الأحكام الإمبراطورية بكلمات «in bonis nostris» لأن تلك الأملاك التي يحق لنا الدفاع عنها تُعتبر لنا، وإذا ما انتزعت منّا، فلنا الحق في المطالبة بها. لذا، فحق أن يدافع المرء مدنياً ودنيوياً عن ملكه ممن يريد انتزاعه منه، مُستغيثاً بالقاضي الإمبراطوري (والقول بأن المَسِيح والحواريين ملكوا أشياء بهذا المعنى هو قول هرطيقي، لأنه، كما يقول متى في الإصحاح الخامس، لمن يُطالبك أمام القاضي ويريد خلع قميصك عنك أعطِه أيضاً معطفك، ولا يقول خلاف ذلك لوقا في الإصحاح السادس، وبكلماته يبعد المسيح عن نفسه كل هيمنة وسيادة ويفرض على حوارييه الشيء نفسه، ولننظر أيضاً متى في الإصحاح الرابع والعشرين، حيث

Twitter: @ketab_n

يقول بطرس لسيدنا إنهم تركوا كل شيء ليتبعوه. ولكن من ناحية أخرى، يمكن مع ذلك امتلاك الأشياء الدنيوية، بموجب الإحسان الأخوي المشترك، وبهذه الطريقة امتلك المسيح وحواريوه أشياء بموجب طبيعي، ذلك الموجب الذي يسميه بعضهم «jus poli» أي موجب من السماء، لإعالة الطبيعة التي عندما تكون دون تشريع بشري تكون مطابقة للفكر المستقيم. بينما الحق المسمّى «jus fori» هي سلطة مستمدة من دستور بشري. وقبل التقسيم الأولي للأشياء، كانت هذه ـ من حيث السلطة ـ كالأشياء التي تُعتبر الآن دون مالك لها، وهي إذن لمن يمتلكها، وكانت بمعنى من المعاني مُشتركة بين كل البشر، بينما فقط بعد الخطيئة أخذ أسلافنا في تقاسم ملكية الأشياء ومنذ ذلك الحين بدأت السلطة الزمنية كما نعرفها اليوم. ولكن المسيح والحواريين امتلكوا الأشياء بحسب الطريقة الأولى، وهكذا حصلوا على اللباس والخبز والسمك وكما يقول بولس في رسالته الأولى إلى تيموثاوُس «لدينا الطعام وما نستتر به، ونحن سعداء». ولذا هذه الأشياء حصل عليها المسيح ورفاقه لا كملْك ولكن كاستعمال، دون أن يغيّر ذلك من فقرهم المطلق. وذلك ما اعترف به البابا نيكولو الثاني في دستوره «Exiit qui seminat».

ولكن نهض من الجهة المقابلة جون دانّو وقال إن مواقف أوبارتينو تبدو له مُتناقضة سواء مع الرأي الصائب أو مع التأويل الصحيح للكتابات. بما أنه بالنسبة إلى الأشياء القابلة للتلف من جراء الاستعمال كالخبز والسمك، لا يمكن التحدث عن مجرد حق الاستعمال، كما لا يمكن التحدّث عن استعمال فعلي إلاّ تجاوزاً. كلّ ما كان المؤمنون يشتركون في امتلاكه في الكنيسة البدائية، كما يستنتج ذلك من «أعمال الرسل»، الإصحاح الثاني والثالث، كانوا يمتلكونه بالطريقة نفسها التي كانوا يمارسونها قبل اعتناق الدين، وقد ملك الحواريون أراضي في اليهودية بعد نزول الروح القدس، ثم إن النذر بالعيش دون ملكيّة لا يمتد إلى الأشياء، التي هي ضرورية لحياة الإنسان كي يعيش، وعندما يقول بطرس إنه ترك كلّ شيء لم يكن يعني أنه عدل عن الملكية، لقد حصل آدم على سلطة وملكية الأشياء، والخادم الذي يأخذ نقوداً من سيده لا يقوم بالتأكيد لا بالتصرف فيها ولا بسوء التصرف، إن كلمات Exiit qui seminat التي يعود إليها دائماً الفرانشسكانيّون،

Twitter: @ketab_n

والتي تُحدد أن الرُّهبان الفرانشسكانيّين يملكون فقط حق استعمال الأشياء التي تصلح لهم دون أن تكون لديهم عليها سلطة ولا ملكية، تعني فقط الأملاك التي لا تتلف عن طريق الاستعمال، وفعلاً لو كان مرسوم «Exiit..» يضمّ الأملاك القابلة للتلف فإنه يُؤكّد شيئاً مستحيلاً. لا يمكن التمييز بين الاستعمال الفعلي والسلطة الشرعية. كل الحقوق البشرية، التي تمكّن من امتلاك أشياء مادية موجودة في قوانين الملوك. والمسيح كإنسان فانٍ، منذ اللحظة التي خُلق فيها، كان مالكاً لكل الأشياء الأرضية وكالرّب حصل من الأب على السلطة الشاملة على كلّ شيء، ملك أثواباً وأطعمة ونقوداً من مساهمات ومن هِبات المؤمنين، وإن كان فقيراً فهو لم يكن كذلك لأنه لم تكن لديه ملكية، ولكن لأنه لم يكن يجني ثمارها، إذ إن مجرد الملكية الشرعية، دون تقاضي الفوائد، لا تجعل مالكها غنياً. وأخيراً، حتى وإن قال المرسوم أشياء تختلف عن هذا، فالحَبْر الروماني، فيما يخصّ العقيدة والمسائل اللاهوتية، يستطيع أن يلغي قرارات سابقيه وحتى الجزم بضدّها.

عند ذلك الحد قام الأخ جيرولامو، أسقف قيافا، بحدّة ولحيته ترتعش من الحنق حتى وإن حاولت كلماته أن تظهر مسالمة. وبدأ مُحاجّة بدت لي غامضة بعض الشيء، فقال «إن ما أريد أن أقوله للأب المقدس، وسأقول له ذلك بنفسي، وليصوّبني إن أخطأت، لأني أظن حقيقة أن جيوفاني نائب المسيح، ومن أجل هذا الاعتراف اعتقلني المسلمون. وسأبدأ بذكر حدث رواه عالم كبير، حول مُجادلة وقعت يوماً بين بعض الرُّهبان حول من يكون أب «مَلْكِي صادق». وعندما سئل رئيس الدير كوبس عن ذلك، ضرب رأسه وقال «ويحك يا كوبس لأنك تبحث فقط عن تلك الأشياء التي لم يأمرك الرب بالبحث عنها وتهمل تلك التي يأمر بها». هوذا، كما يستنتج بوضوح من المثل الذي قلته، يبدو من الواضح أن المسيح والعذراء البارّة والحواريين لم يملكوا شيئاً لا فردياً ولا جماعياً، ويكون أقل وضوحاً من ذلك الاعتراف بأن يسوع كان إنساناً وربّاً في الوقت نفسه، وإذن يبدو لي واضحاً أن من ينفي الحقيقة البديهية الأولى ينبغي أن ينفي أيضاً الثانية!»

قال ذلك ظافراً، ورأيت غوليالمو يرفع عينيه إلى السماء وخمّنت أنه يجد القياس المنطقي الذي أتى به جيرولامو ضعيفاً شيئاً ما، ولا يمكنني القول إنه كان

Twitter: @ketab_n

مُخطئاً في ذلك، ولكن بدا لي أضعفَ الردُّ الحانق والمعارض الذي أتى به جيوفاني دالبينا الذي قال إن من يجزم بشيء حول فقر المسيح يجزم بما يرى (أو ما لا يرى) بالعين، بينما للتعريف بطبيعته البشرية وبطبيعته الإلٰهية يدخل الإيمان، ولذا لا يمكن وضع القضيتين في المستوى نفسه. وكان جيرولامو في رده ثاقباً أكثر من منافسه فقال: «أوه، كلاّ أيها الأخ العزيز. يبدو لي صحيحاً العكس بالذات، لأن كل الأناجيل تقول إن المسيح كان بشراً إذ كان يأكل ويشرب وكان أيضاً ربّاً لمعجزاته الواضحة تمام الوضوح، وكلّ هذا جلّي حقيقة للعيان!»

فقال دالبينا باستعلاء: «السحرة والمنجّمون أيضاً قاموا بمعجزات» فردّ جيرولامو «صحيح، ولكن بواسطة أعمال سحرية. وتريد أنت أن تضاهي معجزات المسيح بعمل السِّحْر؟» فندّت عن المجلس همسات سخط تعني رفضها لذلك. فتابع جيرولامو وقد أحسّ بنفسه قريباً من الانتصار «أيريد سيدي الكاردينال ديلبوجيتو أن يعتبر هرطوقياً الاعتقاد في فقر المسيح عندما تقوم على هذه الفكرة قاعدة نظام مثل النظام الفرانشسكاني، لا توجد مملكة لم يذهب إليها أبناؤه للتبشير ولإراقة دمائهم، من المغرب إلى الهند؟»

فهمس غوليالمو: «لتحفظنا روح بيترو إسبانو البارّة».

فتقدم عندئذ دالبينا خطوة إلى الأمام وصرخ «أيها الأخ العزيز، قل ما شئت عن دم إخوانك، ولكن لا تنسَ أن هذه التضحية قد قدمها أيضاً رجال دين من أنظمة أخرى..».

فصاح جيرولامو «مع تقديري لسيدي الكاردينال، لم يمت أي دومينيكي أبداً بين الكافرين، بينما في الفترة التي عشتها أنا فحسب استشهد تسعة من الفرانشسكانيّين!»

فنهض عندئذٍ أسقف ألبوريا الدومينيكي محمرّ الوجه وقال «إذن يمكنني أن أبرهن أنه قبل أن يذهب الفرانشسكانيّون إلى بلاد التتار أرسل البابا إينوتشانزو إلى هناك ثلاثة دومينيكيين!»

Twitter: @ketab_n

فضحك جيرولامو هازئاً: «آه صحيح! وأنا أعرف أن الفرانشسكانيّين يوجدون منذ ثمانين سنة في بلاد التتار ولديهم أربعون كنيسة عبر كل أنحاء البلاد، بينما لا يملك الدومينيكيون إلاّ أماكن على الساحل ولا يتجاوز عددهم في مجموعه خمسة عشر راهباً! وهذا يفض المسألة!»

فصاح ألبوريا: «هذا لايفض أية مسألة، لأن أولئك الفرانشسكانيّين الذين يضعون هراطقة كما تضع الكلاب صغارها، ينسبون كل شيء إليهم، ويعتزون بشهدائهم، ثم يمتلكون كنائس جميلة وديباجاً فاخراً لمذابحهم ويشترون ويبيعون ككل رجال الدين الآخرين!»

فقاطعه جيرولامو قائلاً: «كلا يا سيدي، كلاّ، هم لا يشترون ويبيعون بأنفسهم، ولكن عن طريق وكلاء من السدّة الرسولية، والوكلاء يحتفظون بالملكية بينما لا يملك الفرانشسكانيّون إلاّ الاستعمال!»

فقال ألبوريا ساخراً: «صحيح! وكم من مرّة بعت أنت دون وكلاء؟ إني أعرف قصة بعض الأراضي التي...»

فسارع جيرولامو بمقاطعته قائلاً: «إن كنت فعلت ذلك فقد أخطأت، لا تُلْقِ التبعة على النظام بما قد يكون ضعفاً منّي!»

فتدخل عندئذ أبّوني قائلاً: «ولكن يا إخواني المُبجّلين، المسألة ليست إن كان الفرانشسكانيّون فقراء، ولكن إن كان سيّدنا فقيراً..»

فسُمع من جديد صوت جيرولامو يقول: «حسن، لديّ حول هذه القضية حجّة قاطعة كالسيف..».

فقال غوليالمو بيأس: «أيها القدّيس فرانشسكو ذُد أنت عن أبنائك..»..

وتابع جيرولامو: «الحجة هي أن الشرقيين واليونانيين، الذين لهم أُلفة أكثر بعقيدة الآباء القدّيسين، يعتبرون فقر المسيح أمراً مؤكداً. وإذا كان أولئك الهراطقة والانشقاقيون يجزمون بمثل هذا الوضوح بحقيقة جلية كهذه، أنستطيع نحن أن نكون أكثر منهم إلحاداً وانشقاقاً وأن ننفيها؟ لو سمع أولئك المشارقة البعض منا يعظ بعكس هذه الحقيقة لرجموهم!»

Twitter: @ketab_n

فقال ألبوريا بتهكم: «ولكن ماذا تقول؟ ولماذا إذن لا يرجمون الدومينيكيين الذين يعظون بعكس ذلك بالذات؟»

- «الدومينيكيون؟ ولكني لم أرهم قط هناك!»

فلفت ألبوريا انتباه الحاضرين، ووجهه محمرّ من الغضب إلى أن ذلك الراهب جيرولامو قد قضى في اليونان خمسة عشر عاماً تقريباً، بينما هو كان هناك منذ الطفولة. فردّ جيرولامو أنه هو، الدومينيكي ألبوريا، ربما يكون قد ذهب إلى اليونان ولكن ليعيش حياة ترف في القصور الأسقفية الجميلة، بينما هو الفرانشسكاني عاش هناك، لا لمدة خمسة عشر عاماً بل لاثنين وعشرين عاماً ووعظ أمام الإمبراطور في القسطنطينية. عند ذلك، ولمّا أعوزت ألبوريا الحجج، حاول أن يقطع المسافة التي تفصله عن الفرانشسكانيّين، معلناً بصوت عالٍ وبكلمات لا أجرؤ على ذكرها، عزمه الراسخ على نتف لحية أسقف قيافا، قائلاً إنه يشك في رجولته وإنه يريد مُعاقبته، طبقاً لمنطق القِصاص، مستعملاً تلك اللحية كسوط.

فهرع الفرانشسكانيّون الآخرون وكوّنوا حاجزاً لحماية زميلهم، بينما رأى الأفينيونيون أنه من الصالح أن يمدوا يد الغوث للدومينيكي، فتبع ذلك (يا إلٰهي، كن رحيما بأفضل أبنائك!) عراك حاول رئيس الدير والكاردينال دون جدوى تهدئته. وفي الصخب الذي تبعه تبادل الفرانشسكانيّون والدومينيكيون كلمات قاسية جداً، كما لو كان كل منهم مسيحياً في صراع مع المسلمين. والوحيدان اللذان بقيا في مكانيهما كانا من جهة غوليالمو، ومن الجهة الأخرى برناردو غي.

كان غوليالمو يبدو حزيناً وبرناردو مبتهجاً، إن أمكن القول إن تلك الابتسامة الصفراء التي ارتسمت على شفتي المحقّق تنمّ على الابتهاج.

فسألت أستاذي بينما كان ألبوريا يتحامل على لحية أسقف قيافا «أليست هناك حُجج أخرى لإثبات أو لنفي فقر المسيح؟»

فأجاب غوليالمو: «ولكن يمكنك يا عزيزي أدسو أن تؤكد الأمرين، ولا

Twitter: @ketab_n

يمكنك أبداً أن تثبت مُعتمداً على الأناجيل إن كان المسيح يعتبر ملكه، وإلى أي حد، القميص الذي كان يرتديه ثم يلقيه فيما بعد لأنه بالٍ. ثم، إن أردت، فرأي توما الأكويني حول الملكية، أكثر جرأة من رأينا نحن الفرانشسكانيّين، نحن نقول «لا نملك شيئاً وكل ما لدينا لنا الحق فقط في استعماله». ويقول هو «يمكنكم أن تعتبروا أنفسكم مالكين على شرط، أنه عندما يحتاج أحد إلى شيء هو ملككم أن تسمحوا له باستعماله، لا كصدقة، بل كفرض». ولكن القضية ليست إن كان المسيح فقيراً، ولكن إن كان يجب أن تكون الكنيسة فقيرة. وفقيرة لا يعني امتلاك قصر أم لا، بل الاحتفاظ أو العدول عن حق التشريع في الأمور الدنيوية».

فقلت «لذلك إذن يولي الإمبراطور كل ذلك الاهتمام بأقوال الفرانشسكانيّين حول الفقر».

ـ «فعلاً يخدم الفرانشسكانيّون لعبة الإمبراطور ضد البابا. ولكن بالنسبة إلى مارسيليو وبالنسبة إليّ فإنّ اللعبة ذات وجهين، ونريد أن تكون لعبة الإمبراطور في صالح لعبتنا نحن وأن تُستخدم لموقفنا من الحكم البشري».

ـ «وستقول هذا عندما ستتكلم؟»

ـ «لو قلت هذا لأتممت مهمتي، التي هي تقديم آراء اللاهوتيين الإمبراطوريين. ولكن لو قلت ذلك لفشلت مهمتي، بينما ينبغي أن أمهّد للقاء ثانٍ في أفينيون، ولا أظن أن جيوفاني يقبل أن أذهب إلى هناك لأقول تلك الأشياء».

ـ «إذن؟»

ـ «إذن أنا حبيس قوّتين متضاربتين، كحمار لا يدري، بين كيسين من التبن، من أي كيس يأكل. والواقع أن الوقت لم يحن بعد. مرسيليو يهذي بتغيير مستحيل، فَوْريّاً، ولودوفيكو ليس أفضل من سابقيه، وإن كان الوحيد الذي يبقى الآن درعاً ضدّ شقيّ مثل جيوفاني. لعلّ من واجبي أن أتكلم، إن لم يقتل هؤلاء بعضهم بعضاً قبل ذلك. على كلّ حال اكتب يا أدسو ليبقى على الأقل أثر ممّا يحدث اليوم».

ـ «وميكيلي؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «أخاف أن يكون بصدد إضاعة وقته. الكاردينال يعرف أن البابا لا يبحث عن وساطة، وبرناردو غي يعرف أنه ينبغي أن يعمل لإحباط اللقاء، ويعرف ميكيلي أنه سيذهب إلى أفينيون مهما كان الأمر، لأنه لا يريد أن تقطع الرُّهبانية كل صلة بالبابا. وسيجازف بحياته».

بينما كنّا نتحدث ـ ولم أكن أعرف في الحقيقة كيف تسنّى لنا أن يسمع أحدنا الآخر ـ بلغت المعركة أوجها. وتدخّل النبّالون بإشارة من برناردو غي، لمنع الفريقين من الوصول إلى الإمساك أحدهما بتلابيب الآخر. وبقيا كمحاصَرين ومحاصِرين، من كلتا جهتي أسوار القلعة، يتقاذفان الاحتجاجات والشتائم التي أرويها كما اتفق، دون أن أستطيع نسبتها إلى قائلها، مع أن الجمل لم تنطق كل بحسب دوره، كما يمكن أن يقع في مجادلة في بلدي، ولكن على الطريقة المتوسطية، الواحدة تلو الأخرى، كأمواج بحر عنيف.

ـ «يقول الإنجيل إنه كان للمسيح كيس!»

ـ «اسكت أنت وذلك الكيس الذي تصوّرونه حتى فوق الصلبان! ماذا تقول إذن عن عودة سيدنا المسيح كلّ ليلة إلى «بيت عنيا» عندما كان في القدس؟»

ـ «وإن أراد سيدنا أن يذهب لينام في «بيت عنيا»، من تكون أنت حتى تنتقد قراره؟»

ـ «كلاّ، أيها الحمار الغبي، كان سيدنا يعود إلى «بيت عنيا» لأنه لم يكن يملك نقوداً لقضاء الليل في فندق بالقدس!»

ـ «بوناغراتسيا، أنت هو الحمار! وماذا كان يأكل سيدنا في القدس؟»

ـ «وستقول أنت إن الحصان الذي يحصل على العلف من صاحبه للبقاء على قيد الحياة له ملكية!»

ـ «أنت تقارن المسيح بحصان. . .»

ـ «كلاّ، أنت تقارن المسيح بأسقف سيموني من بلاطك، يا مجمع الروث!»

ـ «صحيح؟ وكم من مرّة وجب على السدّة المقدسة تحمّل قضايا للدّفاع عن أملاككم؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «أملاك الكنيسة، لا أملاكنا! لنا نحن استعمالها فقط!»

ـ «لكم استعمالها لأكلها، لتشييد الكنائس الجميلة بالأصنام الذهبية، أيها المُنافقون، وروّاد الفساد ومُقترفي الإلحاد وبؤر المُوبِقات! أنتم تعرفون أن المحبة عماد الحياة الكاملة وليس الفقر!»

ـ «هذا ما قاله ذلك الجشع، صاحبكم توما!»

ـ «احترس أيها الزنديق! ذلك الذي تسميه جشعاً هو قدّيس من كنيسة رومانية مقدّسة!»

ـ «قديس مثل نعليّ، لقد جعله جيوفاني قديساً للنكاية بالفرانشسكانيّين! إن حَبْركم لا يمكنه أن يسمّي قِدِّيسين، لأنه زِنْديق بل أكثر، لأنه ملحد!»

ـ «إننا نعرف هذه الجملة الجميلة! لقد قالها بهلوان بافييرا في ساكسِنهاوزن، وقد أعدّها له صاحبكم أوبارتينو!»

ـ «حاذر عندما تتكلم أيها الخنزير، ابن بغيّ بابل وبغايا أخريات! أنت تعلم أنه لم يكن تلك السنة مع الإمبراطور ولكنه كان في أفينيون بالذات، في خدمة الكاردينال أورسيني، وكان البابا يوفده سفيراً في أراغونا!»

ـ «أعرف ذلك، أعرف أنه كان ينذر الفقر ويأكل على مائدة الكاردينال، كما يفعل الآن في أغنى دير بشبه الجزيرة! إن لم تكن هناك، يا أوبارتينو، من يكون قد أوحى للودوفيكو باستعمال تآليفك؟»

ـ «أهي غلطتي إن أراد لودوفيكو قراءة مؤلفاتي؟ أكيد أنه لا يمكنه قراءة مؤلفاتك أنت لأنك جاهل!»

ـ «أنا جاهل؟ أكان عالماً صاحبكم فرانشسكو الذي كان يخاطب الأوزّ؟»

ـ «إنك جدّفت!»

ـ «أنت الذي جدّفت، أيها الراهب الفاجر!»

ـ «إنني لم أقترف قط الفجور وأنت تعرف ذلك».

Twitter: @ketab_n

- «بل كنت تفعل ذلك مع إخوانك الرُّهبان الصعاليك، عندما كنت تنساب داخل فراش كيارا دا مونتيفالكو».

- «ليصعقك اللّه! لقد كنت آنذاك مُحققاً، وكانت كيارا قد ماتت وشذى القداسة يفوح منها!»

- «كيارا تفوح بالقداسة، ولكنك أنت كنت تفوح بروائح أخرى عندما كنت تنشد صلاة الصبح للراهبات».

- «واصل، واصل، ستسقط عليك لعنة الرب وعلى سيدك، الذي منح حمايته لهرطيقيين مثل ذلك المتوحش إيكهارت وذلك المُنجِّم الإنكليزي الذي تسمّونه برانوشارتون!»

وكان الكاردينال برتراندو ورئيس الدير يصيحان أثناء ذلك «يا إخواني المبجّلين، يا إخواني المبجّلين!»

Twitter: @ketab_n

اليوم الخامس: ثالثة

وفيه يُحدّث سيفيرينو غوليالمو عن كتاب غريب ويُحدّث غوليالمو أعضاء القَصادتين عن تصوّر غريب للحكم الدنيوي

كانت المُشاجرة عند أوجها لمّا دخل أحد المُبتدئين الذين كانوا يحرسون الباب، مارّاً وسط تلك الجلبة كمن يجتاز حقلاً ينهال عليه البَرَد، وهمس إلى غوليالمو أن سيفيرينو يريد التحادث إليه على الفور. فخرجنا إلى البهو وقد تجمّع فيه عدد من الرُّهبان المتطفلين الذين كانوا يريدون من خلال الصياح والضوضاء فهم بعض الشيء ممّا كان يحصل بالداخل. ورأينا في أول الصف أيمارو داليساندريا الذي تلقانا بابتسامته الساخرة المعتادة والتي تنمّ عن الرثاء لغباوة الكون بأكمله، وقال «أكيد أنه منذ أن ظهرت أنظمة المتسوّلين أصبحت الكنيسة أكثر عِفّة».

فأبعده غوليالمو عنه، بجفاء، واتجه نحو سيفيرينو، الذي كان ينتظرنا في أحد الأركان. كان مُضطرباً، ويريد التحادث إلينا على انفراد، إلاّ أنه كان من المستحيل أن نجد أي مكان هادئ وسط تلك الفوضى. فكّرنا في الخروج إلى الساحة، ولكن ميكيلي دا تشيزينا أطلّ من عتبة القاعة محرّضاً غوليالمو على الدخول، لأن المُشاجرة كانت على وشك الانتهاء وتنبغي مواصلة المداخلات.

ووجد غوليالمو نفسه بين نارين، فحرّض سيفيرينو على الكلام وحاول العشّاب أن يقول ما عنده دون أن يسمعه باقي الحاضرين.

ـ «لقد ذهب برينغاريو دون شكّ إلى المستشفى قبل ذهابه إلى الحمام».

ـ «ما الذي عرّفك بذلك؟» ـ وبما أن بعض الرُّهبان قد أخذوا في الاقتراب وقد أثار تهامسنا فضولهم، خفّض سيفيرينو من صوته أكثر وهو ينظر حواليه:

Twitter: @ketab_n

ـ «قلت لي إن ذلك الرجل. . . كان معه شيء. . . حسن، لقد وجدت شيئاً في مخبري، مندسّاً في الكتب الأخرى. . . كتاباً ليس لي، كتاباً غريباً. . .»

فقال غوليالمو ظافراً «إنه هو، هاته إليّ فوراً».

فأجاب سيفيرينو «لا أستطيع، سأشرح لك فيما بعد، لقد اكتشفت، أظن إني اكتشفت شيئاً هامّاً. . . يجب أن تأتي أنت، يجب أن أريك الكتاب. . . بحذر. .». ولم يتمم. تفطّنا إلى يورج الذي ظهر فجأة بجانبنا، صامتاً كعادته. كان ماداً يديه إلى الأمام وكأنه غير مُعتاد على التحرك في ذلك المكان، فكان يحاول أن يجد وجهته. لن يكون بوسع إنسان عادي أن يسمع همسات سيفيرينو، ولكننا كنا نعرف منذ مدّة أن يورج، مثل كل العميان، كان مُرهف السمع جداً.

ولكن كان يبدو أن الشيخ لم يسمع شيئاً. بل بالعكس، ذهب في اتجاه معاكس لاتجاهنا، ثم لمس أحد الرُّهبان وسأله شيئاً، فأخذه بلطف من ذراعه وقاده إلى الخارج. في تلك اللحظة ظهر من جديد ميكيلي واستحثّ مرّة أخرى غوليالمو، فاتخذ أستاذي قراراً وقال لسيفيرينو: «أرجوك، عد من حيث أتيت. وأغلق وراءك الباب وانتظرني» ـ ثم قال لي: «وأنت اتبع يورج. حتى ولو سمع شيئاً لا أظن أنه سيطلب أن يحملوه إلى المستشفى. على كلّ حال، راقبه وقل لي أين ذهب».

كان داخلاً إلى القاعة، عندما لمح (كما لمحته أنا أيضاً) أيمارو وهو يشق لنفسه طريقاً وسط الحشد لاقتفاء أثر يورج الذي كان بصدد الخروج. وهنا ارتكب غوليالمو هفوة، لأنه هتف بصوت عالٍ، دوّى من طرف البهو إلى طرفه الآخر، محذراً سيفيرينو الذي كان يوجد على العتبة الخارجية: «أوصيك، لا تسمح لأحد بأن. . . تلك الأوراق. . . . لا يجب أن يعيدها أحد إلى حيث كانت!». أمّا أنا، فبينما كنت أتأهب لمُلاحقة يورج، رأيت في تلك اللحظة القيّم، متكئاً إلى ركيزة الباب الخارجي، وكان قد سمع كلمات غوليالمو ثم نظر تارة إلى أستاذي وأخرى إلى العشّاب، ووجهه مُنقبض من الخوف. ولمح سيفيرينو وهو يخرج فتبعه. وكنت أنا على العتبة، خائفاً أن يغيب يورج عن بصري وقد أوشك الضباب أن

Twitter: @ketab_n

يبتلعه، ولكن القيِّم والعشّاب اللذين ذهبا في الاتجاه المُعاكس، كانا بصدد الغياب وسط الضباب. فكرت بسرعة فيما يجب أن أفعل. لقد طُلب مني أن أتبع الأعمى مَخافة أن يذهب إلى المستشفى. ولكن الاتجاه الذي اتخذه مع مرافقه، كان مُختلفاً، إذ اجتاز الرواق مُتجهاً نحو الكنيسة أو نحو الصرح. بينما كان القيِّم، على العكس، يتبع دون شك العشّاب وكان غوليالمو مُنشغلاً بما يمكن أن يحدث في المخبر. لذا اقتفيت أثرهما. وأنا أتساءل من ناحية أخرى أين يمكن أن يكون أيمارو قد ذهب، إن لم يكن قد خرج لأسباب مُختلفة تماماً عن أسبابنا.

كانت لا تغيب عني، وأنا على مسافة معقولة، رؤية القيّم، الذي تمهّل في خُطاه لأنه تفطّن إلى أني كنت أتبعه. لم يكن يعرف إن كان الشبح الذي يتبعه هو أنا، كما لم أكن أستطيع أن أعرف إن كان الشبح الذي أتبعه كان هو، ولكن بما أنه لم يكن لديّ أدنى شك بشأنه، لم يكن لديه أدنى شك بشأني.

وبما أني أجبرته على مُراقبتي، فقد منعته من الاقتراب كثيراً من سيفيرينو. وهكذا، عندما بان باب المستشفى من خلال الضباب، كان قد أُغلق. لقد دخل سيفيرينو، والحمد للّه. والتفت القيّم مرّة أخرى إليّ، بينما كنت واقفاً وسط المبقلة كأنني شجرة، ثم بدا أنه اتخذ قراراً واتجه نحو المطبخ. بدا لي أن مهمتي انتهت، فقد كان سيفيرينو رجلاً رصيناً، وسيحافظ على نفسه وحده ولن يفتح لأحد. لم يبقَ لي إذن شيء آخر أعمله، وكان الفضول يلتهمني لرؤية ما كان يحدث في قاعة المجلس. لذا قررت العودة إلى هناك لإعلام غوليالمو. ربما أخطأت وكان عليّ أن أبقى لمراقبته، ربما مكّنني ذلك من تفادي كوارث أخرى كثيرة. لكنني صرت أعرف ذلك الآن ولم أكن أعرفه آنذاك.

بينما كنت داخلاً، كدت أصطدم ببانشيو الذي ابتسم ابتسامة تواطؤ وقال «لقد وجد سيفيرينو شيئاً تركه برينغاريو، أليس كذلك؟»

فأجبته بغلظة «ما دخلك أنت في ذلك؟» ـ مُعاملاً إياه كندّ من ناحية لأني كنت حانقاً ومن ناحية أخرى لوجهه الشابّ الذي ينم الآن عن خُبث يكاد يكون صبيانيًا. وأجاب:

Twitter: @ketab_n

- «لست غبياً. سيفيرينو يسرع ليقول شيئاً لغوليالمو، وأنت تراقب من عسى أن يتبعه...»

فقلت بغضب «وأنت تراقبنا وتراقب سيفيرينو أكثر ممّا يجب»،

- «أنا؟ أكيد أني أراقبكم. إن نظري، منذ أول أمس، لا يغيب لحظة لا عن قاعات الاستحمام ولا عن المستشفى. لو قدرت فقط أن أدخل إليها لفعلت. إني مُستعد للتضحية بعين من عينيّ لمعرفة ماذا وجد برينغاريو في المكتبة».

- «أنت تريد أن تعرف أشياء أكثر ممّا يحق لك أن تعرف!»

- «إنني طالب ولي الحق في المعرفة، لقد أتيت من أبعاد الدنيا للتعرّف على المكتبة، والمكتبة تبقى مُغلقة كما لو كانت تحوي أشياء فاسدة وأنا...»

فقلت بحدّة «اتركني لشأني».

- «سأتركك تذهب، لقد قلت لي ما كنت أريد أن أعرف».

- «أنا؟»

- «حتى من خلال الصمت تقال أشياء».

فقلت له «أنصحك بأن لا تدخل إلى المستشفى».

- «لن أدخل، لن أدخل، كن مُطمئناً. ولكن لا أحد يمنعني من أن أنظر من الخارج».

عدلت عن الاستماع إليه ودخلت. لم يكن يبدو لي أن ذلك الفضولي يمثل خطراً كبيراً. واقتربت من غوليالمو وأخبرته بإيجاز بما وقع. فهزّ رأسه موافقاً ثم أشار إليّ بالسكوت. كانت الجلبة في طريقها إلى الهدوء، وقد أخذ المبعوثون من القصادتين في تبادل قبلة السلام. كان ألبوريا يثني على إيمان الفرانشسكانيّين وجيرولامو يمجّد تضحية المبشرين، وكلهم يُنشدون الأمل في كنيسة لا تزعزعها صراعات داخلية. منهم من كان ينوّه بشجاعة هذه الطائفة، ومنهم من كان ينوه باعتدال الطائفة الأخرى، وكلّهم ينادون بالعدالة وينصحون بالرّويّة. لم أرَ قط رجالاً مُتفقين بذلك الصدق على نصرة الفضائل اللاهوتية الأساسية.

Twitter: @ketab_n

ولكن بِرْتراند دل بودجيتو كان قد دعا غوليالمو لتقديم مواقف اللاهوتيين الإمبرطوريين. فنهض غوليالمو، دون رغبة: كان يحسّ، من ناحية، أن اللقاء عديم الجدوى، ومن ناحية أخرى كان بودّه أن يُعجّل بالخروج إذ كان الكتاب الغامض يشغله، الآن، أكثر من نتائج اللقاء. ولكن كان من الواضح أنه لا يمكنه التراجع عن أداء واجبه.

فأخذ إذن في الحديث مع الإكثار من «الآه» و«الأوه»، ربما أكثر من العادة وفوق اللزوم، كما لو كان يريد أن يفهمهم شكوكه فيما سيقوله واستهل مؤكداً أنه يفهم جيداً وجهات نظر من سبقه في الكلام، ومن جهة أخرى، فإن ما كان يُسميه بعضهم «مذهب» اللاهوتيين الإمبراطوريين لا يعدو أن يكون بعض الملاحظات المتفرقة التي لا تدّعي فرض نفسها كحقيقة عقائدية.

قال إذن إنه، نظراً للمحبة العظيمة التي خص بها الإلٰه أبناءه عند خلقهم، محباً إيّاهم دون تفرقة منذ تلك الصفحات من سفر التكوين، التي لا يذكر فيها إلى ذلك الحين الكهنة والملوك، واعتبار أن الإلٰه أعطى لآدم وخليقته السلطة على الأشياء على هذه الأرض، شريطة أن يمتثلوا للشريعة الإلٰهية، فالظن جائز أن الإلٰه نفسه لم تكن تغيب عنه الفكرة أنه بخصوص الأشياء الأرضية يكون الشعب هو المشرّع والعلة الأولى الفعلية للشريعة. وقال إنه بعبارة «شعب» يكون من الأفضل فهم المواطنين بصفة شاملة، ولكن بما أنه من بين المواطنين ينبغي اعتبار الأطفال أيضاً، والأغبياء، والأشرار والنساء، ربما يمكن الاتفاق بصفة معقولة على تعريف الشعب على أنه القسم الأفضل من المواطنين، ولو أنه عند خلقهم لم يرَ من الصالح تحديد من يدخل حقاً ضمن تلك المجموعة. ثم سعل مُعتذراً للحاضرين مشيراً أن هواء ذلك اليوم كان دون شك رطباً جداً، وافترض أن الطريقة التي يُمكن للشعب أن يُعبّر بها عن إرادته يمكن أن تتطابق مع مجلس عام منتخب. وقال إنه يبدو.له مطابقاً للفكر السليم أن مجلساً مماثلاً يمكنه تأويل أو تغيير أو منع قانون ما، لأنه إذا كان المُشرّع شخصاً واحداً فمن المُحتمل أن يُسيء التصرف عن جهل أو عن خُبث، مُضيفاً أنه لا لزوم لتذكير الحاضرين بالحالات العديدة المُماثلة التي وقعت حديثاً. ورأيت بعض الحاضرين، الذين كانوا مُترددين شيئاً ما

Twitter: @ketab_n

حول ما سبق من كلامه، يؤيدون كلماته الأخيرة إذ كان من الواضح أن كلاً منهم كان يفكر في شخص مُختلف، ويعتبر الشخص الذي كان يفكر فيه أسوأ خلق اللّه.

ثم تابع غوليالمو: حسن، إن كان شخص واحد يسيء التشريع أليس من الأفضل أن يكون المشرّعون كثيرين؟ وحدّد قائلاً: بطبيعة الحال نحن نتكلّم عن القوانين الزمنية، التي تخص حسن تدبير الأشياء الدنيوية. لقد قال الإله لآدم أن لا يأكل من شجرة الخير والشرّ، وتلك هي الشريعة الإلٰهية، ولكنه آذنه فيما بعد، ماذا أقول؟ شجعه كي يعطي الأسماء للأشياء، وحول ذلك ترك الحرية لعبده الدنيوي. وفعلاً، رغم أن بعضهم، في عصرنا هذا يقول إن: «الأسماء متأتية من الأشياء»، فسفر التكوين واضح حول هذه النقطة: قدّم الرب للإنسان كل الحيوانات ليرى كيف يُسَمّيها وكيفما يسمي الإنسان كلاً من تلك المخلوقات الحية فسيكون ذلك اسمها. وإن كان من المؤكد أن الإنسان الأول كان من الإدراك بحيث سمّى، في لغته الفردوسية، كل شيء وكل حيوان كلاًّ بحسب طبيعته، فإنه لم يكن يمارس أي نوع من الحقوق المطلقة في تصوّر الاسم الذي بحسب رأيه يناسب تلك الطبيعة أكثر. إذ أصبح الآن بالفعل معروفاً أن الأسماء التي يعطيها البشر للدلالة على المفاهيم مُختلفة، بينما المفاهيم بالنسبة إلى الجميع واحدة، وهي دلالات على الأشياء. بحيث يكون من المؤكد أن كلمة nomen، تأتي من nomos أي القانون، فعلاً لأن الأسماء يعطيها الإنسان كيفما أراد، أي باتفاق حرّ وإجماعي.

ولم يَجْرُؤ الحاضرون على معارضة هذه البرهنة العلمية. لذا، قال غوليالمو مُستنتجاً: يظهر جيداً كيف أن التشريع في الأشياء الدنيوية، وإذن حول شؤون المدن والممالك، لا علاقة له البتة بالحفاظ على الكلمة الإلـٰهية وبإرادتها وهو امتياز غير قابل للانتقال، تحظى به الهيئة الإكليريكية وحدها. وأضاف غوليالمو بل ما أتعس الكفّار الذين لا يملكون هيئة مماثلة تترجم لهم الكلمة الإلٰهية (ورثى الجميع لحال الكفّار) ولكن أيمكننا لذلك أن نقول إن الكفار لا يشرّعون ولا يديرون أمورهم بواسطة حكومات، وملوك، وأباطرة وسلاطين وخلفاء، أياً كان الاسم الذي أردناه؟ وهل يمكن نفي أن الكثير من الأباطرة الرومان مارسوا الحكم الدنيوي بحكمة، مثل ترايانو؟ ومن أعطى إلى وثنيين وإلى كافرين تلك القدرة

Twitter: @ketab_n

الطبيعية على التشريع وعلى العيش في مجموعات سياسية؟ أتكون آلهتَهم الكاذبة التي هي حتماً غير موجودة (أو هي غير موجودة حتماً، مهما تكن الكيفية التي يُراد بها نفي الإمكانية)؟ أكيد لا. لا يمكن أن يكون أعطاهم إياها إلاّ رب الجيوش، رب إسرائيل، أب سيدنا عيسى المسيح... وهو دليل رائع على المحبّة الإلٰهية التي وهبت القدرة على الحكم في الأمور السياسية حتى لمن لا يعترف بسلطة الحبر الروماني ولا يقرّ بنفس أسرار الشعب المسيحي المقدّسة والعذبة والرهيبة! وهل هناك برهنة أروع على أن السلطة الدنيوية والتشريع المدني ليست لها علاقة البتة بالكنيسة وبشرع يسوع المسيح، والرب أمر بها خارج كلّ مصادقة كنسية حتى قبل أن يظهر ديننا المقدّس؟

وسعل من جديد، ولكنه لم يكن وحده هذه المرّة. كان العديد من الحاضرين يتململون فوق مقاعدهم ويتنحنحون. ورأيت الكاردينال يمرّر لسانه على شفتيه ويومئ، بقلق لكن بأدب، داعياً غوليالمو إلى الوصول إلى الغرض. وواجه غوليالمو تلك الاستنتاجات التي كانت ربما تبدو مُزعجة للجميع، حتى لمن كان لا يشاطرها، والذي كان يفضي إليها استدلال لا جدال فيه. وقال غوليالمو عندئذٍ إن استنتاجاته تبدو له مؤيدة بمثال المسيح نفسه، الذي لم يأتِ إلى هذه الدنيا للحكم، ولكن ليخضع للظروف التي وجدها في هذا العالم، على الأقل في ما يخص قوانين القيصر. ولم يرد أن تكون للحواريين قيادة أو سلطة، ولذا يبدو أمراً حكيماً أن يتخلى خلفاء الحواريين عن كل سلطة مدنية وجبريّة. ولو لم يخضع البابا والأساقفة والكهنة لسلطة الأمير المدنية والجبريّة، لبطلت سلطة الأمير وبطل معها نظام رسمه الرّب، كما وقع توضيح ذلك من قبل. ثم قال غوليالمو إنه ينبغي دون شك اعتبار حالات دقيقة جداً، مثل حالة الهراطقة، الذين تنفرد الكنيسة وحدها ـ حافِظة الحقيقة ـ بالبتّ في أمرهم، ومع هذا فالسلطة المدنية هي وحدها القادرة على التنفيذ العملي للحكم. عندما تكتشف الكنيسة هراطقة ينبغي عليها إعلام الأمير بذلك، إذ من الأفضل أن يكون على علم بظروف رعاياه. ولكن ماذا سيفعل الأمير بهرطيق؟ هل يُدينه باسم تلك الحقيقة الإلٰهية التي ليس هو حافظها؟ يمكن للأمير وينبغي عليه أن يُدين الهرطيق إذا ما ألحق فعله الضرر بحياة

Twitter: @ketab_n

المجموعة، أي لو فرض هرطقته بقتل أو بعرقلة من لا يشاطره إياها. ولكن عند ذلك الحد تقف سلطة الأمير، لأنه لا يمكن إجبار أحد بوسائل التعذيب باتّباع تعاليم الإنجيل، وإلاّ أين ستؤول تلك الإرادة الحرّة التي سيحاسب عليها كل واحد منّا في العالم الآخر؟ يمكن للكنيسة وينبغي عليها أن تحذّر الهرطيق أنه بصدد الخروج عن مجموعة المؤمنين ولكنها لا تستطيع محاكمته على الأرض وإكراهه على ما تأباه إرادته. لو أراد المسيح أن تكون لكهنته سلطة جبرية لوضع تعاليم مضبوطة كما فعل موسى بالشريعة القديمة. ولكنه لم يفعل ذلك. إذن فهو لم يرد ذلك، أو لعلّ المقصود أنه كان يريد ذلك ولكن أعوزه الوقت أو نقصته القدرة على قول ذلك، في ثلاث سنوات من التبشير؟ ولكن كان من الصواب أنّه لا يريد ذلك، لأنه لو أراد لأمكن للبابا أن يفرض سلطته على الملك ولكانت المسيحية، عوضاً عن شرع حرية، عبودية لا تحتمل.

كل هذا، أضاف غوليالمو بوجه جَذْلان، لا يعني الحد من سلطة الحَبْر الأعظم، ولكن بالعكس تعظيم مهمته: لأن خادم خدم الرب، هو على هذه الأرض كي يخدم لا كي يخدموه. وأخيراً، من الغرابة أن يكون للبابا نظر على أمور الإمبراطورية، ولا يكون له ذلك على الممالك الأخرى. كما هو معروف، ما يقوله البابا عن الأشياء الإلٰهية يطبق على رعايا ملك فرنسا كما يطبق أيضاً على رعايا ملك إنكلترا، ولكن ينبغي أن يطبق أيضاً على الخان الأكبر أو سلطان الكفّار، إذ يقال عنهم إنهم كفّار لأنهم لا يؤمنون بهذه الحقيقة الرائعة. وإذن لو كانت للبابا سلطة زمنية ـ بصفته تلك ـ على شؤون الإمبراطورية، وحدها، لأدخل ذلك شكاً، إذا ما انصهرت السلطة الزمنية مع السلطة الروحية، في أنه للسبب نفسه ليس فقط لن تكون له سلطة روحية على المسلمين أو على التتر، ولكن حتى على الفرنسيين والإنكليز ـ مما يؤدي إلى تجديف إجرامي. لذلك السبب، قال أستاذي في خاتمة حديثه، يبدو لي من الصواب القول إن كنيسة أفينيون تُهين الإنسانية قاطبة عندما تجزم أنه عليها هي قبول أو رفض من وقع انتخابه إمبراطوراً للرومان. ليست للبابا حقوق على الإمبراطور أكثر من حقوقه على الممالك الأخرى، وبما أنه لا ملك فرنسا ولا السلطان هما رهينا موافقة البابا، فهو لا يرى

Twitter: @ketab_n

سبباً معقولاً ليكون إمبراطور الألمان والإيطاليين على خلاف ذلك، فذلك الخضوع لا يدخل ضمن الشرائع الإلٰهية لأن الكتابات لا تذكره. ولا يقرّه قانون النّاس، للأسباب المذكورة أعلاه. أما عن علاقات هذا مع المجادلة حول الفقر، قال أخيراً غوليالمو، فآراؤه المتواضعة، والمتمثلة في اقتراحات متبادلة مع آخرين كمارسيليو دا بادوفا وجيوفاني دا جياندونو، تفضي إلى الاستنتاجات التالية: إن كان الفرانشسكانيّون يريدون البقاء فقراء، فالإمبراطور لا يقدر ولا ينبغي عليه أن يعارض رغبة في مثل تلك العِفّة. أكيد أنه لو أُقيم البُرهان على فرضية فقر المسيح، فذلك لن يعين الفرانشسكانيّين فحسب، بل سيدعّم فكرة أن يسوع لم يرد لنفسه أية سلطة زمنية. ولكنه سمع ذلك الصباح أشخاصاً على غاية من الحكمة يؤكدون أنه لا يمكن البرهنة على أن يسوع كان فقيراً. ولذا يبدو له أنه من الأفضل عكس البرهنة. بما أنه لم يجزم أحد، ولا أحد يقدر أن يجزم أن المسيح طلب لنفسه ولرفقائه أية سلطة زمنية، فالإعراض عن الأشياء الدنيوية يبدو له دليلاً كافياً لكي نعتبر، دون ارتكاب خطيئة، أن يسوع قد اختار الفقر.

قال غوليالمو كل ذلك بنبرة فيها من التواضع وبيقين فيه من الشك ما جعل الحاضرين لا يجرؤون على الوقوف للاعتراض. ولا يعني ذلك أنهم كانوا كلهم مقتنعين بأقواله. لم يكن أنصار أفينيون وحدهم الذين يتململون الآن في مقاعدهم بوجوه غاضبة ويتهامسون بالتعاليق فيما بينهم، ولكن يبدو أن تلك الكلمات كان لها انطباع سلبي للغاية على رئيس الدير نفسه، كما لو كان يرى أن تلك العلاقات ليست تماماً ما كان يتصوّر قيامها بين نظامه والإمبراطور. وأما في صفوف الفرانشسكانيّين فقد كان ميكيلي محتاراً، وجيرولامو منذهلاً، وأوبارتينو مغتمّاً.

قطع الكاردينال الصمت، دائماً مبتسماً ومُتطلّقاً، وسأل غوليالمو بلطف إن كان سيذهب إلى أفينيون ليقول تلك الأشياء إلى ميسّير سيّدنا. فطلب غوليالمو رأي الكاردينال الذي أجاب أن سيّدنا البابا قد سمع في حياته الكثير من الآراء القابلة للنقاش وأنه كان دائماً رجلاً مُحبّاً لأبنائه ولكن من الأكيد أن تلك الأفكار ستؤلمه جداً. فتدخل برناردو غي، الذي لم يفتح فمه بكلمة إلى ذلك الحين وقال: «سأكون سعيداً جداً لو تفضل الأخ غوليالمو، الذي يملك هذه المهارة

Twitter: @ketab_n

والفصاحة في عرض أفكاره، بالمجيء لعرضها على نظر البابا. . . ».

فقال غوليالمو: «لقد أقنعتني، أيها السيد برناردو، لن أذهب». - ثم توجه بالحديث إلى الكاردينال بنبرة اعتذار: «أنتم تعلمون أن هذه النزلة التي تنتابني في صدري تنهاني عن الإقدام على سفرة طويلة كهذه وفي هذا الفصل.»

فسأله الكاردينال: «ولكن لماذا تكلمت هكذا طويلاً؟»

فأجاب غوليالمو بتواضع: «لأشهد بالحقيقة. الحقيقة ستجعلنا أحراراً».

عند ذلك الحد انفجر جيوفاني دالبينا «آه كلاّ! الكلام هنا ليس عن الحقيقة التي ستجعلنا أحراراً، بل عن الحرية المُفرطة التي تريد أن تصبح حقيقة!»

فأقرّ غوليالمو برقّة: «وهذا أيضاً ممكن». فأدركت بإحساس غريزي مفاجئ أن عاصفة من العواطف ومن الكلمات هي بصدد الهبوب، هوجاء أكثر من الأولى. وبينما كان دالبينا لا يزال يتكلم إذ دخل قائد النبّالين وذهب ليهمس شيئاً في أذن برناردو الذي نهض لفوره وبإشارة من يده طلب أن يصغوا إليه، وقال «إخواني، يمكننا أن نعود إلى هذه المناقشة الثرية فيما بعد، أمّا الآن فقد حدث شيء على غاية من الخطورة يجبرنا على إيقاف أعمالنا، بإذن من رئيس الدير. ربما أكون قد أرضيت، دون أن أريد ذلك، ترقبات رئيس الدير نفسه الذي كان يأمل في اكتشاف مرتكب الجرائم المُتعددة التي وقعت في الأيام السابقة. ذلك الرجل هو الآن في قبضتي. ولكن، للأسف، قبضنا عليه بعد فوات الأوان، مرّة أخرى. . . لقد حدث شيء هناك.». . وأشار، دون تحديد، إلى الخارج. ثم اجتاز القاعة بسرعة وخرج، يتبعه كثيرون، غوليالمو من بين الأولين وأنا معه.

ونظر إليّ أستاذي ثم قال: «أخشى أن يكون حدث شيء لسيفيرينو».

Twitter: @ketab_n

اليوم الخامس: سادسة

وفيه يُعثَر على سيفيرينو مقتولاً ولا يُعثر على الكتاب الذي وجده

اجتزنا الرحبة بخُطى سريعة وقلقة. كان قائد النبّالين يقودنا ناحية المستشفى، وعندما وصلنا لمحنا في العتمة أشباحاً تتحرك: رُهبان وخدم هرعوا إلى هناك ونبّالون كانوا واقفين أمام الباب يمنعون الدخول.

قال برناردو: «لقد أرسلت هؤلاء النبّالين للبحث عن رجل يمكن أن ينيرنا حول هذه الأحداث الغامضة».

فسأله رئيس الدير مندهشاً «الأخ العشّاب؟»

فأجاب برناردو «كلاّ، الآن سترون». ثمّ شق لنفسه طريقاً نحو الداخل. دخلنا مخبر سيفيرينو وهناك تجلّى لأنظارنا منظر مُؤلم. كان العشّاب المسكين ملقى جثة هامدة وسط بركة من الدم، وقد شُجّ رأسه. وكانت الرفوف حوله تبدو وكأن إعصاراً اجتاحها: أباريق، وقناني وكتب ووثائق ملقاة هنا وهناك في فوضى وفي تلف كبيرين. قرب الجثة كانت هناك مُحَلَّقة، حجمها أكبر بمرتين من حجم رأس انسان، من معدن منقوش بدقة يعلوها صليب من الذهب ويحملها منصب قصير ومزخرف. وكنت قد لاحظت وجودها مرّات عدّة على شمال المدخل.

وفي طرف القاعة الآخر كان نبّالان يشدّان بقوّة القيّم وهو يحاول التملّص منهما مُحتجاً ببراءته، وعلت صيحاته عندما رأى رئيس الدير يدخل.

ـ «سيدي، إن المظاهر ضدي! عندما دخلت كان سيفيرينو ميّتاً ووجدوني بينما كنت أتأمل، دون قدرة على الكلام، هذه المجزرة!»

Twitter: @ketab_n

فاقترب قائد النبّالين من برناردو، وبعد استئذانه أدلى بتقريره أمام الجميع. لقد تلقى النبّالون الأمر بالبحث عن القيّم وبإيقافه، ومنذ ما يزيد عن ساعتين كانوا يفتشون عنه في الدير. فقلت في نفسي ربما تلك كانت الأوامر التي أعطاها برناردو قبل الدخول إلى قاعة الاجتماعات، وبما أن الجند كانوا غرباء عن المكان، فقد قاموا بأبحاثهم في الأماكن الخاطئة، ولم يتفطّنوا إلى أن القيّم، الذي كان على جهل بأمره، كان مع الآخرين في البهو، ومن ناحية أخرى جعل الضباب مهمتهم أشق. على كل من خلال أقوال القائد يستنتج أنه عندما ذهب ريميجيو، بعد أن تركته، نحو المطابخ رآه أحدهم وأخبر بذلك النبّالين، الذين وصلوا إلى الصرح وقد غادره ريميجيو من جديد، ومنذ بضع لحظات، لأن يورج كان في المطبخ وأكد لهم أنه تحدث إليه منذ قليل. عندئذٍ فتّش النبّالون الرحبة في اتجاه المبقلة وهناك التقوا بأليناردو، الذي برز من الضباب كالشبح، وقال إنه رأى القيّم قبل ذلك بقليل وهو يدخل إلى المستشفى. فذهب النبّالون إلى هناك ووجدوا الباب مفتوحاً فدخلوا وعثروا على سيفيرينو فاقد الروح بينما كان القيّم يفتش بجنون بين الرفوف، ملقياً بكل شيء على الأرض، كما لو كان يبحث عن شيء. واختتم القائد قائلاً إنه من السهل فهم ما حدث. لقد دخل ريميجيو وانقض على العشّاب فقتله ثم أخذ يبحث عن الشيء الذي أجرم من أجله.

ورفع أحد النبّالين المُحلّقة من الأرض ومَدّها إلى برناردو. كانت الهندسة الأنيقة المُتكوّنة من دوائر نُحاسية وفضية يشد بعضها إلى البعض هيكل قوي من الحلقات البرونزية قد أُمسكت من ساق المنصب ودُقّت بقوة على دماغ الضحية، حتى إنه من قوة الضربة كُسرت الكثير من الدوائر الأكثر نحافة أو هرستها من إحدى جوانبها. والجانب الذي سقط على رأس سيفيرينو كانت تدل عليه آثار الدم وحتى علقات الشعر ولطخات المادة المخيّة المائعة والمقززة.

وانحنى غوليالمو ليتأمل جثة سيفيرينو. كانت عينا المسكين، المغشّاتان بالدم الذي سال كالأنهار من رأسه، جاحظتين وتساءلت إن لم يكن ممكناً أن نقرأ في الحدقة المتحجرة، كما يحكى أنه وقع في حالات أخرى، صورة القاتل وهي آخر أثر لمرئيات الضحية. ورأيت أن غوليالمو يفحص يدي الميت للتأكد من وجود

Twitter: @ketab_n

البقع السوداء على الأصابع، ولو أنه في تلك الحالة كانت أسباب الموت واضحة وضوحاً كبيراً دون ذلك: ولكن سيفيرينو كان يحمل القفازين من الجلد نفسيهما اللذين رأيته يستعملهما مرّات أخرى عندما يلمس أعشاباً خطيرة أو عظايا أو حشرات مجهولة.

في الأثناء كان برناردو غي يخاطب القيّم ويسأله «ريميجيو دا فراجيني، هذا هو اسمك، أليس كذلك؟ لقد أرسلت رجالي للبحث عنك لاتهامات أخرى وللتأكد من شبهات أخرى. الآن أرى أنني قد فعلت حسناً وإن كان، وألوم نفسي على ذلك، بكثير من التأخير ـ ثم توجه إلى رئيس الدير ـ سيدي، إنني أكاد أعتبر نفسي مسؤولاً عن هذه الجريمة الأخيرة، لأنني كنت أعلم منذ صبيحة هذا اليوم أنه ينبغي تسليم هذا الرجل إلى العدالة، بعد أن استمعت إلى مُكاشفات ذلك البائس الآخر الذي أوقفناه هذه الليلة. ولكنكم رأيتم، أنتم أيضاً، أنني كنت مُنشغلاً هذا الصباح بواجبات أخرى وفعل رجالي ما في وسعهم..».

وبينما كان يتكلم بصوت مرتفع كي يسمعه كل الحاضرين (وقد اكتظّت القاعة بأشخاص انسابوا إلى كلّ الزوايا وهم ينظرون إلى الأشياء المبعثرة والمحطمة، مشيرين أحدهم للآخر إلى الجثة ومتهامسين حول ذلك الجرم الفظيع)، لمحت بين ذلك الجمع الصغير مَلاخي وهو ينظر مُكفهر الوجه إلى المشهد. ورآه أيضاً القيّم، الذي كان في تلك الآونة بالذات يُجرّ إلى الخارج، فتخلّص من قبضة النبّالين وارتمى على زميله، فأمسكه من ثوبه وخاطبه بإيجاز وبيأس وقد ألصق وجهه في وجه الآخر، إلى أن أمسكه النبّالون من جديد. ولكن بينما كانوا يقودونه بعيداً بشدة التفت مرّة أخرى إلى مَلاخي وصاح به «أَقسِمْ، وأنَا أُقسم!»

لم يجب مَلاخي في الحال كما لو كان يبحث عن الكلمات المناسبة. ثم بينما كان القيّم يجتاز العتبة كرهاً، قال له: «لن أفعل شيئاً ضدّك».

فتبادلت أنا وغوليالمو النظرات متسائلين ماذا كان يعني ذلك المشهد. وبرناردو أيضاً تابعه ولكنه لم يبدُ مُحتاراً من ذلك، بل العكس، ابتسم لمَلاخي

Twitter: @ketab_n

كما لو كان يؤيد كلماته ويتواطأ معه تواطؤاً رهيباً. ثم أعلن أنه، فوراً بعد الأكل، ستلتئم في قاعة المجلس محاكمة أولى للتحقيق علنياً. وخرج آمراً أن يقاد القيّم إلى المصاهر دون أن يتركوه يتحادث مع سلفاتوري.

في تلك اللحظة سمعنا بانشيو من الخلف ينادينا، وقال لنا همساً: «لقد دخلت بعدكم أنتم بالضبط، عندما كانت القاعة نصف فارغة، ولم يكن مَلاخي هناك».

فقال غوليالمو: «ربما دخل من بعد».

فأكد بانشيو: «كلا لقد كنت حذو الباب ورأيت من دخل. أقول لكما إن مَلاخي كان في الداخل. . . . قبل».

- «قبل ماذا؟»

- «قبل أن يدخل القيّم. لا أستطيع أن أقسم بذلك، ولكني أظن أنه خرج من وراء ذلك السّتار، عندما اجتمع هنا عدد غفير منّا» وأشار إلى ستار كبير يخفي سريراً اعتاد سيفيرينو أن يريح فوقه من يتلقى علاجاً. فسأله غوليالمو «تريد أن تلمّح أنه هو الذي قتل سيفيرينو ثم توارى خلف ذلك السّتار عندما دخل القيّم؟»

- «أو إنه من الخلف شاهد كل ما حدث هنا. وإلا لماذا ترجّاه القيّم أن لا يلحق به ضرراً مقابل أن يفعل هو الشيء نفسه؟»

فقال غوليالمو: «قد يكون. على كل كان يوجد هنا كتاب، وينبغي أن يكون هنا إلى الآن لأن القيّم ومَلاخي خرجا فارغي اليدين». كان غوليالمو يعرف من تقريري أن بانشيو على علم بذلك: وفي تلك اللحظة كان بحاجة إلى المساعدة. فاقترب من رئيس الدير الذي كان ينظر بحزن إلى جثة سيفيرينو وترجّاه أن يُخرج الجميع لأنه يريد أن يفحص المكان مليّاً. فوافقه رئيس الدير، وهو نفسه خرج ولم ينسَ أن يلقي إلى غوليالمو بنظرة شك كأنما يلومه على وصوله دائماً بعد فوات الأوان. وحاول مَلاخي أن يبقى مختلقاً أعذاراً مُختلفة، وواهية، فنبهه غوليالمو على أن ذلك المكان ليس المكتبة وأنه لا يمكنه أن يفرض فيه أي حق

Twitter: @ketab_n

من الحقوق. كان مُتأدباً ولكن صلباً، وثأر لنفسه من المرّة التي لم يتركه فيها مَلاخي يفحص طاولة فينانتسيو.

عندما بقينا نحن الثلاثة أخلى غوليالمو إحدى الطاولات من الشظايا ومن الأوراق التي كانت تملأها وأمرني بأن أمد إليه، الواحد بعد الآخر، الكتب التي كانت تكوّن مجموعة سيفيرينو. كانت مجموعة صغيرة بالمُقارنة مع تلك العظيمة الموجودة في المتاهة. ولكنها كانت مع ذلك تحوي العشرات والعشرات من المجلدات من مُختلف الأحجام. وكانت قبل ذلك مُرتبة في نظام جميل فوق الرفوف وصارت الآن مُلقاة بفوضى على الأرض، بين أشياء أخرى مُختلفة، زادت في تَبَعْثُرِها يَدَا القيّم المتسرعتان، وكان بعضها ممزقاً كما لو كان يبحث لا عن كتاب بل عن شيء يمكن أن يكون موجوداً بين صفحات كتاب. وبعضها قد مُزّق بعنف مما فصلها عن تجليدها. فكان جمعها وفحص طبيعتها ثم وضعها في كومة على الطاولة أمراً غير سهل، قمنا به بسرعة لأن رئيس الدير لم يترك لنا وقتاً كثيراً، إذ كان ينبغي أن يدخل الرُّهبان ليعيدوا لجسد سيفيرينو المتقطع هيئته الأولى ولتهيئته للدفن. وكان لا بدّ أيضاً من البحث في أنحاء القاعة، وتحت الطاولات ووراء الرفوف والخزانات، للتحقق إن كان هناك شيء غاب عن تفتيش أول. ولم يُرِد غوليالمو أن يساعدني بانشيو وسمح له فقط بالبقاء على الباب للمراقبة. فبالرغم من أوامر رئيس الدير كان الكثيرون يتزاحمون للدخول، من خدم روّعهم الخبر، ورُهبان يبكون زميلهم ومبتدئين يحملون أكفاناً ناصعة البياض وأواني مملوءة ماء لغسل الجثة وتكفينها.

كان ينبغي أن نعمل إذن بسرعة. فكنت أمسك بالكتب وأمدّها إلى غوليالمو الذي كان يفحصها ثم يضعها فوق الطاولة. ثم رأينا أن العمل كان بطيئاً فواصلنا معاً، أي إنني كنت ألتقط الكتاب وأعيد تركيبه إن كان مفككاً، وأقرأ العنوان ثم أضعه. وفي حالات كثيرة كانت عبارة عن أوراق مبعثرة. وكان غوليالمو يقرأ: «الكتب الثلاثة في الأعشاب» ويضيف ساخطاً: «يا للعنة، ليس هذا!» ثم يرمي بالكتاب فوق الطاولة.

ومن جهتي كنت أقرأ: **كنوز الأعشاب** ويردّ غوليالمو «اترك ذلك جانباً، إننا نبحث عن كتاب باليونانية!»

Twitter: @ketab_n

فسألته: «هل هو هذا؟» وأريته كتاباً يملأ صفحاته خط مبهم.

ـ «كلاّ، هذه عربية أيها الغبي! صدق بيكون عندما قال أول ما يجب على العالِم هو دراسة اللغات!»

فأجبته وقد جرحت كلماته شعوري «ولكنك أنت أيضاً لا تعرف العربية» فرد غوليالمو قائلاً: «ولكني أعرف على الأقل أنها عربية!» فاحمرّ وجهي خجلاً لأني كنت أسمع بانشيو يضحك من ورائي.

كانت الكتب كثيرة، وأكثر منها كانت المذكرات، ومدارج تحمل رسوم القبة السماوية، وجداول لنباتات غريبة، ومخطوطات ربما كتبها الفقيد، على أوراق متناثرة. عملنا طويلاً ونظرنا في كل زاوية من زوايا المخبر، ووصل غوليالمو إلى حد أنه حرّك الجثة ببرودة دم كبيرة ليرى إذا ما كان تحتها شيء كما فتّش أيضاً في ثياب الميت. لا شيء.

فقال غوليالمو «لا بدّ من أن يكون هنا. لقد أغلق سيفيرينو على نفسه ومعه كتاب. ولم يكن مع القيّم»...

ـ «أيكون أخفاه بين أثوابه؟»

ـ «كلا، الكتاب الذي رأيته ذلك الصباح فوق طاولة فينانتسيو كان كبير الحجم، فلو أخفاه لكنا لاحظناه...»

فسألته «كيف كان تجليده؟»

ـ «لا أعرف. كان مفتوحاً ونظرت إليه بضع لحظات فقط، ما يكفي لمعرفة أنه مكتوب باليونانية، ولكني لا أذكر شيئاً آخر. لنواصل: لم يأخذه القيّم، ولا مَلاخي، بحسب ما أظن».

فأكد بانشيو ذلك قائلاً: «على الإطلاق لا. عندما أمسكه القيّم من صدره كان واضحاً أنه لم يكن يحمله تحت ثوبه».

ـ «حسناً! أعني أنه ليس حسناً بالمرة. إن لم يكن الكتاب في هذه القاعة فمن الواضح أن أحداً آخر غير مَلاخي والقيّم، قد دخل قبلهما».

Twitter: @ketab_n

ـ «إذن شخص ثالث يكون قد قتل سيفيرينو!»

فقال غوليالمو: «أرى أن عدد المشبوه فيهم صار كبيراً!»

فقلت: «ثم، من يمكن أن يكون على معرفة بوجود الكتاب هنا؟»

ـ «يورج، مثلاً، لو كان قد سمعنا».

فقلت: «نعم، ولكن يورج لا يمكن أن يكون قتل رجلاً قوّياً مثل سيفيرينو، وبكل ذلك العنف».

ـ «أكيد لا. ومن ناحية أخرى قد رأيته أنت يتجه نحو الصرح، ووجده النبّالون في المطبخ قبل العثور على القيِّم بقليل. إذن لم يكن لديه الوقت الكافي للمجيء إلى هنا والرجوع إلى المطبخ. خذ بعين الاعتبار أنه، وإن كان يتحرك بخفة، فهو مجبر على محاذاة الجدران ولا يمكنه اجتياز المبقلة، عدواً...»

فقلت وقد أصبحت أتوق الآن إلى مُنافسة أستاذي «دعني أفكّر. إذن لا يمكن أن يكون يورج. كان أليناردو يتجوّل قريباً، ولكن هو أيضاً يتماسك بصعوبة فوق ساقيه ولا يمكن أن يكون تَغَلَّب على سيفيرينو. كان القيِّم هنا، ولكن الوقت الذي مرّ منذ خروجه من المطبخ ووصول النبّالين إلى هنا كان قصيراً، حتى إنه يبدو لي من الصعب أن يقنع سيفيرينو بأن يفتح له، ثم يواجهه فيقتله ليحدث بعد ذلك كل هذه الفوضى. يمكن أن يكون مَلاخي قد سبق الجميع: يورج سمعكما في البهو فذهب إلى قاعة الكتابة وأعلم مَلاخي أن كتاباً من كتب المكتبة موجود عند سيفيرينو، فيأتي مَلاخي إلى هنا ويقنع سيفيرينو بأن يفتح له ثم يقتله، واللّه يعلم لماذا. ولكن إن كان يبحث عن الكتاب فقد كان بوسعه أن يتعرّف عليه دون أن يقلب كل شيء رأساً على عقب، لأنه هو أمين المكتبة؟ إذن من تبقّى؟»

فقال غوليالمو: «بانشيو».

فهز بانشيو رأسه نافياً ذلك بقوة «لا يا أخ غوليالمو، أنت تعلم أن الفضول يلتهمني. ولكنني لو دخلت إلى هنا وأمكنني أن أخرج بالكتاب، فلن أكون في هذه الساعة هنا معكما، ولكن في مكان ما لأكتشف كنزي»..

Twitter: @ketab_n

فابتسم غوليالمو قائلاً: «تكاد تكون حجة مقنعة. ولكن أنت أيضاً لا تعرف شكل الكتاب. ويمكن أن تكون قتلت والآن تحاول أن تتعرف عليه».

فاحمرّ وجه بانشيو بشدة واحتج قائلاً: «إني لست مُجرماً!».

فأجاب غوليالمو بفلسفة: «لا أحد يكون مجرماً قبل ارتكاب جريمته الأولى. على كل حال الكتاب غير موجود، وهذه حجة كافية تدلّ على أنك لم تتركه هنا. ويبدو لي معقولاً أنك، لو أخذته قبل الآن، لتسللت إلى الخارج أثناء الفوضى». ثم التفت نحو الجثة، كأنه تفطّن في تلك اللحظة فقط إلى موت صديقه «يا لسيفيرينو المسكين، لقد ارتبت بك أنت أيضاً وبسمومك. وكنت أنت تنتظر أن تأتي المكيدة من سمّ، وإلاّ لما لبست القفازين. كنت تخاف من خطر يأتيك من الأرض وإذا به أتاك من القبة السماوية.».. وأخذ من جديد المحلّقة وفحصها بعناية «تُرى لماذا استعمل القاتل هذا السلاح بالذات؟»...

- «لأنها كانت على مقربة منه...»

- «ربما. ولكن كانت هناك أشياء أخرى، أوعية، أدوات جَنّان،... إنها أنموذج جميل من فن المعادن ومن علم الفلك. لقد أُتلفت و..». وفجأة صاح «وحقّ السماء»!

- «ماذا حدث؟»

فذكر: «وضُرب ثُلُثُ الشمس وثُلُثُ القمر وثُلُثُ النجوم..». كنت أعرف جيداً نص يوحنا الحواري، فهتفت «البوق الرابع!»

- «فعلاً. الأول بَرَد، والثاني دم، ثم الماء والآن النجوم... إذا كان الأمر كذلك فينبغي إعادة النظر في كل شيء، لم يسدّد القاتل ضرباته دون تبصّر، لقد خطط لذلك... ولكن أمِن الممكن تصوّر عقل شرير إلى حد أن يقتل فقط عندما يمكنه اتّباع ما جاء في كتاب الرؤيا؟»

فسألته بارتياع: «ماذا سيحدث في البوق الخامس؟» - ثم حاولت أن أتذكر «فرأيت كوكباً قد سقط من السماء إلى الأرض وأُعطِي مفتاح بئر الهاوية... سيموت أحدهم غرقاً في البئر؟»

Twitter: @ketab_n

فقال غوليالمو: «إن البوق الخامس يعدنا بأشياء كثيرة أخرى. من البئر يصعد دخان أتون، ثم يخرج منه جراد يعذب البشر بشوكة تشبه شوكة العقرب. وشكل الجراد شبه خيل مُهيأة للحرب وعلى رؤوسها كأكاليل شبه الذهب وأسنانها كأسنان الأسود... ستكون لدى صاحبنا وسائل مُختلفة لتحقيق كلمات الكتاب... ولكن لنترك جانباً هذه التَّخيُّلات. ولنحاول أن نتذكر ماذا قال لنا سيفيرينو عندما أخبرنا أنه عثر على الكتاب..».

ـ «لقد سألته أن يحمله إليك فقال إنه لا يستطيع...»

ـ «فعلاً، ثم قاطعنا أحد. لماذا كان لا يستطيع؟ من السهل أن يحمل المرء كتاباً. ولماذا لبس القفازين؟ هل هناك شيء في تجليد الكتاب له علاقة بالسمّ الذي قتل برينغاريو وفينانتسيو؟ مكيدة غامضة، شوكة سامّة...»

فقلت: «ثعبان!»

ـ «ولِمَ لا تكون سمكة؟ كلاّ، إننا نتخيل من جديد. السم، لقد رأينا ذلك، يجب أن يمرّ عبر الفم. ثم لم يقل لنا سيفيرينو إنه لا يستطيع حمل الكتاب، قال إنه يفضل أن يريني إياه هنا. ووضع قفازيه... مما يدل على أنه ينبغي لمس ذلك الكتاب بقفازين. وهذا يصح حتى بالنسبة إليك يا بانشيو إن تمكنت من العثور عليه، كما نرجو ذلك. وبما أنك خدوم بهذه الصفة، فيمكنك مساعدتنا. اصعد من جديد إلى قاعة الكتابة وراقب مَلاخي. لا يجب أن يغيب عن أنظارك».

فقال بانشيو: «سأفعل ذلك!» وخرج سعيداً بالمهمة بحسب ما بَدَا لنا.

ولم يعد بإمكاننا أن نحبس أكثر من ذلك جمع الرُّهبان، فامتلأت بهم القاعة. كانت قد انقضت ساعة العشاء، ومن المحتمل أنّ برناردو كان بصدد جمع مجلس قضائه.

فقال غوليالمو: «لم يبقَ لنا هنا ما نفعله».

فخطرت ببالي فكرة وقلت: «ألا يمكن أن يكون القاتل قد ألقى الكتاب من النافذة ثم ذهب لأخذه من وراء المستشفى؟» ـ فنظر غوليالمو بتشكك إلى نوافذ المخبر، التي كانت تبدو مغلقة بإحكام ثم قال: «لنحاول التأكد من ذلك».

Twitter: @ketab_n

خرجنا وفحصنا الجانب الخلفي للبناية، الذي يكاد يكون متكئاً على سور الحزام، تاركاً ممراً ضيقاً. وتقدّم غوليالمو بحذر لأنه في ذلك الموضع بقي الثلج الذي سقط في الأيام الفارطة سليماً لم يمسّ. وكانت خطواتنا ترسم على القشرة المتجمدة، والرقيقة، آثاراً واضحة، وإذن لو مرّ أحد من هنا قبلنا لدلّنا الثلج على ذلك. ولكننا لم نرَ شيئا.

تركنا المستشفى، ومع المستشفى افتراضي السخيف، وبينما كنا نجتاز المبقلة سألت غوليالمو إن كان يثق فعلاً ببانشيو، فقال: «ليس تماماً، ولكننا على كل حال لم نقل له شيئاً كان يجهله من قبل، وجعلناه يخاف على مصير الكتاب. وأخيراً بينما هو يراقب مَلاخي يكون بدوره مراقباً من طرف مَلاخي، الذي من الواضح أنه بصدد البحث عن الكتاب لحسابه الخاص».

ـ «وماذا كان القيّم يريد؟»

ـ «سنعرف ذلك قريباً. من المؤكد أنه كان يريد شيئاً، وكان يريده حالاً لتحاشي خطراً كان يروّعه. وهذا الشيء كان لا يخفى على مَلاخي، وإلاّ فكيف نفسّر تضرّع رميجيو اليائس إليه..»..

ـ «على كلّ حال قد اختفى الكتاب...»

فقال غوليالمو بينما كنا بصدد الوصول إلى قاعة المجلس: «هذا هو الشيء الأكثر غرابة، إن كان هناك، وقد قال لنا سيفيرينو ذلك، إما أنه نُقل من مكانه أو أنه لايزال هناك».

فقلت مستنتجاً: «وبما أنه غير موجود فقد أخذه أحدهم».

ـ «لم يقل أحد إنه لا يمكن تقديم برهنة انطلاقاً من مقدمة صغرى. وبما أن كلّ شيء يُثبت أنه لم يأخذه أحد...»

ـ «إذن ينبغي أن يكون هناك. ولكنه غير موجود».

ـ «لحظة. نحن نقول إنه ليس هناك لأننا لم نعثر عليه. ولكن ربما لم نعثر عليه لأننا لم نره حيث كان موجوداً».

Twitter: @ketab_n

- «ولكننا نظرنا في كل أرجاء القاعة».

- «نظرنا لكننا لم نرَ. أو رأيناه ولم نتعرف عليه... أدسو، كيف وصف لنا سيفيرينو الكتاب؟ ما هي الكلمات التي استعملها؟»

- «لقد قال إنه وجد كتاباً ليس من كتبه، باليونانية...»

- «كلاّ، الآن أذكر. لقد قال كتاباً «غريباً». لقد كان سيفيرينو عالماً، وبالنسبة إلى عالم لا يكون غريباً كتابٌ باليونانية، وإن كان ذلك العالم لا يعرف اليونانية، فهو يتعرّف على الأقل على الحروف. والعالم لا يقول عن كتاب إنه غريب وإن كان بالعربية، حتى لو كان لا يعرف العربية..». - ثم توقف وتساءل «ولكن ماذا يفعل كتاب عربي في مخبر سيفيرينو؟»

- «ولكنه لماذا ينعت كتاباً عربيّاً بأنه غريب؟»

- «هذا هو المشكل. إن كان نعته بالغريب فلأن له شكلاً غير مألوف، على الأقل بالنسبة إليه، هو الذي كان يهتم بالأعشاب لا بالكتب. وفي المكتبات يحدث أن تُجلّد عدة مخطوطات معاً، وأن تُجمع في مجلد واحد نصوص مُختلفة ونادرة، واحد باليونانية، وآخر بالآرامية...»

فصحت، وقد صعقتني تلك الأستنارة «... وواحد بالعربية!»

فجذبني غوليالمو بقوة خارج البهو ودفعني كي أعدو نحو المستشفى: «أيها الألماني العنيد، رأس اللفت، أيها الجاهل، لقد نظرت إلى الصفحات الأولى ولم تنظر إلى الباقي!»

فقلت وأنا ألهث: «ولكن، سيدي، لقد نظرت أنت إلى الصفحات التي أريتك إياها وقلت إنها بالعربية لا اليونانية!»

- «صحيح يا أدسو، صحيح، أنا هو المُغفّل، أسرع!»

فعدنا إلى المخبر ولاقينا صعوبة في الدخول لأن المبتدئين كانوا ينقلون الجثة إلى الخارج. وكان هناك متطفلون آخرون يطوفون في القاعة. فسارع غوليالمو إلى

Twitter: @ketab_n

الطاولة. ورفع الكتب بحثاً عن كتاب السوء، وكان يلقي بالكتب على الأرض أمام أنظار الحاضرين المندهشة. ثم فتحها، وأعاد فتحها كلها مرتين. ولكن للأسف اختفى المخطوط العربي. لقد كنت أذكر بصفة تقريبية غلافه القديم، الرقيق والمتآكل جداً بعصائبه المعدنية الخفيفة.

فسأل غوليالمو أحد الرُّهبان «من دخل إلى هنا بعد أن خرجت؟» فهزّ الآخر كتفيه. كان من الواضح أنهم دخلوا كلهم، وليس واحداً بالذات.

فحاولنا أن نعتبر كل الإمكانيات. مَلاخي؟ ربما، كان يعرف ماذا يريد، قد يكون راقبنا ثم رآنا نخرج فارغي الأيدي، فعاد متأكداً من أمره. بانشيو؟ تذكرت أنه عندما وقع الخصام حول النص العربي ضحك. آنذاك ظننته ضحك من جهلي، ولكنه ربما ضحك من سذاجة غوليالمو، كان يعرف كيفيات التجليد الممكنة لمخطوط قديم وجال بذهنه ما لم يجل بذهننا فوراً، وكان ينبغي علينا أن نُعمِل الفكر، أي أن سيفيرينو كان لا يعرف العربية وكان من الغريب إذن أن يحتفظ بين كتبه بكتاب لا يمكنه قراءته. أم أن هناك شخصاً ثالثاً؟

كان غوليالمو يحسّ بخزي عميق. وحاولت أن أهوّن عليه، وقلت له إنه يبحث منذ ثلاثة أيام عن نص باليونانية، فكان من الطبيعي أن يلقي جانباً، أثناء فحصه، بكل الكتب التي لا تبدو باليونانية. وكان هو يجيب أن الخطأ هو دون شك من طبيعة الإنسان، ولكن هناك مخلوقات بشرية ترتكب أخطاء أكثر من أخرى، ويسمّونهم مغفلين، وأنه هو من بينهم، وكان يتساءل إن كان من النافع أن يكون درس في باريس وفي أوكسفورد إن كان غير قادر أن يفكر في أن المخطوطات تجلّد أيضاً في مجموعات، وهذا شيء يعرفه حتى المبتدئون، عدا الأغبياء من أمثاله، وأن غبييّن مثلنا نحن سيكون لهما نجاح كبير في المعارض، وأنه كان ينبغي أن نفعل ذلك لا أن نحاول فك الألغاز، خاصة عندما يكون تجاهنا أشخاص أكثر مكراً منا بكثير.

ثم اختتم قائلاً «ولكن لا فائدة من البكاء. إن كان مَلاخي هو الذي أخذه، ففي هذه الساعة يكون قد أعاده إلى المكتبة. وسنجده فقط لو أمكن لنا الدخول

Twitter: @ketab_n

إلى قاعة «أقصى إفريقيا». وإن كان بانشيو هو الذي أخذه، فسيتصور أنني في وقت ما سيداخلني الشك وأعود إلى المخبر، وإلا لم يتصرَّف بتلك السرعة. وإذن يكون قد اختفى، والمكان الوحيد الذي من المؤكد أنه لم يختفِ فيه هو المكان الذي سنبحث عنه فيه فوراً، أي حجرته. لنعد إذن إلى قاعة المجلس ولنرَ إن كان القيّم سيقول شيئاً مفيداً أثناء التحقيق. لأنه في نهاية الأمر لم يتّضح لي إلى الآن مُخطط برناردو، فقد كان يبحث عن صاحبه قبل موت سيفيرينو، ولأغراض أخرى».

فعدنا إلى قاعة المجلس. بينما كان من الأفضل أن نذهب إلى حجرة بانشيو لأنه، وكما علمنا من بعد، لم يكن صاحبنا الشاب يحسن الظن كثيراً بغوليالمو، ولم يكن يخمّن أنه سيعود بتلك السرعة إلى المخبر. ولذا، ظنّ أننا لن نبحث عنه في تلك الناحية فذهب فعلاً لإخفاء الكتاب في حجرته.

ولكني سأقول ذلك من بعد. في الأثناء حدثت أشياء مُزعجة ومُقلقة إلى حدّ أنها أنستنا الكتاب الغامض. وحتى إن لم ننسَه، فإننا كنا منشغلين بأشياء أخرى أكيدة، مرتبطة بالمهمة التي كان غوليالمو رغم كلّ شيء مكلفاً بها.

Twitter: @ketab_n

اليوم الخامس: تاسعة

وفيه تقع المحاكمة ويبقى الانطباع المُحيّر بأن الجميع قد أخطأوا

توسّط برناردو غي الطاولة الكبيرة المصنوعة من خشب الجوز في قاعة المجلس. وكان بالقرب منه دومينيكي يقوم بمهمة كاتب عدل وحَبْران من قصادة البابا يجلسان إلى جانبه كقاضيين. وكان القيّم واقفاً أمام الطاولة، بين نبّالين.

توجه رئيس الدير إلى غوليالمو هامساً إليه «لا أدري إن كان الإجراء شرعياً. فقد حدّد المجمع اللاتيراني سنة 1215 في بنده السابع والثلاثين أنه لا يمكن دعوة شخص للمثول أمام قُضاة يقيمون على بعد أكثر من يومين سيراً من محلّ سكناه. ربما تكون الوضعية هنا مُختلفة، القاضي هو الذي يأتي من بعيد، ولكن...».

فقال غوليالمو «المحقق لايخضع لأية سلطة قضائية عادية، وليس مجبراً على اتباع قواعد القانون العام. وله امتيازات خاصة وليس مجبراً حتى على الاستماع إلى المحامين».

نظرت إلى القيّم، لقد آلَ ريميجيو إلى أسوأ حال. كان ينظر حواليه كحيوان مذعور، كما لو تعرّف على حركات وإشارات طقس مروّع. الآن أعرف أنه كان خائفاً لسببين لا يقل أحدهما فظاعة عن الآخر: أولاً لأنهم قبضوا عليه، بحسب كل الظواهر، متلبّساً بالجريمة، ثانياً لأنه منذ اليوم السابق، عندما شرع برناردو في تحقيقه وفي التقاط الهمسات والتلميحات، كان يخاف أن يُكتشف ماضيه وزاد رعبه عندما قُبض على سلفاتوري.

ولئن كان ريميجيو البائس فريسة لمخاوفه فقد كان برناردو غي يعرف كيف

Twitter: @ketab_n

يحوّل خوف ضحاياه إلى هلع. كان صامتاً: فبينما كان الجميع ينتظرون أن يبدأ الاستنطاق، كان هو واضعاً يديه فوق الأوراق أمامه، متظاهراً بترتيبها من جديد، ولكن بشرود. كان نظره في الحقيقة مركّزاً على المتّهم، نظرة هي مزيج من التسامح المخادع (كأنه يقول له: لا تخفْ، أنت بين يدي مجمع أخوي لا يريد لك إلاّ الخير) ومن السخرية الجامدة (كأنه يقول: أنت لا تعرف ما هو خير لك، وأنا الذي سأقوله لك عمّا قريب) ومن الصرامة القاسية (كأنه يقول: على كلّ حال أنا قاضيك الوحيد، وأنت حاجتي). وكلها أشياء كان القيّم يعرفها، ولكن صمت القاضي وتمهله كانا يذكّرانه بها، كي يتذوّقها إن صحّ التعبير، ـ وعوض أن ينساها ـ تكون له باعثاً على الخزي، وكي يتحول قلقه إلى يأس فتكون تبعيّته للقاضي تبعية مطلقة، ويصبح صمغاً ليناً بين يديه.

وأخيراً قطع برناردو الصمت ناطقاً ببعض الجمل الطقسية، وقال للقُضاة إنه سيشرع في استنطاق المُتَّهَم لجُرْمَين شنيعين، واحد منهما واضح للجميع ولكن أقل دناءة من الآخر، لأن المتهم فوجئ بينما كان يرتكب جريمة قتل في حين كان يُفتش عنه بتهمة الهرطقة.

لقد نطق بها. وأخفى القيّم وجهه بين يديه اللتين كان يحرّكهما بصعوبة للأغلال التي كانت تشدهما. واستهل برناردو الاستنطاق سائلاً إياه:

ـ «من أنت؟»

ـ «ريميجيو دا فراجيني. ولدت منذ اثنتين وخمسين سنة ودخلت وأنا صبيّ دير الفرانشسكانيين في فراجيني».

ـ «وكيف حدث أنك توجد الآن في نظام القديس بنيدكت؟»

ـ منذ سنوات، عندما أصدر البابا مرسوم «Sancta Romana» وبما أني كنت أخاف أن تصيبني عدوى هرطقة الإخوان المتسولين... ولو أني لم أؤيد قط أفكارهم... فكرت في أنه أصلح لنفسي المذنبة أن أبتعد عن ذلك المحيط المشحون بالمغريات وتحصلت على الإذن بالدخول ضمن رُهبان هذا الدير حيث أقوم منذ ما يزيد عن ثمانية أعوام بمهمّة قيّم.

Twitter: @ketab_n

فقال برناردو بتهكم: «فررت من مغريات الهرطقة أم من تحقيق من كان مُكلَّفاً باكتشاف الهرطقة وباقتلاع نبتتها الفاسدة، وظن الرُّهبان الكلونيون أنهم يقومون بعمل صالح بقبولك وقبول أمثالك. ولكن لا يكفي أن يتغير الزي الرُّهباني كي ينمحي فحش الانحراف الهرطيقي من الروح، ولذلك نحن هنا الآن لاكتشاف ما يجول في خبايا نفسك العاصية وما فعلت قبل أن تصل إلى هذا المكان المقدّس».

فقال القيّم بحذر «إن نفسي بريئة ولا أعرف ماذا تعنون بالانحراف الهرطيقي».

فصاح برناردو متلفتاً إلى القُضاة الآخرين «أترَوْن؟ كلّهم هكذا! عندما يُقبض على أحدهم يَمثُل أمام العدالة كما لو كان مرتاح الضمير ودون ندم. ولا يعرفون أن ذلك هو أوضح دليل على جرمهم، لأن الطيبين يمثلون، عند المحاكمة، مرتبكين! اسألوه عن السبب الذي من أجله أَمرتُ بإيقافه. أتعرفه، يا ريميجيو؟»

فأجاب القيّم «سيدي، سأكون سعيداً لو سمعت ذلك من فمك».

وفوجئت إذ بَدا لي أن القيّم كان يجيب عن أسئلة طقسية بكلمات طقسية مثلها، كما لو كان يعرف جيداً قواعد التحقيق ومكائده، وتعلّم منذ مدّة كيف يُجابه مثل ذلك الظرف.

وكان برناردو يصيح: «هذا هو الجواب المثالي للهرطيق الذي لا يعرف التوبة! إنهم يسلكون طرق الثعالب نفسها، ومن العسير أن تُفاجئهم لأن جماعتهم تسمح لهم بالكذب لتجنب العقوبة التي يستحقونها. فيلجأون إلى أجوبة مُلتوية محاولين بذلك مُخادعة المُحقّق، الذي ينبغي عليه مع كل ذلك تحمُّل الاتصال بأشخاص في تلك الدناءة. إذن أخ ريميجيو، لم تكن لك أية علاقة بمن يُسمَّون الإخوان المتسوّلين أو إخوان الحياة الفقيرة أو المُترهبين؟»

- «لقد عشت الأحداث التي عاشها الفرانشسكانيّون، أثناء المجادلة الطويلة حول قضية الفقر، ولكني لم أنضمّ قط إلى طائفة المترهبين».

فقال برناردو «أترون، إنه ينفي أنه كان مُترهباً لأن المُترهبين رغم مشاركتهم

Twitter: @ketab_n

لهرطقة الإخوان المُتسولين نفسها، كانوا يعتبرون الآخرين كالغصن الميّت في النظام الفرانشسكاني، ويعتبرون أنفسهم أطهر وأكمل منهم. ولكن الكثير من تصرّفات الأولين هي تصرفات الآخَرِين نفسها. أيمكنك أن تنفي يا رميجيو، أنهم رأوك في الكنيسة مُنكمشاً على نفسك ووجهك إلى الحائط، أو منبطحاً على الأرض ووجهك مغطى بالأسكيم، عوضاً عن الركوع مع ضمّ اليدين على الصدر كما يفعل كلّ الناس؟»

- «حتى في نظام بنيدكت يجثو المرء عند اللزوم...»

- «إنني لا أسألك ماذا فعلت عند اللزوم، ولكن في غير لزوم لذلك! إذن لا تنفي أنك اتخذت تلك الوضعية أو الأخرى، الخاصتين بالمُترهبين! ولكنك قلت لي إنك لست مُترهباً... إذن قل لي: بماذا تؤمن؟»

- «سيدي، إني أؤمن بكل ما يؤمن به مسيحي صالح...»

- «يا له من جواب طاهر! وبماذا يؤمن المسيحي الصالح؟»

- «بما تعلّمه الكنيسة المقدّسة».

- «وأية كنيسة مقدّسة؟ تلك التي يؤمن بها أولئك الذين يعرّفون أنفسهم بأنهم كاملون والرسل الكذّابون، والمتسولون الهراطقة، أم الكنيسة التي يقارنونها ببغيّ بابل، والتي نؤمن بها نحن كلنا بثبات؟»

فأجاب القيِّم محتاراً «سيدي، قل لي أنت أيهما تظن أنها الكنيسة الحقيقية..».

- «إني أؤمن بالكنيسة الرومانية، واحدة مقدّسة ورسولية، بقيادة البابا وأساقفته».

فقال القيِّم «وهذا ما أؤمن به أنا أيضاً».

عندئذ صاح المحقق «يا لها من حيلة جديرة بالإعجاب، يا لها من فطنة في القول حقيقة رائعة! أسمعتموه: يريد أن يقول إنه يؤمن بالكنيسة التي أؤمن بها،

Twitter: @ketab_n

ويتهرّب من الإفصاح لنا بماذا يؤمن هو! ولكننا نعرف جيداً حيل النِّمْس هذه! لنصل إلى لُبّ الموضوع. أتؤمن أنت بأن أسرار البيعة قد وضعها سيدنا المسيح، وأنه للتوبة الصادقة يجب أن يعترف المذنب بخطاياه لخدم الإلٰه، وأن للكنيسة الرومانية السلطة في الحل والعقد على هذه الأرض لما سيُحلّ ويُعقد في السماء؟»

ـ «ولِمَ لا يجب أن أؤمن بذلك؟»

ـ «إنني لا أسألك بماذا يجب أن تؤمن، أسألك بماذا تؤمن؟»

فأجاب القيّم بهلع «إنني أؤمن بكل ما تؤمنون به أنتم وبكل ما أمرني العلماء الصالحون أن أؤمن به».

ـ «آه، ولكن العلماء الصالحين الذين تلمّح إليهم ليسوا هم الذين يقودون طائفتك؟ هذا ما كنت تريد أن تقول عندما تكلّمت عن العلماء الصالحين؟ وتعود أنت إلى أولئك الكاذبين المُنحرفين الذين يعتقدون أنهم الخلفاء الوحيدون للحواريين لتستمدوا قواعد ايمانكم؟ تريد أن تلمّح بأنني إذا كنت أؤمن بما يؤمنون به، فستؤمن به، وإلاّ فلن تؤمن إلاّ بما يؤمنون!»

فتمتم القيّم «لم أقل ذلك يا سيدي. أنت الذي جعلتني أقول ذلك. إني أؤمن بما تقول، إن علّمتني ما هو صالح».

فصاح برناردو ضارباً الطاولة بجمع يده «يا للوقاحة! أنت تُعيد عن ظهر قلب وبثبات أعمى الجمل التي تتعلمونها في طائفتكم. تقول إنك ستؤمن بي فقط لو وعظت ما تعتبره طائفتك صالحاً. كان هذا دائماً جواب الرسل الزائفين وهكذا تجيب أنت أيضاً، ربما دون أن تتفطّن، لأن جمل الماضي البعيد تعود إلى شفتيك وتعلمتها لتخادع بها المحققين. وهكذا أقوالك هي التي تلصق التهمة بك، وأكون قد سقطت في شركك لو لم تكن لي خِبْرة طويلة في التحقيق. ولكن لنصل إلى القضية الحقيقية أيها الرجل المُنحرف. ألم تسمع قط بغيراردو سيغاليلي دا بارما؟»

فأجاب القيّم وقد اصفرّ وجهه، (إن كان من الممكن أن ننعت بالصفرة ذلك الوجه الفاقد اللون): «سمعت به».

Twitter: @ketab_n

ـ «أسمعت قبلاً بالأخ دولتشينو دا نوفارا؟»

ـ «سمعت به».

ـ «ألم ترَه قط، شخصياً، ألم تتحدث إليه؟»

فبقي القيِّم لحظات صامتاً، كمن يزن إلى أي حد يكون في صالحه أن يُصرِّح بشيء من الحقيقة. ثم صمّم، وبصوت يكاد لا يُسمع أجاب «رأيته وتحدثت إليه».

فصاح برناردو: «ارفع صوتك، حتى نسمع أخيراً كلمةَ حَقِيقة تخرج من شفتيك! متى تحدثت إليه؟»

فقال القيِّم: «سيدي، لقد كنت راهباً في دير بجهة نوفارا عندما اجتمع أتباع دولتشينو في تلك النواحي، ومرّوا بالقرب من ديرنا، وفي بداية الأمر لم نكن نعرف من كانوا بالضبط...»

ـ «تكذب! ماذا يفعل فرانشسكاني من فراجيني في دير من جهات نوفارا؟ لم تكن في دير، آنذاك. كنت ضمن مجموعة من الإخوان المتسوّلين الذين كانوا يجوبون تلك الأراضي، عائشين من الصدقات، ثم انضممت إلى الدولتشينيّين».

فقال القيِّم: «كيف يمكنك أنْ تجزم بذلك يا سيدي؟»

فأجاب برناردو: «سأقول لك كيف يمكنني أن أجزم بذلك، بل كيف ينبغي عليّ أن أجزم بذلك» ـ وأمر بإدخال سلفاتوري.

وبعثت رؤية ذلك البائس الشفقة في نفسي. لقد قضى ليلته دون شك في استنطاق سري أشد صرامة. لقد سبق أن ذكرت أنّ وجه سلفاتوري كان بطبيعته فظيعاً. ولكنه ذلك الصباح كان أشبه بوجه حيوان. لم يكن يحمل آثار تعنيف. ولكن الكيفية التي كان يتحرّك بها الجسم بأكمله، وسط الأغلال، وأعضاؤه المُفككة التي تكاد تكون عاجزة عن الحركة بينما كان النبّالون يجرّونه كأنه قرد مُوثق بحبل، كانت تُعبّر جيداً عن الطرق التي تم بها استنطاقه المريع. فهمست إلى غوليالمو «لقد عذّبه برناردو..».

Twitter: @ketab_n

فأجاب: «كلاّ، لا يقوم المحقق قط بالتعذيب. يعهد دائماً بجسد المتهم إلى السلطة المدنية».

فقلت: «ولكنه الشيء نفسه!»

ـ «أبداً. ليس الشيء نفسه. لا بالنسبة إلى المحقق الذي تبقى يداه نقيتين، ولا هو الشيء نفسه بالنسبة إلى من يقع استنطاقه، الذي يجد في المحقق عندما يزوره، مُعيناً وعزاءً لآلامه، فيفتح له قلبه».

فقلت بارتياع: «أنت تمزح»،

فأجاب: «أتبدو لك أموراً يمكن المُزاح بشأنها»؟

كان برناردو بصدد استنطاق سلفاتوري، ولا تقدر ريشتي على نقل الكلمات المتقطعة التي أصبحت، إن كان ذلك مُمكناً، أقرب إلى لغة بابل والتي كان يجيب بها ذلك الرجل المنقوص الذي انحطّ إلى صف القِردة. وكان يفهمه الجميع بمشقة بينما كان برناردو يُعينه بإلقاء أسئلة لا تترك له من إمكانيات للإجابة إلاّ بنعم أو لا، دون أن يقدر على أي اختلاق، ويمكن للقارىء أن يتصور ما قاله سلفاتوري. فقد قصّ، أو اعترف بأنه قصّ خلال تلك الليلة، جُزءاً من تلك القصة التي كنت قد أعدت تركيبها: تسكعاته كراهب متسوّل، كراهب ورسول كذّاب وكيف التقى زمن دولتشينو بريميجيو بين الدولتشينيّين، وكيف نجوا بعد معركة جبل ريبلّو، ملتجئين بعد شتى الظروف إلى دير كزالي. وأضاف أن المُلحد دولتشينو، عندما أوشكت هزيمته وكاد أن يقبض عليه، عهد إلى ريميجيو ببعض الرسائل، ليحملها لا يدري إلى أين أو إلى من. وأن ريميجيو حمل دائماً تلك الرسائل معه دون أن يجرؤ على تسليمها إلى مستحقيها. وعند وصوله إلى الدير، وخوفاً من الاحتفاظ بها دائماً معه، وبما أنه كان لا يريد إتلافها سلّمها إلى حافظ المكتبة، نعم إلى مَلاخي بالذات، كي يُخْفيها في ركن ما من أركان الصرح.

بينما كان سلفاتوري يتكلم كان القيّم ينظر إليه بحقد، وعند حدّ ما، لم يتمالك نفسه وصرخ به «أيها الثُعبان، أيها الشقي، لقد كنت لك أباً وصديقاً ودرعاً واقياً، وبهذا تجازيني؟»

Twitter: @ketab_n

فنظر سلفاتوري إلى حاميه الذي أصبح الآن مُحتاجاً هو نفسه إلى حماية وأجابه بصعوبة «سيدي ريميجيو، لو كان بإرادتي لكنت لك. وأنا أحبك كثيراً. ولكنك تعرف عائلة بارجيلّو: من لا يملك فرساً يمشي على قدميه». فصاح به من جديد رميجيو «مجنون! أتظن أنك بهذا ستنجو؟ ألا تعرف أنك ستموت أنت أيضاً كهرطيق؟ قل إنك اعترفت تحت التعذيب، قل إنك اختلقت كلّ شيء!»

- «وما يدريني يا سيدي ما اسم كل تلك الهرطقات... باتارينيين، غادزنيين، ليونيين، أرنالديين، سبيرونيين، مختونين... لست رجل علم، لقد أخطأت عن جهل والسيد الجليل برناردو يعرف ذلك، وأنا أرجو صفحه باسم الآب والإبن والروح القدس..». فقال المُحقق «سنتسامح ما أمكنتنا من ذلك مهمتنا، وسنعاين بشفقة أبوية حسن الإرادة التي فتحت لنا بها روحك. اذهب، اذهب الآن، عد إلى التأمل في زنزانتك واطلب الرحمة من الإلٰه. ينبغي علينا الآن أن نُناقش قضية لها أهمية أخرى أكبر. إذن يا ريميجيو، كنت تحمل معك رسائل من طرف دولتشينو، وسلّمتها إلى زميلك الذي يُعنى بالمكتبة..».

فصاح القيّم: «ليس صحيحاً، ليس صحيحاً!» كما لو كانت تلك المُدافعة تصلح لشيء. وفعلاً قاطعه برناردو قائلاً «لن تؤكد أنت لنا ذلك، بل مَلاخي دا هيلديشايم».

ونُودي على مَلاخي، ولم يكن بين الحاضرين، كنت أعرف أنه في قاعة الكتابة أو قرب المستشفى، يبحث عن بانشيو وعن الكتاب. وذهبوا للبحث عنه ولمّا ظهر كان مُرتبكاً ولم ينظر في وجه أحد، فهمس غوليالمو بخيبة أمل «الآن يمكن لبانشيو أن يفعل ما يريد». ولكنه لم يكن مُصيباً لأنني رأيت وجه بانشيو يبرز من فوق أكتاف الرُّهبان الآخرين، الذين ازدحموا عند أبواب القاعة لمتابعة الاستنطاق. فنبهت غوليالمو إلى وجوده، وظننّا آنذاك أن حبّ اطلاعه على الحدث كان أقوى من حبّ اطلاعه على الكتاب. وعلمنا من بعد، أنه عند ذلك الحد كان قد أُتمّ صفقته الدنيئة.

مثل إذن مَلاخي أمام القُضاة، دون أن تلتقي عيناه أبداً بعيني القيّم. وقال له برناردو:

Twitter: @ketab_n

ـ «مَلاخي، هذا الصباح، بعد الاعتراف الذي أدلى به هذه الليلة سلفاتوري سألتك إن كنت قد تسلّمت من المتهم الموجود هنا رسائل. . .»

فصاح القيّم: «مَلاخي، منذ حين أقسمت أنك لن تفعل شيئاً ضدّي!»

فالتفت مَلاخي بُرهة قصيرة إلى المتهم، وكان يدير له ظهره، وقال له بصوت خافت جداً، كدت أن لا أسمعه «لم أحنث في قسمي. إن كان باستطاعتي أن أفعل شيئاً ضدّك، فقد فعلته. لقد سلّمت الرسائل إلى السيد برناردو هذا الصباح، قبل أن تقتل سيفيرينو. . .».

ـ «ولكنك تعرف، يجب أن تعرف أنني لم أقتل سيفيرينو! أنت تعرف ذلك لأنك كنت هنالك عندما وصلت!»

فسأله مَلاخي: «أنا؟ لقد دخلت بعد أن اكتشفوك».

فقاطعه برناردو «حتى وإن كان الأمر كذلك، عمّ كنت تبحث أنت لدى سيفيرينو، يا ريميجيو؟»

فالتفت القيّم نحو غوليالمو بنظرة حائرة، ثم نظر إلى مَلاخي، ثم إلى برناردو، وقال «ولكني. . . إنني سمعت هذا الصباح الأخ غوليالمو الحاضر هنا يقول لسيفيرينو أن يحتفظ ببعض الأوراق. . . وكنت منذ البارحة، عندما أُلقي القبض على سلفاتوري، خائفاً من أن يصل الحديث إلى تلك الأوراق. .».

فصاح برناردو ظافراً: «إذن أنت تعرف شيئاً عن تلك الرسائل!». لقد سقط القيِّم حقيقة في الشرك. كان يجد نفسه حبيس أمرين أكيدين، أن يبرىء نفسه من تُهمة الهرطقة، وأن يبعد الظنون بأنه القاتل. ومن المحتمل أنه قرّر مُجابهة التهمة الثانية، مدفوعاً بالغريزة، لأنه أصبح الآن يعمل دون قاعدة، ودون نصيحة «سأتكلم عن الرسائل فيما بعد. . . سأبرّر ذلك. . . سأقول كيف وصلت إليّ. . . ولكن اتركوني أشرح ماذا حدث هذا الصباح. كنت أظن أن قصّة تلك الرسائل ستكشف عندما رأيت سلفاتوري يقع في قبضة السيد برناردو، إن ذكرى تلك الرسائل تقضّ مضجعي منذ سنين طويلة. . . إذن، عندما سمعت غوليالمو

Twitter: @ketab_n

وسيفيرينو يتحادثان عن بعض الأوراق... لا أدري، تملكني الخوف، وظننت أن مَلاخي تخلّص منها وأعطاها لسيفيرينو... كنت أريد إتلافها ولذا ذهبت إلى سيفيرينو... كان الباب مفتوحاً وكان سيفيرينو ميتاً، فأخذت أفتش بين حوائجه للعثور على الرسائل... لقد كنت خائفاً فقط..».

فهمس غوليالمو في أذني: «يا للغبي المسكين، من خوفه الوقوع في مصيبة رمى بنفسه منحني الرأس في مصيبة أخرى..».

فتدخل برناردو قائلاً: «لنفترض أنك تقول تقريباً ـ أقول تقريباً ـ الحقيقة. كنت تظن أن سيفيرينو كان يملك الرسائل وذهبت للبحث عنها عنده. لماذا ذهب بك الظن أنها لديه؟ ولماذا قتلت زملاءك الآخرين أيضاً؟ ربما كنت تعتقد أن تلك الرسائل كانت تدور منذ مدّة بين أيدي الكثيرين؟ ربما من تقاليد هذا الدير الاحتفاظ برُفات الهراطقة الذين أُحرقوا؟»

ورأيت رئيس الدير يرتجف. ليست هناك تُهمة أكثر كيداً من التُهمة بجمع بقايا الهراطقة. كان برناردو بارعاً جداً في خلط الجرائم بالهرطقة وخلط الكلّ بحياة الدير. وقاطعت خواطري صيحاتُ القيّم وهو يحتج بأن لا دخل له في الجرائم الأخرى. فهدأه برناردو بتسامح قائلاً له إن الوقت لم يحن بعد لمناقشة تلك القضية، وإنه يستنطقه الآن بخصوص الهرطقة، وأن لا يحاول (وهنا صار صوته صارماً) أن يصرف الأنظار عن ماضيه الهرطيقي بحديثه عن سيفيرينو أو باتّهام مَلاخي. وليعد إذن إلى الرسائل. ثم توجه بالحديث إلى الشاهد: «مَلاخي دا هيلديشايم، أنت لا تُمثل أمامنا كمُتَّهَم. هذا الصباح أجبت عن أسئلتي ولبيت طلبي دون أن تحاول إخفاء شيء. ستعيد الآن ما كنت قد قلته لي هذا الصباح ولا تخف من شيء».

فقال مَلاخي: «أعيد ما كنت قد قلته هذا الصباح. بعد وقت قليل من وصول ريميجيو إلى هنا أخذ في العمل في المطابخ، وكانت لنا اتصالات متكررة بحكم وظيفتنا... ولا أرى سبباً يجعلني أخفي أن صداقة أخوية نشأت بيننا، ولا كان لديّ سبب كي أظن الظنون بهذا الشخص. وحكى لي هو أنه يملك وثائق لها

Twitter: @ketab_n

طابع سرّي، عُهد بها إليه في كنف سرّية الاعتراف، ولا ينبغي أن تقع بين أيدٍ غير عفيفة، ولا يجرؤ هو على الاحتفاظ بها عنده. وبما أنني مُكلّف بالمكان الوحيد في الدير الممنوع على كلّ الآخرين، طلب منّي أن أحتفظ بتلك الأوراق بعيداً عن الأنظار المُتطفلة، فوافقت دون أن يمرّ بخيالي أن لتلك الوثائق طابعاً هرطيقياً، ولا حتى قرأتها، واضعاً إياها. . . واضعاً إياها في أبعد مداخل المكتبة منالاً، ومنذ ذلك الحين نسيت تلك الواقعة، إلى أن لمّح إليها هذا الصباح سيادة المحقّق، عندئذ ذهبت للبحث عنها وسلّمتها إليه. .».

فأخذ رئيس الدير الكلمة حانقاً: «ولماذا لم تخبرني باتفاقك ذلك مع القيّم؟ المكتبة ليست مخصصة لحفظ أشياء هي مِلْك الرُّهبان!» وهكذا أظهر رئيس الدير بوضوح أنه لا دخل للدير في تلك الواقعة. وأجاب مَلاخي مرتبكاً «سيدي، لقد بَدَا لي الأمر دون أهمية. لقد أذنبت دون خُبث».

فقال برناردو بنبرة ودّية: «أكيد، أكيد. كلنا مُقتنعون بأن حافظ المكتبة تصرّف بحسن نيّة، والصراحة التي أعان بها هذه المحكمة دليل على ذلك، أرجو سيادتكم رجاء أخوياً أن لا تؤاخذوه على ما أبدى سالفاً من قلّة حذر. نحن نثق بأقوال مَلاخي. ونريده الآن فقط أن يؤكد لنا مُقسِماً بأن الأوراق التي سأريه اياها هي نفسها تلك التي سلّمها إليّ هذا الصباح وهي نفسها التي تسلّمها منذ سنوات من ريميجيو إثر وصوله إلى الدير»، وكان يظهر رَقّين أخذهما من بين الأوراق الموضوعة على الطاولة. فنظر إليهما مَلاخي وقال بصوت ثابت «أقسم بالآب القادر القدير، وبالعذراء المقدّسة وبكلّ القدّيسين إن ذاك ما يقع وما وقع».

فقال برناردو: «يكفيني ذلك، اذهب لحالك يا مَلاخي دا هيلديشايم».

بينما كان مَلاخي خارجاً مُطأطيء الرأس إذ ارتفع صوت من بين المزدحمين في آخر القاعة «أنت كنت تخفي رسائله وهو كان يريك أدبار الرُّهبان المبتدئين في المطبخ!» وانطلقت بعض الضحكات بينما خرج مَلاخي بسرعة دافعاً بمرفقيه على اليمين وعلى الشمال. كنت متأكداً أنّ نبرة الصوت هي نبرة أيمارو، ولكن الصوت الذي صرخ بتلك الجملة كان مُتصنّعاً. فصاح بهم رئيس الدير، وقد أصبح وجهه

Twitter: @ketab_n

قانياً أن اسكتوا وهددهم بعقوبات رهيبة، آمراً الرُّهبان بمغادرة القاعة. وكان برناردو يبتسم بفجور، بينما كان الكاردينال برتراندو، في جانب من القاعة، يهمس بشيء إلى جون دانّو، وردّ عليه الآخر مغطّياً فمه بيده ومطرقاً وكأنه يسعل. فقال غوليالمو «لم يكن القيّم مذنباً جنسياً لحسابه الخاص بل كان يقوم أيضاً بمهمّة القواد. ولكن هذا لا يهمّ برناردو إلاّ بما يكفي لإحراج أبّوني، الوسيط الإمبراطوري..»..

وقاطعه برناردو بالذات الذي توجه إليه بالحديث قائلاً: «يهمني أن أعرف منك، يا أخ غوليالمو، طبيعة الأوراق التي كنت تتحدّث في شأنها هذا الصباح مع سيفيرينو، عندما سمعكما القيّم وارتكب الجرم».

فصمد غوليالمو أمام نظراته وقال «لقد أساء فهمي، حقيقةً. كنا نتحدث عن نسخة من دراسة لأيوب الروحاوي حول رُهاب الماء عند الكلاب، وهو كتاب علم رائع تعرفه دون شك لشهرته، ولأنه غالباً ما كان ذا نفع كبير بالنسبة اليك... داء رُهاب الماء، يقول أيوب، يمكن التعرّف عليه من خلال خمس وعشرين دلالة واضحة.»..

رأى برناردو الذي كان ينتمي إلى نظام «domini canes*» أنه من الأفضل أن لا يواجه معركة جديدة فقال بسرعة «كانت إذن أشياء بعيدة عن الأمر الذي يهمّنا». ثم واصل التحقيق.

- «لنعد إليك يا أخ ريميجيو، أنت الأخطر بكثير من الكلب المُصاب بداء رُهاب الماء. لو اهتم الأخ غوليالمو هذه الأيام بِلُعاب الهراطقة أكثر من اهتمامه بِلُعاب الكلاب، لربّما اكتشف الثعبان الذي اتخذ جحره في هذا الدير. لنعد إلى هذه الرسائل. نعرف الآن بالتأكيد أنها كانت عندك وأنك عملت على إخفائها كما لو كانت شيئاً ساماً جداً، وأنك وصلت حتى إلى القتل... - وتصدّى بإشارة إلى مُحاولةٍ لنفي ذلك - سيأتي الكلام عن الجريمة من بعد... وأنك قتلت، كنت أقول، حتى لا أحصل عليها أبداً. إذن هل تعترف بأن هذه الوثائق كانت لك؟»

* حرفياً تعني «كلاب الربّ»، وهو تلاعب بالألفاظ لأن برناردو غي ينتمي إلى «الدومينيكان» [المترجم].

Twitter: @ketab_n

لم يجب القيّم ولكن كان مُعبّراً بما فيه الكفاية ولاحقه برناردو «وما هي هذه الوثائق؟ صفحتان خطّهما زعيم الهراطقة دولتشينو بيده قبل أن يُقبض عليه بأيام قليلة، وعهد بهما إلى أحد أتباعه كي يحملهما إلى زعماء طوائفه المنتشرين في إيطاليا. باستطاعتي أن أقرأ عليكم ما جاء فيهما، وكيف أن دولتشينو، عندما أحسّ بقرب نهايته، عهد إلى رفقائه في الإثم، برسالة أمل يواسيهم بها منذراً إياهم، أنه حتى وإن كانت التواريخ التي يُعلنها هنا لا تتطابق مع التواريخ التي ذكرها في رسائله السابقة، حيث تنبأ بأن سنة 1305 ستشهد هلاك الرُّهبان التامّ على يدي الإمبراطور فريدريك، فإن ذلك الهلاك ليس بعيداً. ومرّة أخرى كذب الملحد لأن أكثر من عشرين سنة مضت منذ ذلك اليوم دون أن يتحقق واحد من تنبؤاته المشؤومة. ولكن ليس لنا أن نتناقش حول هذه التنبؤات السخيفة، ولكن حول حاملها الذي هو ريميجيو. أيمكنك أن تنفي بعد هذا، أيها الراهب الهرطيقي والعاصي، أنه كانت لك علاقة ومُعاشرة مع طائفة الرسل الكذّابين؟»

لم يعد القيّم قادراً على النفي وقال «سيدي، لقد كان شبابي مليئاً بالأخطاء المُحزنة. عندما سمعت ببشارة دولتشينو، وكانت قد أغرتني هفوات الرُّهبان المتسوّلين، آمنت بأقواله والتحقت بجماعته. نعم، صحيح، كنت معهم في جهة بريشيا وفي جهة برغامو، كنت معهم في كومو وفي فالسيسيا، واحتميت معهم «بالجبل الأقرع» وفي وادي «راسّا»، وأخيراً على جبل «ريبلّو». ولكني لم أشارك في أي عمل سُوء، وعندما كانوا يقومون بالنهب والعنف، كنت لا أزال أحمل روح الوداعة التي كانت من خصال أبناء فرانشسكو، وفي جبل «ريبلّو» بالذات قلت لدولتشينو إنني لا أحسّ في نفسي المقدرة على المشاركة في معركتهم، وسمح لي بالذهاب، لأنه قال إنه لا يريد معه الجُبناء، وسألني فقط أن أحمل بعض الرسائل من طرفه إلى بولونيا..».

فسأله الكاردينال برتراندو «إلى من؟»

فسارع ريميجيو بطمأنته: «إلى بعض زعماء طوائفه، يبدو لي أنني أذكر أسماءهم، وبما أنني أتذكرها فسأقولها لكم، يا سيدي»، ونطق ببعض الأسماء

Twitter: @ketab_n

فأظهر الكاردينال برتراندو أنه يعرفهم لأنه ابتسم ابتسامة رضا وأومأ بإشارة اتفاق إلى برناردو. فقال هذا الأخير «حسن جداً» - وسجل تلك الأسماء، ثم سأل ريميجيو: «وما دفعك الآن إلى أن تسلم إلينا أصدقاءك؟»

- «ليسوا أصدقائي، يا سيدي، والدليل على ذلك أنني لم أسلّم إليهم قط تلك الرسائل. بل فعلت أكثر من ذلك. وأقول ذلك الآن بعد أن حاولت لسنين طويلة أن أنساه. حتى يتسنّى لي ترك تلك الأماكن دون أن يقبض عليّ جند أسقف فارتشيلّي الذي كان ينتظرنا في السّهل، تمكّنت من الاتصال ببعضهم، ومقابل إذْنٍ بالمرور دللتهم على ممرّات يمكنهم منها مهاجمة تحصينات دولتشينو. بحيث يعود ظفر قوات الكنيسة إلى المساعدة التي قدمتها أنا».

- «هام جداً. هذا ما يبيّن لنا أنك لم تكن فقط هرطيقاً، ولكنك كنت أيضاً جباناً وخائناً، ممّا لا يغيّر شيئاً من وضعيّتك. كما حاولت اليوم أن تنجو بنفسك باتهام مَلاخي، رغم أنه ساعدك، سلّمت آنذاك رفاقك في الإثم إلى العدالة كي تنجو أنت بنفسك. ولكنك خُنت أجسادهم، ولم تَخُنْ تعاليمهم واحتفظت بهذه الرسائل كرُفات، منتظراً أن تعود اليك يوماً الشجاعة أو أن تسنح لك الفرصة، لتسلّمها إليهم دون أن تجازف بحياتك، وتعود من جديد ذا حظوة لدى الرسل الكذّابين».

فأجاب القيّم والعرق يتصبّب منه، ويداه ترتعشان: «كلاّ يا سيدي، كلاّ، أقسم لك أن..»..

فقاطعه برناردو: «قسم الهراطقة! هوذا دليل آخر على خُبثك! تريد أن تقسم لأنك تعرف أنني أعرف أن الهراطقة الفوديين مُستعدون لكل الحيل، وحتى للموت، حتى لا يقسموا! وإن دفعهم إلى ذلك الخوف يتظاهرون بالقسم متمتمين بأيمان باطلة! ولكنني أعرف جيداً أنك لست من طائفة فقراء ليون، أيها الثعلب اللعين، وتريد أن تقنعني بأنك لست من أنت حتى لا أكشف أنك أنت من أنت! بإمكاني أن أطلب قسماً، اثنين، أو ثلاثة أو مائة، قدر ما أريد. أعرف جيداً أنكم أنتم الرسل الكذّابون تتسامحون مع من يقسم بالباطل كي لا يخون الطائفة، وهكذا سيكون كل قَسَم تنطق به دليلاً جديداً على جنايتك!»

Twitter: @ketab_n

فصاح القيّم جاثياً على ركبتيه: «اذن ماذا ينبغي أن أفعل؟»

فأجاب برناردو بابتسامة باهتة: «لا تركع كالمُترهبنين! لا تفعل شيئاً. أعرف أنا فقط الآن ما العمل. ليس عليك أنت إلاّ أن تعترف. وستكون ملعوناً ومُداناً إن اعترفت، وستكون ملعوناً ومُداناً إن لم تعترف، لأنك ستُعاقب على أنك تقسم بالباطل! الآن اعترف، على الأقل لاختصار هذا الاستنطاق الأليم الذي يؤذي ضمائرنا وشعورنا بالحلم والشفقة!»

ـ «بماذا يجب أن أعترف؟»

ـ «بجرمين اثنين. أنك كنت ضمن طائفة دولتشينو، وشاطرتهم أفكارهم الهرطيقية، وسلوكهم وإهاناتهم لشرف الأساقفة والحُكام المدنيين، وأنك تواصل، رافضاً التوبة، مشاطرة أكاذيبهم وأوهامهم حتى بعد أن مات الزنديق وبعد تشتيت طائفته، حتى وإن لم تُقتلع وتُهلك نهائياً. وأنك، لانحراف دخيلتك من جرّاء الممارسات التي تعلمتها في تلك الطائفة الرجسة، أجرمت في حق الرب والنّاس بجرائم ارتكبتها في هذا الدير، لأسباب لا تزال خفيّة والتي لا يجب مع ذلك أن توضّح تماماً، بعد أن أظهرنا بجلاء (كما نحن بصدد فعل ذلك) كيف أن هرطقة أولئك الذين يُنادون بالفقر، ضدّ تعاليم سيدنا البابا وضدّ دساتيره، لا تؤدي إلاّ لأعمال إجرامية. هذا ما يجب أن يعرفه المؤمنون وهذا يكفيني. اعترف!».

وبدا واضحاً عند ذلك الحد ما كان برناردو يريد. لم يكن يهمّه البتة معرفة من قتل الرُّهبان الآخرين، كان يريد فقط أن يظهر أن ريميجيو كان يشاطر بطريقة من الطرق الأفكار التي يُدافع عنها اللاهوتيون الإمبراطوريون. وبعد أن أظهر العلاقة بين تلك الأفكار، التي كانت أيضاً أفكار مجمع بيروجيا، وأفكار الإخوان المُتسوّلين والدولتشينيين، وبعد أن أظهر أن رجلاً واحداً، في ذلك الدير، كان طرفاً مشاركاً في كل تلك الهرطقات وأنه المسؤول عن الكثير من الجرائم، يكون بتلك الطريقة قد وجّه حقيقة الضربة القاضية إلى خصومه. نظرت إلى غوليالمو وفهمت أنه فهم ذلك ولكنه لا يستطيع شيئاً، حتى وإن توقع ذلك. ونظرت إلى رئيس الدير فرأيته مُكفهرّ الوجه: لقد تفطّن، بعد فوات الأوان إلى أنه وقع هو

Twitter: @ketab_n

أيضاً في الفخّ، وأن سلطته نفسها كوسيط كانت بصدد التّفتُّت، الآن وقد ظهر بمظهر المشرف على مكان التقت فيه فضائح القرن. أمّا القيّم فلم يعد يعرف من أيّ جرم يمكنه أن يبرىء نفسه. ولكن ربما لم يكن قادراً في تلك الآونة على أي حساب، والصيحة التي انطلقت منه كانت صيحة روحه، وفيها ومن خلالها ألقى عن كاهله سنين من الندم الطويل والمكتوم. أو بالأحرى بعد حياة من الشكّ، والحماس والخيبات، من الجُبن والخيانة، الآن، وقد وجد نفسه أمام حتمية هلاكه، قرّر أن يصيح بما آمن به في شبابه، دون أن يتساءل إن كان صواباً أو خطأ، ربما ليظهر لنفسه أنه قادر على الإيمان بشيء.

وصاح: «نعم، صحيح. كنت مع دولتشينو وشاطرته جرائمه وإباحيته. ربما كنت مجنوناً، كنت أخلط حب سيدنا يسوع المسيح بالحاجة إلى الحرية وبالحقد على الأساقفة، صحيح، لقد أذنبت، ولكنني بريء ممّا حدث في الدير، إني أقسم على ذلك!»

فقال برناردو: «لقد حصلنا على شيء. أنت تعترف إذن بأنك مارست هرطقة دولتشينو والساحرة مارغريتا ورفاقها. تعترف بأنك كنت معهم عندما شنقوا بالقرب من تريفيرو مؤمنين كثيرين مخلصين للمسيح من بينهم طفل بريء عمره عشر سنوات؟ وعندما شنقوا رجالاً آخرين بحضور زوجاتهم ووالديهم لأنهم رفضوا أن يسلّموا أنفسهم إلى سلطة أولئك الكلاب؟ ولماذا تعتقدون، وقد أعماكم هوسكم وخيلاؤكم، أنه لا نجاة لمن ليس مُنضمّاً إلى طائفتكم؟ تكلّم!»

ـ «نعم، نعم، لقد آمنت بهذا».

ـ «أكنت حاضراً عندما قبضوا على بعض المخلصين للأساقفة، وتركوا البعض منهم يموت جوعاً في السجون، وعندما قطعوا ذراع امرأة حامل ويدها، وتركوها تضع مولوداً مات على الفور دون تعميد؟ هل كنت معهم عندما دمروا وأحرقوا قرى موسّو وتريفيرو وكوسّيلا وفليكيا، ومناطق عديدة أخرى في جهة كريباكوريو، ودياراً كثيرة في مورتيليانو وفي كويرينو وأحرقوا كنيسة تريفيرو مُلطخين الصّور المقدسة، مُنتزعين النقوش من المذابح، ومُكسرين ذراعاً من صنم

Twitter: @ketab_n

العذراء، ناهبين كُؤوس القُدّاس، والأنسجة والكتب، مُدمرين برج الكنيسة ومُكسرين الأجراس، ومُستحوذين على كلّ أوعية الأخويّة وأملاك القسّ؟»

ـ «نعم، نعم، لقد كنت هناك، ولم يكن أحد يعرف ماذا يفعل، كنا نريد أن نسبق يوم القِصَاص، كنّا طلائع الإمبراطور المبعوث من السماء ومن البابا القديس، كان علينا أن نُعجّل بوقت نزول ملاك فيلادلفيا، وعندئذٍ يحصل كل واحد على صفح الروح القدس وتتجدّد الكنيسة، وبعد هلاك الضّالين يبقى فقط الكاملون ليحكموا!»

كان القيّم يبدو في الآن نفسه مجنوناً وملهماً، كان يبدو أن سُدّ الصمت والتّصنع قد تحطّم، وأن ماضيه يعود لا من خلال الكلمات فحسب بل وأيضاً من خلال الصّور وأنه يحس من جديد بالمشاعر التي أوقدت حماسه فيما مضى.

وكان برناردو يحثّه: «إذن أنت تعترف أنكم أكرمتم غيراردو سيغاليلي بصفته شهيداً وأنكم نفيتم كل سلطة للكنيسة الرومانية، وتؤكدون أنه لا البابا ولا أية سلطة أخرى يمكنها أن تُلزمكم بطريقة عيش مغايرة لطريقتكم، وأن لا حق لأحد أن يحرمكم من القُدّاس، وأنه منذ زمن القديس سيلفاسترو كان كلّ أحبار الكنيسة فاسدين ومُضلّلين، ما عدا بييترو دا مورّوني، وأن الدنيويين ليسوا مُلْزَمين بدفع العشور للكهنة الذين لا يمارسون حياة كمال مطلق وفقر كما مارسها الحواريون الأوائل، وأنه يجب دفع العشور لكم أنتم فقط، فأنتم الحواريون الوحيدون وفقراء المسيح، وأن كنيسة مقدسة، لعبادة اللّه، لا تساوي أكثر من إصطبل، وأنكم كنتم تنشدون «تحية العذراء» لجلب الجموع بالحيلة، وأنكم كنتم تظهرون للآخرين التوبة باتباع عيشة الكمال ظاهرياً، ثم تبيحون لأنفسكم كل أنواع الدعارة والفِسق، لأنكم لا تؤمنون بقداسة الزواج، ولا بأية قداسة أخرى، وأنكم إذ تعتبرون أنفسكم أطهر من الآخرين فبإمكانكم تعاطي كلّ القذارات والإهانات لأجسادكم ولأجساد الآخرين؟ تكلّم!»

ـ «نعم، نعم، أعترف بما كان آنذاك إيماني الحقيقي والذي آمنت به بكل جوارحي. أعترف أننا تركنا لباسنا دلالة على التجرّد وأننا تخلّينا عن كلّ أملاكنا

Twitter: @ketab_n

بينما أنتم يا معشر الكلاب لن تتخلّوا عنها أبداً، وأننا منذ ذلك الحين لم نقبل مالاً ولا حملنا مالاً معنا، وعشنا من الصدقات، ولم نحتفظ بشيء للغد، وعندما كانوا يضيّفوننا ويعدّون لنا المائدة كنا نأكل ثم نذهب لحالنا تاركين على المائدة كل ما تبقّى...»

- «وأنكم حرقتم ونهبتم للاستيلاء على أملاك المسيحيّين الطيّبين!»

- «وحرقنا ونهبنا لأننا اتخذنا الفقر قاعدة شاملة، وكان لنا الحق في الاستيلاء على أملاك الآخرين اللامشروعة، وكنّا نريد أن نضرب في الصميم دسيسة الجشع التي تمتدّ من خورنية إلى أخرى، ولكننا لم ننهب قط قصد الامتلاك، ولا قتلنا من أجل السلب. كنّا نقتل لنُعاقب، لنُطهّر بالدم من كان غير طاهر، ربما كنا فريسة رغبة مُفرطة في العدالة، يمكن ارتكاب الخطيئة من الإفراط في حبّ اللّه أيضاً، لوفرة الكمال، لقد كنّا المجموعة الروحانية الحقيقية التي بعثها الرب وأعدّها لمجد الساعة الأخيرة، كنّا نبحث عن جزائنا في الفردوس مستبقين ساعة هلاككم، لقد كنّا نحن فقط رُسُلَ المسيح، كل الآخرين خانوا، وغيراردو سيغاليلي كان نبتة مقدسة «زرع الرب الذي ينبت من جذور الإيمان»، كانت قاعدتنا تأتينا من الرب، لا من عندكم أيها الكلاب الخاسرون، أيها الواعظون الدجّالون الذين ينشرون من حولهم نتونة الكبريت عوضاً عن عبق البخور، أيها الكلاب الأنذال، الجِيَف النتنة، الغربان، خدّام بغيّ أفينيون، أنتم الموعَدون للخسارة! كنت أؤمن حينئذ بذلك، وحتى أجسادنا تحرّرت، كنا سيف الإله وكان علينا أن نقتل الأبرياء أيضاً كي نقضي عليكم كلّكم في أقرب وقت. كنا نريد عالماً من الوداعة ومن السلام أفضل، وكنا نريد السعادة للجميع، كنّا نريد أن نقضي على الحرب التي كان جشعكم يثيرها في كل مكان، لماذا تعيبون علينا إراقة قليل من الدماء إن كانت من أجل إعادة العدالة إلى نصابها والسعادة... لأنه... لأن تحقيق ذلك بسرعة لم يكن يستوجب الكثير من الدم، وكان جديراً أن نجعل كل مياه كرناسكو حمراء، ذلك اليوم في ستافيلّو، كان دمنا نحن أيضاً، لم نكن ندّخر أنفسنا، دمنا نحن ودمكم أنتم، الكثير والكثير من الدم، وحالاً، حالاً، إن أوقات تَنَبُؤات دولتشينو وشيكة وكان ينبغي أن نعجّل بسير الأحداث..»..

Twitter: @ketab_n

كان يرتعد بكلّ جسمه، ويمرّر يديه على ثيابه كما لو كان يريد غسلها من الدماء التي كان يذكرها. فقال لي غوليالمو «لقد عاد ذلك الشّره من جديد طاهراً».

فسألته بارتياع «ولكن، أهذه هي الطهارة؟» فقال غوليالمو «هناك أيضاً طهارة من نوع آخر. ولكن مهما كان نوعها فهي تُخيفني دائماً».

فسألته «ماذا يُخيفك أكثر في الطهارة؟»

فأجاب «التسرّع». كان برناردو آنذاك يقول: «يكفي، يكفي. طلبنا منك الاعتراف لا المُناداة بالمجزرة. حسناً، لم تكن هرطيقياً فحسب بل لا تزال إلى الآن. لم تكن مجرماً فحسب، ولكنك قتلت من جديد. إذن قل لنا كيف قتلت إخوانك في هذا الدير، ولماذا؟»

فكفّ القيِّم عن الارتعاش، ونظر حواليه وكأنه خرج من حلم وقال «لا، لا دخل لي في جرائم الدير. لقد اعترفت بكل ما فعلت، لا تجعلوني أعترف بما لم أفعل..».

- «ولكن ماذا تبقّى ولم تفعله؟ الآن تقول عن نفسك إنك بريء؟ يا للحمل، يا لك من مثال للوداعة! أسمعتموه، لقد كانت يداه فيما مضى ملطخة بالدم والآن هو بريء! ربما نكون قد أخطأنا. ريميجيو دا فراجيني مثال للفضيلة، ابن مخلص للكنيسة، عدوّ أعداء المسيح، لقد احترم دائماً النظام الذي فرضته الكنيسة بمشقّة على القرى والمدن، لسلامة التجارة، لدكاكين الحرفيين ولكنوز الكنائس. هو بريء، ولم يرتكب إثماً، هيّا بين أحضاني إذن يا أخي ريميجيو، حتى أُواسِيك من التُّهم التي رماك بها الأشرار!» - وبينما كان ريميجيو ينظر إليه بعينين حائرتين، كما لو كان يأمل حقيقة في تبرئة نهائية، استعاد برناردو هيئته الأولى وتوجه بنبرة الآمر إلى قائد النبّالين:

«إني أكره الالتجاء إلى وسائل أدانتها الكنيسة عندما وقع استعمالها من طرف السلطة المدنية. ولكن هناك قانون أخضع له ويقود مشاعري الشخصية أيضاً. اسألوا رئيس الدير مكاناً نُهَيِّئ فيه أدوات التعذيب. ولكن لا تشرعوا فوراً. ليبقَ

Twitter: @ketab_n

ثلاثة أيام في زنزانة مكبّلاً بالأغلال من يديه وساقيه. ثم أَرَوهُ معدّات التعذيب فقط. وفي اليوم الرابع اشرعوا في تعذيبه. فالعدالة لا تتسرّع، كما يظن الرّسل الكذّابون، وعدالة الرّب أمامها قرون تتصرّف فيها. وابدأوا ببطء، وبتدرّج. وتذكروا بالخصوص ما قلنا مراراً: تجنّبوا بتر الأعضاء وخطر الموت. من أحد التدابير السماوية التي يمنحها هذا المنهج للباغي هي فعلاً أن يتذوق الموت، وينتظره، ولكنه لا يأتي قبل أن يكون الاعتراف كاملاً، عن طواعيّة ومطهّراً».

فانحنى النبّالون على القيّم لإنهاضه ولكنه ركّز قدميه على الأرض وحاول المقاومة، مشيراً إلى أنه يريد أن يتكلم. وعندما سُمح له بذلك، تكلّم، ولكن الكلمات كانت تخرج بعناء من فمه، وكان حديثه كغمغمة الثمل وفيها شيء من الفحش. إلاّ أنه، كلّما تقدّم في الكلام، ازدادت شيئاً فشيئاً تلك الحيوية الوحشية التي أذكت اعترافه منذ حين.

ـ «لا يا سيدي، التعذيب لا. إنني رجل جبان. لقد خُنت آنذاك، ونبذت لإحدى عشرة سنة في هذا الدير إيماني القديم، مُتسلّماً العشور من منتجي الخمر ومن الفلاحين، مُعايناً الإصطبلات والزرائب حتى أُنمّي من ثراء رئيس الدير، وشاركت عن طِيب خاطر في إدارة مصنع الدجّال هذا. وكنت أجد نفسي هنا في أحسن حال، ونسيت أيام الثورة، وتمتّعت بملذات الحلق وبأخرى أيضاً. إنني جبان. لقد خُنت اليوم زُملائي القدامى في بولونيا وخنت آنذاك دولتشينو. وكجبان، تنكّرت في زي رجل من رجال الصليبية، وحضرت أسر دولتشينو ومارغريتا، وعندما حملوهما يوم السبت المقدس إلى قلعة «بوجيلّو». وتسكّعت لمدة ثلاثة أشهر حول فارتشيلّي إلى أن وصلت رسالة البابا كليمنتس تحمل الأمر بالإعدام. ورأيت مارغريتا تُقطّع إرباً أمام عينيْ دولتشينو، وتصرخ وهي تذبح، يا للجسد المسكين، أنا أيضاً لمسته ليلة.. وبينما كانت جثتها المقطّعة تحرق، ارتموا على دولتشينو وقطعوا أنفه وخصيتيه بكلاّبات حاميّة، وليس صحيحاً ما قيل عنه، من بعد، إنه لم يطلق ولو أنيناً واحداً، كان دولتشينو طويل القامة صحيح البنية، وكانت له لحية كبيرة شيطانية وشعر أحمر يتساقط في حلقات على كتفيه، كان جميلاً وقوياً حين كان يقودنا وعلى رأسه قبّعة عريضة الجوانب ذات ريشة،

Twitter: @ketab_n

وسيفه مرشوق في حزام لباسه الرّمادي، كان يبعث الخوف في الرجال ويجعل النساء يصحن من المتعة. . . ولكن عندما عذبوه كان يصرخ هو أيضاً من الألـم، كأنه امرأة، كأنه عجل، وكان الدم يسيل من كل جراحه بينما كانوا يجرونه من ركن إلى آخر ويواصلون جرحه جروحاً غير قاتلة ليظهروا للناس كيف أن رسول الشيطان لا يموت بسهولة، وكان هو يطلب الموت ويتوسّل أن ينهوا أمره، ولكنه مات بعد وقت طويل، حين وصل إلى المحرقة وقد أصبح كومة من اللحم السائل بالدم. وكنت أتبعه مُهنئاً نفسي لأنني نجوت من تلك المِحْنة، كنت فخوراً بفطنتي. وكان ذلك النذل سلفاتوري معي وكان يقول لي: حسناً فعلنا يا أخ ريميجيو، حين تصرّفنا كشخصين لهما بُعد نظر، ليس هناك شيء أشنع من التعذيب! كنت مُستعداً أن أرتدّ ذلك اليوم عن ألف دين. ومنذ سنين، سنين طويلة، وأنا أقول لنفسي كم كنت جباناً، وكم كنت سعيداً لأني جبان، ومع ذلك كنت آمل أن أقدر يوماً على أن أظهر لنفسي على أنني لست جباناً إلى ذلك الحدّ. اليوم أعطيتموني أنتم القوّة على ذلك، يا سيدي برناردو، كنتَ بالنسبة إليّ ما كان الإمبراطوريون الوثنيون بالنسبة إلى الشهداء الأكثر جُبناً. لقد أعطيتني الشجاعة للاعتراف بما كنت أُؤمن به بكلّ روحي بينما كان جسدي يرتدّ عنه. ولكن لا تطلب مني أن أكون شجاعاً كبيراً، أكثر ممّا يمكن أن تتحمّله هذه العظام الفانية. التعذيب لا. سأقول كلّ ما تريده أنت، أفضّل أن أذهب الآن إلى المحرقة، يموت المرء مُختنقاً قبل أن يحترق. التعذيب كما عُذّب دولتشينو، لا. أنت تريد جثة، وكي تحصل عليها تحتاج إلى من يأخذ على عاتقه جرم الجثث الأخرى. على كل حال سأكون جثة بعد قليل. ولذا سأقول ما تريد. قتلت أدالمو دا أوترانتو لحقدي على شبابه ولمهارته في التلاعب بالمسوخ أمثالي، أنا الشيخ البدين والقصير القامة، والجاهل. قتلت فينانتسيو دا سالفيماك لأنه كان عالماً كبيراً يقرأ كتباً لم أكن أفهمها. وقتلت برينغاريو دا أروندال لأنني كنت أحسده على مكتبته، أنا الذي درست اللاهوت وضربت بالعصا الخوارنة الأكثر بدانة. وقتلت سيفيرينو دا سانتيميرانو. . . لماذا؟ لأنه كان يجمع الأعشاب، وأنا الذي عشت على جبل ريبلّو كنت آكل الأعشاب مع الآخرين دون أن نتساءل عن فضائلها. في الحقيقة يمكنني أن أقتل الآخرين أيضاً، بما فيهم رئيس ديرنا: سواء كان حليف البابا أو

Twitter: @ketab_n

الإمبراطور فهو دائماً ضمن أعدائي وكنت دائماً أكرهه، حتى عندما كان يطعمني لأنني كنت أطعمه. أيكفيك ذلك؟ آه، لا، تريد أن تعرف كيف قتلت هؤلاء.. ولكن قتلتهم... لنرَ كيف... آه، مستعيناً بالقوى الجهنميّة، بإعانة آلاف الفيالق وضعتها تحت أوامري بما علّمني سلفاتوري من فن. ليس من الضروري ضرب الشخص لقتله، الشيطان يفعل ذلك عوضكم، إن كنتم تعرفون كيف تأمرون الشيطان.

وكان ينظر إلى الحاضرين نظرة تواطؤ وهو يضحك. ولكنه أصبح الآن ضحك رجل معتوه، حتى وإن لم ينسَ ذلك المجنون، كما نبّهني إلى ذلك غوليالمو، أن يجرّ سلفاتوري معه في التهلكة، ليثأر لنفسه من وشايته.

وكان برناردو يُلاحقه بالأسئلة مُعتبراً ذلك الهذيان اعترافاً شرعياً «وكيف أمكنك أن تأمر الشيطان؟»

ـ «أنت أيضاً تعرف ذلك، لا يتعامل المرء طيلة سنوات مع أتباع الشيطان دون أن يتّخذ هيئتهم! أنت أيضاً تعرف ذلك يا ذابح الرّسل! خذ قطّاً أسود، أليس كذلك؟ لا يجب أن تكون فيه شعرة بيضاء واحدة (أنت تعرف ذلك) واربط قوائمه الأربع ثم احمله عند منتصف الليل إلى مفترق طرقات وصح بأعلى صوتك «يا لوسيفوروس العظيم، إمبراطور الجحيم، إنني آخذك وأدخلك في جسد هذا القط، وإن أنت أذقت عدوّي الموت فسأقدّم إليك في اليوم المُوالي عند منتصف الليل، في هذا المكان نفسه، هذا القط قرباناً منّي، وستفعل أنت ما آمرك به بحكم السّحر الذي أمارسه الآن بحسب كتاب القديس شبريانو السّحري، باسم كلّ زعماء فيالق الجحيم العظمى، أدرامالك وألاستور وأزازال، الذين أترجّاهم الآن كلّهم، هم ورفاقهم..». كانت شفتاه ترتعشان وعيناه تكادان تخرجان من مداريهما، وأخذ يصلّي ـ أو.بالأحرى كان يبدو أنه يصلّي ولكنه كان يرفع رجاءه لكلّ زعماء فيالق الجحيم... «أبيغور، اجعلنا من الآثمين. آمون، ارفق بنا... سمايال، احمنا من الخير... بليال ارحمنا... فوكالور، علّمني أسرار الضّلال... هابوريم، لنلعن الرب... زايبوس، افتح دبْري... ليوناردو، بلّلني بمنيك

Twitter: @ketab_n

ولوّثني. . .» وكان الحاضرون يصيحون راسمين علامة الصليب «كفى، كفى، آه يا إلٰهي، اغفر لنا جميعاً!»

وصمت القيّم. الآن، وبعد أن نطق بأسماء كلّ أولئك الشياطين، سقط ووجهه إلى الأرض وسال لُعاب أبيض من فمه المُعْوَجّ ومن صفّ أسنانه الضاحك بسخرية، وكانت يداه، رغم الأغلال التي كانت تشدّهما، تنفتحان وتنغلقان بتشنّج، وكانت قدماه تركلان الهواء دون انتظام، من حين لآخر، وعندما أحسّ غوليالمو أنني أرتعش من الرعب وضع يده على رأسي وأمسكني من رقبتي شاداً عليها ليعيد الهدوء إلى نفسي، وقال لي «ليكن ذلك درساً لك، تحت التعذيب أو عندما يُهدّد المرء بالتعذيب، لا يقول فقط ما فعله ولكن ما كان يريد أن يفعل، حتى وإن كان لا يعرف ذلك، الآن يريد ريميجيو الموت بكل جوارحه».

وقاد النبّالون القيّم وهو لا يزال فريسة للتشنج. وجمع برناردو أوراقه ثمّ حدّق في الحاضرين، وقد تجمدوا وهم فريسة ارتباك عظيم.

ـ «لقد انتهى الاستنطاق وسيقاد المُتهم، الذي اعترف بجرمه، إلى أفينيون حيث ستقع المحاكمة النهائية، حرصاً منّا على معرفة الحقيقة وعلى إقامة العدل، وبعد تلك المُحاكمة القانونية فقط سيُحرَق. فهو، يا أبّوني لم يعد لك، ولا هو لي، لأنني فقط كنت الأداة المتواضعة التي أظهرت الحقيقة. أما أداة القصاص فهي في مكان آخر، لقد قام الرُّعاة بواجبهم، الآن على الكلاب أن تبعد النعجة المَوبوءة عن باقي القطيع وأن تُطَهِّرها بالنار. لقد انتهت آخر حلقة بائسة في حياة هذا الرجل الذي ارتكب جرائم كثيرة وفظيعة. ليعش الدير الآن في سلام. ولكن العالم. . . وهنا رفع صوته وتوجّه إلى أعضاء القصادتين «العالَم لم يجد السلام إلى الآن، لقد مزّقته الهرطقة التي تجد ملاذاً حتى في قصور الإمبراطور! ليتذكّر إخواني هذا: إن «حلفاً شيطانياً» يربط زعماء طوائف دولتشينو المُنحرفين بعلماء مجمع بيروجيا المُوقّرين. لا ننسَ ذلك، لا يختلف في ذكر الرب هذيان ذلك البائس الذي سلّمناه منذ حين إلى العدالة عن هذيان العلماء الذين يأكلون على مائدة ألماني بافييرا المحروم. إن منبع شناعات الهراطقة يتدفّق من عديد

Twitter: @ketab_n

البشارات، حتى الموقَّرة منها، والتي لم يقع بعد القصاص منها. إنه لأمر كبير وإنها لمِحْنَة شاقّة تلك التي يُقاسيها من ناداه الرب، مثل شخصي المذنب، لاكتشاف الجحر الذي يقبع فيه ثعبان الهرطقة، أينما كان. ولكن مُمارسة هذه المهمة تعلّم أن الهرطيق ليس فقط من يُمارس الهرطقة علناً. ويمكن التعرف على مُؤيدي الهرطقة من خلال خمسة أدلّة قاطعة: أولاً، أولئك الذين يزورونهم خفية عند اعتقالهم في السجون. ثانياً، أولئك الذين يذرفون الدموع لأنه قُبض عليهم، وكانوا لهم أصدقاء حميمين في حياتهم (يصعب فعلاً على من عاشر طويلاً هرطيقاً أن لا يعرف شيئاً عن نشاطه)، ثالثاً، أولئك الذين يؤكدون أن الهراطقة أعدموا ظلماً، حتى بعد أن ثبت جرمهم. رابعاً، أولئك الذين ينظرون شَزَراً وينتقدون من يلاحق الهراطقة، وينادون بنجاح إلى الوقوف ضدّهم، ويمكن التعرّف على ذلك من العينين، والأنف، ومن الملامح التي يريدون إخفاءها، مُبدِين بذلك حقدهم على من يشعرون نحوهم بالمرارة وحبّهم لمن يشفقون عليهم في مِحْنَتهم. والدليل الخامس، أخيراً، هو جمع عظام ورماد الهراطقة المحروقين وجعلها موضوع تقديس... ولكنني أعطي أهمية كبيرة جداً لدليل سادس أيضاً، وأعتبر أن أصدقاء الهراطقة بدون شك هم أولئك الذين وجد الهراطقة في كتبهم (حتى وإن كانت تلك الكتب لا تتهجّم جهراً على العقيدة) المقدّمات المنطقيّة لِقياساتهم المُنحرفة».

قال ذلك وهو ينظر إلى أوبارتينو. وفهم جميع أفراد القصادة الفرانشسكانية ما كان يُلَمّح إليه برناردو. لقد فشل اللقاء، ولن يتجرأ أحد على مواصلة مناقشة الصباح، لمعرفتهم بأن كلّ كلمة ستؤوّل بارتباط مع الأحداث الأخيرة المفجعة. إن كان البابا قد أرسل برناردو لمنع حصول اتفاق بين القصادتين فقد نجح في ذلك.

Twitter: @ketab_n

اليوم الخامس: صَلاة السّتار

وفيه يلوذ أوبارتينو بالفرار، ويأخذ بانشيو في احترام القوانين ويقوم غوليالمو ببعض الملاحظات حول أنواع الشهوة المُختلفة التي اعترضتنا ذلك اليوم

بينما كان الحاضرون في المجلس يُغادرون شيئاً فشيئاً قاعة الاجتماعات اقترب ميكيلي من غوليالمو، والتحق بهما أوبارتينو. وخرجنا جميعاً، قصد تبادل الحديث في الرواق، يحمينا الضباب الذي لم يكن يبدو أنه يريد التناقص، بل بالعكس أصبح أكثر كثافة من جراء العتمة.

قال غوليالمو «أظن أن لا حاجة للتعليق على ما حدث، لقد هزَمَنا برناردو. لا تسألوني إن كان ذلك الدولتشيني الغبي قد ارتكب حقيقة كلّ تلك الجرائم. بحسب ما فهمت، دون شكّ، لا. المشكل هو أننا عُدنا إلى نقطة الانطلاق. جيوفاني يريدك بمفردك في أفينيون، يا ميكيلي، ولم يُعطِك هذا اللقاء الضمانات التي كنّا نريدها. بل بالعكس، أعطاك فكرة عن الكيفية التي يمكن أن ينقلب بها، هنالك، معنى كلّ كلمة من كلماتك. ممّا جعلني أستنتج أنه لا ينبغي، بحسب رأيي، أن تذهب إليه».

فهزّ ميكيلي رأسه مجيباً «ولكنني سأذهب. لا أريد انشقاقاً. أنت ياغوليالمو تكلمت بوضوح، وقلت ما كنت تريد. حسناً، ولكنّ ذلك غير ما أريد أنا. لقد اتضح لي أن قرارات مجمع بيروجيا استُعملت من طرف اللاهوتيين الإمبراطوريين بطريقة تجاوزت مفاهيمنا نحن. إنني أريد أن يقبل البابا النظام الفرانشسكاني بمبادئه حول الفقر. وينبغي أن يفهم البابا أنه لا يمكن للنظام احتواء تفاريعه الهرطيقية إلاّ إذا تبنّى مبادىء الفقر. إنني لا أفكّر في مجمع الشعب أو في حقوق الناس. يجب أن أمنع أن يذوب النظام في تعدّدية الإخوانيات المتسوّلة. سأذهب

Twitter: @ketab_n

إلى أفنيون، وإن لزم الأمر سأقبل الاستسلام لجيوفاني. سأتساهل في كلّ شيء إلاّ مبدأ الفقر». فتدخل أوبارتينو قائلاً «ألا تعرف أنك تجازف بحياتك؟» وأجاب ميكيلي: «ليكن، فإنه أفضل من أن أجازف بروحي».

ولقد جازف حقاً بحياته، وخسر أيضاً روحه، إذا كان جيوفاني على صواب (وذلك ما لا أعتقده إلى الآن). كما يعرف الجميع الآن، ذهب ميكيلي إلى البابا، في الأسبوع الذي تلا الأحداث التي أَقُصُّها. وصمد أمامه أربعة أشهر إلى أن دعا جيوفاني في شهر نيسان/ أبريل من العام الموالي إلى التئام مجمع، ونعت أثناءه ميكيلي بالجنون، والتهوّر، والعناد، والطغيان، ومصدر الهرطقة وبأنه الثعبان الذي ربّته الكنيسة في حضنها. ويذهب الظن إلى أنه عند ذلك الحدّ، وبحسب الكيفية التي صار ميكيلي ينظر بها إلى الأشياء، كان جيوفاني على صواب، لأنه في تلك الأشهر الأربعة أصبح ميكيلي صديقاً لصديق أستاذي، غوليالمو الآخر، دا أوكّام وأصبح يُشاطِره أفكاره التي لم تكن تبعد كثيراً، ولو أنها كانت أكثر تطرفاً، عن الأفكار التي كان أستاذي يشاطرها مع مارسيليو والتي عرضها ذلك الصباح. وأصبحت حياة أولئك المُنشقّين مُعرّضة للخطر، في أفينيون، وفي آخر شهر أيار/ مايو فرّ ميكيلي وغوليالمو دا أوكّام وبونغراتسيا دا برغامو وفرانشسكو دا سكولي وهنري دي تلايم بينما كان رجال البابا يُلاحِقُونهم في نيس وطولون ومرسيليا وآغ مورت، حيث التحق بهم الكاردينال بيار دي أرّابلي الذي حاول دون جدوى أن يقنعهم بالرجوع، ولم يستطع أن يقلب مقاومتهم وحقدهم على البابا وخوفهم. وفي حزيران/ يونيو وصلوا إلى بيزا حيث خصّهم الإمبراطور باستقبال كبير، وكان على ميكيلي أن يَدِين البابا علناً في الأشهر المُوالية. ولكن فات الأوان، لأن حظوظ الإمبراطور كانت في نقصان. ومن أفينيون، كان جيوفاني يتحايل لتعيين رئيس عام جديد للفرانشسكانين، ونجح أخيراً في ذلك. كان من الأفضل أن لا يقرر ميكيلي ذلك اليوم الذهاب إلى البابا: كان بإمكانه أن يهتم أحسن وعن قرب بتنظيم مقاومة الفرانشسكانيّين، دون أن يُضَيِّع شهوراً عديدة تحت رحمة عدوّه، وأن يضعف وضعيته... ولكن ربما أعدت العناية الإلٰهية كل ذلك ـ ولا أدري الآن من كان على صواب من بين هؤلاء ـ بينما تخمد جذوة الأهواء أيضاً، ومعها

Twitter: @ketab_n

ما كان يبدو أنه نور الحقيقة. من منّا يقدر اليوم أن يقول إن كان إتّوري على صواب أم أكيلّي، أغاممنون أم بريامو عندما كانوا يتنافسون من أجل جمال امرأة هي الآن من رمادٍ؟

ولكنني أتيه في هذر كئيب بينما يجب أن أقول كيف انتهت تلك المحادثة المُؤلمة. كان ميكيلي قد أخذ قراره ولم تكن هناك وسيلة لإقناعه بالعدول. إلاّ أن مُشكلاً آخر بقي قائماً، وذكره غوليالمو دون لفّ أو دوران: أوبارتينو لم يعد في مأمن: الجُمل التي توجه بها إليه برناردو، والحقد الذي أصبح البابا يكنّه له، وبينما كان ميكيلي لا يزال يُمثّل طرفاً يمكن التفاوض معه بقي أوبارتينو يمثّل طرفاً لنفسه...

ـ «جيوفاني يريد ميكيلي في البلاط وأوبارتينو في الجحيم. إن صحّ ما أعرف عن برناردو، فمن الآن إلى صباح الغد، وبمعونة الضباب، سيعمل على قتل أوبارتينو، وإن تساءل أحد عن القاتل، فالدير قادر على تحمل جريمة أخرى، سيقول إنها شياطين استحضرها ريميجيو بواسطة قططه السوداء، أو إنهم بعض الدولتشينيّين الذين نجوا من العدالة ولا يزالون يطوفون بين هذه الأسوار...»

فسأله أوبارتينو بقلق: «وما العمل؟»

فأجاب غوليالمو: «العمل هو أن تذهب إلى رئيس الدير وأن تتحدث إليه. إسأله مطيّة وزاداً ورسالة إلى بعض الأديرة البعيدة، في الجهة الأخرى من جبال الألب. وانتهز الضباب والعتمة للرحيل فوراً».

ـ «ولكن لا يزال النبّالون يراقبون الأبواب؟»

ـ «للدير منافذ أخرى. ورئيس الدير يعرفها. يكفي أن ينتظرك خادم في أحد المُنعطفات السُفلى ومعه مطيّة، وأنت، عندما تخرج من حزام الأسوار، يكفيك أن تجتاز جزءاً من الغابة. يجب أن تفعل ذلك في الحال قبل أن يستفيق برناردو من نشوة انتصاره. أمّا أنا فيجب أن أهتمّ بشيء آخر. لقد كنت مكلفاً بمهمتين، وها أن واحدة منهما فشلت، فعسى على الأقل أن لا تفشل الأخرى. أريد الإمساك بكتاب، وبرجل. ولو تمّ كلّ شيء على أحسن ما يرام، فستكون أنت خارج هذا المكان قبل أن أعود لأسأل عنك. وإذن، الوداع» ـ وفتح ذراعيه. واحتضنه

Twitter: @ketab_n

أوبارتينو بقوة وهو مُتأثر: «الوداع يا غوليالمو، إنك إنكليزي مجنون ومُتكبّر، ولكن قلبك كبير. ترى سوف نتلاقى؟»

فطمأنه غوليالمو: «سوف نتلاقى، إن شاء اللّه».

ولكن الربّ لم يشأ ذلك، وكما كنت قد ذكرت، مات أوبارتينو مقتولا بصفة غامضة بعد ذلك بسنتين. لقد كانت حياة ذلك الشيخ المُناضل والمُتوقد حماساً، صعبة ومُغامرة. ربما لم يكن قديساً، ولكني أرجو أن يكون الرّب قد كافأه على اعتقاده الراسخ بأنه كذلك. وكلما تقدمت بي السنون وسلّمت نفسي لمشيئة اللّه، قلّ اعتباري لذكاء من يريد أن يعرف ولإرادة من يريد أن يفعل: وأرى أن النجاة الوحيدة في الإيمان، الذي يعرف كيف ينتظر بصبر دون أن يتساءل كثيراً. ومن الأكيد أنه كان لأوبارتينو إيمان قوي بدم المصلوب سيدنا وبعذابه.

ربما كنت أفكر في تلك الأشياء آنذاك أيضاً، وتفطّن الشيخ المُتصوف لذلك، أو أنه تنبأ بأنني سأفكر فيها يوماً، فابتسم لي بلطف وضمني إليه، بغير الحماس الذي أمسكني به في الأيام الفارطة. وقبّلني كما يقبّل الجدّ حفيده، وبتلك الروح نفسها بادلته ذلك. ثم ابتعد مع ميكيلي للبحث عن رئيس الدير.

فسألت غوليالمو: «والآن؟»

ـ «الآن، لنعدْ إلى جرائمنا».

فقلت: «سيدي، لقد حدثت اليوم عدة أشياء خطيرة بالنسبة إلى المسيحية وفشلت مُهمتك، ومع ذلك تبدو أكثر اهتماماً بحلّ هذا الغُمُوض منك بخصومة البابا مع الإمبراطور».

ـ «المجانين والأطفال يقولون دائماً الحقيقة، يا أدسو. ربّما مارسيليو بصفته مُستشار الإمبراطور هو أفضل مني، ولكن كمُحَقّق فأنا أفضل منه. وأفضل حتى من برناردو غي، ليسامحني اللّه. لأن برناردو لا يهمّه اكتشاف المذنبين، بل حرق المتهمين. وأما أنا، فأجد مُتعة كبيرة ولذّة قصوى في حلّ مُعضلة شديدة التعقيد. قد يكون ذلك لأنني، في الوقت الذي أشك فيه كفيلسوف، أن للعالَم نظاماً،

Twitter: @ketab_n

أتعزّى، حتى إن لم أكتشف نظاماً، فعلى الأقل، باستنباط سلسلة من العلاقات بمقادير صغيرة بين قضايا العالم. وأخيراً، ربما يكون هناك سبب آخر: وهو أنه في هذه القصة ربما دخلت أشياء أكبر وأهم من الصراع بين جيوفاني ولودوفيكو....»

فهتفت بتشكك: «ولكنها ليست إلاّ قصّة سرقات وأخذ بالثأر بين رُهبان لا عِفّة لهم!»

فأجاب غوليالمو: «حول كتاب ممنوع، يا أدسو، حول كتاب ممنوع».

كان الرُّهبان قد أخذوا في الذهاب لتناول طعام العشاء. وكنّا قد وصلنا إلى مُنتصف الوجبة عندما جلس ميكيلي بجانبنا وأخبرنا أن أوبارتينو قد رحل. فتنفّس غوليالمو الصعداء.

بعد العشاء تحاشينا رئيس الدير الذي كان يتحادث مع برناردو وانتبهنا إلى بانشيو الذي حيّانا بنصف ابتسامة، محاولاً الوصول إلى الباب. فالتحق به غوليالمو وأجبره على أن يتبعنا إلى ركن من أركان المطبخ. وسأله غوليالمو «بانشيو، أين الكتاب؟»

ـ «أي كتاب؟»

ـ «بانشيو، لا أحد منّا الاثنين غبيّ. أتكلم عن الكتاب الذي كنّا نبحث عنه اليوم لدى سيفيرينو والذي لم أتعرّف عليه أنا، بينما تعرّفت عليه أنت جيّداً وذهبت لاستعادته...»

ـ «ما الذي يجعلك تظنّ أنني أخذته؟»

ـ «أظن ذلك، وأنت أيضاً تظن ذلك. أين هو!»

ـ «لا أستطيع أن أقول».

ـ «بانشيو، إن لم تقل لي فسأخبر رئيس الدير».

فأجاب بانشيو بِسَمْتِ الفاضل «لا يمكنني الكلام وذلك بأمر رئيس الدير.

Twitter: @ketab_n

اليوم، بعد أن تقابلنا، حدث شيء يجب أن تعرفاه. بعد موت برينغاريو بقيت خُطّة مساعد حافظ المكتبة شاغرة، فعرضها عليّ هذه العشية مَلاخي. ومنذ نصف ساعة بالضبط أبدى رئيس الدير مُوافقته، ومن صباح الغد، كما أرجو ذلك، سيطلعني مَلاخي على أسرار المكتبة. صحيح، لقد أخذت الكتاب هذا الصباح، وأخفيته تحت حصيري في حجرتي دون أن أنظر إليه، لأنني كنت أعرف أن مَلاخي كان يُراقبني. وإذا به يعرض عليّ الأمر الذي حدّثتكما فيه. ففعلت إذن ما يجب أن يفعل مساعد حافظ المكتبة: أعدت إليه الكتاب».

فلم أتمالك من التدخل بشدة «ولكنك يا بانشيو، أمس، وأول أمس أنت. . . أنت كنت تقول إنك كنت تتقد رغبة في المعرفة، وأنك لا تريد أن تخفي المكتبة أسراراً، وإن التلميذ ينبغي أن يعرف. . ».

كان بانشيو صامتاً وقد احمرّ وجهه، فقاطعني غوليالمو «أدسو، لقد مرّ بانشيو منذ بضع ساعات إلى الجهة المقابلة. الآن أصبح هو حارس تلك الأسرار التي كان يرغب في معرفتها، وأثناء حراستها سيكون لديه كلّ الوقت الذي يريده لمعرفتها».

فسألته «ولكن الآخرين. كان بانشيو يتكلّم باسم كلّ العلماء!»

فقال غوليالمو «كان كذلك قبل الآن». ثم جذبني بعيداً تاركاً بانشيو فريسة لارتباكه.

بعد ذلك قال لي غوليالمو «بانشيو ضحية شهوة كبيرة، تختلف عن شهوة برينغاريو أو شهوة القيّم. كالعديد من الدارسين، لديه شهوة المعرفة. المعرفة لنفسه. عندما كان مُقصى عن ذلك العلم، كان يريد الاستحواذ عليه. الآن أصبح ملكه. كان مَلاخي يعرف صاحبه واستعمل أحسن طريقة لاسترجاع الكتاب ولختم شفتي بانشيو. ستسألني لماذا يُحفظ كلّ ذلك الرصيد من العلم إن لم يكن يُراد وضعه تحت تصرّف كل الآخرين ومن أجل هذا بالذات تحدّثت عن الشهوة. لم يكن تعطش روجر بيكون إلى العلم شهوة، لأنه كان يريد استعمال العلم ليجعل شعب الرب أكثر سعادة، لم يكن إذن يبحث عن العلم من أجل العلم. أما فضول بانشيو فهو تعطّش لا يُروى، هو صلف الفكر، ووسيلة كغيرها يتخذها الراهب

Twitter: @ketab_n

لتحويل رغباته الجنسية، أو هو الحماس الذي يجعل من شخص آخر مُقاتلاً من أجل العقيدة، أو من أجل الهرطقة. ليست هناك فقط شهوة الجنس. وما صدر عن برناردو هو أيضاً شهوة، شهوة مُنحرفة للعدالة تتطابق مع شهوة السلطة. وما يصدر عن حَبْرنا المقدس وغير الروماني هو شهوة المال. إنها شهوة الشهادة والتغيير والتوبة والموت تلك التي كانت تتملك القيّم عندما كان شاباً. وهي شهوة الكتب، تلك التي تتملّك بانشيو. وككلّ شهوة، وكشهوة أونان الذي كان يسكب منيّه على الأرض، هي شهوة عقيم، ولا علاقة لها بالحبّ، حتى بالحبّ الجنسي. .».

فتمتمت رغماً عني «أعرف ذلك». فتظاهر غوليالمو بأنه لم يسمع، ولكنه قال، وكأنه يواصل حديثه «الحبّ الحقيقي يريد الخير للمحبوب».

فسألته «ألا يكون بانشيو يريد الخير لكتبه (إذ أصبحت الآن كتبه) ويرى أن الخير بالنسبة إليها هو أن تبقى بعيدة عن الأيدي الجشعة؟»

ـ «الخير بالنسبة إلى كتاب هو أن يُقرأ. الكتاب مصنوع من علامات تتكلم عن علامات أخرى تتكلّم بدورها عن الأشياء. وبدون العين التي تقرأه يبقى الكتاب حاملاً لعلامات لا تنتج مفاهيم فيظل إذن أخرس. ربما أُسّست هذه المكتبة لإنقاذ الكتب التي تحويها، ولكنها أصبحت تعيش لكي تدفنها. ولذا صارت مصدراً للزندقة. لقد قال القيّم إنه خان. وهكذا فعل بانشيو. لقد خان. آه، يا له من يوم نحس، يا عزيزي أدسو! مليء بالدم والدمار. لقد رأيت اليوم ما فيه الكفاية. هيّا بنا نحن أيضاً لنؤدي صلاة النوم، ونذهب بعد ذلك إلى مضجعيْنا.

عند خروجنا من المطبخ التقينا بأيمارو. فسألنا إن كان صحيحاً ما يُتهامس به من أن مَلاخي عرض على بانشيو أن يصبح مساعده. فلم يكن في إمكاننا إلاّ أن نؤكد له ذلك.

فقال أيمارو بضحكته المُعتادة المُستهزئة وكلّها احتقار وتسامح «إن مَلاخي هذا قام اليوم بعدّة أشياء جميلة. إن كان هناك عدل في هذه الدنيا فسيأتي الشيطان لاختطافه هذه الليلة».

Twitter: @ketab_n

اليوم الخامس: صلاة النّوم

وفيه يُستمع إلى خطبة حول قدوم المسيح الدّجّال
ويكتشف أدسو تأثير أسماء الأعلام

كانت صلاة السّتار قد أُقيمت بصفة فوضوية، أثناء استنطاق القيّم، وقد أفلت المُبتدئون من رقابة مُعَلِّمهم ليتتبعوا من النوافذ والشقوق ما كان يجري في قاعة المجلس. وكان ينبغي الآن أن تُصلّي كل المجموعة على روح سيفيرينو الطيبة. كنا نظن أن رئيس الدير سيتوجه بالخطاب إلى الجميع، مُتسائلين عما سيقوله. ولكن، بعد موعظة القديس غريغوريو الطقسية، وترنيمة الاستجابة والمزامير الثلاثة المرسومة، اعتلى رئيس الدير المنبر وقال إنه، هذه الليلة، سيلازم الصمت، مُضيفاً أن البلايا العظيمة التي فجعت الدير تجعل أب المجموعة نفسه غير قادر على الكلام بنبرة من يُؤنّب أو من يُحذّر. يجب أن يقوم الجميع، دون استثناء، بفحص صارم لضمائرهم. ولكن بما أنه يجب أن يتكلم أحد، عرض رئيس الدير أن يأتي التحذير ممّن هو أكبر سناً وأقرب إلى الموت من الجميع، وأبعد ما يكون عن الإغراءات الدنيوية التي كانت سبب كلّ تلك الآثام. كان يجب أن تعود الكلمة بحق السّن إلى أليناردو دا غروتّافيرّاتا، ولكن الجميع كانوا يعلمون أن صحّة الزميل الوقور كانت ضعيفة. ويأتي فوراً بعد أليناردو، بحسب الترتيب الذي وضعه المرور الحتمي للزمن، يورج. وإليه أعطى رئيس الدير الكلمة.

وسمعنا همسات مُتأتية من ناحية المقاعد التي يجلس فيها عادة أيمارو والإيطاليون الآخرون. وتصوّرت أن رئيس الدير عهد بالخطبة إلى يورج دون استشارة أليناردو. ولفت أستاذي انتباهي، بصوت خافت، إلى أن قرار رئيس الدير بالتزام الصمت كان حكيماً: لأنه مهما كانت الأشياء التي سيقولها فسيقيّمها برناردو

Twitter: @ketab_n

والأفينيونيّون الآخرون الحاضرون. أمّا يورج الشيخ فسيقتصر على إحدى تنبؤاته التصوفية، ولن يقيم لها الأفينيونيّون وزناً كبيراً. ثم أضاف غوليالمو «أمّا أنا فلا. لأنني لا أعتقد أن يورج قبل، أو طلب الكلام دون غرض مُحدّد».

وبمساعدة أحد الرُّهبان صعد يورج المنبر. كان يُضيئ وجهه النصب الذي كان ينير وحده جناح الكنيسة. وكان نور الشعلة يزيد من الظلمة التي كانت تغشى عينيه، اللّتين أصبحتا شبيهتين بثقبين أسودين.

واستهلّ قائلاً: «إخواني الأعزاء، وأنتم يا ضيوفنا المُكرّمين، إن أردتم الاستماع إلى هذا الشيخ المسكين... إن الميتات الأربع التي فجعت ديرنا ـ دون الحديث عن الآثام البعيدة في الزمن والقريبة، التي ارتكبها أشقى الأحياء ـ لا تُنسب، وأنتم تعلمون ذلك، إلى قساوة الطبيعة التي، في انتظامها الذي لا يرحم، تنظم يومنا الدنيوي من المهد إلى اللحد. ربما ظننتم كلّكم، أن هذا الحدث المفجع، مهما يكن قد أحدث في نفوسكم من اضطراب، لا يمسّ من أرواحكم لأنكم كلّكم، ما عدا واحداً، أبرياء، وعندما سينال ذلك الواحد جزاءه، سيبقى لكم دون شك أن تبكوا المُفتقدين، ولكن لن يكون عليكم أن تبرّئوا أنفسكم من أيّة تُهمة أمام محكمة الرّب. هذا ما تظنون. مجانين!» صاحها بصوت رهيب «يا لكم من مجانين طائشين! إن من قتل سيحمل أمام الرّب عبء خطاياه، ولكن فقط لأنه كان الواسطة التي تمّت بها إرادة الرّب. وكما كان ينبغي أن يخون أحد يسوع حتى يكتمل سرّ الخلاص، ومع ذلك أهلك الرّب وشنّع من خانه، كذلك ارتكب أحدهم هذه الأيام إثماً، حاملاً موتاً وخراباً، ولكني أقول لكم إن هذا الخراب، إن لم يكن إرادة الرب، فهو سمح به كي يُذلّ غرورنا!»

ثم صمت وأدار عينيه الفارغتين على المجلس المُتجهّم، كما لو كان قادراً على أن يلتقط الأحاسيس بعينيه، بينما كان يتذوّق فعلاً بأذنيه الصّمت الواجم.

وتابع «منذ زمن، وحيّة الغرور تنساب وسط هذه المجموعة، ولكن أي غرور؟ غرور السلطة في دير مُنعزل عن الدنيا؟ دون شكّ، لا. غرور المال؟ يا إخواني، قبل أن يمتلئ العالم المعروف بمُجادلات طويلة حول الفقر والملكية،

Twitter: @ketab_n

ومنذ عهود مُؤسسنا، نحن حتى عندما كنّا نملك كلّ شيء، كنّا لا نملك شيئاً، لأن ثروتنا الوحيدة والحقيقية تكمن في اتّباع القاعدة، في الصلاة وفي العمل. ولكن من عملنا، ومن عمل نظامنا، وبالخصوص من عمل ديرنا تمثّل الدراسة وحفظ المعرفة جزءاً ـ بل الجوهر. الحفظ، أقول، لا البحث، لأنه من خاصّيّات المعرفة، كشيء إلٰهي، إنها كانت كاملة ومعرّفة منذ البداية، في كمال الكلمة التي تُعبّر عن نفسها. الحفظ، أقول لا البحث، لأنه من خاصّيّات المعرفة، كشيء إنساني، إنها كانت قد عُرّفت وأُكملت في تلك الحقبة من القرون التي تمتد من وحي الأنبياء إلى تأويل آباء الكنيسة. ليس للعهود تطور، ولا ثورة، في أمر المعرفة، على أقصى تقدير نجد إعادة متواصلة وسامية. إن تاريخ الإنسانية يمشي بحركة لا تتوقف من خلق الكون، وعبر الفداء، نحو عودة المسيح الظافر، الذي سيظهر تحيط به هالة ليحاكم الأحياء والأموات، ولكن المعرفة الإلٰهية والإنسانية لا تتّبع هذا المسار: هي ثابتة كأنها قلعة لا تنهار فهي تتيح لنا، عندما نستمع إلى صوتها بانتباه وتواضع، أن نتّبع ذلك المسار ونتكهن به، ولكن لا يمسّها شيء منه. لقد قال رب اليهود أنا ذلك الذي هو. وقال سيّدنا، أنا الطريق، والحقيقة والحياة. هي ذي، المعرفة ليست إلاّ التأويل المُنذهل لهاتين الحقيقتين. وكلّ ما أضيف إلى ذلك، فقد نطق به الأنبياء، والإنجيليون، والآباء والعلماء كي يجعلوا هاتين الحكمتين أكثر جلاء. وجاءت أحياناً بعض الشروح الفَطِنَة من الوثنيين الذين كانوا يجهلونهما، وقبلت التقاليد المسيحية أقوالهم. ولكن ما عدا ذلك لم يبقَ شيء يمكن أن نقوله. علينا أن نتأمل، أن نشرح وأن نحفظ. كانت هذه وكان ينبغي أن تبقى هذه مهمّة ديرنا بمكتبته الرائعة ـ لا غير. يُحكى عن خليفة من الشرق أنه أحرق يوماً مكتبة مدينة مشهورة مجيدة وفخورة، وبينما كانت آلاف الكتب تحترق قال إنه بإمكانها بل ومن واجبها أن تندثر: لأنها، إمّا تعيد ما قاله القرآن، وإذن فهي عديمة النفع، أو إنها تعارض ذلك الكتاب الذي يقدّسه الكافرون، وإذن فهي مضلّة. لم يرَ علماء الكنيسة، ونحن معهم، الأشياء، من الوجهة نفسها. كلّ ما هو تعليق وشرح للكتابات يجب الحفاظ عليه، لأنه يزيد من عظمة الكتابات المقدّسة. وكلّ ما عارضها لا يجب أن يُتلف، إذ بالحفاظ عليه يمكن دحضه بدوره، ممّن له القدرة والوظيفة لذلك، وبالطرق وفي المواعيد التي

Twitter: @ketab_n

يريدها الإلٰه. ومن هنا تأتي مسؤولية نظامنا عبر القرون، والعبء الذي يتحمله ديرنا اليوم فنكون معتزين بالحقيقة التي نُصرّح بها، مُتواضعين وحذرين في حفظ الكلمات المُعادية للحقيقة، دون أن نتلوّث بها. الآن، يا إخواني ما هي خطيئة الغرور التي يمكن أن تُغري راهباً دارساً؟ هي أن يفهم عمله، لا على أنه حفظ ولكن على أنه بحث عن بعض الأنباء التي لم تُكشف بعد للبشرية، كما لو لم يُدَوَّ النبأ الأخير في كلمات الملاك الأخير الذي يتكلم في آخر سفر من الكتابات المقدّسة «لأنّي أشهد لكل من يسمع أقوال نبوّة هذا الكتاب إن كان أحدٌ يزيد على هذا يزيد اللّه عليه الضربات المكتوبة في هذا الكتاب. وإن كان أحد يحذف من أقوال كتاب هذه النبوّة حذف اللّه نصيبه من سفر الحياة ومن المدينة المقدسة ومن المكتوب في هذا الكتاب» هو ذا... ألا يبدو يا إخواني بعد هذه المحنة أن هذه الكلمات تعكس بالذات ما وقع بين هذه الأسوار من أحداث، وأن ما وقع بين هذه الأسوار يعكس بالذات وقائع القرن الذي نعيشه، الذي يسعى بكل جهده بالكلمة وبالفعل، في مدنه وفي قصوره، في جامعاته الفخورة وفي كنائسه العظيمة، إلى اكتشاف تذييلاتٍ جديدةٍ للحقيقة، مُحَرِّفاً معنى تلك الكلمة الثريّة بكل التعليقات، وهي التي تحتاج فقط إلى دفاع جريء لا إلى إضافات غبية؟ هذا هو الغرور الذي انساب ولا يزال ينساب داخل هذه الأسوار: وأقول لمن سعى ويسعى إلى فك أختام الكتب التي لا تعنيه، إن الإلٰه أراد مُعاقبة ذلك الغرور وسيواصل عقابه إن هو لم يتراجع ولم يتواضع، إذ لا يصعب على الإلٰه أن يجد دائماً، وفي كلّ مرّة، بسبب ضعفنا، الوسائل ليثأر لنفسه».

فهمس إليّ غوليالمو «أَسمعت يا أدسو! الشيخ يعرف أشياء أكثر ممّا يريد أن يقول. إنه يعرف، سواء كانت له يد في الحكاية أم لا، وينذر أنه إن لم يكفّ الرُّهبان الفضوليون عن انتهاك حُرْمة المكتبة فلن يستعيد الدير أمنه».

وعاد يورج، بعد مُهْلة طويلة، إلى الكلام «لكن من هو أخيراً رمز ذلك الغرور، الذي يكون المغرورون صورة منه ورسلاً ومشاركين وحاملي لواء؟ من سعى في الحقيقة وربما لا يزال يسعى بين هذه الأسوار، ليعلمنا أن الساعة قريبة ويعزّينا، لأن الساعة إذا كانت قريبة فستكون آلامنا دون شك لا تُطاق ولكنها لن

Twitter: @ketab_n

تكون لانهائية، بما أن الدورة الكبرى لهذا الكون أوشكت أن تكتمل؟ أوه، لقد فهمتم ذلك جيداً، ويُخيفكم النطق باسمه، لأنه اسمكم أنتم أيضاً وأنتم تخافون ذلك، ولكن إن كنتم أنتم تخافون ذلك، فأنا لا أخافه وسأقول ذلك الاسم بصوت عالٍ جدًا حتى تتلوّى أمعاؤكم من الرعب، وتصطكّ أسنانكم حتى تقطع ألسنتكم، وحتى يُسقِط التجمّد الذي سينتاب دمكم غشاء مُظلماً على عيونكم... إنه الوحش الرجس، إنه المسيح الدجّال!»

وتوّقف مرّة أخرى طويلاً، بينما كان الحاضرون يبدون وكأنهم موتى، والشيء الوحيد الذي كان يتحرّك هو شعلة المنصب، ولكن حتى الظلال التي كانت تلقيها كانت تبدو مُتجمّدة. وكان الصوت الوحيد والخافت صوت يورج وهو يلهث وينشّف العرق من جبينه. ثم واصل:

«ربما كنتم تُريدون أن تقولوا لي: كلاّ، إن من تتحدّث عنه ليس آتياً عن قريب، أين هي علامات مجيئه؟ أبله من يقول ذلك! ألسنا نرى أمامنا، يوماً بعد يوم، في مسرح الدنيا الكبير، وفي صورة الدير المُصَغَّرة، نكباته النذيرة.. ويُقال إنه عندما يقترب الموعد سيقوم في الغرب ملك أجنبي، ربّ أملاك ضخمة تحصّل عليها بالخدعة، ملحد، سفّاح، خدّاع، مُتعطش للذهب، ماهر في الاحتيال، شرّير، عدوّ للمؤمنين ومُضطهِد لهم. وفي عهده لن يُحسب للفضّة حساب بل ستُعطى قيمة للذهب فقط! إنني أعرف جيداً: أنتم الذين تستمعون إليّ ستسارعون بضرب أخماسكم في أسداسكم لمعرفة إن كان من أتحدّث عنه يشابه البابا أم الإمبراطور أو ملك فرنسا أو من أردتم، كي يمكنكم أن تقولوا: إنه عدوّي وأنا من بين الصالحين! ولكني لست ساذجاً إلى حدّ أنني أدلّكم على رجل، عندما يأتي المسيح الدجّال فهو يأتي من الجميع للجميع، وكلّ واحد هو جزء منه. سيكون في جماعات اللصوص التي ستنهب مُدناً وجهات، سيكون في علامات غير مُنتظرة من السماء حيث سيظهر فجأة قوس قزح وقُرون ونيران، بينما سيُسمع خِوار أصوات وسيفور البحر. يُقال إن الحيوانات والعباد ستلد تنانين، ولكن كان يُراد بذلك أن القلوب ستحمل حِقداً وشِقاقاً، لا تنظروا حولكم لتروا وحوش المُنمنمات التي تُسلّيكم على الرقوق! يُقال إن النساء المُتزوجات منذ وقت قليل

Twitter: @ketab_n

سيلدن أطفالاً قادرين على التكلم جيداً، سينبئون بمجيء الساعة وسيطلبون أن يُقتلوا. ولكن لا تبحثوا عنهم بين القرى في الوادي، فالأطفال ذوو المعرفة الواسعة قد قُتلوا بين هذه الأسوار! وكأطفال النبوة كان لهم شكل الرجال المتقدمين في السن، وكانوا هم أبناء النبوة ذوي الأربع، وأشباحها وأجنَّتها التي ينبغي أن تتنبأ وهي في بطون أمهاتها ناطقة بِشَعْوَذات سحرية. وكلّ هذا كان مكتوباً، أتعرفون ذلك؟ يقال إن الاضطرابات ستتعدد في الفئات، وفي الشعوب وفي الكنائس، وإنه سيقوم رُعاة آثمون، مُنحرفون، مزدرون، طمّاعون، يرغبون في الملذّات ويحبون المال ويميلون إلى الأحاديث التافهة، مدّعون، مُتكبرون، جشعون، مُنغمسون في الفِسق، يبحثون عن المجد الباطل، أعداء للإنجيل، مستعدون لنبذ الباب الضَّيق، ولازدراء كلمة الحق، سيبغضون كل مسالك الشفقة، ولن يتوبوا عن ارتكاب الإثم، ولذا ستتفشّى الشكوك بين الشعوب، وبغض الأخ لأخيه، والشر والقسوة والحسد واللامُبالاة والسرقة والسكر والنهم والدعارة واللذة الجنسية والزنى وكل الرذائل الأخرى. وسيندثر الشجى، والتواضع، وحب السلام، والفقر، والرحمة، والرثاء للغير.... هيّا إذن، ألا تتعرفون على أنفسكم، أنتم الحاضرين هنا، رُهبان هذا الدير وذوي النفوذ الآتين من الخارج؟»

وفي الاستراحة التي عقبت ذلك سُمع حفيف. كان الكاردينال برتراندو يتململ فوق مقعده. فكّرت أن يورج، في نهاية الأمر، كان يتصرّف تصرّف الخطيب الكبير، فبينما كان يوبّخ رفاقه كان لا يترفّق مع ذلك بالزائرين. وكنت مُستعداً للتضحية بكل شيء لو أتاح لي ذلك أن أعرف ما كان يجول في تلك اللحظة في خاطر برناردو، أو في خواطر الأفينيونيين البدينين.

ودمدم صوت يورج «وفي تلك الساعة، التي هي فعلاً ساعتنا هذه، سَيظهر الدّجّال المُجدّف، الذي لن يكون إلاّ قرداً يحاول تقليد سيدنا. وفي تلك الساعة (التي هي هذه) ستنقلب جميع الممالك، ستعمّ المجاعة والفقر، وقلة الحصاد، وتأتي الشتاءات القاسية. ولن يجد أبناء تلك الساعة (التي هي هذه) من يدير أملاكهم ويحفظ في مستودعاتهم الأغذية وسيذلّون في أسواق البيع والشراء. هنيئاً عندئذٍ لأولئك الذين يتركون الحياة، أو أولئك الأحياء الذين سيمكنهم البقاء على

Twitter: @ketab_n

قيد الحياة! سيصل آنذاك ابن التهلكة، العدوّ المُنتفخ غروراً، سيُظهر خصالاً عدة لخداع الأرض جمعاء وليسيطر على العادلين. ستنهار سوريا وتبكي أبناءَها. وسترفع سيليزيا رأسها إلى أن يظهر من هو مَدْعُوّ لمحاكمتها. وستنهض ابنة بابل من كرسي روعتها لتشرب من كأس المرارة. وستحني كبادوكيا وليشيا ولياكونيا الظَّهر لأن جموعاً بأكملها ستهلك من جرّاء فسادهم وآثامهم. ستظهر مضارب الهمجيين وعربات القتال في كلّ مكان لتحتل الأرض. وفي أرمينيا، وفي بونتو وبيثونيا سيموت الفتيان بحدّ السيف، وستسقط الصبايا في الأسر، وسيرتكب الأبناء والبنات المحارم، وبيسيديا التي تتباهى بمجدها، ستركع، وسيمرّ السيف عبر فينيقيا، وستلبس اليهودية ثوب الحداد وتستعدّ ليوم الهلاك لعدم طهارتها. عندئذٍ تظهر الكراهية والدمار في كلّ البقاع، ويستولي الدجّال على الغرب وسيُدمر الطرقات والمسالك وسيحمل في يديه السيف والنار المحرقة وسيضطرم ناراً وعُنْفاً: سيكون التجديف قوته، ويده خداعاً، ستكون يمينه خراباً ويساره ظلمات. وهذه هي الملامح التي ستميزه: سيكون رأسه من نار حامية، وعينه اليمنى مُحتقنة بالدم، وعينه اليسرى خضراء سنّورية، وستكون له حدقتان، وسيكون جفناه أبيضين، وشفته السفلى كبيرة، سيكون فخذه نحيفاً ورجلاه كبيرتين وإبهامه مَمْعُوساً وطويلاً!»

همس إليّ غوليالمو بسخرية «كأني بها صورته»، كانت جُملة خالية من التقوى، ولكنني في دخيلتي شكرته عليها، لأن شعري وقف من الرعب فوق رأسي. وتمالكت نفسي بصعوبة عن الضحك، نافخاً خدّي وتاركاً الهواء يخرج في صفير من بين شفتيّ المغلقتين. وسُمع ذلك الصوت بوضوح، في الصمت الذي تبع كلمات الشيخ الأخيرة، ولكن لحسن الحظ ظن الجميع أن أحداً كان يسعل أو يبكي أو يرتعد، وكان هناك ما يكفي لإثارة كل ذلك لدى الجميع.

وكان يورج يقول الآن «حان الوقت، الذي سيسقط فيه كل شيء في الاعتباطية، حيث سيرفع الولد يده على والده، وتكيد الزوجة لزوجها، ويرفع الزوج قضية على زوجته، وسيكون الأسياد بلا إنسانية مع خدمهم ويتمرّد الخدم على أسيادهم، سينعدم احترام المسنّين، وسيطالب الصبيان بالقيادة، وسيبدو العمل

Twitter: @ketab_n

للجميع تعباً عديم الجدوى، وسترتفع من كل صوب الأناشيد لتعظيم الإباحة، والرذيلة، وحرية الأخلاق الماجنة. وبعد ذلك ترتكب جرائم اغتصاب، وزنى، وحَنْث بالأيْمان، وآثام ضد الطبيعة تتبعها موجة كبيرة من الشرور، والتنجيم، والشَّعْوَذة، وستظهر في السماء أجرام طائرة. وسيظهر من بين المسيحيين الصالحين أنبياء كذّابون، ورسل مزيّفون، ومُفسدون، ودجّالون، سحرة ومُغتصبون، بخلاء، حانثون وغشّاشون، وسيتحوّل الرُّعاة إلى ذئاب، سيكذب الكهنة وسيرغب الكهنة في أشياء الدنيا، ولن يهرع الفقراء لإغاثة زعمائهم، وسيكون ذوو النفوذ دون رحمة وسيشهد العادلون على الجور. وستهزّ الزلازل كل المدن، وتعمّ الأوبئة كل المناطق، وستقتلع الأرض عواصف من الرياح وستصاب الحقول بالتلوث ويفرز البحر سوائل قاتمة، وستقع مُعجزات جديدة وغريبة على القمر، وتترك النجوم مدارها المعتاد، وستخترق السماء نجوم أخرى مجهولة، سيسقط الثلج في الصيف ويشتدّ الحرّ في الشتاء. تكون آنذاك قد وصلت أزمنة النهاية ونهاية الأزمنة... في اليوم الأول وفي ثالث ساعة سيرتفع في صفحة السماء صوت عظيم ومُدوٍّ، وتتقدّم سحابة أرجوانية من ناحية الشمال، ثم رعود وبروق، يسقط على إثرها مطر من الدم على الأرض. وفي اليوم الثاني تُقتلع الأرض من موضعها ويمرّ دخان نار كبيرة عبر أبواب السماء. وفي اليوم الثالث تُدوّي كلّ هاوية في الأرض من أركان الكون الأربعة. وستنفتح أبراج السماء، ويمتلئ الهواء بأعمدة من الدخان وتكون هناك رائحة كبريت كريهة إلى حدود عاشر ساعة. في اليوم الرابع وفي أوّل الصباح سيصبح جوف الأرض سائلاً ويبعث بانفجارات عظيمة وتسقط البناءات. في اليوم الخامس وفي سادس ساعة ستنعدم قُوى النُور وعجلة الشمس، ويشمل الظلام العالم إلى المساء، ويكفّ القمر والنجوم عن أداء وظيفتهما. في اليوم السادس وفي رابع ساعة ستنشقّ قبة السماء من شرقيّها إلى غربيّها وسيمكن للملائكة أن ترى الأرض من خلال الشقّ ويستطيع من هو على الأرض أن يرى الملائكة وهي تنظر من السماء. سيختفي آنذاك كلّ العباد في الجبال للهروب من أنظار الملائكة العادلين. وفي اليوم السابع يصل المسيح يحفّ به نور أبيه وتقع عندئذٍ محاكمة الصالحين وصعودهم إلى السماء، في طوبى الأجساد والأرواح الأزلية. ولكنكم يا إخواني المَغرورين لن تتأمّلوا في

Twitter: @ketab_n

ذلك هذا المساء! لن يحقّ للمذنبين أن يروا فجر اليوم الثامن، عندما يرتفع صوت عذب ورقيق من الشرق، وسط السّماء، ويظهر ذلك الملاك الذي له السلطة على كل الملائكة الآخرين المقدّسين، وسيتقدّم معه كل الملائكة، جالسين فوق عربة من السحاب، يسيرون بسرعة عبر الفضاء يملأهم الحُبور، لتحرير المختارين الذين آمنوا، وكلّهم راضون لأن دمار هذه الدنيا سيكون قد تمّ! ولكن ليس لنا نحن، هذه الليلة، أن نبتهج لذلك! بل لنتأمّل في الكلمات التي قالها الرب ليُبعد عن نفسه من لا يستحقّ النجاة: ابعدوا عني، أيها الملاعين، إلى النار التي أعدّها لكم الشيطان وأتباعه! لقد استحققتم ذلك لتنعموا به الآن! ابتعدوا عني، وانزلوا إلى الظلمات الخارجية، في النار التي لا تخمد أبداً! أنا الذي أعطيتكم صورتكم، فأصبحتم أتباعاً لغيري! أصبحتم خدم سيّد آخر، اذهبوا واسكنوا معه في الظلمات، معه هو، الثعبان الذي لا يهدأ ولا يستريح، وسط الأنياب المُكشّرة! أعطيتكم آذاناً لتصغوا بها إلى الكتابات فأصغيتم إلى كلمات الوثنيّين! وأعطيتكم لساناً لتعظّموا به الرب، فاستعملتموه لأكاذيب الشعراء ولأحاجي المهرّجين! أعطيتكم عيوناً لتروا بها نور تعاليمي، فاستعملتموها للتحديق في الظلمات! إنني ديّان إنساني، ولكنني مُنصف. سينال كل منكم ما يستحقّ. كم أودّ أن أشفق عليكم، ولكنني لا أجد زيتاً في أوعيتكم. أميل إلى الرحمة بكم ولكن قناديلكم مُدخّنة. ابتعدوا عني... هكذا سيتكلّم الرب. وهؤلاء... وربما نحن أيضاً، سننزل إلى العذاب الأزلي. باسم الرب، والابن والروح القدس».

فرد الجميع بصوت واحد «آمين!»

وفي صمت، خرج الجميع في صفّ واحد وذهب الرُّهبان إلى النوم. واختفى الفرانشسكانيّون ورجال البابا دون رغبة في الكلام، يَنشُدون العُزلة والراحة. أما أنا فكان قلبي مغموماً.

وقال لي غوليالمو بينما كنّا نصعد سلّم دار الضيافة: «الى الفراش يا أدسو. الليلة ليست صالحة للطواف. قد يمرّ بخاطر برناردو غي أن يسبق قيام الساعة مبتدئاً بجسمَيْنا المسكينيْن. لنحاول أن نكون حاضرين غداً عند صلاة الصبح، لأن ميكيلي والفرانشسكانيّين الآخرين سيرحلون فوراً بعدها».

Twitter: @ketab_n

فسألته بصوت خافت «سيرحل برناردو أيضاً، وأسراه؟»

ـ «دون شكّ، لم يبقَ شيء آخر يفعله هنا. سيحاول أن يسبق ميكيلي إلى أفينيون، ولكن بحيث يُصادف وصوله محاكمة القيّم، الذي هو فرانشسكاني، هرطيق ومجرم، ستضيء محرقة القيّم كالمشعل القرباني اللّقاءَ الأول بين ميكيلي والبابا».

ـ «وماذا سيكون من أمر سلفاتوري... والفتاة؟»

ـ «سيصاحب سلفاتوري القيّم، إذ ينبغي أن يقدّم شهادته أثناء المحاكمة، ربما يتركه برناردو، مقابل تلك الخدمة، على قيد الحياة. أو ربما يتركه يفلت ثم يكلّف من يقتله. أو ربما يتركه حقيقة يذهب لحاله، لأن شخصاً مثل سلفاتوري لا يهمّ رجلاً مثل برناردو. من يدري، قد ينتهي به الأمر أن يصبح لصّاً في بعض أدغال لونغدوق...»

ـ «والفتاة!»

ـ «لقد قُلت لك، إنها لحم محروق. ولكنها ستُحرق قبل الآخرين، أثناء الطريق، لتعطي العِبْرة لبعض القرى المانويّة الموجودة طول الساحل. لقد سمعتُ أن برناردو سيتلاقى مع زميله جاك فورنيي (تذكّر هذا الاسم، في الوقت الراهن يحرق أَلْبِيجيين، ولكنه يطمح إلى أعلى) وساحرة جميلة فوق كومة من الحطب ستزيد من هيبة هذا وذاك..».

فَصِحْتُ به «ولكن ألا يمكن السعي لإنقاذهم. ألا يمكن لرئيس الدير أن يتدخّل؟»

ـ «من أجل من؟ القيّم، المعترف بذنوبه؟ أو من أجل بائس مثل سلفاتوري؟ أم أنت تفكر في الفتاة؟»

فتجرأت وأجبت: «حتى وإن كان الأمر كذلك. في نهاية الأمر، هي الوحيدة بين الثلاثة، البريئة حقيقة، أنت تعرف أنها ليست ساحرة..».

ـ «وتظن أن رئيس الدير، بعد كلّ ما حدث سيريد المجازفة بما تبقّى له من هيبة من أجل ساحرة؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «ولكنه أخذ على عاتقه مسؤولية أوبارتينو!»

ـ «كان أوبارتينو راهباً من رهبانه وليس متهماً بشيء. ثم ما هذه الحماقات التي تقولها، كان أوبارتينو شخصية هامّة، كان يمكن لبرناردو أن يقتله غدراً».

ـ «إذن كان القيّم على حقّ، البُسَطاء يدفعون الثمن عوضاً عن الآخرين، حتى عن أولئك الذين يتكلمون في صالحهم، حتى عن أمثال أوبارتينو وميكيلي، الذين يدفعونهم إلى الثورة بأفكارهم حول التوبة!». كنت يائساً، ولم أعتبر حتى أن الفتاة لم تكن راهباً فرانشسكانياً فتنه تصوّف أوبارتينو. ولكنّها كانت فلاحة، وكانت تدفع الثمن من أجل قصّة لا دخل لها فيها. فأجاب غوليالمو بحزن «هو كذلك. وإن كنت تريد حقيقة بصيصاً من العدل، سأقول لك إنه سيأتي يوم تمرّ فيه الكلاب الكبيرة، والبابا والإمبراطور، ليتصالحوا، فوق أجساد الكلاب الصغيرة التي تناهشت لصالحهم. وسيُعامَل ميكيلي وأوبارتينو كما تُعامل اليوم فتاتك».

الآن عرفت أنّ غوليالمو كان يتنبأ بالغيب، أو بالأحرى كان يقيس قياساً منطقياً على أساس مبادئ الفلسفة الطبيعية. ولكن في تلك الآونة لم تُعزّني البتّة لا تنبؤاته ولا قياساته المنطقية. الشيء الوحيد الذي كان مُؤكّداً هو أنّ الفتاة ستُحرق. وكنت أحسّ بنفسي مسؤولاً بقدر ما كان الآخرون مسؤولين، كما لو كانت تُكفّر فوق المحرقة عن الذّنب الذي ارتكبته أنا أيضاً معها.

وانفجرتُ باكياً دون حياء وهرعتُ إلى حجرتي، حيث عضضت طول الليل فراشي وأنا أئنّ من إحساسي بالعجز، لأنه لم يكن مسموحاً لي ـ كما كنت قد قرأت في ملاحم الفروسية مع رفاقي في دير «مالك» ـ حتى أن أشكو حالي مُنادياً باسم المحبوبة.

وما كنت أعرف اسم من أحببتها حبّي الدنيوي الوحيد ولا عرفته قطّ بعد ذلك.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

اليوم السّادس

اليوم السّادس: صَلاة أوّل الصّبح

وفيه يجلس الأمراء، ويسقط مَلاخي صريعاً على الأرض

نزلنا لصلاة أوّل الصبح. كان ذلك القسم الأخير من الليل، والذي يكاد يكون القسم الأول من النهار الوشيك، لا يزال يكسوه الضباب، وكانت الرطوبة عند اجتيازي الرواق، تنفذ إلى عظامي التي هرسها النوم المُضطرب. ورغم أن الكنيسة كانت باردة فقد ركعت تحت تلك القِباب بزفرة ارتياح، بملجأ من العناصر، يُطمئنني دفء الأجساد الأخرى، والصلاة.

كان إنشاد المزامير قد بدأ منذ قليل عندما أومأ إليّ غوليالمو مشيراً إلى مقعد فارغ من بين المقاعد الموجودة قُبالتنا، بين يورج وباتشيفكو دا تيفولي. كان مكان مَلاخي، الذي يجلس، فعلاً، دائماً بجانب الأعمى. ولم نكن الوحيديْن اللّذين انتبها إلى ذلك الغياب. فقد لاحظت من ناحية نظرات رئيس الدير القلقة، إذ أصبح يعرف جيّداً أن تلك الغيابات تُنبئ بأخبار مُفجعة. ومن ناحية أخرى لاحظت اضطراباً غير معهود يهزّ يورج الشيخ. كان وجهه الذي لا يمكن في العادة تمييز ملامحه لعينيه البيضاوين الخاليتين من النُّور، غارقاً لأرباعه الثلاثة في العتمة، ولكنّ يديه كانتا مُضطربتين وقلقتين. وفعلاً، جسّ مرّات عديدة المقعد المُحاذي له، كما لو كان يتفقّد إن كان يشغله أحد. كان يقوم بتلك الحركة ويُعيدها بانتظام، كما لو كان يأمل أن يظهر الغائب من حين لآخر. ولكنه يخشى أن لا يظهر.

فهمست إلى غوليالمو: «أين يكون حافظ المكتبة؟»

Twitter: @ketab_n

فأجاب «لقد أصبح مَلاخي الشخص الوحيد الذي يملك الكتاب. إن لم يكن هو المُجرم، فمن المُحتمل أن لا يعرف الأخطار التي يحويها ذلك الكتاب..».

لم يكن هناك شيء آخر يمكن قوله. كان ينبغي أن ننتظر فقط. وانتظرنا، نحن، ورئيس الدير الذي كان يواصل التحديق في المقعد الخاوي، ويورج الذي كان لا يكفّ عن مُساءلة العتمة بيديه.

عند انتهاء الفرض، ذكّر رئيس الدير الرُّهبان والمبتدئين أنه يجب الاستعداد للقدّاس المولدي الكبير ولذا، وكما جرت العادة، سيُستعمل الوقت الذي يسبق صلاة الحمد لتتدرّب المجموعةُ كلّها قصد تحقيق انسجام الأصوات لأداء الأناشيد المُعدّة لتلك المناسبة. كانت تلك المجموعة من الرجال الورعين مُنسجمة فعلاً، كجسم واحد وصوت واحد، وبمرور سنوات طويلة كانت تجد نفسها موحّدة في الإنشاد، كأنها روح واحدة.

ثم دعا رئيس الدير لإنشاد ترنيمة: «Sederunt»

Sedernut principes
et adversus me
loquebantur, iniqui.
Persecuti sunt me.
Adjuva me, Domine
Deus meus salvum me,
fac propter magnam misericordiam tuam(*)

وتساءلت إن لم يكن رئيس الدير قد طلب إنشاد تلك الترنيمة، وفي تلك الليلة بالذات بينما لا يزال رُسل الأمراء حاضرين في الفرض، ليذكّر كيف أنّ

* جلس الأمراء
وخاطبوني مُتهجّمين،
حاقدين.
واضطهدوني.
كن في عوني يا رب،
اللّهم أنقذني
واشملني برحمتك العظيمة.

Twitter: @ketab_n

رهبانيته طيلة قرون طويلة، كانت دائماً مُستعدّة لتحمّل اضطهادات ذوي السلطان، بفضل علاقتها المُتميّزة مع المولى، ربّ كل الجيوش. وفعلاً أحدثت بداية الإنشاد شعوراً عظيماً بالقوة.

عند المقطع الأول «se» بدأ لحن جماعي بطيء ومَهِيب يتألف من العشرات والعشرات من الأصوات التي ملأ صوتها الخافت الأروقة ورفرف فوق رؤوسنا، ومع ذلك كان يبدو خارجاً من أعماق الأرض. ولم ينقطع، لأنه بينما كانت أصوات أخرى تنسج، على ذلك المنوال العميق المتواصل، مجموعة من التنغيمات والألحان العذبة، كان هو يواصل ـ أرضياً ـ الهيمنة ولم ينقطع طيلة ما يكفي لمنشد ذي صوت مُنغّم وبطيء ليعيد اثنتي عشرة مرّة «Ave Maria». وتعالت فوق تلك القاعدة الحجرية والصلبة أصوات أخرى (وخاصّة أصوات المبتدئين) وكأنّ ذلك الاطمئنان الذي كان يوحي به ذلك المقطع بإلحاحه ـ كأنه صورة للديمومة السّرمدية ـ قد حرّرها من كل خوف وإذا بها ترفع سِهاماً، وأعمدة وأبراجاً من أنغام مُنسابة ومُرهفة الحسّ. وبينما كان قلبي يسكر من العذوبة في تموّج ألحان مُختلفة تتدرّج وتمتد فتحتد وتتعالى، كانت تلك الأصوات تبدو وكأنها تقول لي إنّ الروح (روح المُنشدين وروحي أنا الذي كنت أستمع إليهم) في عجزها عن تحمّل غزارة مشاعرها، تتمزّق لتُعبّر من خلالها عن الفرح، والألم، والحمد، والحب، باندفاع صوتي عذب.

وفي الأثناء كانت الأصوات العميقة القرار في احتداد عنيد لا يني، كما لو أن الحضور المُنذر بالخطر من الأعداء وذوي السلطان مُضطهدي شعب الربّ قد ظلّ معلقاً فوقها، حتى بدا ذلك الصخب النبتوني الوحيد النبرة مغلوباً على أمره، أو على الأقل ممتثلاً وأسيراً لنشوة الخصوم التسبيحية، ثم غاب في انسجام كلّي مهيب وفي نغمة آفلة.

وبعد أن تمّ بصعوبة تكاد تكون عنيدة نطق كلمة sederunt تعالت في الفضاء principes في هدوء ملائكي كبير. ولم أعد أتساءل من يكون أولئك المتجبرون الذين يتكلمون ضدّي (ضدّنا)، لقد اختفى وتلاشى ظل ذلك الشبح الجالس والدّاهم.

Twitter: @ketab_n

وظننت عند ذلك الحدّ أنّ أشباحاً أخرى قد تبددت لأنني عندما نظرت من جديد إلى مقعد مَلاخي، بعد أن استغرق النشيد انتباهي، رأيت وجه حافظ المكتبة بين وجوه المنشدين الأخرى، كأنه لم يغب قط. فنظرت إلى غوليالمو ولمحت في عينيه إيماءة ارتياح، وذلك الارتياح نفسه قرأته في عيني رئيس الدير. أمّا يورج، فقد مدّ من جديد يده ولما اصطدمت بجسم جاره سحبها بسرعة. ولكنني لا أدري أية مشاعر كانت تختلج في نفسه.

كانت المجموعة تنشد الآن بابتهاج «adjuva me» وكانت «a» شفافة تنبسط بحبور عبر الكنيسة، وحتى «u» نفسها لم تكن تبدو عبوسة كتلك التي في sederunt، ولكنها كانت مليئة بحيوية مقدّسة. وكان الرُّهبان والمبتدئون يُنشدون مُستقيمي الأجساد، كما تقتضي العادة في الإنشاد، بحناجر طليقة، وكانت رُؤوسهم مُوجهة إلى أعلى وكتبهم في مستوى أكتافهم تقريباً بحيث تمكن قراءتها دون أن تُؤدي طأطأة رؤوسهم إلى خروج الهواء بأقل طاقة من صدورهم. ولكن الساعة كانت لا تزال ليلية ورغم أن أبواق الحُبور كانت ترنّ فقد كان ضباب النوم يغشى العديد من المُنشدين، الذين ربما كانوا يتيهون في إصدار نبرة طويلة أو يطمئنون إلى موجة النشيد نفسها، فكانوا يُحْنُون أحياناً رؤوسهم وقد أغراهم النُّعاس. وعندئذٍ، وحتى في ذلك الظرف كان المُوقِظون يُنيرون وجوه النيام، الواحد تلو الآخر، لإعادة اليقظة، فعلاً، إلى الجسم والروح.

وفعلاً كان أحد أولئك المُوقظين أول من رأى مَلاخي يترنح بصفة غريبة، ويتمايل كأنه سقط فجأة في ضبابات النوم المعتمة، ضبابات نوم ربما لم يكن قد نَعِم به تلك الليلة. فاقترب منه مُضيئاً وجهه بالسراج ومُلفتاً بتلك الطريقة انتباهي. ولكن حافظ المكتبة لم يتحرّك، ولما لمسه الراهب المُوقِظ سقط بكلّ ثقله إلى الأمام. فسارع الموقظ لمساندته قبل أن يسقط على الأرض.

وتباطأ الإنشاد، ثم انطفأت الأصوات وحدثت جلبة قصيرة. فاندفع غوليالمو على الفور من مكانه وهرع إلى حيث كان باتشيفكو دا تيفولي والموقظ يمدّدان مَلاخي على الأرض وهو فاقد الوعي.

Twitter: @ketab_n

ووصلنا إليهما تقريباً في الوقت نفسه الذي وصل فيه رئيس الدير، وعلى نور السراج رأينا وجه البائس. لقد سبق أن وصفت هيئة مَلاخي ولكنه كان تلك الليلة وتحت ذلك النُّور صورة للموت نفسه. كان أنفه مهزولاً، وعيناه غارقتيْن، وصدغاه محفورَيْن، وأذناه بيضاوين ومُنقبضتين وشحماتهما مُنقلبتين نحو الخارج، وأصبحت جلدة وجهه يابسة، مشدودة وصلبة وأصبح لون خدّيه مصفرّاً يصبغه ظل داكن. وكانت عيناه لا تزالان مفتوحتين، ونفس مُرهق كان يخرج من تينك الشفتين المُلتهبتين. فتح فمه، وعندما انحنيت من وراء غوليالمو الذي كان هو الآخر مُنحنياً فوقه، رأيت لساناً أصبح أسود يتحرّك بين صفّي الأسنان. فأسنده غوليالمو وقد احتضنه من كتفيه، ونشف بيده رداءً من العرق كان يزيد جبهته امتقاعاً. وأحسّ مَلاخي بلمسة، أو بحضور، فحدّق أمامه، بالتأكيد دون أن يرى، وبلا شك دون أن يعرف من كان يوجد أمامه. ورفع يداً مرتعشة فأمسك بغوليالمو من صدره، وجذبه إليه إلى أن كاد الوجهان يلتصقان ثم نطق بضعف وبتهدّج بضع كلمات: «لقد قال لي ذلك... صحيح... له قوّة ألف عقرب..».

فسأله غوليالمو: «من قال لك ذلك؟ من؟»

وحاول مَلاخي أن يتكلم من جديد ولكن رعدة قويّة انتابته وسقط رأسه إلى الوراء وفقد وجهه كلّ لون وكلّ علامة للحياة. كان قد مات. نهض غوليالمو، ورأى إلى جانبه رئيس الدير، ولم يقل له كلمة. ثمّ رأى برناردو غي وراء رئيس الدير فقال له: «من قتل هذا الرجل، يا سيّد برناردو، بما أنك عثرت على المُجرمين وكلّلتهم بالأغلال؟»

فأجاب برناردو: «لا تسألني أنا. إنني لم أقل قط أنني سلّمت إلى العدالة كلّ الأشرار الذين يجولون عبر هذا الدير. لو كان بإمكاني، لفعلتُ ذلك عن طيب خاطر». ثم نظر إلى غوليالمو «ولكني أترك الآخرين لصرامة... أو لتسامح السيد رئيس الدير المُفرط»، قال ذلك بينما صمت رئيس الدير وقد امتقع وجهه. ثم ابتعد.

وفي تلك الأثناء سمعنا سقسقة، ونشيجاً غليظاً. كان يورج، الذي انحنى

Twitter: @ketab_n

على مركعه، بينما كان يشدّه راهب بعد أن وصف له ما حدث. وقال بصوت متقطّع «آه يا إلٰهي، لن يكفَّ هذا أبداً... اللّهم اغفر لنا جميعاً!»

وانحنى غوليالمو لحظة أخرى على الجثة. وأمسك الميّت من معصميه قالباً نحو النُّور راحة يديه. كانت أطراف أصابع اليد اليمنى الثلاثة الأولى داكنة.

Twitter: @ketab_n

اليوم السادس: صلاة الحمد

وفيه يعيّن قيّم جديد ولكن لا يعيّن حافظ مكتبة جديد

أكانت قد حانت صلاة الحمد؟ أم كان ذلك قبلها أو بعدها؟ منذ ذلك الحين فقدت الإحساس بالوقت. ربما تكون قد مرّت ساعات، ربما أقلّ، وجثة مَلاخي مُمدّدة فوق منصّة يحيط بها رفاقه في شكل مروحة. وكان رئيس الدير يُعطي تعليماته للجنازة الوشيكة. وسمعته يُنادي اليه بانشيو ونيكولا دا موريموندو. وقال إنه في ظرف لا يتجاوز اليوم فقد الدير حافظ المكتبة، والقيّم. وقال لنيكولا «ستقوم أنت بالمهام التي كان يقوم بها ريميجيو. أنت تعرف عمل الكثيرين هنا في الدير. ضع أحداً مكانك لمراقبة المصاهر، وتعهّد بالضروريات الأكيدة لهذا اليوم، في المطبخ وفي قاعة الأكل. ستكون مُعفى من أداء الفروض. اذهب». ثم توجه إلى بانشيو « لقد عينتك مساء أمس بالذات مساعداً لمَلاخي. افتح قاعة المكتبة وتأكد من أن لا يصعد أحد وحده إلى المكتبة». ولمّا نبهه بانشيو بتخوّف أنه لم يُعلّمه أحد بعدُ أسرار المكان، حدّق فيه رئيس الدير بصرامة مجيباً «لم يقل أحد إنك ستتعلمها. اسهر على أن لا يتوقف العمل وأن يعيشه الجميع على أنه صلاة على أرواح الرفاق الذين ماتوا... وعلى أولئك الذين سيموتون. ليشتغل كلٌّ على الكتب التي تسلّمها، ومن أراد فبإمكانه أن يراجع الفهرس. لا غير. أنت معفى من فروض صلاة السّتار، لأنك في تلك الساعة يجب أن تغلق كلّ شيء».

فسأله بانشيو «وكيف سأخرج؟»

ـ «هذا صحيح، سأغلق أنا الأبواب السفلى بعد العشاء. اذهب».

Twitter: @ketab_n

وخرج معهما، مُتحاشياً غوليالمو الذي كان يحاول التحدث إليه. وبقي فريق صغير في الرواق: أليناردو، باتشيفكو دا تيفولي، أيمارو داليسّاندريا وبترو دا سانتالبانو. وكان أيمارو يبتسم بسخرية ثم قال: «لنشكر الإله، كنا نخاف بعد موت الألماني أن يأتينا حافظ مكتبة آخر أكثر همجيّة».

فسأل غوليالمو: «من تظنّون سيسمّى في مكانه؟»

فابتسم بيترو دا سانتالبانو بغموض «بعد كلّ ما حدث هذه الأيام، لم يعد حافظ المكتبة هو المشكلة بل رئيس الدير..»..

فردّ عليه باتشيفكو «اسكت». وقال أليناردو، بنظرة الغارق دائماً في تأملاته «سيرتكبون مظلمة أخرى... كما حدث في زمني أنا. يجب التصدّي لهم».

فسأله غوليالمو «لمن»؟ ولكن باتشيفكو أخذه من ذراعه ليسارّه واصطحبه بعيداً عن الشيخ، نحو الباب ثم قال له:

ـ «أنت تعرف... إننا نحب أليناردو كثيراً. إنه يمثل بالنسبة إلينا التقاليد القديمة وأفضل أيام الدير... ولكنه يتكلم أحياناً دون أن يعرف ما يقول. كلنا مُنشغلون بخصوص حافظ المكتبة الجديد. يجب أن يكون أهلاً لذلك، ناضج الفكر وحكيماً. هذا كل ما في الأمر».

فسأله غوليالمو «أينبغي أن يكون يعرف اليونانية؟»

ـ «والعربية، هكذا يقتضي العرف، وذلك ما تتطلبه وظيفته. ولكن الكثيرين منّا لهم هذه الخصال. بكلّ تواضع أنا منهم. وبيترو، وأيمارو...»

ـ «بانشيو يعرف اليونانية».

ـ «بانشيو لا يزال حديث السن. لا أدري لماذا اختاره مَلاخي أمس كمساعد له، ولكن...»

ـ «أكان أدالمو يعرف اليونانية؟»

ـ «لا، حسب ظنّي، بل أكيد لا».

ـ «ولكن فينانتسيو كان يعرفها. وبرينغاريو أيضاً. حسناً، إني أشكرك».

ثم خرجنا إلى المطبخ لتناول بعض الأكل. فسألته:

Twitter: @ketab_n

- «لماذا تستخبر عن كل من يعرف اليونانية؟»

- «لأن كلّ أولئك الذين ماتوا وأصابعهم مسودّة كانوا يعرفون اليونانية. إذن لن نُخطئ لو انتظرنا أن تكون الجثة المُقبلة من بين من يعرف اليونانية. وأنا ضمنهم. أما أنت فقد نجوت».

- «وما رأيك في كلمات مَلاخي الأخيرة؟»

- «إنك سمعتها. العقارب. البوق الخامس ينبئ من بين الأشياء الأخرى بخروج جراد يعذّب البشر بشوكة شبيهة بشوكة العقرب. أنت تعرف ذلك. وأخبرنا مَلاخي أن أحدهم تنبأ له بذلك».

فقلتُ «ينبئ البوق السادس بخيول لها رؤوس أسود يخرج من أفواهها نار ودخان وكبريت، ويركبها فرسان تغطيهم دروع نارية وأسمانجونية وكبريتية».

- «أشياء كثيرة. ولكن يمكن أن تقع الجريمة المقبلة قرب إصطبلات الخيول. يجب مراقبتها. ولنتهيأ للبوق السابع. شخصان آخران إذن، من سيكون المعنيّان الأكثر احتمالاً؟ إن كان الهدف هو سرّ قاعة «أقصى إفريقيا» فسيكون من يعرفه معنياً. وبحسب علمي لا يوجد إلاّ رئيس الدير. إلاّ إذا كانت المُؤامرة لشيء آخر. لقد سمعتَ منذ حين أن أحداً يتآمر لإسقاط رئيس الدير، ولكن أليناردو استعمل في كلامه صيغة الجمع...»

فقلت «ينبغي إعلام رئيس الدير».

- «بماذا؟ بأنهم سيقتلونه؟ لا أملك أدلة مُقْنِعة. إنني بصدد التحري كما لو كان القاتل يفكّر مثلي. ولكن، لو كان يتبع رسماً آخر؟ أو إنه، في نهاية الأمر لا يوجد هناك قاتل؟»

- «ماذا تعني»؟

- «لا أدْري بالضبط. ولكن كما قلت لك ينبغي تصوّر كل الأنساق المُحتملة، وفي آنٍ واحد اختلالها جميعاً».

Twitter: @ketab_n

اليوم السّادس: أولى

وفيه يقصّ نيكولا أشياء عديدة أثناء زيارة قبو الكنز

كان نيكولا دا موريموندو، بصفته القيّم الجديد، يُعطي التعليمات للطباخين، الذين كانوا بدورهم يُمدّونه بمعلومات حول أعمال المطبخ. وكان غوليالمو يريد التحدّث إليه، فاستمهلنا بضع دقائق، ثم قال إنه ينبغي أن ينزل إلى قبو الكنز لمُراقبة أعمال تنظيف المذاخر التي لا تزال بعهدته، وإنه سيكون لديه هناك وقت أكثر للتحادث.

وفعلاً دعانا بعد قليل إلى أن نتبعه، ودخل إلى الكنيسة ثم مرّ وراء المذبح الكبير (بينما كان الرُّهبان يهيِّؤون منصّة في جناح الكنيسة للسّهر بجانب جثمان مَلاخي)، وأنزلنا سلّماً صغيراً وجدنا أنفسنا عند أسفله في قاعة قبابها مُنخفضة جداً تحملها أعمدة ضخمة من الحجارة المُقصّبة. كنّا في قبو الكنز حيث تُحفظ ثروات الدير، وهو مكان يغار عليه رئيس الدير غَيْرة شديدة ولا يفتح إلاّ في مُناسبة خاصة ولضيوف ذوي اعتبار كبير.

كانت هناك، منتشرة في كل أرجاء القاعة، صناديق ذات أحجام مُتفاوتة، وكان نور المِشْعَلَيْن (اللّذين أشعلهما مُساعدان أمينان يعملان مع نيكولا) يجعل ما كان بداخله، من أشياء رائعة الجمال، لامعاً. أنسجة مُذهَّبة لتزيين المذابح، تيجان من الذهب مُرصّعة بالأحجار الكريمة، علب من معادن مُختلفة نقشت عليها صور قصصية، رسوم على الفضة، وأشياء من العاج. وأرانا نيكولا بافتنان إنجيل قدّاس يُبرز تجليده صفحات رائعة من الميناء تكوّن مجموعة من الأقسام المُنتظمة والمُختلفة تفصلها خيوط من الذهب وتشدّها، عوضاً عن المسامير، أحجار

Twitter: @ketab_n

كريمة. وأرانا محراباً رقيقاً له عمودان من اللازَوَرْد ومن الذهب يُؤَطِّران مشهداً يُمثل «النزول إلى الضريح» صوّر بنقش دقيق على الفضة يعلوه صليب من الذهب مُرَصَّع بثلاثة عشر حجراً من الماس فوق خلفية من الجزع المُختلف الألوان، بينما كان المُقدّم الصغير مُحزّماً بالعقيق والياقوت. ورأيت حامل صور مُزدوجاً من العاج والذهب مُقسَّماً إلى خمسة أجزاء، تحمل خمسة مشاهد من حياة المسيح، وفي الوسط حمْل رمزي مصنوع من حُجَيْرات من الفضة المذهّبة ومن عجين الزُّجاج، وهي الصورة الوحيدة المُتعددة الألوان فوق خلفية في بياض الشمع.

وكان الاعتزاز يُنير وجه نيكولا وحركاته، عندما كان يرينا تلك التحف. وأثنى غوليالمو على جمال ما رأى منها، ثم سأل نيكولا أيّ نوع من الرجال كان مَلاخي.

فأجاب نيكولا «إنه لسؤال غريب. أنت أيضاً كنت تعرفه».

ـ «نعم، ولكن ليس بما فيه الكفاية. لم أعرف قط الأفكار التي كان يكتمها... و...» ـ ثم تردد في إصدار أحكام على شخص مات منذ قريب ـ «... إن كانت لديه أفكار».

بلّل نيكولا إصبعه بريقه ومرّره على صفحة بلّور لم تُنظّف جيداً، وأجاب بنصف ابتسامة، دون أن ينظر في وجه غوليالمو «أنت لست في حاجة إلى إلقاء الأسئلة... صحيح، يبدو مَلاخي، بحسب قول الكثيرين، غارقاً في الأفكار، ولكنه كان على العكس رجلاً بسيطاً جداً. بحسب أليناردو كان رجلاً أحمق».

ـ «أليناردو يحقد على شخص لحادثة وقعت منذ زمن، عندما رفضوا تكليفه بمهمة حافظ المكتبة».

ـ «لقد سمعت أنا أيضاً بذلك، ولكنها قصّة قديمة، تعود إلى ما يزيد عن الخمسين عاماً. عندما وصلت أنا كان حافظ المكتبة هنا روبارتو دا بوبيّو، وكان المُسنّون يتهامسون بمظلمة ضدّ أليناردو، ولكني لم أرد آنذاك أن أتحرّى الأمر، لأن ذلك كان يبدو لي قلة احترام للشيوخ ولم أكن أسمح لنفسي بالاغتياب. كان لروبارتو مُساعدٌ، مات، وعوضه سُمّي مَلاخي، الذي كان آنذاك حديث السّن

Twitter: @ketab_n

جداً. وكان الكثيرون يقولون إنه غير كُفء، وإن كان يُؤكد أنه يعرف اليونانية والعربية ولم يكن ذلك صحيحاً، لقد كان فقط قِرْداً ماهراً ينسخ بأحرف جميلة المخطوطات في تينك اللغتين، ولكن دون معرفة ما كان ينقل. كان يُقال إن حافظ المكتبة يجب أن يكون له علم أكثر من ذلك. وأليناردو، الذي كان آنذاك رجلاً في عُنفوانه، قال أشياء مريرة عن تلك التسمية. وكان يلمّح إلى أن مَلاخي عُيّن في تلك الوظيفة ليخدم مصالح خصمه، ولكنني لم أفهم من كان يعني. هذا كلّ ما في الأمر. لقد قيل دائماً إن مَلاخي كان يُدافع عن المكتبة كأنه كلب حراسة، ولكن دون معرفة ما كانت تحتوي. ومن جهة أخرى تهامسوا أيضاً بشأن برينغاريو عندما اختاره مَلاخي مساعداً له. كانوا يقولون إنه هو أيضاً لم يكن أكثر مهارة من سيّده، وإنه كان فقط دسّاساً. وقيل أيضاً... ولكنك قد تكون سمعت أنت أيضاً ذلك اللغط... إن هناك علاقة مُريبة بين مَلاخي وبينه... أشياء قد طواها الزمن، ثم أنت تعرف أنهم تهامسوا حول برينغاريو وأدالمو، وكان النّاسخون الشبّان يقولون إن مَلاخي كان، في صمت، فريسة لغيرة شديدة... ثم كانت هنالك تهامسات حول علاقات مَلاخي ويورج أيضاً! ولكن مَلاخي، كحافظ المكتبة كان ينبغي أن يختار، بحسب العُرف، رئيس الدير وأن يتّخذه كاهن اعتراف له، بينما يعترف كل الآخرين لدى يورج (أو لدى أليناردو، ولكن الشيخ يكاد يكون مجنوناً)... حسناً، كان يُقال إنه بالرغم من كلّ ذلك كان مَلاخي يتحادث كثيراً مع يورج، كما لو كان رئيس الدير يتحكّم في روحه، ولكن يورج كان يُنظّم جسده، وحركاته وعمله. ومن ناحية أخرى أنت تعرف ذلك، وربما رأيت ذلك: عندما يريد أحدهم معلومة عن كتاب قديم منسيّ، لا يسأل مَلاخي، بل يورج. كان مَلاخي يراقب الفهرس ويصعد إلى المكتبة، ولكن يورج... كان يعرف ماذا يعني كلّ عنوان...»

- «لماذا يعرف يورج كل هذه الأشياء عن المكتبة؟»

- «إنه أقدمنا، بعد أليناردو، إنه هنا منذ صغره. ربما ناهزت سنه الثمانين، ويقال إنه فَقَد نظره منذ أربعين سنة على الأقل، أو ربما أكثر...»

- «كيف فعل ليصبح بتلك الدرجة من العلم قبل العمى؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «آه، هناك أساطير تدور حوله. يبدو أن العناية الإلٰهية قد تولّته منذ كان طفلاً، وهنالك في كاستيليا كان يقرأ كتب العرب وكتب العلماء اليونانيين وهو لا يزال أمرد. وحتى بعد العمى، وإلى الآن، يجلس ساعات طوالاً في المكتبة، ويطلب أن يقرأ له أحد الفهرس، وأن تحمل إليه الكتب ويقرأ عليه أحد المبتدئين بصوت عالٍ ساعات وساعات. إنه يتذكّر كل شيء، ليس فاقد الذاكرة مثل ألينادرو. ولكن لماذا تلقي عليّ كلّ هذه الأسئلة؟»

ـ «الآن وقد مات مَلاخي وبرينغاريو، من تبقّى ممّن يعرفون أسرار المكتبة؟»

ـ «رئيس الدير، ويجب عليه أن يُلقنها إلى بانشيو... إن أراد...»

ـ «لماذا إن أراد؟»

ـ «لأن بانشيو حديث السّن، لقد سُمّي مُساعداً عندما كان مَلاخي لا يزال حيّاً، والمُساعد ليس كحافظ المكتبة. تشاء التقاليد أن يصبح حافظ المكتبة رئيس الدير من بعد...»

ـ «آه، هو ذا إذن... لذا فوظيفة حافظ المكتبة هي المُبتغاة إلى هذه الدرجة. ولكن هل كان أبّوني إذن حافظ المكتبة؟»

ـ «كلاّ، أبّوني لا. لقد سمّي قبل وصولي إلى هنا، منذ حوالى ثلاثين سنة. قبله كان رئيس الدير رجلاً يدعى باولو دا ريمني، كان رجلاً غريباً تحكى عنه قصص غريبة: يبدو أنه كان يقرأ الكتب بِنَهَم، كان يحفظ عن ظهر قلب كل كتب المكتبة، ولكنه كان يشكو من نقص غريب، لم يكن يستطيع الكتابة وكانوا يسمونه «أبّاس أغرافيكوس»... وأصبح رئيس الدير في سن مبكرة جداً، ويقال إنه كان يحظى بمساندة ألجيرداس دا كلوني، المسمّى «دكتور كوادراتوس»... ولكن كلّ هذا كان لغطاً قديماً يتلفظ به الرُّهبان. باختصار، أصبح باولو رئيس الدير، وأخذ روبارتو دا بوبيو مكانه في المكتبة، ولكنه كان مصاباً بداء مكين قضى عليه شيئاً فشيئاً، وكان الجميع يعلمون أنه لن يمكنه إدارة أمور الدير، وعندما اختفى باولو دا ريمني....»

ـ «مات؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «كلاّ، اختفى، لا أدري كيف، ذهب يوماً في سفر ولم يعد، ربما قتله بعض اللصوص أثناء السفر... بإيجاز عندما اختفى باولو لم يكن باستطاعة روبارتو أن يأخذ مكانه ووقعت دسائس غامضة. يقال إنّ أبّوني كان ابن سِفاح لسيّد هذه البقاع، وترعرع في دير فوسّانوفا، وكان يُقال إنه عندما كان شابّاً حديث السن حضر وفاة القديس توما عندما مات هنالك، وتكلّف هو بحمل تلك الجثة الضخمة نازلاً بها سلّم برج ضيّق جدّاً حتى إنه كان يبدو مستحيلاً أن تمرّ الجثة منه... تلك هي مفخرته، كما يتهامس بها الخبثاء هنا... المهم أنّه عيّن رئيساً للدير حتى وإن لم يكن قبل ذلك حافظاً للمكتبة، وأطلعه أحدهم، أظنه روبارتو، على أسرار المكتبة».

ـ «ولماذا وقع الاختيار على روبارتو؟»

ـ «لا أدري. لقد حاولت دائماً أن لا أبحث كثيراً في هذه الأشياء: أديرتنا أمكنة مقدّسة، ولكن تُحاك حول رئاسة الدير أحياناً مكائد شنيعة. كنت أهتمّ بزُجاجي وبمَذاخِري وما كنت أحبّ أن أحشر نفسي في هذه الحكايات. ولكنك تفهم الآن لماذا لا أدري إن كان رئيس الدير يريد تلقين بانشيو أسرار المكتبة، سيكون كما لو عيّنه خليفته، ذاك صبي قليل التبصّر، وهو نحوي شبه همجي، من أقصى الشمال، ماذا يعرف عن هذا البلد، عن الدير وعن علاقاته بأسياد هذه المنطقة؟..»

ـ «ولكن مَلاخي هو الآخر لم يكن إيطالياً، ولا برينغاريو، ومع ذلك عُيّنا للاهتمام بالمكتبة».

ـ «هذا أيضاً أمر غامض. يتهامس الرُّهبان بأن الدير تخلّى منذ نصف قرن عن تقاليده... ولذا، قبل ما يزيد عن الخمسين عاماً، كان أليناردو يطمح إلى منصب حافظ المكتبة. لقد كان حافظ المكتبة دائماً إيطالياً، فهذه الأرض لا تنقصها العقول العظيمة. ثم انظر...». وهنا تردّد نيكولا كما لو كان لا يريد قول ما كان على وشك قوله «انظر، مَلاخي وبرينغاريو قد ماتا، ربما حتى لا يتوليا رئاسة الدير».

Twitter: @ketab_n

ثم انتفض، وحرّك يده أمام وجهه كأنه يطرد أفكاراً غير طاهرة، ثم رسم علامة الصليب «ماذا أقول؟ انظر، في هذا البلد تقع منذ سنوات طويلة أشياء مُخزية، حتى في الأديرة وفي البلاط البابوي وفي الكنائس... صراعات للاستحواذ على السلطة، اتهامات بالهرطقة لانتزاع المال من بعض الأشخاص... يا للفظاعة، إنني أفقد الثقة بالجنس البشري، أرى مؤامرات ودسائس بلاطية في كل مكان. وهكذا أصبح هذا الدير وكراً للأفاعي، ظهر عن طريق سحر خفيّ في تلك التي كان ينبغي أن تكون خزانة أعضاء مقدّسة. انظر، انظر إلى ماضي هذا الدير!»

وكان يشير إلى الكنوز المُتناثرة حولنا، مُخلّفاً وراءه الصلبان وأشياء أخرى مقدّسة، وحملنا لنرى المذاخر التي كانت تُمثّل مصدر اعتزاز ذلك المكان.

ـ «انظر، هذه شوكة الرمح التي طعنت ضلوع المخلّص! وأشار إلى علبة من الذهب، غطاؤها من البلّور، توجد بداخلها، فوق وسادة صغيرة من الأرجوان، قطعة حديد مُثلثة الشكل، قد نخرها الصدأ، ولكن عملاً طويلاً بالزيوت وبالشمع أعادها إلى لمعان ساطع. إلاّ أن ذلك كان شيئاً قليلاً. لأنني رأيت في علبة أخرى من الفضّة المُرصّعة بأحجار الجمشت، وكان جانبها الأمامي شفافاً، قطعة من الخشب المكرَّم متأتية من الصليبِ المقدس، جلبته إلى ذلك الدير الملكة إيلينا نفسها، والدة الامبراطور قسطنطين، عندما ذهبت للحج في الأماكن المقدّسة وحفرت هضبة الجلجلة والضريح المقدّس وبنت فوقهما كنيسة كاتدرائية.

ثم أرانا نيكولا أشياء أخرى ولا يُمكنني ذكرها كلّها لوفرة عددها ولنُدرتها. كان هناك، في قنينة على فراش من الورود الصغيرة الجافة، جزء من إكليل الشوك، وفي صندوق آخر، دائماً فوق غطاء من الأزهار المُجففة، خرقة مصفرّة من سماط «العشاء السرّي». وكان هناك أيضاً كيس القدّيس متّى، بحلقاته الفضية، وفي أسطوانة، مشدودة بشريط بنفسجي قد نخره الزمن ومختوم بالذهب، عظم من ذراع القدّيسة آنّا. ورأيت، روعة الروائع، يعلوها ناقوس من الزُّجاج فوق وسادة حمراء مُطرّزة بالدّرر، قطعة من معلف بيت لحم، وشبراً من الرداء الأرجواني الذي كان للقديس يوحنّا الإنجيلي، وسلسلتين من تلك التي كبّلت الحواري بطرس

Twitter: @ketab_n

في روما، وجمجمة القديس أدالبارتو، وسيف القديس ستيفانو، وظنبوب القديسة مارغريتا، وإصبع القديس فيتالي، وضلع القديسة صوفيا، وذقن القديس أيوبانو، والجزء الأعلى من لوح كتف القديس كريزوستومو، وخاتم خطوبة القديس يوسف، وسنّ المعمدان، وعصا موسى، وتطريزاً صغيراً، متآكلاً ونحيفاً جداً من ثوب زفاف مريم العذراء. وأشياء أخرى لم تكن بقايا قديسين ولكنها كانت تمثل مع ذلك شواهد لمعجزات ولمخلوقات غريبة متأتية من بقاع نائية، جلبها إلى الدير رُهبان سافروا إلى أقصى حدود الدنيا: حرذون وأفعى محشوّان بالتبن، وقرن وحيد القرن، وبيضة وجدها ناسك داخل بيضة أخرى، وقطعة من المنّ التي غذّت اليهود في الصحراء، وسن حوت، وجوزة هند، وعضد دابّة عاشت قبل الطوفان، وناب فيل من العاج، وضلع دلفين، ورُفات أخرى لم أتعرّف عليها، وربما كان صندوقها أثمن منها، وبعضها (إذا ما اعتبرنا كيفية صنع صناديقها، من فضة قد اسودّ لونها) كان قديماً جداً، ومجموعة لا تنتهي من شظايا عظام، وقطع من القماش واللوح والمعدن والزُّجاج، وقناني مليئة بمساحيق داكنة، علمت أن واحدة منها كانت تحوي بقايا مُحترقة من سدوم، وأخرى تحوي جيراً من أسوار أريحا. كلها أشياء، حتى أحقرها، يهب من أجلها أيّ امبراطور أكثر من إقطاع، وتمثل رصيداً عظيم المهابة ولكن أيضاً ثروة مادية حقيقية بالنسبة إلى الدير الذي كان يستضيفنا.

وكنت أُتابعُ طوافي مُندهشاً، بينما كان نيكولا قد كفّ الآن عن وصف الأشياء، التي كانت على كلّ حال موصوفة كلّ واحدة بورقة، وأصبحت حرّاً في التجول دون هدف عبر ذلك الذخر من الروائع التي لا يمكن تقدير ثمنها، وأنا أنظر بإعجاب إلى تلك الأشياء التي كانت أحياناً تظهر في وضح النُّور وأحياناً تتراءى لي في العتمة حين يتحوّل مُساعدا نيكولا بمشعليهما إلى نقطة أخرى من القبو. كنت مفتوناً بتلك الغضاريف المصفرّة، الروحانية والمنفرة في آن واحد، الشفّافة والغامضة، وبتلك الخرق من أثواب عهود غابرة، قد فقدت لونها وانسلت خيوطها، ملفوفة أحياناً في قنينة كأنها مخطوط شاحب اللون، وبذلك الفتات من المواد المُمتزجة بالقماش الذي يصلح فراشاً لها، فتات مقدس لحياة كانت في ما

Twitter: @ketab_n

مضى حيوانية (وعقلانية) والآن وهي سجينة في أوعية من بلّور أو من معدن تُحاكي في حجمها الضئيل جُرأة الكنائس الكاتدرائية المُشيّدة بالحجارة بأبراجها وبسهامها، وكأنها تحوّلت هي أيضاً إلى مادّة معدنية. فهل تنتظر أجساد القديسين، وهي مدفونة هكذا، يوم البعث؟ من هذه الشظايا ستتكوّن من جديد تلك الأجساد التي ستستعيد في إشعاع الرؤية الإلْهية، كل حساسيتها الطبيعية وستحسّ، كما كان يكتب بيبارنو حتى بـ «أدنى الفوارق بين العطور»؟ ونبهتني من تأملاتي لمسة على كتفي. كان غوليالمو، الذي قال لي: «إنني ذاهب. سأصعد إلى قاعة الكتابة. هناك شيء أريد الاطلاع عليه..».

فقلت «ولكن لن يمكنك أن تحصل على أي كتاب. لقد تلقى بانشيو أوامر..»..

ـ «يجب أن أفحص الكتب التي كنت بصدد قراءتها في يوم فارط، ولا تزال كلها في قاعة الكتابة فوق طاولة فينانتسيو. ابقَ أنت هنا إن أردت وهذا القبو هو خُلاصة رائعة للمُجادلات التي استمعت إليها هذه الأيام. والآن عرفت من أجل ماذا يتناحر زُملاؤك هؤلاء، عندما يطمحون لمنصب رئيس الدير».

ـ «ولكن، أتصدّق ما لمّح به إليك نيكولا؟ كانت الجرائم إذن من أجل الحصول على المنصب؟»

ـ «لقد قلت لك إنني لا أريد حاليّاً أن أجازف بإعلان أي افتراض بصوت جهير. لقد قال نيكولا أشياء كثيرة. وجلب بعضها اهتمامي ولكنني أذهب الآن لتتبّع أثر آخر. أو ربما هو الأثر نفسه، ولكن من وجهة أخرى. ولا تفتتن كثيراً بهذه المذاخر. لقد رأيت الكثير من قطع الصليب في كنائس أخرى. لو كانت كلها أصلية، لكان سيّدنا قد صلب، لا على لوحتين مُتقاطعتين، بل على غابة كاملة».

فأجبت مُستنكراً منه ذلك «سيدي!».

ـ «هو كذلك يا أدسو. وهُناك كنوز أكثر ثراء. رأيت منذ مدّة في كاتدرائية كولونيا جمجمة يوحنّا المعمدان وهو في سن الثانية عشرة».

Twitter: @ketab_n

فهتفت بإعجاب «حقاً؟» ثم ساورني الشك «ولكن المعمدان قُتل في سنّ أكبر!»

فأجاب غوليالمو بجدية «تكون الجمجمة الأخرى في كنز آخر».

لم أكن أفهم أبداً متى كان يمزح. في بلادي عندما يمزح أحد، يقول شيئاً ثم يضحك مُحدثاً ضجة كبيرة، بحيث يشارك الجميع في المزاح. ولكن غوليالمو كان يضحك فقط عندما يقول أشياء جادّة، بينما يحافظ على وقاره عندما ينطق بأشياء من الواضح أنه قالها على سبيل المزاح.

Twitter: @ketab_n

اليوم السّادس: ثالثة

وفيه يجد أدسو نفسه، وهو يستمع إلى نشيد «يوم الغضب»، داخل حلم أو رؤيا كما شئنا أن نقول

حيّا غوليالمو نيكولا ثم صعد إلى قاعة الكتابة. وكنت أنا قد شاهدت الكنز بما فيه الكفاية، وقررت أن أذهب إلى الكنيسة للصلاة ترحُماً على روح مَلاخي. لم أحبّ قط ذلك الرجل الذي كان يُخيفني، ولا أخفي أنني ظننته لمدة طويلة مُرتكب كلّ الجرائم. الآن عرفت أنه ربما كان إنساناً مسكيناً، تُضْنِيْه شهوات لم يقدر على إرضائها، وعاء من طين وسط أوعية من حديد، قد أصبح حزيناً لأنه كان حائراً وأصبح صامتاً ومُراوغاً لأنه كان يعلم أنه ليس لديه شيء يقوله. كنت أحسّ نحوه بشيء من النّدم وظننت أن الصلاة على مصيره الغيبي يمكن أن تهدئ من إحساسي بالذنب.

كان يُنير الكنيسة ضياء شاحب وضعيف ويسيطر عليها جثمان الهالك وتسكنها همسات الرُّهبان المُنتظمة بينما كانوا يتلون فرض الأموات.

كنت قد حضرت عدة مرات في دير «مالك» وفاة زميل من الزملاء. لا يُمكنني أن أقول إنه ظرف مُبهج، ولكنه كان مع ذلك هادئاً، تسوده الطمأنينة ويغمره شعور بالعدالة. كانت تتعاقب زياراتنا إلى حجرة المحتضر لمواساته بكلمات جميلة، وكل منا يقول في دخيلته كم المحتضر محظوظ، لأنه بصدد تتويج حياة فاضلة وإنه بعد قليل سيلتقي الملائكة في الحبور الذي لا نهاية له. وجزء من تلك الطمأنينة، وعبير تلك الأمنية المقدسة يصل إلى المحتضر، الذي يموت في النهاية مطمئناً. كم كانت ميتات تلك الأيام الأخيرة مُختلفة. لقد رأيت أخيراً من قريب كيف تموت ضحية عقارب «أقصى إفريقيا» الشيطانية. وأكيد أنّ

Twitter: @ketab_n

فينانتسيو وبرينغاريو قد ماتا بالطريقة نفسها، باحثيْن عن تسكين لألميْهما في الماء، وقد أصبح وجهاهما في حالة وجه مَلاخي نفسها...

جلست في آخر الكنيسة وانكمشت على نفسي لمقاومة البرد. أحسست بقليل من الدفء، وحرّكت شفتيّ لمصاحبة أصوات الزملاء المصلين. وكنت أتبعهم دون أن أتفطّن أو لا أكاد إلى ما كانت تقوله شفتاي، ورأسي يتمايل وعيناي تنغلقان. ومرّ وقت طويل، أظن أنني نمت خلاله واستيقظت على الأقل ثلاثَ مرّات أو أربعاً. ثم أخذت المجموعة تنشد «يوم الغضب» وأخذني إنشاد المزامير كالمُخدّر. ونِمْتُ تماماً. أو ربما يكون من الأفضل أن أقول إنني سقطت مُنْهَكاً، في همود مُضطرب، مُنطوياً على نفسي كمخلوق لا يزال سجين بطن أمه. وفي ضباب الروح ذاك وجدت نفسي في مكان ليس في هذه الدنيا، وعشت رؤيا، أو حُلماً لا أدري.

كنت أدخل عبر سُلم ضيّق في دهليز سُفلي، كما لو كنت أدخل إلى قبو الكنز، ولكنني أصل، وأنا أنزل دائماً، إلى قبو أوسع، كانت مطابخ الصّرح. كانت دون شك المطابخ، ولكنها لم تكن تعجّ فقط بالأفران وبالقصاع، ولكن أيضاً بمنافخ الحدادة وبالمطارق كما لو تجمّع فيها حدّادو نيكولا. كانت كلّها وميضاً أحمر بالقلاّيات والقدور والطناجر التي كانت تغلي وتبعث الدخان بينما كانت تصعد من سطح السوائل التي تملأها فقاعات كبيرة تطقطق وتتفرقع بعد ذلك مُحدثة صوتاً أصمّ ومُتواصلاً. وكان الطبّاخون يُحرّكون سفافيد في الهواء بينما كان الرُّهبان المُبتدئون، الذين تجمّعوا كلهم هناك، يقفزون للظفر بالفراخ وبالدواجن الأخرى المُشبّكة في ذلك الحديد الحامي. ولكن حذوهم، كان الحدادون يضربون المطارق بشدّة حتى إن الفضاء كله كان يصمّ، وسحابات من الشرارات كانت تصعد من السنادين مُختلطة بتلك التي كان يبعثها الفُرنان.

لم أكن أفهم إن كنت في الجحيم أو في فردوس، كما يمكن أن يتخيّله سلفاتوري، يسيل بالمرق ويختلج بالنقانق. ولكن لم يكن لي الوقت لأتساءل أين أجد نفسي، لأن طُغمة من الرجال القصار، من الأقزام القباح، برؤوس كبيرة كأنها قدور، دخلت تعدو وفي اندفاعها حملتني معها إلى عتبة قاعة الأكل وأجبرتني على الدخول.

Twitter: @ketab_n

كانت القاعة مُعدّة لحفل. سُجوف كبيرة ورايات كانت تتدلّى على الجدران، ولكن الصور التي كانت تُزخرفها لم تكن تلك التي تستدعي خشوع المؤمنين أو التي تُعظّم أمجاد الملوك. بل كانت تبدو مُستوحاة من حواشي أدالمو، ومن بين رسومه كانت تنقل الأقل هَوْلاً والأكثر مَجُوناً: أرانب ترقص حول شجرة النعيم، أنهار تسبح فيها أسماك ترمي بنفسها تلقائياً في مقلاة تمسك بها قردة لابسة زي أساقفة طُهاة، وحوش ذوات بطن سمين ترقص حول قدور يتصاعد بُخارها.

كان يجلس إلى وسط المائدة رئيس الدير، بلباس الحفل في ثوب أرجواني كبير ومُطَرَّز، مُمْسِكاً بفُرْشاته وكأنها صولجان. بجانبه، كان يورج يشرب من إبريق كبير من الخمر، والقيّم، بلباس مثل لباس برناردو غي، كان يقرأ بخشوع، من كتاب في شكل عقرب، حياة القديسين وفقرات من الإنجيل، ولكنها كانت حكايات تقول إن المسيح كان يُمازح الحواري* قائلاً له إنه حجارة وإنه على تلك الحجارة العديمة الحياء التي تتدحرج عبر السهل سيؤسس كنيسته، أو حكاية القديس جيرولامو الذي كان يشرح الكتاب المقدّس قائلاً إن الرّب كان يريد أن يكشف عن عجز القدس. وعند كل جملة يقولها القيّم كان يورج يضحك ويضرب بجمع يديه على المائدة، ويصيح «ستكون أنت رئيس الدير المُقبل، يا بطن الرّب!» كان يقول فعلاً ذلك، ليغفر لي الإله.

وعند إشارةٍ لَعُوبة من رئيس الدير دخل موكب العذارى. كان صفّاً مُشعّاً من الإناث بأثواب فاخرة، وفي وسطهن تهيأ لي لأول وهلة أني أرى أمّي، ثم تفطّنت إلى الانخداع، لأنها كانت دون شك تلك الفتاة الرهيبة كجيش بألوية. إلا أنها كانت تحمل تاجاً من الدُّرَر البيضاء على صَفَّيْن، وشلالان من الدُّرَر كانا ينحدران على جانبي وجهها مُختلطين بصفين آخرين من الدُّرَر يتدليان على صدرها وماس كبير كأنه بُرْقوق كان يتدلّى من كلّ درّة. وزيادة على ذلك كان يتدلّى من كلّ أذن صفّ من اللآلئ الزرقاء يلتقيان في شكل درع عند أسفل عنقها، الذي كان أبيض ومُستقيماً كأنه برج لبناني. وكان مِعطفها في لون الأرجوان وتمسك كأساً من

* يعني بطرس (Petrus أو Pierre) وهو تلاعب بالألفاظ لأنّ الاسم يعني «حجارة» [المترجم].

Twitter: @ketab_n

الذهب مُرصّعة بالماس علمت، ولا أدري كيف، أنه يحتوي على الدهان القاتل الذي سُرق يوماً من سيفيرينو. وكانت تتبع تلك المرأة، الجميلة كالفجر، إناث أخريات، تلبس إحداهن مِعطفاً أبيض مُطرّزاً فوق ثوب داكن يُزينه بَطْرَشِيلان من الذهب مُزركشان بزهور الحقول. وكانت الثانية ترتدي مِعطفاً دمشقياً أصفر، فوق ثوب وردي شاحب مُزركش بأوراق خضراء وبمربّعيْن كبيريْن مُطرزين في شكل متاهة داكنة. وكانت الثالثة ترتدي مِعطفاً أحمر وثوباً زمردياً نسجت عليه حيوانات صغيرة حمراء، وكانت تحمل بين يديها بَطْرَشِيلاً مُطرّزاً وأبيض اللون. ولم أنتبه للباس الأخريات لأنني كنت أحاول أن أفهم من هنّ اللاتي يُرافقن الفتاة، التي أصبحت الآن تشبه مريم العذراء. وكأنما كانت كل واحدة منهن تحمل في يدها، أو تخرج من فمها كتابة، عرفت أنهن راعوث، سارة، وسوزانّا ونساء أخريات من الكتابات المقدسة.

عند ذلك الحدّ صاح رئيس الدير «ادخلوا، يا أولاد العاهرة!» ودخلت إلى القاعة مجموعة من الشخصيات المقدسة، تعرفت عليها جيّداً، مصطفة بنظام في لباس بسيط ورائع، وفي وسط المجموعة كان يجلس سيدنا على عرش، ولكنّه كان في الوقت نفسه آدم، يلبس مِعْطَفاً أرجوانياً يشدّه على الكتفين إكليل كبير أحمر وأبيض من ياقوت ودرّ، وعلى رأسه تاج يشبه تاج الفتاة، وفي يده كأس أكبر مليئة بدم الخنازير. وشخصيات مُقدّسة أخرى كنت أعرفها جيداً، وسأتحدث عنها فيما بعد، كانت تحيط به في شكل تاج، مع مجموعة من نبّالي ملك فرنسا، بلباس تارة أخضر وتارة أحمر يحملون دروعاً زُمُرُّدِيَّة رسمت فوقها طُغراء المسيح وتقدّم قائد تلك المجموعة لتحية رئيس الدير، مادّاً إليه الكأس، وقال:

Sao ko kelle terre per kelle fini ke ki kontene, trenta anni le possette parte sancti Benedicti

فأجاب رئيس الدير: «Age primum et septimum de quatuor» وأنشد الجميع «In finibus Africae, amen» ثم جلسوا.

وعندما تفرّق الجمعان، وبأمر من رئيس الدير أخذ سليمان يعدّ المائدة فجلب يعقوب وإندراوس حزمة من التبن وتنصّب آدم في الوسط واضطجعت حواء على ورقة ودخل قابيل يجرّ محراثاً وجاء هابيل بسطل ليحلب برونيلّو ودخل نوح

Twitter: @ketab_n

دخول الظافر وهو يُجذّف فوق المركب وجلس إبراهيم تحت شجرة وتمدّد إسحاق فوق مذبح الكنيسة الذهبي، وجثا موسى على حجرة، وظهر دانيال على منصّة جنائزية وذراعه في ذراع مَلاخي واستلقى طوبيا على فراش وارتمى يوسف فوق مدّ وتمدَّد بنيامين على كيس، ثم، ولكن هنا أصبحت الرؤيا مشوشة، كان داود على جبل صغير ويوحنّا على الأرض وفرعون على الرمل (بطبيعة الحال، قلت لنفسي، ولكن لماذا؟) ولعازر على الطاولة، وعيسى على حافة بئر وزَكّا على أغصان شجرة ومتّى على مقعد دون ظهر، وراحاب على مشاقة وراعوث على التبن وتيكلا على رفّ شباك (ومن الخارج ظهر وجه أدالمو الشاحب ينبّهها إلى أنها قد تسقط، إلى أسفل في قاع المنحدر) وسوزانا في المبقلة ويهوذا بين القبور وبطرس على المنبر ويعقوب على شبكة وإيليّا على سرج وراحيل على حزمة من الحطب، وبولس الحواري، بعد أن وضع سيفه، كان ينصت إلى عيسُو الذي كان يُغمغم، بينما أيّوب كان يتأوّه فوق الزبل وجرت لإغاثته رفقة حاملة ثوباً، وجيوديتا غطاءً، وهاجر كفناً، وبعض الرُّهبان المبتدئين كانوا يملأون قِدراً كبيرة يتصاعد منها البخار وقفز من داخلها فينانتسيو دا سالفيماك، مُحمرّ اللون، وأخذ يفرّق نقانق خنزير.

وكانت قاعة الأكل تكتظ أكثر فأكثر والجميع يأكلون بِنَهَم، وحمل يونس إلى المائدة قرعاً وأشعيا خُضَراً، وحزقيال توتاً، وزَكّا أزهار جميزة، وآدم ليموناً، ودانيال ترمساً، وفرعون فلفلاً، وقابيل خرشفاً، وحواء تيناً، وراحيل تفاحاً، وأنّنايا برقوقاً كبيراً كأنه أحجار ماس، وليئة بصلاً، وهارون زيتوناً، ويوسف بيضة، ونوح عنباً، وشمعون نوى خوخ، بينما كان عيسى ينشد «يوم الغضب» ويصبّ بجذل على كل الأطعمة خلاً يعصره من إسفنجة صغيرة أخذها من رمح أحد نبّالي ملك فرنسا.

وعند ذلك الحد قال رئيس الدير وقد ثمل «يا أبنائي، يا نِعاجي أنتم كلكم، لا يمكن أن تتعشوا بلباس مثل هذا كأنكم شحّاذون، اقتربوا، اقتربوا»، وضرب الأول والسابع من بين الأربعة فخرجا ممسوخين كأنهما شبحان من قاع مرآة، وانفجرت المرآة إلى شظايا، وسقطت منها على الأرض، في كل قاعات المتاهة، أثواب مُختلفة الألوان مرصّعة بالأحجار، كلها بالية وممزّقة. وأخذ زَكّا ثوباً أبيض

Twitter: @ketab_n

وابراهيم أرقشَ، ولوط كبريتياً، ويونس إسمنجونياً، وتيكلا قرمزياً، ودانيال أنمرَ، ويوحنا متقزّحاً، وآدم مفرّى، ويهوذا نقوداً فضية، وراحاب أرجوانياً، وحواء في لون شجرة الخير والشر، ومنهم من أخذه مبرقشاً، أو رصاصياً، أو برفيرياً أو أردوازياً، أو أسمر ذهبياً، أو مريّقاً، أو نحاسياً مسخّماً وصفيراً وفي لون النار والكبريت، وكان عيسى يتبختر في ثوب متموّج اللون، ويتهم يهوذا ضاحكاً بأنه لا يعرف أبداً المزاح في حبور خليّ البال.

وعند ذلك الحد، وبعد أن خلع عنه العدستين الصالحتين للقراءة ألهب يورج عَوْسَجاً مُلْتَهِباً، وجلبت لذلك سارة الحطب، جمعه يافث، وأفرغه اسحاق وقطعه يوسف وبينما كان يعقوب يفتح البئر ودانيال يجلس قرب البحيرة، كان الخدم يحملون ماء ونوح خمراً، وهاجر قربة وإبراهيم عجلاً ربطته راحاب إلى عمود وكان عيسى يمدّ الحبل وإيليا يوثق ساقيه: ثمّ علّقه أبشالوم من شعره، ومدّ بطرس السيف وقابيل قتله، وهيرودس صبّ دمه، وسام رمى بالمصارين والروث، ويعقوب وضع الزيت، ومولسّادون الملح، وأنطيوكو وضعه على النار، ورفقة طهته، وحواء أول من ذاقته وأصابها منه وجع، ولكن آدم قال لها لا تغتمي وهو يضرب على كتفي سيفيرينو الذي كان يَنْصح بإضافة بعض الأعشاب الفوّاحة. وعندئذٍ قطع عيسى الخبز، وفرّق السمك، وكان يعقوب يصيح لأن عيسُو أكل كل عدسه، وإسحاق يلتهم وحده جِدياً طُبخ في الفرن ويونس حوتاً كبيراً مسلوقاً، وعيسى بقي صائماً أربعين يوماً وليلة.

في الأثناء كان الجميع يدخلون ويخرجون وأيديهم مُحَمَّلة بكل أنواع الطرائد. وكان بنيامين يأخذ أوفر قسط منها ومريم أفضل جزء، بينما كانت مَرْتا تتشكّى أنه عليها هي دائماً أن تغسل كلّ الصحون. ثم تقاسموا العجل الذي أصبح في الأثناء ضخماً، فأخذ يوحنّا الدماغ وأبشالوم الرقبة وهارون اللسان وشمشون الفكّ وبطرس الأذن وأولوفارني الرأس (مع يوحنا) وليئة العَجُز وشاول العنق ويونس الكرش وطوبيا المرارة وحواء الضلع ومريم الثدي وإليزابيتا البطن وموسى الذنب ولوط الساقين وحزقيال العظام وفي الأثناء كان عيسى يلتهم حماراً والقديس فرانشسكو ذئباً وهابيل نعجة وحواء شيقاً والمعمدان جرادة وفرعون أخطبوطاً

Twitter: @ketab_n

(بطبيعة الحال، قلت لنفسي، ولكن لماذا؟) وكان داود يأكل ذُراحاً، مُرتمياً على صبيّة سوداء ومليحة، بينما كان شمشون يعضّ مُؤخرة أسد وتيكلا تهرب وهي تصيح لأن عنكبوتاً أسود وكثيف الشعر كان يلاحقها.

من الواضح أنهم أصبحوا الآن كلهم سكارى، وبعضهم كانت تزلّ قدماه على الخمر، وبعضهم يسقط في القدور فلا تبرز منه إلاّ ساقاه المتقاطعتان كأنهما عمودان، وكانت أصابع عيسى كلّها سوداء وهو يمدّ أوراق كتاب ويقول خذوا وكلوا، هذه ألغاز سينفوزيوس ومن بينها لغز السمك الذي هو ابن الرّب ومخلّصكم. وكانوا كلّهم يشربون، عيسى نقيع زبيب ويونس خمراً مارسيكية، وفرعون خمراً سورانتينية (لماذا؟) وموسى خمر قصب وإسحاق خمر جزيرة كريت وهارون خمراً أدريانية وزكّا خمراً محروقة وتيكلا نبيذاً مساوراً ويوحنا خمراً ألبانيّة وهابيل خمراً كمبانيّة ومريم خمراً سنينية وراحيل خمراً فلورنسية.

وكان آدم يُقرقر مبطوحاً والخمر يخرج من ضلعه ونوح يلعن في النوم حام وأولوفارنو يَغِطّ دون أن يتفطّن إلى شيء ويونس كان غارقاً في النوم وبطرس ساهراً إلى صياح الديك واستيقظ عيسى فجأة على صوتَيْ برناردو غي وبرتراندو دل بودجيتو اللّذين كانا يقترحان حرق الفتاة، وصاح «يا أبتِ، إن أمكن مدّ لي تلك الكأس أتجرّعها!» ومنهم من كان يُسيء خلط الشراب، ومن كان يحسن الشرب، ومن كان يموت وهو يضحك ومن كان يضحك وهو يموت، ومن كان يحمل قناني ومن كان يشرب في كؤوس الآخرين. وكانت سوزانّا تصيح إنها لن تبيح أبداً جسدها الجميل الأبيض إلى القيّم وإلى سلفاتوري مقابل قلب ثور حقير، وكان بيلاطُس يطوف في قاعة الأكل كنفس حائرة طالباً ماء ليديه، والأخ دولتشينو، بريشة فوق قبّعته يحمل الماء إليه، ثم يفتح ثوبه ضاحكاً بسخرية ويظهر أسفل بطنه محمرّاً بالدم، بينما كان قابيل يسخر منه مُحتضناً مارغريتا دا ترانتو الجميلة: فيأخذ دولتشينو في البكاء ويذهب ليضع رأسه فوق كتف برناردو غي مُسَمّياً إياه البابا الملائكي، وأوبارتينو يواسيه بشجرة الحياة، وميكيلي دا تشيزينا بكيس من الذهب، والعذارى يرششنه بأدهان وآدم يقنعه بعضّ تفاحة قُطفت لحينها.

Twitter: @ketab_n

وعندئذٍ انفتحت قِباب الصرح ونزل من السماء روجر بيكون فوق آلة طائرة، يقودها رجل واحد. ثم عزف داود على القيثارة ورقصت سالومي ببراقعها السبعة وعند سقوط كل برقع كانت تنفخ في أحد الأبواق السبعة وتكشف أحد الأختام السبعة إلى أن بقيت فقط المرأة المتسربلة بالشمس. وكانوا كلهم يقولون إنهم لم يروا قطّ ديراً بهيجاً كهذا، وكان برينغاريو يرفع ثوب كل واحد، رجالاً ونساء، ويقبّلهم على أدبارهم. ثمّ بدأ الرقص، كلّ بزِيّ مُختلف: فهذا عيسى معلّم ويوحنا حارس وبطرس مصارع ونمرود صياد ويهوذا واشٍ وآدم جنائني وحواء حائكة وقابيل سارق وهابيل راعٍ ويعقوب حاجب وزكريا كاهن وداود ملك، وجوبال شاعر، وجياكومو صياد سمك، وأنطيوكو طاهٍ، ورفقة ساقية ومولِسّادون أبله ومَرْتا خادمة وهيرودس مجنون أعمى وطوبيا طبيب ويوسف نجّار ونوح سكران وإسحاق فلاح وأيوب حزين ودانيال قاضٍ وتامار بغيّ ومريم سيّدة وكانت تأمر الخدم بأن يأتوا بخمر أخرى بما أن إبنها كان لا يريد أن يحوّل الماء إلى خمر.

ودخل عند ذلك رئيس الدير غاضباً غضباً شديداً قائلاً إنه نظّم حفلة بتلك الروعة ولم يُهدِه أحد شيئاً: وعندئذٍ تنافس الجميع لتقديم الهدايا والكنوز إليه، ثور ونعجة وأسد وجمل ووعل وعجل وفرس، وعربة شمسية، وذقن القديس أيوبانو، وذنب القديسة موريموندا، ورحم القديسة أروندالينا، ورقبة القديسة بورغوزينا منحوتة كأنها كأس، في سن الثانية عشرة، ونسخة من «مُخَمّس سليمان». ولكن رئيس الدير أخذ يصيح أنهم بفعلهم ذلك كانوا يحاولون أن يُلهوه، وأنهم كانوا في الحقيقة يَنْهبون قبو الكنز، حيث كنّا نوجد كلنا الآن، وأن كتاباً نفيساً جداً، يتحدث عن العقارب وعن الأبواق السبعة، قد سُرق ونادى نبّالي ملك فرنسا كي يفتشوا كل المشتبه فيهم. فوجدوا، أمام خجل الجميع، نسيجاً مُختلف الألوان فوق هاجر وختماً ذهبياً فوق راحيل ومرآة من الفضة في حضن تيكلا ومحقناً للشراب تحت ذراع بنيامين وغطاء من الحرير بين أثواب جيوديتا ورمحاً في يد لونجينو وزوجة رجل آخر بين ذراعي أبيمالك. ولكن حدث أسوأ من ذلك عندما وجدوا ديكاً أسود عند الفتاة، التي كانت سوداء ورائعة الجمال مثل قِطّ من اللون نفسه، ووسموها بأنها ساحرة ورسولة زائفة، وما كان إلاّ أن ارتمى الجميع عليها لمعاقبتها. المعمدان قطع رأسها وهابيل ذبحها وآدم طردها ونَبُوخَذْنصّر رسم بيد

Twitter: @ketab_n

ملتهبة علامات بروجية فوق ثدييها، وإيليا خطفها فوق عربة من نار ونوح غطّسها في الماء ولوط حوّلها إلى تمثال من الملح وسوزانا اتّهمتها بالفجور ويوسف خانها مع امرأة أخرى وأنانيا أقحمتها في أتون وشمشون قيّدها وبولس جلدها وبطرس صلبها ورأسها إلى أسفل وستيفانو رجمها ولورانسو أحرقها فوق المشواة وبارتولون نزع جلدها ويهوذا وشى بها والقيّم حرقها وبطرس كان ينكر كل شيء. ثم ارتمى الجميع على ذلك الجسد يلقون فوقه الغائط ويضرطون فوق وجهها ويبولون فوق رأسها ويتقيأون فوق ثدييها وينتفون شعرها ويضربون عجيزتها بمشاعل ملتهبة. وأخذ الآن جسد الفتاة، الذي كان رائعاً وعذباً، يتجرّد من لحمه وينقسم إلى شظايا كانت تتفرق بين مذاخر القبو وصناديقه البلورية والذهبية. أو بالأحرى لم يكن جسد الطفلة هو الذي يملأ القبو، بل شظايا مذاخر القبو، التي في دورانها، كانت تلتئم لتكوّن جسد الفتاة، الذي أصبح الآن شيئاً معدنياً، ثم تفكك من جديد وتلاشى، ذرّات غبار مقدسة من قطع جمعها الكفر المجنون. فكأن جسماً ضخماً تفتّتت خلال آلاف السنين أجزاؤه، وأن هذه الأجزاء أخذت مكانها لتحتل كلّ القبو، بإشعاع أكثر ولكن دون أن تكون مُختلفة عن مَعْظَمة الرُّهبان الموتى، وكما لو كانت الهيئة الجوهرية لجسد الإنسان نفسه، الذي هو روعة الخلق، تفتتت إلى أشكال عرضية مُتعددة ومُتفرقة، لتصبح هكذا صورة لنقيضه نفسه، شكلاً لم يعد مثالياً بل أرضي، لغبار وشظايا نتنة، لا تستطيع أن تعني أكثر من موت ودمار.

لم أعد أرى الآن أشخاص الوليمة، والهِبات التي قدموها، كما لو أنّ كل ضيوف الوليمة قد أصبحوا الآن في القبو مُحَنَّطين كلّ في بقاياه، وقد أصبح كل واحد صورة مجازية شفّافة من نفسه، راحيل عظم، ودانيال سِنّ، وشمشون فكّ، وعيسى خرقة ثوب أرجواني. كما لو أنه، في ختام المأدبة، عندما تحوّل الحفل إلى مجزرة الفتاة، تحولت تلك المجزرة إلى مجزرة كونية وشاهدتُ أنا نتيجتها النهائية، تلك الأجساد (ماذا أقول! الجسم الأرضي والدنيوي بأكمله لأولئك المشاركين في الأكل النَّهِمين والمُتَعَطِّشين) التي استحالت جسداً واحداً ميتاً، مقطّعاً ومعذباً كجسد دولتشينو إثر التعذيب، وقد أصبح كنزاً مُتعَفِناً ومُتَألِقاً، مُمدّداً على طوله كجلد حيوان مُعَلّق، ولكنه كان لا يزال يحمل الأحشاء وكل الأعضاء مُتَحَجِّرة، مع الجلد، وحتى تقاسيم الوجه نفسها. الجلد بكل ثناياه وتجعيداته

Twitter: @ketab_n

وآثار جروحه، بسهوله المخملية، وبغابات الشعر، شعر الجلد، والصدر والعورة، التي أصبحت حريراً دمشقياً فاخراً، والثديين، والأظافر، والمواد القرنية تحت القدم، وخيوط الجفون، ومادة العيون المائية، وهبرة الشفتين، وفقرة الظهر النحيفة، وهندسة العظام، وقد تحول الكل إلى طحين رملي، ومع ذلك دون أن يفقد أي منها صورته وموضعه المناسب، والساقان مفرغتان ورخوتان كأنهما جوربان، ولحمهما موضوع بجانبهما كأنه حلّة قداس بكلّ زخرفة العروق القرمزية، وكومة الأحشاء المنقوشة، وياقوت القلب الكثيف والمخاطي والصف اللؤلؤي من الأسنان المتساوية والمتناسقة في شكل قلادة، مع اللسان كأنه قرط وردي وأزرق، والأصابع مصففة كالشموع، وختم السرة الذي يعيد ربط خيوط سجّادة البطن المبسوطة... ومن كل جهة، من جهات القبو، كان ذلك الجسد الضخم المقسّم إلى صناديق مخلفات والى مذاخر، ومع ذلك كان من جديد مركّباً في كليّته الضخمة واللاعقلانية، يضحك الآن لي ويسخر مني، ويهمس إليّ ويدعوني إلى الموت، وكان ذلك الجسد نفسه الذي كان يأكل أثناء العشاء وينط بفجور، والذي يبدو لي الآن على العكس، قد تجمّد في لامساسية هلاكه الأصمّ والأعمى. وكان أوبارتينو يهمس اليّ وهو ماسك بذراعي ويكاد يغرس أظافره في لحمي «انظر، إنه الشيء نفسه، ذلك الذي كان يتباهى بجنونه ويلتذ بلهوه، هو ذا الآن معاقب ومجازى، ومحرّر من إغراءات الشهوات، جمّده الأزل، وقد سُلِّم إلى الجليد السرمدي كي يحفظه ويطهره، وخُلِّص من الفساد عبر انتصار الفساد، لأنه لا شيء يقدر أن يحوّل إلى غبار ما هو غبار ومادّة معدنية، والموت هو راحة المسافر ونهاية كلّ تعب».

ولكن دخل فجأة سلفاتوري إلى القبو، مُلْتَهِباً كأنه شيطان شقي، وصاح «أيها المغفل! ألا ترى أنه الوحش الكبير، بهيموث الذي يتحدث عنه سفر أيوب! ممّ تخاف يا سيدي الصغير؟ هي ذي فطيرة الجبن المرفوس!» وفجأة أضيء القبو بوميض محمرّ وإذا به في المطبخ من جديد ولكنه كان يشبه أكثر قاعَ بطنٍ كبيرة، مخاطياً ولزجاً، وفي وسطه وحش أسود كالغراب له ألف يد، مشدود بسلاسل إلى مشواةٍ كبيرة، وكان يمدّ أعضاءه تلك ويمسك بأولئك الموجودين حوله، وكالجلف الذي يعصر عنقود العنب عندما يحسّ بالعطش، كان ذلك الوحش الكبير يضغط

Twitter: @ketab_n

بقوة على الذين أمسك بهم فيهشمهم جميعاً بيديه، يكسر ساق هذا ويدق رأس ذاك، ثم يلتهمهم وبعد ذلك يتجشأ ناراً أنتن من الكبريت. ولكن، يا للسرّ الرائع، لم يكن ذلك المشهد يُرَوّعني وفاجأت نفسي وأنا أنظر بأُلْفة إلى ذلك «الوحش الطيب» (هكذا فكّرت) الذي، في نهاية الأمر، لم يكن إلاّ سلفاتوري، لأنني عن جسده البشري الفاني وعن معاناته وفساده، كنت أعرف كل شيء ولا أخاف من شيء. وفعلاً في ضياء ذلك اللهيب الذي أصبح يبدو لي ودّياً وأليفاً، رأيت من جديد كلّ ضيوف المأدبة، وقد أعيدوا إلى صورتهم، وهم ينشدون مؤكدين أنّ كلّ شيء سيبدأ من جديد، وبينهم الصبيّة، كاملة ورائعة، تقول لي «لا بأس، لا بأس، سترى أنني سأعود بعد ذلك أجمل من قبل، اتركني فقط أذهب لأحترق قليلاً فوق المحرقة، ثم سنتلاقى هنا في الداخل!» وتُريني، ليسامحني الرب، فرجها حيث دخلتُ ووجدتُ نفسي في مغارة جميلة جداً، كانت تبدو لي وادي عين الذهب الهادئ، تترقرق فيه المياه وتنبت فيه غلال وأشجار مُحَمّلة بفطائر الجبن المرفوس. وكان الجميع يشكرون رئيس الدير على تلك المأدبة الرائعة، ويعبّرون له عن ودّهم وحبورهم بالركل والرفس، ثم خلعوا عنه ثوبه، وألقوه على الأرض وأخذوا يضربون قضيبه بالقضبان، بينما كان هو يضحك ويترجّاهم أن يَكِفُّوا عن دغدغته. وعلى صهوات خيول كانت تنفث من خياشيمها سحباً كبريتية دخل رُهبان العيش الفقير يحملون في أحزمتهم أكياساً مليئة بالذهب، وبواسطتها يحوّلون الذئاب إلى حملان والحملان إلى ذئاب ويتوّجونهم أباطرة بمصادقة مجلس الشعب الذي كان يُسَبّح بِعَظَمَة الرب. وكان عيسى يصيح وهو يحرّك إكليل الشوك: «فلتمحقهم التكشيرات البشعة ولتعذبهم الأشداق الأكّالة». ثم دخل البابا جيوفاني ساخطاً على الفوضى وهو يقول «على هذا النسق لا أدري ماذا سيكون مآلنا!». إلاّ أن الجميع كانوا يسخرون منه، ثم خرجوا يتقدمهم رئيس الدير مع الخنازير للبحث عن الكمأ في الغابة. وكنت على وشك أن أتبعهم عندما رأيتُ غوليالمو في ركن وهو خارج من المتاهة، وكان يمسك بيده المغناطيس الذي كان يجذبه بسرعة نحو الشمال. فصحت به «لا تتركني يا سيدي! أريد أن أرى أنا أيضاً ماذا يوجد في «أقصى إفريقيا»!»

فأجابني غوليالمو وقد صار بعيداً «لقد رأيتَه!»

Twitter: @ketab_n

وأفقت بينما كان الرُّهبان ينشدون في الكنيسة كلمات النشيد الجنائزي الأخيرة:

«يوم بكاء سيكون
يوم يُبعث الإنسان الآثم
من النار
في يوم الحساب.
ارحمه يا رب!
عيسى، يا سيدنا الرحيم
امنحنا السلام».

وهو دليل على أن رؤيتي، إن لم تدم، في سرعتها الخاطفة، ككل الرؤى ما يكفي كي يقول المرء «آمين»، فقد دامت أقلّ بقليل من إنشاد «يوم الغضب».

Twitter: @ketab_n

اليوم السادس: بَعد ثالثة

وفيه يفسّر غوليالمو لأدسو حلمه

خرجتُ من بوّابة الكنيسة وأنا ذاهل ووجدت نفسي أمام جمع صغير: كان الفرانشسكانيّون يتأهبون للرحيل، وقد نزل غوليالمو لتوديعهم.

فانضممت إلى التوديعات وإلى المعانقات الأخوية. ثم سألت غوليالمو متى سيرحل الآخرون، مع الأسرى. فقال إنهم ذهبوا منذ نصف ساعة، بينما كنا في قبو الكنز، أو ربما، هكذا فكّرت، بينما كنت أحلم.

فأحزنني ذلك لحظة ثم تمالكت نفسي. من الأفضل أن يكون الأمر كذلك. ما كان باستطاعتي أن أتحمّل رؤية المحكوم عليهم (أعني القيّم البائس المسكين وسلفاتوري... ودون شكّ الفتاة أيضاً) وهم يُجرّون بعيداً إلى الأبد. ثم كنت مضطرباً جداً من جرّاء حلمي حتى إن شعوري نفسه كان وكأنما تجمّد.

وبينما كانت قافلة الفرانشسكانيّين تتجه نحو باب الخروج، بقيت أنا وغوليالمو أمام الكنيسة، كلانا كئيب، وإن كان لأسباب مُختلفة. ثم قرّرت أن أقصّ الحُلم على أستاذي. وبالرغم من أن الرؤيا كانت مُختلفة الأشكال ولامنطقية، فقد كنت أتذكّرها بوضوح عجيب، صورة بصورة، وحركة بحركة وكلمة بكلمة. وهكذا رويتها له دون أن أهمل شيئاً، لأني كنت أعرف أنه غالباً ما تكون الأحلام رسائل غامضة يمكن لذوي العلم أن يقرأوا فيها تنبؤات جلية.

وأنصت إليّ غوليالمو في صمت ثم سألني «أتعرف بماذا حلمت؟» فأجبته بحيرة «بما قلت لك...».

Twitter: @ketab_n

«أكيد، لقد فهمت. ولكن أتعرف أن أغلب ما قصصت عليّ قد كُتب من قبل. لقد أدخلت أشخاص وأحداث هذه الأيام في إطار تعرفه من قبل، لأن حبكة الحلم كنتَ قد قرأتها في مكان ما، أو أن أحدهم قصّها عليكِ وأنت طفل، في المدرسة، أو في الدير. إنه «العشاء السِّرّي» للقديس شبريانو».

بقيت لحظة متحيّراً. ثم تذكرت. صحيح! ربما كنت قد نسيت العنوان، ولكن مَنْ مِن بين الرُّهبان الراشدين أو الصبيان المشاغبين لم يبتسم أو لم يضحك من الرؤى المُختلفة، نثراً كانت أم شعراً، لهذه القصّة التي تنتمي إلى أحد تقاليد طقوس عيد الفصح، وإلى «ألعاب الرُّهبان» التقليدية؟ يحجّرها أو يستنكرها أشدّ معلّمي الرُّهبان المبتدئين صرامة، ولكن لا يوجد مع ذلك دير لم يتناقلها فيه الرُّهبان همساً، يتنوعون في تلخيصها وفي إعادة صياغتها، بينما كان البعض ينسخها بورع، مؤكداً أنها تخفي تحت حجاب المجون تعليماً أخلاقياً خفياً، ويشجّع آخرون على نشرها قائلين إنه يمكن للشبّان من خلال اللهو أن يحفظوا بسهولة أكثر عن ظهر قلب أحداث التاريخ المقدس. وقد كُتبت منها صيغة شعراً للبابا يوحنّا الثامن، تحمل الإهداء التالي: «أحبّ أن أمزح، وافهمني بابا جيوفاني، عندما أمزح. وإن أردت، بوسعك أن تضحك أنت أيضاً». ويُقال إن شارل الأصلع نفسه اقتبس منها للمسرح، في شكل سرّ مقدس فكاهي جداً، في صيغة بالقافية لتسلية وجهاء بلاطه عند العشاء:

«من الضحك سقط غوديريكو

واندهل زكريا

وألقى أنستازيو درساً

وهو مُستلقٍ على فراش».

وكم من توبيخ نالني من المعلمين، عندما كنت، أنا ورفاقي نذكر منها بعض الفقرات. وكنت أذكر شيخاً راهباً من دير «مالك» كان يقول إن رجلاً ورعاً مثل شبريانو لا يمكن أن يكون كتب شيئاً بتلك البذاءة، محاكاة كهذه مدنسة للكتابات المقدسة، أحق بكافر أو بمهرّج منها بشهيد قدّيس... لقد نسيت منذ سنين تلك

Twitter: @ketab_n

الألعاب الصبيانية. ما الذي جعل ذلك «العشاء السري» يظهر من جديد، وبذلك الوضوح، في حلمي؟ لقد ظننت دائماً أن الأحلام رسائل إلٰهية، أو على الأكثر تمتمات سخيفة للذاكرة النائمة حول الأشياء التي حدثت خلال النهار. والآن أتفطّن أنه يمكن للمرء أن يحلم أيضاً بالكتب، وإذن يمكنه أن يحلم بأحلام.

وقال غوليالمو «بودّي لو كنت أرتميدور لأفسّر حلمك تفسيراً صحيحاً، ولكن يبدو لي أنه حتى بدون علم أرتميدور من السهل فهم ما حصل لك. لقد عشت هذه الأيام، أيها الصبيّ المسكين، سلسلة من الأحداث يبدو فيها أن كلّ القواعد المستقيمة قد انحلّت. وهذا الصباح طَفَتْ على سطح ذهنك النائم ذكرى نوع من الكوميديا وُضع فيها العالم، ولو لأغراض مُختلفة، رأسه إلى أسفل. لقد أدخلتَ فيها ذكرياتك الأخيرة، وقلقك، وتخوفاتك. لقد انطلقت من حواشي أدالمو لتعيش كرنفالاً كبيراً اتّخذ فيه كلّ شيء مجرى خاطئاً، ومع ذلك، كما في «العشاء السِّرّي» يفعل كل واحد ما فعله حقيقة في الحياة. وفي النهاية تساءلت، في الحلم، ما هو العالَم المقلوب، وما معنى أن يمشي ورأسه إلى أسفل. لم يعد حلمك يعرف أين يوجد الفوق وأين التحت، أين الموت وأين الحياة. لقد شكّ حلمك في الدروس التي تعلّمتها».

فقلت بورع «لست أنا، بل حلمي. ولكن ليست الأحلام إذن وحياً إلٰهياً، بل هذيانات شيطانية، ولا تحتوي على أية حقيقة!»

فقال غوليالمو «لا أدري يا أدسو. إننا نملك بين أيدينا الكثير والكثير من الحقائق فلو جاء أحد يوماً يريد استخراج حقيقة من أحلامنا فستكون عندئذٍ أزمنة المسيح الدجّال بحق قريبة. ومع ذلك، كلما زدت تفكيراً في حلمك، وجدته مُلْهِماً. ربّما ليس بالنسبة إليك، بل بالنسبة إليّ. اعذرني إن أنا تملّكت أحلامك لأنمّي فرضياتي، أعرف ذلك، إنّه شيء خسيس، لا ينبغي فعله... ولكن أظن أن روحك النائمة فهمت أشياء أكثر ممّا فهمته أنا في ستة أيام، وفي حالة يقظة..».

ـ «حقّاً؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «حقّاً. أو ربما لا. إني أجد حلمك مُلهِماً لأنه يتطابق مع إحدى افتراضاتي. ولكنك قَدَّمْتَ إليّ مساعدة كبيرة. شكراً».

ـ «ولكن ماذا كان مهمّاً إلى هذا الحد في حلمي بالنسبة إليك، لقد كان دون معنى، ككل الأحلام!»

ـ «كان له معنى آخر، ككلّ الأحلام، والرؤى. يجب قراءته مجازياً أو تأويلياً. . .»

ـ «كالكتابات»؟

ـ «الحلم كتابة، والكثير من الكتابات ما هي إلاّ أحلام».

Twitter: @ketab_n

اليوم السادس: سادسة

وفيه يُحدّد تعاقب أمناء المكتبة ويتمّ الحصول على بعض الأنباء الإضافية حول الكتاب الغامض

أراد غوليالمو أن يصعد من جديد إلى قاعة الكتابة، التي نزل منها منذ حين. وطلب من بانشيو أن يسمح له بفحص الفهرس، وأخذ يتصفّحه بسرعة وهو يقول «لا بدّ أن يكون في هذه النّاحية، لقد رأيته فعلاً منذ ساعة». ثم توقف عند صفحة، قال «هو ذا، اقرأ هذا العنوان».

تحت إحالة واحدة (أقصى إفريقيا!) كانت مجموعة من أربعة عناوين، ممّا يدلّ على أنها تكوّن مجلداً واحداً يحتوي على عدة نصوص. قرأت:

I - ar. de dictis cujusdam stulti.
II - syr. libellus alchemicus aegypt.
III - Expositio Magistri Alcofribae de coena beati Cypriani Cartaginensis Episcopi.
IV - Liber acephalus de stupris virginum et meretricum amoribus

وسألته «ما شأنه؟»

فهمس إليّ غوليالمو «إنه كتابنا. لذا أوحى إلى حلمك بشيء. إني متأكد الآن من ذلك. فعلاً..». كان يتصفح بسرعة الورقات الموجودة قبل تلك الورقة وبعدها «فعلاً هي ذي الكتب التي أفكّر فيها، كلها معاً. ولكن ليس هذا ما كنت أريد التّحقّق منه. اسمع، هل لوحتك معك؟ حسناً، يجب أن نقوم بحساب، وحاول أن تتذكر جيداً ما قاله لنا أليناردو ذلك اليوم، وما سمعنا أيضاً هذا الصباح من نيكولا: إذن، لقد قال لنا نيكولا إنه وصل إلى هنا منذ ما يقارب الثلاثين سنة وكان أبّوني قد سُمّيّ رئيس دير. قبله كان باولو دا ريميني هو رئيس الدير.

Twitter: @ketab_n

صحيح؟ لنقل إنّ هذا التناوب وقع حوالى سنة 1290، سنة قبل أو سنة بعد، لا يهمّ. ثم قال لنا نيكولا إنه عندما وصل كان روبارتو دا بوبيو حافظ المكتبة. صحيح؟ ثم يموت ويتسلّم مَلاخي المنصب، لنقل في بداية هذا القرن تقريباً. اكتب. ولكن هناك فترة سابقة لوصول نيكولا كان فيها باولو دا ريميني حافظاً للمكتبة. منذ متى؟ ذلك ما لم يقولاه لنا، بإمكاننا أن نطلع على دفاتر الدير، ولكنّي أتصور أنها لدى رئيس الدير، وفي الوقت الراهن لا أريد أن أسأله إياها. لنفترض أنّ باولو سُمّي أميناً على المكتبة منذ ستين سنة، اكتب. لماذا يتحسّر أليناردو على أن منصب حافظ المكتبة، لخمسين سنة مضت بحسب التقريب، كان ينبغي أن يكون من نصيبه، بينما سُلِّم المنصب إلى شخص آخر؟ أكان يلمّح إلى باولو دا ريميني؟»

ـ «أو إلى روبارتو دا بوبيو!»

ـ «على ما يبدو. ولكن انظر الآن إلى هذا الفهرس. أنت تعرف أنّ العناوين مسجّلة، كما قال لنا مَلاخي في اليوم الأول، بحسب ترتيب الاقتناءات. ومن يُسجلها على هذا الدفتر؟ حافظ المكتبة. إذن، يمكننا بحسب تغيّر الخط على هذه الصفحات، أن نحدّد تعاقب أمناء المكتبة. لِنَنْظُر إلى الفَهْرس الآن إنطلاقاً من آخِره، الخط الأخير هو خط مَلاخي، قوطيّ جداً كما ترى. ويملأ بضع صفحات. لم يقتنِ الدّير كتباً كثيرة في الثلاثين سنة الأخيرة. ثم تبدأ مجموعة من الصفحات المكتوبة بخط مرتعش، وأقرأ فيه بوضوح إمضاء روبارتو دا بوبيو، المريض. وهنا أيضاً لدينا صفحات قليلة، من المحتمل أن روبارتو بقي في المنصب وقتاً قليلاً. وهذا ما نجد الآن: صفحات وصفحات من خط آخر، مستقيم وثابت، ومجموعة من الاقتناءات (من بينها مجموعة الكتب التي كنّا نفحصها منذ حين) حقيقة مذهلة. كم كان على باولو دا ريميني أن يعمل! كثيراً، خاصّة عندما نعتبر أن نيكولا قال لنا إنه أصبح رئيساً على الدير في سن حديثة جداً. ولكن لنفترض أن ذلك القارىء النهم أثرى الدير في سنوات قلائل بكل تلك الكتب. . . ألم يقولوا لنا إنهم كانوا يدعونه «أبّاس أغرافيكوس» لعاهته الغريبة أو لمرضه، الذي كان يمنعه من الكتابة؟ إذن من كان يكتب هنا؟ أنا أقول إنه

Twitter: @ketab_n

مساعده. ولكن لو عُيّن ذلك المساعد أميناً للمكتبة من بعده لواصل الكتابة، ولفهمنا لماذا لدينا كل هذه الصفحات بالخط نفسه. وسيكون لدينا آنذاك، بين باولو وروبارتو أمين مكتبة آخر، يكون قد عُيّن منذ حوالى خمسين سنة، ويكون هو المنافس الغامض لأليناردو الذي كان يأمل أن يخلف هو باولو، لأنه أكبر سناً، ولكن هذا الأخير يختفي وبطريقة من الطرق، وعكس توقعات أليناردو ورُهبان آخرين، يُعيّن مَلاخي عوضه».

ـ «ولكن ما الذي يجعلك واثقاً بهذه الصفة أن ذاك هو التسلسل الصحيح؟ ولو قبلنا افتراض أن هذا الخط هو خط أمين المكتبة المجهول الاسم، لماذا لا تكون، على العكس، لباولو عناوين الصفحات السابقة؟»

ـ «لأنه بين هذه الاقتناءات سُجّلت كل البراءات والمراسيم البابوية، التي لها تواريخ مضبوطة. أريد أن أقول، إنك لو وجدت هنا، كما ترى مرسوم «Firma cautela» لبونيفاسيوس السابع، بتاريخ 1296، تعرف أن النص لم يدخل قبل تلك السنة، ويمكنك أن تتصوّر أنه لم يدخل بعد ذلك الوقت بكثير. وبهذا، لديَّ ما يشبه أنصاب الأميال موضوعة على مدى السنين، بحيث لو سَلّمتُ بأن باولو دا ريميني أصبح حافظاً للمكتبة سنة 1265، ورئيساً على الدير سنة 1275، وأرى بعد ذلك أن خطّه، أو خط شخص آخر ليس روبارتو دا بوبيو قد تواصل من 1265 إلى 1285، فإني أكتشف فارقاً بعشرة أعوام».

لقد كان أستاذي حقيقة ثاقب الفكر. فسألته عندئذٍ «ولكن ما هي الاستنتاجات التي تستمدّها من هذا الاكتشاف؟»

فأجاب «لا شيء، إنها مقدّمات منطقية فقط».

ثم نهض وذهب للتحادث مع بانشيو. وكان هذا الأخير ملازماً مكانه، ولكنه لم يكن مطمئناً كثيراً. كان لا يزال جالساً على طاولته دون أن يجرؤ على الجلوس إلى طاولة مَلاخي قرب الفهرس. فخاطبه غوليالمو بشيء من البرود لأنه لم ينسَ المشاحنة التي وقعت بينهما في الليلة الفارطة.

ـ «هل لك يا سيدي حافظ المكتبة، مهما أصبح لديك من نفوذ، هل لك أن

Twitter: @ketab_n

تخبرني بشيء، أرجوك. ذلك الصباح الذي تناقش فيه أدالمو والآخرون حول الأحاجي الفطنة، ولمّح برينغاريو لأول مرّة إلى قاعة «أقصى إفريقيا»، هل ذكر أحدهم كتاب «العشاء السِّرّي» لشبريانو؟»

فأجاب بانشيو: «نعم، ألم أقل لك ذلك؟ قبل الحديث عن أحاجي سينفوزيوس كان فعلاً فينانتسيو هو الذي ذكر «كتاب العشاء» وغضب مَلاخي، قائلاً إنه كتاب دنيء، مذكّراً أن رئيس الدير حجّر على الجميع قراءته...»

فقال غوليالمو: «رئيس الدير، تقول؟ مهمّ جداً. شكراً يا بانشيو».

فقال بانشيو: «انتظرا، إني أريد التحادث إليكما»، وأشار إلينا بأن نتبعه خارج قاعة الكتابة، على السُّلّم المؤدي إلى المطابخ، بحيث لا يتمكن الآخرون من سماعه. كانت شفتاه ترتعشان. قال: «إني خائف يا غوليالمو. لقد قتلوا مَلاخي. والآن أعرف أشياء كثيرة. ثم إني ممقوت من قبل جماعة الإيطاليين... أظنّ أنّ الآخرين قُتِلوا لذلك السبب بالذات... إنني لم أحدثكم قط عن بغض أليناردو لمَلاخي، وعن أحقاده..»..

- «من اختلس منه المنصب، منذ سنوات؟»

- «هذا ما لا أعرفه، إنه يتحدّث دائماً عن ذلك بصفة مُبهَمة. ثم إنها قصة قديمة. وماتوا تقريباً جميعهم. ولكن الإيطاليين حول أليناردو كثيراً ما يقولون... غالباً ما كانوا يقولون عن مَلاخي إنه مُسَخّر، نصّبه شخص آخر، بتواطؤ مع رئيس الدير... وأنا دون أن أتفطّن لذلك... دخلت في لعبة تنافس بين مجموعتين... لقد فهمت ذلك هذا الصباح فقط... إيطاليا أرض دسائس، يُسمّم فيها البابوات، فما بالك بشاب مسكين مثلي... لم أفهم ذلك بالأمس، كنت أظن أن كلّ شيء كان يخص ذلك الكتاب، ولكني الآن لم أعد واثقاً من ذلك، كان ذلك تعلّة: لقد رأيتما أنه عُثر على الكتاب ومع ذلك مات مَلاخي... ينبغي عليّ... إني أريد... بودّي لو أهرب. بماذا تنصحني؟»

- «أن تبقى هادئاً. الآن تريد من ينصحك، أليس كذلك؟ وأمس كنت تبدو وكأنك سيد الدنيا. لو ساعدتني أمس، أيها الغبي، لحُلنا دون وقوع الجريمة

Twitter: @ketab_n

الأخيرة. لقد سلّمت أنت إلى مَلاخي الكتاب الذي أدّى به إلى الموت. ولكن قل لي على الأقل هذا. لقد وقع الكتاب بين يديك، ولمسته. هل قرأته؟ ولماذا إذن لم تمت؟»

ـ «لا أدري. أقسم لك ذلك، لم ألمسه، أو بالأحرى لمسته عندما أخذته من المخبر، دون فتحه، أخفيته تحت ثوبي وحملته إلى حجرتي ثم أخفيته تحت فراشي. كنت أعرف أن مَلاخي كان يراقبني وعُدت فوراً إلى قاعة الكتابة. وبعد ذلك، عندما عرض عليّ مَلاخي أن أصبح مساعده، حملته إلى حجرتي وسلّمته الكتاب. هذا كلّ ما حدث».

ـ «لا تقل لي إنك لم تفتحه».

ـ «نعم، لقد فتحته، قبل إخفائه، لأتأكّد من أنه هو الكتاب الذي كنتما تبحثان عنه. كان يبدأ بمخطوط عربي، ثم بمخطوط أظنه سريانيّاً، ثم نصّ لاتيني وأخيراً نصّ باليونانية..»

كنت أذكر الحروف الأولى التي رأيناها في الفهرس. كان العنوانان الأولان يحملان علامتي .ar و .syr. كان ذلك هو «الكتاب». ولكن غوليالمو لاحقه بالأسئلة دون هوادة «إذن قد لمسته، ولم تمت. إذن لا يموت من يلمسه. وعن النص اليوناني ماذا يمكنك أن تقول لي؟ أنظرت إليه؟»

ـ «قليلاً جداً، ما يكفي لفهم أنه دون عنوان، كان يبدو وكأن جزءاً ينقصه... فهمس غوليالمو «Liber acephalus».

ـ «لقد حاولت أن أقرأ الصفحة الأولى، ولكني في الحقيقة لا أحسن اليونانية، كان عليّ أن أُمضي في ذلك وقتاً طويلاً. وأخيراً لفت انتباهي أمر آخر كان يخصّ الصفحات اليونانية بالذات. لم أتصفحها بتاتاً لأني لم أقدر على ذلك. كانت الأوراق، كيف يمكنني أن أقول، كانت وكأنها مبلّلة بالرطوبة، لم تكن تنفصل بسهولة الواحدة عن الأخرى. وذلك لأن الرقّ كان غريباً... أكثر لُيونة من الرُّقوق الأخرى، وكانت الصفحة الأولى متآكلة جداً، تكاد تتفتّت، بإيجاز، كان... كان غريباً».

Twitter: @ketab_n

فأعاد غوليالمو «غريباً، إنها العبارة نفسها التي استعملها سيفيرينو».

وواصل بانشيو قائلاً «كان الرّق يبدو وكأنه ليس رقّاً... كان يبدو كتّاناً ولكن رقيقاً جداً..».

فقال غوليالمو: «charta lintea أو pergamino de pano. ألم ترها قط؟»

ـ «لقد سمعت عنها، ولكن أظن أني لم أرها قط. يقال إنها باهظة، وهشّة. لذا تُستعمل بقلّة. يصنعها العرب، أليس كذلك؟»

ـ «كانوا أول من صنعها. ولكنها تُصنع أيضاً في إيطاليا، في فابريانو، وأيضاً في... ولكن دون شكّ، أكيد، نعم!» وسطعت عيناه ببريق «يا له من اكتشاف رائع وهامّ. أحسنتَ يا بانشيو، أشكرك! نعم، أتصوّر أن «ورق الكتّان» نادر هنا في المكتبة، لأنه لم تصل إليها مخطوطات حديثة. ثم يخاف الكثيرون أن لا يصمد أمام القرون كالرق، وقد يكون ذلك صحيحاً. ويمكن أن نتصوّر أنهم ما كانوا يريدون هنا إلاّ ما يبقى على أبد الدهر مثل البرونز... «ورق من كتّان»، هو ذا إذن. حسن، إلى اللقاء. وكن مطمئناً. لا خطر عليك».

ـ «حقاً، غوليالمو، أتؤكد لي ذلك؟»

ـ «أؤكد لك ذلك. بشرط أن تبقى في مكانك. لقد صنعت من البلايا بما فيه الكفاية».

وابتعدنا عن قاعة الكتابة تاركين بانشيو، ولئن لم يكن مطمئناً تماماً فعلى الأقل كان أكثر هدوءاً.

وقال غوليالمو بين أسنانه بينما كنا نخرج: «يا للغبي. كان بإمكاننا أن نحلّ كل المسألة لو لم يتدخّل هو..»

وجدنا رئيس الدير في قاعة الأكل. وواجهه غوليالمو طالباً أن يتحادث إليه. فلم يقدر أبّوني أن يزوغ وضرب لنا موعداً بعد حين في إقامته.

Twitter: @ketab_n

اليوم السادس: تاسعة

وفيه يرفض رئيس الدير الاستماع إلى غوليالمو، ويتحدّث عن لغة الأحجار الكريمة، ثم يبدي رغبته أن لا يتمادى التحقيق حول تلك الأحداث المؤلمة

كانت إقامة رئيس الدير تقع فوق قاعة المجلس. ومن نافذة قاعة الاستقبال، التي كانت فسيحة وفخمة، حيث استقبلنا، يمكن رؤية أشكال الصرح من وراء سطح الكنيسة الديرية، عندما يكون اليوم جميلاً.

كان رئيس الدير واقفاً أمام نافذة، ينظر فعلاً بإعجاب إلى ذلك المنظر. وبحركة ارتسامية أرانا إياه قائلاً: «إنها قلعة رائعة، تلخّص في تناسب أبعادها القاعدة الثلاثية التي نظمت صنع سفينة نوح. وأُسّست على ثلاثة طوابق لأن ثلاثة هو عدد الثالوث المقدّس، ثلاثة كانت الملائكة التي زارت إبراهيم، وعدد الأيام التي قضاها يونس في بطن الجوت الكبير، وتلك التي قضاها عيسى ولعازر في القبر، وعدد المرات التي طلب فيها عيسى من الأب أن يُبعد عنه الكأس المرّة، وتلك التي اختلى فيها مع الحواريين للصلاة. ثلاث مرّات تبرّأ منه بطرس، وظهر لأصحابه ثلاث مرّات بعد البعث. وثلاث هي الفضائل الإلٰهية، واللغات المقدسة ثلاث، وثلاثة هي أنواع الصوت: صوت وصفير ونقر. وثلاثة هي عهود التاريخ الإنساني: قبل الشريعة وأثناء الشريعة وبعد الشريعة.

فأيده غوليالمو قائلاً: «إنه لانسجام رائع لتطابقات رمزية».

وتابع رئيس الدير مضيفاً: «ولكن حتى الشكل المربّع ثري بالتعاليم الرّمزية. أربعة هي الجهات الأصلية، والفصول، والعناصر، الحرّ والبرد والرطوبة والجفاف، الولادة والترعرع والنضوج والشيخوخة، وأجناس الحيوانات: السماوية

Twitter: @ketab_n

والأرضية والهوائية والمائية، والألوان التي يتكوّن منها قوس قُزَح، وعدد السنوات التي تلزم لتكوين عام كبيس».

فقال غوليالمو: «آه أكيد»، ثم تابع: «وثلاثة وأربعة تعطي سبعة، عدد رمزي آخر، بينما عندما نضرب ثلاثة بأربعة نحصل على اثني عشر، كعدد الحواريين، واثني عشر باثني عشر تعطي مائة وأربعة وأربعين، وهو عدد المصطفين». وأمام هذا الاستعراض الأخير للمعرفة الرمزية بعالم الأعداد الأسمى، لم يبقَ لرئيس الدير أن يضيف شيئاً آخر مما أتاح لغوليالمو أن يدخل في صميم الموضوع، فقال: «يجب أن نتكلم بخصوص الأحداث الأخيرة، والتي فكّرت بشأنها طويلاً».

فأدار رئيس الدير ظهره إلى النافذة وواجه غوليالمو بوجه صارم: «ربما طويلاً جدّاً. أعترفُ يا أخ غوليالمو أنني كنت أنتظر منك أكثر من ذلك. لقد وصلت منذ ما يقارب ستة أيام، ومنذ ذلك الحين مات أربعة رُهبان بخلاف أدالمو، ووقع إيقاف اثنين من طرف محكمة التفتيش ـ لقد كان عدلاً، ذلك أكيد، ولكن كان بإمكاننا تجنّب ذلك الخزي لو لم يضطرّ المحقق للاهتمام بالجرائم السابقة ـ وأخيراً بسبب كل تلك الآثام أعطى اللقاء، الذي كنت أنا فيه واسطة، نتائج مُؤسفة... توافقني عندما أقول إنني كنت أنتظر منك حلاً مُختلفاً حينما سألتك أن تحقّق حول موت أدالمو...»

فصمت غوليالمو، مُرتبكاً. لقد كان رئيس الدير دون شك على حق. لقد سبق أن ذكرت في بداية هذه القصة أن غوليالمو كان يعجبه إدهاش الآخرين بسرعة استنتاجاته، ومن الطبيعي إذن أن يُجرح كبرياؤه عندما يُتّهم، ولو ظُلماً، بالتباطؤ.

وأيّده غوليالمو قائلاً: «صحيح، لم أوفَّق إلى ما كنت تنتظره مني، ولكني سأقول لسيادتك، لماذا. هذه الجرائم ليس مصدرها خصومة أو أخذ بالثأر بين الرُّهبان، ولكنها متصلة بأحداث، هي بدورها تستمدّ مصدرها من تاريخ الدير البعيد..».

فنظر إليه رئيس الدير بقلق: «ماذا تعني؟ أفهم أنا أيضاً أن المفتاح لا يوجد في قصة القيّم التعسة، والتي تقاطعت مع أخرى. ولكن الأخرى، تلك الأخرى

Twitter: @ketab_n

التي كنت ربما أعرفها ولكني لا أقدر على الكلام عليها... وكنت آمل أن تكون اتضحت لك، وأنك ستحدّثني عنها...»

- «تفكّر سيادتك في بعض الأحداث التي وصلت إليك تحت سرّ الاعتراف..»

فأدار رئيس الدير أنظاره إلى جهة أخرى بينما واصل غوليالمو «إنْ كانت سيادتك تريد أن تعرف إن كنت أعرف، دون أن أكون عرفت ذلك من سيادتك، إن علاقات مشبوهة كانت قائمة بين برينغاريو وأدالمو وبين برينغاريو ومَلاخي، فكلّ من في الدير يعرف ذلك...».

فاحمرّ وجه أبّوني بشدّة « لا أظن أنه من المُجْدي أن نتحدّث في أشياء من هذا القبيل بحضور هذا الراهب المبتدىء. ولا أظن، بعد أن تمّ اللقاء، أنك بحاجة إلى كاتب». ثم قال لي بلهجة الآمر «اخرج يا ولدي»، فخرجت متذللاً، ولكن فضولي جعلني ألبد وراء باب القاعة، الذي تركته منفرجاً حتى أتمكن من متابعة الحوار.

واستأنف غوليالمو كلامه قائلاً: «إذن، هذه العلاقات غير الطاهرة، وإن فرضنا أنها وقعت، كان لها دور ضئيل في هذه الأحداث المؤلمة. المفتاح غير ذلك، وكنت أظن أنك ستتصور ما يكون. كل شيء يحوم حول سرقة وامتلاك كتاب، كان مخفياً في قاعة «أقصى إفريقيا»، والذي عاد الآن إلى مكانه بفضل مَلاخي، دون أن تكفّ، كما رأيت، سلسلة الجرائم».

أعقب ذلك صمت طويل، ثم أخذ رئيس الدير يتحدث بصوت متقطّع ومتردّد، كمن فُوجِىء بمكاشفات غير منتظرة «مستحيل... أنت... أنت كيف أمكنك أن تعرف شيئاً عن قاعة «أقصى إفريقيا»؟ لقد خالفت تحجيري ودخلت إلى المكتبة؟»

كان من الأفضل أن يقول غوليالمو الحقيقة، ولكن رئيس الدير كان سيغضب غضباً لا حدّ له. ومن الواضح أنه لم يكن يريد أن يكذب. فاختار أن يجيب عن سؤاله بسؤال آخر: «ألم تقل لي حضرتك في لقائنا الأول، إن رجلاً مثلي، وصف برونيلّو بتلك الدقة دون أن يكون قد رآه قط، لن يصعب عليه أن يتحدث عن أماكن لا يمكنه الدخول اليها؟»

فقال أبّوني: «هكذا إذن، ولكن لماذا تظن ما تظن؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «كيف وصلت إلى ذلك شيء يطول شرحه. ولكن ارتُكِبَت سلسلة من الجرائم لمنع الكثيرين من اكتشاف شيء كان لا يُراد له أن يكتشف. الآن كل الذين علموا شيئاً عن أسرار المكتبة، إمّا بممارسة حقّ أو بالاحتيال، قد ماتوا. بقي شخص واحد، أنت».

ـ «تريد أن تلمّح... تريد أن تلمّح» ـ كان يتكلم كمن انتفخت أوداجه.

فقال غوليالمو، الذي ربما حاول فعلاً أن يلمّح: «لا تفهم غلطاً ما أريد أن أقول. أقول إن هناك شخصاً على علم بكل شيء ولا يريد أن يَعلم أحدٌ آخر. وأنت هو الأخير الذي يعلم، يمكن أن تكون أنت الضحية المقبلة إلا إذا قلت لي ماذا تعرف عن ذلك الكتاب الممنوع وخاصة، من في الدير بإمكانه أن يكون عارفاً ما تعرف أنت، وربما أكثر منك، عن المكتبة».

فقال رئيس الدير: «هنا برد، لنخرج».

فابتعدت بسرعة عن الباب وانتظرتهما عند أعلى السُّلّم الصاعد من أسفل. ورآني رئيس الدير فابتسم لي قائلاً: «كم يكون قد سمع هذا الراهب الصغير من أشياء مُزْعِجة هذه الأيام! هلمّ أيها الصبي، لا تُدخل على نفسك الاضطراب. يبدو لي أننا تصوّرنا دسائس أكثر ممّا هو موجود حقيقة...»

ورفع يده تاركاً نور النهار يضيء خاتماً رائعاً، شعار سلطته، كان يحمله في البنصر. وسطع الخاتم بكل إشعاعات أحجاره. وقال لي: «إنك تعرفه، أليس كذلك. هو رمز سلطتي ولكنه أيضاً رمز العبء الذي يثقل كاهلي. ليس زخرفاً، إنه يلخّص تلخيصاً رائعاً الكلمة الإلٰهية التي عليّ أن أحرسها». ولمس بأصابعه الحجارة، أو بالأحرى ذلك الحفل الرائع من الأحجار المُختلفة الألوان التي تكوّن تلك التحفة البديعة من فن الإنسان والطبيعة، وقال: «هذا الجمشت، الذي يعكس التواضع ويذكّرنا ببساطة ورقّة القديس متى؛ وهذه الخلقيدونية، تعلّمنا المحبة، رمزاً لورع يوسف والقديس يعقوب الأكبر؛ وهذا اليشب، الذي يدعونا إلى الإيمان وهو يقترن بالقديس بطرس؛ واليشب الأسمر، رمز الشهادة ويذكّرنا بالقديس بَرتِلماوس؛ وهذا اللازورد، أمل وتأمل، حجارة القدّيسيْن أندراوس وبولس؛ والزمرّد المصري، عقيدة صحيحة علم وحلم، وهي الفضائل التي امتاز بها

Twitter: @ketab_n

القديس توما. . .» ـ وتابع وهو غارق في رؤياه الصوفية «كم هي رائعة لغة الأحجار الكريمة التي ترجمها جواهريّو التقاليد من عقلنة هارون ومن وصف القدس السماوية في كتاب الحواري. ومن ناحية أخرى كانت أسوار صهيون مرصّعة بالجواهر نفسها التي كانت تزيّن درع أخ موسى، ما عدا الياقوت الجمري، والعقيق والجزع المذكورة في سفر الخروج والتي عُوضت في سفر الرؤيا بالخلقيدونية واليَشْب الأسمر والكريزوبراس والصّفير».

وحاول غوليالمو أن يفتح فمه بكلمة ولكن رئيس الدير ألزمه الصمت، رافعاً يده، وتابع حديثه «أذكُر كتاب صلوات كانت كل حجارته موصوفة ومنظومة إكراماً للعذراء، يحكي فيه عن خاتم خطوبتها كقصيد رمزي يشعّ بحقائق سامية تجلّت من خلال لغة الحجارة الجوهرية التي كانت تزيّنه. اليَشْب للإيمان، والخلقيدونية للمحبة، والزمرّد للطهارة، واليشب الأسمر لدعة الحياة العذرية، واللَّعْل للقلب الدامي فوق الصليب، والزبرجد الذي يذكّر إشعاعه المتنوّع بالتنوع الرائع لمعجزات مريم، والصّفير للرحمة، والجمشت بازدواج الوردي والأزرق فيه، لحبّ الرب. . . ولكن في قفص الفصّ كانت هناك مواد أخرى ليست أقل فصاحة، كالبلّور الذي يذكّر بعفة الروح والجسد، والصّفير الذي يشبه العنبر، رمزاً للاعتدال، وحجر المغناطيس الذي يجذب الحديد، كما تجذب العذراء أوتار القلوب بقوس طيبتها. وكلّها مواد كما ترى، تزين ولو بمقدار ضعيف ومتواضع حليتي هذه».

وكان يحرّك الخاتم، مبهراً أنظاري بإشعاعه، كما لو كان يريد تدويخي: «لغة رائعة، أليس كذلك؟ وبالنسبة لآباء آخرين تعني الأحجار أشياء أخرى أيضاً. بالنسبة إلى البابا إينوتشانسو الثالث ينبه اللَّعْل بالهدوء وبالصبر والبنفش بالمحبّة. وبالنسبة إلى القديس برونوني يجمّع الزمرّد الريحاني العلم اللاهوتي في مزايا إشعاعاته الصافية. الفيروز يعني الحبور، واليشب الأسمر يذكّر بالساروفيميين والزبرجد الأصفر بالكروبيين، واليشب بالعروش، والزبرجد بالسيادات، واللازورد بالفضائل، والجزع بالقوى، والزمرّد المصري بالإمارات، والياقوت الأحمر برؤساء الملائكة والزمرّد بالملائكة. إن لغة الأحجار الكريمة لها أشكال متعدّدة، كلّ

Twitter: @ketab_n

واحدة تعبّر عن أكثر من حقيقة بحسب الظرف الذي تظهر فيه. ومن يحدّد مستوى التأويل وصلاحية الظرف؟ أنت تعرف ذلك، يا ولدي، لقد علّموك إياه: إنها السلطة، المؤوّل الأكثر وثوقاً من غيره والأكثر هيبة، وإذن الأكثر قداسة. وإلاّ فكيف يمكن تأويل الدّلالات المتنوعة التي يضعها العالم أمام أعيننا المذنبة، وكيف نتجنّب الوقوع في التباسات الشيطان؟ انتبه، إنه لمن العجب أن يمقت الشيطان لغة الأحجار الكريمة ولنا شهادة في ذلك من القديسة إلديغاردا. فالوحش النجس يرى فيها مغزى تضيئه معانٍ ومستويات معرفة مُختلفة، وهو يريد تشويهه لأنه هو، العدوّ، يحسّ في سطوع الأحجار صدى الروائع التي كانت ملكه قبل السقوط، ويفهم أن تلك الإشعاعات تحدثها النار التي هي عذابه». ـ ثم مدّ اليّ الخاتم لأقبله، فجثوت ومسح على رأسي مضيفاً «وأنت إذن، يا ولدي، انسَ الأشياء، التي هي دون شك آثمة، والتي سمعتها في هذه الأيام. إنك انضممت إلى أكبر نظام وأشرفه من بين كل الآخرين، وأنا رئيس دير من ذلك النظام، وأنت الآن تحت سلطتي. إذن اسمَع وأطِعْ أمري: انسَ، ولتُختم شفتاك إلى الأبد. أَقسِم».

كنت دون شك سأقسم، لفرط التأثر والافتتان. وأنت أيها القارئ الطيب ما كان بإمكانك أن تقرأ هذه الوقائع التي أقصّها عليك بوفاء. ولكن عند ذلك الحدّ تدخّل غوليالمو، لا ليمنعني ربما من أن أقسم، ولكن لرد فعل غريزي: عن ضيق بالأمر، ولمقاطعة رئيس الدير وإزالة ذلك السِّحْر الذي من المؤكد أنه اختلقه اختلاقاً.

ـ «ما دخل الولد؟ إني طرحت عليك سؤالاً، وأعلمتك بخطر مُحْدِق وسألتك أن تقول لي اسماً... أتريدني الآن أن أقبّل أنا أيضاً الخاتم وأن أقسم بأن أنسى كلّ ما علمته أو ارتبت به؟»

فقال رئيس الدير بحزن: «آه، أنت... لا يمكن أن أنتظر من راهب متسوّل أن يفهم جمال تقاليدنا، أو أن يحترم الكتمان، والأسرار، وأسرار المحبة... نعم، المحبّة، ومعنى الشرف، ونذر الصمت الذي تقوم عليه عظمتنا. لقد حدّثتني عن قصة عجيبة، قصة لا تُصدّق. كتاب ممنوع تُرتكب من أجله الجريمة تلوَ الأخرى، وشخص يعرف ما أعرفه أنا فقط... خُرافات، استنتاجات دون معنى. قلها إن شئت، لن يصدقك أحد. وحتى لو فرضنا أن بعض عناصر

Twitter: @ketab_n

تركيبتك الخيالية صحيحة... ليكن، الآن يعود كل شيء تحت رقابتي وتحت مسؤوليتي. سأتحقق من ذلك، لديّ الوسائل، لديّ السلطة. لقد أخطأت منذ البداية عندما عهدت إلى غريب، مهما كانت درايته ومهما كان جديراً بالثقة، بأن يُحقق في أشياء من مشمولاتي أنا وحدي. ولكنك فهمت ذلك، وقلت لي ذلك، كنت أظن في بداية الأمر أن المسألة تتعلق فقط بانتهاك نُذُور العِفّة وكنت أريد (ويا لي من متغافل) أن يقول لي شخص آخر ما كنت سمعته في كنف سرّية الاعتراف. حسن، الآن أعلمتني، وإني مدين لك بالكثير لما فعلت ولما حاولت أن تفعل. الآن تمّ اللقاء بين القصادتين وانتهت مهمتك هنا. أتصوّر أنهم ينتظرونك بفارغِ الصَّبر في البلاط الإمبراطوري، لا يمكن الاستغناء طويلاً عن رجل مثلك. إني أرخّص لك في الرحيل. ربّما يكون اليوم متأخراً، لا أريد أن تسافر بعد الغروب، فالطرق ليست آمنة. ارحلا غداً في الصباح الباكر. آه، لا تشكرني، لقد سُعدنا بوجودك بيننا، شقيقاً بين الأشقاء، وأن نكرمك بضيافتنا. يمكنك أن تختلي مع راهبك المبتدئ لإعداد متاعكما. سأودعكما من جديد غداً عند الفجر. شكراً، من كل قلبي. بطبيعة الحال، لا داعي أن تواصل أبحاثك. لا فائدة من إدخال ارتباك أكثر على الرُّهبان. بإمكانك أن تذهب».

لم يكن إذناً، بل طرداً، وحيّاه غوليالمو ثم نزلنا السُّلّم.

فسألته: «ماذا يعني؟ لم أعد أفهم شيئاً».

ـ «حاول أن تُبْدي افتراضاً. من المفروض أنك تعلّمت الآن كيف ينبغي أن تفعل».

ـ «إن كان الأمر كذلك فقد تعلمت أنه ينبغي أن أتقدم على الأقل بافتراضين، أحدهما معاكس للآخر، والاثنان لا يصدّقان. حسناً، إذن...» ـ ثم بلعت ريقي. إذْ كان القيام بافتراضات أمراً يحرجني ـ «الافتراض الأول هو أن رئيس الدير كان يعرف كل شيء، وكان يتصوّر أنك لن تكشف شيئاً. عهد إليك بالتحقيق، في بداية الأمر، حول موت أدالمو، ولكنه فهم شيئاً فشيئاً أنّ القصّة كانت أكثر تعقيداً بكثير، وأنها بشكل من الأشكال تشمله هو أيضاً، ولا يريدك أن

Twitter: @ketab_n

تزيح السّتار عنها. والافتراض الثاني أن رئيس الدير لم يُساوره الشك بالمرّة (في أي شيء، لا أدري. لأني لا أعرف فيما تفكر أنت الآن). ولكنه يواصل الظن رغم كل شيء أنّ كلّ شيء مُتَأَتٍّ من خصومة... بين رُهبان لُوطيين... ولكنك فتحت عينيه الآن، وفجأة فهم أمراً مَهُولاً، فكّر في اسم، واتضح له المسؤول عن الجرائم. ولكن عند هذا الحدّ يريد أن يحلّ المسألة وحده وأن يبعدك، حفاظاً على سُمْعَة الدير».

ـ «أحسنت. لقد بدأت تحسن التفكير. ولكنك ترى مع ذلك أنّ ما يشغل رئيس ديرنا في الحالتين هو سُمعة الدير. سواء كان ضحية أو مجرماً فهو لا يريد أن تشيع، وراء هذه الجبال أخبار تشنيعية حول هذه المجموعة المقدسة. اقتل رُهبانه إن شئت، ولكن لا تمسّ من سُمْعَة هذا الدير. آه، بـ...» ـ كان الحنق يشتد بغوليالمو ـ «ذلك الإقطاعي، ابن الزنى، ذلك الطاووس الذي اشتهر لأنه اشتغل حفّار قبور لدى أكويناتي، إنه لقِرْبَةٌ منتفخة، ولا وجود له إلاّ لأنه يلبس خاتماً كبيراً كقعر كأس! يا للتكبّر، يا لكم من مُتَكبرين أنتم كلكم الكلونيين، أنتم أسوأ من الأمراء وأكثر بارونية من البارونات!»

فتجرّأت وقلت بنبرة عِتاب، وقد جرحني قوله: «أستاذي..».

ـ «اسكت أنت، إنك من الطينة نفسها. أنتم لستم بسطاء، ولا أبناء بسطاء. لو صادفكم فلاح، لربّما آويتموه، ولكني رأيت بالأمس أنكم لا تتردّدون في تسليمه إلى السلطة المدنية. أمّا إذا كان أحداً منكم فأنتم لا تسلّمونه بل ينبغي إخفاؤه. بإمكان أبّوني أن يكتشف البائس وأن يطعنه بخنجر في قبو الكنز، وأن يُفرّق كليتيه في المذاخر حتى تبقى سُمْعَة الدير محفوظة... أمّا أن يكتشف راهب فرانشسكاني وكر هوامّ في هذه الدار المقدسة؟ آه، كلا... هذا ما لا يمكن أن يسمح به أبّوني مهما كان الثمن. شكراً يا أخ غوليالمو، الإمبراطور ينتظرك، أرأيتما الخاتم الجميل الذي أحمله، إلى اللقاء. ولكن التحدّي لم يعد بيني وبين أبّوني فحسب، ولكن بيني وبين القضية بأكملها، إنني لن أخرج من هذا المكان قبل أن أعرف. يريد أن أرحل غداً صباحاً؟ حسن، هو سيّد البيت، ولكنني من الآن إلى صباح الغد ينبغي أن أعرف. ينبغي...»

Twitter: @ketab_n

- «ينبغي؟ من يلزمك، الآن؟»

- «لا أحد يلزمنا بالمعرفة يا أدسو. يجب ذلك، فقط، حتى ولو فهمنا غلطاً».

كنت لا أزال مُرْتَبكاً وشاعراً بالمهانة للكلمات التي قالها غوليالمو ضدّ نظامي الرُّهباني وضدّ رؤساء أديرته. وحاولت أن أجد أعذاراً لأَبّوني بتقديم افتراض ثالث، وكان يبدو أنني أصبحت ماهراً جداً في هذا الفن، فقلت: «إنك لم تأخذ بعين الاعتبار افتراضاً ثالثاً، يا أستاذي. لقد لاحظنا خلال هذه الأيام، وبَدَا لي بوضوح أكثر هذا الصباح، بعد اعترافات نيكولا والتهامسات التي تلقيناها في الكنيسة، أن هناك مجموعة من الرُّهبان الإيطاليين لا تتحمّل عن طِيْب خاطر تَنَاوَب الأجانب على منصب حافظ المكتبة، وتتّهم رئيس الدير بعدم احترام العُرف. إنهم، كما فهمت، يحتجبون وراء أليناردو الشيخ، دافعين به أمامهم كالراية، لطلب إدارة مُختلفة للدير. لقد فهمت هذه الأشياء جيداً، لأنه حتى راهب مبتدئ يكون قد سمع في ديره الكثير من المناقشات والتلميحات والمؤامرات المماثلة. وإذن ربما خاف رئيس الدير أن تعطي مُكاشفاتك سلاحاً لأعدائه، وأراد أن يفض كلّ القضية بحذر كبير...».

- «ربما، ولكن لا يمنع ذلك من أنه جِلْف، ومن أنهم سيقتلونه».

- «ولكن ما رأيك في افتراضاتي؟»

- «سأقول لك ذلك فيما بعد».

كنا في الرُّواق وقد أصبحت الريح أكثر عُتُوّاً، والنُّور أقلّ ضياء، وإن كانت صلاة «تاسعة» قد مرّت منذ قليل. وكان النهار يقترب من الغروب وبقي لدينا وقت قليل جداً. عند صلاة السّتار سيُعلِم رئيس الدير دون شك الرُّهبان أنّ غوليالمو لم يعد مُؤهلاً لاستنطاق أي كان أو للدخول إلى حيث يريد.

قال غوليالمو: «الوقت متأخر، وعندما يكون لدينا قليل من الوقت حذار من فقدان الهدوء. يجب أن نعمل كما لو كان أمامنا وقت لا نهاية له. هناك مشكل يجب أن أحلّه: كيف الدخول إلى قاعة «أقصى إفريقيا»، لأن الجواب الأخير هو هناك. ثم يجب إنقاذ شخص، لا أعرف بعد من سيكون. وأخيراً أظن أن شيئاً

Twitter: @ketab_n

سيحدث من ناحية الإصطبلات، التي ستراقبها أنت.. انظر، هناك تحرّكات كثيرة...».

فعلاً. كان الفضاء بين الصرح والرُّواق نشيطاً بالحركة بصفة غريبة. قبل ذلك بقليل، خرج راهب مبتدئ من إقامة رئيس الدير وجرى نحو الصرح. والآن يخرج منه نيكولا مُتَّجِهاً نحو قاعات النوم. وفي زاوية من الزوايا كان فريق الصباح، باتشيفكو وأيمارو وبيترو يتحادثون بصفة مكثفة مع أليناردو، كأنهم يحاولون إقناعه بشيء.

ثم بدا أنهم اتخذوا قراراً. فساند أيمارو أليناردو، الذي كان لا يزال متردّداً، واتجه معه نحو إقامة رئيس الدير. كان بصدد الدخول عندما خرج نيكولا من قاعة النوم يقود يورج إلى الوجهة نفسها، ورآهما داخلين فهمس شيئاً في أذن يورج، الذي هزّ رأسه، وتابعا السير مع ذلك نحو قاعة المجلس.

فهمس غوليالمو بارتياب: «رئيس الدير يمسك بزمام الأمور...» ومن الصرح خرج رُهبان آخرون كان ينبغي أن يكونوا في قاعة الكتابة، وتبعهم بعد وهلة بانشيو، الذي تقدم ناحيتنا وقد زاد انشغاله. وقال لنا: «هناك غليان في قاعة الكتابة، لا أحد يعمل، كلهم يتحادثون بحدّة فيما بينهم... ماذا يحدث؟»

ـ «يحدث أن الأشخاص المُرْتَاب فيهم إلى هذا الصباح قد ماتوا كلّهم. وحتى الأمس كان الجميع يأخذون حذرهم من برينغاريو، غبي خائن وداعر، ثم من القيّم، مشبوه فيه بالهرطقة، وأخيراً من مَلاخي، يُبْغضه الجميع.. الآن لا يعرفون ممّن ينبغي أن يحذروا، وهم محتاجون في أقرب وقت لإيجاد خصم، أو كبش فداء... وكلّ منهم يشكّ في الآخر، وبعضهم خائف مثلك، وبعضهم قرّر أن يبعث الخوف لدى أحد ما. كلّهم مضطربون غاية الاضطراب. أدسو، راقب من حين لآخر الإصطبلات. أنا ذاهب لأستريح».

كان عليّ أن أندهش لذلك: يستريح بينما تبقّت لنا سويعات قليلة، كان ذلك يبدو قراراً خالياً من الصواب. ولكني أصبحت أعرف أستاذي معرفة جيدة. كلّما كان جسده مرتاحاً، عمل فكره بنشاط متزايد.

Twitter: @ketab_n

اليوم السّادس: بين صَلاة السّتار وصَلاة النوم

وفيه رواية موجزة لساعات طويلة من البلبلة

أجد من الصعب أن أقصّ ما حدث خلال الساعات التي فصلت، بين صلاة السّتار وصلاة النوم.

كان غوليالمو غائباً. وكنت أنا أطوف حول الإصطبلات ولكن دون أن ألاحظ شيئاً غير عادي. كان سُوّاس الخيل يُدخلون الدواب التي كانت مُضطربة من جرّاء الريح، أمّا ما عدا ذلك فقد كان كلّ شيء هادئاً.

دخلت الكنيسة وقد أخذ الجميع أماكنهم فوق المقاعد، ولكن رئيس الدير لاحظ غياب يورج، وبإشارة أخّر بداية الفرض. ونادى بانشيو كي يذهب للبحث عنه ولكن بانشيو لم يكن هناك، وقال أحدهم إنه ربما كان بصدد تهيئة قاعة الكتابة لغلقها. فأجاب رئيس الدير بسخط إنه وقع الاتفاق أن لا يغلق بانشيو أي شيء لأنه لا يعرف القواعد. فنهض أيمارو دا اليساندريا من مكانه وقال: «إن أرادت أبوّتكم فسأذهب أنا لمناداته...».

فأجاب رئيس الدير بحدّة: «لم يطلب منك أحد شيئاً»، وعاد أيمارو إلى مكانه بعد أن ألقى بنظرة يصعب فهمها إلى باتشيفكو دا تيفولي. ونادى رئيس الدير نيكولا، الذي كان هو أيضاً غائباً. وذكّره أحدهم أنه بصدد إعداد العشاء، فبدرت منه إشارة تنمّ عن خيبة ظنّه، كما لو كان يُؤسِفه أن يُظهر للجميع أنه في حالة اضطراب. وصاح: «أريد يورج هنا، ابحثوا عنه!» وتوّجه بالأمر إلى معلّم الرُّهبان المبتدئين: «اذهب أنت».

ولفت بعض الحاضرين انتباهه إلى غياب أليناردو أيضاً. فأجاب رئيس الدير

Twitter: @ketab_n

«أعرف ذلك، إنه مريض». وكنت بجانب بيترو دا سانتالبانو وسمعته يقول لجاره، غونتسو دا نولا، بلهجة وسط إيطاليا التي كنت أفهم شيئاً منها: «لا أستغرب ذلك. اليوم عندما خرج الشيخ المسكين بعد المحادثة كان مضطرباً. إنّ أبّوني يتصرّف مثل عاهرة أفنيون!»

كان المبتدئون حائرين وكانوا يحسّون، بأحاسيس طفولتهم البريئة، بالتوتّر الذي كان يسود الخورس، كما كنت أشعر به أنا نفسي. ومرّت لحظات طويلة من الصّمت ومن القلق، فأمر رئيس الدير بإنشاد بعض المزامير، وحدّد ثلاثة منها كيفما اتفق، ولم تكن ضمن المزامير التي أدرجتها القاعدة لصلاة السّتار. فنظر الجميع أحدهم إلى الآخر، ثم أخذوا في الصلاة بصوت خافت. وعاد معلّم المبتدئين يتبعه بانشيو الذي التحق بمكانه مطرقاً برأسه. لم يكن يورج في قاعة الكتابة ولا في حجرته. عند ذلك أمر رئيس الدير أن يبدأ الفرض.

عند نهاية الفرض وقبل أن ينزل الجميع لتناول العشاء، ذهبت لمناداة غوليالمو. كان مستلقياً على فراشه دون حراك، وبثيابه. قال إنه لم يكن يظن أن الساعة كانت متأخرة بتلك الدرجة. وقصصتُ عليه باختصار ما حدث. فهزّ رأسه.

على باب قاعة الأكل رأينا نيكولا، الذي كان قد اصطحب منذ بضع ساعات يورج. وسأله غوليالمو إن كان الشيخ قد دخل فوراً إلى رئيس الدير. فأجاب نيكولا إنه انتظر طويلاً أمام الباب لأن أليناردو وأيْمارو دا اليساندريا كانا داخل القاعة. بعد ذلك دخل يورج وبقي بعض الوقت بينما انتظره هو خارج القاعة وعندما خرج رافقه إلى الكنيسة، قبل صلاة السّتار بساعة وكانت لا تزال خالية.

ولَمَحَنا رئيس الدير بينما كنا نتحادث مع القيّم فحذّرنا قائلاً: «ألا تزال تفتّش، يا أخ غوليالمو؟» وأشار اليه أن يتفضل فيجلس إلى مائدته، كما جرت العادة. فالضيافة البنيدكتية مقدّسة.

ومرّ العشاء صامتاً أكثر من المعتاد، وكئيباً. كان رئيس الدير يأكل دون رغبة، تستحوذ عليه خواطر قاتمة. وأخيراً قال للرُّهبان أن عجّلوا للقيام بفرض صلاة النوم.

Twitter: @ketab_n

كان أليناردو ويورج لا يزالان غائبين، بينما الرُّهبان يشيرون إلى مكان الضرير الفارغ، متبادلين الهمسات. وعند نهاية الفرض دعا رئيس الدير الجميع لتلاوة صلاة خصوصيّة لنجاة يورج بورجُوس. ولم يكن واضحاً إن كان يقصد النجاة الجسدية أو النجاة الأبدية. وفهم الجميع أن مصيبة جديدة على وشك أن تدخل البلبلة على تلك المجموعة. ثم أمر رئيس الدير كل فرد بالإسراع، مستعجلاً أكثر من العادة، إلى مثواه. وأمر أن لا يبقى أي شخص، وركّز على «أي شخص»، يطوف خارج قاعة النوم. وخرج المبتدئون في الأول وهم خائفون، وأساكيمهم مسدلة على وجوههم، ورؤوسهم مطرقة، دون تبادل كلمات المزاح، أو ضربات المرفق أو الابتسامات الخفيفة، أو المشاغبات الخبيثة والخفية التي كان يثير بها بعضهم بعضاً (لأن المبتدئ، بالرغم من أنه راهب صغير، فهو مع ذلك طفل، ولا ينفع تأنيب معلّمهم، الذي لا يقدر أن يمنعهم من التصرّف غالباً كالصبيان، لحداثة سنهم).

وعندما خرج الكبار لاصقتُ، دون أن أتظاهر بشيء، صف المجموعة التي بدت لي متميّزة وهي مجموعة الإيطاليين. كان باتشيفكو دا تيفولي يهمس إلى أيمارو: «أتظن حقيقة أن أبّوني لا يعرف أين يوجد يورج؟». وأجاب أيمارو: «ربما كان يعرف ذلك، ويعرف أنه لن يخرج أبداً من المكان الذي يوجد فيه الآن. ربّما أكثر الشيخ من الطلب، وأبّوني لم يعد يريده...».

بينما كنت أنا وغوليالمو نتظاهر بالدخول إلى دار الضيافة إذ لمحنا رئيس الدير وهو يدخل إلى الصرح من باب قاعة الأكل الذي بقي مفتوحاً. فنصحني غوليالمو أن ننتظر قليلاً، ثم عندما خلا السهل من كل حضور دعاني لكي أتبعه. واجتزنا بسرعة الفضاءات الخالية ودخلنا إلى الكنيسة.

Twitter: @ketab_n

اليوم السّادس: بعْد صَلاة النّوم

وفيه يكتشف غوليالمو، على وجه الصدفة تقريباً،
السّر للدخول إلى قاعة «أقصى إفريقيا»

لبدنا كمقاتليْن مستأجريْن حذو المدخل، وراء عمود يمكن من خلفه مراقبة مصلّى الجماجم. وقال غوليالمو:

ـ «لقد ذهب أبّوني لغلق أبواب الصرح. وعندما سينتهي من توصيد الأبواب لن يمكنه الخروج إلاّ من المَعْظَمة».

ـ «وبعد ذلك»؟

ـ «بعد ذلك سنرى ماذا سيفعل».

لم نستطع أن نعرف ماذا يفعل، لأنه بعد مضي ساعة لم يخرج. فقلت، يكون قد ذهب إلى قاعة «أقصى إفريقيا». فأجاب غوليالمو، ربما. وبما أنني أصبحت ماهراً في التقدم بافتراضات متعدّدة أضفت: ربما يكون خرج من جديد من قاعة الأكل وذهب للبحث عن يورج. فأجاب غوليالمو: يمكن ذلك أيضاً. فواصلت متصوراً افتراضات أخرى: ربما يكون يورج قد لقي حتفه، أو ربما هو في الصرح بصدد قتل رئيس الدير. أو ربما يوجد كلاهما في ناحية أخرى وهناك من أعدّ لهما شركاً. ماذا كان الإيطاليون يريدون؟ ولماذا كان بانشيو مروَّعاً بتلك الحالة؟ ألم يكن قناعاً وضعه على وجهه لخداعنا؟ لماذا بقي في قاعة الكتابة أثناء صلاة السّتار، إن كان يجهل كيف يخرج وكيف يغلق الأبواب؟ أكان يريد أن يجرّب طريق المتاهة؟

فقال غوليالمو «كل هذا ممكن. ولكن شيئاً واحداً يقع، أو إنه وقع، أو إنه بصدد الوقوع. وأخيراً تنيرنا العناية الإلٰهية بيقين ساطع».

Twitter: @ketab_n

فسألته وكلّي رجاء «وما هو؟»

- «إن الراهب غوليالمو دا باسكرفيل، الذي كان يظنّ أنه فهم كلّ شيء، لا يعرف كيف يدخل إلى قاعة «أقصى إفريقيا». إلى الإصطبلات، يا أدسو، إلى الإصطبلات».

- «وإذا ما وجدنا رئيس الدير؟»

- «نتظاهر بأننا شبحان».

لم يبدُ لي حلاً ميسوراً ولكنني لازمت الصمت. كانت أعصاب غوليالمو قد بدأت تتشنّج. خرجنا من الباب الشمالي واجتزنا المقبرة، بينما كانت الرّيح تهب بقوة وسألت الإلـه أن لا يرسل إلينا نحن شبحين آخرين، إذ لا تنقص الدير في تلك الليلة أرواح معذّبة. وصلنا إلى الإصطبلات وسمعنا الخيول وقد زاد اضطرابها لهيجان العناصر. كان باب البناية الرئيسي، على ارتفاع صدر رجل، مشبّكاً بشبّاكٍ معدني عريض يمكن من خلاله رؤية الداخل. وتراءت لنا في العتمة أشباح الخيول. وتعرّفت من بينها على برونيلّو لأنه كان الأول على اليسار. على يمينه رفع الجواد الثالث في الصف رأسه وقد أحس بوجودنا وصهل فابتسمت وقلت «Tertius equi».

فقال غوليالمو: «ماذا؟»

- «لا شيء، تذكرت سلفاتوري المسكين. كان يريد أن يعمل لا أدري أي سحر بذلك الجواد، وبِلاتينيَّتِه كان يشير إليه بقوله «tertius equi» الذي هو حرف «u»».

فسأل غوليالمو، الذي تابع هذري دون أن يُعيره اهتماماً كبيراً: الـ «u».

- «نعم، لأن tertius equi لا تعني الجواد الثالث ولكن ما هو ثالث في لفظ جواد والحرف الثالث في لفظ جواد هو «u» ولكنها حماقة....»

فنظر إليّ غوليالمو، وفي الظلمة بدا لي وجهه متغيراً وقال: «بورك فيك يا أدسو! أكيد ينبغي «استبدال الموضوع» وفَهْم الكلام «كما هو» لا «في علاقته بالأشياء» يا لي من غبي!» وضرب جبهته ضربة كبيرة بكفه حتى إنها أحدثت

Twitter: @ketab_n

فرقعة، وأظن أنها آلمته قليلاً: «هذه هي المرة الثانية، يا ولدي، التي تتكلم فيها الحكمة بفمك، أولاً في الحلم والآن في اليقظة! أسرع، أسرع إلى حجرتك لأخذ السراج، بل السراجين اللّذيْن أخفيناهما. لا تدع أحداً يراك والتحق بي فوراً في الكنيسة! لا تُلقِ أسئلة، اذهب!»

وذهبت دون أن ألقي أسئلة. كان السراجان تحت فراشي مليئين بالزيت، لأنني كنت قد ملأتهما. وكانت القداحة في جيبي. وهرعت إلى الكنيسة وأنا أحمل الأداتين الثمينتين على صدري.

وجدت غوليالمو تحت المنصب وكان يعيد قراءة الرّق الذي يحتوي على مذكرات فينانتسيو، ثم قال لي:

- «أدسو، إنّ «primum et septimum de quatuor» لا تعني الأول والسابع من بين الأربعة، ولكن «del quattro»، أي من كلمة «quattro»!». ولم أفهم في بداية الأمر ثم أنار فكري شيء: «Super thronos viginti quatuor!» «الكتابة! البيت! الكلمات منقوشة فوق المرآة!»

قال غوليالمو: «هيّا بنا! ربما تمكنّا من إنقاذ حياة إنسان!»

فسألته بينما كان يعمل بين الجماجم ويفتح الممر المؤدي إلى المَعْظَمة: «حياة من؟»

فأجاب وكنا قد وصلنا إلى الممرّ السفلي المؤدّي إلى باب المطبخ، والسراجان مشتعلان: «حياة شخص لا يستحق ذلك».

لقد سبق أن ذكرت أنه في تلك النقطة يُدفع باب من الخشب فيجد المرء نفسه في المطبخ وراء المدفأة، عند أسفل السُلّم الحِلْزوني الذي يؤدي إلى قاعة الكتابة. وفي الآونة نفسها بينما كنا ندفع الباب سمعنا على شمالنا ضجّة مخنوقة في الحائط. كانت تأتي من الجدار الذي يحاذي الباب، الذي تنتهي إليه سلسلة المشاكي المليئة بالجماجم والعظام. في تلك النقطة، عوضاً عن المشكاة الأخيرة، كان ذلك الجزء من الجدار مليئاً، بقوالب كبيرة ومربّعة من الحجارة، تحمل منقوشة قديمة وسطها منحوتة عليها طُغراءات تكاد تمّحي. كانت الضربات تأتي،

Twitter: @ketab_n

على ما يبدو، من وراء المنحوتة أو من فوق المنحوتة، شيء منها من وراء الجدار وشيء يكاد يكون من فوق رأسينا.

لو حدث مثل ذلك في الليلة الأولى لظننت على الفور أنهم الرُّهبان الموتى. ولكنني صرت الآن أنتظر أسوأ الأشياء من الرُّهبان الأحياء وسألت غوليالمو: «من يكون؟»

ففتح غوليالمو الباب وخرج من وراء المدفأة. كانت الضربات تُسمع أيضاً على طول الجدار الذي يحاذي السُّلَّم الحِلْزوني، كما لو كان هناك أحد سجيناً في الحائط، أو بالأحرى في ذلك الفراغ الحائطي (وهو في الحقيقة فسيح) المحصور بحسب كل احتمال، بين الحائط الداخلي للمطبخ والحائط الخارجي للبرج الجنوبي. فقال غوليالمو:

- «هناك أحد محبوس في الداخل. لقد تساءلت دائماً إن لم يكن هناك ممرّ آخر للوصول إلى قاعة «أقصى إفريقيا» في هذا الصرح المليء بالممرات. من الواضح أن هناك ممرّاً. من المَعْظَمة، قبل الصعود إلى المطبخ، هناك جزء من الجدار يفتح ويصعد عبر سُلَّم مُوازٍ لهذا، مَخفيّ داخل الحائط ويصل مباشرة إلى القاعة المغلق عليها».

- «ولكن من يوجد الآن بداخله؟»

- «الشخص الثاني. هناك شخص في قاعة «أقصى إفريقيا» وشخص آخر يحاول اللحاق به، ولكن الشخص الموجود من فوق يمكن أن يكون عطّل الآلية التي تتحكّم في المدخلين. وهكذا بقي الزائر سجيناً في الفخّ. وأتصوّر أنه يضطرب بشدة لأنه لا يمكن أن يمرّ الكثير من الهواء في ذلك المصران».

- «ومن هو؟ لننقذه!»

- «سنرى بعد قليل من هو. أما عن إنقاذه فلا يمكن ذلك إلاّ بإعادة تشغيل الآلية من فوق، لأننا من هنا لا نعرف سرّ استعمالها. لنصعد إذن بسرعة».

وذلك ما فعلنا. صعدنا إلى قاعة الكتابة ومن هناك مررنا إلى المتاهة ووصلنا بعد قليل إلى البرج الجنوبي. وكان عليّ أن أكبح اندفاعي، وذلك لمرتين، لأن الريح التي كانت تنفذ تلك الليلة من الكوى محدثة تيارات تنساب من تلك

Twitter: @ketab_n

الفتحات وتعبر القاعات وهي تئن، كانت تنفخ على الأوراق المبعثرة على الطاولات فكان عليّ أن أحمي شعلة النار بيدي.

ووصلنا بعد وقت وجيز إلى قاعة المرآة، وقد صرنا متهيئين للعبة المسخ التي تنتظرنا. ورفعنا السراجين لإنارة الأبيات التي كانت تعلو الإطار «Super thronos viginti quatuor» الآن أصبح السر واضحاً: تتكون كلمة quatuor من سبعة أحرف، وكان علينا أن نحرّك حرفي q و r. وفكّرت، وقد تهيّجت أعصابي، أن أفعل أنا ذلك. فوضعت بسرعة السراج على الطاولة وسط القاعة، وكانت حركتي عصبية، فلمست الشعلة تجليد كتاب كان موضوعاً فوقها. فصاح غوليالمو «حاذر أيها الغبيّ!» وبنفخة أطفأ الشعلة «تريد أن تضرم النار في المكتبة؟»

فاعتذرت وتهيأت لإشعال السراج من جديد فقال غوليالمو: «لا يهمّ، يكفي سراجي. خذه وأَنِرْه لي، لأن الكتابة عالية جداً وأنت لن تصل إليها. لنفعل بسرعة».

فسألته، بينما كان يبحث تلمُّساً، على أطراف قدميه مع طول قامته، عن الحرفين المحتومين كي يلمس البيت الرؤيوي «وإن كان هناك أحد مسلح بالداخل؟»

فأجاب غوليالمو بصوت متقطّع: «أَنِرْ لي، اللعنة على الشيطان، ولا تخف، إنّ الربّ معنا!» - كانت أصابعه تلمس حرف q من كلمة quatuor وكنت أنا وراءه على بضع خطوات فكنت أرى أحسن منه ما كان يفعل. لقد سبق أن ذكرت أن أحرف الآيات كانت تبدو منحوتة أو منقوشة في الحائط: من الواضح أن أحرف كلمة quatuor كانت مصنوعة من أشكال معدنية، ورُكِّبت وراءها آلية عجيبة خفية لأنه عندما دفع غوليالمو بحرف q أحدث صوتاً حادّاً، ووقع الشيء نفسه عندما حرك غوليالمو حرف r فاهتز إطار المرآة بأكمله وتحرّك السطح الزُّجاجي إلى الخلف. كانت المرآة باباً، محوره على الجانب الأيسر. وأدخل غوليالمو يده عبر الفتحة بين الجانب الأيمن والحائط وجذبه إليه. فانفتح الباب إلى ناحيتنا محدثاً صريراً. فانساب غوليالمو من الفتحة وانسللت أنا خلفه، ممسكاً بالنُّور عالياً فوق رأسي.

وهكذا، بعد ساعتين من صلاة النوم، في آخر اليوم السادس، وفي وسط الليلة التي كانت تؤذن ببداية اليوم السابع، دخلنا إلى «أقصى إفريقيا».

Twitter: @ketab_n

اليوم السَّابع

اليوم السابع: ليلاً

وفيه، لو أردنا أن نلخّص المكاشفات المُذهلة التي نذكرها هنا لكان العنوان في طول هذا الباب، وهو مخالف لما جرت عليه العادة

وجدنا نفسينا على عتبة قاعة شبيهة من ناحية الشكل بالقاعات الثلاث الأخرى المسبّعة الزوايا والخالية من النوافذ، تسودها رائحة انغلاق قوية ورائحة كتب نقعتها الرطوبة. وأضاء النُور الذي كنت أرفعه إلى أعلى، في الأول القبّة، ثم حرّكت ذراعي نحو الأسفل، على اليمين وعلى الشمال، وألقت الشعلة بأضواء شاحبة على الرفوف البعيدة، على طول الجدران. وأخيراً رأينا في الوسط طاولة محمّلة بالاوراق، ووراء الطاولة شبحاً جالساً دون حراك في الظلمة كان يبدو أنه ينتظرنا، لو فرضنا أنه مازال حياً. وقبلَ أن يضيء النُور وجهه، باشره غوليالمو قائلاً:

ـ «ليلة سعيدة، يا يورج الجليل. أكنت تنتظرنا؟»

وبعد أن تقدمنا بضع خطوات أنار السراج وجه الشيخ، الذي كان ينظر إلينا وكأنه يُبصر. وسأل:

ـ «أهو أنت، يا غوليالمو دا باسكرفيل؟ إنني أنتظرك منذ عشية اليوم، قبل صلاة السّتار، عندما جئتُ لأحبس نفسي هنا. كنت أعرف أنك ستأتي».

فسأله غوليالمو: «ورئيس الدير؟ هل هو الذي يضطرب داخل السُّلّم السرّي؟» فتردّد الشيخ بُرهة ثم قال: «ألا يزال حيّاً؟ كنت أظن أن الهواء قد أعوزه».

قال غوليالمو: «قبل أن نتبادل الحديث، أريد أن أنقذه. بإمكانك أن تفتح من هذه الناحية».

Twitter: @ketab_n

فقال يورج بتعب: «كلاّ، لم يعد ذلك بإمكاني. تُحرَّك الآلية من الأسفل بالضغط على المنحوتة، ومن فوق تتحرك رافعة وتفتح باباً هناك وراء تلك الخزانة ـ وأشار إلى كتفيه ـ يمكنك أن ترى حذو الخزانة دولاباً بثقالات تتحكم في الآلية من فوق. ولكن عندما سمعت الدولاب يدور فهمت أن أبّوني قد دخل من تحت، وضربت الحبل الذي يحمل الثقالات فتقطّع. الآن انغلق الممرّ من الجانبين، ولن يمكنك إعادة ربط حبال تلك الآلية. إن رئيس الدير رجل ميّت».

ـ «لماذا قتلته؟»

ـ «اليوم عندما أرسل يناديني قال لي إنه بفضلك قد اكتشف كلّ شيء. لم يكن يعرف إلى اليوم ماذا حاولتُ أن أحمي، لم يكن يفهم بالضبط ما هي الكنوز، وما هي أهداف المكتبة. وطلب مني أن أفسّر له ما كان يجهل. كان يريد فتح قاعة «أقصى إفريقيا». لقد طلب منه جماعة الإيطاليين أن يضع حدًّا لما كانوا يُسمّونه السرّ الذي كنت أسعى للحفاظ عليه أنا ومن سبقني. تقضّ مضاجعهم الرغبة في معرفة أشياء جديدة...»

ـ «ووعدته أنت بأنك ستأتي إلى هنا وتضع حدًّا لحياتك كما وضعت حدّاً لحياة الآخرين، حتى تبقى سُمْعَة الدير سليمة ولا يعرف أحد شيئاً. ثمّ بيَّنت له الطريق كي يأتي من بعد، لمعاينة ذلك. ولكنك كنت تنتظره لقتله. ألم يخطر ببالك أنه كان يمكنه الدخول من المرآة؟»

ـ «كلا، أبّوني قصير القامة، وما كان باستطاعته أن يصل وحده إلى حروف الآية. فبيَّنت له هذا الممرّ الذي كنت الوحيد الذي يعرفه، إنه الممرّ الذي استعملته سنوات طويلة لأنه أيسر لي في الظلمة. يكفيني أن أصل إلى المصلّى وأتّبع عظام الموتى إلى نهاية الممر».

ـ «وهكذا جعلته يأتي إلى هنا وأنت تعرف أنك ستقتله...»

ـ «لم يعد بإمكاني أن أثق به هو الآخر. كان مُروَّعاً. لقد ذاع صيته سابقاً في فوسّانوفا لأنه استطاع أن ينزل بجثة في سُلَّم حِلْزوني. إنه لمجد باطل. الآن مات لأنه لم يستطع أن يصعد بجسمه هو».

Twitter: @ketab_n

- «لقد استعملته لمدة أربعين سنة. عندما تفطّنت إلى أنك ستصبح أعمى ولن يمكنك أن تواصل مراقبة المكتبة، تصرفت بكل دهاء وبراعة ثم عملت ما في وسعك كي يصبح حافظ مكتبة في الأول روبارتو دا بوبيو، الذي كنت تُلقّنه ما تريده أنت، ثم مَلاخي، الذي كان يحتاج إلى مساعدتك ولا يخطو خطوة إلاّ بمشورتك. لقد كنت سيّد هذا الدير مدّة أربعين سنة. وهذا ما فهمته جماعة الإيطاليين، وهذا ما كان أليناردو يعيد قوله، ولكن لا أحد كان يصغي إليه لأنهم يعتبرونه مجنوناً، أليس كذلك؟ ولكنك كنت تنتظرني، ولم يكن بإمكانك تعطيل آلية مدخل المرآة، لأن الآلية مغلق عليها بالحائط. كنت تنتظرني، ما الذي جعلك متأكداً من أنني سأجيء؟» - كان غوليالمو يسأل، ومن نبرة صوته كان واضحاً أنه يتكهن بالجواب، وينتظره كمكافأة على مهارته.

- «منذ اليوم الأول فهمت أنك ستفهم. من صوتك، من الطريقة التي جعلتني أناقش بها مسألة لم أكن أريد أن يقع النقاش بخصوصها. كنتَ أفْضلَ من الآخرين، ومهما كان الأمر ستصل إلى الحل. أنت تعرف ذلك، يكفي أن نفكر وأن نعيد تركيب أفكار الآخرين في أذهاننا. ثم سمعتُ أنك تلقي أسئلة على الرُّهبان الآخرين، وكانت كلّها صائبة. ولكنك لم تكن تلقي أسئلة حول المكتبة، كما لو كنت تعرف عنها كل سر. وذهبت ليلة لأدق على باب حجرتك فلم أجدك. أكيد أنك كنت هنا. ثم اختفى سراجان من المطبخ، لقد سمعت ذلك من خادم. وأخيراً، عندما أتى سيفيرينو يخبرك بالكتاب، ذلك اليوم في البهو تأكد لي أنك تقتفي أثري».

- «ولكنك استطعت أن تسرق مني ذلك الكتاب. ذهبت إلى مَلاخي الذي لم يكن قد فهم إلى تلك الآونة شيئاً. كانت تنهشه الغيرة، كانت لا تزال تستحوذ على ذلك الغبي فكرة أن أدالمو خطف منه معشوقه برينغاريو الذي أصبح يفضل جسداً أطرى من جسده. لم يفهم ما دخل فينانتسيو في هذه القصّة، وشوّشتَ أنت أفكاره أكثر. قلت له إن برينغاريو كانت له علاقة مع سيفيرينو، ولمجازاته أعطاه كتاباً من كتب «أقصى إفريقيا». لا أعرف بالضبط ماذا قلت له. ذهب مَلاخي إلى سيفيرينو، وقد جنّ من الغيرة، وقتله. ثم لم يبقَ له متّسع من الوقت للبحث عن

Twitter: @ketab_n

الكتاب الذي وصفته له، لأن القيّم وصل آنذاك. أهذا ما وقع؟»

ـ «تقريباً».

ـ «ولكنك لم تكن تريد موت مَلاخي. ربما لم ينظر قط في كتب «أقصى إفريقيا»، كان يثق بك ويطيع نواهيك. كانت مهمته تتوقف على إعداد الأعشاب لإدخال الرعب على الفضوليين المحتملين. وكان سيفيرينو هو الذي يوفرها له. لذلك تركه يدخل ذلك اليوم إلى المستشفى، كانت تلك زيارته اليومية لِتَسَلُّم الأعشاب الطازجة، التي كان يعدها كل يوم بأمر من رئيس الدير. هل أصبت؟»

ـ «أصبت. لم أكن أريد أن يموت مَلاخي. أمرته بالبحث عن الكتاب، بكل الطرق، وبإعادته إلى هنا، دون فتحه. قلت له إن للكتاب قوة ألف عقرب. ولكن، لأول مرة حاول ذلك المجنون أن يعمل بمبادرة شخصية منه. لم أكن أريد موته. كان منفّذاً وفياً. ولكن لا تُعد عليّ ما تعرف، أعرف أنك تعرف. لا أريد تقوية كبريائك فأنت تتعهّد بذلك وحدك. لقد سمعتك هذا الصباح تسأل بانشيو عن «العشاء السِّرّي» لشبريانو. لقد كنتَ قريباً جداً من الحقيقة. لا أدري كيف اكتشفت سرّ المرآة ولكن عندما سمعت من رئيس الدير أنّك لمّحت إلى «أقصى إفريقيا»، تأكّد لي أنك ستصل إليه في وقت قصير. لذا كنت أنتظرك. والآن، ماذا تريد؟»

فأجاب غوليالمو: «أريد أن أرى المخطوط الأخير من المجلّد الذي يحتوي على نصّ عربي وآخر سرياني وعلى تفسير أو على نسخة من «العشاء السِّرّي» لشبريانو. أريد أن أرى تلك النسخة باليونانية، التي من المحتمل أن تكون عملاً عربياً أو إسبانياً، والتي عثرت عليها عندما كنت مساعد باولو دا ريميني، وتحصلت على إذن بالذهاب إلى مسقط رأسك لجمع أجمل المخطوطات لسفر الرؤيا من ليون وكاستيليا. وكانت غنيمة جعلتك ذائع الصيت مُبَجَلاً هنا في الدير وجعلتك تحصل على منصب حافظ المكتبة بدلاً من أليناردو الذي كان أكبر منك سنًّا بعشرة أعوام. أريد أن أرى تلك النسخة اليونانية المكتوبة على ورق من كتان وكان آنذاك نادراً، وكان يُصنع في سيلوت بالذات، قرب بورجُوس، وطنك. أريد

Twitter: @ketab_n

أن أرى ذلك الكتاب الذي أخذته من هناك، بعد أن قرأته لأنك لا تريد أن يقرأه أحد، وأخفيته هنا محافظاً عليه بطريقة ذكية، ولم تتلفه لأن رجلاً مثلك لا يتلف كتاباً، ولكن يحفظه فقط ويحتاط كي لا يلمسه أحد، أريد أن أرى الكتاب الثاني من «**صناعة فن الشعر**» لأرسطو، ذلك الكتاب الذي كان يظنّه الجميع مفقوداً، والذي تحتفظ أنت منه ربما بالنسخة الوحيدة».

فقال يورج بنبرة إعجاب وتحسّر في الآن نفسه: «كان بإمكانك أن تكون حافظ مكتبة رائعاً، يا غوليالمو. إذن أنت تعرف كل شيء. اقترب، أظن أن هناك مقعداً في ناحيتك من الطاولة. اجلس، ها هي مكافأتك».

فجلس غوليالمو ووضع السراج الذي كنت قد مددته إليه، مضيئاً من الأسفل وجه يورج. وأخذ الشيخ كتاباً كان على الطاولة ومدّه إليه. وتعرفت على التجليد فقد كان الكتاب الذي فتحته أنا في المستشفى والذي ظننته مخطوطاً عربياً.

وقال يورج: «اقرأ إذن، تصفّح يا غوليالمو. لقد انتصرت». فنظر غوليالمو إلى الكتاب ولكنه لم يلمسه. أخرج من ثوبه قفازين، ليسا قفازيه بأطراف الأصابع المكشوفة بل القفازان اللذان كان يلبسهما سيفيرينو عندما وجدناه ميتاً. وفتح بتأنٍ التجليد المتآكل والرقيق. فاقتربتُ أنا وانحنيت من فوق كتفيه فتفطّن يورج بسمعه المرهف إلى الصوت الذي أحدثته وقال: «أنت هنا أيضاً، أيها الصبيّ، سأريه لك أيضاً... من بعد،» ألقى غوليالمو نظرة سريعة على الصفحات الأولى وقال «إنه مخطوط عربي حول أقوال أبله، بحسب الفهرس. عمّ يتكلم؟»

- «أوه، أساطير سخيفة يأتي بها الكافرون، يُزعم فيها أن الحمقى يأتون بنكت فَطِنة تَبْهر كهنتهم وخلفاءهم..».

- «والثاني مخطوط سرياني، ولكن بحسب الفهرس يترجم نصّاً في الكيمياء. لماذا وُضع هنا؟»

- «إنه كتاب مصري من القرن الثالث من عهدنا، يتماشى مع العمل الذي يتبع ولكنه أقل خطراً. لا أحد يُعِير أذناً صاغية إلى هذيان كيميائي إفريقي، يسند فيه خلق الكون إلى الضحك..». ورفع وجهه ثم تلا بذاكرته العجيبة، ذاكرة

Twitter: @ketab_n

القارىء الذي يعيد على نفسه منذ أربعين سنة أشياء قرأها عندما كان ينعم بالبصر «ما إن ضحك الرب حتى نشأت سبع آلهات حكمت العالم، ما إن انطلقت الضحكة حتى ظهر النُور وعند الضحكة الثانية ظهر الماء، وفي اليوم السابع من الضحك ظهرت الروح..». حماقات. وحتى النص الذي يأتي بعده كتبه واحد من أولئك الحمقى الذين لا يُحصى عددهم، الذين أخذوا يفسرون «العشاء السِّرّي..». ولكن ليست هذه هي النصوص التي تهمّك...»

وفعلاً ورّق غوليالمو الصفحات بسرعة ووصل إلى النص اليوناني. ورأيت في الحال أن الأوراق كانت من مادة مُختلفة وأكثر ليونة، وكانت الأولى تكاد تكون منفصلة، مع جزء متآكل من الحاشية وقد انتشرت فيها بقع شاحبة كالتي تَحْدُث عادة بمفعول الرطوبة والزمن على كتب أخرى. قرأ غوليالمو السطور الأولى باليونانية، ثم مترجماً إلى اللاتينية وواصل بعد ذلك بهذه اللغة بحيث عرفت أنا أيضاً كيف يبدأ الكتاب المشؤوم:

«لقد بحثنا في الكتاب الأول في المأساة وكيف أنها بإثارة الشفقة والخوف تطهّر تلك المشاعر. وكما وعدنا سنبحث الآن في الملهاة (وفي الأهجوة أيضاً وفي المحاكاة) وكيف أنها بإثارة المتعة عن طريق السخافة تصل إلى التطهر من تلك الأهواء. وقد ذكرنا في الكتاب عن الروح إلى أي حدّ تكون تلك الأهواء جديرة بالاعتبار بما أن الإنسان ينفرد من دون جميع الحيوانات بقدرته على الضحك. سنعرف إذن أي نوع من الأفعال تكون الملهاة محاكاة لها، ثم سنفحص الكيفيتين اللتين تحدث بهما الملهاة الضحك، وهاتان الكيفيتان هما الأحداث والبيان. سنبيّن كيف أن السخرية في الأحداث تنشأ من تمثيل الأفضل بالأسوأ، والعكس، ومن المفاجأة بالخدعة ومن المستحيل ومن خرق نواميس الطبيعة، ومن استعمال المحاكاة المضحكة والمبتذلة، ومن النشاز، ومن اختيار الأشياء الأقل وقاراً. وسنبيّن بعد ذلك كيف أن المُضحك في التعبير ينشأ من اللَّبْس بين كلمات متشابهة تدلّ على أشياء مُختلفة أو مُختلفة تدل على أشياء متشابهة ومن الهذيان والتكرار ومن التلاعب بالألفاظ ومن أسماء التصغير، ومن أخطاء النطق ومن العِيّ..».

Twitter: @ketab_n

كان غوليالمو يترجم بصعوبة، باحثاً عن العبارات الملائمة متوقفاً من حين لآخر. وبينما كان يترجم كان يبتسم، كما لو كان يتعرّف على أشياء كان ينتظر أن يجدها هناك. قرأ بصوت مرتفع الصفحة الأولى، ثم توقف، كأنما لا يهمّه معرفة شيء آخر، وتصفّح بعجلة الصفحات الموالية: ولكن بعد بضع أوراق اعترضته مقاومة، لأنه قرب الحاشية الجانبية العُليا، على طول الحافّة، كانت الأوراق ملتصقة الواحدة بالأخرى، كما يحدث عندما تتبلل الأوراق بالرطوبة وتتلف فتكوّن المادة الورقية نوعاً من الدابوق اللزج. وتفطّن يورج إلى أن حفيف الأوراق قد توقف فأخذ يحرّض غوليالمو.

ـ «هيا، اقرأ. تصفّح. إنه لك، لقد نِلته عن جدارة».

فضحك غوليالمو وكأنه يهزأ: «إذن ليس صحيحاً أنك تعتبرني فَطِناً كما كنت تقول، يا يورج! أنت لا ترى ذلك، ولكني أحمل قفازين وبأصابعي المعرقلة لا أقدر على فصل الأوراق إحداها عن الأخرى. كان ينبغي أن أفعل ذلك بيدين عاريتين، وأن أُبَلل أصابعي بلساني، (كما حدث أن فعلت هذا الصباح وأنا أطالع في قاعة الكتابة، وهكذا توضح لي فجأة هذا السرّ أيضاً)، وأن أواصل التصفح بهذه الطريقة إلى أن يمرّ السمّ إلى فمي بمقدار كافٍ. أعني السمّ الذي سرقته أنت ذات يوم، منذ زمن بعيد، من مخبر سيفيرينو، ربما لأنك انشغلت يوم سمعت أحداً في قاعة الكتابة يبدي رغبته في الاطلاع، إمّا على قاعة «أقصى إفريقيا» أو على كتاب أرسطو المفقود، أو على كليهما معاً. أظن أنك احتفظت بالقارورة طويلاً، تاركاً لنفسك اختيار الظرف الملائم لاستعمالها، عندما تحسّ بخطر ما. وأحسست بذلك الخطر منذ بضعة أيام، عندما وصل فينانتسيو، من جهة، قريباً من موضوع الكتاب، وبرينغاريو من جهة أخرى، لعدم اتزانه، أو لخيلائه، أو للتأثير على أدالمو أظهر كتماناً للسر أقلّ مما كنتَ تأمل. عندئذٍ جئتَ إلى هنا وهيّأتَ فخّك، في الوقت المناسب، لأنه بعد بضع ليالٍ، دخل فينانتسيو إلى هنا وسرق الكتاب، ثم تصفّحه بقلق، وبنهم يكاد يكون جسدياً. فأحس بعد وقت قليل بالألم وهرع لطلب المساعدة في المطبخ، حيث لفظ أنفاسه. هل أخطأت؟»

ـ «كلاّ، واصل».

Twitter: @ketab_n

ـ «الباقي سهل. يجد برينغاريو جثة فينانتسيو في المطبخ، ويخشى أن ينشأ تحقيق، لأنه في نهاية الأمر كان فينانتسيو في الصرح أثناء الليل، نتيجة لما باح به هو في الأول إلى أدالمو. لا يدري ماذا يفعل، فيحمل الجثة على كتفه ويلقي بها في جرّة الدم، ظانّا أن الجميع سيقتنع بأنه غرق».

ـ «وما عرّفك بأن الأمر كان كذلك؟»

ـ «أنت أيضاً تعرف ذلك، رأيتك كيف انفعلت عندما عثروا على خرقة ملطخة بالدم لدى برينغاريو. بتلك الخرقة نظّف ذلك الوحش يديه بعد أن ألقى بفينانتسيو في الدم. ولكن بما أنه اختفى، فلا يمكن أن يكون برينغاريو اختفى إلاّ ومعه الكتاب الذي أصبح يثير فضوله هو أيضاً. وكنت أنت تنتظر أن يعثروا عليه في مكان ما، غير ملطّخ بالدم، بل مسمّماً. والباقي واضح. يجد سيفيرينو الكتاب، لأن برينغاريو ذهب في بداية الأمر إلى المستشفى لقراءته بمعزل عن الأنظار المتطفلة. ويقتل مَلاخي سيفيرينو بتحريض منك، ويموت عندما يعود إلى هنا لمعرفة ما يستحق كلّ ذلك الخطر في الكتاب الذي صيّره مجرماً. ها إننا وجدنا تفسيراً لكلّ هذه الجثث. يا للغبيّ!»

ـ «من؟»

ـ «أنا. لجملة قالها أليناردو، كنتُ متأكداً من أنّ سلسلة الجرائم تتبع نسق أبواق سفر الرؤيا السبعة. البَرَد لأدالمو، وكان انتحاراً. والدّم لفينانتسيو، وكانت فكرة غريبة من برينغاريو، والماء لبرينغاريو نفسه، وكانت صُدفة، والجزء الثالث من السماء لسيفيرينو، وقد ضرب مَلاخي بالمحلّقة لأنها كانت الشيء الوحيد في متناول يده. وأخيراً العقارب لمَلاخي... لماذا قلت له إنّ للكتاب قوّة ألف عقرب؟»

ـ «بسببك أنت. لقد أمدّني أليناردو بفكرته، ثم سمعتُ من بعضهم أنك أنت أيضاً وجدتها مقنعة... عندئذٍ اقتنعت أن نظاماً إلٰهياً كان ينظّم هذه الميتات التي لم أكن مسؤولاً عنها. وتنبأت لمَلاخي أنه لو استسلم للفضول لمات بحسب الرسم الإلٰهي نفسه، كما وقع بالفعل».

Twitter: @ketab_n

ـ «وهكذا إذن. . . صنعتُ أنا رسماً خيالياً لشرح تحركات القاتل، والقاتل امتثل له. وهذا الرسم الخيالي بالذات هو الذي دلّني على أثرك. في وقتنا هذا يستحوذ على كل واحد منّا كتاب يوحنا، ولكنك كنت تبدو لي أكثر الناس تأملاً فيه، لا للأفكار التي يأتي بها حول المسيح الدجّال، بل لأنك تأتي من البلاد التي خلقت أروع نسخ لسفر الرؤيا. وقال لي أحدهم يوماً إن أجمل مخطوطات ذلك الكتاب، الموجودة في المكتبة، قد جلبتها أنت. وهذر أليناردو يوماً حول شخص غامض ذهب إلى سيلوس للبحث عن كتب (وأثار فضولي قوله إنه عاد قبل الأوان إلى عالم الظلمات: كان يمكن أن يظن المرء آنذاك أنه كان يلمّح إلى موت الخصم في سنّ مبكرة، ولكنه كان يلمّح إلى عماك). وسيلوس قريبة من بورجُوس، وهذا الصباح وجدت في الفهرس مجموعة من الاقتناءات التي تخص أسفار الرؤيا الإسبانية، في الفترة التي خلفت فيها أو كنت على وشك أن تخلف باولو دا ريميني. ومن جملة تلك الاقتناءات كان هناك أيضاً هذا الكتاب. ولكن لم أقدر على التأكد من صحة إعادة تركيب الأحداث، إلا عندما عرفت أن الكتاب الذي سُرق كان من ورق الكتان. عندئذ تذكرت سيلوس، وتأكد لي كلّ شيء. بطبيعة الحال كلما تركّزت فكرة هذا الكتاب وقدرته السّامة، تلاشت فكرة التصوّر الرؤيوي، ومع ذلك لم أكن أفهم كيف أن الكتاب وسلسلة الأبواق تؤدي كلها إليك، وفهمت أكثر قصّة الكتاب فعلاً لأنني، باتباعي السلسلة الرؤيوية، كنت مضطراً إلى التفكير فيك وفي مناقشاتك حول الضحك. ممّا جعلني هذا المساء ألحّ، رغم أنني لم أعد مقتنعاً بالرسم الرؤيوي، على مراقبة الإصطبلات حيث كنت أنتظر صوت البوق السادس. وفي الإصطبلات بالذات، وبمحض الصدفة، مدّني أدسو بمفتاح الدخول إلى قاعة «أقصى إفريقيا».

فقال يورج: «لا أفهم ما تقصد. أنت فخور لأنك تريد أن تُخبرني كيف تمكنت، باستنتاجاتك المنطقية من الوصول إليّ أنا، لكنك تبيّن لي أنك تمكنت من ذلك باتباع منطق مغلوط. ماذا تريد أن تقول لي؟»

ـ «لك أنت، لا شيء. إنني حائر، هذا كل ما في الأمر. ولكن لا يهم، ها أنا الآن هنا».

Twitter: @ketab_n

- «ينفخ الإلٰه في سبعة أبواق. وأنت، حتى في خطئك، سمعت صدى غامضاً لذلك الصوت».

- «لقد قلتَ ذلك في موعظتك ليلة أمس. إنّك تحاول أن تقنع نفسك بأن كل هذه القصة هي رسم إلٰهي، لتخفي عن نفسك أنك مجرم».

- «أنا لم أقتل أحداً. لقد سقط كل واحد منهم متّبعاً مصيره بسبب ذنوبه. كنت أنا أداة فقط».

- «قلت بالأمس إن يهوذا كان أداة. وهذا لا ينفي أنه نال عقابه».

- «أقبل المجازفة بالعقاب. سيسامحني الرب لأنه يعرف أنني عملت من أجل عظمته. كان واجبي حماية المكتبة».

- «قبل لحظات قليلة كنت مستعداً لقتلي، ولقتل هذا الصبي أيضاً..»

- «إنك أكثر فِطْنَةً من الآخرين ولكنك لست خيراً منهم».

- «والآن ماذا سيحدث، الآن وقد كشفتُ المكيدة؟»

فأجاب يورج: «سنرى، لا أريد بالضرورة موتك. ربّما أنجح في إقناعك. ولكن قل لي قبل كل شيء، كيف تكهنت بأنه الكتاب الثاني لأرسطو؟»

- «لم تكن لتكفيني لعناتك للضحك، ولا ذلك القليل الذي عرفته عن المناقشة التي دارت بينك وبين الآخرين. لقد أعانتني بعض المذكرات التي تركها فينانتسيو. لم أفهم في البداية ماذا كانت تعني. ولكن هناك بعض الإشارات إلى حجر وقح يتدحرج عبر السهل، إلى الزيزان التي ستغني من تحت الأرض، وإلى التينات الجليلة. وكنت قد قرأت شيئاً مماثلاً، فتحققت هذه الأيام من ذلك. إنها أمثلة كان قد ذكرها أرسطو في الكتاب الأول من **الشعر** وفي كتاب **الخطابة**. ثم تذكرت: إزيدورو دي سيفيليا الذي كان يعرِّف الكوميديا كشيء يتحدث عن «اغتصاب العذارى وعشق البغايا...» وشيئاً فشيئاً توضّح في ذهني الكتاب الثاني كما ينبغي أن يكون. يمكنني أن أقصّه عليك بأكمله دون أن أقرأ الصفحات التي كان يجب أن تسمّمني. تنشأ الملهاة في «كومي» أي في قرى الفلاحين، في شكل

Twitter: @ketab_n

حفل لعوب بعد الأكل أو بعد حفلة. لا تتحدّث عن أشخاص ذوي صيت ونفوذ، ولكن عن أناس بسطاء وسخفاء، غير أشرار، ولا تنتهي بموت الأبطال. وتثير الضحك بإظهار عيوب ونقائص أناس العامة. هنا يرى أرسطو أن الاستعداد للضحك قوة إيجابية، يمكن أن تكون لها أيضاً قيمة معرفية، من أحاجٍ فَطِنة واستعارات غير منتظرة، ومع أنها تبرز لنا الأشياء مُختلفة عمّا هي في الواقع، كما لو كانت تكذب، فهي تجبرنا فعلاً على النظر إليها أحسن، وتجعلنا نقول لأنفسنا: هو ذا، إنّ الأشياء هي فعلاً هكذا، وأنا لم أكن أعرف ذلك. ونصل إلى الحقيقة من خلال تصوير للبشر، وللعالم يظهرهما أسوأ ممّا هما عليه أو ممّا كنّا نظن، على كل حال أسوأ من الكيفية التي أظهرتهما بها الملاحم البطولية، والتراجيديا وحياة القديسين. أليس هكذا؟»

ـ «تقريباً. أعدت تركيبه بقراءة كتب أخرى؟»

ـ «كثير منها كان يعمل عليها فينانتسيو. أظن أن فينانتسيو كان منذ مدّة يبحث عن هذا الكتاب. ربما قرأ على الفهرس العلامات ولكنه لم يكن يعرف كيف يدخل إلى قاعة «أقصى إفريقيا». وعندما سمع برينغاريو يتحدّث عن ذلك مع أدالمو، انطلق كالكلب الذي يطارد قواعاً برّياً».

ـ «كان الأمر كذلك، وتفطّنت إلى ذلك في الحال. فهمت أن الأوان قد حان كي أدافع عن المكتبة بكل ما في وسعي من جهد..»

ـ «ووضعت الدهان. لم يكن شيئاً سهلاً... في الظلمة».

ـ «لقد أصبحت يداي تبصران أحسن من عينيك. سرقت من سيفيرينو مرقاشاً أيضاً، واستعملت أنا أيضاً قفازين. كانت فكرة طيبة أليس كذلك؟ لقد قضيتَ وقتاً طويلاً قبل أن تصل إليها...»

ـ «نعم، لقد كنت أفكر في حيلة أكثر تعقيداً، في سنّ مسمومة أو ما يشابه ذلك. أعترف بأن حيلتك كانت مثالية، فالضحيّة تتسمّم من تلقاء نفسها، وبقدر رغبتها في القراءة...»

Twitter: @ketab_n

وتفطّنت مُرْتَعِداً، إلى أن الرجلين المتجابهين في صراع إلى آخر رمق، كانا في تلك اللحظة معجبين أحدهما بالآخر كما لو أنّهما لم يفعلا ما فعلاه إلاّ ليثير كلاهما إعجاب الآخر. ومرّ بذهني خاطر وهو أن الحِيَل التي ابتدعها برينغاريو لإغواء أدالمو، والحركات البسيطة والطبيعية التي حركت بها الفتاة شوقي ورغبتي، كانت لا شيء من حيث التحيّل والمهارة الضارية لامتلاك الآخر، أمام مشهد الإغواء الذي كان يدور تحت أنظاري في تلك الآونة، والذي امتدّ طيلة سبعة أيام، كان كلّ من المتخاطبيْن يعطي فيها، إن صحّ التعبير، مواعيد سرّية للآخر، كل منهما يأمل أن يستثير موافقة الآخر، الذي كان يرهبه ويمقته.

وكان غوليالمو يقول: «ولكن قل لي الآن، لماذا؟ لماذا أردت أن تحمي هذا الكتاب أكثر من كتب أخرى كثيرة؟ لقد كنت تخفي، ولكن لا إلى حد الإجرام، مؤلفات في العرافة، وصفحات يجدّف فيها، ربّما، اسم الربّ، ولكن لماذا من أجل هذه الصفحات ألقيت بزملائك وبنفسك إلى التهلكة؟ هناك كتب أخرى كثيرة تتحدّث عن الملهاة، وأخرى كثيرة تمدح الضحك. لماذا كان هذا الكتاب يخيفك إلى هذه الدرجة؟»

ـ «لأنه للفيلسوف. كل كتاب لذلك الرجل حطّم جزءاً من المعرفة التي جمعتها المسيحية طيلة قرون. لقد قال الآباء كل ما يجب معرفته عن قوة الكلمة الإلـٰهية، وما إن شرح بويتسيو مؤلفات الفيلسوف حتى تحوّل سرّ الكلمة الإلـٰهي إلى محاكاة بشرية للمقولات وللقياسات. إن سفر التكوين أورد ما يجب معرفته عن تركيب الكون وما إن اكتُشفت كتب الفيلسوف الفيزيائية حتى أُعيدَ التفكير في الكون بمعنى المادة الصماء واللزجة، وحتى كاد العربي ابن رشد أن يقنع الجميع بسرمدية العالم. كنا نعرف كل شيء عن الأسماء الإلـٰهية، إلى أن فتن الفيلسوف ذلك الدومينيكي الذي دفنه أبّوني، فأعاد تسميتها متّبعاً مسالك الفكر الطبيعي الصلفة. وكذلك الكون الذي كان بحسب ديونيسيوس يتجلّى لمن يعرف كيف ينظر أعلى إلى شلاّل العلّة الأولى المثالية الساطع، أصبح ذخيرة من العلامات الأرضية التي يُنطلق منها للوصول إلى تسمية فعالية مجرّدة. كنّا ننظر سابقاً إلى السماء، ولا ننظر إلاّ باحتقار إلى وحل المادة والآن ننظر إلى الأرض، ونعتقد في السماء

Twitter: @ketab_n

بشهادة الأرض. قَلبت كل كلمة من كلمات الفيلسوف، التي أصبح يقسم بها حتى القديسون والأحبار، صورةَ العالم. ولكنه لم يصل إلى قلب صورة الربّ. لو أصبح هذا الكتاب. . لو أصبح مادّة للتأويل الحرّ لتجاوزنا هذا الحدّ الأخير».

ـ «ولكن ما الذي روّعك في هذا الخطاب عن الضحك؟ لن تلغي الضحك بإلغائك للكتاب».

ـ «كلاّ، بالتأكيد. الضحك هو الضعف، هو الانحلال ومسخ طبيعتنا الإنسانية. هو الألوهيّة بالنسبة إلى الفلاح، هو الإباحة بالنسبة إلى المخمور، حتى الكنيسة في حكمتها سمحت بفترة الاحتفال بالكرنفال، بالأعياد الشعبية، هذا التلوّث النهاري الذي يُفرغ المزاجات ويُبعد عن رغبات وأطماع أخرى. . . ولكن الضحك يبقى بهذه الصفة شيئاً حقيراً، دفاعاً بالنسبة إلى السّذّج، سراً خفياً غير مقدّس بالنسبة إلى العامّة. كما كان يقول الحواري، «تزوجوا، سيكون ذلك أفضل لكم من أن تُحرقوا!»، بدلاً من أن تثوروا على النظام الذي أراده الربّ، اضحكوا وتسلّوا بمحاكاتكم النجسة للنظام، عند إتمام الأكل، بعد أن تكونوا أفرغتم الأباريق والقناني. انتخبوا ملك الأغبياء وتيهوا في طقس الحمار والخنزير، تلهّوا بتمثيل فجوركم ورؤوسكم إلى أسفل. . . ولكن هنا، هنا. . ». ـ الآن أخذ يورج يضرب بإصبعه على الطاولة قرب الكتاب الذي كان أمام غوليالمو ـ «هنا ينقلب دور الضحك، ويُرفع إلى مستوى الفنّ، وتُفتح له أبواب دنيا العلماء ليُصبح موضوعاً فلسفياً ولاهوتية خادعة. . . لقد رأيت بالأمس كيف يفكر البُسَطاء، وينفّذون فعلاً البدع الأكثر ضلالاً، متنكرين لتعاليم الرب ولنواميس الطبيعة ولكن الكنيسة يمكنها احتمال بدع السذّج، الذين يهلكون أنفسهم بأنفسهم، ويؤديهم جهلهم إلى التهلكة. إنّ جنون دولتشينو الجاهل وأمثاله لن يضع أبداً النظام الإلٰهي في أزمة. سينادي بالعنف ويموت بالعنف، لن يترك أثراً، سيزول كما يزول الكرنفال، ولا يهم أن يحدث خلال الحفلة عيد غطاس العالم المقلوب على الأرض. يكفي أن لا تتحول الحركة إلى رسم، وأن لا تجد هذه اللغة العاميّة، لاتينية لترجمتها. الضّحك يحرر العامي من الخوف من الشيطان، لأنه في حفل الأغبياء حتى الشيطان يبدو فقيراً وغبيّاً، ويمكن إذن مراقبته ولكن هذا الكتاب

Twitter: @ketab_n

يمكنه أن يُعلّم أنّ التحرّر من الخوف من الشيطان هو علم... عندما يضحك السوقي، والخمر يقرقر في حلقه، يحسّ بنفسه سيّداً، لأنه قلب علاقات السيادة، ولكن يمكن لهذا الكتاب أن يلقّن العلماء الوسائل الفَطِنة التي تغدو مشهورة منذ ذلك الحين لإقرار انقلاب. عندئذٍ تتحوّل إلى عملية فكر تلك التي كانت لا تزال، ولحسن الحظ، في حركة السّوقي الطائشة، عمليّة بطن. أن يكون الضحك من خاصيات الإنسان فذلك دليل على محدوديتنا كمذنبين. ولكن من هذا الكتاب، كم من فكر مُنحرف كفكرك سيستخرج منه القياس الأخير، بأن الضحك هو غاية الإنسان! الضحك يبعد لبضع لحظات، السوقي عن الخوف. ولكن القانون يُفرض من خلال الخوف، واسمه الحقيقي هو الخوف من اللّه. ولكن من هذا الكتاب يمكن أن تندلع الشرارة الشيطانية التي يمكنها أن تضرم في العالم أجمع حريقاً جديداً: وسيُتّخذ الضحك فنّاً جديداً، مجهولاً حتى عند بروميثيوس، لإزالة الخوف. والسوقي الذي يضحك، لا يهمه في تلك الآونة أن يموت. ولكن من بعد، بعد أن تنتهي إباحته، تفرض عليه الطقوس الدينية من جديد، بحسب الرسم الإلٰهي، الخوف من الموت. ومن هذا الكتاب يمكن أن يتولّد التوق الجديد والهدّام لتحطيم الموت عن طريق التّحرر من الخوف. وماذا سيكون مصيرنا، نحن الكائنات المذنبة، من غير الخوف الذي هو ربّما أحكم وألطف الهِبات الإلٰهية؟ لقد جاد فكر الآباء والعلماء، طيلة قرون بِخُلاصات عطرة من العلم المقدّس قصد التكفير، من خلال التأمل فيما هو سامٍ، عن حقارة وإغراء ما هو دنيء. وهذا الكتاب بتبريره للملهاة وكذلك الأهجوة والمحاكاة، على أنها دواء معجز، يُطهّر من الأهواء من خلال تصوير العيب والنقص، والضعف، سيحمل العلماء الزائفين (بانعكاس شيطاني) على محاولة التكفير عمّا هو سام من خلال قَبول الدنيء. من هذا الكتاب يمكن أن تنشأ فكرة أنه بإمكان الإنسان أن يسعى على الأرض (كما يوحي صاحبك بيكون بخصوص السِّحْر الطبيعي) لنفس الرخاء المزعوم في أرض النعيم. ولكن هذا ما لا يجب ولا نقدر أن نمتلكه. انظر الرُّهبان الصغار الذين يتركون الحشمة في محاكاة «العشاء السِّرّي» الساخرة والمضحكة. يا له من تحريف شيطاني للكتابات المقدّسة! ومع ذلك عندما يفعلون ذلك يعرفون أنهم يرتكبون

Twitter: @ketab_n

إثماً. ولكن في اليوم الذي تبرّر فيه كلمة الفيلسوف الألعاب الهامشية للمخيّلة المشوّشة، آه، عندئذٍ ما كان على الحاشية يقفز حقيقة إلى المتن ويُفتقد من المتن كل أثر. ويتحوّل شعب الربّ إلى مجمع من المسوخ تلفظها أعماق الأرض المجهولة، وعندئذٍ تصبح حاشيةُ الأرض المعروفة قلبَ الإمبراطورية المسيحية: المتوحشون الأريماسيون فوق كرسي بطرس، والهمجيّون البليميّون في الأديرة، والأقزام ذوو البطون الكبيرة والرؤوس الضخمة يحرسون المكتبة! ويفرض الأغبياء القانون، ونحن (وأنت أيضاً، عندئذٍ) نصبح خاضعين لغياب أي قانون. يقول فيلسوف يوناني (يذكره هنا صاحبك أرسطو، يا له من مُتوَاطىء ويا لها من سلطة علمية ضالّة) إنه يجب دك رصانة الخصم بالضحك، وجعل الضحك منافساً للجدّ. إنّ حصافة آبائنا قد اختارت: إذا كان الضحك متعة العامّة فلتكبح الصرامةُ فِسْق العامّة وتذله وتخيفه. وليس للعامّة السلاح لتهذيب الضحك ولجعله أداة ضدّ جديّة الكهنة الذين يقودونهم إلى الحياة السرمدية ويبعدونهم عن إغراء البطن، والعورة، والطعام وعن رغباتهم الجنونية. لو حرّك أحدهم يوماً كلمات الفيلسوف وتكلّم إذن كفيلسوف، ورفع فنّ الضحك إلى مكانة سلاح ذكي، لو عُوضت خطابة الإقناع بخطابة السخرية، لو عُوّضت الحجّة المتأنية والمنجية التي تعتمد على صور الخلاص البشري، بالحجة المتلهفة التي تقلب كل الصور المقدسة والجليلة ـ آه، في ذلك اليوم أنت أيضاً وكل معرفتك يا غوليالمو، ستكونان من المهزومين».

ـ «لماذا؟ سأكافح، ستكون دقّة نظري ضدّ دقة نظر الآخرين. سيكون عالماً أحسن من العالم الذي تذلّ فيه نار برناردو غي وحديده نار دولتشينو وحديده».

ـ «ستكون أنت أيضاً سجين مكائد الشيطان. ستقاتل في الجهة الأخرى من ساحة الأرماجدّون، حيث ستكون المواجهة النهائية. ولكن في ذلك اليوم ينبغي أن تعرف الكنيسة كيف تفرض مرّة أخرى قاعدة المعركة. لا يخيفنا التجديف، لأنه حتى في لعنة الربّ نتعرف على صورة الإله التي غيّرها الغضب وهو يلعن الملائكة المتمردين. لا يُخِيفنا العنف الذي يقتل الكهنة باسم بعض البدع التجديدية، لأنه عنف الملوك نفسه الذين حاولوا إبادة شعب إسرائيل. لا تُخِيفنا صرامة الدوناتّي،

Twitter: @ketab_n

وجنون المتعصبين الانتحاري، ودعارة البوغوميليين، وعِفّة الألبيجيين الصلفة، وحاجة المتسوّط إلى الدم، ونشوة الإثم لدى راهب الفكر الحرّ: إننا نعرفها كلها ونعرف مصدر إثمها الذي هو نفسه مصدر قداستنا. لا تُخيفنا، ونعرف بالخصوص كيف نُحَطِّمها، أو بالأحرى كيف نتركها تتحطّم من تلقاء نفسها رافعة إلى السّمت بتكبّر إرادة الموت التي تنشأ من أعماق نظيرها السحيقة. بل، أريد أن أقول إنّ وجودهم ثمين بالنسبة إلينا، ومُدرَج في رسم الربّ، لأن إثمهم يحرّضنا على العِفّة، ولأن تجديفهم يقوي من إنشادنا بالحمد، ولأن تكفيرهم المشوّش ينظم استعدادنا للتضحية، ولأن زندقتهم تزيد تقوانا إشعاعاً، كما أن أمير الظلمات كان ضرورياً، بتمرده وبيأسه لتسطع أكثر هالة الرب، التي هي بداية وغاية كل رجاء. ولكن لو أقبل يوم لا تُصبح فيه السخرية شذوذاً يأتي به العامّة، بل نسكاً يلتزمه العالم، ويُعهد بها إلى شهادة الكتابة الأبدية، فتغدو مقبولة وتبدو نبيلة، وحرّة، لاميكانيكية، ولو أمكن أن يقول أحدهم يوماً (ويُصغى إليه) «أنا أضحك من تجسّد المسيح. .»، عندئذٍ لن يكون لدينا سلاح لوضع حد لذلك التجديف، لأنّه ينادي قوى المادة الجسدية الغامضة إلى التّكتل، تلك التي تفرض وجودها في الضراط وفي الجشأ، وسيستأثر الضراط والجشأ بالحق، الذي هو الآن للفكر وحده، في أن ينفثا رائحتيهما حيث يريدان!»

ـ «لقد أقام ليغوركو صنماً للضحك».

ـ «إنك قرأت ذلك في أهجوة كلوريسيوس، الذي حاول أن يُبرِّئ المحاكاة من تُهمة الإلحاد، والذي يقول إن طبيباً شفى مريضاً بمساعدته إياه على الضحك. لماذا شفاه، إن أراد الربّ أن يكون يومه الأرضي قد وصل إلى نهايته؟»

ـ «لا أظن أنه شفاه من الداء. لقد علّمه كيف يضحك من الداء».

ـ «الداء لا يُطرد بالتعزيم. بل يُحطّم».

ـ «مع جسد المصاب».

ـ «إن كان ذلك ضرورياً».

عندئذٍ قال غوليالمو: «إنك أنت الشيطان».

Twitter: @ketab_n

بَدَا أن يورج لم يفهم، ولو كان يبصر لحدّق في وجه مخاطبه بنظرة مستغربة.

ـ «أنا؟»

ـ «نعم، لقد كذبوا عليك. الشيطان ليس أمير المادة، الشيطان هو صلف الفكر، هو الإيمان دون ابتسام، الحقيقة التي لا يعتريها الشك. الشيطان قاتم لأنه يعرف أين يذهب، ويذهب دائماً من المكان الذي أتى منه. أنت الشيطان، وكالشيطان تعيش في الظلمات. إن كنت تريد أن تقنعني فإنك لم تنجح في ذلك. إني أمقتك يا يورج، ولو استطعتُ لجررتك إلى أسفل، عبر السهل، عارياً وريش طير مغروس في دبرك ووجهك مطلي بالألوان كالمُشَعْوِذ أو كالمُهَرِّج، حتى يضحك منك الدير بأكمله، ولن يخاف منك بعد ذلك أحد. بودّي لو دهنتك بالعسل ومرّغتك في الريش، وقدتك بحبل عبر الأسواق كي أقول للجميع هذا الشخص كان يبلّغ إليكم الحقيقة ويقول لكم إنّ الحقيقة لها مذاق الموت، وأنتم لم تكونوا تؤمنون بأقواله، بل بصورته الكئيبة. والآن أقول لكم أنا إن الربّ في دوار الممكن اللامتناهي، يسمح لكم أن تتصوّروا عالماً، لا يكون فيه مترجم الحقيقة المزعوم إلا شحروراً أبله يعيد كلمات حفظها منذ زمن طويل».

فقال يورج عندئذٍ: «أنت أسوأ من الشيطان، أيها الفرانشسكاني. أنت مُهرّج، كالقديس الذي ولدكم. أنت كصاحبك فرانشسكو الذي «جعل كامل جسمه لغة تتكلم»، والذي كان يعظ وسط حفل كالبهلوانيين، والذي كان يُخْزي البخيل واضعاً في يده نقوداً ذهبية، وكان يذل ورع الراهبات منشداً «الشكوى» عوضاً عن الوعظ، والذي كان يطلب الصدقة بالفرنسية، ويحاكي بقطعة من الخشب حركات من يعزف على الكمان، والذي كان يتنكّر في زي متسكّع كي يُخْزي الرُّهبان الشرهين، والذي كان يرمي نفسه عارياً على الثلج ويتحدّث إلى الحيوانات وإلى الأعشاب ويحوّل سر الولادة نفسه إلى حفل قروي، وينادي حمل بيت لحم محاكياً ثغاء النعجة... لقد كانت حقاً مدرسة صالحة... أليس فرانشسكانياً ذلك الراهب ديوتيسالفي دا فيرانتسي؟»

فابتسم غوليالمو قائلاً: «نعم. ذلك الذي ذهب إلى دير مبشرين وقال إنه لن يقبل طعاماً ما لم يعطوه خرقة من جبّة الراهب يوحنّا ليحتفظ بها كذخيرة، وعندما

Twitter: @ketab_n

حصل عليها نظف بها دبره ثم رمى بها في الزبل وبعصا طويلة أخذ يمرغها في الروث صائحاً «واحسرتاه، ساعدوني يا إخواني لأن رُفات القديس سقطت في المرحاض!»

ـ «يبدو أن هذه القصة تسلّيك. ربما كنت تريد أن تقصّ عليّ أيضاً قصّة ذلك الفرانشسكاني الآخر، الراهب باولو ميلّيموسكي، الذي سقط يوماً بكل طوله على الثلج فكان مواطنوه يسخرون منه وسأله أحدهم إن كان يريد شيئاً أفضل من الثلج تحته فأجابه «نعم، زوجتك». هكذا تبحثون عن الحقيقة أنتم؟»

ـ «هكذا كان فرانشسكو يعلّم الناس أن ينظروا إلى الحقيقة من وجه آخر».

ـ «ولكنّنا أدّبناكم. إنك رأيت بالأمس إخوانك. لقد انضموا إلى صفوفنا، لم يعودوا يتكلمون كالبُسَطاء. البُسَطاء لا يجب أن يتكلموا وهذا الكتاب كان سيبرّر فكرة أن لغة البُسَطاء تحمل بعض الحكمة. هذا ما كان ينبغي منعه، وهذا ما فعلته. أنت تقول إنني الشيطان. ليس صحيحاً. لقد كنت يد الرب».

ـ «إن يد الرب تخلق، لا تُخْفِي».

ـ «هناك حدود لا يجب تجاوزها. لقد أراد الربّ أن تُكتب على بعض الأوراق «هنا توجد الأُسود».

ـ «لقد خلق اللّه المسوخ، وخلقك أنت أيضاً. ويريدنا أن نتكلم عن كلّ ذلك».

فمدّ يورج يديه المرتعشتين وجذب إليه الكتاب. كان يمسكه مفتوحاً، ولكن مقلوباً بحيث مكّن غوليالمو من مواصلة رؤيته بالوجه الصحيح. وقال: «لماذا سمح اللّه إذن بأن يُفتقد هذا النص مدّة هذه القرون الطويلة، وأن ينقذ منه نسخة واحدة، وأن تبقى تلك النسخة، التي لا يدري أحد ماذا كان مصيرها، مدفونة سنين بين يدي كافر لا يعرف اليونانية، وأن تُترك داخل مكتبة قديمة حيث أنا، لا أنت، اختارتني القدرة لكي أعثر عليها وأحملها معي لأخفيها سنين طويلة أخرى؟ أنا أعرف، أعرف كما لو كنت أرى ذلك مكتوباً بزخرف من ألماس، بعينيَّ اللتين تبصران ما لا تبصره أنت، أنا أعرف أن تلك كانت مشيئة اللّه، التي ترجمتُها أنا بالفعل: «باسم الأب، والابن والروح القدس».

Twitter: @ketab_n

اليوم السابع: ليـلاً

وفيه يحدث الاحتراق الكامل وبسبب الإفراط في
الفضيلة تتغلب قوى الجحيم

صمت الشيخ، وكانت يداه مفتوحتين فوق الكتاب، كما لو كان يمسح على صفحاته أو كمن يبسط الأوراق لقراءتها أحسن، أو كمن يريد حمايته من قبضة جشعة.

وقال له غوليالمو: «على كل حال كل هذا لم يُجدِ نفعاً. الآن انتهى كل شيء. وجدتك ووجدت الكتاب ومات الآخرون عبثاً».

فأجاب يورج: «كلاّ، لم يموتوا عبثاً. ربما كان عددهم أكثر مما ينبغي. وإنْ كانت تلزمك حُجّة تبرهن على أن هذا الكتاب ملعون فقد وجدتها. ولكن لا ينبغي أن يموتوا سُدًى. وحتى لا يموتوا سُدًى فيا حبذا موتة أخرى».

قال ذلك وأخذ يمزق بيديه النحيلتين الشاحبتين صفحات المخطوط الهشّة قطعاً وأشرطة، ووضعها خرقاً خرقاً في فمه ثم مضغها بتأنٍ كأنه يتناول القربان ويريد أن يجعله لحماً من لحمه.

وكان غوليالمو ينظر إليه مُنْدَهِشاً وكأنه لم يدرك بعد ماذا كان يفعل. ثم انتبه وارتمى إلى الأمام صائحاً «ماذا تفعل؟» فابتسم يورج كاشفاً عن لِثاته النازفة، بينما كان لعاب مُصْفَرّ يسيل من شفتيه الشاحبتين على شعر ذقنه الأبيض والنادر.

ـ «أنت الذي ينتظر صوت البوق السابع، أليس كذلك؟ اسمع الآن ما يقول ذلك الصوت: «اختم على ما تكلّمت به الرعود السبعة ولا تكتبه، خذه وكُلْه، فسيجعل جوفك مرّاً ولكنه في فمك يكون حلواً كالعسل. انظر الآن سأكتم ما لا ينبغي أن يُقال في القبر الذي سيصيره جسمي».

Twitter: @ketab_n

وضحك يورج، يا اللّه، نعم ضحك. للمرة الأولى سمعته يضحك... ضحك بحنجرته، دون أن تتخذ شفتاه هيئة الحبور. كان يبدو وكأنه يبكي: «لم تكن تنتظر هذه الخاتمة، يا غوليالمو أليس كذلك؟ انتصر هذا الشيخ، بمعونة الرب، مرة أخرى، أليس كذلك؟» وبما أن غوليالمو كان يحاول افتكاك الكتاب، أدرك يورج ذلك من ذبذبات الهواء التي أحسّ بها وتراجع إلى الوراء ضاغطاً بالكتاب على صدره بيده اليسرى مواصلاً باليمنى تمزيق الصفحات ووضعها في فمه.

كان من الناحية الأخرى من الطاولة فلم يكن غوليالمو يقدر على الوصول إليه وعندما حاول أن يطوف بالحاجز أسقط مقعده وانحشر فيه ثوبه مما جعل يورج يحسّ بالجلبة. وضحك ثانية، بصوت أعلى هذه المرة، وبسرعة غريبة مدّ يده اليسرى متحسّساً السراج، تقوده إليه الحرارة، ولما وصل إلى الشعلة ضغط عليها بيده دون أن يخشى الألم فانطفأت. وغرقت القاعة في الظلام بينما سمعنا لآخر مرة ضحكة يورج، الذي كان يصيح: «اعثرا عليّ إن استطعتما لأنني أرى الآن أحسن منكما!». ثم صمت ولم يُسمع له حسّ بعد ذلك، متحرّكاً بتلك الخطوات الصامتة التي كانت تجعله يظهر فجأة، وكنا نسمع فقط، من حين لآخر، في نقاط مُختلفة من القاعة، صوت الورق وهو يُمزّق. وصاح غوليالمو «أدسو، قف على الباب ولا تدعه يخرج!»

ولكنه قال ذلك بعد فوات الآوان لأنني، وقد كنت منذ بضع لحظات تهزّني الرغبة في الارتماء على الشيخ، عندما بقينا في الظلام ارتميت إلى الأمام محاولاً أن أطوف بالطاولة من الناحية المعاكسة لأستاذي. وفهمت بعد فوات الآوان أنني تركت ليورج وقتاً طويلاً ليصل إلى الباب لأن الشيخ كان يجد وجهته في الظلام بثقة عجيبة. وفعلاً سمعنا صوت ورق يُمزّق خلفنا، وكان ضعيفاً، لأنه كان يأتي من القاعة المجاورة. وفي الوقت نفسه سمعنا صوتاً آخر، صريراً كاذّاً ومتدرّجاً، أنين محاور. فصاح غوليالمو «المرآة، إنها ستنغلق علينا!» وانطلقنا نحو المدخل، متّبعين مصدر الصوت، وتعثرت أنا في مقعد فرُضّت ساقي، ولكني لم أحفل بها لأنني فهمت في ومضة برق أنه لو حبسنا يورج هناك لاستحال علينا الخروج: لن نستطيع إيجاد الوسيلة لفتح الباب في الظلمة، دون أن نعرف من تلك الناحية ماذا يجب أن نحرّك وكيف.

Twitter: @ketab_n

أظن أن اليأس نفسه كان يدفع غوليالمو لأنني أحسست به إلى جانبي بينما كنّا بعد بلوغنا العتبة ندفع معا بقفا المرآة التي كانت تنغلق من ناحيتنا. ووصلنا في الوقت المناسب لأن الباب توقف، وبعد قليل انفتح من جديد تحت الضغط. بطبيعة الحال أحسّ يورج أنّ اللعبة لم تكن متوازية فابتعد، وخرجنا من القاعة الملعونة. ولكن في الظلمة التي كانت لا تزال تامّة لم نعد نعرف إلى أين اتجه الشيخ. وفجأت تذكرت: «أستاذي، لديّ القدّاحة!»

فصاح غوليالمو «ماذا تنتظر؟ ابحث عن السراج وأشعله!» فانطلقت في الظلمة عائداً على أعقابي إلى قاعة «أقصى إفريقيا»، وأخذت أتلمّس، بحثاً عن السراج. ووجدته فوراً، بمعجزة من الرب، وفتشت كتفيتّي حتى وجدت القدّاحة. كانت يداي ترتعشان وأخفقت مرتين أو ثلاثاً قبل أن أشعله بينما كان غوليالمو يلهث على الباب «أسرع، أسرع» وأخيراً أضأت النُّور بينما كان غوليالمو لا يزال يحثني «أسرع، وإلا سيأكل ذلك اللعين أرسطو بأكمله!»

وصِحْت مَكْرُوباً، وأنا ألتحق به لمواصلة البحث معه: «وسيموت».

ـ «لا يهمّني أن يموت، ذلك اللعين!» ـ كان يفحص بعينيه حواليه متحركاً بدون نظام: «بأكله للكتاب يصبح مصيره محتوماً. ولكنني أريد الكتاب».

ثم توقف وأضاف بهدوء «قف، بهذه الطريقة لن نجده أبداً. لنصمت بُرْهة ولا نتحرك». وتجمّدنا في صمت. وفي السكون سمعنا غير بعيد صوت جسم يصطدم بخزانة، ودويّ بعض الكتب التي سقطت. فصحنا معاً «من هناك».

جرينا ناحية الصوت، ولكننا أدركنا في الحال أنه ينبغي علينا أن نتمهل في خُطانا. خارج قاعة «أقصى إفريقيا». كانت تخترق المكتبة تلك الليلة هبّات من الهواء، تصفّر وتئن بمقدار عنف الريح في الخارج. وباندفاعنا الذي كان يضاعف منها، كانت تهدد بانطفاء النُّور، الذي تحصّلنا عليه بمشقة كبيرة. وبما أنه لم يكن بإمكاننا أن نعجّل، كان من الطبيعي أن نبطّئ يورج. ولكن جاءت لغوليالمو فكرة معاكسة وصاح «لقد قبضنا عليك أيها العجوز لدينا النُّور الآن» وكانت فكرة صائبة لأن المكاشفة أدخلت ربما الارتباك على يورج، فعجّل خطاه مفسداً بذلك التوازن

Twitter: @ketab_n

الذي كانت تملكه حساسيته العجيبة كبصير في الظلام. فعلاً بعد ذلك بقليل سمعنا صوتاً آخر وعندما دخلنا متّبعين الصوت إلى قاعة «Y» من مجموعة **YSPANIA** رأيناه ملقى على الأرض والكتاب لا يزال بين يديه، بينما كان يحاول النهوض، ولكن مواصلاً دائماً تمزيق الصفحات كما لو كان يريد التهام فريسته بأسرع ما يمكن.

ولحقناه عندما كان قد نهض، ولما أحسّ بوجودنا وقف قُبالتنا وهو يتقهقر. وبدا لنا وجهه، تحت ضياء النُور الأحمر، وقد أصبح الآن فظيعاً: قَسَماته مشوّهة، وعرق خبيث يخدّد جبينه ووجنتيه، وعيناه اللتان كانتا في العادة بيضاوين بياض الموت أصبحتا محتقنتين بالدم، وكانت تخرج من فمه قطع من الرّق كوحش يتضوّر جوعاً أخذ لقمة كبيرة ولم يقدر على ابتلاعها. وتحوّلت تلك الصورة، وقد شوهتها اللهفة وفعل السّم الذي أصبح يسري الآن بوفرة في عروقه، وإصراره اليائس والشيطاني، من صورة شيخ وقور إلى صورة تظهر الآن شنيعة وبشعة: كان يمكن أن تبعث في حالات أخرى على الضحك ولكننا نحن أيضاً أصبحنا نشبه حيوانين، كلبين يلاحقان طريدة.

كان بإمكاننا أن نمسك به بهدوء، ولكننا ارتمينا عليه بعنف فتملّص شاداً بيديه على صدره يدافع عن الكتاب وكنت أنا أمسكه باليسرى بينما كنت أحاول باليمنى أن أبقي على السراج عالياً، ولكنني كِدْتُ ألمس وجهه بالشعلة، وأحسّ هو بالحرارة فأطلق صوتاً مخنوقاً يكاد يكون زئيراً، بينما قطع الورق تتساقط من فمه، ثم ترك الكتاب وحرك يمناه نحو السراج فانتزعه مني بضربة ورمى به إلى الأمام.

وسقط السراج فوق كومة الكتب التي سقطت من على الطاولة والتي تراكمت الواحد فوق الآخر بصفحاتها المفتوحة. وسال الزيت، واضطرمت النار حالاً في ذلك الرّق الهشّ الذي اشتعل كأنه حزمة من التّبن الجاف. حدث كل ذلك في لحظات قليلة، وانطلقت من المكتبة شعلة عظيمة، كما لو كانت تلك الصفحات الألفية تتوق منذ قرون إلى الاحتراق وتنعم بإرضاء تعطشها للحرق مرة واحدة. وتفطّن غوليالمو لخطورة ما كان يقع فترك الشيخ ـ الذي تقهقر بضع خطوات عندما

Twitter: @ketab_n

أحس بنفسه مُتحرّراً من القبضة ـ وتردّد بعض الشيء، بل كثيراً بلا ريب، دون أن يعرف إن كان ينبغي أن يمسك من جديد بالشيخ أو أن يلقي بنفسه لإطفاء تلك المحرقة الصغيرة. ولمست النار كتاباً أقدم من الكتب الأخرى فاشتعل اشتعالاً سريعاً قاذفاً إلى أعلى بلسان من اللهب. وشفرات الريح الرهيفة التي يمكنها أن تطفئ شُعَيْلة ضعيفة كانت على العكس تقوّي الشعلة الكبيرة الحيّة، بل وتخرج منها شرارات تنطلق في كلّ اتجاه.

فصاح غوليالمو: «أسرع، أطفئ تلك النار، وإلاّ سيحترق كل شيء هنا!» واندفعت نحو المحرقة، ثم توقفت لأنني لم أكن أعرف ماذا ينبغي أن أفعل. وتحرك غوليالمو نحوي، لمساعدتي. ومددنا أيدينا نحو الحريق، باحثين بعيوننا عن شيء نطفئه به، ثم خطرت لي فكرة فخلعت ثوبي ممرراً إياه من رأسي وحاولت أن أرميه على النار. ولكن اللّهب أصبح عالياً جداً، وأخذ من ثوبي وزاد اتقاداً منه. فسحبت يديّ وقد أصابهما الحرق والتفتّ نحو غوليالمو فرأيت، وراءه بالضبط يورج يقترب من جديد. كانت الحرارة قد أصبحت شديدة جداً بحيث أحس بها جيّداً وعرف بيقين تام أين كانت النار وألقى فيها بأرسطو.

فتملّك غوليالمو الغضب ودفع الشيخ بضربة عنيفة فاصطدم بخزانة ضارباً رأسه على حافتها ثم سقط على الأرض ولكن غوليالمو، الذي يبدو لي أنه تلفّظ بلعنة فظيعة، لم يحفل به وعاد إلى الكتب. ولكن فات الأوان. كان أرسطو، أو ما تبقى منه بعد فطور الشيخ، يحترق.

في الأثناء طارت بعض الشرارات نحو جوانب القاعة وكانت بعض الكتب في خزانة أخرى تلتوي على نفسها تحت قوة النار. الآن يوجد حريقان في القاعة لا حريق واحد.

فهم غوليالمو أنه لن يمكننا أن نطفئ الحريق بيدينا وقرر أن ينقذ الكتب بالكتب فأمسك بكتاب بدا له مجلداً أحسن من غيره وأكثر تماسكاً وحاول أن يستعمله كسلاح لإخماد العنصر المعادي.

ولكن بضربه الكومة من الكتب المشتعلة بالتجليد المزخرف بالمعدن لم يزد

Twitter: @ketab_n

إلا أن خلق شرارات أخرى. حاول أن يخمدها بقدميه ولكنه حصل على المفعول المعاكس، إذ تصاعدت قصاصات من الرَّقّ محترقة وطارت كالوطاويط بينما الهواء الذي تحالف مع رفيقه الهوائي، كان يبعثها لتحرق مادة الأوراق الأخرى الأرضية.

وشاء سوء الحظ أن تكون تلك إحدى القاعات في المتاهة الأكثر فوضى. كانت تتدلى من رفوف الخزانات مخطوطات مطوية، وكتب أخرى قد رثت وكانت تظهر من بين أغلفتها، ألسنة من جلد جففته السنون، كأنها تتدلّى من شفاه مفتوحة، ويبدو لي أن الطاولة كانت محمّلة جداً بكتب أهمل مَلاخي (الذي بقي وحيداً منذ أيام) أن يعيدها إلى مكانها. بحيث أن القاعة مع الكتب التي أسقطها يورج كانت تكتسحها الرقوق التي لم تكن تنتظر إلا أن تتحول إلى عنصر آخر.

في وقت وجيز أصبح ذلك المكان مرجلاً ضخماً، عَوْسَجاً مُلْتَهِباً. وحتى الخزانات أخذت نصيبها من تلك التضحية وبدأت تفرقع. وأدركت أن المتاهة بأكملها ليست إلا محرقة قربانية عظيمة، أُعدّت في انتظار أن تندلع الشرارة الأولى..

وكان غوليالمو يصيح «الماء، نحتاج إلى الماء» ثم يضيف: «أين يوجد الماء في هذا الجحيم؟»

فصحت «في المطبخ، في الأسفل، في المطبخ!» نظر إليّ غوليالمو حائراً ووجهه محمرّ من ذلك الضياء المتوهج: «صحيح ولكن قبل أن ننزل ونصعد من جديد ـ ثم صاح: إلى الشيطان. على كل حال هذه القاعة هلكت وربما المجاورة أيضاً لننزل في الحال، سأبحث عن الماء واذهب أنت لإنذار الآخرين نحتاج إلى أناس كثيرين!»

وجدنا الطريق نحو السُّلّم لأن الحريق كان يضيء القاعة الموالية أيضاً وإن كان بضعف حتى إننا كدنا نجتاز القاعتين الأَخيرتين تلمّساً. كان ضياء الليل ينير في الأسفل قاعة الكتابة بنور شاحب ومن هناك نزلنا إلى قاعة الأكل. وهرع غوليالمو إلى المطبخ، وأنا إلى قاعة الأكل التي فتحتها من الداخل بعد عناء طويل لأن الاضطراب كان يجعلني أخرق وعديم المهارة. ثم خرجت إلى الباحة وعدوت خارج قاعات النوم، ولكنني أدركت أنه لن يمكنني أن أوقظ الرُّهبان واحداً واحداً،

Twitter: @ketab_n

ولمعت في ذهني فكرة فذهبت إلى الكنيسة باحثاً عن الطريق نحو برج الجرس وما إن وصلت حتى تعلّقت بكل الحبال وأخذت أدق جرس الخطر. كنت أجذب بقوة، بينما كان حبل الجرس الأكبر، عند ارتفاعه يجذبني معه. وكانت يداي قد احترق قفاهما، بينما كانت راحتاي سليمتين فأكملت وأحرقتهما بسحبهما على الحبال إلى أن دَمِيَتا وأُجبرت على فك قبضتي.

ولكني كنت قد أحدثت صخباً كافياً، وأسرعت إلى الخارج، عندما كان أول الرُّهبان قد خرجوا من قاعات النوم، وكانت تُسمع من بعيد أصوات الخدم الذين أطلوا من عتبات بيوتهم. ولم أقدر على شرح ما حدث، لأنني لم أكن قادراً على الكلام، والكلمات الأولى التي نطقت بها شفتاي كانت في لغتي الأم. وكنت أشير بيدي الدامية إلى نوافذ الجناح الجنوبي من الصرح التي كان يتراءى من خلالها وميض غير عادي. وتفطّنت من قوة الضياء، أنه أثناء نزولي لقرع الجرس، كانت النار قد امتدت إلى قاعات أخرى. كانت كل نوافذ قسم «إفريقيا» والواجهة كلها بين تلك القاعة والبرج الشرقي تضيء ببروق متفاوتة القوة. وكنت أصيح «الماء! هاتوا الماء!».

في بداية الأمر لم يفهم أحد. لفرط تعودهم على اعتبار المكتبة مكاناً مقدساً منيعاً كان الرُّهبان لا يقدرون على تصوّر أنه يمكن أن يهددها حادث مألوف، وكأنما كانت كوخ فلاحين. والأولون الذين رفعوا أنظارهم إلى النوافذ رسموا علامة الصليب متهامسين بكلمات فزع، وفهمت أنهم كانوا يظنون أنها رؤى جديدة. فأمسكت بثيابهم وتوسلت إليهم أن يفهموا، إلى أن ترجم أحدهم شهقاتي إلى كلمات آدمية. كان نيكولا دا موريموندو الذي قال «المكتبة تحترق!» فهمست: «هو ذا»، وسقطت منهكاً على الأرض.

وأظهر نيكولا نشاطاً كبيراً، ملقياً الأوامر إلى الخدم، والنصائح إلى الرُّهبان المحيطين به، وأرسل واحداً كي يفتح أبواب الصرح الأخرى وحثّ آخرين كي يبحثوا عن سطول وأوعية من كل شكل، ووجّه الحاضرين نحو العيون وخزّانات الماء الموجودة داخل أسوار الدير. وأمر البقّارين باستعمال البغال والحمير لحمل الجرار... لو أُعطيت تلك الأوامر من قبل رجل له بعض السلطات لنفّذت في

Twitter: @ketab_n

الحال. ولكن الخدم اعتادوا على تلقي الأوامر من ريميجيو، والناسخين من مَلاخي والجميع من رئيس الدير. ولا أحد منهم كان لسوء الحظ حاضراً. وكان الرُّهبان يفتشون بأنظارهم عن رئيس الدير، بحثاً عن إشارة منه أو عن تشجيع فلا يجدونه. وكنت الوحيد الذي يعرف أنه مات أو أنه يحتضر في تلك الآونة، سجيناً في ذلك الممر الخانق والذي كان يتحوّل إلى أتون، إلى ثور فلاريس.

كان نيكولا يدفع بالبقارين إلى جهة، ولكن أحد الرُّهبان عن حسن نية كان يبعثهم إلى جهة اخرى. وفقد بعض الإخوان بطبيعة الحال هدوءهم وبعضهم لا يزال مسترخياً من النوم. وكنت أحاول أن أشرح لهم، وقد عادت إليّ القدرة على الكلام، ولكن من الضروري أن أذكّر القارىء أني كنت تقريباً عارياً، إذ ألقيت بردائي في النار، ورؤية ذلك الصبي والدامي والمسودّ الوجه من السناخ، عارياً بدون احتشام وقد أصبح بليد الذهن من البرد لم تكن بكل تأكيد توحي بالثقة.

أخيراً استطاع نيكولا أن يجرّ البعض من إخوانه وأناساً آخرين إلى المطبخ، بعد أن جعل أحدهم الدخول إليه ممكناً وفكّر آخر في جلب بعض المشاعل. ووجدنا المكان في فوضى كبيرة، وفهمت أن غوليالمو قد وضع كلّ شيء رأساً على عقب بحثاً عن الماء وعن أوعية ملائمة لجلبه.

ورأيت في ذلك الحين غوليالمو يخرج من باب قاعة الأكل، وقد احترق وجهه بعض الشيء وثيابه تدخن، وكان يحمل في يده قِدْرة كبيرة وأشفقت على تلك الصورة اليائسة للعجز. وأدركت أنه حتى ولو نجح في حمل قِدْرة من الماء إلى الطابق الثاني دون قلبها وحتى ولو فعل ذلك أكثر من مرّة فلن يكون قد وصل إلى أية نتيجة. وتذكّرت قصة القديس أغوسطينو الذي رأى صبياً كان يحاول نقل ماء البحر بملعقة: كان ذلك الصبي ملاكاً وكان يفعل ذلك سخرية من القديس الذي كان يريد النفاذ إلى أسرار الطبيعة الإلٰهية. وكما كان شأن الملاك، قال لي غوليالمو وهو مُتَّكِىءٌ إلى كفاف الباب من التعب «مستحيل. لن نقدر أبداً على إطفائه حتى مع كل رُهبان الدير. لقد هلكت المكتبة». خلافاً للملاك كان غوليالمو يبكي. فالتصقت به، ونزع هو غطاء طاولة محاولاً أن يغطيني به، ثم بقينا ننظر مهزومين إلى ما كان يجري من حولنا.

Twitter: @ketab_n

كان الجميع يتراكضون دون نظام، منهم من كان يصعد فارغ اليدين ليعترض على السُلّم من صعد مثله فارغ اليدين بدافع فضول أبله، والآن ينزل للبحث عن أوعية وآخرون أفطن كانوا يبحثون في الحال عن قُدور وطُسُوت، ولكنهم تفطّنوا من بعد إلى أنه لم يعد هناك ماء كافٍ في المطبخ، وفجأة اجتاحت القاعة الكبيرة بعض البغال محمّلة بالجرار كان البقارون يدفعونها، ثم ينزلون عنها حمولتها ويتأهبون لحمل الماء إلى فوق. لكنهم كانوا لا يعرفون الطريق للصعود إلى قاعة الكتابة. ويمضي بعض الوقت قبل أن يريهم بعض الناسخين الطريق فيصعدون ولكن يعترضهم أولئك الذين كانوا ينزلون من فوق مرتاعين. وانكسرت بعض الجرار وانسكب ماؤها على الأرض ومرّرت أيدٍ مساعفة جراراً أخرى عبر السُلّم الحلزوني. وتبعت المجموعة فوجدت نفسي في قاعة الكتابة: كان يأتي من مدخل المكتبة دخان كثيف، وآخر من حاول الوصول إلى البرج الشرقي كان خارجاً وهو يسعل وقد احمرّت عيناه، معلناً أنه لا يمكن الدخول إلى ذلك الجحيم.

عند ذلك رأيت بانشيو. كان صاعداً من الطابق السفلي، متغيّر الوجه، وهو يحمل وعاء كبيراً. وسمع ما قاله أولئك الذين خرجوا سالمين من المكتبة فقال لهم «سيبتلعكم الجحيم كلكم، أيها الجبناء» ـ والتفت كمن يبحث عن معونة ولمّا رآني صاح «أدسو، المكتبة.. المكتبة...» ـ ولم ينتظر جوابي جرى إلى أسفل السُلّم ودخل بجسارة وسط الدخان. وكانت تلك آخر مرة رأيته فيها.

ثم سمعت قرقعة متأتية من فوق. كانت تسقط من قباب قاعة الكتابة قطع من الحجارة المختلطة بالجير. وانفصل سند قبّة منحوت في شكل زهرة وكاد يسقط فوق رأسي. كانت أرضية المتاهة بصدد الانهيار.

فنزلت بسرعة إلى الطابق الأرضي ومضيت إلى الخارج. وكان بعض الخدم الحازمين قد أتوا بسلالم محاولين الوصول إلى نوافذ الطوابق العُليا ليمرّروا من خلالها الماء إلى الداخل. ولكن السلالم الأكثر طولاً كانت تصل فقط إلى نوافذ قاعة الكتابة ومن صعد إليها لم يمكنه فتحها من الخارج. وبعثوا أحداً يطلب أن تفتح من الداخل ولكن لم يجرؤ أي إنسان على الصعود.

في الأثناء كنت أنظر إلى نوافذ الطابق الثالث. لقد أصبحت المكتبة الآن

Twitter: @ketab_n

أتوناً مدخناً، وكانت النار تمرّ سريعة من قاعة إلى أخرى فاتحة طريقها عبر الآلاف والآلاف من الصفحات الجافة. وأصبحت كل النوافذ مضاءة بينما كان الدخان ينفذ من السقف: لقد وصلت النار إلى تخشيبة السقف. والصرح الذي كان يبدو قوياً ومتيناً في كل أجزائه أظهر في ذلك الظرف ضعفه، وشقوقه، وجدرانه المتآكلة حتى من الداخل، وحجارته المكشوفة التي كانت تسمح لألسنة اللهب بأن تصل إلى الهيكل الخشبي أينما كان.

وفجأة انكسر زجاج بعض النوافذ، كأن قوة داخلية ضغطت عليه، واندفعت إلى الخارج شرارات نقطت ظلام الليل بأنوار تائهة. والريح التي كانت عنيفة أصبحت أقل حدّة، وكان ذلك من سوء الحظ، لأنها لو كانت عنيفة لأطفأت ربما الشرارات، بينما الآن صارت تحملها وتزيد في هيجانها، مطيّرة معها قصاصات من الرق أصبحت من شدة ارتجافها المتوهج رقيقة جداً. وعند ذلك سمعت فرقعة: لقد خرّت أرضية المتاهة في عدّة نقاط وانهارت روافدها الملتهبة على الطابق السفلي، لأنني رأيت آنذاك ألسنة اللهب ترتفع من قاعة الكتابة، المليئة هي أيضاً بالكتب وبالخزانات وبأوراق غير متماسكة موضوعة على الطاولات، تنتظر لمسة الشرارات. وتعالت صيحات يأس من مجموعة من الناسخين نتفوا شعرهم، وهم لا يزالون يفكرون في الصعود ببطولة لإنقاذ رقوقهم الغالية. لم يُجْدِ ذلك نفعاً إذ أصبح المطبخ وقاعة الأكل ملتقى لأرواح تائهة تتحرك في كل الاتجاهات، وتعرقل إحداها الأخرى. كانوا يصطدمون أحدهم بالآخر ويسقطون، ومن كان يحمل وعاء انسكب محتواه المنقذ كما أن البغال التي دخلت إلى المطبخ أحسّت بوجود النار وسارعت إلى الخارج وهي تركل، مصطدمة بالبشر وحتى بسُوّاسها المذعورين. كان من الواضح على كل حال أن تلك المجموعة من الخدم والرجال الأتقياء والحكماء، كانت عديمة المهارة ودون قيادة، وتعرقل حتى تلك الإغاثات التي كان ربما بإمكانها أن تصل.

واجتاح الاضطراب كامل السهل. ولكن لم نكن إلا عند بداية المأساة لأن سحابة الشرارات الظافرة التي خرجت من النوافذ ومن السقف، بتشجيع من الريح، كانت تسقط في كل مكان، لامسة سطح الكنيسة. ومن لا يعرف كم من كاتدرائية

Twitter: @ketab_n

جميلة استسلمت للمسة النار: لأن دار الرب تبدو جميلة ومنيعة كالقدس السماوية، بسبب الحجارة التي تزينها وتفخمها، ولكن الحيطان والقِباب تنتصب فوق هندسة من الخشب رائعة لكنها ضعيفة، وإن كانت الكنيسة تذكّر من حيث الحجارة بالغابات الأكثر جلالة بسبب أعمدتها التي تتفرّع عالية نحو القباب، جسورة كالسنديان، فغالباً ما يكون جسمها من السنديان، كما أن أثاثها كله من الخشب، من مذابح ومحاريب ولوحات مرسومة ومصطبات ومقاعد وشمعدانات. هذا ما حدث للكنيسة الديرية ذات البوابة الرائعة التي بهرتني في اليوم الأول. فقد اشتعلت في وقت وجيز جداً. وفهم آنذاك الرُّهبان وكل أهل السهل أن حياة الدير كلها في خطر، وتسارعوا بشجاعة أكثر، وبفوضى أكبر، لمواجهة ذلك الخطر. كان الدخول إلى الكنيسة دون شك أيسر، ولذا كان الدفاع عنها أسهل من الدفاع عن المكتبة. لقد هلكت المكتبة لصعوبة منالها، وللأسرار التي كانت تحفظها، ولقلة مداخلها. أما الكنيسة، المفتوحة دائماً برحابة صدر للجميع في وقت الصلاة فقد كانت مفتوحة أيضاً في ساعة الغوث ولكن لم يعد هناك ماء أو لم يبقَ منه إلا قليل جداً وبكمية بالكاد تكفي فقط لحاجة الدير في ظروف عادية، إذ كانت العيون تجود بتقتير وبطء لا يتماشيان واستعجالية الظرف. كان بإمكان الجميع أن يطفئوا حريق الكنيسة ولكن لا أحد يعرف الآن كيف. ومن ناحية أخرى وصلتها النار من فوق حيث كان من الصعب الوصول إليها ومكافحتها أو إخمادها بالتراب والخرق. وعندما وصلت النيران إلى أسفل أصبح من العبث إلقاء التراب عليها أو الرمل إذ كان السقف بصدد الانهيار على المغيثين الذين هلك العديد منهم تحت الأنقاض.

وهكذا، إضافة إلى صيحات الحسرة على ثروات الدير التي التهمتها النيران، تعالت صيحات الألم للوجوه المحترقة والأعضاء المهشمة والأجساد التي اختفت تحت انهيار القباب الفجائي.

وأصبحت الريح من جديد عنيفة وأخذت تنشر العدوى بعنف أكبر. فاشتعلت النيران حالاً في الزريبة بعد الكنيسة والإصطبلات وقطعت الحيوانات أوثِقَتَها وخلعت الأبواب، ثم انتشرت عبر الرحبة وهي تصهل، وتخور، وتثغو، وتنخر بفظاعة. ولمست بعض الشرارات أعرف خيول عديدة فكنت ترى مخلوقات

Twitter: @ketab_n

جهنمية تجتاز الرجبة، أفراساً ملتهبة تقلب كل شيء في عدوها، دون توقف ودون هدف ورأيت أليناردو الشيخ يتجوّل تائهاً لا يعرف ماذا كان يحدث ورفسه برونيلّو الجميل المتوج بالنار ومرّغه في التراب ثم تركه شيئاً مسكيناً عديم الشكل. ولكنني لم أجد لا الطريقة ولا الوقت لإغاثته، ولا حتى للبكاء على مصيره، لأن مشاهد من ذلك القبيل كانت تقع في كل مكان من السّهل.

وحملت الخيول المشتعلة النار إلى حيث لم تحملها الريح: الآن أصبحت المَعاملُ ودارُ الرُّهبان المُبتدئين تشتعل. بينما جماعات من الأشخاص كانت تجري من طرف السهل إلى طرفه الآخر، دون هدف أو بأهداف وهمية. رأيت نيكولا مجروح الرأس ممزّق الثياب، جاثياً على ركبتيه مهزوماً في شارع المدخل، يلعن اللعنة الإلٰهية. ورأيت باتشيفكو دا تيفولي، الذي عدل عن كل فكرة إغاثة وهو يحاول أن يمسك ببغل جموح أثناء مروره بالقرب منه ولمّا نجح في ذلك صاح بي أن أفعل الشيء نفسه وأن أهرب، لأنجو من تلك الصورة المشوّهة للأرماجدّون.

تساءلت عندئذٍ أين يمكن أن يكون غوليالمو، وخفت أن يكون بقي تحت الأنقاض. بعد بحث طويل وجدته قرب الرُّواق. كان يحمل جرابه في يده: عندما وصلت النار إلى دار الضيافة صعد إلى حجرته لإنقاذ حوائجه النفيسة على الأقل وأخذ معه أيضاً جرابي الذي وجدت فيه شيئاً ألبسه ثم توقفنا ونحن نلهث لنشاهد ما كان يحدث من حولنا.

لم يعد هناك أي أمل في إنقاذ الدير. فقد وصلت النيران إلى كل بناءاته وما بقي سالماً منها لن ينجو طويلاً. لأن كل شيء الآن، من العناصر الطبيعية إلى عمل المغيثين الفوضوي، كان يعين على انتشار الحريق. ولم تسلم إلا الفضاءات الخالية من البناءات: المبقلة والحديقة أمام الرُّواق... لم يعد هناك ما يمكن القيام به لإنقاذ البناءات ولكن يكفي العدول عن فكرة إنقاذها والبقاء في فضاء مكشوف لمشاهدة كل شيء دون التعرض للخطر.

وبقينا ننظر إلى الكنيسة وهي تحترق ببطء، لأنه من خاصيّات تلك البناءات العظيمة أن تشتعل بسرعة في أجزائها الخشبية ثم تحتضر ساعات وساعات وأحياناً

Twitter: @ketab_n

أيّاماً، أمّا الصرح فقد كان يشتعل بطريقة مُختلفة. هناك توجد مواد أكثر قابلية للاحتراق، والنار التي كانت قد اجتاحت قاعة الكتابة أخذت تلتهم الآن طابق المطبخ. أمّا الطابق الثالث حيث كانت توجد فيما مضى، ولقرون طويلة، المتاهة فقد تحطّم بأكمله.

قال غوليالمو: «كانت أعظم مكتبات العالم المسيحي - ثم أضاف - الآن أصبح المسيح الدجّال حقيقة تقريباً. لأنه لن يكون هناك أي علم يقف ضدّه. ومن جهة أخرى، قد رأينا وجهه هذه الليلة».

فسألته مُنْدَهِشاً «وجه من؟»

- «أتكلم عن يورج. في ذلك الوجه الحاقد على الفلسفة رأيت لأول مرة صورة الدجّال، الذي لا يأتي من قبيلة يهوذا كما كان يقول من أنبأوا به، ولا من بلاد بعيدة. يمكن أن يولد الدجّال حتى من التقوى، من فرط محبة اللّه أو الحقيقة، كما يتولّد الهرطيق من القدّيس والممسوس من العرّاف. احترس، يا أدسو من الأنبياء، ومن أولئك المُسْتَعدين للموت من أجل الحقيقة لأنهم يجرّون معهم عادة إلى الموت كثيرين آخرين، يموتون غالباً قبلهم وأحياناً عوضاً عنهم. لقد قام يورج بعمل شيطاني لأنه كان يحب الحقيقة التي كان يؤمن بها حبّاً شبقياً حتى إنه كان مستعداً لكلّ شيء قصد تحطيم ما كان يعتبره بهتاناً. كان يورج يخشى الكتاب الثاني لأرسطو، ربما لأنه كان يعلّمنا كيف نمسخ وجه كل حقيقة، حتى لا نصبح عبيد أوهامنا. ربما كان واجب من يريد الخير للبشرية هو أن يجعلها تضحك من الحقيقة «أن تُضحِك الحقيقة» لأن الحقيقة الوحيدة هي أن نتعلم كيف نتحرر من شغفنا المُنْحَرِف بالحقيقة».

فحاولت معارضته مكروباً: «ولكن، يا أستاذي، أنت تتكلّم هكذا لأنك مجروح في أعماق دخيلتك. ولكن هناك حقيقة... تلك التي اكتشفتها هذا المساء، تلك التي وصلت إليها مفسّراً الآثار التي قرأتها في الأيام الفارطة. لقد انتصر يورج، ولكنك غلبت يورج لأنك كشفت مكيدته».

فقال غوليالمو: «لم تكن هناك مكيدة، وأنا اكتشفتها بمحض الصدفة».

Twitter: @ketab_n

كان التأكيد يناقض نفسه، ولم أفهم إن كان غوليالمو يريده حقيقة كذلك فقلت: «ولكن كان صحيحاً أن أدالمو انتحر، كان صحيحاً أن فينانتسيو لم يغرق في الجرّة، كان صحيحاً أن المتاهة كانت منظمة بحسب ما كنت تتصوّرها أنت، كان صحيحاً أن الدخول إلى «أقصى إفريقيا» يكون بلمس «Quatuor»، كان صحيحاً أنّ الكتاب الغامض هو لأرسطو... ويمكنني أن أواصل تعداد الأشياء الحقيقية التي اكتشفتها مستعيناً بعلمك...»

ـ «لم أشك قط في حقيقة العلامات، يا أدسو إنها الشيء الوحيد الذي يملكه الإنسان كي يجد وجهته في العالم. ما لم أفهمه هو العلاقة بين العلامات. لقد وصلت إلى يورج من خلال رسم رؤيوي كان يبدو أنه يتحكم في كل الجرائم، واكتشفنا أن كل جريمة كانت في نهاية الأمر تملك فاعلاً مُختلفاً أو لا تملك فاعلاً بالمرّة. ووصلت إلى يورج متّبعاً رسم فكر مُنحرف وبُرهاني، ولم يكن هناك أي رسم أو بالأحرى سقط يورج نفسه ضحية رسمه الأوّلي، وبعد ذلك بدأت سلسلة من الأسباب، والأسباب المتلازمة، والأسباب المتناقضة، وواصلت وحدها محدثة علاقات لا تستجيب لأي رسم. أين هي كل حكمتي؟ لقد تصرّفت كما يتصرّف رجل عنيد متّبعاً شبح نظام بينما كان ينبغي أن أعرف أنه لا يوجد نظام في الكون».

ـ «ولكن بتصوّرك أنظمة خاطئة وصلت مع ذلك إلى نتيجة..»

ـ «لقد قلت شيئاً جميلاً يا أدسو، أشكرك. إنّ النظام الذي يتصوّره ذهننا هو كالشبكة أو كالسُّلَّم، الذي يُصنع للوصول إلى غاية. ولكن ينبغي بعد ذلك الإلقاء بالسلّم، لأننا نكتشف أنه حتى وإن كان ذا نفع، فهو خالٍ من كلّ معنى:

Er muoz gelîchesame die leiter abewerfen, sô er an ir ufgestigen ist...

أهكذا يقال؟»

ـ «هكذا يعبَّر عنه في لغتي. من قال ذلك؟»

ـ «متصوّف من بلادك، لقد كتب ذلك، لا أذكر أين. وليس حتى ضرورياً

Twitter: @ketab_n

أن يجد أحدٌ يوماً ما ذلك المخطوط: الحقائق الوحيدة الصالحة أدوات ينبغي الإلقاء بها بعد استعمالها».

ـ «ليس عليك أن تلوم نفسك، لقد فعلت ما في وسعك».

ـ «ما في وسع البشر، وهو شيء قليل. من الصعب أن يقبل الإنسان فكرة انعدام وجود نظام في الكون، لأنها تخطئ في حق حرية إرادة الربّ اللامتناهية. وهكذا حرية الرب هي عقابنا، أو على الأقل عقاب غرورنا».

وجازفت للمرة الأولى والأخيرة في حياتي باستنتاج خُلاصة لاهوتية: «ولكن كيف يمكن أن يوجد كائن واجب الوجود مكوّن كليّاً من الممكن؟ ما الفارق إذن بين الربّ والفوضى البدئية؟ ألا يعني إثبات قدرة الربّ المطلقة وحريته المطلقة إزاء اختياراته نفسها، إثبات أن الربّ غير موجود؟»

فنظر إليّ غوليالمو بوجه لا ينمّ عن أدنى تعبير وقال: «كيف يمكن لعالِم أن يواصل تبليغ معرفته إن أجاب بالإيجاب على سؤالك؟»

ولم أفهم معنى كلماته فسألته: «تريد أن تقول إنه لن تكون هناك معرفة ممكنة وممكن تبليغها إن أعوزنا معيار الحقيقة نفسه، أو إنه لا يمكنك أن تبلّغ ما تعرف لأن الآخرين لن يسمحوا لك بذلك؟»

في تلك اللحظة انهار جزء من سقف قاعات النوم محدثاً فرقعة عظيمة ونافخاً نحو السماء بسحابة من الشرارات. ومرّت بجانبنا مجموعة من النعاج والماعز، التي كانت تائهة في الساحة وهي تطلق ثُغاءً فظيعاً. ومرّ بجانبنا جمع من الخدم وهم يصيحون وكادوا يدوسوننا. فقال غوليالمو: «توجد فَوْضَى كبيرة هنا، الربّ لا يوجد في اضطراب الروح».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ورقة أخيرة

بقي الدير يحترق لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ولم تُجْدِ نفعاً المجهودات الأخيرة لإنقاذه. منذ صبيحة اليوم السابع من إقامتنا في ذلك المكان، عندما فهم كل الذين بقوا على قيد الحياة أنه لم يعد بالإمكان إنقاذ أي مبنى، عندما انهارت الأسوار الخارجية للبناءات الأكثر روعة، وابتلعت الكنيسة برجها في انطوائها على نفسها، عندئذٍ أعوزت الجميع القوة لمكافحة العقاب الإلٰهي. وضعف حماس البحث عن السطول القليلة من الماء، بينما كانت قاعة المجلس تحترق ببطء مع إقامة رئيس الدير الرائعة. وعندما وصلت النار إلى أقصى حدود المعامل كان الخدم قد أنقذوا منذ وقت طويل ما أمكنهم من الأمتعة وفضلوا أن يجوبوا الربوة على الأقل لاسترجاع البعض من الحيوانات التي هربت خارج الأسوار أثناء فوضى تلك الليلة.

ورأيت بعض الخدم يتوغلونِ داخل ما تبقى من الكنيسة. وخمَّنت أنهم كانوا ربما يحاولون الدخول إلى قبو الكنز لنهب بعض النفائس قبل الهرب من ذلك المكان. ولا أدري إن نجحوا في مرادهم أم أن قبو الكنز انهار وجرف معه إلى أعماق الأرض أولئك اللئام الذين كانوا يحاولون الوصول إليه.

وفي الأثناء كان يصعد أناس من القرى لمدّ يد المعونة أو لمحاولة الحصول هم أيضاً على شيء من الغنيمة. وأكثر الموتى بقوا بين الأنقاض التي كانت لا تزال ملتهبة. وفي اليوم الثالث بعد أن أُسعف الجرحى ودُفنت الجثث التي لم تكن تحت الأنقاض جمع الرُّهبان وكل الآخرين أمتعتهم وتركوا السّهل الذي كان لا يزال يتصاعد منه الدخان، كأنه مكان ملعون. ولا أدري إلى أين ذهبوا.

وغادرت أنا وغوليالمو ذلك المكان فوق مطيّتين وجدناهما تائهتين في الغابة، واعتبرناهما «دُونَ مالكٍ». واتجهنا نحو الشرق، وعندما وصلنا من جديد

Twitter: @ketab_n

إلى بوبيو سمعنا أخباراً أخرى عن الإمبراطور. عند وصوله إلى روما تَوَّجَهُ الشعب إمبراطوراً. وهكذا أصبحت كل مصالحة مع جيوفاني مستحيلة، فعُيّن نيكولا الخامس بابا مضاداً. وعيّن مارسيليو نائباً روحانياً لروما، ولكن كانت تقع في تلك المدينة، ولا أدري إن كان بسبب خطئه أو بسبب ضعفه، أشياء يؤسفني كثيراً روايتها. فقد عُذّب الكهنة المخلصون للبابا الذين كانوا يرفضون إقامة القداس، ورُمي برئيس دير أوغوستينيانيّ في حُفرة الأسُود بكامبيدوليو. وأدان مارسيليو وجيوفاني دا جياندونو البابا جيوفاني على أنه هرطيق وحكم عليه لودوفيكو بالموت. ولكن الإمبراطور كان يُسِيء الحكم، ويجلب لنفسه عداوة أسياد تلك الجهات، ويسلب الأموال من خزينة الدولة. وبينما كانت تصلنا تلك الأخبار كنا نحن نؤخّر نزولنا نحو روما، وفهمت أن غوليالمو كان لا يريد أن يكون شاهداً على أحداث تخيّب آماله.

وعندما وصلنا إلى بومبوزا سمعنا أن روما ثارت على لودوفيكو، الذي صعد نحو بيزا. بينما كان نواب جيوفاني الرسوليون يدخلون ظافرين إلى المدينة البابوية. في الأثناء تفطّن ميكيلي دا تشيزينا إلى أن وجوده في أفينيون كان لا يؤدي إلى أية نتيجة بل بالعكس أصبح يخشى على حياته، وفرّ ملتحقاً بلودوفيكو في بيزا. وكان الإمبراطور قد فقد أثناء ذلك موالاة كاستروتشيو سيّد لوكّا، الذي مات.

وباختصار، تكهنّا بما ستكون عليه الأحداث وعرفنا أن البافاري سيذهب إلى موناكو فعكسنا الاتجاه وقررنا أن نسبقه إلى هناك لأن غوليالمو كان يحس من جهة أخرى أن إيطاليا أصبحت غير آمنة بالنسبة إليه. في الأشهر وفي السنوات الموالية رأى لودوفيكو تحالف الأسياد الجيبيليين يتفكك، وفي العام اللاحق أُجبر البابا المضادّ على الاستسلام، ومَثُلَ أمام جيوفاني وفي رقبته حبل.

عندما وصلنا إلى موناكو دي بافييرا كان عليّ أن أفارق أستاذي الطيّب وسالت دموعي غزيرة. كان مصيره غير مأمون وفضّل أهلي أن أعود إلى «مالك». منذ تلك الليلة المفجعة التي صرّح لي فيها غوليالمو أمام أنقاض الدير بخيبة أمله، لم نتطرق بالحديث إلى تلك الأحداث، كما لو كان بيننا اتفاق ضمني، ولا حتى لمّحنا إليها أثناء وداعنا المؤلم.

Twitter: @ketab_n

وأسدى لي أستاذي نصائح كثيرة صالحة لدراستي المقبلة وأهداني العدستين اللتين صنعهما نيكولا بما أنه استرجع عدستيه. وقال إنني لا أزال شاباً ولكنهما ستنفعاني يوماً (وفعلاً أنا أحملهما فوق أنفي وأنا أكتب هذه السطور) ثم ضمّني إليه بقوة، وبحنان الأب العطوف، وأذن لي بالذهاب.

ولم أرَه بعد ذلك. علمت بعد زمن طويل أنه مات أثناء الوباء الكبير الذي اجتاح أوروبا في أواسط هذا القرن. وأسأل اللّه دائماً أن يتقبل روحه وأن يغفر له أفعال الغرور المثيرة التي ارتكبها نظراً لكبرياء فكره.

بعد سنوات، وقد أصبحت رجلاً ناضجاً، أتيح لي أن أقوم برحلة إلى إيطاليا بتكليف من رئيس ديري. وعلى طريق العودة كانت الرغبة أقوى مني فعرَّجتُ تعريجةً طويلةً لزيارة ما تبقى من الدير.

وجدت القريتين في أسفل الجبل مهجورتين والأراضي من حولهما بوراً. صعدت إلى المرتفع فتجلّى لعينيّ اللتين بللهما الدمع مشهد خراب وموت.

لم يتبقَّ من تلك البناءات العظيمة والرائعة التي كانت تُزيّن ذلك المكان إلاّ بقايا متناثرة، كمعالم الوثنيين القدامى في مدينة روما. كانت الكَفْنَة قد غطّت أجزاء من جدران وأعمدة أو بعض سنادات قليلة بقيت سالمة. واجتاحت الحشائش الطفيلية كل أرجاء السهل، حتى إنه أصبح غير ممكن التعرّف على ما كان سابقاً مكان المبقلة والحديقة. كان يمكن التعرف فقط على مكان المقبرة، لأن بعض القبور لا تزال بارزة فوق الأرض. وكانت علامة الحياة الوحيدة طيوراً جوارح تطير عالية في السماء تصيد عظايا وثعابين كانت تختفي بين الأحجار أو تسري على الجدران. ولم يتبقَّ من بوابة الكنيسة إلا آثار قليلة نخرتها العفونة. وبقي النصف من لوحة الجبهة ورأيت فيه العين اليسرى للمسيح الجالس على العرش وقد وسّعتها تقلّبات الجو وأوهنها الحزاز، كما رأيت قليلاً من وجه الأسد.

وما عدا السور الجنوبي الذي انهار، كان الصّرح لا يزال منتصباً يتحدّى الزمن. كان البرجان الخارجيان اللذان يشرفان على الهاوية يظهران سليمين، أو يكادان. ولكن النوافذ في كلّ مكان من الصرح كانت كالمحاجر الخاوية تسكب

Twitter: @ketab_n

دموعاً لزجة من نباتات مُتَسَلِّقة ومُتَعَفِّنَة، وفي الداخل اختلط العمل الفني المدمّر بعمل الطبيعة، ومن المطبخ على امتداد واسع كانت العين ترى السماء من خلال تمزيقة الطوابق العُليا والسقف الذي هوى كما تهوي الملائكة. وما لم يكن أخضر من الطحلب كان أسود من دخان مضت عليه عشرات السنين.

ووجدت وأنا أفتش بين الخرائب قصاصات من الرق، سقطت من قاعة الكتابة ومن المكتبة، وبقيت كالكنز المدفون في الأرض. وأخذت في جمعها كما لو كنت أريد إعادة تركيب كتاب. وتفطّنت إلى أنه من أحد الأبراج كان لا يزال يصعد سلّم حلزوني، كامل وإن كان غير ثابت، إلى قاعة الكتابة، ومن هناك يمكن الوصول إلى مستوى المكتبة بتسلّق جانب من الأنقاض: ولم تكن إلا رواقاً يلامس الأسوار الخارجية ويشرف من كل جوانبه على الفراغ.

ووجدت على طول جانب من السور خزانة كانت لا تزال واقفة بمعجزة حذو الحائط، ولا أدري كيف نجت من النار، وقد عفّنتها المياه والحشرات. كانت لا تزال توجد بداخلها بعض الأوراق. وبعض المزق الأخرى وجدتها وأنا أبحث بين الأنقاض. كان حصادي ضئيلاً، ولكني قضيت يوماً كاملاً وأنا أجمعه، كما لو كنت أنتظر أن تصلني رسالة من تلك الأعضاء الممزقة التي بقيت من المكتبة. وكانت بعض قطع الرق قد فقدت لونها، وأخرى كانت لا تزال تظهر ظلّ صورة. وأحياناً شبح كلمة أو كلمات عديدة. ووجدت أحياناً أوراقاً كانت لا تزال تُقرأ عليها جمل كاملة، وكنت أعثر بسهولة أكثر على تجليدات لا تزال سالمة، قد حفظتها زخرفتها المعدنية... كانت أشباح كُتُب، تبدو كاملة من الخارج ولكنها من الداخل اندثرت، أو نجا منها في بعض الأحيان نصف ورقة، أو كان يظهر منها مستهلها، أو عنوانها...

وجمعت كل البقايا التي أمكنني أن أعثر عليها، وملأت منها جرابين ملقياً بأشياء ربّما كانت أكثر نفعاً، لإنقاذ ذلك الكنز الحقير.

وقضيت ساعات طويلة أثناء سفر العودة ثم في «مالك» وأنا أحاول قراءة تلك الآثار. وغالباً ما تعرّفت من خلال كلمة أو صورة بقيت واضحة، على

Twitter: @ketab_n

الكتاب. وعندما تسنى لي من بعد أن أعثر على نسخ أخرى لتلك الكتب قرأتها بشغف، كما لو أن القدر ترك لي تلك الوصية، أو أن العثور على النسخة التالفة كان علامة واضحة من السماء تقول لي «خذ واقرأ».

وبعد أن أعدت تركيب تلك القطع بصبر بدت لي في الآخر مكتبة مصغَّرة، أثراً من تلك الكبيرة المندثرة، مكتبة مُتكوِّنة من فقرات واستشهادات وجمل غير كاملة وجدعات من كتب.

وكلما أعدت قراءة تلك القائمة اقتنعت بأنها نتيجة الصدفة ولا تحمل أية رسالة. ولكن تلك الصفحات المنقوصة صاحبتني في الحياة التي بقي لي أن أعيشها منذ ذلك الحين، وغالباً ما استشرتها كأنها وسيط وحي، ويكاد يتهيأ لي أن ما كتبته على هذه الأوراق التي ستقرأها، يا قارئي المجهول، لم يكن إلا تضميناً، أو قصيدة مجازية أو تطريزاً ضخماً لا يقول أو لا يعيد إلا ما كانت توحي به تلك القصاصات، ولم أعد أدري إن كنت أنا تحدثت عنها إلى حد الآن أو أنها تحدثت على لساني. ولكن في كلتا الحالتين، كلما قرأت على نفسي القصة التي تولّدت منها، قلّ اقتناعي بأن فيها حبكة تتعدى التسلسل الطبيعي للأحداث وللأزمنة التي كانت تصل بينها. وإنه لمن الصعب، على هذا الراهب المسن الذي يقف على عتبة الموت، أن لا يعرف إن كانت الرسالة التي كتبها تحمل معنى خفياً أو أكثر من معنى أو معاني متعدّدة، أو أنها عديمة المعنى.

ولعلّ عجزي عن الرؤية مُتَأَتٍّ من الظل الذي ترميه العتمة الكبرى الوشيكة على هذا العالم الهرم. أين أنت من مجدك يا بابل؟ أين ثلج أزمنة مضت؟ الأرض ترقص رقصة «ماكابري» ويبدو لي أن الدانوب تعبره زوارق محمّلة بمجانين يذهبون نحو أماكن غامضة.

لم يبقَ لي إلا أن أصمت «ما أجمل العُزْلة والصمت ومناجاة الربّ ما أحلاها وأعذبها!» بعد قليل سألتحق ببدئي، وما عدت أؤمن أنه رب العزّة الذي كان رؤساء أديرة نظامي يتحدثون عنه، أو أنه ربّ البهجة كما كان يظنه الفرانشسكانيّون في ذلك الوقت، أو حتى ربّ الرّحمة. Gott ist ein lauter

Twitter: @ketab_n

Nichts, ihn rührt kein Nun noch Hier...(*) سأتوغّل عمّا قريب في هذه الصحراء الشاسعة المنبسطة تماماً واللامتناهية، حيث يستسلم القلب التقي حقيقة للطوبى. سأهوي في الظلمة الإلٰهية، في صمت عميق وفي وصال لا يُوصف، وفي ذلك السقوط سيُمحى كل تساوٍ وكل تباين، وفي تلك الهوة ستفقد روحي ذاتها، ولن تعرف التساوي ولا التباين ولا أي شيء آخر: وستنسى كل الفوارق، سأكون في الأسّ المجرد وفي الصحراء الصامتة التي لم يُرَ فيها قط اختلاف وفي الجوهر الذي لا يجد فيه أحد نفسه في مكانه. سأسقط في الألوهية الصامتة واللامسكونة حيث لا عمل ولا صورة.

قاعة الكتابة باردة وإبهامي يؤلمني. أترك هذه الكتابة، لا أدري لمن، ولم أعد أدري حول ماذا: «كانت الوردة اسماً، ونحن لا نملك إلاّ الأسماء».

(*) الرب ليس إلا عدماً لا تشوّشه ظروف الزمان ولا ظروف المكان.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

مقدّمة 5

مخطوط، بطبيعة الحال 25

تمهيد 33

اليوم الأول 43

أولى 43

ثالثة 50

سادسة 65

حوالى تاسعة 95

بعد تاسعة 102

صلاة السّتار 117

صلاة النّوم 127

اليوم الثّاني 133

صلاة أول الصّبح 133

أولى 143

ثالثَة 155

سادسة 172

تاسعة 178

Twitter: @ketab_n

بَعد صلاة السّتار 194
صَلاة النَّوم 199
لَيلاً 209

اليوم الثالث 221

من صلاة الحمد إلى أولى 221
ثالثة 223
سادسة 227
تاسعة 237
صلاة السّتار 254
بعد صَلاة النّوم 267
لَيلاً 302

اليَوم الرّابع 309

صلاة الحَمد 309
أولى 318
ثالثة 330
سادسة 341
تاسعة 355
صلاة السّتار 358
صلاة النوم 362
بعد صلاة النّوم 365
لَيلاً 385

اليوم الخامس 393

أولى 393
ثالثة 409
سادسة 419

Twitter: @ketab_n

تاسعة 432
صلاة السّتار 456
صلاة النّوم 463
اليوم السّادس 475
صلاة أوّل الصّبح 475
صلاة الحمد 481
أولى 484
ثالثة 493
بعد ثالثة 505
سادسة 509
تاسعة 515
بين صلاة السّتار وصلاة النوم 525
بعْد صَلاة النّوم 528
اليوم السَّابع 533
ليلاً 533
ليلاً 551
ورقة أخيرة 567

Twitter: @ketab_n

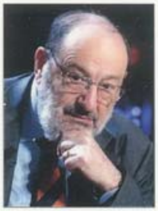

أُمبَرْتو إيكو

وُلد أُمبَرْتو إيكو في أليسّاندريا بإيطاليا سنة 1932. وهو فيلسوف وسيميائي وناقد وروائي وقدم إسهامات مهمة في هذه المجالات، ورئيس المدرسة العُليا للدراسات الإنسانية في جامعة بولونيا.

من بين مؤلفاته الروائية نذكر:

بندول فوكو (1988)؛ **جزيرة اليوم السابق** (1994)؛ **باودولينو** (2000)؛ **الشعلة الخفيّة للملكة لوانا** (2004)؛ **مقبرة براغ** (2010).

من بين مؤلفاته العلمية:

السيميائية وفلسفة اللغة (1984)؛ **حدود التأويل** (1990)؛ **البحث عن اللغة الكاملة** (1993)؛ **ستّ رحلات في غاب السرديّة** (1994)؛ **كانط وخلد الماء** (1997)؛ **حول الأدب** (2002)؛ **قول الشيء نفسه أو يكاد. تجارب في الترجمة** (2003).

من بين مجموعاته:

دفاتر صغرى (1963)؛ **الدفاتر الصغرى الثانية** (1990)؛ **خمس دراسات أخلاقية** (1997)؛ **رسائل مينارفا** (2000).

من بين مؤلفاته الأخيرة:

مشية السرطان؛ حروب ساخنة وشعبويّة إعلامية (2006). ولقد أشرف على الكتابيْن المصوّريْن **تاريخ الجمال** (2004)؛ **تاريخ القبح** (2007)؛ **مقبرة براغ** (2010).

و اليوم يعكف الأستاذ أحمد الصمعي على ترجمة كتاب أُمبَرْتو إيكو الجديد والمسمّى **من الشجرة إلى المتاهة: دراسات في تاريخ العلامة والتأويل**، والصادر في دار بومبياني 2007 لصالح دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.

Twitter: @ketab_n

أحمد الصمعي

أُستاذ اللغة والأدب الإيطالي المعاصر في الجامعة التونسيّة. إلى جانب إسهاماته في مجال اللغة الإيطالية (4 مؤلّفات في تدريس اللغة الإيطالية بين 1995 و2000)، وفي تاريخ العلاقات التونسية الإيطالية (بيبليوغرافيا إيطالية حول تونس، 1998)؛ إضافة إلى العديد من المقالات في الأدب والحضارة الإيطالية.

ترجم من الأدب الإيطالي:

- إيطلو كلفينو، **خرافات إيطالية**، فنزي، تونس، 1988.
- جيوزيبي بونافيري، **خياط الشارع الطويل**، فنزي، تونس، 1998.
- أُمبَرْتو إيكو، **جزيرة اليوم السابق**، أويا، طرابلس، 2000.
- أُمبَرْتو إيكو، **السيميائية وفلسفة اللغة**، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005.
- نيكولو أمّانيتي، **أنا لا أخاف**، المركز الوطني للترجمة، تونس، كانون الأول/ ديسمبر 2008.

كما ترجم مؤلفات عديدة من الإيطالية إلى العربية ذات طابع علمي و تاريخي منها:

- سارجيو دونادوني، **مصر في الألفية الأولى ق.م**، أليف، تونس، 2004.
- برونو داغوستينو، **الأترسكيّون**، أليف، تونس، 2004.
- باولو سكارنيكيا، **الموسيقى الشعبيّة والموسيقى الراقية**، أليف، 2004.
- كرمال كسّار، **في معنى الشرف**، أليف، 2004.

Twitter: @ketab_n

اسم الوردة

Il nome della rosa

"الكتاب الأكثر ذكاء – والأكثر متعة – في هذه السنوات الأخيرة"

لارس غوستافسون، **Der Spiegel**

"الكتاب هو من الثراء بحيث يمكّن من كلّ مستويات القراءة... إيكو، برافو مرّة أخرى!"

روبار ماجيوري، **Libération**

"براعة وسخرية. لقد تعلّم إيكو في أفضل المدارس"

ريشار إيلمان، **The New York Review of Books**

"هو بالذات ذلك النوع من الكتب الذي، لو كنت مليونيراً، لأوصيْت به على قياسي"

بونش

"حين دخل بسكارفيل وأدسو إلى القاعة المغلقة بعد أن دقّت الساعة منتصف الليل وقيلت الكلمة الأخيرة في الفصل شعرتُ، وإن كان ذلك بعيداً عن موضة اليوم، برعدة خصوصيّة في القلب"

نيكولاس شريمبتون، **The Sunday Times**

"استطاع أن يكتب كتاباً يُقرأ بنفَس واحد، مشوّق، مضحك، غير مُنتظر..."

ماريو فوسكو، **Le Monde**

"هو نوع من الكتب يغيّر من أنفسنا، ويعوّض واقعنا بواقعه... ويقدّم لنا عالماً جديداً على غرار رابليه، سرفانتس، ستارن، ملفيل، دوستويفسكي، وجويس نفسه وغارسيا ماركيز"

كينّات أتكيتي، **Los Angeles Times**

"إنّي أبتهجُ ويبتهج معي عالَم الآداب جميعه أن يُصبح كتاباً ناجحاً رغم أنف التكهّنات التحكّمية، وأن يحتلّ عمل أدبيّ متميّز مكان التفاهات... الجودة العالية والنجاح لا ينفي أحدهما الآخر"

أنطوني بورخس، **The Observer**

ISBN 9959-29-480-7

9 789959 294807

موضوع الكتاب رواية

دار المدار الإسلامي توزيع حصري

موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com